لوتسكي

تاريخ الأقطار العربية الحديث





اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي
معهد الاستشراق

لوتسكي

تاريخ الأقطار العربية الحديث



١٩٨٥

ЛУЦКИЙ В. Б.
НОВАЯ ИСТОРИЯ АРАБСКИХ СТРАН
На арабском языке

اعد الطبعة الروسية للنشر وحررها ايفانوف
ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني
مراجعة يوري روشين

دار الفارابي – ص.ب. : ٣١٨١ – بيروت

الطبعة السابعة حزيران ١٩٨٠
الطبعة الثامنة ١٩٨٥

مقدمــة

ان «تاريخ الاقطار العربية الحديث» هو طبعة صدرت بعد وفــاة المؤرخ المستعــرب فلاديمير بوريسوفيتش لــوتسكى (١٩٠٦ ــ ١٩٦٢) الذى هو اكبر اختصاصى سوفييتى فى مجال تاريخ البلاد العربية الحديث والمعاصر .

وان نتاج لوتسكى هذا هــو اول تجربة فى الادب الروسى والسوفييتى تستعرض بصورة منتظمة تأريــخ العرب فى العصر الحديث (القرن التاســع عشر ومطلــع القرن العشرين) . ومنذ الثلاثينيات شرع لوتسكى فى تدوين تاريخ الاقطار العربية الحديث والمعاصر كفرع مستقل قائم بذاته . وكان من العلماء الذين ينكبون على عملهــم ويهبون انفسهــم له ويسيرون بجرأة فى سبــل غير مطروقة من ذى قبــل . وهو يعتبر بحق مؤسس المدرســة السوفييتية للمؤرخين المستعربين . ففى نتاجاتــه ومحاضراتــه الجامعية قدم تأريخ الاقطار العربية الحديث لاول مرة كمادة بحث مستقلة قائمة بذاتها .

وحتى ثورة اكتوبر لم تكن الدراسات الشرقية الكلاسيكيــة فى روسيا قد تناولت تأريــخ العرب فى العصر الحديث . كما لم يتناول الصحفيون والدبلوماسيون والعسكريون فى كتبهم ومقالاتهم تأريخ العرب الا فيما يتعلق بالقضية الشرقيــة او بالسياســة الكولونيالية التى انتهجتها الدول الاوربية الكبيرة . وحتى مؤلفات كبيرة ككتاب بازيلى (بالروسية) : «سوريــا وفلسطين تحت الحكم التركى» وكتاب «العراق العربى وولاية البصرة ماضيهمــا

وحاضرهما» للمؤلف ادموف (بالروسية) ، ليسا الا بحوثا تاريخية لبعض البلاد العربية ، وذلك رغم كل ما يمثلاه من اهمية في تاريخ العلوم الروسية .

وفي العهد السوفييتي نشرت مقالات وابحاث عديدة مكرسة لهذه المشكلة او تلك من مشاكل تأريخ الاقطار العربية الحديث وخاصة مصر وسوريا والسودان والجزيرة العربية . الا ان هذه المقالات والابحاث لم تضع نصب اعينها مهمة تدوين تأريخ العرب بصورة متلاحمة ومنتظمة في القرن التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين . كما لم تعط عرضا عاما لتأريخ وتطور العالم العربي ومحله ودوره في تأريخ العصر الحديث .

وان انعدام التقاليد التاريخية العلمية الروسية والضيق النسبي للقاعدة الادبية ، واخيرا مجرد عدم دراسة الكثير من القضايا الرئيسية الخاصة بتاريخ الاقطار العربية الحديث لا في الادب الروسي فحسب بل وفي الاداب الاجنبية الاخرى ايضا ، كل هذه العوامل لم يكن من الممكن الا تترك اثرها على كتاب لوتسكي ، فليست جميع فصوله قد بحثت بحثا مستفيضا . ومثلا لا يوجد في كتابه قسم عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي المغربي ، الذي ما زال حتى الوقت الحاضر صفحة غير مكتوبة في علم تاريخ العالم . وفي حالات اخرى لا يذكر لوتسكي سوى معالم ولمحات عامة جدا هي احوج ما تكون الى المزيد من الدراسة والتمحيص . الا ان كل هذا لا يقلل من اهمية كتابه كتجربة اولى لتنسيق وتعميم تاريخ الاقطار العربية في العصر الحديث .

وقد كتب لوتسكي مؤلفه منطلقا من مواقع وجهة النظر الماركسية اللينينية . انه انطلق من رغبته في رؤية التاريخ الحديث للبلاد العربية في ضوء تعاليم ماركس ، انجلس ولينين . وكان يؤمن تماما بانتصار المبادئ الشيوعية في حل القضايا الوطنية والكولونيالية ، وفي الطاقة الثورية والابداع الجماهيري . وهو ينتقد في كتابه بحدة السياسة الكولونيالية التي تنتهجها الدول الاوربية ويعتبر وجودها في الشرق كشر مطلق .

وان كتاب لوتسكى لزاخر بمشاعر التعاطف الحار والفياض مع شعوب الاقطار العربية وكفاحهـا من اجـل التحرر الوطنى والتخلص من ربقة الباشوات الاتراك والمستعمرين الاوربيين . وان لوتسكى يتعاطف بعمق مع المكافحين ضد الاضطهاد الاجنبى ومع جميع اولئك الذين يذودون عن استقلال اوطانهم وهم شاهرو السلاح . وهو يؤمن ايمانا راسخا بمستقبل الشعوب العربيـة وبمقدرتها على تقرير مصائرها بنفسها .

ان كتاب لوتسكى هو حصيلة عمل متواصل وعنيد . وهو فى شكله الحاضر سلسلة محاضرات جامعية اعدهـا خلال اعوام كثيرة . وابتداء من ١٩٣٦ شرع فى القـاء هذه المحاضرات فى معهد موسكو للدراسات الشرقية وفى جامعة موسكو وفى غيرهما من معاهد الدراسات العالية السوفييتية . وقد نشر قسم من هذه المحاضرات كفصول متفرقة فى الكتاب المدرسى «التاريخ الحديث للاقطار المستعمرة والتابعة» (موسكـو ، ١٩٤٠ ، باللغـة الروسية) . وفيمـا بعد وسـع لوتسكى بصورة محسوسـة المحاضرات الخاصة بتاريخ الاقطار العربية واضاف اليهـا مواد جديدة .

وان الطبعة الحاضرة هى سلسلة كاملة لمحاضرات القاهـا لوتسكى فى جامعة موسكو فى اعوام ١٩٤٩ـ١٩٥٣ . وممـا يؤسف له ان محاضراته هذه لم تسجل بصورة مستوعبة . ولهذا اقتضى لنص كتاب «تاريخ الاقطار العربيـة الحديث» ان يتخذ اساسا له مسودات وتدوينات مختلفة لمحاضرات الاعوام السابقة نُقّحت واستكملت بموجب المختصرات الموجـودة فى سجلات ووثائق لوتسكى نفسه وبموجب مخطوطات الطلاب . وبمـا ان وثائق لوتسكى لم تحتفظ باية صورة مدونة لمحاضرته عن غزو فرنسا للجزائر ، فان متن الفصل الثالث عشر وضع على اساس الفصل الحادى عشر من كتاب «التاريخ الحديث للاقطار المستعمرة والتابعة» الذى كتبه لوتسكى نفسـه . وقد استخدمت بعض الاقسام الاخرى من هذا الكتاب ايضا وخاصة الفصل العاشر والفصل الثانى والعشرون لاعداد كتاب «تاريخ الاقطار العربية الحديث» .

وقد ساهم لاندا فى اعداد الفصل التاسع عشر («الدولة المهدية فى شرقى السودان») والفصل العشرين («الجزائر فى غضون الاعوام ١٨٧٠-١٩١٤») والفصل السابع والعشرين («الاقطار العربية خلال الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨») . بينما ساهمت سميلانسكايا فى تهيئة الفصل الرابع («فلسطين وسوريا والعراق فى بداية القرن التاسع عشر») والفصل التاسع («لبنان وسوريا وفلسطين فى عهد التنظيمات (١٨٤٠-١٨٧٠)») والفصل الرابع والعشرين («سوريا وفلسطين والعراق فى نهاية القرن التاسع عشر») . واستخدم النص الذى اعده لازاريف كمادة للفصل الخامس والعشرين والفصل السابع والعشرين من هذا الكتاب .

ايفانوف

الفصل الاول

الاقطار العربية منذ القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر

الفتح العثمانى للاقطار العربية . كانت جميع الاقطار العربية تقريبا خاضعة للسيطرة العثمانية فى مستهل القرن السادس عشر ، وكونت جزءا من الامبراطورية العثمانية . وفى عام ١٥١٤ قاد السلطان سليم الاول ، الملقب بالرهيب ، الجيش التركى واستولى على شمال العراق ، وفى عام ١٥١٦ استولى على سوريا وفلسطين منتزعا اياهما من أيدى مماليك مصر ، وفى عام ١٥١٧ دحر الاتراك جيش المماليك وقضوا على دولتهم وفتحوا مصر والحجاز .

وقد واصل السلطان سليمان الاول ، الذى خلف سليم الاول ـ والمعروف بسليمان القانونى الفتوحات العثمانية فى الاقطار العربية . وفي عام ١٥٢٠ فتح القرصان خير الدين بربروسا (ذو اللحية الشقراء) الجزائر وقدم الولاء للسلطان العثمانى ومنذ عام ١٥٣٣ أخذ السلطان التركى يولى من استنبول الولاة المعروفين «ببكلر بكى» الى الجزائر . وقام الاتراك عام ١٥٣٤ باولى محاولاتهم لفتح تونس المجاورة للجزائر ولكنهم دحروا من قبل الاسبان ، ولم يستولوا كلية على تونس حتى عام ١٥٧٤ . اما استيلاؤهم على طرابلس الغرب فلم يتم الا عام ١٥٥١ .

كما امتد التوسع العثمانى الى الجزيرة العربية . ففى عام ١٥٣٢ فتح الاتراك اليمن ، واستولوا من بعدها على الساحل الصومالى من البحر الاحمر . وأستخدمت الموصل كنقطة الانطلاق للتوسع العثمانى والتوغل فى جنوب العراق . وقد انتهى الصراع

القديم ، الذى كان دائرا بين تركيا وايران من اجل العراق ، بظفر الاتراك واستيلائهم عليه عام ١٦٣٨ . ومن ثم قام الاتراك بفتح الاحساء الواقعة على ساحل الخليج العربى .

وهكذا خضعت الى الامبراطورية العثمانية ، خلال مدة تتجاوز قليلا مائة عام ، جميع الاقطار العربية تقريبا ما عدا مراكش فى الغرب واواسط الجزيرة العربية ، وعمان . وقد قاسى العرب من الظلم الاقطاعى العثمانى مدة تتراوح بين ثلاثة واربعة قرون ، ثم حل محله فى القرنين التاسع عشر والعشرين ظلم أفظع وأهول وهو الظلم الاستعمارى الذى فرضته عليهم الدول الرأسمالية الاوربية .

فما الذى استهوى الفاتحين العثمانيين فى الاقطار العربية ؟ ان الذى استهواهم قبل كل شيء هو رغبتهم فى فرض الاستغلال الاقطاعى على الجماهير الشعبية العربية ، ثم موقع البلدان العربية الملائم فى طرق التجارة العالمية . وبعد ان وطد الاقطاعيون العثمانيون مواقعهم فى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تمكنوا ، لا من المتاجرة على نطاق واسع مع الاقطار الاوربية فحسب ، بل ومن القيام باعمال القرصنة فى البحر الابيض المتوسط بنجاح ايضا وهم يزاحمون الاوربيين فى هذا المجال . (وكان هذا العهد عهد تراكم الرأسمال البدائى ، وكانت القرصنة جزءا لا يتجزأ من التجارة البحرية انذاك) . وأخيرا كانت مصر وسوريا والعراق من اهم مراكز المواصلات فى تجارة الترانسيت بين اوربا والشرق ، وكانت هذه التجارة لا تزال تدرّ ارباحاً طائلة رغم تدهورها نوعا ما بعد اكتشاف الطريق البحرى المباشر الى الهند (حول رأس الرجاء الصالح) .

وكانت الاقطار العربية المختلفة فى درجات تبعية متفاوتة بالنسبة الى الامبراطورية العثمانية . فالجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، مثلا كانت تعتبر ولايات عثمانية . ولكنها كانت قد حصلت على استقلالها الفعلى من الباب العالى منذ مستهل القرن السابع عشر . وقبيل منتصف هذا القرن فقدت تركيا سيطرتها الفعلية على اليمن ، وحتى فى سوريا وفلسطين ومصر والعراق ،

حيث كان يتولى الحكم الولاة الاتراك-الباشوات ، كانت سلطة الباب العالى سلطة اسمية محضة غالبا . وكان الباشوات يدبرون المؤامرات ضد السلطان تارة بينما كان الاقطاعيون العرب المحليون يثورون ضد الباشوات العثمانيين تارة اخرى . وكانت الثورات الشعبية القوية تهز اركان الامبراطورية العثمانية بين اونة واخرى .

النظام الاجتماعى فى الاقطار العربية . النظام الاقطاعى العثمانى . كان العثمانيون ، وهم يسعون الى ايجاد سندهم فى البلاد العربية ، يحتفظون كقاعدة عامة ، بالنظام الاجتماعى الذى كان سائدا لدى الشعوب الخاضعة حين افتتاحها . وبقيت الارض والسلطة ، كالسابق ، فى ايدى الاقطاعيين المحليين .

وكان نظام ملكية الارض ، فى الاقاليم العربية التابعة للامبراطورية العثمانية معقدا الى اقصى حد . اذ كانت جميع الاراضى مقسمة الى ثلاثة أصناف رئيسية : أراضى الدولة ــ اى الاراضى الاميرية او «الميرى» ــ وكان السلطان نفسه يعتبر مالكها الاعلى ؛ واراضى المؤسسات الدينية ــ اى الاوقاف فى سوريا والعراق ، الاوقاف او الوزق فى مصر ، والحبوسات فى شمال افريقيا ؛ والاراضى الخاصة ــ اى الملك الصرف . هذا بالاضافة الى نظام الملكية المشاعية للاراضى ، الذى كان موجودا فى بعض البلدان العربية .

وكانت الاراضى المملوكة ملكا خاصا قليلة نسبيا ولصاحبها حق التصرف بها حسبما يشاء ، اذ يستطيع بيعها او اهداءها او الايصاء بها الى ورثته . ولم تتقاض الدولة عن هذه الاراضى الخاصة الا ضريبة الارض وهى العشر أو الخراج ، الذى كان يبلغ احيانا نصف غلة الارض . وكان الخراج يُجبى احيانا على اساس الغلة الفعلية (الخراج المقسَّم) ، وتارة اخرى بنسبة ثابتة الى مساحة معينة من الارض (الخراج الموظَّف) . وكان على غير المسلم ان يدفع الجزية علاوة على ذلك (الخراج الرأسى) . وكقاعدة عامة ، كانت تعود الاراضى المملوكة الخاصة الى كبار الملاكين ، وكان يقوم بزراعتها الفلاحون على اساس المحاصصة .

وتتالف الاوقاف التى تعود الى المؤسسات الدينية من اراض واسعة مصدرها «التبرعات» وهى معفاة من الضرائب . ويعتبر رجال الدين الاسلامى دعامة النظام الاقطاعى ، وكان كبار الاقطاعيين يهبون العقارات الكبيرة الى المؤسسات الاسلامية ــ اى الى المساجد والمدارس الملحقة بالمساجد والتكايا والزوايا وغير ذلك ، لدعم النظام الاقطاعى . وغالبا ما كان «يهب» صغار الفلاحين بما لديهم من اراض للاوقاف تخلصا من اغتصاب الاقطاعيين لها . (ويتصرف هؤلاء الفلاحون وذريتهم بهذه الاراضى عادة حتى تنقرض سلالتهم ، وما كان عليهم الا دفع الضرائب الى الاوقاف) . ولم تكن حالة الفلاحين المعاشية فى الاراضى الموقوفة بافضل من حالة زملائهم الذين كانوا يعملون فى الاقطاعيات .

وكانت الملكية المشاعية للارض لا تزال قائمة فى بعض الاقطار العربية عند الفتح العثمانى . فكانت المراعى ملكا جماعيا لعشائر البدو فى المناطق التى يقطنها الرحالة الذين كانوا يقومون بتربية المواشى فى شمال افريقيا والعراق والجزيرة العربية . اما فى مناطق الزراعة الحضرية فكانت المشاعيات الفلاحية لاتزال توزع الارض دوريا بين العوائل الكبيرة والعزب . وفى هذه الاقطار اتبع الاتراك الفاتحون سياسة نزع اراضى الفلاحين المشاعية عنوة . فاعلنوا الاراضى المشاعية اراضى اميرية اى تابعة للدولة وجعلوها ملكية فردية عائدة الى ممثلى اشراف الاقطاعيين العشائريين اى الى الامراء والشيوخ .

واذ صفى الفاتحون الاتراك الملكية المشاعية للارض ، احتفظوا غالبا بالمشاعية الفلاحية العربية كملحق لنظام الاستغلال الاقطاعى . وكانت المشاعية مقيدة بكفالة على نحو متضامن لدفع الضرائب والمكوس الاقطاعية ، كما كانت المشاعية ملزمة بضمان حراثة اراضى الاقطاعيين .

وكان اكثر انواع الاراضى انتشارا فى الامبراطورية العثمانية الاراضى الاميرية ، التى كانت تنقسم بدورها الى صنفين رئيسيين : «الخاصات» والاقطاعيات العسكرية . اما «الخاصات» فهى اقطاعات مترامية الاطراف ذات دخل سنوى لا يقل عن مائة الف

آقجة* كان يتصرف بها السلطان شخصيا هو وأفراد اسرته وينتفع منها وموقتا الوزراء وكبار الموظفين الاخرين عند توليهم لمناصبهم . وأما الاقطاعيات العسكرية فتعهد الى الفرسان مدى العمر ، وتعفى من الضرائب الرسمية كلية . ومقابل ذلك ، كان الفرسان (السباهية) ملزمين بتادية الخدمة العسكرية ، والحضور فى العرض العسكرى بصورة منتظمة ، والمساهمة فى الحملات مع فرسانهم المحاربين . وكان يحدد عدد الفرسان بموجب سعة الاقطاعية . ويجند فارس واحد عادة لقاء كل ثلاثة الاف اقجة من الدخل . وكانت الاقطاعيات تنقسم الى صنفين وفقا لمداخيلها . وكانت الاقطاعية العسكرية ، التى يزيد دخلها على عشرين الف آقجة تسمى «زعامت» ويملكها «زعيم» ؛ اما التى لا يتجاوز دخلها عشرين الف اقجة فكانت تسمى «تيمار» ويملكها «تيمارجى» او «تيمارى» .

وعند تادية الفارس لواجباته العسكرية طيلة حياته على ما يرام كانت تنتقل مقاطعته غالبا الى اولاده بعد وفاته . اذ يمنح هؤلاء عقدا جديدا يدفعون بموجبه بدلا نقديا معينا للخزينة . وكان منح الاقطاعيات يجرى على اساس طبقى صرف ، وهو محصور بالاشراف فقط . وكان على كل فارس جديد ان يحصل على اسناد زعيمين وعشرة تيمارجية . ولم تكن تمنح هذه الاقطاعيات الى اهالى المدن .

وكانت تحرث اراضى «التيمارات» و «الزعامتات» و «الخاصات» من قبل الفلاحين الذين كانوا يشكلون الاغلبية الساحقة من الرعية اى الشعب الدافع للضرائب . ويستلم الفلاحون من الملاك قطعة ارض تعرف بالجفتلك ولا يستطيعون التصرف بها الا باذن خاص منه . وكان الفلاحون فى الواقع مرتبطين بالارض . وكان يقع على عاتقهم عبء ضرائب كثيرة كالعشر او الخراج ، والضرائب لقاء استعمالهم للمراعى الشتوية والصيفية ،

---

* آقجة ــ عملة فضية كانت تساوى آنذاك حوالى ثلث او ربع الدرهم .

واستخدامهم الطواحين ، وتدخينهم التبغ وهلم جرا . وكان وضع الرعية المسيحية اسوأ من ذلك . اذ كان على المسيحى ، بالاضافة الى ما تقدم ، دفع الجزية او الخراج الرأسى .

وكان نظام الاقطاعية العسكرية سائدا فى آسيا الصغرى وفى شبه جزيرة البلقان . ولكنه لم يكن متطورا تطورا كبيرا فى الاقطار العربية الا فى الاقسام الواقعة شمال سوريا والعراق . وفى ايالة حلب وقسم من ايالة الموصل ، أدخل الاتراك ، بدلا من العلاقات السابقة ، نظام التملك الاقطاعى العسكرى للارض . وفى الغالب ، ظلت الارض فى سائر الاقطار العربية فى حوزة الاقطاعيين المحليين ، الذين كانوا يدفعون خراجا لولاة السلطان .

وفى مصر استبقى ، بصورة عامة ، نظام تملك الاراضى الاقطاعى ، الذى كان سائدا فى عهد السلاطين المماليك . وكانت تعود كافة الاراضى الى الاقطاعيين : من ملتزمين ووال تركى ، ورجال الدين الاسلامى . وتعتبر الارض شكليا ملكا للدولة ولكنها كانت تعهد الى الملتزمين . وان كثرة من الملتزمين ، كالشيوخ النوبيين ، كانوا يمتلكون عشرات من القرى ، وبالعكس كانت اقطاعيات عديدة مقسمة الى درجة كان يمتلك معها عدد من الملاكين قرية واحدة .

وكان يقع اختيار الملتزمين من بين الموظفين الاتراك وضباطهم ، وكذلك من بين الشيوخ العرب المحليين . وقد ورث حكام مصر الاتراك من السلاطين المماليك عادة تكوين حرس خاص من بين المماليك ، الذين كانوا أرقاء دُرّبوا خصيصا للخدمة العسكرية . ويقوم البكوات الاتراك بتعيين مماليكهم فى مراكز الدولة الهامة ، ويهبونهم اراض واسعة . وكنتيجة لهذه السياسة ، اصبح ثلثا الاراضى المصرية فى حوزة المماليك فى نهاية القرن الثامن عشر . وهكذا اصبح المماليك فئة سائدة بين الاقطاعيين المصريين .

وكان يعفى الملتزمون عن الخدمة العسكرية ، الا انه كان يتعين عليهم دفع ضرائب كبدل عنها يحدد مقدارها ، بالنسبة لكل منهم ، فى سجل («دفتر») يحتفظ به موظف خاص يعرف

بالدفتردار . واذا لم تدفع الضرائب فى حينه ، فتصادر الاقطاعية وتعطى لمالك جديد .

وكانت تمتلك الاراضى بالوراثة عـادة . الا ان المماليك لم يكونوا يتوارثونها أبا عن جد ، بـل من السيد الى «عبده» المفضل . وكان يجب على الوريث بعد وفاة المالك ، ان يدفـع للخزينة بدلا نقديا كبيرا لاستملاكها يعادل ريعا لثلاث سنوات بالاضافة الى خمس قيمة الارض .

وكانت تقسم كـل ارض تابعة للملتزم الى قسمين : ارض المالك او «الوسية» وارض المحاصصـة او «ارض الاثر» . أما ارض الوسية فكانت تحرث تارة حسب نظام السخرة وتارة اخرى (وفى حالات نادرة) من قبل العمال الماجورين . واما ارض الاثر فتعهد للفلاحين مدى العمر . ويدفع الفلاح للمالك ريعـا نقديا مقابل استثمار قطع الارض فى الوجه البحرى ، وريعا عينيا فى الوجه القبلى . ويتألف الريع العينى من ٢٠ـ٣٥ اردبا* من القمح لكل ٥٠ اردبا من الغلة . واذا ورث الفلاح قطعة من الارض فكان عليه ان يدفع بدلا كبيرا من المال الى الملتزم .

ويقوم الملتزمون بجباية الريع النقدى من الفلاحين وهـو يعرف «بالمال الحر» . وينقسم هذا النوع من الريـع الى ثلاثة اقسام غير متساوية : قسم يدفع كخراج للباب العالى بواسطـة باشا مصر ، وكان قد بلغ مقداره ، فى نهاية القرن الثامن عشر ، ٨٠ مليون مدينة** سنويا . ويستعمل القسـم الآخر لشؤون ادارة الاقاليـم («كشوفية» ، من نسبـة الى لقب حاكـم المديريـة ـ كاشف) . وكانت قد بلغت حصيلـة هذا القسم ٥٠ مليون مدينة سنويا . ويحدد هذان المقداران بموجب القـانون ويدفعان بدون قيد أو شرط . أما القسم الباقى من «المال الحر»

---

* اردب ـ مكيال الحبـوب ، وهـو يساوى ١,٩٨ هيكتولتر او ١٩٨ لترا .

** مدينة ـ عملة نقدية صغيرة كانت تساوى (عندئذ) حوالى ربع كوبيك . حسب اسعار العملة فى ذلك الوقت .

فيبقى لدى الملتزمين . وكان قد بلــغ مقداره ، عام ١٧٩٨ ، ١٨٠ مليون مدينة نقدا ، فضلا عما دفع منه عينا . ومع هذا فلم يكتف الملاكون بهذه المقادير . فبالاضافة الى «المال الحر» ، قاموا بجباية «البرانى» ، وهو عبارة عن ضرائب فلاحية تقليدية (كانت فى بادئ الامر «هدايا» طوعية يقدمها الفلاحون عينا الى ملاكيهم ، ثم أصبحت فيما بعد مدفوعات نقدية اجباريــــة) . وبلغت عائدات هذه الضرائب عام ١٧٩٨ مائة مليون مدينة . وفضلا عن ذلك كانت توجد فى كل قرية ضرائب وفروض محلية خاصة .

وكانت تجبى الضرائب بواسطة ادارة القريــــــة برئاســـة القائمقام ، وكان يساعـــده مباشرة كبير الشيوخ . وكان يحضر الصراف الى القرية بعد الحصاد فى كل عـــام . وهو شخص من قاطنى المدن ، يكون عادة قبطيا وفى خدمة الاقطاعى الملتزم . ويقوم الصراف بتقدير الحصاد وتحديد مقدار الضريبة ، ويبدأ بعدها بجباية الضرائب . ثم يجبى الصراف مبلغا اضافيـــا من الفلاحين مكافاة «لخدماته» . وكان يوجد ايضا ، فى قوام ادارة القرية ، وكيــل ــ يدير اراضى الوسيـــة اى اراضى المـــالك ، وخولى ــ يمسح الاراضى ويدير كذلك الاشغال العامة ، وشرطى ــ يقوم باعمال الشرطة وبجلد الفلاحين على الاخص ، وخفراء ــ أى حراس يحمون انابير الملاك . وخلافا لموظفى المشاعية الهندية الذين ورد ذكرهم فى قائمة كارل ماركس ، كان الموظفون ، الذين سبقت الاشارة اليهم ، فى خدمـة الاقطـاعى لتطبيق سيطرتـــه الاقتصادية والسياسية على المنتجين المباشرين ــ أى على الفلاحين .

هذا وقد احتفظ الغزاة بالنظام الاقطاعى فى سوريا ولبنان على غرار مـا فعلوه فى مصر . فظلـــت الارض فى ايدى الاشراف الاقطاعيين العرب المحليين (ما عدا شمال سوريا) .

وكان لبنان فى عهد الحكم العثمانى بمثابة امارة ذات استقلال ذاتى تحت سيطرة المعنيين ، ثم غدا فى نهاية القرن السابع عشر تحت سيطرة الامراء الشهابيين ، الذين كانوا يعتبرون انفسهـــم اتباعا للسلطان العثمانى ، وكانوا يقومون بدفع الجزية الى الباب

العالي ، ولكن الجيوش التركية لم تكن مرابطة في لبنان . وكانت ثمة امارات مماثلة في سوريا كامارة اللاذقية .

وقد وصف بازيلي المجتمع الاقطاعي في لبنان الذي كان مبنيا على مبدأ تسلسل الرتب وصفا دقيقا في كتابه المشار اعلاه . وكان لبنان منقسما الى ثلاث مقاطعات مستقلة ، كسروان والمتن والشوف ، تديرها أسر اقطاعية محلية . وكانت تنقسم هذه المقاطعات بدورها الى مقاطعات اصغر فاصغر . وهكذا كانت الحال في امارة اللاذقية وفي جنوب سوريا . وكان في قمة سُلَّم السلطة هذا الباشوات الاتراك الذين كان مقرهم في حلب ودمشق وصيدا . وكانوا يقومون بدور الوسيط بين الامراء العرب والسلطان .

وكان يتمتع الاقطاعي بسلطة مطلقة في اقطاعياته . وكان الامراء والشيوخ التابعون له يزودون جيشه بالفرسان ويجبون الضرائب من السكان ويدفعون اليه الخراج . وكان الاقطاعيون كلهم مفرطين في الغنى . ولقد ذاع من بينهم صيت الامير اللبناني فخر الدين الثاني باعتباره أغنى رجل في الامبراطورية العثمانية . اذ كان بلاطه في غاية الابهة والفخامة حتى استهوى الرحالة الاوربيين . وكان يقدر دخله السنوي بـ ٩٠٠ الف ليفرة ، يؤدي ٣٤٠ الف منها كجزية الى السلطان العثماني سنويا . أما الشيخ ظاهر العمر ، الذي حكم في صفد في القرن ١٨ ، فكان قد بلغ دخله ١٢٥٠ الف روبل سنويا .

وكانت توجد في المناطق النائية لسوريا وفلسطين بقايا من النظام المشاعي البدائي . فكانت تقطن فيها منذ امد طويل ، كثرة من القبائل الرحل والقبائل الحضرية ، وتجري فيها عملية تكوين النظام الاقطاعي خلال قرون . ومع ذلك ما زال شيوخ القبائل اشبه برؤساء القبائل والعشائر منهم بالحكام الاقطاعيين . وقد ذكر فولني عام ١٧٨٤ ، عند وصفه لاحد الشيوخ لقبيلة في جنوب فلسطين ، العديد من العادات القديمة الموروثة من الماضي . وكان الشيخ يعنى بنفسه بالمواشي ، ويعمل يدا بيد مع افراد عائلته ، ويقوم بغير ذلك من الاعمال المشابهة في الوقت الذي كان ٥٠٠ خيال تحت أمرته .

وكان الاقطاعيون الروحانيون يلعبون دورا كبيرا . ففي سوريا ولبنان وفلسطين كان يوجد حوالى عشر طوائف مسيحية ، وخمس طوائف اسلامية . وهكذا كانت الانفصالية الاقطاعية مقترنة بالانقسام الديني . وغالبا ما كان النضال السياسي يتسم بصبغة دينية . وكان كبار رجال الدين ولا سيما رئاسة الكنيسة المارونية ، يملكون اراض كثيرة ويستغلون الفلاحين على غرار الاقطاعيين الدنيويين .

وكان غريبا من نوعه تكوين العلاقات الاقطاعية فى العراق حيث كان يوجد اختلاف بين شمال البلاد وجنوبها . ففى الشمال كانت الارض محصورة فى ايدى البكوات الاكراد الذين يترأسون القبائل العشائرية . وكانوا فى الواقع من كبار ملاكى الارض ومثلا حيا للاقطاعيين تحت الستار العشائرى . وكانت ممتلكاتهم تبلغ احيانا عشرات الالاف من الهكتارات . وكانوا يجندون العساكر ويدفعون الضرائب لولاة السلطان العثمانى .

أما فى جنوب العراق ، فكانت تسود العلاقات البطريركية . وكانت الارض تعود فيه الى القبائل العربية وتعتبر ملكا جماعيا بينهم . وكان قد سار عدد من القبائل طريق الحضارة جامعة بين حراثة الارض ورعى المواشي على نحو متنقل . وقد حاولت السلطات العثمانية القضاء على ملكية القبائل الجماعية للارض . فجعلت الارض المشاعية ملكا للدولة ومنحتها الى علية العشائر كما حاولت جعل واجبات شيوخ القبائل بمثابة مناصب وراثية تعهد اليهم بموافقة السلطة الحاكمة . وهكذا نشأت عوائل اقطاعية عربية كبيرة ، كانت تملك اصقاعا واسعة من الارض . وقد لاقت اجراءات السلطات العثمانية هذه مقاومة من الجماهير القبيلية . فرفضت القبائل الرحالة وشبه الرحالة دفع الريع . ونشب من تلقاء ذلك نزاع بين الاقطاعيين الحديثى العهد والشعب المسلح ، تبعته كثرة من الانتفاضات بين القبائل العربية . وغالبا ما كان الاقطاعيون الجدد يملكون بالاسم فقط الاراضى التى منحت لهم .

وقد حدث وضع مماثل تقريبا فى شمال افريقية ، حيث سيطر العثمانيون على قسم من الاراضى الساحلية وشنوا حروبا

مستمرة على القبائل العربية والبربرية التى كانت تذود عن حق ملكيتها لهذه الاراضى .

وكانت فى كافة الاقطار العربية الملكية الاقطاعية الكبيرة للارض جنبا الى جنب مع الاستثمارات الفلاحية الصغيرة . اما الاستثمارات الكبيرة فكانت معدومة . وبواسطة جباية الضرائب الجسيمة وابتزاز الاموال كان الملاكون يضعون ايديهم ، لا على محصول زائد فحسب ، بل وغالبا على محصول ضرورى ايضا ، ويستهلكونه ويستخدمونه بصورة غير منتجة . وكان الاقتصاد راكدا ولم يضمن ، فى أحسن الحالات ، الا اعادة الانتاج البسيطة . الا ان اعادة الانتاج البسيطة كانت لا يحدث احتياطات لمواجهة الطوارئ الاجتماعية أو الطبيعية . وادت الحروب المتكررة ، والفتن الاقطاعية ، والجفاف الى خراب الفلاحين وتدهور الزراعة الى أقصى حد . وكانت تنقرض قرى بأكملها . ولم يبق فى نهاية القرن الثامن عشر ، من بين ٣٢٠٠ قرية كانت فى ايالة حلب فى القرن السادس عشر ، سوى ٤٠٠ قرية . ولاذ السكان تارة بالفرار الى المدن وانقرض بعضهم تارة اخرى . أما فى مصر فكانت الاوضاع سيئة جدا . فقد كتب شابرول فى كتاب «اعمال الحملة الفرنسية» : «ان وادى الفيوم المعروف بغناه ، وسهول الدلتا الخصبة تنتج الان بالكاد ربع ما كانت تنتجه من الغلات سابقا مع انها كانت تدر بخيرات وافرة فى عهد الفراعنة والبطالمة وحتى فى زمن سيطرة الرومان . وان من السهولة بمكان تحديد سبب هذه التغيرات التى يرثى لها والتى لم يكن للعوامل الطبيعية اى اثر فيها . اذ ان النهر هو نفسه كما كان الامر سابقا . وما زالت فيضاناته الدورية السنوية تخصب وادى النيل . الا ان المزارع فقد امله ، ولم يعد يشجعه شيء . فهو يدرك الان ان الدخيل الشره سيقطف ثمار ما جناه بدمه وعرقه . فلم الاضطلاع بانتاج غلات جديدة بينما لن يستطيع لا هو ولا اولاده الاستفادة منها ؟ ان الفلاح يبذر الارض على كره منه ويحصدها وهو على وجل ، فيحاول اخفاء كمية ضئيلة من الحبوب بعيدا عن قبضة الظالم ، وذلك لسد حاجات أسرته . وفى هذا القطر السيىء الطالع

ليس الفلاح بمالك ، ولن يستطيع ان يكون مالكا . وفوق ذلك فانه ليس بالمستاجر. انه مجرد قن من اقنان الطغمة الظالمة لبلاده».

ان عملية خراب الفلاحين واندثار القرى ونزوح السكان عنها كانت ظاهرة متفشية فى كافة انحاء الامبراطورية العثمانية . وحاول السلاطين وضع حد لها بربط الفلاح بالارض . ومنذ القرن السادس عشر صدرت قوانين فى عهد سليمان القانونى للحيلولة دون هروب الفلاحين . وان التشريعات التى سنّها الاتراك لمصر والمعروفة باسم «قانون نامه مصر» أجبرت الكاشفين والملتزمين والمشايخ على عدم ابقاء قطعة واحدة من الارض المروية غير مزروعة ، وعلى ان يحولوا دون هروب الفلاحين ، وان يسعوا الى اسكان الفلاحين فى القرى الخربة والخاوية . وفى حالة فرار فلاح من ارضه يتحمّل الشيخ التزاماته المادية . ويجوز بيع ارض الوسية مع من يرتبط بها من الفلاحين ليس الا .

وكان نصيب الفلاح العربى يتمثل مجتمعا بالمجاعة والعمل الشاق ونظام السخرة وكثرة الضرائب والفرائض وبربطه بالارض ، وانعدام الحقوق ، وتهكم الاقطاعى وخدمه . وغالبا ما يثور الفلاحون عندما يبلغ النير درجة لا تطاق . وعندئذ تهاجمهم زمر الانكشارية وعملاؤها العرب . وكان التنكيل جم قاس . وتأمر تشريعات السلطان «القانونى» بسحق الانتفاضات الفلاحية دون رحمة .

المدينة العربية خلال الحكم العثمانى . كانت لا تزال المدن العربية تتسم فى غضون القرون من السادس عشر الى الثامن عشر بطابع القرون الوسطى . وكانت المدن مراكز ادارية يتربع فيها الباشوات والبكوات الاتراك أكثر من ان تكون مراكز اقتصادية . ومع ذلك فكانت تمارس فى المدن التجارة وينمو الانتاج الحرفى فيها .

وقد صادف عهد الحكم العثمانى فى الاقطار العربية فترة انتعاش فى التجارة العالمية ونموها السريع . وكانت الصناعة الاوربية أنذاك بحاجة الى المزيد من الاسواق ، الامر الذى كان توفره لها الامبراطورية العثمانية المترامية الاطراف . فابتاع الاقطاعيون العرب والاتراك الاقمشة الصوفية الانكليزية

والهولندية ، والحرير والنبيذ الفرنسيين ، والفراء الروسى ، والزجاج من البندقية ، والبلور البوهيمى . كما صدّروا الى اوربا الحبوب والحرير الخام والجلود والصوف الخام والفواكه والجوز وزيت الزيتون والمنسوجات والاقمشة البيتية . وفى الواقع ، لقد جرى تبادل بين المواد الخام التى انتزعها الاقطاعيون من منتجيها كريع عينى ، وسلع الترف والابهة الاجنبية . وقد كتب أدم سميث : «ان سكان المدن التجارية استوردوا من الاقطار الاكثر غناء البضائع المتانقة لانتاج المعامل اليدوية (المانيفاتورة) وسلع الترف ذات الاسعار الباهظة ، وبهذا غدوا عجرفة كبار الملاكين الذين ابتاعوا هذه البضائع بشره ودفعوا ثمنها بكميات كبيرة من خامات محاصيل اراضيهم» .

وكانت جلية واضحة النتائج الفتاكة لمثل هذه التجارة . فانها افضت الى تقوية الاستغلال الاقطاعى للفلاحين والى خراب القرى . وقد لاحظ كل من ادم سميث وفولنى ان التجارة العثمانية كانت تتسم بصفة غير متكافئة ، والحقت اضرارا فادحة بالامبراطورية العثمانية .

وثمة صفة مميزة اخرى هى ان التجار الاجانب ، على الضد من الخلافة الاسلامية مثلا ، لعبوا دورا رئيسيا فى هذه التجارة ، وبهذا الخصوص قال انجلس : « ... من هم التجار فى تركيا ؟ على كل حال انهم ليسوا الاتراك ... ان الاسلوب الذى اتبعوه للقيام بالتجارة هو نهب القوافل ؛ والآن وقد أصبحوا أكثر تمدنا ، قامت تجارتهم على اساس مختلف انواع الضرائب القسرية والتعسفية . ورسخ اليونانيون والارمن والسلاف والاوربيون الغربيون اقدامهم فى المرافئ البحرية الكبيرة قابضين فى ايديهم على كل التجارة ، وليس لديهم مايبرر اطلاقا شكر البكوات والباشوات الاتراك على اتاحة الفرصة لهم لممارستها . ولو تخلصنا من جميع الاتراك فى اوربا لما قاست التجارة من ذلك على الاطلاق» * .

---

* فريدريك انجلس ، القضية التركية ، ـ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٩ ، ص ٢٥ .

وكانت تجارة ما وراء البحار محصورة على الاخص فى ايدى التجار الايطاليين (البندقية ، وجنوا ، وبيزا) ، الا ان التجار الانكليز والفرنسيين بدأوا بازاحتهم عن الطريق تدريجيا . وكان لديهم احياء خاصة بهم فى المدن التجارية الكبيرة . كما كانت توجد فنادق ومكاتب اوربية فى القاهرة وفى المدن والمرافئ الواقعة على سواحل سوريا وشمال افريقيا . وقد أنشأت شركة الهند الشرقية الانكليزية خلال القرن الثامن عشر مؤسسات تجارية فى بغداد والبصرة .

وأضطلع الارمن واليونانيون والعرب الى حد ما بدور الوسيط والمقاول وقاموا فى الواقع بالنسبة للتجار الاوربيين بدور الوكيل . ومارسوا تجارة الوساطة والترانسيت التى كانت أكبر مراكزها : القاهرة وحلب ودمشق وبغداد وطرابزون والقسطنطينية ، التى تدفّق اليها السجاد الفارسى والموسلين الهندى واللؤلؤ وما شابه ذلك . وجلبت القهوة اليمنية من جدة الى القاهرة ، والعبيد والذهب والعاج والمسك وريش النعام من سنار ودارفور . وصدّرت بضائع المنتجات المحلية بواسطة هذه المدن نفسها الى المرافئ البحرية ، حيث ابتاعها التجار الاوربيون .

اما التجارة الداخلية فكان تطورها ضعيفا الى حد ما بالرغم من انه كانت تتطور تدريجيا مراكز التبادل المحلى بين المدن والقرى . وكان من المألوف بيع سلع حرفيى المدن هنا ايضا أى فى المدينة وذلك فى الاسواق الاسبوعية والسنوية .

وثمة عاملان لسيطرة الاوربيين على تجارة الامبراطورية العثمانية . فانهم قد سبقوا اولا الاتراك الى ذلك العهد فى كلا المضمارين الثقافى والاقتصادى . وتكدست لدى التجار الاوربيين رساميل ضخمة واكتسبوا كذلك خبرة اكبر فى التجارة وتنظيم الامور ونقل البضائع على وجه أحسن ، واكتسبوا بكلمة واحدة احسن خبرة تجارية حضارية . والسبب الثانى هو نظام الامتيازات . وكانت تدعى بهذا الاسم ، فى الامبراطورية العثمانية ، وثائق معينة تمنح التجار الاوربيين حقوقا وامتيازات خاصة .

وكانت الامتيازات فى بادئ الامر بمثابة تسهيلات يمنحها السلطان العثمانى من جانبه وطواعية الى التجار الاجانب وكان باستطاعته سحبها فى أى وقت شاء . ومنحت امتيازات اولى الى التجار الايطاليين فى القرن الرابع عشر فخولتهم الاقامة فى مدن الامبراطورية العثمانية وتعاطى التجارة وممارسة طقوسهم الدينية . وهى تحتوى على ضمان الممتلكات وتحديد كميات الرسوم التى كان يتوجب عليهم دفعها .

وفى القرن السادس عشر اكتسبت الامتيازات سمة الاتفاقيات الثنائية . ووقّعت اول اتفاقية من هذا القبيل فى عام ١٥٣٥ بين السلطان سليمان القانونى وفرنسيس الاول ملك فرنسا . ولم يحصل الفرنسيون بموجبها على حق التجارة فحسب ، بل وعلى جملة من الامتيازات الاخرى ايضا (اذ اصبح باستطاعة سفن سائر الامم دخول الموانئ العثمانية تحت حماية العلم الفرنسى فقط ، ومنح الزوار الفرنسيون حرية زيارة الاماكن المسيحية المقدسة والاشراف عليها وحرية ممارسة طقوسهم الدينية) . وفى عام ١٦٠٤ عقدت اتفاقيات مماثلة مع الانكليز واهالى البندقية ، الذين شرعوا بالتجارة فى تركيا تحت حماية علمهم الخاص بهم . ثم منحت حقوق مماثلة لرعايا دول اوزبية اخرى .

وعندما أخذ الوهن يدبّ فى اطراف الامبراطورية العثمانية ، بدأت الدول الاوربية تنظر الى الامتيازات وكأنها حقوق خاصة مسلّم بها ولا يمكن فسخها . ثم حصلت هذه الدول على امكانية توسيعها لكى تشمل ايضا من يتعامل معها من السكان المحليين . وبفضل الامتيازات أعفى الاشخاص الذين تمتعوا بها من الضرائب واستثنوا من سلطة المحاكم التركية الشرعية ، غدت ممتلكاتهم مصونة من المصادرة .

واستمر نظام الامتيازات حتى القرن العشرين (بل وحتى عام ١٩٣٧ فى مصر مثلا) ، واستغل من قبل الدول الاوربية كوسيلة من وسائل الاستعباد الاستعمارى للاقطار العربية . فعرقل تطور الرأسمال الوطنى فى الاساس ووضع التجار المحليين فى موقع غير متكافئ فى الحقوق مع التجار الاوربيين ، الذين كانوا يدفعون

رسوما جمركية تبلغ ٣٪ من قيمة البضاعة بينما كان التاجر المحلى يدفع رسما تتراوح نسبته بين ٧٪ و ١٠٪ . وكان التجار الاجانب يدفعون رسوما جمركية تفرض على بضائعهم مرة واحدة عند دخولها البلاد فقط ؛ اما التجار المحليون فكانوا يدفعون الرسوم مرات عديدة أى كلّما مرت بضائعهم فى دوائر الجمارك الداخلية العديدة وحين نقلها من اقطاعية الى اقطاعية اخرى . وادت جميع هذه الحواجز فى الواقع الى تاخير وعرقلة تطور العلاقات الرأسمالية فى الاقطار العربية .

اما فيما يخص الصناعة ، فان الامبراطورية العثمانية كانت متأخرة تأخرا كبيرا ايضا بالنسبة الى الاقطار الاوربية المتقدمة ، حيث تم الانتقال الى المعامل اليدوية (المانيفاتورات) ومن ثم الى الانتاج الآلى . وكانت الصناعات الحرفية الطائفية المبنية على العمل اليدوى مسيطرة فى الامبراطورية العثمانية كالسابق . وكان الحرفيون منظمين فى طوائف . وكان داخل كل طائفة تدرج هرمى كما هو الحال فى اوربا . ويرأس كل طائفة رئيس ــ وهو الشيخ . ويليه فى المنصب المعلم ، ثم الصانع والتلميذ . ولكل طائفة تقاليدها وعاداتها الخاصة بها . وكانت دمشق وحلب فى سوريا ، وبغداد والموصل فى العراق ، والقاهرة فى مصر ، وتونس والجزائر وتلمسان وفاس ومراكش فى شمال افريقيا أكبر مراكز الصناعة الحرفية . واشتهر الحرفيون العرب عن طريق انتاج الاقمشة والسجاد والسختيان والاسلحة والمصنوعات النحاسية وغير ذلك .

وكان العديد من هذه المصنوعات يصدر الى اوربا حتى القرن الثامن عشر . اما بعد نشوب الانقلاب الصناعى فقد بدأت بضائع الانتاج المحلى تزاح حتى من الاسواق الداخلية .

ولم يكن بعد فى البلدان العربية حد فاصل بين الاعمال الحرفية والزراعة . ففى مصر مثلا كان يغزل القطن فى بيت الفلاح مباشرة . وظلت صناعة الاقمشة الصوفية من حظ المرأة . كما سادت اوضاع مماثلة فى لبنان . وكانت القرى المجاورة لحلب ، فى سوريا ، تنتج لا الاقمشة الصوفية فحسب ، بل والقطنية

ايضا . وبالعكس ، كان العديد من سكان المدن يتعاطون الزراعة ، وخاصة البستنة . وكانت دمشق ، مثلا ، موشحة بالبساتين .

ويدل التركيب الاجتماعي للمدن العربية على ان نسبة كبيرة من السكان لم تكن منتجة . ومثلا كان عدد السكان في القاهرة في نهاية القرن الثامن عشر ٣٠٠ الف نسمة ، منهم ١٠٠ الف رجل بالغ . وكان بين هؤلاء الاخيرين ٢٥ الف حرفي ، و ١٥ الف عامل ، وينتسب الباقون ، وعددهم ٦٠ الفا ، الى فئات غير منتجة من العساكر واصحاب اطيان ورجال دين وتجار وخدمهم . وقد بلغ عدد الخدم لوحدهم ٣٠ الف نسمة . ويجب الا نتصور بان الحرفيين كلهم كانوا منهمكين في الانتاج . اذ كانت في القاهرة ، طوائف خدم الحمامات والحلاقين والمهرجين والمغنين في الطرقات والخطباء وسائقي الحمير والجمالة والراقصات والطبالين .

وقد اعاق النظام الاقطاعي العثماني تطور المدن العربية . ولم يكن باستطاعة التجار المحليين منافسة الاوربيين ، الذين كانوا يتمتعون بحماية نظام الامتيازات . ومع ذلك فحتى التجارة الاوربية كانت تلاقي صعوبات جمة . ففي البحار ، كانت مراكب الشحن التابعة للتجار الاوربيين عرضة لهجوم القراصنة الذين كان كثيرون منهم في خدمة السلطان التركي . وكانت القوافل التجارية تنهب في البراري من قبل عصابات اللصوص . وكانت طرق المواصلات الجيدة معدومة في الامبراطورية العثمانية . اذ كانت تنقل البضائع على ظهور الحيوانات . وكان لدى كل مدينة تقاليدها الخاصة بها وتشريعاتها التجارية ورسومها وموازينها ومقاييسها الى ما شابه ذلك . وبالاضافة الى كل ما تقدم ، اعاق النهب والسلب الاقطاعي تطور التجارة والصناعة وجعل من المستحيل الانتقال الى العلاقات الرأسمالية . وقد كتب انجلس بهذا الصدد : «ان السيطرة التركية ككل سيطرة شرقية ، لا تنسجم بالفعل مع المجتمع الرأسمالي ؛ ولم تكن القيمة الزائدة المكتسبة مضمونة بشكل ما امام قبضة الحكام الطغاة المستكلبين

والباشوات ؛ اذ كان معدوما اول وأهم شرط من شروط العمل لاصحاب المشروع البرجوازى وهو صيانة شخصية التاجر وممتلكاته» * .

نظام الدولة . كانت القومية التركية هى القوميةالسائدة فى الامبراطورية العثمانية ، وهى أكثرها تاخرا بالنسبة الى مختلف القوميات الاخرى فى كافة انحاء الامبراطورية المترامية الاطراف العديدة القوميات . وكان يؤلف الاقطاعيون الاتراك الطبقة الحاكمة ، ولقد حافظوا على سيطرتهم بكل جهاز العنف وذلك تحت قيادة السلطان نفسه . وكان رئيس الدولة الاعلى هو السلطان أو البادشاه ، الذى كان يتمتع بسلطة عسكرية ومدنية مطلقة . وأصبح منذ القرن السادس عشر خليفة ايضا أى الرئيس الروحى للعالم الاسلامى . *

ويليه فى الاهمية شيخ الاسلام ، وهو رئيس رجال الدين المسلمين . وكان التشريع والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد وممتلكات الاوقاف الواسعة جميعها خاضعة له . كما كان خاضعا له القضاة الشرعيون والقضاة العسكريون والمفتون . وكان يقيم المفتى فى كل مركز كبير من مراكز الامبراطورية ويترأس رجال الدين المحليين . ومن صلاحيته ان يقرر انسجام هذه الاجراءات أو تلك مع المبادئ الاسلامية . وكان المفتى الاول فى الامبراطورية العثمانية هو شيخ الاسلام نفسه . وكان العلماء (وهم علماء الدين والفقهاء) والمتصرفون (وهم مديرو شؤون الممتلكات الوقفية) من الفئات المتنفذة التى تمثل رجال الدين الاسلامى ايضا .

وكان يطلق على الحكومة المركزية للامبراطورية لقب «الباب العالى» . ويرأسها الوزير الاول أو الوزير الأعظم ، الذى صار يعرف منذ عهد سليمان القانونى بـ «الصدر الاعظم» والذى كان يقود دفة الدولة . ويرافق الوزير الأعظم دائما الدفتردار ، الذى كانت فى عهدته سجلات الاراضى وتوزيع الاقطاعيات .

---

* فريدريك انجلس ، السياسة الخارجية للقيصرية الروسية ، ـ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٢٢ ، ص ٣٣ .

وكان السلطان نفسه يبت في شؤون الدولة الهامة . بينما كان يجتمع الديوان لأخذ القرارات بشان القضايا الاكثر أهمية . ويتألف الديوان من الوزراء وقادة الجيش الكبار ومن الوجهاء الآخرين .

وكان الجيش يحتل مكانة بالغة الاهمية في حياة الامبراطورية العثمانية الاقطاعية الحربية وتقوم اسسه على الفرسان الذين كان يجب عليهم المرابطة داخل حدود تلك المناطق حيث تقع تيماراتهم . وتعرف كل منطقة «بالسنجق» أو «اللواء» . ويشكل الفرسان الذين يقيمون ضمن حدود السنجق الواحد وحدة عسكرية من الخيالة العثمانية . وتحشّد هذه الوحدات العسكرية عند نشوب حرب ما وذلك تحت راية «سنجق بكى» (اى بك السنجق) ، الذى كان يقود المنطقة أو «السنجق» ويدير في الوقت ذاته شؤون فرسان سنجقه .

وتتكون كل ولاية (باشوية كانت أم ايالة) من بضعة سناجق . ويترأس الولاية الواحدة مع وحدة فرسانها الباشا أو «بكلر بكى» (أى رئيس البكوات) . وبالاضافة الى وحدة الفرسان كان لدى كثرة من الباشوات حرس اقطاعى شخصى من المماليك أو المرتزقة (وكان يقوم المغاربة بهذا الدور عادة) .

وكان المشاة العثمانيون يتكونون من الانكشارية (وهى كلمة تركية «يكيجرى» تعنى الجيش الجديد) . وكانت فيلقا من المشاة المحترفين له امتيازاته الخاصة ، وشكل في القرن الرابع عشر . وأحتوت صفوفه ، في بادئ الامر ، من الصبيان السلافيين الاسرى ، الذين اجبروا على اعتناق الاسلام عنوة ودربوا تدريبا عسكريا . ولم تكن لديهم عوائل ولا أية علاقة بالسكان المحليين . وكانوا يقومون بخدمة السلطان التركى بغيرة وحماس . وكان فيلق الانكشارية ينقسم الى وحدات (أو «وجاقات») يترأس كل واحدة منها اغا ـ ويتمتع بامتيازات كثيرة . وحصل افراد الانكشارية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر على حق الاقامة خارج «الوجاق» وعلى حق الزواج ، وتكوين اسرة خاصة بهم ، وتعاطى الحرف والتجارة في الوقت الذى كانوا

يواصلون فيه مهام الخدمة العسكرية ،التى غدت لديهم تقاليد وراثية . وهكذا نشأت طبقة خاصة من الانكشارية ، جند منها حرس السلطان وتشكيلات الشرطة العسكرية من أجل جباية الضرائب والخراج وقمع الفتن والثورات . وقد قاسى العديد من مدن واقاليم الامبراطورية العثمانية الامرّين من تجاوزات واستهتار الانكشارية ، ووقعت مرارا تحت سيطرتهم كليا (مثلا صربيا والجزائر وتونس) . وغدا نفوذهم كبيرا حتى فى القسطنطينية ، اى فى عاصمة الامبراطورية نفسها .

وبالاضافة الى الفرسان النبلاء والانكشارية والمرتزقة ، التجأ السلاطين الاتراك وولاتهم المحليون الى مساعدة القبائل المحاربة التى لعبت دورا بالغ الاهمية فى اطراف الامبراطورية العثمانية واقاليمها المتاخمة .

ولقد فرض الاتراك على الاقطار العربية تقسيماتهم الادارية . وكانت سوريا وفلسطين مقسمتين الى اربع ولايات مراكزها حلب ودمشق وطرابلس وصيدا (واصبحت عكا فى نهاية القرن الثامن عشر ولاية ايضا) . وجعلت منطقة مدينة القدس سنجقا خاصا . وكانت فى العراق ولايتان : الموصل وبغداد ؛ وفى الجزيرة العربية ، ولايتان ايضا وهما الحجاز واليمن . وكانت مصر وطرابلس وتونس والجزائر ولايات مستقلة بعضها عن بعض . واخيرا ، أصبح الساحل الصومالى ولاية الحبش المستقلة وذلك منذ منتصف القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر . وحافظت منطقة لبنان على استقلالها الذاتى تحت سيطرة الامراء العرب .

وكان يتمتع ولاة السلطان بسلطة مطلقة فى ولاياتهم . ولم تزعجهم الحكومة المركزية بفرضها عليهم وصاية فى صغائر الامور . وكان الولاة انفسهم يقومون حسبما يرونه مناسبا ، بفرض الضرائب وجبايتها وبتوزيع الاقطاعيات ، واقامة العدالة وانزال العقاب وقيادة الجيوش وشن الحرب على جيرانهم أو على اتباعهم المتمردين .

ولم تكن ثمة صلات وثيقة بين الاقاليم المنفصلة بعضها عن بعض . فبينما كانت الامبراطورية العثمانية تبدو فى الظاهر دولة

مركزية ، كانت فى الواقع دولة لامركزيـة . اذ كانت تفتقر الى التلاحم الداخلى فى اقتصادها والى الوحدة الوطنية . وكانت بالفعل عبارة عن تكتل من مختلف الاقطار والشعوب التى توحدت بحد سيف الفاتح . وهكـــذا كانت قـوى انفصاليـــة تفتت اركان الامبراطورية رويدا رويدا .

تفسخ النظام الاقطاعى العثمانى . دخلت الامبراطوريـــة العثمانية فى اواخر القرن السابع عشر ازمة خطيرة جدا ترددت صداها فى كافة ميادين الحياة الاجتماعية . فقد تدهور الاقتصاد ، ودب الفساد فى ماكنة الدولة ، وخرجت الاقاليم عن طاعة الحكومة المركزية ، وفقد الجيش المتفسخ قدرته القتاليـــة ، وانحطت الثقافة . وقارن كارل ماركس وفريدريك انجلس تركيـــا فى ذلك الحين بجثة حصان قد تعفنت ودب اليها الفساد ، «فانتشر منها ما فيه الكفاية من غاز المستنقعات وغيره من المواد «العطرية» الغازية» * .

ولقد أفضى تفسخ النظام الاقطاعى العثمانى الى هذه الازمة . اذ جعلت علاقات الانتاج الاقطاعى تطور القوي الانتاجية اللاحق امرا مستحيلا ، فضلا عن تحطيمها للقوى الانتاجية الموجودة .

وكانت تركيا والممتلكات العربية التابعة لها بلادا زراعية والمنتج الاساسى فيها هو الفلاح ، الذى كان يتعاطى الزراعة فى الاستثمارة الصغيرة مستخدما لذلك عملـه الشخصى ومستعينـا بالادوات الانتاجية البدائية لحرث الارض المخصصـــة له . وكان القانون الاساسى لهذا النوع من الاقتصاد هو اعـــادة الانتـــاج البسيطة . اذ كان يستهلك قسم من المحاصيل ، وهو المحصول الضرورى ، لاعادة انتاج وسائل الانتاج البدائية والقوة العاملة ؛ والقسم الآخر ، وهو المحصول الزائد كان يغتصب كليا ويستهلك من قبل طبقة المستغلين الاقطاعيين الطفيلية . وبنمو العلاقات

---

* كارل ماركس وفريدريك انجلس ، السياســـة البريطانيـــة .ـــ دزرائيلى .ـــ المهاجرون .ـــ مازينى فى لندن .ـــ تركيـــا ،ـــ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٩ ، ص ٥ .

البضاعية النقدية والتجارة الخارجيـــة ، ازداد شره الاقطاعيين ايضا . فشيدوا قصورا فخمة فى بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها من المدن المركزية . وجلب اليهـا التجـــار الاوربيون والشرقيون الهمامون مواد الترف والنعيم من كافة انحاء المعمورة ، فدفعت اثمانها مما انتجته الاستثمارات الفلاحية المحلية . ولسدّ حاجات الاقطاعيين المتزايدة ، كان من الضرورى تزويد الاسواق بكميات من هذه المنتجات أكثر فاكثر .

واستنفد النهب الاقطاعى الاقتصاد الفلاحى بصورة فظيعـــة . فاخليت القرى من سكانها ، واهملت الاراضى المنزرعة . وأصبحت الحقول التى كانت مستثمرة بالامس القريب ، مغطاة بادغـــال الاشواك ، وتحولت الى ارض موات . وأصبـــح أكثر من نصف مساحة الاراضى فى عداد «الاراضى الموات» . وصارت المجاعة ظاهرة يتكرر وقوعها مع مرّ الزمن .

وقد طبّق بدقة متناهية مبدأ التكافل الجماعى فى القرى . فان هلكت اسرة فلاحية ما يصبح ما عليها من الضرائب عبئـــا اضافيا على عاتق الاسرة الفلاحيـــة المجاورة لها . وان انقرضت قرية ما عن بكرة ابيها ، تدفع القرية المجاورة ضرائبها . ولقد أفضى هذا النظام الى خراب القرية العربية اكثر فاكثر .

وكلما ازدادت اضرار الاقتصاد الفلاحى ، كلمـــا اشتدت ضراوة الصراع بين مختلف الفئات الاقطاعية من أجـــل حـــق استغلاله ، وحدة الصراع من أجل الاقطاعيات العسكرية والضياع . وقام كبار الاقطاعيين باغتصاب اراضى صغار الفرســـان . وقد كتب قجى بك قومورجى (المتوفى حوالى عام ١٦٥٠) معبرا عن ارائهم ، بلهجة السخط والغضب حول مختلف انواع الاوغـــاد واللئام وزيادة نفوذهم ورفاهيتهم ، وعن كيفية اغتصابهم لاراضى التيمارات والزعامات فقال : «ان ملاكى الاقطاعيـــات الكبيرة والصغيرة الذين كانوا المحاربين الحقيقيين فى سبيل الدين والدولة ، حرموا الآن من وسائل الحياة ولم يبق لهـــم أى اثر يذكر ولا اسم» . وقد تقاعس الاشراف عن اداء الخدمة العسكرية بالوقت الذى كانوا يغتصبون فيه الاقطاعيات العسكرية . وقد حذا حذوهم

صغار الفرسان ، الذين توجّع لمصيرهم قجى بك قومورجى .
واذا كان بوسع السلطان ان يجنّد فيما مضى ما يتراوح بين ١٠٠ـ١٢٠ الف اقطاعى ، فلم يكن يلحق فى الحملة العسكرية فى القرن السابع عشر سوى ما يتراوح بين ٧ آلاف و٨ آلاف شخص ، وكانت أكثريتهم من المرتزقة والخدم . ومع ان اصحاب الاقطاعات قد تجنبوا الخدمة العسكرية الا انهم كانوا يسعون الى الاحتفاظ باراضيهم . ونحن نرى فى هذه الحقبة من الزمن نزعة واضحة كل وضوح ترمى الى جعل الاقطاعيات العسكرية ممتلكات خاصة وراثية . ولقد ادت هذه العملية ، التى كان اساسها خراب الاقتصاد الفلاحى ، الى تقويض شوكة الامبراطورية العثمانية ، أى الى تقويض جيشها .

وعم هذا الصراع من اجل حق استغلال الفلاحين ، الذين اصابهم الخراب ، فى الاقطار العربية . وازدادت حدته فى القرن الثامن عشر وذلك بسبب تدهور القرصنة والهزائم المنكرة التى الحقت بالجيش ، الامر الذى حرم الاقطاعيين من أهم موارد ثروتهم . وتكاثر على السواء تمرد الشيوخ العرب والامراء على الباشوات ، وعصيان الباشوات على الباب العالى . واندلعت نيران النزاعات الاقطاعية ، وتوسعت الانفصالية الاقطاعية . واستقلت معظم الاقاليم العربية فعلا عن السلطان التركى ، وانتقلت تحت سيطرة الطغمات الاقطاعية المحلية ، التى حاول رؤساؤها الانفصال عن الباب العالى كليا وتشكيل اسر حاكمة مستقلة .

وهكذا قامت فى بغداد اسرة حاكمة باشوية مؤسسها حسن باشا ، حكمت العراق طيلة القرن الثامن عشر . وكان نفوذها يمتد بين آونة واخرى الى سائر انحاء العراق ، وهذا عندما كان يخضع اليها حكام الموصل . وخضع الى هؤلاء الباشوات المتسلمون الذين كانت فى قبضتهم اقسام مختلفة من العراق (وكان العديد منهم يحمل لقب الباشا ايضا) . وباءت بالفشل كافة محاولات الباب العالى لخلع هذه الاسرة . ولم يصمد الباشوات الذين عينهم الباب العالى حكاما فى بغداد سوى بضعة اشهر . اذ عزلهم المماليك وقضوا عليهم وتادوا بالوريث التالى لاسرة حسن باشا ، باشا

جديدا . وفى عام ١٧٨٠ اغتصب السلطة فى بغداد سليمان باشا الكبير (بويوق سليمان) زعيم المماليك . فاوجد اسرة باشوية جديدة هى الباشوات المماليك ، حكمت بغداد حتى عام ١٨٣١ . وكان لدى باشوات بغداد بلاطهم الخاص الذى انشئ على شاكلة بلاط السلطان فى استانبول بحريمه الواسع وحاشيته الشرهة وعبيده الكثيرين وفخفخته الشرقية الخيالية .

وساد وضع مماثل فى طرابلس الغرب حيث حكمت منذ عام ١٧١١ اسرة انكشارية من البكوات القرمانيين . وكانت هذه الاسرة مستقلة عن الباب العالى استقلالا فعليا تاما .

وفى تونس حكمت الاسرة الحسينية منذ عام ١٧٠٥ . وكان مؤسسها الباى حسين بن على تركي واصبحت تونس تحت سيطرة بكوات هذه الاسرة ، دولة مستقلة استقلالا كاملا ، غير تابعة الى سلطة السلاطين العليا الا بالاسم .

اما فى الجزائر ، فكانت السلطة فى ايدى الانكشارية الذين حولوا البلاد ، فى الواقع ، الى دولة اقطاعية مستقلة . وقام قواد الانكشارية بمساعدة الاقطاعيين المحليين وشيوخ القبائل المحاربة بفرض الجزية على البدو والفلاحين ، وبجباية الضرائب الفادحة لمصلحتهم الخاصة ، واغتصاب الاراضى . ومن اجل ادارة شؤون البلاد ، اختار مجلس قادة الانكشارية من بين اعضائه الداى ــ اى حاكم الجزائر ، وهو منصب يتمتع صاحبه به مدى العمر ، ولكنه لا ينتقل بالوراثة . وكان تحت امرة الداى اربعة بكوات يترأسون الاقاليم الجزائرية الاربعة .

اما فى مصر فى اواسط القرن الثامن عشر ، فقد استولى البكوات المماليك على زمام الحكم وازاحوا «الوجاقات» الانكشارية ، التى كانت قد اصبحت ، كما قال فولنى ، شرذمة من الصعاليك المتشردين والاوباش . وبذلك انتقلت ادارة البلاد الى ايدى أقوى طغمة من المماليك يعرف رئيسها بشيخ البلد ، الذى جعل نفسه حاكما على البلاد . فاصبح الباشا ، فى الواقع ، سجينا لدى بكوات المماليك وصار كما ذكر فولنى «يُعزل ويُطرد ويُنفى» . وكان اول حكام المماليك فى مصر فى القرن الثامن عشر ابراهيم بك الذى

حكم من ١٧٤٦ الى ١٧٥٧ . ولم يكن هو نفسه مملوكا . وبما انه كان كخيا الانكشارية ومن البكوات الاتراك ـ فقد استطاع تشكيل حرس من المماليك واغتصاب السلطة بمساعدتهم . وأغدق العطاء على مماليكه اذ منحهم الاقطاعيات والمناصب وعيّن العديد منهم بكوات . وبعد موته جرى صراع قاس فى سبيل الاستيلاء على الحكم . وانتصر علي بك الملقب بالكبير ، واصبح فى عام ١٧٦٣ حاكما على مصر . وبعد مضى ست سنوات أعلن استقلال مصر . ولكنه هلك فى عام ١٧٧٣ فانتقلت بذلك السلطة الى ايدى الطغمتين المتنافستين من المماليك برئاسة مراد بك وابراهيم بك .

وأفضت الانفصالية الاقطاعية والنزاعات الى انحلال الدولة العثمانية المترامية الاطراف ، التى لم يتم انشاؤها بنتيجة التطور الاقتصادى بل بنتيجة الاحتياجات العسكرية للنظام الاقطاعى العثمانى فى مجرى حروب هدفها السلب والنهب . وقد نشأت هذه الدولة ، كسائر دول اوربا الشرقية ، ذوات القوميات الكثيرة ، فى اطار التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية قبل تكوين الامم فيها ، وقبل القضاء على التفتت الاقطاعى . ولهذا كان توحيد شعوب مختلفة ، لها مستويات حضارية متباينة ، بصورة مفتعلة فى دولة مترامية الاطراف لم تكن عملية من شأنها ان تعمّر طويلا . وقد ادت التناقضات بين التركيب الاقطاعى للمجتمع بميوله المتنافرة والشكل المركزى للدولة العثمانية الى اضعاف الامبراطورية حتما .

تدهور النفوذ الخارجى للدولة العثمانية . اما الازمة الداخلية العميقة التى استولت على الامبراطورية العثمانية فكانت نذيرا بالتدهور الذى أخذ يدب فى كافة انحائها منذ القرن الثامن عشر . اذ تضعضعت سلطة الباب العالى السابقة ونفوذه . وبينما كانت الامبراطورية العثمانية من الناحية العسكرية أقوى دولة فى اوربا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، اذ كانت قد سجلت انتصارات عديدة واضافت الى ممتلكاتها اقطارا كثيرة ، وكان جيشها المؤلف من مشاة انكشارية وفرسان ، جيشا لا يقهر ، اما الآن فاصبحت فى وضع لا يؤدى فيه الفرسان والانكشارية واجباتهم العسكرية الاساسية ولا يذهبون الى الحرب الا كرها

وليس بمحض ارادتهم . ومع ان الاسلحة العسكرية وكذلك الفنون الحربية كانت قد تطورت كنتيجة لتطور الصناعة آنذاك كما كان الحال فى اوربا ، الا ان مستوى الجيش العثمانى ظل كما كان عليه خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكنتيجة لهذا التأخر انتقلت الامبراطورية العثمانية من الانتصار الى الاندحار ومن الهجوم الى الدفاع ومن التوسع فى ممتلكاتها الى فقدانها .

وفى نهاية القرن السابع عشر ، منيت تركيا باول هزيمة بالغة . وانتهت السنوات العديدة التى خاضت فيها الحرب ضد النمسا وروسيا وبولندة والبندقية بتوقيع معاهدة صلح كرلوفيا (كرلوفتز) فى عام ١٦٩٩ ، التى اضطرت بموجبها الى التنازل عن آزوف لروسيا ، وبودوليا الى بولندة ، واواسط المجر وترانسلفانيا وباتشكا وسلافونيا الى النمسا ، ومورة (البيلوبونيز) وعدد من جزر الارخبيل الى البندقية .

ومع ان تركيا استطاعت بعد فترة قصيرة استرجاع مورة والاستيلاء على آزوف موقتا ، الا انها اضطرت الى التنازل فيما بعد عن اقليم « بنات » وقسم من صربيا الى النمسا وذلك بموجب معاهدة بساروفتز التى وقعتها فى عام ١٧١٨ . وبموجب معاهدة بلغراد عام ١٧٣٩ ، انتزعت من سيطرتها منطقتا آزوف وكاباردا واعلنتا منطقتين محايدتين (اى « حاجزا ») . وتوجت سنوات الحرب الطويلة التى جرت بين روسيا وتركيا بتوقيع معاهدة كوجوك قينرجى فى عام ١٧٧٤ التى منحت روسيا بموجبها حصن كرتش ويينى قلعة وكينبورن ، وكذلك منطقة كاباردا . وأعلنت القرم وكوبان استقلالهما عن تركيا ؛ وألحقتا بعد مدة قصيرة (فى عام ١٧٨٣) بروسيا . وحصلت روسيا وفق معاهدة كوجوك قينرجى ايضا على حرية الملاحة فى البحر الاسود والمضايق لاغراضها التجارية .

ثم اصبح فى حوزة روسيا كذلك بموجب معاهدة ياسى التى ابرمت فى عام ١٧٩٢ ، كل الساحل الشمالى من البحر الاسود ، وامتدت حدودها الى دنيستر . وفى عام ١٨١٢ استولت بموجب معاهدة بوخارست على بسارابيا .

وقد فرضت الضرورات الاقتصادية اللازمة للتجار والملاكين

العقاريين الروس نزاعا بين روسيا وتركيا بخصوص البحر الاسود وشبه جزيرة البلقان . وقد نما فى روسيا الانتاج البضائعى وأصبح الملاكون العقاريون والتجار بحاجة الى منفذ يؤدى الى مياه البحار الدافئة التى لا تتجمد فى فصل الشتاء لكى ينقلوا الى اوربا بضائعهم، كالحبوب والاخشاب والقنب والفراء . وكانت اهمية البحر الاسود للتجارة الروسية كبيرة جدا وذلك لان العديد من الانهار الروسية الكبيرة تصب فيه . غير ان البحر الاسود كان فى حوزة الاتراك الذين أغلقوا بصورة محكمة الممرين الخادمين كمنفذ منه — الدردنيل والبوسفور ، اذ لم يسمح الاتراك بمرور السفن الروسية عبر هذين المضيقين . وفى نفس الوقت ، كانت قضية الاستيلاء على القسطنطينية منسجمة مع رغبة القيصرية فى السيطرة فى اوربا . كما كان الملاكون العقاريون والتجار النمساويون يطمحون الى ضمان منفذ لصادراتهم التجارية المتزايدة يؤدى الى موانئ بحار المياه الدافئة . بهذا السبب كانت النمسا تطمع فى الاستيلاء على ساحل بحر الادرياتيك وحوض الدانوب . فتشابكت بذلك مطامع النمسا التوسعية فى البلقان مع مطامع روسيا التوسعية ، وانسجمت معها ايضا من نواح عديدة . فادى ذلك الى وقوع نزاعات بينهما لا مندوحة عنها . غير ان هذه النزاعات لم تمنع هاتين المملكتين الاقطاعيتين من الاتفاق فيما بينهما لتقسيم تركيا .

وكانت كل من انكلترا وفرنسا تسعيان بدورهما الى اشرافهما على استانبول والمضايق وعلى مصر والجزائر وتونس وسوريا والعراق . ومع ان هذه المطامع كانت قد ظهرت فى القرن الثامن عشر، غير أنها لم تتطور بصورة كاملة الا فى القرن التاسع عشر . ومع تطور الرأسمالية اللاحق ، تزايدت أطماع الدول الكبرى باستمرار تجاه الشرق الادنى ، واشتد الصراع ضراوة فيما بينهما من اجل تقسيم الامبراطورية العثمانية . وشغل هذا الصراع ، وقضية مصير الامبراطورية العثمانية وممتلكاتها ، الذى اصطلح عليهما فى التاريخ والادب السياسى اسم «المسألة الشرقية» ، مكانا هاما فى الدبلوماسيا الاوروبية خلال القرن التاسع عشر .

الحركات الشعبية وكفاح الشعوب العربية التحررى . أثار النير الاقطاعى التركى ، نير السلاطين والباشوات والانكشارية والفرسان ، انتفاضات عديدة قامت بها شعوب الامبراطورية العثمانية . وكانت هذه الانتفاضات تعبيرا وانعكاسا للتناقض الطبقى الاساسى وهو التناقض بين الاقطاعيين والفلاحين ، كما كانت انعكاسا للتناقض القومى الاساسى وهو التناقض بين المستعبدين والشعوب المستعبَدة . وبقدر ما كان النير الاقطاعى فى الامبراطورية العثمانية يحمل ، كالعادة ، شكل النير الاجنبى فبذلك القدر اقترن نضال الفلاحين ضد الاقطاعيين بالحركات التحررية الوطنية وامتزج بها . كما ان البرجوازية ، التى كانت ، فى طور تشكلها كطبقة فى اليونان وصربيا ومصر خلال القرن الثامن عشر قاست هى الاخرى من النير الاقطاعى العثمانى ، اسهمت فى النضال ضد الاقطاعية .

وعلى وجه العموم . يمكن ذكر نوعين من الحركات : الحركات الشعبية التى كانت موجهة، فى تركيا نفسها ، ضد النير الاقطاعى والتى كانت تلاقى سندا من قبل الشعوب المضطهَدة كما اصطبغت ، على وجه العموم ، بصبغة طبقية . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كانت هنالك حركات الشعوب المضطهَدة ولها طابع الحركات التحررية الوطنية .

وكانت من اكبر الحركات الشعبية المعادية للاقطاعية فى تركيا نفسها ، الانتفاضة التى جرت فى ١٤١٥ــ١٤١٨ برئاسة بدر الدين السماوى ، وانتفاضة قره يزيجى فى نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر .

وامتدت انتفاضة بدر الدين السماوى عبر أراض واسعة من البلقان حتى شرقى الاناضول . وقد ندد الشيخ بدر الدين ، زعيم الانتفاضة بالمستثمرين بضراوة فى خطابات ألقاها فى ذلك العهد ودعا الى المساواة العامة والى تصفية الطغيان الطبقى والى شيوع الممتلكات . كما دعا الى وحدة الكادحين لجميع القوميات والاديان . وفى صفوف الثوار حارب المسلمون جنبا الى جنب مع المسيحيين واليهود والاتراك الى جنب اليونان والسلاف .

وامتدت حدود انتفاضة قره يزيجى الجغرافية الى أبعد من ذلك . فشملت البلقان وأسيا الصغرى وشمال سوريا والعراق .

واستولى الثوار على بغداد وبقيت تحت حكمهم سنوات عديدة . وقد أسهم الفلاحون العرب والبدو فى هذه الانتفاضة الى جانب الفلاحين الاتراك وصغار الفرسان وحتى عدد من الباشوات ايضا . وان المستوى العالى لهذه الحركة ونطاقها الواسع ، شانهما شان انتفاضة بدر الدين ، جعلها فى مصاف انتفاضات ووت تايلر وتوماس مونزر ويان هوس والانتفاضات الفرنسية المعروفة باسم «الجاكرى» ومع حروب الفلاحين الروس التحررية فى تلك الآونة .

ولم تكن الانتفاضات التحررية للشعوب المضطهَدة باقل عنفا منها . وكانت البلقان ومنطقة ما وراء القفقاس وكذلك الاقطار العربية اهم مراكز الحركات التحررية المضادة للاتراك . وبالرغم من قيادة الاقطاعيين لهذه الحركات فى بعض الحالات ، فقد كانت فى الاساس حركات شعبية حقيقية .

وكان لبنان واحدا من اهم المراكز العربية لمقاومة الاتراك . واستولت جيوش سليم الاول عام ١٥١٦ على لبنان وعلى المناطق الجبلية من سوريا وفلسطين . وعهدت ادارة هذه المناطق الى فخر الدين الاول — وهو أمير من الاسرة المعنية الذى قدم الولاء للباب العالى . ولقد ازعجت الاتراك محاولاته التى كانت ترمى الى التملص من دفع الجزية . فقرروا فى النهاية بسط نفوذهم المباشر على البلاد . ولكنهم لاقوا مقاومة ضارية من الفلاحين ومن الاقطاعيين اللبنانيين . وعلى هذا الاساس نشب صراع مديد وعنيد . وتوفى فخر الدين الاول مسموما فى عام ١٥٤٤ فى بلاط باشا دمشق ، واستشهد ابنه قرقماس ، كغيره من ممثلى الاشراف اللبنانيين ، فى عام ١٥٨٥ حينما كان يقاتل الاتراك الذين كانوا قد شنوا حملة تنكيلية كبيرة على لبنان .

وبدأت مرحلة جديدة من المقاومة عام ١٥٩٠ عندما اعتلى السلطة الامير فخر الدين الثانى نجل قرقماس . وكان هذا التلميذ الامين لماكيافلى ، درزيا تقنّع بقناع المسيحية فى حال الضرورة ، وسياسيا ماهرا ، وبارعا فى حبك الدسائس . وكانت له عيون فى القسطنطينية وفى قصور الباشوات ودور الاتباع . وقد حاك المؤامرات وبذر الشقاق فى صفوف أعدائه . وقد قام بدفع جزية

ضخمة للخزينة العثمانية ارضاء للسلطان فى بادئ الامر ، وتقاسم معه الغنائم الحربية . فعينه السلطان واليا لا على جبال لبنان فحسب ، بل وعلى المناطق الساحلية التابعة له وكذلك على قسم كبير من سوريا وفلسطين .

وكانت الغاية الاساسية من خطة فخر الدين الثانى العريضة الاهداف هى شن حملة صليبية ضد السلطان بمساعدة الغرب . وعندما استعد لهذه الحملة ضد الباب العالى ، شرع فى مفاوضات مع الايطاليين ، وانشاء الحصون وتقوية جيشه الذى كان قد بلغ عدده آنذاك ٤٠ الف مقاتل . وأعلن فخر الدين الثانى الثورة عام ١٦١٣ واشترك فى القتال ضد القوات التركية جميع سكان لبنان . غير ان الغلبة كانت للعثمانيين . واضطر فخر الدين الثانى الى الهرب من لبنان الى ايطاليا حيث أمضى خمس سنوات . وسحرت حاشيته الفخفخة وثروته الطائلة الاوربيين وتركت اثرا عميقا فى نفوسهم . وكانت دبلوماسية فخر الدين اقل حظا ونجاحا . اذ فشلت خطته التى كانت ترمى الى تكوين اتحاد ضد الاتراك بمساهمة فرنسا وفلورنسه والفاتيكان وفرسان القديس يوحنا فى جزيرة مالطة وغيرها من الدول.

وعندما تسنّم عثمان الثانى العرش عام ١٦١٨ ، عفا عن فخر الدين الثانى عفوا فعاد الى لبنان . ولم يكد يسترجع ممتلكاته حتى صار يعنى بها ووضع خطة لتطويرها اقتصاديا ، وشجع التجارة الخارجية واندفع فى «فرنجة» البلاد . وقسّم بيروت الى شوارع مشجرة متسّعة على الغرار الاوربى ، وشيد المبانى الجديدة فيها . وارسل مجموعة من الشباب للدراسة فى ايطاليا . وكان ذلك فاتحة للثقافة المارونية الروحية الجديدة . كما حفز الاوربيين على دراسة اداب اللغة العربية . وأعلن فخر الدين الثانى العصيان والتمرد للمرة الثانية فى اوائل الثلاثينيات ولكنه فشل ايضا . فأخذ اسيرا وأرسل كرهينة الى القسطنطينية . وفى عام ١٦٣٥ اندلعت الثورة للمرة الثالثة فشنق فخر الدين الثانى ونهبت امارته .

ومع ذلك استمرت مقاومة الغرب للنير العثمانى . وخلال القرن السابع عشر جرى صراع بين فريقين متناحرين من الاشراف اللبنانيين أحدهما القيسية (او «الحمر» كما كانوا يلقبون انفسهم)

وقاوموا برئاسة الاسرة المعنية الطغيان التركى ، وكسبوا بذلك مساندة الفلاحين اللبنانيين . اما الفريق الثانى فهو اليمنيــــة (او «البيض») . وكان هذا الفريق تحت قيادة امراء أسرة علم الدين ويسانده الاتراك . وجرى الصراع سجالا بين الفريقين المتناحرين . الا ان الحظ كان فى اغلب الاحيان حليف القيسية ، الذين وطدوا سلطتهم فى لبنان مرات عديدة . وبعد انقراض آل معن فى عام ١٦٩٧ أصبحت القيسية تحت قيادة امراء الاسرة الشهابية .

وفى عام ١٧١٠ قام الاتراك بالاشتراك مع اليمنيين بمحاولة اخرى للقضاء على فرق امراء القيسية . فبالاطاحة بالامير حيدر الشهابى ، كان فى نيتهم تحويل لبنان الى ولاية تركية اعتيادية . غير ان القيسيين هزموا الاتراك واليمنيين شر هزيمة ، وذلك بعد مرور عام واحد فقط (١٧١١) فى معركة دارت رحاها قرب عين دارة ، وقد قتل فى المعركة كافة ممثلى اسرة علم الدين . واضطر الاتراك من بعدها الى التخلى عن خططهم ، وكفوا عن التدخل فى شؤون لبنان الداخلية لمدة طويلة .

وكان لاحدى المحاولات الخطيرة التى قام بها الحكام العرب المحليون لتخليص أنفسهم من النير العثمانى البغيض والحصول على الاستقلال ، صلة بالحرب الروسية التركية خلال الاعوام ١٧٦٨ — ١٧٧٤ . اذ قد ساندت دبلوماسية الدول الاوربية ، وخاصــة دبلوماسية روسيا القيصرية ، رغبة منها فى اضعاف تركيا ، حركات التحرر الوطنى فى البلقان وفى الاقطار العربية مساندة قوية . وسعى رؤساء وقادة القوى الثائرة بدورهم الى التحالف مع روسيا لبلوغ غاياتهم بمساعدتها .

وفى عام ١٧٦٩ أعلن على بك الكبير حاكم المماليك فى مصر استقلاله عن الاتراك منتهزا فرصة اندلاع الحرب ضد روسيا . وان هذا المملوك الابخازى الاصل ، الذى كان يعطف على روسيا لمدة طويلة ويخفى كرهه للباب العالى ، كان قد أعلن نفسه حاكما مستقلا على البلاد وانتحل فى عام ١٧٧٠ لقب «سلطان مصر وخاقـــان البحرين» . وصار اسمه يذكر أثناء الخطب الملقاة فى جوامع مصر والحجاز التى خضعت لسيطرته فى عام ١٧٧٠ .

ودخل على بك ، لتقوية كفاحه ضد الاتراك ، فى تحالف مع الشيخ ظاهر العمر ، حاكم صفد (وهى احدى مناطق فلسطين) . وكان الشيخ ظاهر العمر ، القيسى الاصل ، منهمكا لسنين طويلة فى توسيع ممتلكاته ، بالطرق المشروعة وغير المشروعة على السواء ، تلك الممتلكات التى كان قد منحها الى والده امير لبنانى . واستولى الشيخ ظاهر العمر فى حدود عام ١٧٥٠ على عكا وهى الثغر البحرى الصغير ، وجعل منها مركزا كبيرا للتجارة البحرية والانتاج الحرفى ، واتخذها عاصمة له . وقام بعدئذ بترميم حصن قديم كان للصليبيين فى عكا ، فجعل منه حصنا منيعا الى درجة انه صد فيما بعد جيوش نابليون بونابرت نفسها . واستخدم الشيخ ظاهر العمر القسم الاكبر من الموارد الضخمة التى كان يدر بها نظام التزامات الاراضى والاحتكارات ، وكذلك مختلف انواع الضرائب وابتزاز الاموال ، بصورة خاصة لتجهيز جيشه (كان عدد قواته فى ايام الحرب ما بين ٦٠ الف و ٧٠ الف محارب) واسطوله .

هذا وقد قرّر على بك ، بعد ما قطع العلاقات مع الباب العالى ، ان ينال مساعدة روسيا ، وكان الاسطول الروسى مرابطا آنذاك فى بحر الارخبيل تحت قيادة الكونت اورلوف . وعندما تم تدمير الاسطول التركى فى موقعة جشمة الشهيرة فى الخامس والعشرين والسادس والعشرين من شهر حزيران (يونيو) عام ١٧٧٠ ، وطد الروس سيطرتهم على البحر واستولوا على بعض جزر الارخبيل ، مساندين بذلك الثوار اليونانيين مساندة فعّالة . وفى مستهلّ عام ١٧٧١ وصل مبعوثون خاصون من قبل على بك الى مقر قيادة الكونت اورلوف فى جزيرة باروس . فتمّ الاتفاق بينهم على القيام بنضال مشترك ضد الاتراك .

وقد افلحت خطة على بك فى بادئ الامر . اذ شرع المصريون بمساندة قوات الشيخ ظاهر العمر بشنّ حملة كبيرة على سوريا فى عام ١٧٧١ ، واستولوا على دمشق وصيدا وحاصروا يافا . غير ان خيانة قادة المماليك غيّرت مجرى الثورة بصورة فجائية . اذ سحب ابو الذهب ، قائد القوات المصرية مماليكه من

دمشق فجأة وحصن موقعه فى الوجه القبلى وشرع بالنضال ضد على بك . وانحازت اكثرية بكوات المماليك الى جانب ابى الذهب . فمنى على بك بالفشل وهرب ملتجئا الى حليفه فى عكا . وبعد فقدان دمشق ومغادرة المماليك ، أصبحت أوضاع الشيخ ظاهر العمر اكثر تعقدا . وانضم يوسف الشهابى ، أمير لبنان الى الاتراك ، فحاصروا معا صيدا . وقدم الى سواحل سوريا وفقا لطلب الحلفاء ، الاسطول الروسى بقيادة ريزو ، الذى ساعد على رفع الحصار عن صيدا واستولى على بيروت (فى ايار مايو ١٧٧٢) . وبعد عقد الهدنة مع الاتراك فى خريف عام ١٧٧٢ غادر الروس سواحل سوريا واصبحت بيروت تحت حكم الاتراك ثانية .

وأرسل الكونت اورلوف ، فى ذلك الاثناء ، وفدا برئاسة الملازم بليشييف ، الى على بك . فقدم الوفد الى الثوار كمية كبيرة من الاسلحة والذخائر . وشرع على بك فى عام ١٧٧٣ بمحاربة بكوات المماليك المتمردين ، معتمدا على جيشه الذى اعاد تنظيمه والذى بلغ آنذاك عدده ٦ آلاف محارب ومع ذلك فان جيوشه هزمت فى معركة قرب الصالحية (شرقى الدلتا) . وأصيب على بك نفسه بجرح خطير وأخذ أسيرا وتوفى بعد فترة قصيرة فى القاهرة بتاريخ الثامن من ايار (مايو) عام ١٧٧٣ . فاصبح الشيخ ظاهر العمر فى وضع حرج . غير ان انتهت الهدنة فى حزيران (يونيو) عام ١٧٧٣ بين تركيا وروسيا ووصل الى سواحل سوريا للمرة الثانية قسم من الاسطول الروسى بقيادة كوجوخوف ، وقطع يوسف الشهابى امير لبنان علاقاته مع الاتراك وعقد تحالفا مع الروس والشيخ ظاهر العمر . وبعد حصار استمر ثلاثة أشهر ، استولت روسيا على بيروت . وفى تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٧٧٣ قدّم يوسف الشهابى طلبا الى الامبراطورة يكاترينا الثانية بأن تجعله تابعا لروسيا وان تضع لبنان تحت الحماية الروسية . وقد رفض هذا الطلب بعد توقيع اتفاقية صلح كوجوك قينرجى فى عام ١٧٧٤ ، وغادر الاسطول الروسى سواحل سوريا .

فوجه الاتراك كافة قواتهم ضد الشيخ ظاهر العمر على أثر مغادرة الروس . وفى عام ١٧٧٥ حوصر الشيخ ظاهر العمر فى عكا

ثم قتل بعد ذلك بقليل . فاخمدت الثورة واصبحت عكا ، عاصمة الشيخ ظاهر العمر ، مقرّ احمد الجزار ــ الحاكم التركى ، الذى قرن اسمه باحلك ايام تاريخ سوريا .

وكان احمد الجزار من البوسنة ، واصبح من المماليك فى مصر واستحق لقب الجزار لما اقترفه من مذابح لا تحصى . وقام الجزار خلال سنوات الحرب الروسية التركية بتنظيم مفرزة من المماليك خاصة به لمحاربة الروس . وقد منح باشوية صيدا فى عام ١٧٧٥ جزاء لخدماته البارزة فى اخماد ثورة الشيخ ظاهر العمر ومُنح بعد زمن قليل ولايتى طرابلس ودمشق . فاصبح بذلك الوالى الحقيقى على سوريا كلها . واتخذ عكا مركزا لاملاكه . واشتهر الجزار بقسوة لا مثيل لها فى اخماد الثورات المتعاقبة . وفى عام ١٧٨٠ بدأت فى لبنان حركة تلقائية للفلاحين أسندها بعض الاشراف المحليين . وكان على رأسها عدد من أقرباء يوسف الشهابى ، الذى انحاز مرة اخرى الى الاتراك . وهبّ الثوار ضد الزيادة الفاحشة للجزية ، التى فرضها الجزار على لبنان . ولكنها أخمدت بوحشية . وقام يوسف الشهابى بقطع لسان أخيه ، واقتلع عينى اخيه الآخر وقتل بيديه أحد الشهابيين الذى كان قد انحاز الى الثوار . وغذّى الانكشارية اسراءهم بلحوم البشر .

واندلعت بعدها واخمدت بصورة وحشية ثورات البدو الفلسطينيين ، وفلاحى صيدا . واحتدم الصراع باستمرار فى لبنان حيث كانت فئتان اقطاعيتان متناحرتان قد حفّزتا الفلاحين على انتفاضة واعدتين اياهم بحياة افضل . ونشبت أشدّ ثورة ضد احمد الجزار فى عام ١٧٨٩ . واستولى الثوار على بيروت وصيدا وصور واقتربوا من عكا . وأدت الخيانة التى اقترفها قسم من رؤساء الاقطاعيين الذين باعوا ذمتهم للجزار ، الى سحق الثورة . وفى عام ١٧٩٠ نشبت من جديد ثورة اخرى فى لبنان بسبب تذمر الفلاحين والنزاع الذى كان قد احتدم فى صفوف الطبقة الاقطاعية . ولم تخمد الثورة الا فى عام ١٧٩٧ وذلك عندما استولى على السلطة فى لبنان الامير بشير الثانى ابن اخى يوسف الشهابى ، الذى أخذ يحارب خاله .

وفى عام ١٧٩٨ حدثت ثورة كبيرة فى دمشق . ورفض سكانها دفع الجزية الى الجزار . وقد أفلح الباب العالى فى تسوية النزاع بطريقة ما على اثر تعيين وال جديد فى دمشق . ومع ذلك استمرت الاضطرابات والقلاقل فى سوريا .

اما فى العراق فدامت الانتفاضات مدة ثلاثة قرون بلا انقطاع ، وذلك من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر . وهى حركات قام بها البدو والفلاحون شبه الحضر ، الذين كانت حياتهم قائمة على أساس النظام القبيلى العشائرى . وذاد الثوار عن حقوق ملكية اراضيهم ، وهبّوا بوجه النير الاقطاعى الذى فرضه عليهم العثمانيون . فرفضوا دفع الضرائب للسلطات الحاكمة التركية . فأوفد الباشوات ، ردا على ذلك ، حملات عسكرية خاصة لجباية الضرائب من الرعايا الثائرين . فنشبت على أثر ذلك حروب بين الباشوات والقبائل كانت سنوية متواصلة تقريبا . وقد لعب الاقطاعيون المحليون — من كرد وعرب ، دورا مزدوجا . فكانوا يقومون أحيانا بمساعدة الباشوات لتهدئة قبيلة او أخرى (مقابل رشوة كبيرة عادة) . وغالبا ما كانوا يترأسون الانتفاضات القبيلية ضد الاتراك .

ثم أضيفت الغارات الفارسية الى هذه اللوحة التى اتصفت بالفتن الاقطاعية والثورات . فقد قام شاهات ايران ، وهم يحاربون الاتراك ، كأعدائهم الدائميين باسناد كل عمل من شأنه مناهضة حكم الاتراك فى العراق ، من ثورات قبيلية او حملات باشوية . وكان باشا بغداد يتحد فى بعض الاحيان ، مثلا ، فى الاربعينيات من القرن الثامن عشر ، مع القبائل ومع شاه ايران ويحارب سلطانه .

وشاهدت القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثمانى فى العراق العشرات من الانتفاضات الكبيرة نسبيا . وكانت من اكثرها أهمية انتفاضة القبائل فى جنوب العراق ، التى اندلعت فى عام ١٦٥١ فى نواحى البصرة ، تحت قيادة أسرة السياب الاقطاعية . واستولى الثوار على البصرة نفسها وبقيت مع المناطق المجاورة لها فى قبضتهم لبضع سنوات . ولم يفلح الاتراك فى اخماد الانتفاضة وتنصيب واليهم

فى البصرة الا فى عام ١٦٦٩ . كما اندلعت نيران ثورة قبائل المنتفق العربية عام ١٦٩٠ وشملت واذى الفرات الاسفل والاوسط . واحتل العرب البصرة وشنّوا حملات ظافرة على الجيوش التركية حتى عام ١٧٠١ . وهكذا لم يفلح الاتراك فى قمع هذه الثورة كلية . وقد ابدت قبائل المنتفق مقاومة شديدة ضد الاتراك خلال القرن الثامن عشر كله وذلك اعتمادا على مساعدة شاهات ايران لها . وفى نهاية القرن الثامن عشر سرت موجة جديدة من الانتفاضات الشعبية فى جنوب العراق ، غير ان باشا بغداد بويوق سليمان باشا (الكبير) تمكّن من اخمادها .

وقد أفضت هذه الانتفاضات الكثيرة العدد والنزاعات الاقطاعية الى اضعاف الامبراطورية العثمانية . وسادت الفوضى الاقطاعية فى ارجاء ممتلكات الباب العالى . وهزّت الحركات الشعبية وانتفاضات الجماهير العربية واليونانية والكردية والارمنية والسلافية الأركان المتداعية من الامبراطورية الاقطاعية ، وعجّلت بانهيار النظام الاقطاعى الرجعى العثمانى الذى ولى ومضى زمانه .

الفصل الثانى

الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١)

اسباب الحملة . عندما نشبت الثورة فى فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر ، محطمة النظام الاقطاعى ، بدت البلدان العربية وكانها اقل استعدادا لتقبل الافكار التحررية للثورة . ومع ذلك فقد شُعر بتاثير الثورة الفرنسية بسرعة فى البلدان العربية ايضا وبالدرجة الاولى فى مصر ، اكثر الاقطار العربية تقدما ، حيث كان تفسخ النظام الاقطاعى اكثر مدى ، وحيث كانت تتوفر المقدمات الاجتماعية ـ الاقتصادية الضرورية لخوض الكفاح ضد الاقطاعية . وكان جيش الجمهورية الفرنسية بقيادة الجنرال نابليون بونابرت هو الذى نقل هذا التاثير الى مصر .

وبعد ان فتح نابليون ايطاليا عام ١٧٩٧ وزحف على شبه جزيرة البلقان ، بلغ حدود الامبراطورية العثمانية ، التى كانت تعانى يومئذ من ازمة عميقة . ففى الحروب التى كانت قد خاضتها ضد النمسا وروسيا منذ امد قريب ، منيت بعدد من الهزائم الكبيرة . فاصبحت الامبراطورية ، وهى واهنة القوى وغير قادرة على المقاومة ، هدفا مغريا لكل نوع من المخاطرات التوسعية التى كانت تسعى اليها البرجوازية الفرنسية . وفى ذلك الحين كتب نابليون الى حكومة «الديركتوار» (وهو الاسم الذى كان يطلق عندئذ على الحكومة الفرنسية) : «ان الامبراطورية العثمانية على شفا الهاوية ، وليس ثمة ما يدعونا الى اسنادها» .

ومما زاد فى تأجيج خطط نابليون التوسعية موقع الامبراطورية العثمانية الاستراتيجى . اذ ان الامبراطورية كانت

نسيطر على القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط وعلى ساحله الجنوبى . فاذا ما استطاعت فرنسا السيطرة على الامبراطورية ، بعد ان كانت قد اخضعت شبه جزيرة الابنينو ، فلسوف تكون قادرة على تحويل البحر الابيض المتوسط الى بحيرة داخليــــة تابعة لها . وهكذا تكون قد انزلت ضربة قاضية بعدوها اللدود ــ اى ببريطانيا العظمى ، التى كانت ملهمة كافة التجمعات المعاديــــة للثورة والموجهة ضد الجمهورية الفرنسية . وبالاضافة الى ذلك ، كان يترائى لنابليون بان فتح البلدان العربية الواقعة فى شمـــال افريقيا وفى آسيا الغربية * ، سيتيح الى فرنسا تكوين امبراطورية استعمارية جبارة تعوّض عن الممتلكات الاستعمارية التى خسرتها فى امريكا .

وكان تعزز فرنسا باعثا لقلق البرجوازية الانكليزية الشديد . كما هدّد تطورها الاقتصادى الكبير ، سيادة انكلترا على الاسواق العالمية والمستعمرات . وان صيرورة فرنسا على هذا النحو مـــن شانه ان يهدد الاحتكار الصناعى للرأسمال الانكليزى . ولذا فان بتضييق الخناق على المزاحم والاستيلاء على اسواقه وممتلكاتـــه الاستعمارية وضمها ، تلكم هى الاهداف التى كانت تكافح من اجلها البرجوازية الانكليزية . وكان الصراع الجارى بين انكلترا وفرنسا من اجل السيادة العالمية السبب الاول للحروب الطويلة المتوالية التى ادت فى آخر المطاف الى اعلاء شأن انكلترا وسقوط امبراطورية نابليون .

وكانت الامبراطورية العثمانية فى هذا الصراع من اجل السيادة العالمية الورقة الرابحة الرئيسية التى عزم نابليون على انتزاعها من ايدى الانكليز . وببعد النظر الذى كان يتصف به قرر نابليون فتح مصر بالدرجة الاولى ، اذ كانت احدى ممتلكات السلطان الاكثر تطورا وغنى .

وعبر مصر كان يوجد اقصر طريق بين انكلترا والهند . صحيح ،

---

* وتشمل آسيا الغربية اراضى آسيا الصغرى وسوريـــا وفلسطين والعراق . الناشر .

ان قناة السويس لم تكن قد حفرت بعد ؛ ولم يكن ثمة طريق بحرى موصل بين الاسكندرية والسويس . غير ان محطات نقل الشحنات كانت قد تأسست هناك . وكان الركاب ينزلون فى الاسكندريـــة وتفرغ البضائع والبريد فيهـــا ايضا ، ثم ينقل كل ذلك من هناك بواسطة القوافل الى السويس . وبفضل هذا الطريق عجّل الاتصال مع الهند بصورة محسوسة . فبالاستيلاء على مصر ، حصل نابليون على فوائد كثيرة : اولا ــ انه حاز على مستعمرة غنية ؛ ثانيا ــ تقوى فى القسم الشرقى من البحـــر الابيض المتوسط ، حيث اخذ يهدد من هناك الامبراطورية العثمانية بأكملها ؛ ثالثا ــ انزل ضربة بانكلترا عن طريق الاخلال باتصالاتها مع الهند ؛ رابعا ــ حصل على قاعدة لشنّ الهجوم على الهند ، الامر الذى كان يحلم به منذ امد طويل .

بدء الحملة . فى عام ١٧٩٨ ، اقنـــع نابليون حكومـــة «الديركتوار» الفرنسية بشن حملة فتح مصر . وقاد بنفسه فيلقا مؤلفا من ٣٠ الف محارب . وفى ايار (مايو) عام ١٧٩٨ ، غادر الاسطول الفرنسى طولون وهو يحمل قوات الانزال البرية . كما التحقت به قوات اخرى من ايطاليا . وقد افلح نابليون فى مغافلة نلسن ــ الاميرال الانكليزى ، الذى كانت سفنه الاستطلاعية تمخر عباب البحر الابيض المتوسط كله . وقاد نابليون اسطوله الى الاسكندرية سالما . واستولى فى طريقه على جزيرة مالطـــــة ، واستصحب معه نفرا من عربها مستخدما اياهم كمترجمين وروّاد له فى مصر .

وأنزل الجيش الفرنسى فى اول تموز (يوليو) عام ١٧٩٨ فى الاسكندرية التى كانت مدينة صغيرة عندئذ ، والتى حاول سكانها ابداء المقاومة ، الا انهم قهروا سراعا . وعلى اثر ذلك زحف الجيش الفرنسى نحو الجنوب متوجها الى القاهرة .

ووجه نابليون فى اليوم ذاتـــه ، نداء الى الشعب المصرى اقترنت فيه ، على نحو غريب ، افكار الثورة الفرنسية مع تهديدات الفاتح المستعمر ومع التلاعب الدجلى السافر بالعواطف الدينية للسكان المتخلفين . وفى هذا النداء صوّر نابليون نفسه وكانه مسلم

حقيقى وصديق صدوق وحامى الاسلام . وبعدما أستولى نابليون على أغنى اقليم فى الامبراطورية العثمانية ، جعل من نفسه «صديقا للسلطان التركى» ؛ و، سمى بانه قدم الى مصر «للاقتصاص من المماليك» — لا غير ، باعتبار هم اعداء السلطان ، واعداء الشعب المصرى ، واعداء فرنسا . وبالاضافة الى ذلك قدّم حجة تذرّع بها ، فيما بعد ، كافة المستعمرين الفاتحين وهى ضرورة الدفاع عن المقيمين الفرنسيين فى مصر . ويستهل النداء بالاية القرآنية التقليدية «بسم اللّه الرحمن الرحيم . لا اله الا اللّه لا ولد له ولا شريك له فى ملكه» .

ثم يستطرد : «من طرف الفرنساوية المبنى على اساس الحرية والتسوية .

السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالى مصر جميعهم ان من زمن مديد ، الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم. واحسرتاه، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد فى كرة الارض كلها ، فأما رب العالمين القادر على كل شىء ، فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند اللّه وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء احسن فيها من الجوارى الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة . فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها اللّه لهم . ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم . ولكن بعونه تعالى من الآن

فصاعدا لاييأس احد من أهالى مصر عن الدخـــول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلمــــاء والفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الامور ، وبذلك يصلح حال الامة كلها ، وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة ، والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلـــك كلـــه الا الظلم والطمع من المماليك .

أيها المشايخ والقضاة ، والائمة والجربجية ، واعيان البلد ، قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللييرية الذين كانوا يزعمون ان اللّه تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساويـــة فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى واعداء أعدائه ، ادام اللّه ملكه . ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره . فما أطاعوا أصلا الا لطمع انفسهم .

طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم ، وتعلى مراتبهـــم ! طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين ، فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينـــا بكل قلب . لكن الويل ثـــم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا ، فلا يجدون بعد ذلك طريقـــا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر » .

وتلت هذه الديباجة المثيرة للعواطف اوامر عملية دقيقة كاملة ، وهى كالآتى :

« المادة الاولى : ــ جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها ان ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء لكيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو ابيض وكحلى واحمر .

المادة الثانية : ــ كل قرية تقوم على العسكـــر الفرنساوى تحرق بالنار .

المادة الثالثة : ــ كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى ايضا تنصب صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه .
المادة الرابعة : ــ المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شىء منها .
المادة الخامسة : ــ الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والائمة انهـــم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل احد من اهالى البلد ان يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغى ان يشكروا اللّه سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالى :

أدام اللّه اجلال السلطان العثمانى !
أدام اللّه اجلال العسكر الفرنساوى !
لعن اللّه المماليك !
وأصلح حال الامة المصرية ! » *

وقد استولى الرعب على المماليك لسماعهـــم اخبار الانزال الفرنسى . واجتمع فى اليوم ذاته ، مجلسهم العسكرى فى القاهرة وقرر طلب المعونة الفورية من السلطان . وعهد بالدفاع عن مصر الى مراد بك ــ حاكم المماليك . وبعد مضى خمسة ايام ، زحف مع جيشه لملاقاة بونابرت . وتقدمت الخيالة على محاذاة شواطئ النيل ، واستعمل المشاة القوارب النهرية فى منحدر النهر . ولصد السفن الفرنسية ومنعها من التقدم فى النيل ،التجأ مراد بك الى الاسلوب الدفاعى التقليدى الذى كان متبعـــا فى القرون الوسطى فقطع النهر بالقرب من بلدة شبرا خيت الصغيرة ، بسلسلة حديدية صف على محاذاتها ، فى النهر ، سفنا حربية مسلّحة بالمدافع ، بينما رابطت على الشواطئ خيالة المماليك ومشاتهم .

---

* الجبرتى ، عبدالرحمن . عجائب الآثار فى التراجم والاخبار . الجزء ٣ . القاهرة ، (١٨٨٠) ، ص ٤ .

وحدث فى هذا الموقع اول اصطدام بين الجيشين الفرنسى والمصرى بتاريخ الثالث عشر من تموز (يوليو) . ودمرت سفينة مصرية فى اول ساعة من المعركـــة . وفى هذا الخصوص كتب الجبرتى ، المورخ المصرى ، قائلا : «فقدر الله ان علقت نار بالقلع وسقط منها نار الى البارود فاشتعلت جميعهـــا بالنار واحترقت المركب بما فيه من المحاربين وكبيرهم وتطايروا فى الهواء ، فلما عاين ذلك مراد بيك داخله الرعب وولى منهزما وترك الاثقـــال والمدافع وتبعته عساكره ونزلت المشاة فى المركب ورجعوا طالبين مصر ووصلت الاخبار بذلك الى مصر فاشتد انزعاج الناس» * . واصبح الطريق الى القاهرة مفتوحـــاً فتقدم الفاتحون على جنـــاح السرعة مقتربين من تلك المدينة التاريخية العظيمة .

الدفاع عن القاهرة . كان بكوات المماليك يعتبرون ان جيشهم «لا يقهر» . غير ان كافة نواقص هذا الجيش الاقطاعى غير النظامى الذى لا يتصف بالانضباط تجلّت فى أول معركـــة . وبالطبع ، لم يكن بمقدوره أن يقاوم اكثر الجيوش تقدما فى ذلك الحين ـ جيشا نما وتعوّد فى حروب الثورة الفرنسية . وكان نابليون قد قدر على نحو صائب الصفات القتالية التى يتسم بها المحاربون المماليك فردا فردا ، فانهم كانوا يحاربون بالحرف الواحد ، كالاسود ، غير أنه اكد عدم أهليتهم على العمليات الحاشدة المنظمة . وقـــال بهذا الصدد . «لاشك ان مملوكيـن يتفوقنـــان على ثلاثـــــة من الفرنسيين . وان ١٠٠ مملوك يعادلون ١٠٠ فرنسى ، و ٣٠٠ فرنسى يتفوقون عادة على ٣٠٠ مملوك ، امـــا ١٠٠٠ فرنسى فيهزمون دوما ١٥٠٠ مملوك» . وبهذا الصـــدد كتب انجلس : «كل ما يحتاج اليه نابليون هو قدر محدد أدنى من مفرزة الخيالة ليظهر قوة ومفعول الضبط الذى تنطوى عليه الصفوف المتراصة والعمليات المخططة ، ولكى تتحول قوة الضبط هذه الى تفوق حتى على حشود اكبر من الفرسان غير النظاميين الذين يملكون خيولا

---

* الجبرتى ، عبد الرحمن . عجائب الآثار فى التراجم والاخبار . الجزء ٣ . القاهرة ، (١٨٨٠) ، ص ٦٠.

اجود ويتصفون ببراعة اكبر فى الفروسية وفى المبارزة والذين هم لا يقلون عن غيرهم بسالة » * .

وتبيّن للمماليك من اول هزيمة أنهم يقارعون ندّا هماما . فاخذوا يحصنون القاهرة على نحو محموم ويبنون مراكب جديدة ويحفرون الاستحكامات . وأسهم سكان المدينة اسهاما فعالا فى الدفاع عن القاهرة اذانهم كانوا لا يريدون الخضـــــوع الى النير الاجنبى . وجمعت الطوائف التبرعات لشراء الاسلحة . وشكل العمال والحرفيون كتائب المتطوعين . غير ان الإسلحة لم تكن كافية لمن كان يروم القتال . وجرت فى المدينة تظاهرات وطنيـــــة . وفى المساجد ، ابتهل العلماء الى اللّه لكى يمنحهم النصر .

ومع ذلك لم يكن الدفاع عن المدينة منظما . وفى الواحـــد والعشرين من تموز (يوليو) ، اقترب جيش نابليون من الجيزة — الواقعة على الشاطئ الغربى من النيل ، مقابل القاهرة . ودارت معركة انبابة الحامية بالقرب من الاهرام العريقة فى القدم . وهزم المماليك واهالى المدينة ، الذين كانوا يقاومون الفرنسيين بضراوة ، هزيمة ساحقة . وسقط فى حومة الوغى ٣٠٠٠ مملوك من مجموع ٦٠٠٠ . وهرب الباقون بعضهم مع مراد بك الى الوجـــه القبلى والبعض الآخر مع ابراهيم بك الى سوريا . الا ان الارتال الفرنسية اقتفت اثرهم . وأثناء التراجع غرق فى النيـــل الالوف من سكان القاهرة ، والفقراء الذين كانوا يحاربـــون فى مشارف القاهـــرة . وانقضّ المنتصرون على العاصمة ، ناهبين اياها ومنزلين عقابا قاسيا بمن شاركوا فى الدفاع عنها .

الانتفاضة ضد المحتلين . وجد الفاتحون الفرنسيون انفسهم عاجلا فى وضع حرج . ففى اول آب (اغسطس) ١٧٩٨ ، دخل الاسطول الانكليزى تحت قيادة الاميرال نلسن خليج أبى قير ، فدمر الاسطول الفرنسى الذى كان مرابطا فيــــه . ولم يبق من السفن الفرنسية الخمس عشرة الاّ اربع سفن هربت الى مالطة . اما السفن

---

* فريدريك انجلس ، ضد دوهرينغ ، ـك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٢٠ ، ص ١٣٢ .

الاخرى فاحرقت او أغرقت او استولى عليها الانكليز . وكانت الهزيمة تامة . اذ حرمت الحملة الفرنسية من الاتصال المنتظم مع فرنسا ووضع مصيرها فى كفة القدر . ولم يعد من الممكن الآن التفكير بالحملة على الهند اطلاقا .

ووضعت معركة ابى قير حدا لتردد الباب العالى . وفى ايلول (سبتمبر) ١٧٩٨ ، قرر السلطان سليم الثالث اعلان الحرب على فرنسا لانتزاع أغنى اقاليمه من أيدى المغتصبين . وان دخول الباب العالى الحرب أعطى قوة جديدة الى الشعب المصرى الذى لم يتوقف عن النضال ضد المحتلين الفرنسيين .

ومثّل نابليون ،متلاعبا بعنعنات السكان الدينية ، دور الحاكم «المسلم» على بونابردى باشا . وكان يتجول وهو مرتد الملابس الشرقية ، العمامة والجلباب . وكان يتردد الى المسجد أيام الجمعة ويسهم بالشعائر الدينية التقليدية ، وحتى انه عمل على ان يعتنق الاسلام احد جنرالاته ، جاك مينو ، الذى اصبح اسمه فيما بعد عبد اللّه . وكونّ نابليون هيئة استشارية او ديوانا مؤلفا فى الغالب من الشيوخ والعلماء المحليين . واستغلّ بُغض الناس للمماليك . غير ان كل هذا لم يستطع اخفاء ما فرضته الادارة الفرنسية على مدن وقرى مصر من اتاوات نقدية وعينية فادحة الى درجة انها لم تدفع مثلها حتى فى عهد المماليك ، وما ابتزته من الضرائب بالاضافة الى الجبايات والغرامات الاستثنائية ، ومصادرة جميع احتياطات الاغذية والعلف مما تجاوز كل حد ، وان البلاد ترزح تحت نير الطغمة العسكرية الاجنبية .

ولهذا اشتد زخم حركة الانصار فى مصر (وخاصة فى منطقة الدلتا) بعد دخول الاتراك الحرب . فهجم الانصار على السعاة العسكريين وعلى الدوريات والمفارز الصغيرة ، وأربكوا خطوط الاتصال الفرنسية ، وقتلوا الضباط وموظفى الميرة وجباة الضرائب الفرنسيين . فارسل نابليون الحملات التنكيلية الى الدلتا . وحرق قواده القرى المتمردة . غير ان هذه الاجراءات لم تؤدّ الا الى تقوية روح التذمر . وامتدت الانتفاضة بسرعة الى القاهرة .

وفى يوم من أيام تشرين الاول ، ثار سكان القاهرة ، بعد ان دوت شـــارة متفق عليها . فجرت فورا حملـــة ابادة الفرنسيين وخاصـــة القواد والضبـــاط . وقتل فرادى الواحد تلو الآخر فى الشوارع وفى البيوت . وبعد ان أُخذت على غرة ، انسحبت القوات الفرنسية على عجلة من القاهرة . وهرب نابليون نفسه الى جزيرة من جزر النيل القريبة من المدينة ، حيث قام من هنـــــاك بادارة العمليات التنكيلية . واجتمع ١٥ ألف ثائر فى جامع الازهـــــر ، وأقاموا الحواجز فى كل الطرق المؤدية اليه ، واتخذوا الاستعدادات اللازمة لصدّ هجوم القوات الفرنسية . وسارع الى نجدتهـــم ٥ الآف فلاح من القرى المجاورة ، وبضعة الآف من البدو ، قدموا من صحراء ليبيا . فارسل نابليون كتيبة للتنكيـــــل بالفلاحين ، واخرى ضد البدو . وحشّد قواته الاساسية بالقرب من العاصمة الثائرة . وأصلى الثوار المعتصمين فى الجامع ، بنيران مدفعيته . فقتل الآلاف منهم . ومن نجا منهم من نيران المدافع ، هلك بحراب الجنود الفرنسيين المتوحشين . ولم يؤخذ أحد اسيرا . وطلب الثوار الرحمة من نابليون . الا انه امر بمواصلة الرمى . وانتهت هذه المذبحة ، التى نُفذت بفظاظة وبرودة دم استثنائية ، باعدامات وحشية . اذ قطعت رؤوس ستة من قواد الانتفاضة ورفعت على الحراب ، التى حملها الفرنسيون وطافوا بها فى شوارع القاهرة .

وفى الوقت ذاته ، استمر مراد بك مضايقاته وشنّت مفارزه هجمات فجائية من يوم لآخر على الحاميات الفرنسية فى الوجه القبلى .

الحملة السورية . قرر نابليون ، بعدما انقطع اتصالـــــه بفرنسا ، الزحف مع جيشه نحو الشمال ، اي نحو آسيا الصغرى . فحاول وهو يستعد للحملـــة ، تكوين صلات مع حكام سوريـــا الاقطاعيين . غير انهم لم يستجيبوا لمحاولته .

وفى شباط (فبراير) عام ١٧٩٩ بدأت الحملة على سوريا . واستولى فيلق نابليون ، المؤلف من ١٣ ألف محارب ، على العريش وغزة ويافا وحيفا دونما اية صعوبـــة واقترب ، فى اواسط اذار (مارس) ، من اسوار عكا . فلم يبد اهل البلاد اية مقاومة ضد الفرنسيين اذ انهم كانوا يمقتون احمد الجزار ــ الباشـــا التركى .

«ونظرت القبائـــل المجاورة الى الحرب نظرة حب الاستطلاع التى يشوبها عدم الاكتراث ، او حتى ، انها ، يسّرت للفرنسيين أمورهم ان لم يكـــن بسبب العطف عليهـــم فعلى الاقـــل بسبـــب مقتهـــم للجـــزار» . وفى الســـادس عشر مـــن نيســـان (ابريل) ، قهر نابليون عند جبـــل طابور فى الجليـــل جيش المماليك المؤلف من ٢٠ ألف محارب ، الذى ارسله باشا دمشق لمحاربته . وكان يبدو سير الحملة موفقا . الا انهـــا اصطدمت باسوار عكا التى سدّت على نابليون طريق الشمال . ولم يكن لدى الفرنسيين ما فيه الكفاية من مدافع الحصار . فحاولوا جلبهـــا بحرا ؛ غير ان الكومودور الانكليزى سدني سميث نجح فى الاستيلاء عليها وهى فى طريقها الى الفرنسيين . وعلى اثر ذلك ، دخل اسطول سميث خليج عكا ودافع عن الحصن بنيران مدافعه . كما اسهم فى الدفاع عن عكا بصورة فعالة المهاجرون الفرنسيون ، الذين كانوا فى خدمة الجزار ، والوحدات النظامية الاولى من جيش سليم الثالث ، التى كانت قد تدربت قبل نشوب الحـــرب على ايدى مدربين فرنسيين . وحاول نابليون اكثر من مرة اقتحام الحصن المحاصر الا ان جميع هجماته منيت بالفشل . ومما زاد الطين بلّة ، تفشى الطاعون فى المعسكر الفرنسى . فقرر نابليون ، بعد مضى ٧٠ يوما على الحصار ، العودة الى مصر . وبهذا انتهت الحملة على سوريا بفشل الفرنسيين التام .

كما باءت بالفشل الحملة المصرية بمجموعها . وكان عاجزا عن انقاذ الموقف النصر الذى احرزه نابليون على اثر عودته الى مصر رأسا على القوات الانكليزية-التركية التى كانت قد انزلت الى ابى قير بتاريخ ٢٥ تموز (يوليو) عام ١٧٩٩ . فبعد هـــذا الانتصار بقليل ، غادر نابليون مصر عائدا الى فرنسا (٢٢ آب ـ اغسطس ١٧٩٩) لاقصاء حكومة «الديركتوار» وليجعل من نفسه قنصلا اولا . ولقد سافر نابليون خفية ، بغير علم من جيشه ، وحتى من الجنرال كليبر الذى اناط بـــه قيادة الجيش الفرنسى المرابط فى مصر .

اخفاق الحملة . اصبح وضع الجيش الفرنسي في مصر ، بعد مغادرة نابليون ، اكثر صعوبة . فان الجمع الصغير من الفرنسيين الذي كان آخذا في التضاؤل غدا محاطا بشعب معاد له ، كما كان مهددا من قبل الجيش التركي والاسطول الانكليزي . فادرك كليبر بان المخرج الوحيد هو الجلاء عن البلاد . ولذا وقع في العريش بتاريخ ٢٨ كانون الثاني (يناير) عام ١٨٠٠ هدنة مع الانكليز والاتراك ـ الذين وعدوا بامداده بالسفن لنقل الجيش الفرنسي الى بلاده . الا انه عندما طلب الانكليز من كليبر تجريد جيشه من السلاح قرر القائد الفرنسي مواصلة القتال .

وفي ٢٠ آذار (مارس) عام ١٨٠٠ سحق كليبر ، في معركة هليوبوليس (قرب القاهرة) ، الجيش التركي الذي كان قد وصل من سوريا .

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه المعركة ثار سكان القاهرة مجددا وابادوا الحامية الفرنسية الصغيرة التي كانت باقية في المدينة ، وخلال حصار فرض عليهم مدة شهر تمكنوا من صد هجمات القوات الفرنسية المتكررة . وقد ساعدت الثوار مفرزة من المماليك كانت عائدة من سوريا بقيادة ابراهيم بك . ولم يستطع الفرنسيون ان يغيروا الموقف الا في الخامس عشر من نيسان (ابريل) ، عندما دكوا بولاق ، احدى ضواحي القاهرة وحولوها الى كومة من الرماد ودمروا ٤٠٠ بيت ، وابادوا ، بنيران مدافعهم وبحرابهم عدة آلاف من الثوار . سلم ابراهيم بك القاهرة وتراجع القهقرى نحو سوريا . فسارع كليبر الى فرض غرامة حربية باهظة على القاهرة .

وبعد مدة قصيرة (١٤ حزيران ـ يونيو عام ١٨٠٠) اغتيل كليبر من قبل الارهابي سليمان الحلبي الذي كان قد ارسله الاتراك سرا ، والذي تسلل الى محل اقامة كليبر فطعنه بخنجره عدة طعنات . وحكمت المحكمة العسكرية الفرنسية بحرق يد سليمان ومن ثم خوزقته . كما قطعت رؤوس اربعة شيوخ مسلمين بتهمة اشتراكهم في الجريمة . وقد قابل سليمان الموت ببسالة . اذ وضع يده بجرأة في النار الملتهبة ، ولم ينبس ببنت شفة حينما كانت

تحترق . كما كان باسلا طيلة الساعات الاربع والنصف الذى قضى من بعدها نحبه وهو مخوزق . وردا على مقتل كليبر ، نظم الفرنسيون مذبحة فى العاصمة . فاجتاحت جموع من الجنود الفرنسيين شوارع القاهرة ، وهم يحرقون الدور ويقتلون سكان المدينة .

وفى آذار (مارس) عام ١٨٠١ ، انزل الانكليز فى مصر ٢٠ الف محارب واحتلوا ابا قير ، وسحقوا القوات الرئيسية من الجيش الفرنسى بالقرب من الرحمانية ، وحاصروا ما تبقى من القوات الفرنسية فى الاسكندرية والقاهرة . وفى الوقت ذاته ، انزلوا فى القصير ـ الواقعة على البحر الاحمر ، قوة مؤلفة من ٦ آلاف سباهى كان من المقرر ان يزحفوا على القاهرة . وبدلا من حشد كل القوات الفرنسية فى موقع واحد ، قام مينو ، قائد القوات الفرنسية ، بتوزيعها على عدة مراكز . وتفشى الطاعون فى الحاميات الفرنسية المحاصرة . وفى حزيران (يونيو) ، استسلمت القاهرة الى الانكليز . وفى آب (اغسطس) ـ اى بعد مضى اربعة اشهر من الحصار ، استسلمت الاسكندرية ـ حيث كان يقيم مينو نفسه . وفى اواخر ايلول (سبتمبر) شحن ما تبقى من الحملة الفرنسية فى مراكب توجهت الى فرنسا . وهكذا انتهت بصورة بائسة مغامرة نابليون بونابرت التوسعية .

وبعد مرور بضعة ايام (٩ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ عام ١٨٠١) وقعت فرنسا معاهدة الصلح مع تركيا . ولم تخسر فرنسا ، كنتيجة للحرب ، مصر ومالطة فحسب ، بل وايضا الجزر الايونية ذات الاهمية الاستراتيجية البالغة ، والتى كانت قد استولت عليها عام ١٧٩٧ .

نتائج الحملة . كانت النتيجة الوحيدة التى حصل عليها الفرنسيون من هذه الحملة هى البحوث اللامعة للعلماء الذين اصطحبهم الجيش الفرنسى معه الى مصر . ومن بين هؤلاء العلماء كان الجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والجغرافيون والمؤرخون والاقتصاديون واللغويون ، وعلماء الهيدرولوغيا والتكنيك والطب والطبوغرافيا والآثار القديمة والحقوق والفن . ولم يقم هؤلاء العلماء

فقط بايجاد حل للقضايا الحربية العملية (كصنع البارود من الموارد الطبيعية المتوفرة فى مصر ، والتزويد بالمياه ، ومكافحة الامراض السارية فى الجيش ،وجباية الضرائب ، وما شابه ذلك) ، وبوضع الخرائط للعمليات الحربية فحسب ، بل وقاموا ايضا بدراسة شاملة لهذه البلاد التى لم تكن قد درست الا قليلا فى ذلك الحين . وظهرت نتيجة دراساتهم فى ٢٠ مجلدا من كتاب «وصف مصر» («Description de l'Egypte») حيث سجلت معلومات متنوعة للغاية عن هذه البلاد فيما يخص نظام مستويات النيل والرى والزراعة والحرف واسلوب حياة الناس وآدابهم واخلاقهم وآثار الثقافة المادية ، والعلاقات الاجتماعية والموسيقى الشعبية ومالية الدولة ، وغير ذلك من المواضيع . وان هذا الكتاب بقى حتى يومنا هذا مصدرا ثمينا فائقا لا يمكن ان يستغنى عنه كل من يتقصى احوال مصر . الا ان النتائج السياسية للحملة كانت بحكم العدم تقريبا .

اما الشعب المصرى فمع انه مر ، خلال سنوات الاحتلال الفرنسى الثلاث ، بفترة عصيبة للغاية ، غير انه استفاد من مدرسة الكفاح التحررى الوطنى اذ انه نهض خلالها شاهرا السلاح لانقاذ بلاده من التبعية الاجنبية ، ولمس الشعب نتائج نضاله العملية . وان هذه التجربة الكفاحية عادت بالفائدة على الجماهير الشعبية المصرية من اجل النضال ضد المحتلين الانكليز ، الذين خلفوا الفرنسيين ، و ضد الاقطاعيين المماليك على السواء .

الفصل الثالث

مصر تحت حكم محمد على

الاحتلال الانكليزى (١٨٠١–١٨٠٣) . بعد مغادرة الفرنسيين مصر ، بقيت مرابطة فيها قوات جيوش ثلاثة ، هى الانكليزية والتركية والمماليك . وكان تعداد هذه الجيوش المحتلة يربو على ٢٠ الف انكليزى وسباهى و ٤٠ الف تركى و ٤ آلاف مملوك . ويروى المؤرخ الجبرتى بان المحتلين نهبوا دكاكين التجار واجبروا الحرفيين على دفع ضرائب بلغت اربعة اضعاف ما كانت عليه سابقا واغتصبوا النساء فى شوارع المدن . وعند دخولهم القرى قاموا بفرض التعويضات عليها واودعوا الشيوخ رهن التوقيف . اما ما اقترفوه من اعمال ضد النساء ، فامور لا يمكن وصفها . ونهبوا وذبحوا ، فى قارعة الطريق ، المسافرين الفرادى والقوافل برمتها . واستولوا على السفن المحملة بالبضائع ورموا بتجارها ونوتيتها فى النيل . كما ذبحوا اصحاب الحمير وباعوا دوابهم فى الاسواق . فخلت القرى من السكان واهملت الزراعة واشتد التذمر فى البلاد ضد المحتلين .

وبالاضافة الى ذلك ، نشات خلافات فى معسكر المحتلين . اذ كانت تركيا تسعى الى المحافظة على مصر . اما انكلترا فكانت ، على العكس ، تريد الاستيلاء هى بنفسها على هذه البلاد ، مع العلم انها كانت تعتمد على المماليك فى صراعها ضد الاتراك . وكان يتوجب على باشا مصر ، الذى كانت قد عينته الحكومة التركية ، ان يعيد الى المماليك ممتلكاتهم ومناصبهم فى الدولة وذلك بامر

من الجنرال الانكليزى . غير انه كانت لدى الباشا التركى تعليمات اخرى من حكومته : فلقد كان فى نية السلطان سليم الثالث ، من اجل تعزيز سلطته فى مصر التخلص بصورة حاسمة من المماليك ، المتهورين العصاة . ولهذا اعطيت الاوامر الى الباشا بابادة المماليك .

ونجح الاتراك فى ايقاع المماليك فى الشرك . فابادوا بعضهم واسروا البعض الآخر .

وعندها تدخل الانكليز وهددوا بقصف القاهرة ، فاضطر الباشا التركى الى اطلاق سراح ٢٥٠٠ مملوك وتسليمهم الى القيادة الانكليزية التى استقبلتهم وكرمتهم وفقا للمراسيم العسكرية وكونت منهم وحدات اقطاعية خاصة جديدة . كما طلب القائد الانكليزى ، بصورة مهينة ، سحب الاسطول التركى من مصر ، واخبر الاميرال التركى بانه سوف يقيده بالسلاسل وينقله الى لندن .

ومع ذلك فلقد انتهت السيطرة الانكليزية على عجل . اذ كان على الانكليز مغادرة مصر بموجب شروط معاهدة صلح اميان ، التى كانت قد وقعت بتاريخ ٢٧ آذار (مارس) عام ١٨٠٢ بين انكلترا وفرنسا . ومهما ماطل الانكليز فى الجلاء الا انهم سحبوا قواتهم الرئيسية من البلاد منذ اوائل عام ١٨٠٢ اما آخر الوحدات فغادرت الاسكندرية فى آذار (مارس) عام ١٨٠٣ .

ومع كل ذلك لم يتخلّ الانكليز عن خططهم التوسعية . اذ استصحبوا معهم الى لندن محمد الالفى ، قائد المماليك الموالى لهم ، وذلك بغية ارساله الى الميدان المصرى فى اللحظة المناسبة كما ان نابليون لم يتخل عن خططه التوسعية . ففى تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٠٢ اوفد الى مصر بمهمة خاصة هى تهيئة الظروف لحملة جديدة ، الكولونيل سباستياني ــ الذى أصبح جنرالا منذ عام ١٨٠٣ ، والذى كان عليما بشؤون الشرق ومن احسن رجاله الدبلوماسيين وعيونه . فكون سباستيانى صلات مع رئيسين آخرين من رؤساء المماليك ــ هما ابراهيم بك وعثمان البرديسى .

الحرب بين الاتراك والمماليك (١٨٠٢ــ١٨٠٤) . قرّر الباشا التركى استئناف الحرب ضد المماليك على اثر مغادرة

الانكليز مصر . وفى عام ١٨٠٢ ارسل وحداته الى الوجـه القبلى حيث كان قد تحصّن المماليك . غير ان المماليك استطاعوا تقوية انفسهم فى ذلك الوقت . اذ عقدوا حلفا مع الشيوخ البدو ، وأصبح تحت تصرفهم جيش كبير من البدو .

كما شكلوا عــدة وحدات من النوبيين ، وهكذا تمكنوا من سحق الاتراك . وانساب المماليك فى منحدر النهر فى موجــات عارمة ، ناهبين وحارقين المدن والقرى الواقعة فى طريقهم . كما ابادوا فى الموقعة التى دارت رحاها بالقرب من دمنهور ، ٥ آلاف تركى (من اصل ٧ آلاف) ، وسقط منهم فى المعركة ٦٠ مملوكا . وانضموا من بعدها الى القوات الانكليزية التى كانت ما تزال مرابطة فى الاسكندرية آنذاك .

وبعد جلاء القوات الانكليزية عن الاسكندرية (آذار ــ مارس ــ ١٨٠٣) انسحب المماليك الى الوجه القبلى . غير ان الخلاف الذى نشب فى المعسكر التركى من جراء تقسيم الغنائم الحربية ، اتاح للمماليك فرصة العودة بسرعة .

وكنتيجة لهذه الخلافات استمرت التمردات العسكريــة فى القاهرة . وحكم مصر ، فى غضون شهر واحد فقط ، ثلاثة باشوات الواحد تلو الآخر . وانحازت الى المماليك وحدة كبيرة من الجيش التركى ــ وهى وحدة الالبانيين المرتزقة . وفى ايار (مايو) عام ١٨٠٣ ، استولت قــوات المماليك والالبانيين الموحــدة على القاهرة . وحكمت البلاد سلطة ثلاثية ، مؤلفة من بكين من المماليك ومن القائد الالباني محمد على ، الذى كان فى ريعان شبابه حينذاك والذى لعب دورا كبيرا فى تاريخ مصر . ولقد ولد محمد على عام ١٧٦٩ فى كافالة (قولة) احدى مدن مكدونيا . ورويت قصص متناقضة جدا عن طفولته . ويبدو ان والده كان ملاكا صغيرا . غير ان محمد على فقد والديه وهو فى نعومــة اظفاره . فترعــرع فى احضان عائلة غريبة . وعندمابلغ الرشد بدأ يتعاطى تجارة التبغ . وحدث تغيير فى مجرى حياته عندما بلغ الثلاثين من العمر . فحينما توجب على كافالة ان توفد ، وفقا لاوامر الباب العالى ، كتيبة البانية صغيرة الى مصر لا تتجاوز الثلاثمائة شخص ، اخذ محمد على فى

ضمنها وشغل مركز مساعد الآمر . واظهر فى المعارك الاولى مواهب حربية فائقة وشجاعة ورباطة جاش . فاصبح ، بسرعة ، قائدا لكل القوات الالبانية الداخلة فى عداد الجيش التركى المرسل الى مصر . واذكت الانتصارات الاولى مطامحه العارمة . فقرر الاستيلاء على مصر باسرها . ولهذا عقد حلفا مع المماليك واعلن ، معهم ، حربا على الباشوات الاتراك . وانتهت الحرب فى كانون الثانى (يناير) عام ١٨٠٤ بهزيمة الاتراك التامة .

انتفاضة سكان القاهرة (١٨٠٤ -١٨٠٥) وتسنم محمد على الحكم ، تبين من جديد وكأن المماليك تمكنوا من توطيد اقدامهم فى مصر . اذ استعادوا سلطتهم وممتلكاتهم ، وابعدوا الاتراك ونهبوا الشعب كالسابق .

فقرر الانكليز، الذين كانوا قد استأنفوا الحرب ضد فرنسا قبيل ذلك الوقت ، الاستفادة من انتصار المماليك . وعلى جناح السرعة وضعوا عميلهم محمد الالفى — احد بكوات المماليك ، على ظهر فرقاطة انكليزية وارسلوه الى الاسكندرية فى شباط (فبراير) عام ١٨٠٤ .

ومع ذلك ، فان جهود سباستيانى لم تذهب سدى . اذ هبت طغمة المماليك الحاكمة فى مصر برئاسة عثمان البرديسى للوقوف بوجه العميل الانكليزى . فأبيدت كتيبة محمد الالفى ، وهرب هو بنفسه الى الصحراء .

فقد عزم سكان القاهرة ، من حرفيين وعمال وتجار ، على الاطاحة بالنير البغيض للاقطاعيين المماليك منتهزين الخلافات الموجودة داخل معسكر المماليك . وترأس الانتفاضة رجال الدين — اى شيوخ الازهر . وفى اليوم المعين ، امتنع سكان القاهرة عن دفع الضرائب وبدأوا بقتل الجباة . فدارت معارك ضارية حامية فى شوارع المدينة . وحوصر قصر عثمان البرديسى ــ بك المماليك ، ثم دمر بتاريخ ١٢ آذار (مارس) عام ١٨٠٤ . وفرّ عثمان البرديسى نفسه من القاهرة .

وتحولت غضبة الشعب ضد الالبانيين ، شركاء المماليك . الا ان محمد على ــ كسياسى ذكى بارع ، انحاز الى الثوار بعدما ادرك

قوة الحركة الشعبية المتعاظمة . فسارع الى الازهر وخطب فى مجمع الشيوخ واعدا اياهم ببذل الجهود لالغاء الضرائب البغيضة . واعلن نفسه حاميا لحقوق الشعب المصرى ووجه كتائبه الالبانية لمحاربة الاقطاعيين المماليك . فضمنت لمحمد علي السلطة على مصر هذه المناورة البارعة ، التى املاها التقدير الصائب لتناسب القوى . واختاره مجمع الشيوخ قائمقاما ــ اى نائبا لباشا مصر . كما اختير خورشيد ــ الحاكم التركى فى الاسكندرية ، كباشا لمصر .

وحاصر المماليك ، الذين طردوا من القاهرة المدينة الثائرة ومنعوا نقل المؤن اليها . الا انها قاومت الحصار الذى استمر اكثر من اربعة اشهر ، مما اضطر المماليك الى التراجع الى الوجه القبلى .

فنمت شعبية محمد على الذى قاد الدفاع عن القاهرة ، واعتبر الشعب هذا القائد المحنك الموهوب زعيما له ، اما الباب العالى فنظر الى ارتفاع مقام محمد على بهلع وضجر . فامره السلطان بالعودة الى الوطن مما اثار التذمر فى القاهرة . واحتجاجا على ذلك اغلقت الحوانيت ودور الحرفيين فى المدينة وبدأت تسير فيهـــا المواكب الشعبية ، الامر الذى اضطر الباب العالى الى الغاء مرسومه .

وخلال شتاء عام ١٨٠٤ــ١٨٠٥ ، لاحق محمد على وقواته المماليك فى الوجه القبلى . وفى هذا الوقت بعث خورشيد باشـــا وانكشاريته من جديد كل اهوال ظلم المماليك فى القاهـــرة . اذ فرض تعويضات كبيرة على الاهالى واخذ الرهائن وقام بجبايـــة الضرائب لسنة كاملة مقدما من القرى التى كانت قد خربتها الحرب . واستؤنف النهب والذبح والعنف . الا ان الشعب المصرى ، الذى حارب الفرنسيين وطرد المماليك ، لم يكن فى نيته تحمل مذلـــة الانكشارية . وفى ايار (مايو) عام ١٨٠٥ اندلعت انتفاضـــة شعبية جديدة فى القاهرة .فطرد الانكشارية واطيح بخورشيد ، ونادى مجمع الشيوخ بمحمد على حاكما على مصر .

فاضطر السلطان سليم الثالث الى الاعتراف بمحمد على واليا على مصر ، اذ كان السلطان فى ذلك الوقت منهمكا فى شؤون اخـــرى خارج مصر . ففى عـــام ١٨٠٤ كانت قـــد اندلعت انتفاضـــة وطنية تحررية كبيرة فى صربيا بشبه جزيرة البلقان . ولم تكـــن

الاوضاع مستقرة فى اليونان وبلغاريا . ومُنى الجيش العثمانى القديم بالهزيمة تلو الحزيمة. وازداد السلطان المصلح اقتناعا، مرة بعد اخرى، بضعف الجيش العثمانى، الذى كان يتسم بطابع القرون الوسطى . وبجهود مضاعفة شرع باعادة تنظيمه، وكوّن افواجا جديدة وفقا للنظام الجديد . الاّ ان الضرائب الباهظة التى فرضت للانفاق على هذه الوحدات العسكرية النظامية، أدت الى تذمر الجماهير الشعبية . وبالاضافة الى ذلك، لاقت الاصلاحات مقاومة من الانكشارية والعلماء والدراويش . فانبثقت فى البلاد حركة شعارها «الدين والقوانين القديمة» وكانت موجهة ضد الاصلاحات وضد الجيش الجديد والضرائب الجديدة .

وفى آذار (مارس) عام ١٨٠٥، أصدر سليم الثالث مرسوما بدعوة المجندين الجدد الى الوحدات النظامية، الامر الذى أدى الى تمردات الانكشارية فى اقاليم كثيرة . وباءت بالفشل الحملات التنكيلية التى ارسلها سليم الثالث ضدهم . فاضطر السلطان الى الغاء مرسومه .

وطبعا لم يكن باستطاعة السلطان التدخل فى مثل هذه الاحوال فى شؤون مصر تدخلا فعالا . وعندما قام بمحاولة فاشلة اخرى لعزل محمد على من مصر، اصطدم مجددا بمقاومة سكان القاهرة، فاضطر الى التراجع . وفى عام ١٨٠٧ اطاح الانكشارية المتمردون بسليم الثالث ثم قتل بعدها بقليل .

الحرب الانكليزية التركية عام ١٨٠٧ . الحملة الانكليزية على مصر . وفى غضون ذلك استؤنفت الحرب بين انكلترا وفرنسا فى آب (اغسطس) عام ١٨٠٥، وامتدت بعدها بسرعة الى الشرق . فأخذت كل من الدولتين بتقوية دسائسها فى مصر . وفى عام ١٨٠٦، ظهر على المسرح المصرى مجددا، العميل الانكليزى محمد الالفى ــ احد بكوات المماليك . فلاقى مقاومة من عثمان البرديسي الذى كان مواليا للفرنسيين . واستطاع محمد علي ان يستغلّ بحذاقة الصراع الناشب بين المماليك . فبدعمه عثمان البرديسى وباعتماده على اهالى القاهرة، تغلب على محمد الالفى ــ صنيعة الانكليز، الذى توفى فى نهاية عام ١٨٠٦ فى ظروف غامضة،

ويبدو انه مات مسموما . وبعد ذلك بقليل ، حلّ المصير نفسه بعثمـــان البرديسي . وبذلك انقذ محمد على المصريين من قائدى المماليك . غير ان الصراع ضد المماليك استمر بعد ذلـــك . اذ لاحقهم محمد على دون هوادة وطاردهم فى الوجه القبلى .

وانساقت الامبراطورية العثمانية الى خوض الحرب بين انكلترا وفرنسا . وانحازت فى هذه المرة الى جانب فرنسا . وفى عام ١٨٠٦ ، اثار الجنرال سباستيانى ، الذى عينّ سفيرا لفرنسا فى استانبول ، النزاع بين الباب العالى وروسيا التى كانت حليفة انكلترا آنذاك . وفى كانون الثانى (يناير) عام ١٨٠٧ طلبت انكلترا من الباب العالى ، عندما كانت القوات الرئيسية للجيش العثمانى محشدّة على الدانوب لمحاربة الروس هناك ، ان يطرد سباستيانى فورا ، وأن يسلّـــم اسطوله وحصون الدردنيل وبطاريات المدفعية الى الانكليز ، بينما يسلّم للروس مولدافيا وفلاكيا . الا ان الحكومة التركية رفضت هذا الانذار النهائى . وعندها دخل الاسطول الانكليزى بحر مرمرة وهدد بقصف استانبول .

واثـار اقتراب الاسطول الانكليزى الحماســـة الوطنيـــة فى العاصمة . وفى الوقت الذى كان ينتظر فيه الاسطول الانكليزى ريحا مؤاتية لعبور البوسفور ، اخذ الاتراك يحصنون العاصمة وسواحل الدردنيل بارشاد من سباستيانى والمهندسين الفرنسيين . فقرر الاميرال الانكليزى سحب اسطوله الى البحر الابيض المتوسط لانه لم يعد هناك امل باقتحام استانبول .

من هنا قرر الانكليز القيام بهجوم على مصر . فانزلوا فى ١٧ آذار (مارس) عام ١٨٠٧ قوات قوامهـــــا ٥ آلاف محارب الى الاسكندريـــة . خاض المصريون الحرب بقيادة محمد على ضـــد المحتلين . وسحقوا فى نهاية آذار (مارس) فى شوارع رشيـــد وحدة عسكرية انكليزية عدادها الفا محارب كانت قد تغلغلت فى هذه المدينة . فوجه القائد الانكليزى الى رشيد وحدة اخرى اقوى من الاولى بمرتين الاّ انها سحقت ايضا . وقد اسهم فى معركة رشيد الفلاحون والبدو ، بالاضافة الى العسكريين المحترفين . وكان اهالى

القاهرة يواصلون تحصين مدينتهم فى الوقت الـــذي حاول فيـــه الانكليز الاستيلاء على رشيد .

وهكذا فلم يكتب للانكليز السير الى القاهرة . وانسحبوا الى الاسكندرية بعد ان اندحروا مرتين فى مقربة من رشيد وفشلوا فى محاولتهم لاثارة المماليك للقيام بتمرد جديد . وزحف محمد على بجيشه نحو الاسكندرية . فطلب قائد القوات الانكليزية عقـــد الصلح . وفى ايلول (سبتمبر) عام ١٨٠٧ ركبت القوات الانكليزية الباقية السفن وغادرت البلاد . فدخل محمـــد على الاسكندرية . فزادت شعبيته بين الجماهير على نطاق اوسع . واعتبر بطلا ذاد عن مصر ضد المغتصبين الاجانب .

الاصلاح الزراعى ١٨٠٨ ـ ١٨١٥ . استئصال المماليك .

استلم محمد على مقاليد الحكم فى غضون كفاحه ضد الاقطاعيين المماليك . ولم يتوقف عن القتـــال ضدهم خلال اربع سنـــوات (١٨٠٤ـ١٨٠٧) . واثناء الحملة الانكليزية على مصر عام ١٨٠٧، قام محمد على بتنازل كرها عنه ، فعقد الهدنة مع المماليك لكى يصد العدو الخارجى بنجاح اكبر . الا ان الهدنة لم تكن وطيدة . اذ ان المماليك ، بعد ان اعترفوا بمحمد على كسيد لهم احتفظوا بالسلطة فى الوجه القبلى ، الذى اصبح بؤرة للمؤامرات والتمردات المتواصلة .

وبعد ان سحق محمد على الانكليز شرع بتطبيق الاصـــلاح الزراعى ، الذى انزل ضربة قاضيـــة بملكيـــة الارض للملتزمين والمماليك . وقـــام فى عـــام ١٨٠٨ بمصادرة املاك الملتزمين ، الذين امتنعوا عن دفع الضرائب ، وفى عام ١٨٠٩ حرمهم من نصف الفائض ، وفى عام ١٨١٢ وضع يده على جميـــع الاراضى ، التى كانت فى حوزة المماليك ، وفى عام ١٨١٤ ألغى نظام الالتزامات برمته وبصورة قطعية . فصار الفلاحون يدفعون الضرائب لا الى الملتزمين بل الى الدولة مباشرة . كما قضى على تبعيـــة الفلاحين الشخصية للملتزمين . ولم يبق فى قبضة الاخيريـــن سوى اراضى الاواسى . امـــا الاراضى المحاصصـــة (الاثر) فأصبحت اراض اميرية . صحيح ان محمد على امر ، كتعويضات ، بدفـــع فائض

للملتزمين على حساب خزينة الدولة وذلك بشكل تقاعد سنوى . الاّ ان الاساس الاقتصادى لسطوتهم كان قد تقوّض .

ومع ذلك فلم يقض محمد على على نمط الانتاج الاقطاعى . ان تصفية الالتزامات وتقسيم الاراضى المشاعية ، الذى شرع فيه عام ١٨١٣ ، كان من شانهما ، بدون شك ، تغيير وضع الفلاح المصرى . الاّ انه بقى معرضا ، كالسابق ، للاستغلال الاقطاعى ، بالرغم من انه صار يعمل الآن لا للملاكين كفرادى ، بل للدولة الاقطاعية ككل .

وفضلا عن ذلك ، فقسم كبير من الاراضى ، التى كانت قد تحولت الى اراض اميرية ، غدت بسرعة اراض خاصة مرة اخرى . وفى الثلاثينيات * وزع محمد على ، على نطاق واسع ، اراض اميرية على اقاربه ومقربيه وكبار الاعيان والموظفين وضباط الوحدات الالبانية والكردية والجركسية والتركية . ووزع خلال مدة قصيرة مئات الالوف من الافدنة مع من كان يقطنها من الفلاحين . ومن ثم (اى منذ عام ١٨٥٤) صار ملاكو هذه الاراضى يدفعون ضريبة (العُشر) ومن هنا اشتق اسم «العشرية» التى عرفت به فيما بعد . وهكذا ، بعدما حرم محمد على الاشراف الاقطاعيين القدماء من ممتلكاتهم ونفوذهم ، وبعد ان صفى طبقة الملتزمين ، أنشأ على انقاضهم طبقة جديدة من النبلاء الملاكين الاقطاعيين ، الذين اصبحوا سند الاسرة الحاكمة الجديدة .

وخلال الاعوام ١٨٠٩ ــ ١٨١٥ ، استملك محمد على ، لصالح الدولة ، اراضى الاوقاف (الرزق) . وأخذت الدولة على عاتقها الانفاق لاعالة رجال الدين وصيانة المساجد . الاّ ان هذا الاجراء ادّى الى اثارة التذمر فى صفوف رجال الدين ، وهدد بعض الشيوخ بالاطاحة بمن كانوا قد رفعوا من قدره ، اى محمد على . الا ان الاخير عمل على ابعاد الرؤساء من القاهرة واتخذ اجراءات صارمة لقمع معارضتهم .

---

* يعتبر اول من كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٢٩ ، اليومَ الذى جرت فيه هبة هذه الاراضى لاول مرة .

ومن جهة اخرى ان مصادرة الالتزامات وتقليص الفائض وغيرها من الاجراءات التى قام بها محمد على ، افضت الى تبرم المماليك ، الذين قاموا بانتفاضتين ضده خلال العامين ١٨٠٩ و١٨١٠ ، الا انهما اخمدتا . فهرب قسم من المماليك الى السودان واعترف قسم آخر بسلطة محمد على فظلوا فى مصر واستوطن كثرة منهم القاهرة . الا انهم لم يستطيعوا نسيان ممتلكاتهم الضائعة وسلطتهم المفقودة ، فاخذوا يدبرون عصيانات جديدة لاعادة النظام الاقطاعى للمماليك .

فعزم محمد علي على التخلص من تهديد المماليك باكثر الوسائل صرامة . وفى عام ١٨١١ ، عهد اليه الباب العالى بارسال قواته الى الجزيرة العربية ، للقضاء على الدولة الوهابية ، التى كانت قد تأسست هناك . وفى اليوم المحدد لرحيل الجيش ، اى فى اول آذار (مارس)عام ١٨١١ ، نظم محمد على عرضا عسكريا فى القاهرة . وكان بين المشتركين فيه ٥٠٠ مملوك . وحشدت القوات فى قلعة القاهرة ، ومن هناك بدأت مسيرتها الى المدينة . وعندما غادرت القوات الاساسية الحصن اغلق الألبانيون ابواب القلعة واحاطوا بالمماليك وابادوهم . وبعد ذلك بدأوا بتحرى دور المماليك . وصار جنود محمد على بمعية الاهلين يفتشون عن المماليك ويقتنصونهم فى القاهرة وفى الاقاليم وفى الوجه القبلى ، وفى كل مكان آخر . وتم القبض على كل المماليك تقريبا وأعدموا . الا ان قبضة صغيرة منهم لاذت بالفرار الى السودان .

اصلاحات محمد على العسكرية . كانت التحولات الزراعية التى قام بها محمد على قد مهدت الطريق لاصلاح الجيش ، وقد جرت فى ظروف الصراع ضد المماليك ، الذين ابدوا مقاومة ضارية لاعمال محمد على الاصلاحية . وكسياسى ذكى اتعظ محمد على بتجربة المصلحَيْن التركيين الاليمة — سليم الثالث ومصطفى باشا بيرقدار ، اللذين سقطا صريعين عام ١٨٠٨ ، على ايدى الرجعية الوحشية . فادرك انه يجب القضاء على الرجعية الداخلية من اجل تكوين جيش نظامى قوى . ومن

هنا الاجراءات التنكيلية التي اتخذهـــا ضد المماليك ــ هؤلاء الانكشارية المصرية ، والتي مكنته من تفادى مصير سليم الثالث ومن تكوين جيش مصرى جديد على احدث طراز فى زمانه .

وقد شرع محمد علي فورا منذ اللحظة التي تسنّم فيها الحكم بانشاء جيش نظامى . ولكن قلة الكوادر والاسلحة ، جعلت الامور تسير ببطء . وكان العساكر الألبانيون نواة الجيش الجديد فى بادئ الامر . ولم يجنّد المصريون فيه وذلك لان تحيز الاتراك والمماليك كان لا يزال قويا جدا . ومع ذلك فقد قرر محمد على مبدأ تجنيد الفلاحين المصريين فى الجيـــش بعـــد الحملـــة على الجزيرة العربية (١٨١١ـ١٨١٩) ، وخاصة بعد الحملة على مورة (١٨٢٤ ـ ١٨٢٨) التي قاسى اثناءهـــا وهلك من البرد الجنود الافريقيون الذين كانوا يشكلون القسم الاكبر من الجيش المصرى . وقد احرز محمد على بفضل هذا الجيش المكون مـــن الفلاحين المصريين انتصارا باهرا فى سوريا .

وفى السنوات الاولى ، قام بتدريب الجيش اخصائيون عسكريون اجانب . هكذا انشأ محمد على بعد الحملة على الجزيرة العربيـــة معسكرا تدريبيا كبيرا فى اسوان ، حيث انخرط فيه آلاف الشبان المصريين والسودانيين للتدريب العسكرى تحت اشراف مدربين فرنسيين وايطاليين ، وخاصة تحت اشراف ضباط من عهد امبراطورية نابليون ، الذين كانوا قد هجروا بلادهم بعد عودة البوربون الى الحكم . ولعب دورا بارزا بينهـــم الضابط الفرنسى الموهوب «سيف» الذى لقب فى مصر بـ «سليمان باشـــا الفرنساوى» . وبالاضافة الى ذلك قام محمد على بفتح المدارس الحربية لاعداد الكوادر القيادية من المصريين ، كمدرسة للمشـــاة فى دمياط ، ومدرسة للخيالة فى الجيزة ، ومدرسة للمدفعية فى طرة (بالقـرب من القاهرة) . وفى عام ١٨٢٦ ، أنشئت كذلك ، اكاديمية الاركان العامة . وترجمت الانظمة العسكرية الداخلية الفرنسية الى اللغة العربية لكى تكون متوفرة لدى وحدات الجيش الجديدة . وكانت كافة تنظيمات الجيش على شاكلة جيش نابليون تماما . فالقوات

كانت مجهزة بالمدفعية . وقد كتب احد مشيري نابليون عنها قائلا : « يمكن مقارنة هذه المدفعية الممتازة بمدفعية الجيوش الاوربية . وعند النظر اليها يعجب المرء دون ارادة منه بقدرة السلطة ، التي جعلت من الفلاحين جنودا صالحين الى هذه الدرجة » . وكانت تشترى الاسلحة في اوربا ويصنع جزء منها في مصر نفسها .

وفي الثلاثينيات من القرن التاسع عشر اتسع حجم الجيش المصرى النظامى اتساعا كبيرا . وكان يحتوى عام ١٨٣٣ على ٣٦ فوجا من المشاة قوام كل منها ٣ آلاف جندى ، و ١٤ فوجا من الحرس يبلغ تعدادها العام ٥٠ ألفا ، و ١٥ فوجا من الخيالة ذا ٥٠٠ حسام ، و ٥ افواج من المدفعية تعدادها الفا جندى . وبهذا يكون المجموع العام حوالى ١٨٠ الف جندى . وفضلا عن ذلك كانت توجد في الجيش المصرى وحدات غير نظامية يبلغ تعدادها العام حوالى ٤٠ الف شخص .

ولم يكتف محمد على بانشاء القوات البرية ، بل انه انكب ايضا على دراسة اصلاحات بطرس الاول بدقة ، وكان يحلو له مقارنة نفسه بهذا المصلح الروسى العظيم . وعلى غرار بطرس الاول ، قرر محمد على انشاء اسطول وطنى مصرى .

ولم يقم فقط بشراء السفن من الخارج – من مرسيليا وليفورنو وتريستا ، بل شرع محمد على عام ١٨٢٩ ،بعد تحطيم جميع الاسطول المصرى تقريبا في واقعة نفارين ببناء دار بناء سفن كبيرة في الاسكندرية (« ترسانة الاسكندرية ») التي جرى تشييدها بوتائر سريعة للغاية . وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٨٣١ أنزلت الى البحر اول سفينة ذات مائة مدفع . وفي بادئ الامر ، كانت اغلبية عمال صناعة السفن من الاوربيين . الا انه هيئت في وقت قصير الكوادر الوطنية من العمال المهرة . واكتسب العرب بسرعة الاختصاصات التكنيكية . ان الثمانية آلاف عامل ممن كانوا يشتغلون في دار بناء السفن كانوا كلهم تقريبا من المصريين . وكتب بهذا الخصوص مشاهد اوربي فقال : « ان دار بناء السفن في الاسكندرية ، التي كان العرب يقومون فيها بكافة الاعمال

والتى كان باستطاعتها ان تنافس كل دور بناء السفن فى العالم ، تشير بوضوح الى ما يمكن عمله بهذا الشعب . وقد لا يتمكن الاوربيون ابدا من بلوغ مثل هذه النتائج المدهشة بمثل هذه المدة القصيرة » .

واستحدثت كذلك كوادر البحارة الوطنية . وخلال مدة قصيرة تدرب ١٥ ألف مصرى على الفنون البحرية . وتاسست المدرسة البحرية العسكرية لاعداد الكوادر القيادية . وكتب بهذا الصدد ايضا المشاهد المشار اليه اعلاه قائلا : «العرب — هؤلاء الناس المرنون المفعمون بالمزايا الممتازة — وكانهم خلقوا لأن يكونوا بحارة» .

وفضلا عن ذلك ، قام محمد على بتشييد حصون جديدة عديدة فى مصر ، كما انه عمّر وعزّز القديمة منها .

تطوير الصناعة والزراعة . الاحتكارات . تطلب اعادة تنظيم الجيش تشييد العديد من المصانع والمعامل اليدوية (المانيفاتورات) . فبالقرب من دار بناء السفن بالاسكندرية شيدت مصانع لصب المعادن والحدادة والبرادة ومانيفاتورة اقمشة الاشرعة وفتل الحبال وغيرها من المشاريع المتممة . وظهرت مصانع جديدة فى القاهرة ورشيد . وفضلا عن ذلك ، أنشئ مصنع لصب الحديد ، قابليته الانتاجية الفا طن من حديد الزهر سنويا ، وكذلك ثلاثة معامل اسلحة بنيت على طراز المصانع الفرنسية المتقدمة ، ومصانع نترات البوتاس ، ومصنع بارود . ولسدّ حاجات الجيش والاسطول المصرى ، شيدت معامل للقطن والكتان والاجواخ والحبال ومصانع للطرابيش . وانشئت مصانع للسكر والالبان . وكانت تعود كافة هذه المشاريع للدولة او لافراد الاسرة المالكة .

وتقدمت الزراعة فى عهد محمد على تقدما سريعا ، وخاصة انتاج المزروعات المعدة للتصدير ، كالقطن والنيلة والارز والمحاصيل الاخرى . ومما ساعد على نهوض زراعة القطن الى حد كبير هو ادخال نوع جديد من قطن يستنبته الفرنسى جوميل وكانت له قيمة عالية فى الاسواق العالمية ، وكذلك تحقيق برنامج

واسع لاعمال الري . ورممت قنوات الرى القديمة وانشئت اخرى جديدة ، شرع الانتقال فى الدلتا من نظام السقى بالاحواض (الرى الدورى) الى نظام الرى الدائم . كما بدى ببناء اول سد في مصر ، لحجز مجرى النيل فى منحدره شمالى القاهرة (القناطر الخيرية) . وهذا فى القسم الاعلى من المثلث الذى يكون دلتا النيل . وكنتيجة لهذه الاجراءات ، ازدادت مساحة الاراضي المروية بحوالى ١٠٠ الف فدان ، كما ازدادت كافة مساحة الاراضي المزروعة من مليونى فدان عام ١٨٢١ الى ٣,١ مليون فدان عام ١٨٣٣ .

وكان مجموع الانتاج الصناعى والحرفى والزراعى فى مصر تحت سيطرة الحكومة فى عهد محمد على . وتحققت هذه السيطـــرة بواسطة نظام الاحتكارات ــ وهو جهاز ذو طابع خاص من التنظيم والادارة المركزيـــة لحياة البلاد الاقتصادية . وتكون نظـــام الاحتكارات فى اساسه بين الاعوام ١٨١٦ــ١٨٢٠ . وهو يقوم على اشراف الموظفين على الاعمال الاقتصادية التى يقوم بها الفلاحون والحرفيون وتنظيمهم لها ، وكذلك على حق الحكومة الاستثنائى فى شراء وبيع البضائع التى ينتجونها . وكان يعين للفلاحين فى كـــل عام مساحة ما يزرعونه من فداديـــن وما يبذرونه فيها مـــن مزروعات ، كما تثبت مقادير ما يجب تسليمه حتما للحكومة من غلات وتحدد اسعار شرائها . وبالاضافة الى المنتوجات الزراعية ، احتكرت الحكومة انتاج وشراء القطن المغزول والمنسوجـــات والمناديل ونترات البوتاس والصابون وكربونات الصودا والسكر وبضائع اخرى .

واضيف الى الاحتكارات فى مجالى المنتوجات الزراعية والحرفية، الاحتكارات فى مجال التجارة . اذ اضطلعت الدولة بدور المـــورد الوحيد للبضائع المصرية الى الاسواق الداخلية ، والمصدر الوحيد الى الخارج . وتحول تجار المفرد فى المدن فعـــلا الى وسطـــاء للحكومة لبيع البضائع الحكومية .

حالة العمال والفلاحين . ان اصلاحات محمد علي العسكرية والعمران الاقتصادى ، كان قد تم تحقيقها على حســـاب جمـــاهير الشغيلة فى مصر ، على حساب العمال والحرفيين والفلاحين .

وكنتيجة لانشاء عدد كامل من المشاريع الصناعية الكبيرة والمتقدمة بالنسبة لـــذلك العهد ، ظهرت لاول مـــرة فى مصر البروليتاريا الصناعية .

وكان العمال المصريون يعيشون فى ظروف صعبة جدا ، اسوأ بكثير من اخوانهم الاوربيين . وكان المصنع المصرى بتنظيمـــه الداخلى ، يذكّر الى درجة ما بالمعمل اليدوى الاقطاعى وحتى بالقرى العسكرية ذات النظام الحديدى . وكان العمال المرتبطون بالمصانع منظمين فى فصائل وسرايا وكتائب ، وهـــم يخضعون الى آمـــراء وملزمون باجراء التمارين العسكرية بعد الانتهاء من العمل . وكانوا يعيشون فى الثكنات ويعملون فى المصانع نتيجة التجنيد الاجبارى ، ويستلمون اجورا زهيدة . وتشير معطيات ميزانية عام ١٨٣٣ الى ان مصروفات الجيش كانت قد بلغت ٢٨ مليون فرانك ، ونفقات محمد على الشخصية ٣,٥ ملايين ، بينما دفع لنفقات المصانـــع واجور العمال ٢,٧٥ مليون فرنك لا اكثر .

ولم تكن حالة الفلاح باحسن من ذلك . وبالرغم من تخلّصه من المماليك والملتزمين البغيضين ، فانـــه لم يجر اى تحســـن فى حياته . فهو مرتبط بقطعة أرضه كما كان فى عهد المماليك . وكان يتوجب عليه ان يعمل ٦٠ يوما من كل عام سخـــرة فى اراضى محمد على واتباعه . اما ما كان يدفعه من ضرائب للملتزمين فصار يقوم بجبايتها جباة الدولة ولكن بنسب اعلى وكان قد أعفى الفلاح من الخدمة العسكرية فى عهد المماليك . اما آلان فغدا الفلاح معرضا للتجنيد العسكرى ، ومهددا بالخدمة لسنوات طويلة فى الجيش الاقطاعى مع التدريب تحت السياط . واخيرا لم يكـــن فى وسعـــه التصرف بحرية بمنتجاته ،اذ كان ملزما بتسليم القسم الاكبر منها الى محتكرى الحكومة ، وذلك باسعار منخفضة .

وفى الوقت الذى كانت فيه الاحتكارات تحكـــم على الفلاحين والحرفيين بالجوع ، كانت تدر بايرادات طائلة على الحكـــومة المصرية متيحة لها امكانيـــة تشكيـــل جيش جديـــد ، كمـــا اغنت التجار الذين التزموا ابتياع البضائع المحتكرة بالجملة وجبـــايـــة الضرائب .

واصبح الكثيرون من الفلاحين والحرفيين غير قادرين على تحمل الظلم ، فتمردوا ولاذوا بالفرار الى سوريا المجاورة . الا ان الحكومة المصرية تمكنت من استعادتهم ، وقمعت بقسوة الانتفاضات الشعبية ، التى حدثت عام ١٨٢٢ فى القاهرة ، وعام ١٨٢٣ فى مديرية المنوفية ، وعام ١٨٢٤ فى الوجه القبلى ، وعام ١٨٢٦ فى منطقة بلبيس .

اعادة تنظيم جهاز الدولة . كانت مصر تعتبر شكليا احدى الولايات التابعة للامبراطورية العثمانية ، بينما كان يعتبر محمد على باشا واليا خاضعا للسلطان والباب العالى . وقد احتفظ محمد على بقناع الولاء هذا الا انه لم ينفذ من اوامر الباب العالى فى الحقيقة الا ما هو فى صالحه ، وتجاهل ما سواه . فاصبحت مصر ، فى الواقع ، دولة مستقلة ذات حكومة وجيش وقوانين ونظام ضرائب خاصة بها . وكان يدفع محمد على جزية سنوية الى السلطان بلغت حوالى ٣٪ من مجموع نفقات ميزانية الدولة ، ويستلم من السلطان التقليد . وكان يذكر اسم السلطان فى الخطبة ، وبهذا كانت تنحصر تبعية مصر للباب العالى . وكان الاجانب يطلقون على محمد على لقب «نائب الملك» » .

وقام محمد على باصلاحات ادارية من اجل تقوية قدرة مصر الدفاعية . والغى نظام المماليك الادارى القديم ، الذى كان يسمح لحكام الاقاليم ــ اى الكاشفين ، بالقيام باعمال استبدادية كيفية ، وانشا عوضا عنه جهازا مركزيا للدولة . واستحدث عددا من الوزارات على الطراز الاوربى مع تحديد وظائف كل وزارة بصورة دقيقة . فقادت وزارة الحربية شؤون الجيش والاسطول . وقامت وزارة المالية بجباية الضرائب . وادارت وزارة التجارة شؤون الاحتكارات ، كما انيط بها احتكار التجارة الخارجية ؛ وفتحت وزارة التعليم العام العديد من المدارس واوفدت الطلاب الى الخارج لدراسة العلوم الاوربية . واخيرا شكّلت وزارتا الخارجية والداخلية . وألف فى كل مصلحة عدد من المجالس واللجان للنظر فى قضايا خاصة كشؤون الملاحة والزراعة والصحة وما شابه ذلك .

وقام محمد على بتقسيم مصر الى مناطق جديدة . اذ قسمت البلاد الى سبع مديريات . ووضع على رأس كل مديرية مديرا خاضعا الى الحكومة المركزية فى مصر . وكان المدير لا يمارس الشؤون الادارية وجباية الضرائب فحسب ، بل وادارة مصانع ومانيفاتورات تابعة للدولة ، ويشرف على حالة القنوات والجسور والطرق ، ويضمن البذار وجمع الغلات الزراعية فى حينه . وتقسم المديرية الى مراكز يترأس كل منها «المأمور» ، وتعرف اصغر الوحدات الادارية بالناحية (الخُط) ويترأسها «الناظر» . واخيرا ، كان يتولى امور القرية العمدة وشيخها . ولقد ضمن هذا النظام الادارى المنسّق بتقسيماته المتدرجة الصارمة ، سيطرة الحكومة المركزية على جميع حلقات جهاز الدولة .

وكان للفرنسيين نفوذ كبير على جهاز الدولة المصرية . اذ ان محمد على كان قد استدعى للخدمة عنده ، الاطباء والمهندسين والمعلمين والحقوقيين الفرنسيين ، الذين ساعدوه على فرنجة ادارة البلاد . وبالاضافة الى ذلك ، هيّأ كوادر من المثقفين البرجوازيين والنبلاء من بين المصريين انفسهم .

الاصلاحات الثقافية . تطلب تكوين الجيش وجهاز الدولة الجديد اناسا مثقفين ومتعلمين . ولهذا اوفد محمد على عشرات من الشباب المصريين الى اوربا لدراسة العلوم الحربية والتكنيكية والهندسة الزراعية والطب واللغات والحقوق . وترجمت الى اللغة العربية الكتب المتخصصة والمدسية . وعند انتهاء هؤلاء الشبان من دراستهم وعودتهم الى بلادهم ، كانوا يعينون ضباطا وموظفين ، واشتغلوا كمدراء ومهندسين فى المؤسسات الحكومية ، وتقلّد بعضهم منصب وزير .

وبالاضافة الى ذلك ، فتحت للمرة الاولى فى التاريخ المصرى ، المدارس العلمانية العامة . وكان فى المدارس الابتدائية اكثر من ٦ آلاف تلميذ ، تتراوح اعمارهم ما بين ٨ الى ١٢ سنة ويدرسون اللغة العربية والحساب . وفى المدارس الثانوية ، كان يدرس التلاميذ ، الذين تتراوح اعمارهم بين ١٢ الى ١٦ سنة ، بالاضافة الى ما مرّ اللغة التركية والرياضيات والتاريخ والجغرافية . وكان

باستطاعة التلاميذ ، بعد الانتهاء من الدراسة الثانوية ، الالتحاق باحدى المدارس المهنية لمواصلة الدراسة لمدة ٤ سنوات . وأنشئت بالاضافة الى المدارس العسكرية ، مدارس اخرى وهى : الطب والبيطرة والصنائع والميكانيك والزراعة واللغات والموسيقى . وكان المنخرطون فى هذه المدارس يتقاضون رواتب خاصة ويعيشون فى الاقسام الداخلية حيث يطعمون مجانا .

وأسست فى مصر ايضا مستشفيات عسكرية ومدنية ، لم تكن باسوأ من اغلبية المستشفيات الاوربية فى ذلك الحين .

وفى عام ١٨٢٢ ، فتح محمد على لاول مرة فى مصر دارا للطباعة صارت تقوم بطباعة الكتب باللغة العربية وكذلك بالفارسية والتركية . وصدرت فى عهده اول جريدة مصرية هى «الوقائع المصرية» . وتعلّم محمد على نفسه القراءة فى وقت متاخر جدا ، عندما بلغ الخامسة والاربعين من العمر . وقاد دفة الحكم فى مصر لمدة تقرب من عشرة اعوام وهو لا يعرف المبادئ الاولية للقراءة والكتابة . الاّ ان ذكاءه الفطرى الكبير ، جعله قادرا على ان يتملك سراعا أسس الفن الحربى والتكنيك والتاريخ . والمّ بتفاصيل ادارة الجيش والمشاريع ، وتتبع بنفسه الصحافة الاجنبية .

السمة العامة لاصلاحات محمد على . كانت اصلاحات محمد على ، كاصلاحات بطرس الاول ، تحمل طابعا تقدميا بالرغم من انها كانت عبئا ثقيلا على عاتق جماهير الشغيلة المصرية ، المستغلّة بلا رحمة من قبل الدولة الاقطاعية . وكبطرس الاول ، لم يقض محمد علي على نمط الانتاج الاقطاعى ، الا انه قضى على مخلفات القرون الوسطى الأكثر رجعية ، وعمل فى الوقت ذاته ، على تعزيز دولة الملاكين والتجار . وانشأ جيشا واسطولا قويا وجهاز دولة قويا ، وقام بعدد من الاصلاحات التى جعلت من مصر دولة مكينة ذات قوة حيوية .

وقدر كارل ماركس عاليا اصلاحات محمد على . فوصفه «بالشخص الوحيد» الذى كان فى وسعه ان «يتوصّل الى استبدال «العمامة المفتخرة» (اى تركيا فى القرون الوسطى ، ـ ملاحظة

المؤلف) «برأس حقيقى» * . كما وصف مصر ، تحت قيـــادة محمد على «بالقسم الوحيد الذى كان ذا قوة حيوية آنذاك» ** فى الامبراطورية العثمانية .

ومع ذلك فكانت فى فعالية محمد على بعض الجوانب الرجعية . فهـــو لم يضطهـــد العمال والحرفيين والفلاحين فى داخـــل مصر فحسب ، بل واضطهد بقسوة شعوبا اخرى . وقمع الانتفاضـــة التحررية اليونانية ، واخضع الجزيرة العربية والسودان وسوريا وكيليكيا وكريت . وكان يحلم بتكوين امبراطورية واسعة الارجاء ذات قوميات متعددة ، لصالح الملاكين والتجار المصريين . وكان تحت سلطته الاتراك واليونانيون والسودانيون فضلا عن العرب ، وتصرفت قواته العسكرية كما يتصرف الفاتحـــون فى الاقطـــار المغلوبة وذلك حتى فى الاراضى العربية المجاورة لمصر .

وان نير القنانة الاقطاعى الذى لا يرحم ، والحروب التوسعية المتواصلة ، ومقاومة الشعوب المغلوبة ، ومناهضة الدول الكبرى ، وبالدرجة الاولى انكلترا ــ كل ذلك قوّض قدرة محمد على ، وادى فى آخر المطاف الى انهياره .

---

* ك . ماركس ، التعقـــدات الروسية-التركية ــ خداع ومراوغات الوزارة البريطانية . ــ آخر مذكرة لنسلروده . ــ مسالة الهند الشرقية ، ــ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٩ ، ص ٢٠٢ .

** ك . ماركس ، الحرب فى بورما . ــ المسالة الروسية . ــ مراسلة دبلوماسية ممتعـــة ، ــ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعـــة الروسية الثانية ، المجلد ٩ ، ص ٢١٠ .

الفصل الرابع

فلسطين وسوريا والعراق فى بداية القرن التاسع عشر

فشل الخطط الفرنسية فى سوريا . وجدت فلسطين وسوريا والعراق نفسها ، على حين غرة تماما ، منجرة فى دوامة الاحداث التى كانت تهز اوربا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، مع انها كانت اقاليم نائية من الامبراطورية العثمانية ، رازحة تحت سلطة الطغاة المحليين الذين اعترفوا بسلطة الباب العالى بصورة شكلية فقط . وفى غضون حملة نابليون على مصر ، والصراع الانكليزى الفرنسى الضارى فى الهند وقعت هذه الاقاليم فى مدار السياسة العالمية وكانت برامج وحسابات نابليون البعيدة المدى مرتبطة بهذه الاقاليم . اذ لم يتخل نابليون عن فكرة الحملة على الهند طيلة مدة حكمه . وقد شغلت سوريا والعراق مركزا هاما فى الخطط العديدة التى صممت لهذه الحملة . وفى اثناء الحملة الفرنسية على مصر ، اعدت خطة الزحف الى الهند عبر سوريا والعراق بمحاذاة وادى الفرات .

واهتمت حكومة «الديركتوار» الفرنسية ، وهى تواصل تقاليد البوربون ببسط النفوذ الفرنسى فى الشرق . فشرعت فى حماية التجارة الفرنسية والمسيحيين الشرقيين . ومنذ ذلك الوقت استغلت البرجوازية الفرنسية على نطاق واسع ضرورة الدفاع عن «حقوق المسيحيين الشرقيين» ، كذريعة للتغلغل فى سوريا وفلسطين ، ولتغطية خططها التوسعية فى الشرق . وعلى غرار ما فعلته فى مصر ، كانت البرجوازية الفرنسية تسعى هنا وراء غايات اغتصابية صرفة . اما خطط فرنسا العملية فى هذه المنطقة ، فكانت

مرتبطة ارتباطا وثيقا بمهمات حملة نابليون * المصرية ومستمدة منها ، كما انها كانت موجهة لتحقيق احلامه حول الحملة الهندية .

وعندما شنّ نابليون حملة على سوريا عـــام ١٧٩٩ ، في غضون الحملة على مصر ،حسب انه سيكوّن هناك جيشا عربيا بنواة فرنسية ، يمكن استخدامه لمقارعة الاتراك والانكليز . وبهـــذا الصدد ارتأى الاعتماد على الاقطاعيين العـــــرب والحكام الاتراك المحليين . غير ان المفاوضات مع لمحمد باشا الجزار ــ والي سوريا ــ منيت بالفشل . اذ كان الجزار يمتلك سلطة واسعـــة ونقودا انكليزية كثيرة . وقد مارس حكما مطلقا في سوريا لاكثر من ٢٠ عاما ، ولم يشأ ان يشارك سلطته اى دخيل .

اما بخصوص بشير الثاني ــ امير لبنان (الذى أوفد الكولونيل سباستياني للتفاوض معه) ، فانه خاتل وانتظر ليرى لمن ستكون الغلبة.. واجاب بشير الثاني الجزار الذى طالبه بارسال قواته الى عكا بان الفوضى التامة تسود في الجبال . . . وان الشعب لم يدفع الضرائب ، ولا يريد ان يسمع شيئا عن الحملة . وقد قام بتزويد الاتراك والفرنسيين على السواء بالمؤونة . وفضلا عن ذلك ، كان عليه ان يأخذ بعين الاعتبار بـان القسس ، والرهبـان الكاثوليك ، الذين هربوا من اوربا ، قد اثاروا بين السكان المارونيين المتخلفين في شمال لبنان وخاصة في بيروت ، شعور الكراهية ضد الجمهورية الفرنسية وبونابرت .

وكان صالح ــ شيخ صفد ، حفيد ظاهر العمر المشهور ، الشخص الوحيد الذى انحاز الى جانب بونابرت وساعده على سحق قوات المماليك على مقربة من سفح جبل طابور (١٦ نيسان ــ ابريل ــ عام ١٧٩٩) . وحدث هناك ، في معسكر بونابرت ، لقـــاء بين المنتصرين ووفود بشير الثاني والموارنة ، الذين وعدوه بالنجدة في حالة استيلائه على عكا .

ومع ذلك فرغم استمرار الحصار لمدة ٧٠ يوما والهجمات المتكررة لاقتحامها لم يستطع الفرنسيون الاستيلاء على عكا ، التي

* راجع فيما تقدم الصفحات ٤٣ــ٥٦ .

كانت تحميها مدافع الاسطول البريطانى بقيادة ســـدنى سميث .
وهكذا عاد بونابرت الى القاهرة بتاريخ ١٤ حزيران (يونيو) من عام ١٧٩٩ .

وقد فشلت تقديرات نابليون المغامرة . اذ لم يلاق جيش الفاتحين الفرنسيين مساندة فعالة بين جماهير سوريا الشعبية . الا ان الحقد على الجزار كان عظيما الى درجة ان العرب السوريين لم يقدموا اية مساندة للاتراك أيضا .

ولم يترك الجيش الفرنسى آثارا عميقة فى سوريا ، كما تركها فى مصر . ولم يتجاوز الفرنسيون عكا . وكانوا قد احتلوا فلسطين فقط . وحتى هنا فانهم اكتفوا بسواحلها وبسهل عزريلون (مرج ابن عامر) . واستقاموا فى هذا البلد ثلاثة اشهر فقط . غير ان العمليات الحربية التى اندلعت فى سوريا ، عقدت الوضع الداخلى وافضت الى استعار الصراع مجددا بين الاقطاعيين .

الصراع الانكليزى الفرنسى من اجل العراق . ان فشل الحملة المصرية ، الذى افسد خطط نابليون ، لم يثبط عزيمته مطلقـــا فبعد قليل من عقد صلح اميـان عـام ١٨٠٢ ، اعـاد الفرنسيون مجددا العمليات العاصفة فى الشرق الادنى . وفى خريف عام ١٨٠٢ ، أخذ الكولونيل سباستيانى يطوف ثانية فى الشرق الادنى ، ويكوّن صلات مع الاوسـاط الحاكمـة المحليـة ، ويهيئ الطريق لحملـة فرنسية جديدة .

وفى عام ١٨٠٥ ، وضع نابليون الثقل بشدة على السياسة الشرقية ، باعداده العدة لحملة على الهند . وفى هذه المرة كان قد قرر انزال قواته فى مصب نهر العاصى (اورنتس) ، حيث يزحف مـــن هناك نحو وادى الفرات .

ومن اجل تامين مرور القوات الفرنسية عبر العراق ، عقد عملاء نابليون اتفاقية مع حافظ علي باشا ، والي بغداد ، الذى كان قد استولى على السلطة فى العراق بعد موت سليمان باشـــا الكبير (١٨٠٢) . فشكل حافظ على باشا بمساعـــدة المدربين الفرنسيين وحدة عسكرية نظامية ، نظمت على الطراز الاوربى .
٠ ة. آب (اغسطس) ١٨٠٧ ، قتل حافظ على من قبل المتآمرين .

الا ان سليمان الصغير (كوجوك) ، ابن اخيه ، الذى كان مرتبطا بفرنسا ايضا ، سحق المتآمرين بمساعدة هذه الوحدة النظامية . وبالحاح من الجنرال سباستيانى ، ثبت الباب العالى سليمان الصغير واليا على بغداد . وفى الوقت ذاته ، عقدت فرنسا معاهدة تحالف مع ايران . فاوفدت الى هناك بعثة حربية ، بقيادة الجنرال غاردان ، أخذت باعادة تنظيم جيش الشاه وبالتهيئة لمرور القوات الفرنسية عبر ايران .

واثار نشاط العملاء الفرنسيين فى العراق مقاومة انكلترا . فان العراق بحكم موقعه على طريق الهند ، كان قد اكتسب بالنسبة لها اهمية متزايدة . وفى نهاية القرن الثامن عشر انشأت شركة الهند الشرقية خطوطا بريدية منتظمة عبر العراق . وكان يحمل البريد على ظهر السفن البحرية من بومباى الى البصرة ومن هناك كان يمر ببغداد وحلب حتى استانبول عن طريق البر على ظهور الجمال السريعة . وكان ممثلو الشركة المقيمون فى البصرة وبغداد ، والذين كانوا يدبرون شؤون هذه الخطوط ، قد استلموا (على شاكلة الممثلين الانكليز فى ايران) تعليمات لتجميد نشاط عملاء نابليون . وكانت المؤامرة فى عام ١٨٠٧ ضد حافظ على باشا ، والي بغداد ، قد نظمت بمساعدة الانكليز .

وفى عام ١٨٠٩ ، عندما اقلع بونابرت عن خططه الهندية بسبب احداث اسبانيا ، تمكن الانكليز من طرد البعثة الفرنسية من ايران . غير انه نشب فى العام ذاته خلاف بين شركة الهند الشرقية وسليمان الصغير مما اضطر ممثل الشركة الى مغادرة بغداد .

وتحت تأثير الانكليز عزل الباب العالى سليمان الصغير عام ١٨١٠ وحكم عليه بالموت . ووعد والى بغداد الجديد الشركة باعادة امتيازاتها وبعدم التدخل فى شؤونها . ومع ذلك ، فان القوات التركية طردته من بغداد وقتلته اثناء مطاردتها له . واعيد انشاء المؤسسات التجارية للشركة فى البصرة وبغداد .

وفى فجر القرن ١٩ ، منيت فرنسا بالهزيمة فى الصراع الضارى من أجل السيطرة على الشرق الادنى . وفى كل مكان ما عدا مصر ، التى كانت تحت حكم محمد على ، ساد نفوذ انكلترا ، التى

عززت مركزها الى درجة كبيرة فى العراق وفى منطقة الخليج العربى .

الغارات الوهابية . اصبحت المدن والقرى السورية وفلسطين الشرقية والعراق (الشاطى الغربى من الفرات) ، فى العقد الاول من القرن ١٩ ، هدفا للغارات الوهابية * الدائمة . ولم يعترف القائمون بالدعوة الى الوهابية بسلطة السلطان على البلدان العربية التى ارادوا توحيدها على اساس تعاليمهم الدينية . ولعدم وجود القوة الكافية لديهم لتحقيق هذه المهمة ، فانهم اقتصروا على تنظيم الغارات على سوريا والعراق ، والتجاوزات والنهب وجمع الاتاوات.

وفى نيسان (ابريل) عام ١٨٠١ ، استولى الوهابيون على كربلاء ـ مدينة الشيعة المقدسة . ولمدة يومين ، نهبوا المدينة وحرقوا البيوت ونكلوا بالمرتدين . ثم تراجعوا الى الصحراء ، بعدما قتلوا ما يربو على ٤ آلاف شخص واستولوا على كنوز لا تحصى ، كانت محفوظة فى مسجد الشيعة . وهزمت الحملة التى كان قد ارسلها والى بغداد لملاحقتهم فى الجزيرة العربية .

وفى عام ١٨٠٣ ، ظهر الوهابيون فى جوار حلب . وفى عام ١٨٠٤ ، شنوا غارة على الزبير والبصرة ، غير انهم دحروا من قبل قوات حافظ على باشا ، والى بغداد ، الذى قام بامر من الباب العالى ، بحشد القوات لشن حملة على الجزيرة العربية ، الا ان حملته (١٨٠٤ـ١٨٠٥) منيت بالفشل . فجدد الوهابيون غاراتهم محاولين ثانية الاستيلاء على البصرة والزبير وكربلاء والنجف .

وفى عام ١٨٠٨ شن الوهابيون الذين بلغ عددهم ٤٥ الف رجل ، هجوما كبيرا على بغداد ، حيث صدهم سليمان الصغير . وفى العام نفسه ، ظهروا فى البطاح الواسعة بين معان وحلب ، وفى عام ١٨١٠ فى حوران .

ولم تتوقف غارات الوهابيين على سوريا والعراق الا بعدما حلت القوات المصرية فى الجزيرة العربية عام ١٨١١ وهددت بالقضاء على الدولة الوهابية .

---

* للاطلاع على الدولة الوهابية باسهاب ، راجع الفصل الخامس .

اتساع الفوضى الاقطاعية . ان تفاقم سياسة الباب العالى الخارجية وتدخل الدول الكبرى وفشل اصلاحات عامى ۱۸۰۷ و۱۸۰۸ ومصرع سليم الثالث ومصطفى باشا بيرقدار، كل ذلك قوى الى مدى ابعد الميول المتنافرة فى الامبراطورية العثمانية . فبلغت انفصالية الباشوات ، الذين كانوا يحكمون الاقاليم العربية التابعة للباب العالى ، حدا لا مثيل له واسفرت عن صراع لا مبدئى تماما من اجل السلطة والولايات . وحاولت الحكومة المركزية ، التى لم تكن تملك لا القوة ولا الامكانيات لمقارعة الاتباع العصاة ، القيام بمناورة فى هذا الوضع المعقد ، محرضة الباشوات الواحد ضد الاخر ، مما ادى الى تفاقم الفوضى العامة . فتدخلت الدول الاوربية ومن بعدها ايران ومصر ، بصورة فعالة فى المنازعات الاقطاعية الداخلية ، سعيا وراء مصالحها الخاصة .

وبعد مغادرة القوات الفرنسية فلسطين ، اشتدت بصورة محسوسة قوة وسطوة احمد باشا الجزار ، الذى عزى لنفسه شرف الانتصار على نابليون ، وقد وقفت مدينته المتواضعة عكا بوجه هذه الجحافل الاجنبية التى لا تغلب وصدت هجوم الجيش الاوربى المتقدم ، الذى لم يذق طعم الهزيمة .

وبقوة جديدة كان الجزار، وهو ثمل بالانتصار، يسعى الى وضع سوريا برمتها تحت سلطته . وخاض حروبا متواصلة ضد باشوات دمشق وطرابلس ، حالما بضم ممتلكاتهما اليه . وفى طريقه نحو هذا الهدف ، اصطدم بمقاومة الباب العالى ، الذى نظر بعين عدم الرضى الى اشتداد سطوة والي عكا المستبد . فحاول السلطان سليم الثالث ، الذى خاض نضالا عنيدا ضد ميول ولاته الانفصالية ، تحديد سلطة ونفوذ الجزار بكل الوسائل . وفى الوقت ذاته ، وجد الجزار منافسا جديدا له فى شخص صنيعته وتابعه بشير الثانى ، الامير اللبنانى .

وبيد صارمة نكل بشير الثانى بالمتمردين الاقطاعيين التابعين له . ووضع حدا ، في ممتلكاته ، للنزاعات القديمة بين الاقطاعيين ، ووحد جميع لبنان تحت سلطته . فعزم الجزار على التخلص من هذا المنافس . الاّ ان الباب العالى ، فى نضاله ضد الجزار قررمساندة بشير الثانى .

وفى عام ۱۷۹۹ ، بعد خروج القوات الفرنسية بقليل ، عزل الجزار بشير الثانى ، ولكن الباب العالى اعاده الى منصبه حالا . وثبت سليم الثالث الحقوق الاقطاعية لبشير الثاني لا فى المنطقة التى كانت تحت حكمه فحسب ، بل وفى مناطق البقاع والجبل الشرقى وجبيل وصيدا ايضا . واصبح بشير الثانى ، منذ ذلك الحين خاضعا مباشرة للباب العالى متخلصا هكذا من ربقة احمد باشا الجزار . مما الحق ضربة كبيرة بالجزار ، الذى انتزع من سلطته بهذا الشكل لبنان باسره .

الاّ ان مرسوم الباب العالى لم ينفذ الاّعندما مرّ فى سوريا الجيش التركى الكبير، الذى كان قد ارسل الى مصر. ومع هذا فلم يكد يغادر الجيش تخوم البلاد حتى استطاع الجزار اقصاء بشير، مستغلا تذمر الفلاحين اللبنانيين ، ونصب بدله لرئاسة لبنان اثنين من عملائه . وفى عام ۱۸۰۰ ، ادت ابتزازات الاميرين الجديدين الى انتفاضة الجبليين اللبنانيين ، الامر الذى اعطى فرصة الى بشير الثانى للعودة الى السلطة . وخلال بضع سنوات ، واصل بشير الثانى النضال ضد الجزار ، وفى النهاية ، عقد معه فى عام ۱۸۰۳ صلحا ودفع له ٤۰۰ الف قرش * «عن الضرائب المتأخرة للسنوات المنصرمة» و ٥۰۰ الف قرش كاتاوة سنوية .

وفى نيسان (ابريل) عام ۱۸۰٤ ، توفى احمد الجزار ، مما ادى الى تفاقم الفوضى الاقطاعية ، التى كانت تسود البلاد . وبدأت فى كل ولاية نزاعات دموية . وتقوى فى عكا بعد نزاعات استمرت عدة اشهر ، سليمان باشا قائد جيش الجزار ، وحكم جنوب سوريا لمدة ١٥ عاما (١٨٠٤ ــ ١٨١٩) . وفى دمشق حلّ الباشوات الواحد بعد الآخر مطيحا اللاحق منهم السابق وفى الوقت نفسه ، اضطر الباشوات الى مواصلة الحرب ضد الوهابيين . وبرز فى هذه الحرب اليوزباشي غنج يوسف ، الذى حاز، في آخر الامر ، على ولاية دمشق . وقاد غنج يوسف الحروب لا ضد الوهابيين فحسب ، بل

* القرش ــ عملة نقدية متداولة فى الامبراطورية العثمانية . وكان يعادل فى ابتداء القرن التاسع عشر ١/٤ الفرنك تقريبا او ١/٥ الروبل الفضى .

وكذلك ضد الباشوات المجاورين من عكا وطرابلس وحلب . وانتهت هذه الحروب بصورة محزنة بالنسبة له. اذ اضطر حوالى عام ١٨١٢، الى الهروب الى مصر . وتسنم الحكم فى طرابلس احد مقربى الجزار المدعو مصطفى اغا بربر. فبعد ان عين صدفة آمرا لقلعة طرابلس، سيطر على جميع المنطقة وجبى الضرائب من السكان ولم يعترف باية سلطة . ومن جهة اخرى استولى على السلطة فى يافا شخص اسمه محمد اغا ، الذى كان يلقبه الشعب بأبى نبوت .

وكانت تشاهد فى العراق الصورة نفسها ، صورة الحزازات الاقطاعية والنزاعات الضارية من اجل السلطة . وقد تدخل حاكم كرمانشاه الايرانى والبكوات الاكراد بصورة فعالة فى هذه الخصومات مساندين ادعياءهم. وفى عام ١٨١٠، تقوى فى بغداد ، بعد وفاة سليمان الصغير ، شخص اسمه عبد الله واستطاع الحفاظ على السلطة لمدة سنتين . وفى عام ١٨١٢ ، حلّ محله سعيد باشا وهو ابن سليمان الكبير المشهور . وكانت سنوات حكمه (١٨١٢ ـ ١٨١٧) مفعمة بالاضطرابات الاقطاعية وبمحاولات الباب العالى العقيمة لوضع حد لانفصالية المماليك العراقيين واستبدادهم .

اصلاحات بشير الثانى فى لبنان . فى هذا الوضع من الانهيار الاقطاعى التام ، خاض الامير بشير الثانى النضال من اجل اصلاح لبنان واشاعة نظام المركزية فيه . ورغم انه لم ينشئ لا جيشا نظاميا ولا معامل او مدارس جديدة ، فان اعماله كانت تحمل طابعا تقدميا وساعدت موضوعيا على تطوير البلاد اقتصاديا .

وغالبا ما كان يلقب بشير الثانى بـ «الرهيب» . فمجرد ذكر اسمه كان يثير لدى الرعية الذعر والرعب . وكان بشير الثانى طماعا جشعا وطموحا الى اقصى حد وذا ارادة لا تلين . وكانت اساليبه المفضلة الغدر والاعدام والتعذيب والرشاوى والنهب ـ وهى الاساليب التى يتميز بها العهد الاقطاعى . الا ان بشير الثانى ـ الاقطاعى قلبا وقالبا ـ حاول بواسطة هذه الاساليب الهمجية ، على غرار المصلحين الشرقيين الآخرين ، قطع دابر الاستبداد الاقطاعى لتأمين الظروف اللازمة لتقدم لبنان الاقتصادى .

وكانت كافة اعماله ترمى الى تكوين دولة مركزية قوية ، وتصفية الفوضى الاقطاعية . وفى عام ١٧٩٥ ، عندما تسلم بشير الثانى الحكم ، اباد عددا من العوائل الاقطاعية الاكثر نفوذا في لبنان واستولى على املاكها . وفى القرن ١٩ واصل نضالــه ضد العوائل المتنفذة . وسلب الاقطاعيات من اتباعه المتمردين ووضع فى محلّهم اولاده . وبعد موت الجزار بقليل ، ضم الى ممتلكاته امارة جبيل الاقطاعية الواقعة فى شمال لبنان ، ثم وادى البقاع ، الــذى كان يمون لبنان بالقمح .

واستولى بشير الثانى علىاراضى كبار الاقطاعيين الدروز فى جنوب لبنان واحل فيها الفلاحين الموارنة القادمين من المناطــق اللبنانية الشمالية والذين أخذوا يدفعون له بدلات ايجار قليلـة نسبيا ويزرعون اشجار التوت ويغزلون الحرير . وقد اثرى بعض هؤلاء المستأجرين وابتاعوا الارض منه .

واستطاع بشير الثانى ايضا الحد مـــــن تعسف الاقطاعيين الموارنة فى كسروان .

ونتيجة للكفاح الضارى ضد قطاع الطرق الاقطاعيين ، ضمن بشير الثانى السلامة التامة فى الطرق . وعندها استطاع التجار نقل بضائعهم بحرية فى ممرات لبنان الجبلية ، علما منهم بان ايا من قطاع الطرق الاقطاعيين لن يمسهـــم بضرر حتى فى اقصى الشعاب النائية ــ والاّ فتمسك به يد بشير الصارمة . كما تنفس المزارعون الفلاحون الصعداء ، وذلك لتخفيض مقدار الضرائب الاقطاعيـــة بالنسبة لعهد الجزار .

الاّ ان بشير الثانى نفسه اذ حدّ من تعسف الاقطاعيين استغل بدون حرج الفلاحين اللبنانيين . وعاش عيشة ترف جليل . وانشأ فى محل اقامته وهو بيت الدين قصرا يعتبر من اشهر آثار الهندسة المعمارية اللبنانية .

وكان بشير الثانى مسلما بصورة رسمية ، واعتنق «خفية» مع اقربائــه المسيحيــة وادى الطقوس المسيحيـــة فى كنيســة قصره «السرية» . وقد املت هذا «الاعتناق» اعتبارات سياسية : وهى السعى الى استغلال نفوذ رجال الدين الموارنة بغية توحيد لبنان

تحت حكم الشهابيين . وان بشير نفسه عمل الكثير لافشاء هذا «السر» بين سكان لبنان المسيحيين . وصوّرته الصحافة الكاثوليكية كمسيحي متحمس . الاّ انه كان لا يكترث في الحقيقة بقضية الدين . فلقد كان بشير الثاني حسب تعبير لامارتين الشاعر الفرنسي ، الذي كان قد زاره في حينه ، درزيا مع الدروز ومسيحيا مع المسيحيين ومسلما مع المسلمين .

عبد اللّه باشا و «اصلاحاته» . انتفاضة عام ١٨٢٠ في لبنان . توفي سليمان باشا ، حاكم عكا ، عام ١٨١٩ . فابتاع الملتزم المقيم عنده من الباب العالي ولاية عكا لاحد مماليكه المفضلين وهو عبد اللّه باشا ، الذي كان شابا في السادسة والعشرين من العمر ذا موهبة شعرية ، وتغنى في اشعار رنانة بمآثره الحربية ، التي لم يقم بها في الواقع . وبالاضافة الى ذلك ، فانه اشتهر بخط يدوي ممتاز واهدى الى السلطان التركي ــ محمود الثاني ــ المولع كثيرا والعليم تماما بفن حسن الخط نسخة من القرآن خطها بيده وبهذا نال حظوة لدى السلطان .

«وعلى غرار» المصلحين الشرقيين الكبيرين ــ محمود الثاني ومحمد علي ، شكل عبد اللّه باشا كتيبة مشاة نظاميين من مماليكه . وعدا هذه النزوات وعدد من العصيانات الفاشلة ضد السلطان محمود الثاني التي ظلت دون عقاب ، لم يكن لعبد الله ذكر ما . وكان كلية في ايدي الملتزم ، الذي ابتاع له ولاية . وكان يتوجب على عبد اللّه تنفيذ اوامره الى ان حلت اللحظة التي خنقه فيها . وكان الملتزم يطالبه على الاخص بتقديم المال له دون انقطاع ، وللحصول عليه فرض عبد اللّه جزية خارقة العادة على لبنان .

وشرع بشير الثاني بجباية هذه الجزية . وفي عام ١٨٢٠ ، ثار الفلاحون عندما رأوا عودة عهد الجزار . وفي قرية انطلياس الواقعة في لبنان الشمالي ، اتخذ اجتماع الفلاحين الذين كان عددهم ٦ آلاف شخص قرارا بعدم دفع الضرائب . فهرب بشير الثاني من لبنان ، الاّ ان الاميرين الآخرين اللذين كان قد عينهما عبد اللّه لم يستطيعا ايضا جمع المبلغ المطلوب .

وعندئذ اعاد عبد اللّه لبنان الى بشير الثانى ، الذى توجه على رأس مفرزته الى منطقة جبيل ، حيث احاط بمعسكره آلاف من الثائرين . ولم يفلح بشير الثانى فى صد الثائرين واغراقهم فى بحر من الدماء الا بعد وصول قوات الشيخ جنبلاط ، الاقطاعى الدرزى الكبير ، التى ارسلت لنجدته .

ابادة الاشراف الدروز . وفى عام ١٨٢٢ ، هرب بشير الثانى مجددا من امارته . وقد التجأ فى مصر بعدما شارك فى عصيانات عبد اللّه الفاشلة وتوجس خيفة من سخط السلطان . فاستولى على السلطة فى لبنان الاقطاعيون الدروز برئاسة الشيخ جنبلاط . وقد انتخبوا اميرا للبنان واحداً من الشهابيين ، عديم الارادة ومنفذا لاوامرهم . فانتعشت فى لبنان الانظمة القديمة ، حكم الاقطاعيين المطلق واستبدادهم . الاّ ان محمد على استطاع الحصول من الباب العالى على العفو لصالح بشير الثانى ، الذى عاد الى ممتلكاته . الاّ ان الاقطاعيين الذين لم يريدوا عودته الى السلطة ، قاموا بعصيان . فنكل بشير الثانى بالعصاة شر تنكيل . اذ دك قصر آل جنبلاط واسر الشيخ جنبلاط نفسه وخنقه ، ونفى اولاد الشيخ واستولى على عقاراتهم ووزعها على اولاده وحل الامر ذاته بامراء آل ارسلان ، ولم يفلح فى الهروب الاّ بعض اولادهم . واخيرا ، فان بشير الثانى ، فى كفاحه ضد الحكم الاقطاعى المطلق ، لم يتردد فى اضطهاد اقربائه . وعزز بشير الثانى بهذه الاجراءات سلطته وتمتع بالحكم (منذ عام ١٨٣١ كحليف وتابع لمحمد على) حتى عام ١٨٤٠ ، عندما اضطره الوضع العالمى الى مغادرة لبنان الى الابد .

اصلاحات محمود الثانى والقلاقل فى سوريا وفلسطين . وفى العقد الثانى من القرن ١٩ ، اشتد التذمر فى سوريا وفلسطين ضد اعمال السلطان محمود الثانى الاصلاحية . فسخطت جماهير متدينة واسعة من السكان على تجديدات السلطان واتهمته بالارتداد والخيانة . وكان السلطان قد أمر موظفيه بارتداء الملابس الاوربية واستبدال العمامة بالطربوش ، وشرع باعادة تنظيم الادارة المدنية محاولا بذلك «فرنجة» الامبراطورية العثمانية . وفى ١٨٢٦ ، الغى رسميا نظام الاقطاعيات العسكرية وصفى فيلق الانكشارية .

وتمرد انكشارية استانبول ردا على المرسوم الخاص بتشكيل وحدات عسكرية نظامية . وفى ١٥ حزيران (يونيو) ١٨٢٦ ، اجتمعوا فى ساحة امام ثكناتهم وقلبوا غلاياتهم كعلامة لعدم خضوعهم للسلطان . الا ان السلطان تمكن من قمع هذا التمرد . اذ قد احاط الساحة ، حيث اجتمع المتمردون بمدفعيته واحرق الثكنات . فهلك آلاف من الانكشارية محترقين باللهب . ومن هرب من الثكنة ، سقط تحت نيران مدافع السلطان .

وعلى غرار انكشارية العاصمة ، ابيد انكشارية الاقاليم . ونال عقاب صارم ايضا حماة الانكشارية رؤساء الطريقة البكتاشية ، الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير بين سكان المدن البسطاء . والغيت الطريقة البكتاشية . واضطهدت بشدة الطوائف الحرفية التى كانت مرتبطة بالانكشارية ، واعيد تنظيمها على نحو جذرى .

وقد زادت هذه الاجراءات من التذمر فى المدن . وفضلا عن ذلك ، فان تنفيذ الاصلاحات كان يتطلب نفقات كبيرة ، وقع عبؤها الى مدى كبير على عاتق الحرفيين وصغار التجار . فانخفضت الاجور وارتفعت الضرائب . وتحول التذمر الى كراهية للسلطان ذلك «الكافر» الذى تمادى حسب قول الملالى فى السكر بمعية الوجهاء ، فى الوقت الذى كان فيه اطفال الحرفيين يموتون جوعا . وقال الدراويش ان السلطان كان يعيش فى ترف فى الوقت الذى كان يخيم فيه البؤس على اكواخ الحرفيين . ووصم ايديولوجيو الحرفيين — وخاصة البكتاشيون — فى مواعظهم بالعار ترف وفساد قصر السلطان ، ودعوا الى التمسك بآداب التقشف البسيطة الصارمة والى الاحتفاظ بالفضائل القديمة وبادوات الانتاج اليدوية القديمة . وكانت هذه الدعوات مقرونة عادة بالمواعظ الصوفية وبالتمرد على السلطة .

وان تردى الحالة الاقتصادية وعدم ادراك طبيعة الاصلاحات الحقيقية ودعاية الدراويش ، كل ذلك اجج الحركة الثائرة الواسعة التى كانت قد شملت المدن المختلفة من الامبراطورية العثمانية . وفى سوريا بلغت الحركة قمتها فى حلب وخاصة فى دمشق .

وفى عـــام ١٨٢٥ ، حدثت اضطرابـــات كبيرة فى دمشق ضد اصدار فرمان حول تداول العملة فى البلاد . وكتب معاصر قائلا : « ان التهديدات بقتل الحاكم وبابادة جميـــع الموظفين ، ضمنت للشعب اصدار امن بابقـــاء جميع النقود حيز التداول حتى وصول امين الصندوق من استانبول » .

وحدثت فى العام نفسه انتفاضات فى القدس وبيت لحـــم ونابلس ، اذ رفض سكان هذه المدن الثلاث دفع الضرائب . وفى عام ١٨٣٠ ، انـدلعت انتفـاضة جديـدة فى نـابلس ، واخرى ، عام ١٨٣١ ، فى دمشق .

وفى دمشق شرع الوالى التركى ، بامر الحكومة ، فى اعداد قائمةالمعامل الحرفية والحوانيت لغرض زيادة الضرائب . واستخدم ذلك كاشارة للانتفاضة . فاحرق الثوار قصر الباشـــا وحاصروا القلعة ، التى التجأ اليها مع الحامية . واستمر الحصار مـــدة ٦ اسابيع . وعندما نفد احتياطى المؤن فى الحصن قام الباشا بمحاولة خرق نطـــاق الحصـــار ، الاّ انه قتل . وانتصر اهالى دمشق فى المعركة ، غير انهم لم يستطيعوا الاستفادة من ثمار انتصارهم .

وكل هذه التمردات والانتفاضـــات العفوية بالاضافـــة الى السخط الذى كان سائدا فى سوريا ، كانت لصالح محمد على الذى كان يعلل النفس ويضع خططا طموحة بصدد اقاليم البـــاب العالى الاسيوية . وفى عام ١٨٣١ ، عندما اقتحمت القوات المصريـــة حدود سوريا وفلسطين ، رحب السكان بها كمنقذة لهم من ظلم وتعسف السلطان الكافر .

اصلاحات داود باشا فى العراق (١٨١٧ـ١٨٣١) . كانت مكانة السلطان متدهورة بما فيه الكفاية فى بلاد ما بين النهريـــن ايضا . فكان العراق ، الذى تفصله عن تركيا الجبال ، اقليما ذا حكم ذاتى فى الواقع ، حيث كانت سلطة الباب العالى معترف بها عن طيب خاطر ، الا انها لم تكن لتتمتع باى احترام . وكانت البلاد تدار من قبل المماليك الذين كانوا يسمون بالتركية «كوُلَه ْ مَن ْ» . وفى عام ١٨١٧ ، تسنم الحكم داود باشا ، بعد ما قطع راس سلفه وصهره . وكان داود باشـــا جورجى الاصل ، وبيع فى طفولتـــه

كرقيق الى سليمان الكبير . وقـد برز بين المماليك الآخريـن بمواهبه الادبية والدبلوماسية وبمعرفته الممتازة باللغات الشرقية وعلم اللاهوت الاسلامى . فاصبح سكرتيرا لسليمان الكبير وتزوج ابنته . وبعد وفاة سليمان الكبير ، اصبح من المغضوب عليهم ، وصار ملاّ في احد جوامع بغداد . فاقام صلات واسعة بين رجال الدين ، وكوّن له في الوقت نفسه اتباعا بين المماليك . وبالاستناد الى هذه العناصر اصبح باشا .

وحكم داود باشا العراق حكما مستبدا مطلقا خلال ١٤ عاما مقلدا في كثير من الامور محمد علي باشا ، والى مصر .

وحاول قبل كل شيء تصفية نظام الامتيازات ، الذى كان عبئا ثقيلا على كاهل التجار المحليين ، والذى كان قد ضمن عددا من الامتيازات لشركة الهند الشرقية ووكلائهـا الكومبرادوريين (ومعظمهم من الفرس) . وبامر داود ، جرّد الفرس في عام ١٨٢١ من امتيازاتهم ووضعوا على قدم المساواة مع التجار المحليين .

فردّت الشركة على هذه الاجراءات بحرب حقيقية . اذ قادت اسطولها في انهار العراق وقطعت المواصلات بين البصرة وبغداد . وعندئذ صادر داود باشا بضائع الشركة وحاصر مقرها في بغداد . وانتهى الخلاف بغلق مؤسسات شركة الهند الشرقية وابعاد كافة مستخدميها من البلاد . ومع ذلك ، فسرعان ما تمكنت الشركـة المتجبرة من استعادة كافة الامتيازات لنفسها ولعملائها ، كمـا اجبرت داود باشا على دفع اثمان البضائع المصـادرة . وانتهت محاولة تامين مصالح التجار المحليين بالفشل .

وخاض داود باشا النضال ضـد الانفصالية الاقطاعيـة والقبيلية ، سعيا وراء مركزة العراق تحت سلطته . واخمـد الانتفاضات القبيلية وأقصى الشيوخ غير الموالين له ووضع رجاله على رأس القبائل العربية . اما الكفاح من اجل اخضاع الاكـراد الاقطاعيين فكان اشد صعوبة .

اذ كان لدى بكوات الاكراد حليف مقتدر بشخص شـاه ايران . فاذا كانت ايران في النصف الثانى من القرن ١٨ تجتـاز مرحلة تفسخ اقطاعى ، فانها توحدت ابتداء من عام ١٧٩٧ تحت

حكم فتح على شاه ، الذى كان يسعى الى ضم العراق ايضـــا الى ممتلكاته . فاتصل فتخ على قبل كل شيء ببكــوات كردستـــان العراق ، الذين اعترفوا بتبعيتهم له وصاروا يدفعون له الجزية . وعين الشاه من بينهم وفق اهوائه ، حكاما للمنطقة . وكانت كافة المحاولات التى قام بها باشـــوات بغداد لاستعـــادة سلطتهم فى كردستان العراق ، تصطدم بمقاومة القوات الفارسية . فقرّر داود باشا وضع حد لهذه الحالة . وفى عام ١٨٢١ ، شن حملة ضـــد البك ، الذى كان قد عينه الفرس حاكما على كردستان غير ان قوات الاكراد والفرس الموحدة سحقت قوات داود باشا . فامعن داود باشا فى اضطهاد الفرس ، الذين كانوا يعيشون فى العراق . وصادر ممتلكاتهم والقى القبض عليهم . وبامر منه ، أخذت الكنوز ، التى كانت تعود الى رجال الدين الشيعة فى كربلاء والنجف وأبيد الكثير من الفرس ، الذين كانـــوا متخفين فى مساجد الشيعـــة . وهـــذه الاجراءات ، التى زادت من حدة النزاع التركى الايرانى الناجم بصدد كردستان ، ادت الى الحرب ١٨٢١ــ١٨٢٣ .

وكان التفوق فى الحرب بجانب الفرس ، الذين كانوا قـــد اعادوا تنظيم قسم من جيشهم وسلحوه على الطراز الاوربى . ومنى الاتراك بعدد من الهزائـــم سواء فى العراق او فى الشمال ــ اى فى شرقى الاناضول . واحتل الفرس السليمانية وكركوك والموصل . الا ان وباء الهيضة اضطرهم الى التراجع الى اراضيهم وتوقيع صلح ارضروم (أذار ــ مارس ــ ١٨٢٣) ، الذى ظلت كردستان العراق بموجبه تحت سلطة الباشوات الاتراك .

وقد أقنعت تجربة الحرب مع ايران داود باشا بتفـــوق الاســاليب الحربية الاوربيــة ، فشرع بتكوين جيش نظـامى . وبخلاف اسلافه لم يستخدم داود باشـــا المدربين الفرنسيين بل الانكليز . وبمساعدة الكولونيل تايلور ــ الممثل الجديد لشركة الهند الشرقية المقيم فى بغداد ، كوّن وحدات نظامية مجهزة ومدربة على طراز السباهيين الانكليز ـ الهنود . وبالاضافة الى ذلك ، فانـــه تزود بالمدفعية الحديثة وانشأ فى بغداد ترسانـــة ، تستجيب لكافـــة متطلبات تكنيك ذلك العهد .

وبحثا وراء الموارد من اجل اعادة تنظيم الجيش فرض داود باشا ، على غرار محمد علي ، احتكار شراء وتصدير الاصناف الرئيسية من المنتوجات العراقية : القمح والشعير والتمر والملح . واستملك المراكب التجارية النهرية والبحرية لنقل هذه البضائع . كما حاول على غرار مصر ، تجربة زراعة القطن وقصب السكر .

وكمحمد علي ، قرر داود باشا استغلال هزيمة الاتراك في حرب ١٨٢٨-١٨٢٩ ضد روسيا لكي يحقق استقلال البلد الخاضع لحكمه .

وبموجب صلح ادرنة كان قد فرض على تركيا غرامة حربية كبيرة . وطالب السلطان محمود الثاني المال من باشواته . فاوفد الى العراق في كانون الاول (ديسمبر) من عام ١٨٣٠ موظفا خاصاً يمثل الباب العالي لجباية الجزية . الا ان هذا الموظف قتل بأمر من داود باشا بعد حفلة الغداء مباشرة .

فاعلن الباب العالي تمرّد داود باشا ، وفي عام ١٨٣٠ ، ارسل ضده قوات علي باشا ، والي حلب . غير ان داود باشا كان قد استعد لمحاربة الباب العالي منذ امد بعيد . وكان لديه جيش مدرب ومسلّح تسليحا لا بأس به مع كل الموارد الضرورية للحرب . وهو لم يحسب حساب النصر دون اساس ، اذ كان تحت تصرفه وحدات نظامية وفيلق تعداده ٢٥ ألف من المشاة والخيالة غير النظامية وكذلك ٥٠ ألف من القبليين المحاربين . ومع ذلك فلقد قرّرت نتيجة الحرب ظروف اخرى . فان فاجعة الفيضان والقحط ووباء الحمى اضعفت قوة العراق . واهلك طاعون عام ١٨٣١ كل جيش داود تقريبا . وعندما انتهى وباء الطاعون ، دخلت قوات علي باشا العراق واحتلت ، بدون مقاومة تقريبا ، البلاد الخربة المنهوكة . وفي ايلول (سبتمبر) ١٨٣١ ، عُزل داود باشا وأرسل الى استانبول . وفي الوقت ذاته ، وضع حد لانفصالية باشوات ومماليك بغداد . واخذ الباب العالي يعين من الآن فصاعدا باشوات بغداد ، الذين التزموا بتطبيق اوامره وانتهاج سياسته .

الفصل الخامس

الوهابيون واقطار الجزيرة العربية فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر . كانت الجزيرة العربية دوما اكثر اقسام العالم العربى تاخرا اذ قد احتفظت العلاقات الاقطاعية هنا بخصائص كثيرة من الحياة البطريركية ، التى تذكّر الى حد كبير بعهد النبى محمد . وكما كان الامر فى العهود السحيقة الغابرة ، بقيت تربية المواشى لدى البدو ، وزراعة الاراضى المروية فى الواحات ، القاعدة الاقتصادية لمجتمع الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر . ورغم سعتها لم تستطع ابدا البطاح العربية ، التى تصليها الشمس المحرقة ان تؤمن متطلبات السكان الذين يقومون بتربية المواشى وازداد عددهم ، وذلك بسبب مزروعاتها الضئيلة . ومنذ الازل ، قاست الجزيرة العربية دوريا من «ازمات المراعى» التى زعزعت كيانها الاقتصادى البدائى وولّدت موجات هجرة واسعة ، وادّت الى نزوح الفيض من السكان الى ما وراء حدود شبه الجزيرة . واجبرت قلة المراعى البدو لا على الهجرة فحسب ، بل وكذلك على الاستقرار فى الارض والانتقال الى حراثة الحقول والى زراعة التمر واشجار مثمرة اخرى . وهكذا نشات فى الجزيرة العربية «النسبة بين حياة الحضارة لقسم من القبائل والحياة البدوية المستمرة فى القسم الآخر منها» * ، وكانت هذه

* ك . ماركس ، رسالة الى انجلس ، ٢ حزيران (يونيو) عام ١٨٥٣ . ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٢٨ ، ص ٢١٤ .

النسبة ، حسب تعبير ماركس ، ميزة اتسمت بها كافة الشعوب الشرقية ». وهكذا نشأت القرى الحضرية فى جبال عسير واليمن وحضرموت وعمان ونجد وفى الواحات الواقعة على سفوح هذه الجبال .

وفى اوائل القرن الثامن عشر ، لم يكن فى الجزيرة العربية تنظيم دولة موحد . وكان سكانها ـ سواء من بدو السهوب ام من مزارعى الواحات الحضريين ـ منقسمين الى قبائل متعددة ، مفككى الاوصال ومتخاصمين فيما بينهم ، يشنون بعضهم على بعض حروبا طاحنة متواصلة بسبب المراعى وقطعان المواشى وحصول الصيد والينابيع ... ولما كانت هذه القبائل مسلحة كلها بدون استثناء ، اتّسمت هذه الحروب بضراوة كبيرة واستمرت الى امد طويل .

وكانت الفوضى العشائرية الاقطاعية فى مناطق العرب الرحل متممة للتجزئة الاقطاعية فى المناطق الحضرية . وكان فى كل قرية ومدينة تقريبا حاكمها الوراثى ؛ وكانت الجزيرة العربية الحضرية برمتها عبارة عن مجموعة من الامارات الاقطاعية المتدرجة من الصغيرة حتى المتناهية فى صغرها . وعلى غرار القبائل ، لم تتخلص هذه الامارات من الحروب الاقطاعية .

وكان تركيب المجتمع الاقطاعى للجزيرة العربية معقدا بما فيه الكفاية . وكانت السلطة على القبائل الرحل تعود الى الشيوخ . وكانت جموع البدو تنتخب الشيوخ فى بعض القبائل . الا ان هؤلاء الشيوخ اصبحوا حكاما بالوراثة فى غالب الاحيان . وبالاضافة الى ارستقراطية البادية الاقطاعية هذه والقبائل «النبيلة» الحرة التى كانت تحكمها ، كانت توجد ايضا «القبائل التابعة» اى قبائل خاضعة ، وكذلك سكان تابعون حضر وشبه حضر . وفى المدن والمناطق الزراعية ، كان النبلاء الاقطاعيون (كالشرفاء والسادة) والتجار الاثرياء يناهضون صغار الباعة والحرفيين والفلاحين التابعين للاقطاعيين .

وتعقّدت العلاقات الطبقية للمجتمع الاقطاعى فى الجزيرة العربية بسبب العلاقات البطريركية-العشائرية واستفحال نظام

الرق ، الذى كان منتشرا بصورة واسعة نسبيا بين القبائل الرحل والحضر على السواء . وكانت اسواق النخاسة فى مكـــة والهفوف ومسقط وغيرهـــا من المدن ، تزّود نبلاء العرب بعدد كبير من العبيد ، الذين كانوا يستخدمون فى الحياة العادية وفى الاعمـــال الشاقة على السواء .

وكانت مدن وقرى الجزيرة العربية معرضة على الدوام الى الغارات البدوية التخريبية . وادت هذه الغارات والحروب الاقطاعية الى خراب الينابيع والقنوات والى هلاك بساتين النخيل . وكان من الضرورى وضع حد لهذا الوضـع . وكانت الحاجات الاقتصاديـــة الماســـة للسكان تتطلب تحقيق ذلك بصـورة قاطعـــة . ومـــن هنا نجمت النزعة الى توحيد الامارات الصغيرة فى الجزيرة العربية فى وحدة سياسية كاملة .

وفضلا عن ذلك ، كان التقسيم الاجتماعى للعمـل بين سكان الجزيرة العربية الحضر والرحل ، قد افضى الى ازدياد التبادل بين محاصيل الواحات الزراعية ومنتوجات تربية المواشى فى السهوب . وعلاوة على ذلك ، فان بدو السهوب وفلاحى الواحات كانوا بحاجة معا الى البضائع المستوردة من خارج الجزيرة العربية ، كالقمـح والملح والاقمشة . وازداد من جراء ذلك التبادل بالبضائع والتجارة عن طريق القوافل بين الجزيرة العربية والبلدين المجاورين سوريا والعراق . غير ان الفوضى الاقطاعية والنهب البدوى اعاقا تطور التجارة . ولهذا فان مقتضيات السوق النامية (وكذلك الحاجة الى تطوير زراعة الاراضى المروية) كانت قد حفّزت الامارات العربية الى الوحدة السياسية .

واخيرا ، فان التجزئة الاقطاعية-العشائرية للجزيرة العربية ، التى كانت كذلك حافزا هاما للتوحيد ، كانت قد يسّرت مهمـــة الفاتحين الاجانب فى الاستيلاء على الجزيرة العربيـــة . اذ احتلّ الاتراك فى القرن السادس عشر بدون مقاومة كبيرة مناطق البحر الاحمر من الجزيرة العربية اى الحجاز وعسير واليمن . ومنذ القرن السادس عشر ، انشا الانكليز والهولنديون والبرتغاليون قواعد لهم على الساحل الشرقي من الجزيرة العربية . وفى القرن الثامن عشر ،

استولى الفرس على الاحساء وعمان والبحرين . وبقيت اواسط الجزيرة العربية وحدها صعبة المنال على الفاتحين ، فانها كانت محاطة بالصحارى .

ولهذا السبب اتخذت حركة الوحدة فى المناطق الساحلية من الجزيرة العربية شكل كفاح ضد الغزاة الاجانب . وترأس هذه الحركة فى اليمن الائمة الزيديون ومنذ القرن السابع عشر تمّ طرد الاتراك . وسيطر الائمة على جميع القسم الجبلى الآهل من البلاد . ولم يحتفظ الاتراك فى الحجاز الاّ على السلطة الاسمية ، اما السلطة الحقيقية فكانت تعود الى الاقطاعيين الروحانيين العرب ، اى الشرفاء . وطرد الفرس من عمان فى منتصف القرن الثامن عشر ، ومن البحرين عام ١٧٨٣ ، كما استحكمت هناك الاسر الاقطاعية العربية . وعلى العكس ، اتخذت حركة الوحدة شكلا اشد وضوحا وانسجاما فى داخل الجزيرة العربية ، اى فى نجد ، حيث لم تكن ثمة حاجة لمكافحة الاعداء الاجانب . اذ اقتصر هذا الكفاح على توحيد القبائل العربية ومركزة امارات نجد ودمج اراضى الجزيرة العربية فى وحدة كاملة . وقد وضعت فى اساس هذا الكفاح ايديولوجية دينية جديدة ، عرفت بالدعوة الوهابية .

التعاليم الوهابية . كان مؤسس التعاليم الوهابية الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وهو لاهوتى نجدى من قبيلة بنى تميم الحضرية . ولقد ولد محمد بن عبد الوهاب عام ١٧٠٣ فى العيينة (بنجد) وكان والده وجده من العلماء . وعلى غرارهما كان يستعد لتكريس حياته للشؤون الدينية ، كما كان كثير الترحال . فزار مكة والمدينة وحتى بغداد ودمشق ، حسب بعض المعلومات . ودرس فى كل مكان علم اللاهوت لدى علماء معروفين ، وأسهم مساهمة فعّالة فى الجدل الدينى . وبعدما عاد الى نجد فى اوائل الاربعينيات خطب امام مواطنيه مبشرا بتعاليم دينية جديدة . ووجّه نقدا لاذعا الى بقايا العقائد البدائية الشائعة بين العرب ، اى الى عبادة الطلاسم من اصنام واحجار وينابيع واشجار والى

مخلفات المذهب الطوطمي* وعبادة الاولياء . ومع ان العرب كانوا كلهم شكليا يدينون بالاسلام ويعتبرون انفسهم مسلمين ، الا انه كان يوجد فى الجزيرة العربية فى الواقع كثرة من الاديان القبيلية المحلية . وكان لكل قبيلة عربية ولكل قرية طواطمها وعقائدها وطقوسها . وكانت هذه الاشكال الدينية المتنوعة التى فرضها المستوى البدائى للتطور الاجتماعى وتجزئة الجزيرة العربية ، عائقا هاما فى طريق الوحدة السياسية . وواجه محمد بن عبد الوهاب تعدد الاشكال الدينية هذه بمذهب وحيد هو التوحيد . وفى الظاهر انه لم يستنبط عقائد جديدة ، الا انه كان يسعى فقط الى بعث الدين الاسلامى بين العرب بـ«نقاوته» القرآنية الاصلية . وكتب انجلس عن منشأ الاسلام قائلا : «... ان ثورة محمد الدينية **ككل** حركة دينية كانت **فى الظاهر رد فعل** ، وعودة مزعومة الى القديم والى البساطة» ** . وهكذا فان «ثورة» محمد بن عبد الوهاب «الدينية» اتسمت بمثل هذه «العودة المزعومة الى القديم والى البساطة» . الا ان فحوى هذه «الثورة» لا يتلخّص فى التفسير الجديد للعقائد القرآنية القديمة ، بقدر ما يتمثل فى الدعوة الى توحيد العرب .

وقد خُصص مكان كبير فى تعاليم الوهابيين الى قضية الاخلاق . وكان يتوجب على اتباع هذه التعاليم الذين شبّوا فى ظروف الصحارى القاسية ، مراعاة بساطة صارمة فى الاخلاق ، تقترب من التقشف . فقد حرّموا شرب النبيذ والقهوة وتدخين التبغ . ونبذوا جميع انواع الترف وحرّموا الغناء والضرب على الآلات الموسيقية . واستهجنوا الافراط والتحلل الجنسى . وهكذا

---

* الطوطم ـ شعار القبيلة من حيوان او نبتة تنتحل القبيلة صورته كشعار لها ويعكس معتقداتها ومشاعرها . ـ **المترجمة** .

** ف . انجلس ، رسالة الى ماركس ، نحو ٢٦ ايار (مايو) ١٨٥٣ . ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٢٨ ، ص ٢١٠ .

فليس من قبيل الصدفة ان يدعو غواة التشبيه الظاهرى الوهابيين بـ «حنابلة الصحراء» .

وقد كافح الوهابيون ضد مخلفات بقايا العبادات القبيلية المحلية ودمروا الاضرحة وحرّموا السحر والعرافة . وفضلا عن ذلك ، فكان وعظهم يرمى الى مكافحة الاسلام الرسمى . وكافح الوهابيون الصوفية والدروشة وتلك الاشكال من العبادات الدينية ، التى كان يمارسها الاتراك والتى نشأت عبر القرون . ودعوا الى الكفاح بلا هوادة ضد الفرس ــ الشيعة الذين كانوا يعتبرونهم كمرتدين ، والسلطان العثمانى ــ الخليفة الكاذب والباشوات الاتراك .

وكان الهدف النهائى من الاتجاه المعادى للاتراك والذى كانت تتسم به الوهابية هو طرد الاتراك وتحرير وتوحيد الاقطار العربية تحت راية الاسلام «النقى» .

توحيد نجد . كان يترأس الحركة الوحدوية الامير محمد بن سعود (المتوفى عام ١٧٦٥) وابنه عبد العزيز (١٧٦٥ــ١٨٠٣) وهما الحاكمان الاقطاعيان للامارة الصغيرة الدرعية بنجد ، اللذان اعتنقا التعاليم الوهابية ودخلا عام ١٧٤٤ فى حلف مع محمد بن عبد الوهاب . ومنذ ذلك الوقت خاض اتباعهما ، خلال ما يربو على ٤٠ عاما ، كفاحا عنيدا لتوحيد نجد تحت راية الوهابية . فاخضعوا اليهم امارات نجد الاقطاعية الواحدة تلو الاخرى . وجلبوا الى الطاعة القبائل البدوية الواحدة بعد الاخرى . وانقادت بعض القرى الى الوهابيين طوعا ، بينما اقتيدت اخرى «الى الطريق السوى» بحد السيف .

وقبيل عام ١٧٨٦ ، احرزت الوهابية نصرا تاما فى نجد . وبعد ان كانت صغيرة ومتخاصمة فيما بينها من غابر الزمان ، كونت الامارات النجدية دولة اقطاعية كبيرة نسبيا ذات طابع دينى برئاسة اسرة آل سعود . وفى عام ١٧٩١ ، بعد وفاة مؤسس الوهابية محمد بن عبد الوهاب ، جمع الامراء السعوديون فى ايديهم السلطتين الدنيوية والدينية .

وان انتصار الوهابية فى نجد وظهور الدولة السعودية لم يكوّنا نظاما اجتماعيا جديدا كما لم يجلبا الى السلطة طبقة

اجتماعية جديدة . الا انهما قلصا فى خاتمة المطاف من نطاق الفوضى وتجزئة الجزيرة العربية ويكمن فى هذا بالذات مدلولهما التقدمى .

ومع ذلك فان الوهابيين لم يستطيعوا تكوين دولة متمركزة ذات تنظيم ادارى متميز المعالم . اذ وضعوا على رأس المدن والقرى الخاضعة الحكام الاقطاعيين السابقين ، بشريطة اعتنـــاق المذهب الوهابى والاعتراف بالامير الوهابى كسيد ورئيس روحانى لهـم . ولهذا كانت الدولة الوهابية فى القرن الثامن عشر غير مستقرة الى درجة قصوى . وكانت تهزّهـا العصيانات القبيليـة والاقطاعيـــة الدائمة . ولم يتوفق الامراء الوهابيون فى ضـم منطقة واحدة الى ممتلكاتهم ، حتى يبدأ عصيان فى منطقة اخرى . واضطرت القوات الوهابية الى ان تتحرك سريعا على طول البلاد وعرضها منكلـــة بقسوة فى كل مكان بـ«المرتدين عن الدين» .

نضال الوهابيين من اجل الخليج العربى . فى نهاية القرن الثامن عشر ، انتقلت الدولة الوهابية من مرحلة الدفاع الى الهجوم بعد ان ضمت تحت لوائها اقاليم نجد برمتهـــا . اذ شـن الوهابيون عام ١٧٨٦ اولى غاراتهم على ساحل الخليـــج العربى ، اى على منطقة الاحساء ثم احتلوها بعد مرور ٧ اعوام اى فى عام ١٧٩٣ . وهكذا ابتدأ عهد الفتح الوهابى فيما وراء حدود نجد . وتزعـــم الوهـــابيين ، بعد وفـــاة عبد العزيز ، الامير سعود (١٨٠٣ــ ١٨١٤) ، الذى اسس دولة عربية كبيرة ، ووحّد شبه الجزيرة العربية برمتها تقريبا .

وبعد الاحساء ، بسط الوهابيون نفوذهم على جميع الخليج العربى . وفى عام ١٨٠٣ ، إحتلوا البحرين والكويت ، وانضمت اليهم مدن تابعة لمـــا يسمّى بـ«شاطىء القرصنة» والتى كانت تمتلك اسطولا قويا . واعتنق معظم سكان مناطق عمان الداخلية الوهابية ايضا .

وبالعكس قرّر حاكم مسقط ــ السيد سلطـــان ، التابـــع لانكلترا ، مقاومة الوهابيين . فهجم عليهم باسطوله عام ١٨٠٤ الا ان هذا الهجوم انتهى بكارثة : اذ اغرقه الوهابيون . ومع هذا واصل ابنه سعيد ، الصراع بايعـاز من شركة الهند الشرقيـــة .

وفى عام ١٨٠٦ ، ارسلت شركة الهند الشرقية اسطولها الى الخليج العربى وحاصرت الساحل الوهابى بمعونة سفن صنيعتها حاكم مسقط . وانتهى الصدام باندحار الوهابيين الموقت ، مما أضطر الوهابيين الى اعادة السفن الانكليزية التى كانت قد أسرت، والى التعهّد باحترام علم وممتلكات الشركة . ومنذ ذلك الحين ، ظلّ الاسطول الانكليزى مرابطا على نحو دائم فى الخليج العربى ملاحقا ومدمرا السفن الوهابية . الا ان العمليات الانكليزية فى البحر لم تتمكن من زعزعة سيادة الوهابيين على البر . وهكذا بقى كل الساحل العربى من الخليج فى حوزتهم .

الكفاح الوهابى من اجل الحجاز . وفى الوقت الذى كان يدور فيه الصراع من اجل الخليج العربى ، سعى الوهابيون الى ضم الحجاز وساحل البحر الاحمر الى دولتهم .

واعتبارا من عام ١٧٩٤ اخذوا يشنون غارات سنوية على الفيافى المتاخمة للحجاز واليمن واستولوا على الواحات الواقعة بالقرب من الحدود وأدخلوا القبائل المتاخمة فى مذهبهم . وفى عام ١٧٩٦ ، ارسل شريف مكة ــ غالب بن مساعد (١٧٨٨ــ ١٨١٣) قواته ضد الوهابيين . فاستمرت الحرب ٣ اعوام . وكان الوهابيون ينزلون الهزيمة بشريف مكة على الدوام . وكان التفوق المعنوى الى جانبهم : قوات منظمة تنظيما دقيقا وانضباط حديدى وثقة بقضيتهم العادلة . وفضلا عن ذلك ، كان لديهم اتباع كثيرون فى الحجاز . وكان الكثيرون من الاقطاعيين الحجازيين واثقين بضرورة توحيد الجزيرة العربية . وانضم الى الوهابيين حكام الطائف وعسير وشيوخ عدد من القبائل واخو الشريف نفسه . وقبيل عام ١٧٩٦، انحازت الى جانب الوهابيين كافة قبائل الحجاز الا واحدة . واضطر الشريف المغلوب الى الاعتراف بالوهابية كالتيار الاصيل الحق فى الاسلام ، والى التنازل عن تلك الاراضى التى كان الوهابيون قد استولوا عليها فعلا (عام ١٧٩٩) . الا ان الوهابيين ، الذين كانوا يسعون الى توحيد الجزيرة العربية لم يرتضوا لانفسهم الوقوف عند هذا الحد . فبعد فترة راحة دامت سنتين ، جددوا القتال ضد شريف مكة . وفى نيسان (ابريل) ١٨٠٣ ، استولوا

على مكّة وشرعوا بحمية فى ازالة جميع مظاهر العبادة الرمزية وعبادة الاوثان . وجردت الكعبة من زخرفتها الغنية ، وهدّمت اضرحة «الاولياء» ، وأعدم الملالى المتشبثون باعتقادهم القديم . فأفضت هذه الاجراءات الى حدوث انتفاضة فى الحجاز ، الامر الذى اضطر الوهابيين الى التراجع عن البلاد موقتا . ومع ذلك ، ففى عام ١٨٠٤ ، استولوا على «المدينة» وفى عام ١٨٠٦ ، استولوا على مكة مجددا ونهبوها . وهكذا ضموا الحجاز برمته الى دولتهم التى كانت تمتد حينذاك من البحر الاحمر الى الخليج العربى ، وشملت ضمن تخومها جميع اقسام الجزيرة تقريبا ، كنجد وشمر والجوف والحجاز والاحساء والكويت والبحرين وقسم من عمان وتهامة اليمن وعسير . وحتى فى تلك الاقسام من الجزيرة العربية ، التى لم يكن قد احتلها الوهابيون – ومثلا فى داخل عمان وحضرموت – كان لديهم اتباع كثيرون وكان نفوذهم حاسما .

وسعى الوهابيون آنذاك ، بعدما وحّدوا الجزيرة العربية برمتها تقريبا ، الى ضم اقطار عربية اخرى الى دولتهم وقبل كل شيء سوريا والعراق .

كفاح الوهابيين من اجل سوريا والعراق . كان محمد بن عبد الوهاب ، مؤسس الوهابية ، يحلم ايضا بتحرير عرب سوريا والعراق من النير التركى . ولم يعترف بخلافة السلطان التركى . وكان يعتبر كافة العرب اخوة ويدعوهم الى الوحدة . وفى تلك الايام ، حينما كانت الجزيرة العربية برمتها مجموعة غير متبلورة من القبائل والامارات ، المنهمكة فى الصراع الاقطاعى ، كانت فكرة الوحدة العربية الشاملة حلما بعيدا . الا ان الجزيرة العربية كانت موحّدة فى اوائل القرن التاسع عشر ، وبدا حينئذ بأن الوقت قد حان لتحقيق هذا الحلم .

ومع الغارات الاولى التى شنت على الحجاز ، شرع الوهابيون بعملياتهم على حدود العراق . غير انهم لم يتمكنوا من احراز نجاح كبير هنا . حقا ، انهم دحروا فى كل مرة قوات باشوات بغداد الذين كانوا يتخطون فيها اراضى العراق ويقتحمون الجزيرة العربية . الا ان الوهابيين لم يفتتحوا اية مدينة او قرية من اراضى

العراق . واضطروا الى الاكتفاء هنا بالغارات وبجباية الاتاوات لا غير . وحتى كبرى غاراتهم التى شنوهـا على كربلاء فى نيسان (ابريل) ١٨٠١ ، والتى ذاع صيتها فى كل العالم ، كانت قد انتهت دون نتيجة . وعاد الوهابيون القهقرى الى بطاحهم ، بعد ما افنوا كنوز مساجد الشيعة فى كربلاء . وبعد توحيد الجزيرة العربيـة عام ١٨٠٨ ، نظّم الوهابيون حملة كبيرة على بغداد ، الا انهـا فشلت . كما كانت حملاتهم على دمشق وحلب ومدن سورية اخرى بدون جدوى . واستطاعوا جباية الاتاوة من هذه المدن ، الا انهم لم يتمكنوا من الاستقرار فيها .

ولم يكن يقاتل الوهابيون فى سوريا والعراق بأسوأ ممـا حاربوا فى عمان او الحجاز . فلقد كانوا هنالك ايضـا منظمين وشجعانا ومتمسكين بالضبط والنظام ، كما كانوا واثقين بحرارة فى قضيتهـم العادلة . الا انهـم لقوا التأييد فى الجزيرة العربية من لدن القبائل والعناصر التقدمية من الطبقة الاقطاعيـة . وهذا لأن الحاجة الى توحيد البلاد كانت قد نضجت موضوعيا وتأصلت وسط ظروف التقدم الاقتصادى . ويكمن فى هذا بالذات سرّ انتصاراتهم . وعلى العكس ، لم تكن المقدمات الموضوعية متوفرة بعد من اجل توحيد سوريا والعراق مع الجزيرة العربيـة . وكان سكان هذين البلدين ينظرون الى الوهابيين كفاتحين غرباء ممـا دفعهـم الى مقاومتهم . وهكذا كانت وحدة الاقطار العربية حلما طوباويا من المتعذر تحقيقه فى ايام الغارات الوهابيـة على بغداد ودمشق ، كما كان متعذر التحقيق فى الوقت الذى كانت فيه الحركة الوهابية فى مهدها . ومع هذا فان الكفاح الذى خاضه الوهابيون خلال نصف قرن ادّى الى نتيجة واقعية هى توحيد الجزيرة العربية .

الفصل السادس

استيلاء المصريين على الجزيرة العربية

بداية الحرب ضد الوهابيين . قرّر محمد علي ، بعد ما عزّز سلطته في مصر ، تخطى حدودها وتكوين امبراطورية واسعة . ومنذ عام ١٨١١ خاض حروبا متواصلة . وفتح المصريون بلدان المشرق العربي باسره تقريبا خلال عقدين من الزمن .

وكانت اول حرب خارجية شنّها محمد علي الحرب ضد الوهابيين . وقد بدأها كتابع للسلطان التركي . اذ قد اقلقت الحملات الوهابية الباب العالي بصورة جدية . واعتبر السلطانان التركيان سليم الثالث ومحمود الثاني الدولة الوهابية المتعاظمة كتهديد خطير لسيادتهما في الاقطار العربية . ومع ذلك كانت جميع محاولاتهما لسحق الوهابية بدون جدوى . ولم يكن باستطاعة السلاطين الاتراك تخصيص جيش كبير لمحاربة الوهما بيين لانشغالهم في الخصومات الداخلية والانتفاضات البلقانية والحرب مع روسيا . ولذا عهدوا بهذه المهمة الى باشواتهم في بغداد ودمشق وجدة . واكتفى هؤلاء الباشوات بصد الهجمات ولم يخاطروا بالقيام بحملات هجومية . وفي عام ١٨١١ ؛ اقترح السلطان محمود الثاني على تابعه القوي ، باشا مصر ، تجريد حملة تنكيلية ضد الوهابيين . فتبنّى محمد علي هذا الاقتراح عن طيب خاطر ، لا سيما وان الحملة على الجزيرة العربية كانت قد اثارت اهتمام التجار المصريين ، الذين تكبدوا خسائر كبيرة من جراء توقف الحج وما يتصل به من تجارة وقدّموا الاموال

بسخاء لتجهيز الحملة . وكان هدف محمد علي المباشر هو السيطرة على التجارة والاستيلاء على البلاد وخيراتها . واخيرا فانه اعتبر الجزيرة العربية كمفتاح لسوريا والعراق . وظهر الوهابيون خصوما واقعيين له فى الصراع من اجل الاستحواذ على الاقاليم العربية التابعة للامبراطورية العثمانية .

وعيّن محمد على قائدا للجيش الغازى ابنه طوسون بك البالغ من العمر ١٦ عاما . وكان تعداد الجيش بين ٨ و ١٠ آلاف شخص . الا ان قائد الحملة الحقيقى كان احمد اغا ، مستشار طوسون ، الملقب « بونابارت » ـ وهو من احسن قادة محمد على . ورافق الجيش تاجر قاهرى اسمه محمد المحروقى ، الذى اضطلع بدور المموّن الرئيسى والمستشار السياسى .

وفى ايلول (سبتمبر) عام ١٨١١ ، انطلقت الحملة المصرية فى طريقها . ونقلت المشاة على السفن بينما تحركت الخيالة بطريق اليابسة ، وتلتهم القوافل المحملة بالماء والمؤونة .

وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨١١ ، احتلّ المصريون ميناء ينبع فى الجزيرة العربية . وبدأوا بتوسيع العمليات الحربية ضد الوهابيين ، بعد ما حوّلوا هذا الميناء الى قاعدة انطلاق لهم .

واتضح للمصريين ان الحرب ضد الوهابيين امر شاق للغاية . اذ تكبدوا خسائر كبيرة من جراء الحر الذى لا يطاق والجفاف والجوع والاوبئة . وانتشر الطاعون والهيضة والملاريا والدوسنطاريا فى جيش الغزاة . وفقد مئات من المحاربين المصريين حاسة البصر بسبب نور الشمس الاستوائية الساطع المتوهج . واضطر الجنود المنهوكو القوى الى قطع الصحارى ، مع انها كانت تعتبر عبر القرون منيعة لا يمكن التغلغل فيها . وهلك المصريون فى الرمال الموّارة .

وأحاط بالجيش المصرى سكان معادون لهم وطبيعة قاسية لا ترحم احدا . وهجمت القبائل البدوية على الدوريات المصرية وعلى القوافل المحمّلة بالمؤونة وقطعت الاتصال بين الخطوط المصرية الامامية والقواعد الخلفية . وتوجّب اخذ كل قرية عنوة ومحاصرة كل مدينة خلال بضعة اشهر قبل ان تستسلم . وكان

مما يشدّ ازر الوهابيين ايمانهم الراسخ بقضيتهم العادلة . كما كان لديهم التفوق العددى . اذ كان يبلغ تعداد الجيش المصرى بين ٨ و ١٠ آلاف مقاتل ، بينما كان يبلغ عدد المقاتلين الوهابيين بضع عشرات الآلاف . ومقابل ذلك كانت لدى المصريين اسلحة اجود . وكانوا يتفوقون على الوهابيين بمدفعيتهم الحديثة وبالفن العسكرى الذى كان يملكه قادتهم المتدربون فى مدرسة محمد على . ومن هنا كان النصر سجالا فى هذه الحرب الشاقة الطويلة التى استغرقت سنين عديدة .

وفى كانون الثانى (يناير) ١٨١٢ ، تقدم الجيش المصرى من ينبع متجها نحو «المدينة» . فهجم عليه الوهابيون بغتة وهزموه شر هزيمة فى الشعب الضيق بالقرب من الصفراء . وهلك ٥ آلاف مصرى من مجموع ٨ آلاف ، وقفل الباقون راجعين الى ينبع .

واستغلّ المصريون فترة الراحة الاضطرارية لبثّ روح الهزيمة والشقاق فى المؤخرة الوهابية . واستطاع العملاء المصريون ، الذين لم يبخلوا بالاموال والوعود ، تكوين ركيزة لهم فى مدن الحجاز ، واستمالة شيوخ اكبر القبائل البدوية الى جانبهم . وانتقلوا الى الهجوم بموازرة هؤلاء الاخيرين وبفضل النجدات الجديدة التى وصلتهم من مصر . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨١٢ استحوذ المصريون على «المدينة» . وفى كانون الثانى ١٨١٣ استولوا على مكة والطائف وجدة . وهكذا افتتحوا الحجاز . ومع ذلك ، لم تتحسن حالة الجيش المصرى . اذ قد هلك حوالى ٨ آلاف جندى من جرّاء الحر والامراض . وكان السكان معادين للمصريين . واحتفظ الوهابيون بقواتهم الاصلية وحاصروا المدينة ووسعوا حرب الانصار على خطوط المواصلات المصرية .

محمد علي فى الجزيرة العربية (١٨١٣-١٨١٥) . وفى هذه اللحظة العصيبة ، قرّر محمد على ان يقود شخصيا الجيش المصرى فى الجزيرة العربية . وفى ايلول (سبتمبر) ١٨١٣ حطّ فى جدة مع امدادات جديدة . وكانت جهوده الاولى موجهة لتوطيد مواقع

المصريين فى الحجاز . فعزل غالب ـ شريف مكة ، وعيّن صنيعته فى محلّه ، واخمد بؤر المقاومة الصغيرة واغدق الاموال على شيوخ البدو . ومع ذلك ، فقد باءت بالفشل محاولات التوغل فى اعماق الجزيرة .

وفى ايار (مايو) ١٨١٤ ، توفى الامير سعود . واصبح عبد اللّه الامير الوهابى الجديد ، الذى ترأس المقاومة فى الشمال . وفى الجنوب احتشدت قوات وهابية كبيرة فى واحة تربة ، التى تسيطر على الطريق الموصّل بين نجد واليمن . واستخدمت تربة كنقطة استناد وقاعدة لكافة العمليات الحربية الوهابية فى جنوب البلاد .

وفى جنوب الحجاز وعسير نشط محمد على . فقاد النضال شخصيا ضد التكتل الوهابى الجنوبى وشنّ ضدهم حملات عديدة . وفى ٢٠ كانون الثانى (يناير) ١٨١٥ ، أنزل المصريون بالوهابيين هزيمة ساحقة فى موقعة قرب بسل (شرقى الطائف) . وسحقوا جيشا مؤلفا من ٣٠ الف شخص (من اهل الجنوب) بقيادة فيصل ـ اخى عبد اللّه ، وهزموه شر هزيمة . وكانت هذه الهزيمة ضربة خطيرة لسطوة الوهابيين فى الجنوب . واحتل المصريون تربة ثم بيشة . ومع ذلك ، ففى ايار (مايو) ١٨١٥ اضطر محمد على الى مغادرة الجزيرة فورا والذهاب الى مصر ، متخليا موقتا عن نيّة الاستيلاء على اليمن .

وفى الشمال قاد القوات المصرية طوسون بك الذى خاض نضالا عنيدا ضد قوى عبد اللّه الكبيرة ، التى حشّدها من جميع انحاء نجد والاحساء وعمان . وفى ربيع ١٨١٥ ، أنزل طوسون بك بالوهابيين عددا من الهزائم وارغم عبد اللّه على عقد معاهدة صلح .

ووفقا لشروط هذه المعاهدة تركت نجد والقصيم تحت قبضة الوهابيين . ودخل الحجاز تحت ادارة المصريين . وتعهد عبد اللّه بان يعتبر نفسه تابعا للسلطان التركى ووعد بالخضوع الى الوالى المصرى فى المدينة . وتعهّد بتامين سلامة الحج واعادة الكنوز ، التى اخذها الوهابيون من مكة والتخلّى عن البدع الدينية .

وفى حالة استدعائه كان يتوجب عليه الذهاب الى اسْتانبول والمثول امام السلطان التركى .

وبعد ما عقد الصلح ، وضع طوسون بك حاميات مصرية فى مدن الحجاز الرئيسية وارتحل الى مصر . وهكذا انتهت المرحلة الاولى من الحرب .

حملة ابراهيم والقضاء على الدولة الوهابية . ومع ذلك فلم يكن فى وسع الوهابيين التسليم بشروط الصلح المهينة ، التى فرضها عليهم طوسون بك . فلقد وافقوا عليها قولا ، الا انهم اخذوا يستعدون فعلا لخوض حرب تخريبية جديدة . كما ان السلطان ومحمد على لم يصادقا على معاهدة الصلح . اذ انهما اعتبرا بان عبد اللّه ـ الامير الوهابى ، قد امتنع عن الالتزام بما وعد به ولا سيما عن ارجاع كنوز مكة والسفر الى استانبول .

وهكذا استؤنفت الحرب فى عام ١٨١٦ ، وارسل الى الجزيرة العربية جيش مصرى برفقة مدربين عسكريين فرنسيين ومع وحدة خاصة بالالغام . وقاد الجيش اكبر اولاد محمد على ، ابراهيم باشا ، الذى كان قائدا فذا وشخصا ذا ارادة حديدية . فقرر مهما كلف الامر التغلغل فى قلب الدولة الوهابية ـ اى فى داخل الجزيرة العربية وسحق الحركة الوهابية فى موطنها . وحاصرت قوات ابراهيم خلال سنتين اهم مراكز القصيم ونجد الواحد تلو الآخر . فحولوا الواحات المزدهرة الى صحارى وخربوا الآبار واجتثّوا النخيل وحرقوا البيوت . واباد الجنود المصريون السكان واعتدوا على النساء . ومن سلم من حراب المصريين هلك من الجوع والعطش . وعند دنو القوات المصرية هرب السكان من اماكنهم الاصلية للبحث عن النجاة فى الواحات النائية .

وفى مجرى حرب الابادة هذه التى لم يسبق لها نظير فى الجزيرة العربية استولى المصريون عام ١٨١٧ على الرس وبريدة وعنيزة ، وفى اوائل عام ١٨١٨ ، دخلوا نجد واستولوا على شقرا ، وفى ٦ نيسان (ابريل) ١٨١٨ ، اقتربوا من الدرعية ـ عاصمة الوهابيين المحكمة التحصين . وفى ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٨١٨ ، اى بعد ٥ اشهر من الحصار ، سقطت الدرعية ومسحت من

الخريطة الجغرافية ، اذ لم يبق منها المصريون حجرا على حجر وتحولت المدينة الى أنقاض وتفرق السكان هاربين . واستسلم عبد اللّه ــ الامير الوهابى واضعا نفسه تحت رحمة المنتصرين . فارسل الى القاهرة ومن ثم الى استانبول ، حيث قطع راسه فى كانون الاول (ديسمبر) ١٨١٨ .

وأخضعت قوات ابراهيم القطيف والاحساء ، بعد ما دمرت الدرعية . وأخذ اقرباء الامير واهم قادة الوهابيين اسرى وأرسلوا الى مصر . وازيلت الاستحكامات فى كافة مدن نجد . واحتفل المصريون بالنصر . وبدا للناظر وكأنه قد قضى على الدولة الوهابية الى الابد .

وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٨١٩ ، عاد ابراهيم مع نواة جيشه الى القاهرة وظلت الحاميات المصرية فى مدن نجد والحجاز . الا ان الفاتحين لم يفلحوا فى سحق قوى المقاومة وتوطيد اقدامهم فى البلاد . اذ استخدمت جبال وصحارى الجزيرة كملاجىء الناقمين وكانت بؤرا مستديمة للانتفاضات الوهابية .

الانتفاضات الوهابية (١٨٢٠ـ١٨٤٠) . دخل القسم الاكبر من الجزيرة العربية ، بنتيجة الفتح المصرى ، ضمن الامبراطورية العثمانية رسميا واصبح يعود فعلا الى مصر . وتحوّل الحجاز الى اقليم مصرى ، يحكمه الوالى المصرى ، المعين من قبل محمد على . وحسب أهوائه ، أصبح شرفاء مكة يعينون ويبدلون مما جعل سلطتهم وهمية .

واحتفظ اليمن الذى كان مناطقه الساحلية قد تعرضت الى الاحتلال المصرى عام ١٨١٩ ، باستقلاله الذاتى . وظلّت ادارة البلاد فى قبضة امام الزيدية ومقره فى صنعاء . وقد أكد تبعيته للباب العالى والتزم بدفع الاتاوة الى مصر سنويا . وكانت سلطته على البلاد سلطة شكلية . اذ كانت كثرة من القبائل والحكام المحليين لا تخضع له بصورة سافرة .

وجرّد المصريون بعض الحملات الى اليمن خلال الاعوام ١٨٢٣ـ١٨٢٦ ، الا انهم غادروا اليمن بسبب الحرب فى مورة . وفى عام ١٨٣٤ ، احتلوا مجددا تهامة اليمن ومنطقة تعز .

وتولى امور نجد ولاة مصريون . ولم يابه احد بالامير مشارى بن سعود الذى كان قد عينه ابراهيم والذى كان اصغر اخوة عبد الله الذى كان قد نفذ فيه حكم الاعدام . وكانت البلاد مخرّبة وتعانى من كوارث مفجعة . وعمّ الخراب والجوع فى كل مكان . واشتدت الاختلافات القبيلية الاقطاعية وكانت الاسر المحلية من شمر والقصيم وغيرهما من المناطق تتمتع بقسط هام من الحكم الذاتى وتناور وتداور بين السلطات المصرية والامراء الوهابيين المتمردين من اسرة سعود ، الذين لم يتوقفوا من الكفاح ضد المحتلين .

ولم يكد ابراهيم يغادر نجد حتى قامت انتفاضة وهابية فى الدرعية عام ١٨٢٠ برئاسة احد اقرباء الامير المشنوق . الا انها قمعت وفى العام التالى ، ١٨٢١ ، انتفض الوهابيون مجددا — وفى هذه المرة كانت الانتفاضة اكثر نجاحا . وترأسها تركى بن عبد الله (١٨٢١—١٨٣٤) — بن خال الامير المشنوق . فعزل الحاكم الذى كان قد نصبه المصريون وبعث الدولة الوهابية مجددا . ونقل عاصمته من الدرعية المدمرة الى الرياض المحصنة جيدا ، وذلك فى ١٨٢٢ تقريبا . وهلكت القوات المصرية المرسلة ضد الوهابيين من الجوع والعطش والاوبئة ومن حملات الانصار . فاضطر محمد على الى الاكتفاء باحتلال منطقتى القصيم وشمر من نجد ، واخليت الحاميات المصرية من سائر انحاء نجد الاخرى .

فى سير استرجاع ممتلكاتهم السابقة ، طرد الوهابيون عام ١٨٢٧ المصريين من القصيم وشمر ، وبعد مرور ٣ اعوام اى فى عام ١٨٣٠ ، احتلوا الاحساء مجددا .

وفى نفس عام ١٨٢٧ ، قام شريف مكة بانتفاضة ضد المصريين ، الا انها كانت فاشلة . واستطاع المصريون ، الذين خسروا نجد ، قمع هذه الانتفاضة والاحتفاظ بالحجاز .

وقد صرفت شؤون اليونان وسوريا محمد على عن الجزيرة العربية . ومع ذلك ، فبعد فتح سوريا ، قرر استرجاع نجد . ومقابل تركى ، دفع محمد على بشخص آخر الى الامام اسمه

مشارى بن عبد الرحمن كدعىّ لعرش الوهابيين . واستولى مشارى عام ١٨٣٤ على الرياض بمساعدة المصريين ، وقتل الامير تركى وتربع فى محلّه . ومع ذلك ، فلم يستمر ظفر المنتصر مدة طويلة . فخلال شهرين استولى الامير فيصل ابن تركى ووريثه على الرياض بغارة جريئة ونكل بمشارى ونادى بنفسه رئيسا للدولة الوهابية .

ولم يثبط هذا الاخفاق عزم محمد على اذ قرّر ، مهما كلف الامر ، ان يمضى فى مخططه حتى النهاية ويخضع نجد ثانية ويصل الى سواحل الخليج العربى . وفى عام ١٨٣٦ ، اقتحم جيش مصرى كبير بقيادة خورشيد باشا تخوم نجد . وهكذا انتهى الصراع العنيد المديد بغلبة المصريين . وفى عام ١٨٣٨ أخذ الامير فيصل اسيرا وأرسل الى القاهرة . واستولى المصريون على الرياض والاحساء والقطيف وحتى انهم حاولوا الاستيلاء على البحرين .

على ان توغل المصريين فى نجد للمرة الثانية واحتلال الاحساء زادا من تأزم العلاقات التى كانت بحد ذاتها متوترة مع الانكليز ، وكانا من دواعى الازمة الشرقية لسنوات ١٨٣٩ـ١٨٤١ . واضطر محمد على ، بعد ما انجرّ الى صراع دولى خطير ، الى سحب قواته عام ١٨٤٠ واخلاء الجزيرة العربية . فاستفاد من ذلك الوهابيون اذ انهم أسقطوا الامير خالد بن سعود ، الذى كان قد سار فى ركب خورشيد باشا ، واسترجعوا سلطتهم فى الرياض .

التوسع الانكليزى فى جنوب الجزيرة العربية وفى الخليج العربى . اثارت هزيمة الوهابيين فى جنوب وشرق الجزيرة العربية قلقا كبيرا لدى انكلترا ، التى كانت تدعى السيادة دون شريك فى مياه البحر العربى والخليج العربى .

وكانت شركة الهند الشرقية تعتبر هذه المياه ملكا لها حيث كان يقيم مندوبها وتوجد قواعدها البحرية واسطولها . ولم تكن لتسمح لاية دولة قوية بالتغلغل هنا . ولذلك فكان من الطبيعى أن يصطدم تقدم المصريين نحو اليمن واحتلال الاحساء وخطط محمد على ، الرامية الى توحيد الجزيرة العربية برمتها تحت

سلطته ، بمقاومة ضارية من قبل الانكليز . فشمروا عن سواعدهم للتوسع اكثر فاكثر فى جنوب الجزيرة العربية وفى الخليج العربى ، سعيا وراء توطيد اقدامهم فى الطريق البحرى المؤدى الى الهند مهما كلف ذلك من ثمن .

وفى عام ١٨١٩ ، عرض الانكليز على محمد علي «تعاونهم» فى قضية «تهدئة» المناطق الواقعة جنوب شرق صنعاء . الا ان اقتراحهم لم يلق قبولا . فاخذ الانكليز عندئذ يعملـــون بصورة مستقلة . وفى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٢٠ قصف الاسطول الانكليزى المرفأ اليمنى مخا ، وفى ١٥ كانون الثانى (يناير) عام ١٨٢١ فرضوا على الامام معاهدة منحت الرعـايـا البريطانيين مجموعة من الامتيازات فى مرافئ الجنوب العربى . واحتلت قوات شركة الهند الشرقية عام ١٨٣٤ جزيرة سقطرة ، التى تحـولت فيما بعد (١٨٦٦) الى محمية بريطانية . واخيرا استولى الانكليز فى عام ١٨٣٩ على عدن ، بعد ما قاموا بحملة تنكيلية بحرية . وجرى الاحتلال بشكل صفقة تجارية . وبحجة اقامة مخزن للفحم «ابتاعت» انكلترا من سلطان لحج* مرفأ وقرية عدن (التى كان يقطنها يومذاك حـوالى ٥٠٠ نسمة) مـــع الاراضى المجاورة .

وقارعت انكلترا لامـد طويـــل فى شرق الجزيـرة العربيـــة الحكام الاقطاعيين المحليين وقبائل شاطئ القرصنة (ساحل الصلـح البحرى) . وكان هؤلاء حلفاء الوهابيين وتعاطـوا التجـارة البحرية والقرصنة . وشنت شركة الهند الشرقية فى العقود الاولى من القرن التاسع عشر ، حربا بحرية ضارية ضد القراصنـة . وفى عـــام ١٨١١ ، عرض الامير سعود على الانكليز عقد الصلح . الا انهـم رفضوه ، تقديرا منهـم بان الوهابيين كانوا اعدائهـــم الخطرين الوحيدين .

وتبدل الوضع فى عام ١٨١٨ ، عندمـــا ظهر المصريون فى الخليج العربى واستولوا على ميناء القطيف وزحفوا نحو شاطئ

---

* انفصلت سلطنة لحج من اليمن واصبحت عام ١٧٢٨ دولة مستقلة .

القرصنة . وحينئذ هرع شيوخ شاطئ القرصنة للالتجاء الى بلاد الفرس . فوجدوا انفسهم بين نارين . اذ هجمت قوات ابراهيم على اليابسة ، بينما ظهر اسطول انكليزى كبير فى البحر . وكان لدى الاسطول مهمة مزدوجة : القضاء على القراصنة من جهة ، وصد ابراهيم من جهة اخرى . وبعد استيلاء المصريين على الهفوف مباشرة ، طلبت شركة الهند الشرقية من ابراهيم الجلاء من الاحساء . الا انه رفض ذلك كما رفض التسليم بالادعاءات البريطانية الخاصة بالخليج العربى . ومع ذلك فقد سبقته انكلترا وارسلت سفنها الحربية الى المرافى الوهابية فى غرب عمان ، والى البحرين . وفى عام ١٨١٩ ، احرق الاسطول الانكليزى اسطول القراصنة حلفاء الوهابيين . وفى كانون الثانى (ينـاير) ١٨٢٠ اجبر شيوخ شاطئ القرصنة على توقيع ما يسمى بمعاهدة الصلح مع شركة الهند الشرقية .

واحتفظ شيوخ شاطئ القرصنة بقسم من الاسطول . الا انهم تعهدوا بعدم الهجوم على سفن شركة الهند الشرقية . وحرّمت المعاهدة القرصنة وتجارة الرقيق فى الخليج العربى شكليا . وفى الواقع وضع شاطئ القرصنة الوهابى ، الذى عرف منذ ذلك الحين باسم «ساحل الصلح البحرى» او «شاطئ الهدنة» ، تحت سيطرة الانكليز كليا . وفى العام ١٨٢٠ ذاته ، اجبر الانكليز شيخ جزر البحرين على توقيع معاهدة مماثلة معهم اعترف بموجبها فعلا بتبعيته لانكلترا .

ودمر الاسطول الانكليزى احدى مدن القرصنة ، التى رفضت توقيع المعاهدة . وخلال ١٨٢٠–١٨٥٠ فرضت انكلترا عددا من المعاهدات الجديدة على حكام ساحل الصلح البحرى ومسقط والبحرين . وبحجة نكث هذه المعاهدات ، التى حرّمت القرصنة وتجارة الرقيق ، تدخلت فى شؤون دول الخليج العربى ، الذى تحول الى «بحيرة انكليزية» من نوع ما .

وحالت الدسائس الانكليزية دون تثبيت اقدام المصريين فى الخليج العربى . وزد على ذلك ان المصريين لم يكن لديهم قواعد مكينة فى مؤخرة الخليج ، اى فى نجد . وبعد الانتفاضة الوهابية

عام ١٨٢١ ، انسحب المصريون من اراضي نجد تدريجيا . وفي عام ١٨٣٠ غادروا الاحساء . ولم يحتلوا الاحساء ثانية الا في عام ١٨٣٩ ، اى بعد الاحتلال الثاني لنجد . الا انهم لم يستقروا هنالك طويلا . وبعد ما حطموا شوكة محمد علي في سوريا ، تخلّص الانكليز بهذا من غريم خطير في الخليج العربي .

الفصل السابع

فتح شرقي السودان من قبل محمد علي . حملة مورة

فتح السودان . كان احتلال شرقي السودان ثاني حملات محمد علي الكبيرة . ومنذ القدم جاءت القوافل من هذا البلد الواسع الى مصر محملة بالرقيق والصموغ وريش النعام والعـاج واصناف نفيسة من الاخشاب . فاستهوت هذه النفائس باشا مصر لا سيما وانه كانت قد انضبت معين خزينته حرب الجزيرة العربية الطويلة الامد ، كما ان بناء الجيش والاسطول كان يتطلب اموالا طائلة . زد على ذلك ان السودان كان مكانا لجأ اليه اعداء محمد علي ، اي المماليك الذين هربوا من مصر ـ الامر الذي زوّد الباشا بذريعة شكلية للهجوم عليه .

ولم تتسم حرب السودان بصعوبات كالتي نجمت عن حـرب الجزيرة العربية . فالسودان اقرب الى مصر من الجزيرة العربية . وهو مرتبط بمصر بطريق مواصلات رئيسية ملائمة هي النيل . وعلاوة على ذلك ، لم يكن سكان السودان متراصين تحت لواء نظام سياسي وديني واحد . وكان هذا البلد مجزءا الى بضع دويـلات اسلامية صغيرة واقاليم قبيلية كثيرة ، حيث كان يسود نظام المجتمع المشاعي البدائي . وكانت اسرة فونج تحكم سنار ، اكبر الدويلات . وامتدت هذه الدويلة في القرن الثامن عشر من شلال النيل الثالث شمالا حتى فازوغلي جنوبا ومن البحر الاحمر شرقا حتى كردفان غربا . ومع ذلك فقبيل مطلع القرن التاسـع عشر تفككت هذه الدولة فعلا . وظهرت في عطبرة وعلى ساحل البحر الاحمـر وفي دنقلة دويلات منفصلة . واحرز نفوذا كبيرا في دنقلة المماليك الذين

اقصاهم محمد على من مصر . وكانت هناك دويلة اخرى هى مملكة فازوغلى الواقعة على النيل الازرق ، والتى اعترفت بتبعيتها الاقطاعية لاسرة فونج فى حين من الاحيان . وكانت اقوى دويلات شرقى السودان فى ذلك الحين سلطنة دارفور التى اقامت فى القرن التاسع عشر علاقات مع السلطان التركى بوصفه رئيسا روحيا .

وكانت لا تزال جميع هذه الممالك والسلطنات تشكيلات دولة بدائية ، تضم قبائل مختلفة — كقبائل العرب والبربر فى الشمال وقبائل العرب-الزنوج فى الوسط . وقطنت فى الجنوب قبائل النيل . اما السكان الحضر فكانوا قليلى العدد ، ولم تكن المدن موجودة بتاتا . وكان يتعاطى العرب المتوطنون فى جنوبى السودان التجارة بطريق القوافل وصيد الرقيق .

ولم يكن الاستيلاء على شرقى السودان صعبا . اذ لم يكن لدى السودانيين حتى اسلحة نارية ، وحاربوا بالحراب والرماح والاتراس الجلدية . وكان المصريون مسلحين تسليحا جيدا وفى حوزتهم مدفعية ممتازة اذا ما قيست بمعايير ذلك الزمان :

وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٢٠ ، بدأ الجيش المصرى البالغ تعداده ٥ آلاف محارب بالزحف تحت قيادة اسماعيل باشا — احد اولاد محمد على . وتقدم دون ان يلاقى اية مقاومة تقريبا ، صعدا فى مجرى نهر النيل ، وخضعت قبائل شمال النوبة ودنقلة الى الفاتحين . وعندما حلّ ربيع ١٨٢١ ، بلغ المصريون راس الخرطوم عند ملتقى النيل الابيض والازرق وأقاموا هناك معسكرا لهم . ثم زحفوا أبعد من ذلك ، وفى ١٢ حزيران (يونيو) دخلوا سنار عاصمة الفونج بدون مقاومة .

وانقسم الجيش هناك الى قسمين واصل احدهما ، بقيادة اسماعيل باشا السير صعدا فى مجرى النيل الازرق . وبعد ان استولى على فازوغلى وبلغ تقريبا الدرجة العاشرة من خط العرض الشمالى ، عاد الجيش متراجعا شمالا فى شباط (فبراير) عام ١٨٢٢ . واخضع القسم الآخر تحت قيادة محمد بك الدفتردار ، صهر محمد على ، كردفان الوسطى فى نهاية ١٨٢١ .

وهكذا استولى المصريون قبيل عام ١٨٢٢ على شرقى السودان

كله ما عدا دارفور والبقاع النائية . ومع ذلك اندلعت انتفاضات في مؤخرتهم . فهرع اسماعيل الى سنار ، حيث قمع الانتفاضة بسرعة بعد ما اباد آلافا من الناس . الا انه سرعان ما سقط في الفخ نفسه . ففي تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٢٢ ، دعاه احد الزعماء المحليين الملك (الملك) نمر الى وليمة . وعندما كان اسماعيل وحاشيته في المأدبة التي اقيمت في كوخ من القش ، اولع رب البيت النار فيه فهلك القادة المصريون وسط النيران .

وبعد مقتل اسماعيل ، توجه الدفتردار مع قواته الى سنار . وكان ثاره قاسيا ، اذ افنى المصريون ما يربو على ٣٠ الف شخص ، الى ان ابادوا كليا تقريبا سكان المنطقة ، التي اغتيل فيها اسماعيل باشا . ومع ذلك فقد تمكن نمر نفسه من الفرار .

ولم يقمع المصريون باقل قساوة كثرة من الانتفاضات التي انفجرت فيما بعد تارة هنا وتارة هناك في مختلف بقاع السودان . ووسعوا في الوقت ذاته ممتلكاتهم بصورة تدريجية . وزحفوا بمحاذاة النيل الابيض باتجاه الجنوب . فوصلوا فاشودة عام ١٨٢٨ . واقترب المصريون في الغرب من تخوم دارفور . ودخل تحت حكمهم مرفآ سواكن ومصوع الواقعان على ساحل البحر الاحمر . وفي عام ١٨٣٨ ، قدم الى السودان محمد على نفسه . فجهز بعثات ، توجهت للبحث عن الذهب في النيل الابيض والازرق . واخيرا انضمت الى الممتلكات المصرية منطقتا كسلا والتاكة في عام ١٨٤٠ .

وفي عام ١٨٢٣ اصبحت الخرطوم مركز الممتلكات المصرية في السودان وتحولت بسرعة نسبيا الى مدينة تجارية كبيرة نوعا ما . وفي عام ١٨٣٤ اصبح يقطنها ١٥ الف نسمة . وكان هناك مقر الحكمدار المصري . وفي عام ١٨٤١ قسمت البلاد الى سبعة اقاليم : فازوغلي وسنار والخرطوم والتاكة والبربر ودنقلة وكردفان وكان الحكمدار وباشوات الاقاليم اتراكا من حاشية محمد على . ولهذا اعتبر السودانيون الفاتحين كاتراك وانضمام السودان الى مصر كفتح تركي .

ونهبت السلطات المصرية السودان بلا خجل ، وفرضت على السكان اتاوة باهضة . وساقت الى مصر سنويا ٨ آلاف رأس من

الماشية ، وارسلت اليها مختلف انواع البضائع النادرة . كالعاج وريش النعام وغير ذلك ، وكذلك الرقيق . وظلت تجارة الرقيق احتكارا للدولة حتى عام ١٨٥٠ واتخذت مدى واسعا للغاية . ونقل من السودان عشرات الآلاف من الرقيق . فنال محمد علي غايته . اذ اصبحت في قبضته تجارة الرقيق والخامات الاستوائية ، وسيطر على مجرى النيل برمته تقريبا . الا ان السودان خيب امله في امر واحد : اذ ظهر ان البلاد غير غنية بالذهب كما كان يحلم به الفاتحون .

انتفاضة اليونانيين . كانت الحملات في الجزيرة العربية والسودان فاتحة لسلسلة من الحروب التي شُنت في نطاق الصراع من اجل السيطرة على شرقي البحر الابيض المتوسط . ومضى محمد علي بحزم نحو هدفه ــ وهو تكوين دولة عربية مستقلة . وقرب كل عام الاختبار الحاسم للقوى . وسعى محمد علي ، أستعدادا لهذا الاختبار ، الى الاستيلاء على سوريا وموره . ومنذ عام ١٨٢١ اخذ يرسل الاموال والهدايا الى كبار موظفي الباب العالي لاستمالتهم لوضع هذين البلدين تحت حكمه . وبالرغم من ان الباب العالي لم يثق به بصورة واضحة ، استأنف محمد علي بعناد اغراءه ، خيفة من ضياع اللحظة الملائمة .

وفي عام ١٨٢١ ، نشبت في اليونان انتفاضة وطنية ـ تحريرية كبيرة . واتخذت سمة ثورة وطنيـــة للشعب اليوناني ضد النير الاجنبي .

وكانت تقود الثورةَ البرجوازيةُ الوطنية اليونانية ، التي ضاقت ذرعا من بقائها تحت نير السلطان . والجدير بالذكر هنا ان التجار اليونانيين اثروا بسرعة من نمو التجارة البحرية . وكان لديهم سفن كثيرة تمخر عباب البحر الابيض المتوسط طولا وعرضا . وسيطروا على تجارة البحر الابيض المتوسط برمتها تقريبا ، وقبل كل شيء على تصدير القمح المتزايد من روسيا . وكان من الممكن العثور على سفن يونانية ومكاتب تجارية وبحارة وتجار يونانيين في اوديســا وتاغنروغ ومرسيليــا وليفورنــو واستانبــول والاسكندرية ــ اي في كافة مرافئ البحر الابيض المتوسط وحوض البحر الاسود .

الا ان التجــار والملاحين اليونانيين ، الذين كانوا يحلمون بالسيطرة على التجارة العالمية ، كانوا محرومين من الحقوق فى بلادهم . اذ كان باستطاعة اى وال طاغية من ولاة السلطان قتــل التاجر والاستيلاء على ثروته . وهذا هى الاسباب لكفاح البرجوازية اليونانية ضد النظام الاقطاعى العثمانى ، وللكفاح من اجل استقلالها الوطنى ومن اجل تكوين دولتها البرجوازية .

واستندت البرجوازية اليونانية فى هذا الكفاح التحررى الى الفلاحين الذين كانوا يمقتون مضطهديهم ـ اى الاقطاعيين المسلمين ، ويحلمون بالحصول على الارض بالإضافة الى الاستقلال الوطنى . واتخذت الانتفاضة فى اليونان سمة حرب زراعية وكفاح خاضه الفلاحون دون رحمة ضد مضطهديهم الاقطاعيين . وكان فى مورة فى ذلك الوقت ٢٠ الف ملاك مسلم ، معظمهم من اصل يونانى . ولقد ابيدوا كلهم تقريبا . ولتهيئة الانتفاضة ، كون الوطنيون اليونانيون عام ١٨١٤ منظمة سرية اسمها «فيليكى هيتيريا» («اتحــــاد الاصدقاء») ، التى أنشئت على نمط اتحاد الكاربوناريين فى ايطاليا . وكان مركز هذه المنظمة فى اوديســا مع فروع فى عدد من المدن الاوربية والتركية . وترأسها اسكندر ايبسيلانتى وهو جنرال ميجر فى الخدمة الروسية (بن الحاكم السابق من مقاطعة الفلاكية ، الذى هرب الى روسيــا) ، وياور القيصر الكسنـــدر الاول . وكان لكابوديستريا وزير الخارجية الروسى وهو اغريقى الاصل ، اتصال ايضا بالحركة الوطنية اليونانية . وان الكسندر الاول نفسه ـ وهو مؤسس الحلف المقدس ، الذى كان هدفــه مكافحة كافــة التيارات الثورية ، ـ ساند الوطنيين اليونانيين باذئ ذى بدء ، رغم انه تخلّى فيما بعد عن ايبسيلانتى . وبهذا الخصوص كتب ف . انجلس : «لقد ساعد الذهب الروسى والنفوذ الروسى مباشرة ان كثيرا ام قليلا ، على اندلاع انتفاضة عام ١٨٠٤ الصربيــة وانتفاضة اليونانيين عام ١٨٢١» * .

---

* ف . انجلس ، القضية التركية ، ـ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٩ ، ص ٢١ .

وفي ٦ آذار (مارس) ١٨٢١ عبر اسكندر ايبسيلانتي وهو يقود مفرزة يونانية صغيرة ، كونت على الارض الروسية ولقبت باللقب الرنان «جيش الانقاذ» ، نهر بروت ودخل الاراضي الخاضعة للسلطان التركي من امارات الدانوب . وكان يأمل في اثارة السكان المحليين ضد السلطان . الا ان الفلاحين المولدافيين والفلاكيين الذين كانوا يمقتون الملاكين اليونانيين ، لم يستجيبوا الى ايبسيلانتي كما ان القيصر لم يعطه المساعدة الموعودة .

فهزم الاتراك ايبسيلانتي الذي لم يكن يتمتع بمساندة احد . وفي حزيران (يونيو) ١٨٢١ ، هرب الى المجر حيث اعتقله مترنيخ في حصن .

وخدمت حملة ايبسيلانتي الجريئة كاشارة لانتفاضة جماهير اليونان الشعبية . وفي آذار (مارس) ١٨٢١ ، هب الفلاحون ثائرين في مورة ، وصار الجنرال كولكوترونس قائد المكافحين . وحطمت مفارز الانصار التابعة له الانكشارية التركية . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٢١ ، انزل الانصار بالانكشارية ضربة حاسمة في معركة قرب تريبوليس (تريبولتزا) . وهزّم الثلاثة آلاف فلاح متطوع شر الهزيمة جيش الانكشارية البالغ عدده ٥ آلاف . وقبيل نهاية عام ١٨٢١ أجليت مورة برمتها من الاتراك . وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٢٢ ، اجتمعت في ابيدور ــ في الغابة المقدسة لليونانيين القدماء ، على مدرج المسرح العريق وتحت القبة الزرقاء ، الجمعية التأسيسية واقرت دستور اليونان المستقلة واختارت حكومة موقتة برئاسة مافروكورداتس .

وساعد الانصار البحارة مساعدة نشيطة . وحوّل جميع الاسطول التجاري اليوناني الى ارمادة كفاحية للثورة واصبحت جزر الارخبيل قاعدة لحرب الانصار البحرية . وهاجمت الخمسمائة سفينة يونانية ، وبحارتها البالغ عددهم عشرون الفا ، تحت قيادة كناريس ، السفن التركية وحاصرت موانيهم .

محمود الثاني يطلب معونة محمد علي . صد الشعب اليوناني بنجاح خلال ٣ اعوام كافة هجمات المفارز التنكيلية التركية . ودار كفاح عنيد على طول ميادين العمليات الحربية الاساسية : في شرقيّ

اليونان وغربيها وفى مورة ــ البؤرة الرئيسية للثورة اليونانية . ولم تكن لدى الباب العالى قوة كافية لمحاربة الثوار فى جميع الجبهات والاحتفاظ بالجزر فى الوقت ذاته .

وفى هذه الظروف ، قرر الباب العالى الاستغاثة بخدمات محمد على . وفى عام ١٨٢٢ اناط به ادارة قبرض وكنديا (كريت) . وفى ١٦ كانون الثانى (يناير) ١٨٢٤ تنازل محمود الثانى ، بايعاز من مترنيخ ــ العدو اللدود للثورة اليونانية ــ لمحمد على عن ولاية مورة ، التى لم تكن فى الواقع تابعة للباب العالى ، وعهد اليه بقمع الانتفاضة اليونانية .

وقد كان محمد على يتحرق لمثل هذه اللحظة . فقبل عن طيب خاطر اقتراح السلطان . وكانت تقوده فى ذلك ــ رغم تصريحاته الرسمية ــ مصالحه الخاصة التى لم تكن تمت بصلة الى مصالح الباب العالى . ولم يكن محمد على مجرد منفذ لارادة السلطان . اذ انه رفض فى هذا الوقت بالذات اى عام ١٨٢٣ ، رفضا باتا ارسال قواته للحرب ضد الروس ، لان هذه الحرب لم تعد بفائدة لمصر . ومع ان محمد على ... تحت قناع التابع فلقد كان لديه كما هو واضح بصدد مورة والجزيرة العربية على السواء تقديراته واهدافه السياسية .

فما هى هذه الاهداف ؟ وما الذى كان يتوخاه محمد على عند بدء حرب مورة ؟ كان محمد على يريد قبل كل شىء اظهار قوة مصر الحربية امام العالم وتفوقه على الباب العالى . وكان عليه ان يبرهن على ان من حق مصر ان تضطلع بدور الدولة العظيمة ، القادرة على التأثير فى مجرى تاريخ العالم . وعلاوة على ذلك ، كان يبغى بكل بساطة ضم مورة وجزر بحر الارخبيل الى ممتلكاته ووضع موارد مورة والملاحة اليونانية فى خدمة امبراطوريته الناشئة . واخيرا كان يحلم بسيادة مطلقة فى شرقى البحر الابيض المتوسط ، وتحويله الى « بحيرة مصرية » .

الحرب فى مورة . جهز محمد على من اجل الكفاح ضد اليونانيين جيشا واسطولا كبيرا . وترأس الحملة ابراهيم باشا ــ فاتح الجزيرة العربية واكبر اولاد محمد على .

وفى تموز (يوليو) ١٨٢٤ ، غادر مصر جيش ابراهيم البالغ عدده ١٦ الف محارب على ظهر مائة ناقلة وبصحبة ٦٣ سفينة حربية . ولم يعط البحارة اليونانيون مجالا للمصريين للنزول فى مورة ، واضطر ابراهيم وقواته قضاء فصل الشتاء فى جزيرة كنديا (كريت) . وقمع هناك الانتفاضة ، ونظم ادارة الجزيرة وحوّلها الى قاعدة للعمليات القادمة .

ونشأت فى مورة نفسها ظروف مؤاتية لابراهيـــم . ففى ١٨٢٤ ، اندلعت حرب اهلية بين الثوار اليونانيين . ومنّى مؤيدو كولكوترونس بالهزيمة وأسر هو نفسه فى كانون الثانى (يناير) ١٨٢٥ . وفى هذه اللحظة اى فى شباط (فبراير) عام ١٨٢٥ ، نزل المصريون فى جنوب غرب مورة واستولوا على مدون وكورون ونفارين .

وادى نزول المصريين مباشرة الى نقطة انعطـــاف فى سير العمليات الحربية . وفى ٢٣ حزيران (يونيو) ١٨٢٥ ، استولى ابراهيم على تريبوليس (تريبولتزا) ـ عاصمة مورة . وانتقل اليونانيون ، الذين قادهـم من جديد كولكوترونس ، الى تكتيك حرب الانصار . فردّ عليهم ابراهيم بتخريب البلاد تخريبا متواصلا . اذ حرق المصريون القرى وخربوا البساتين وداسوا المزروعات . واستولوا على آلاف الاسرى وارسلوهم الى مصر . وقبيل نهايـة عـام ١٨٢٥ ، فتحت مورة برمتهـا وحوّلت الى صحراء اشبـه بنجد .

واستلم ابراهيم فى غضون ١٨٢٥ـ١٨٢٦ امدادات كبيرة من مصر ، وشنّ سوية مع الاتراك الحرب فى اواسط اليونان . وكان حصن ميسولونغى مركز مقاومة اليونانيين الرئيسى ، الذى تلقى المعونة من جزر الارخبيل ومن جمعيـات مواليـة لليونان . وحاصر الاتراك الحصن وقتـا طويلا بدون جدى . وفى شبـاط (فبراير) ١٨٢٦ زحف ابراهيم ، تاركا فى مورة الكولونيل سيف نائبا عنـه ، مع عشرة آلاف جندىّ نحو ميسولونغى . ولم يكن بمقدور المدافعين المنهوكى القوى ، ابداء مقاومة جدية عن الحصن

وفى ٢٢ نيسان (ابريل) ١٨٢٦ ، اقتحم الاتراك والمصريون الحصن بعد ان دمّروه تقريبا .

وفى ٥ حزيران (يونيو) ١٨٢٧ ، استسلم الاكروبول . واستولت قوات ابراهيم على اثينا — «رمز الحريات اليونانية» .

وتراى وكان الثورة اليونانية قد قمعت . اذ لم تبق من جيشها الثائر القدير فى يوم من الايام الا مفارز الانصار المبعثرة المنتشرة فى الجبال والمحرومة من القيادة والادارة السياسية الموحدة . الا انه حدث انعطاف جديد فى هذه اللحظة فى تطور الانتفاضة اليونانية ، الامر الذى تسبب بتدخل الدول الكبرى الاوربية .

تدخل الدول الكبرى . عجّل سقوط اثينا تدخل الدول . وفى ٢٥ آذار (مارس) ١٨٢٣ ، اعلن كاننغ عن اعترافه باليونانيين بوصفهم الجانب المحارب وبهذا اعلن عن استعداد انكلترا للاعتراف باستقلال اليونان مستقبلا . وفى عام ١٨٢٥ حدث تغيير ايضا فى السياسة الروسية . فبتسنّم نيقولاى الاول العرش بدأت الحكومة الروسية تميل الى فكرة مساندة اكثر فعّالة لليونانيين . فسارعت انكلترا ، التى لم تكن راغبة فى السماح لروسيا بالتدخل لوحدها ، الى الاتفاق مع الاخيرة على القيام باعمال مشتركة فى اليونان .

وفى ٤ نيسان (ابريل) ١٨٢٦ ، وقّع نسلروده وولنغتون فى بطرسبورغ البروتوكول الانكليزى-الروسى بشان التدخل المشترك فى الشؤون اليونانية . وقرّرت كلتا الدولتين الحصول على استقلال اليونان الذاتى من السلطان بما فى ذلك حرية التجارة والحرية الدينية والاستقلال الادارى . وكان من المفترض ان تبقى اليونان شكليا فى عداد الامبراطورية العثمانية ، وكان فى نية كلتى الدولتين فى الواقع بسط حمايتهما الخاصة عليها .

ومع ذلك ، بقيت هذه الاتفاقية حبرا على ورق . اذ كان توازن القوى فى اليونان ، فى هذا الوقت ، الى جانب القوات المصرية ، ورفض السلطان محمود الثانى بحزم جميع المطاليب الانكليزية والروسية . ولم تكن الدول الاوربية متاهبة بعد للحرب ولم تستطع اسناد مطاليبها بالتدخل المسلح .

وبالحاح من كولكوترونس انتخبت الجمعية الوطنية في نيسان (ابريل) ١٨٢٧ الكونت كابوديستريا ـ رئيسا لليونان ، وهو وزير الخارجية الروسي السابق . فعزّز هذا النفوذ الروسي لدرجة كبيرة . ولتفادي تثبيت المركز الروسي المطّرد والنشاط الروسي الوحيد الطرف ، طرحت انكلترا مجددا مسألة عمل الدول المشترك . وفي ٦ تموز (يوليو) ١٨٢٧ ، بعد مرور شهر على الاستيلاء على اثينا ، وقعت في لندن المعاهدة ، التي وسعت اتفاقية بطرسبورغ لعام ١٨٢٦ . وانضمت فرنسا الى الكتلة الانكليزية-الروسية فقررت الدول الثلاث الحصول على «فصل اليونان المدني عن تركيا» .

ونصّ متن المعاهدة على ان : «يوافق الباب العالي خلال شهر واحد على هذه الاتفاقية ، والا ـ فيجبر على ذلك بالقوة» .

نفارين . جلاء المصريين عن مورة . وردّ الباب العالي مجددا بالرفض على طلب الدول . وعندئذ اي في ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٢٧ ، دخل اسطول انكلترا وفرنسا وروسيا الموحد تحت قيادة الاميرالات : كدرنغتون ، وده رينيه ، وهايدن خليج نفارين ، حيث رست القوات الاساسية للاسطول التركي والمصري . وكان لدى الحلفاء ٢٦ سفينة ولدى ابراهيم ٩٤ سفينة حربية . واعتمادا على التفوق العددي ومساندة البطاريات الساحلية ، شرع ابراهيم اولا في المعركة ، التي انتهت بابادة الاسطول المصري والتركي ابادة تامة . وبقي لدى ابراهيم سفينة واحدة لا اكثر و١٥ سفينة مساعدة صغيرة . ووجد ابراهيم نفسه في وضع اشبه بوضع نابليون في مصر بعد معركة ابي قير . اذ كان منقطعا عن قاعدته الاساسية . زد على ذلك ان تدخل الدول المسلح بعث قوى جديدة في الانتفاضة اليونانية .

وكانت نفارين مقدمة حرب روسية-تركية كبيرة ، بدأت في ربيع ١٨٢٨ وانتهت بعد مضي عام ونصف بانتصار روسيا .

وبموجب شروط صلح ادرنة ، الذي وقّع في ١٤ ايلول (سبتمبر) ١٨٢٩ ، منحت اليونان الاستقلال الذاتي وبعد قليل الاستقلال التام .

وابدى محمد على الحكمة والتعقل اذ انه لم يسهم فى الحرب الروسية التركية . غير انه اضطر بناء على طلب الدول ، الى الجلاء عن مورة ، حيث كان جيش ابراهيم فى ظروف عسيرة تماما . وفى ٩ اب (اغسطس) ١٨٢٨ وقّع محمد على فى الاسكندرية اتفاقية بشأن جلاء القوات المصرية من مورة واعادة الاسرى اليونانيين والارقاء . وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٢٨ نزلت الى مورة وحدات من الفيلق العسكرى الفرنسى وبدأ جلاء المصريين . وهكذا انتهت هذه الحرب غير المثمرة ، التى كبّدت مصر خسائر كبيرة (حوالى ٣٠ الف شخص) وحرمتها من اسطولها .

الفصل الثامن

صراع محمد على من اجل سوريا وفلسطين . هزيمة مصر

النزاع مع الباب العالى . استمد محمد على من هزيمته فى مورة نشاطا جديدا فى صراعه من اجل سوريا وفلسطين . اذ لم يكن من المستطاع تحقيق خططه لتشكيل دولة عربية كبيرة دون حيازته على هذين البلدين ، اللذين صانا مصر من الهجوم من الشرق ووقفا كحاجز ضد الخطر التركى . فلو ضمّ محمد على سوريا الى ممتلكاته لأمّن حدوده الشرقية وضمن بالاضافة الى ذلك استقلال مصر عن الباب العالى . واخيرا فان سوريا نفسها كانت ذات اهمية كبيرة له ، اذ كانت واحدة من اغنى اقاليم الامبراطورية العثمانية تنتج خامات الحرير والقمح والصوف وزيت الزيتون والفواكه الثمينة وبمقدورها ايضا ان تصبح سوقا ملائمة للصناعة المصرية النامية .

وادرك محمد على ضُعف السلطان وفهم بانه يستطيع ان يفرض عليه اى شروط كانت اذا ما لجأ الى القوة . ولذلك بدأ يستعدّ للصراع مع الباب العالى . وبهذا الخصوص كتب ماركس : « لقد فقد الباب العالى هيبته فى عيون رعيته نتيجة لحرب ١٨٢٨ — ١٨٢٩ الفاشلة . وعندما تضعف السلطة العليا — كما هو مألوف عادة فى الامبراطوريات الشرقية — ، تستعر انتفاضات الباشوات الموفقة . ومنذ تشرين الاول ١٨٣١ ، نشب خلاف بين السلطان ومحمد على — باشا مصر ، الذى كان قد آزر الباب العالى اثناء الانتفاضة اليونانية » * .

---

* ك . ماركس ، اللورد بالمرستون ، ـ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٩ ، ص ٣٨٨ .

وبدأت الحرب مع الباب العالى عام ١٨٣١ . وانها تأجلت لمدة سنتين بسبب الخطط الفرنسية-المصرية الرامية الى فتح افريقيا الشمالية . ولم تكن علاقات محمد على مع جيرانه الغربيين علاقات ودّية ، ولذا فكّر منذ امد طويل بالاستيلاء على المغرب . وكان يبدو فى عامى ١٨٢٩-١٨٣٠ ان الظرف كان مؤاتيا لذلك . فالعلاقات مع فرنسا -حليفة محمد على الرئيسية والاساسية - كانت قد نظّمت على ما يرام . وفى ١٨٢٩ ، اقترح عليه الفرنسيون تمويل حملة لفتح افريقيا الشمالية . وكان على المصريين ان يفتحوا طرابلس الغرب وتونس والجزائر . فتبنّى الباشا هذا الاقتراح . واختار لهذه الحملة جيشا قوامه ٤٠ ألف محارب ، بقيادة ابراهيم . الا انه طلب الى فرنسا ان تعطيه بالاضافة الى الاموال ، اربع سفن حربية مزودة كل منها بثمانين مدفعا . فرفض الفرنسيون طلبه واقترحوا عوضا عن ذلك اشتراك الاسطول الفرنسي فى الحملة . الا ان محمد على لم يرغب فى هذا لأنه اراد الدخول الى المغرب فى ظلّ راية الاسلام . وعندئذ عرضت فرنسا عام ١٨٣٠ صيغة جديدة للحملة المشتركة . وهى ان يستولى المصريون على طرابلس الغرب وتونس ، والفرنسيون على الجزائر . الا ان محمد على رفض هذا المشروع ايضا . وفى النهاية ، رفض بصورة باتة الاشتراك فى الحملة الجزائرية ، التى شنّها الفرنسيون لوحدهم . وقرر على تكريس جهوده كليا للشؤون السورية .

واستخدم النزاع القائم بينه وبين فلسطين بسبب الستة آلاف فلاح مصرى ، الذين كانوا قد هربوا عام ١٨٣١ من التجنيد ولجأوا الى فلسطين ، كذريعة للتمرد على السلطان . ولقد كان الوضع متوترا قبيل ذلك الوقت بما فيه الكفاية . اذ كان محمد على قد اعلن العصيان السافر ضد الباب العالى . وامتنع عن الاسهام سواء فى الحرب الروسية-التركية ام فى دفع تعويضات الحرب التى فرضت على تركيا بموجب صلح ادرنة . وقدّر بانه دفع فى مورة اتاوة دموية كافية لسنوات كثيرة آتية . وكانت كريت لوحدها حسب رأيه ، غير كافية لتعويض النفقات والمصاريف الكبيرة . فاصرّ محمد على على ان يتنازل السلطان له عن سوريا وفلسطين .

وفى هذه اللحظة هرب ٦ آلاف فلاح من مصر ووجدوا ملجأ لهم فى ممتلكات عبد الله باشا ــ والى عكا . فطلب محمد على من عبد الله ارجاع الفلاحين الى وطنهم قسرا . الا ان عبد الله رفض تسليمهم الى باشا مصر ، وأعلن بان جميع السكان ، بوصفهم رعية لعاهل واحد هو السلطان ، يستطيعون العيش فى اى مكان كان من الامبراطورية العثمانية . وعندئذ بدأ محمد على بعملياته الحربية ، وواصل قولا التظاهر بالاخلاص والولاء للسلطان . اذ اعلن بأنه يبدأ الحرب لا ضد الباب العالى ، بل ضد والى عكا فقط . الا ان الحملة التى بدات ضد عبد الله ادت فى الواقع الى نشوب حرب تركية-مصرية كبيرة .

الحملة السورية الاولى (١٨٣١ ــ ١٨٣٣) . كان التفوق منذ بدء الحرب بجانب المصريين . اذ كان الجيش التركى فى وضع متفسخ تام . واشار ك . ماركس ان «. . . الاسطول التركى كان قد ابيد عند نفارين ، وان تنظيم الجيش القديم قد ابطله محمود ، وانه لم يكن قد تمّ بعد تشكيل جيش جديد» * .

وضعضعت الحرب مع روسيا الجيش التركى اكثر من ذى قبل . وبالعكس ، كان الجيش المصرى مسلّحا ومنظما بصورة جيدة . وكان حائزا على عدد من الانتصارات فى العمليات التى قام بها فى الجزيرة العربية والسودان واليونان .

وفضلا عن ذلك ، فقد اجبرت النفقات والغرامات الحربية الباب العالى الى زيادة الضرائب مما اثار تذمر الجماهير الشعبية . فبدأت فى جميع انحاء تركيا انتفاضات فلاحية .

واستُقبل المصريون كمنقذين ومحررين من نير السلطان ، لا من قبل سكان المناطق العربية فحسب ، بل ومن قبل سكان المناطق التركية الصرفة التابعة للامبراطورية .

---

* ك . ماركس ، رسالة الى انجلس ، ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٥٣ ؛ ــ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٢٨ ، ص ٢٥٧ .

ولم تكن تركيا على اهبة الحرب مما جعلها تتردد . ولم يتخذ الباب العالى اى اجراء خلال ستة اشهـــــــــر . ولم يبدأ الاتراك بالاستعداد فعلا لمواجهة الحملة الناشبة الا فى آذار (مارس) ١٨٣٢ . ولم يعلن السلطان تمرد محمد على وابعاده عن المناصب التى كان يشغلها الا فى ٢٣ نيسان (ابريل) ١٨٣٢ . وكان هذا بمثابة اعلان حرب .

وبالعكس ، استغـــلّ المصريون عامـــل الزمن استغلالا تاما . ففى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣١ ، بدأت القوات المصرية فى السير تحت قيادة ابراهيم باشا : وخلال اسبوعين او ثلاثـــة احتلت غزة ويافا وحيفا بدون ان تلاقى مقاومة شديدة . وفى اواخر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٣١ اقتربت من عكا ــ الحصن الذى كان قد اعترض سبيل نابليون فى حينه . وسقطت عكا ، بعد حصار استمـــر ٦ أشهـــر (٢٦ تشرين الثانى ــ نوفمبر ــ ١٨٣١ ــ ٢٧ أيار ــ مايو ١٨٣٢). وكانت قوات المصريين الرئيسية قد توغلت قبيل ذلك الحين بعيدا فى الشمال . وحدثت اوّل معركة كبيرة مع الاتراك فى ٨ تموز (يوليو) ١٨٣٢ ، على مقربة من حمص . وفى هذه المعركة دُحر الاتراك ، الذين كان يقودهـــم ٩ بـــاشـــوات . وخسروا ما يربو على ٤ آلاف شخص ما بين قتيل وأسير . كما خسروا المدافع كلها والعربات . وبلغ عدد القتلى من المصريين ١٠٠ شخص فقط .

وبعد ما انتصر ابراهيم فى حمص ، استولى على حماة وحلب واتجه نحو مضيق بيلان الجبلى ، الواقـــــع بين انطاكيـــــة والاسكندرونة ، والذى كان المفتاح المؤدى الى قلب الامبراطورية العثمانية ــ اى الى آسيا الصغرى . وكانت قوات الاتراك الرئيسية قد تحشدت فى هذا الموقع بقيادة السردار الاكرم حسين باشا . وفى ٢٩ تموز (يوليو) ١٨٣٢ هاجم ابراهيم الاتراك ودحرهم . فهرب حسين باشا مع بقية القوات الى اطنة ، تاركا وراءه سوريا برمتها فى ايدى المصريين .

ودخلت القـــوات المصرية الانـــاضـــول . واستولت على اطنة وتوغلت الى الغرب . فعزل السلطان حسين باشا وعين رشيد محمد

باشا قائدا عاما . الا ان هذا التبديل لم يغير مجرى العمليات الحربية . وفى ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٣٢ حدثت على مقربة من قونية المعركة العامة الثالثة والاخيرة من هذه الحرب . وحشد الاتراك كافة قواتهم الباقية التى كان قوامها ٦٠ ألف شخص لمواجهة ثلاثين ألف من المصريين . واظهر ابراهيم مواهبه القيادية ، فانها تألقت فى هذه المعركة التى دارت رحاها بين الطرفين . ورغم ان عدد الاتراك كان ضعف عدد المصريين الا ان ابراهيم استطاع ان يحاصرهم ويهزمهم شر هزيمة .

وبعد المعركة التى دارت قرب قونية ، لم يبق لدى السلطان قوات اخرى . وهكذا انفتح امام المصريين الطريق المؤدى الى عاصمة الامبراطورية . وسرعان ما دخلت طليعتهم بروسا . واصبحت استنابول تحت الخطر .

والتمس السلطان المرتبك المعونة من الدول الكبرى . الا ان فرنسا ساندت مصر بصورة سافرة ورفضت تقديم المساعدة الى السلطان . وبالعكس ، وقفت روسيا بصراحة الى جانب الاتراك . وكانت انكلترا فى موقف حرج . اذ كانت ضد محمد على . وفى الوقت ذاته ، كانت تتوجس خيفة من تطور الخلاف التركى-المصرى واحتمال تدخل الروس فيه ، مما يؤدى الى تعزيز نفوذ روسيا او الى تجزئة الامبراطورية العثمانية الى شطرين : قسم شمالى يعتمد على المعونة الروسية ، وقسم جنوبى يكون خاضعا الى سلطة محمد على ، ويتحول الى قاعدة للنفوذ الفرنسى . ولهذا فعلت بريطانيا كل ما فى وسعها لحسم الخلاف والاحتفاظ « بكامل » اراضى الامبراطورية العثمانية ، حيث كان نفوذها سائدا . وتحينت الفرص فعلا وتملّصت من تقديم مساعدة مباشرة للسلطان .

وفى هذه الحالة لم يبق لدى السلطان وسيلة اخرى سوى التماس المعونة من روسيا . وكان انتصار محمد على باعثا لقلق الروس . وبهذا الصدد قال الكونت نسلروده الوزير الروسى للشؤون الخارجية ان الهدف من التدخل الروسى هو « انقاذ القسطنطينية من امكانية وقوع انقلاب يضر بمصالحنا ويؤدى الى سقوط دولة ضعيفة الا انها صديقة والى استبدالها بدولة اقوى

ستصبح وهى تحت قيادة فرنسا ، موردا لآلاف المصاعب بالنسبة لنا» . ولهذا انبرت روسيا للدفاع عن كامل اراضى الامبراطورية وسيادة السلطان .

وفى ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٣٢ عرض الممثل الروسى فى استانبول على الباب العالى رسميا مساعدة روسيا المسلّحة . وبتوجه الجنرال مورافييف بمهمة خاصة الى سواحل البوسفور ومن ثم الى مصر . وفى ١٣ كانون الثانى (يناير) ١٨٣٣ جاء الى الاسكندرية وقدّم نيابة عن نيقولاى الاول عددا من المطاليب التى قبلها محمد على . ووعد محمد على مورافييف بوقف زحف قواته على استانبول وبالكف عن العمليات الحربية وبالاعتراف بسيطرة السلطان العليا .

ومع ذلك لم يهدأ ذعر استانبول . وحدثت فى آسيا الصغرى تمردات اثارها عملاء ابراهيم باشا . وفى ٢ شباط (فبراير) ١٨٣٣ ، احتلّ المصريون كوتاهية . فطلب محمود الثانى رسميا فى ٣ شباط (فبراير) ١٨٣٣ المعونة من روسيا . وفى ٢٠ شباط (فبراير) ١٨٣٣ دخل الاسطول الروسى مياه البوسفور . وشرع فى ٢٣ آذار (مارس) ١٨٣٣ انزال الفيلق العسكرى الروسى الذى كان قوامه ٢٠ الف محارب . ورابط مقر اركان الحرب على الشاطئ الاسيوى من البوسفور فى هنكار اسكلسى على مقربة من قصر السلطان الصيفى . وأرسل فى الوقت ذاته فى جهة الدانوب فيلق روسى آخر ، وكلف بالوصول الى العاصمة التركية بطريق البر .

فافزع التدخل الروسى كلا من انكلترا وفرنسا . فهرعتا لمصالحة محمد على مع السلطان ، كيما تحرم روسيا من حجة تتذرع بها لابقاء قواتها فى البوسفور . واسنادا لذلك ، قامتا بمظاهرة بحرية عسكرية مشتركة عند سواحل مصر . وبوساطة الدولتين وقع صلح كوتاهية فى ٤ أيار (مايو) ١٨٣٣ بين تركيا ومصر .

وشكليا لم يكن هذا الصلح «معاهدة صلح» بالمفهوم القانونى الدولى . اذ اصدر السلطان فرمانا وحيد الطرف ثبت فيه حقوق

محمد على فى مصر والجزيرة العربية والسودان وكريت ، وعينه حاكما على فلسطين وسوريا وكيليكيا . وكان على محمد على الجلاء عن الاناضول والاعتراف بسيادة السلطان . ووفقا لمشيئة الدول الكبرى ، بقيت مصر التى غلبت على امرها ، تابعة للباب العالى الذى هزمته هى .

نتائج الحرب . معاهد هنكار اسكلسى . أنقذ تدخل روسيا محمود الثانى ، الذى احتفظ بعرشه وامبراطوريته . الا ان وضعه ظل حرجا اذ لم يرض صلح كوتاهية ايا من الطرفين ، اللذين اعتبراه جهارا كمجرد هدنة . وكان السلطان تواقا الى أخذ الانتقام وسعى محمد على الى الحصول على الاستقلال . وكان لا مفر من خلاف جديد . فاستغلت الدبلوماسية الروسية هذا الوضع .

وفى ٨ تموز (يوليو) ١٨٣٣ وقعت تركيا فى عشية جلاء القوات الروسية معاهدة هنكار اسكلسى المعروفة التى عقدت لمدة ٨ سنوات . واقامت هذه المعاهدة تحالفا عسكريا بين روسيا وتركيا . وتعهدت روسيا بارسال قواتها لمعونة السلطان «اذا ما اقتضت الظروف ذلك» . وقال نسلروده فى هذا الباب : «حصل تدخلنا المسلح فى شؤون تركيا على اساس قانونى» . وكان على تركيا ، وفقا لطلب روسيا ، قفل الدردنيل بوجه السفن الحربية الاجنبية .

وفى ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٨٣٣ عقدت اتفاقية مونخن غراتز كملحق لمعاهدة هنكار اسكلسى . وتم عقد الاتفاقية بين النمسا وروسيا عند اجتماع الامبراطرين فى مونخن غراتز . وسرعان ما انضمت اليهما بروسيا .

وقد تعهد الطرفان المتعاقدان بما يلى :

« ١ ... اسناد كيان الامبراطورية العثمانية تحت حكم الاسرة الحالية ، وتكريس كافة الوسائل العملية الفعالة التى هى فى حوزتهم لبلوغ هذا الهدف ، وذلك وفقا للاتفاق التام .

٢ ... المناهضة الجماعية المشتركة لاية خطة من شانها ان تلحق ضررا بحقوق السلطة العليا فى تركيا سواء عن طريق تنظيم وصاية العرش الموقت ام بواسطة التغيير التام للسلالة الحاكمة» .

وختاما ، جاء في المادة السرية الاولى : « ... تطبق بصورة خاصة على باشا مصر قرارات المادة الثانية ... للحيلولة دون بسط نفوذه بصورة مباشرة ام غير مباشرة على الاقاليم الاوربية من الامبراطورية العثمانية » .

الا ان دبلوماسية انكلترا وفرنسا نجحت في آخر المطاف ، في شلّ النتائج الفعلية لمعاهدة هنكار اسكلسي واتفاقية مونخن غراتز . ومع ذلك فان هاتين الاتفاقيتين قد عقدتا بصورة خطيرة تحقيق اهداف محمد علي وحرمتاه الى حد كبير من ثمار انتصاره في الحملة السورية الأولى .

وتكوّنت في نتيجة الحرب التركية-المصرية في الواقع دولتان في اطار الامبراطورية العثمانية الوحيدة شكليا . اذ وقعت في قبضة محمد علي ، مصر والسودان وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية وكيليكيا وكريت . وبقيت في قبضة السلطان في الواقع الاناضول والعراق وبعض مناطق شبه جزيرة البلقان فقط . وكانت امبراطورية محمد علي اكثر سكانا وهي الى ذلك اوسع واشدّ بأسا وثراء من امبراطورية محمود الثاني . وكان هذا الوضع مفعما بخلافات جديدة لا بد ان تنفجر قريبا .

اصلاحات ابراهيم في سوريا وفلسطين (١٨٣٢–١٨٤٠) .

كانت بعيدة المرمى الخطط السياسية التي وضعها محمد علي وابنه ابراهيم ، الذي عيّن حاكما أعلى لسوريا . اذ كان يحلم كلاهما بتكوين دولة عربية مستقلة كبيرة .

وكتب بالمرستون عن محمد علي في عام ١٨٣٣ قائلا ان « هدفه الحقيقي هو تكوين مملكة عربية تضم كل الاقطار التي تتكلّم بلغة الضاد » .

وابلغ البارون بوالكمت — الممثل الفرنسي لدى ابراهيم ان الاخير لا يخفي مقاصده ، فهو يرمي الى بعث الوعي القومي العربي واحياء الامة العربية وغرس شعور وطني أصيل عند العرب والتعاون معهم الى اقصى حد في ادارة الامبراطورية القادمة . وبثّ ابراهيم بنشاط فكرة البعث القومي وفي نداءاته كان غالبا ما يذكّر بمجد الشعب العربي في التاريخ القديم . وأثّر بحماسه على قواته .

واحاط نفسه بأناس يشاطرونه افكاره ويعملون من اجل بثها .

ومع ذلك ، فلم تكن الاوضاع قد اختمرت بعد لتوحيد الامة العربية ، اذ كانت البرجوازية العربية فى سوريا ضعيفة جدا . ولم يقض على الاقطاعية . وكسياسى موهوب رأى ابراهيم باشا بعد ان درس خبرة البلدان المتقدمة المعاصرة له ، اتجاهات التطور المقبل ، فحاول الاسراع فى تحقيقها . وقام بعدد من الاصلاحات فى سوريا على غرار اصلاحات محمد على فى مصر ، ترمى الى مركزة البلاد وتصفية التعسف الاقطاعى والقضاء على الانفصالية الاقطاعية كما تستهدف خلق الممهدات لتطوير العلاقات الرأسمالية .

وحاول ابراهيم قبل كل شىء ، تحويل سوريا الى مستودع للامبراطورية العربية القادمة . ومن اجل ايقاف التدهور الزراعى ، حدّد بدقة الضرائب التى تجبى من الفلاحين ، وحرّم الابتزازات الاقطاعية التعسفية وعفا الارض البكر المحروثة من دفع اى نوع كان من الضرائب لمدة طويلة . وأحلّ البدو فى الاراضى الصحراوية المهجورة ودفعهم الى الانتقال الى حياة الاستقرار . وهكذا نشأت فى البطاح الواقعة بين دمشق وحلب قرى جديدة ، وحرث حوالى ١٥ ألف فدان من الاراضى البكر . واتسعت فى غضون السنتين الاوليتين من السيطرة المصرية مساحة الاراضى المزروعة وزادت من الفين الى ٧ آلاف فدان فى حوران الخصيب . واذا كانت الطغمة العسكرية التركية تلتهم سابقا محصول الحقول الفلاحية كما يقضمها الجراد ففى حينه قام الجيش المصرى بقيادة ابراهيم بحملة ليحمى غلاّتها من شرّ هذه الآفة التى تهلك الزرع فى البطاح السورية .

وساعد الغاء جباية الضرائب بصورة متعسفة على تطوير الصناعة والتجارة وأضحى فى وسع التجار والحرفيين الاطمئنان على سلامة اموالهم ، ولم يبق باعث لمخاوفهم من سلب الباشوات الاتراك ومن ابتزازهم الاموال . اذ أصبحوا يعرفون بدقة ما يتوجب عليهم دفعه من ضرائب وغدا بأستطاعتهم التصرف بحرية بجميع ما يتوفر لديهم من قيمة زائدة ، واستطاعوا بجرأة التداول بتلك

القيم وتحويلها الى رأسمال بينما كانت تتلف حتى ذلك الحين ببقائها مخزونة ومخفية بعيدا عن انظار الباشوات وقطاع الطرق الاقطاعيين . واستُرجعت الجمارك من ايدى الملتزمين ، وحدّدت الرسوم الجمركية بدقة . وبنتيجة هذه السياسة ، التى لائمت اتجاه التطور الاقتصادى ، نمت المدن السورية بصورة محسوسة ، والى جانب ذلك تطورت التجارة الخارجية . وكتب القنصل الروسى بازيلى قائلا «ان الحرية التى منحتها الادارة المصرية للتجارة بعثت حياة جديدة فى المدن الساحلية . فاصبحت صيدا وبيروت وطرابلس اسواقا حرّة للجبليين ، الذين استبدلوا فى هذه المدن الحرير وزيت الزيتون بالقمح ومنتوجات الصناعة الاوربية . وزاد الانتاج فى لبنان بنحو الثلث على الاقل ، بينما تضاعف استهلاك البضائع المستوردة من وراء البحار» .

وزيادة على ذلك ، ساد الامن سواء فى الطرق داخل القطر ام فى طرق القوافل عبر الصحراء ، التى كانت تربط دمشق ببغداد . وتوسعت تجارة الترانسيت ونقلت الاقمشة الانكليزية عبر سوريا الى اراضى ما بين النهرين وايران ، والبضائع الهندية والايرانية عبر سوريا الى اوربا .

وخاض ابراهيم نضالا عنيفا ضد الاقطاعيين السوريين . وبالطبع ، لم يكن فى وسعه القضاء على اسلوب الانتاج الاقطاعى وسيطرة الطبقة الاقطاعية المرتبطة به . الا انه سعى الى القضاء على الانفصالية الاقطاعية والى تحديد الحقوق السياسية التى يتمتع بها الولاة الاقطاعيون المنفردون ، والاستعاضة عن السادة الاقطاعيين غير المطيعين الى السلطة المركزية بأناس يخضعون له كلية . وهكذا اعتمد ابراهيم فى لبنان على الامير بشير الثانى ، الذى واصل الان كفاحه ضد الاقطاعيين اللبنانيين الآخرين بدعم من ابراهيم . واستند فى منطقة نابلس الى شيوخ عبد الهادى . وخاض النضال بمساعدتهم ضد الشيوخ الآخرين .

وبعد ان وطّد السلطة المركزية ، اعاد ابراهيم تنظيم البلد على النسق المصرى . فقسم سوريا وفلسطين وكيليكيا الى ست مديريات . وترأس كل مديرية مدير ، وعيّن فى كل مدينة نواب

عن السلطة المركزية او متسلمون يخضع اليهم مباشرة شيوخ القرى المجاورة . وتحت رئاسة كل متسلم ، شكل مجلس استشارى او شورى ، من بين الملاكين المحليين والتجار والممثلين الروحانيين . وعهدت الى هذه المجالس وظيفة المحاكم المدنية . وحُصرت السلطة القضائية العليا بيد ابراهيم مباشرة ، الذى كان يصدّر الاحكام شخصيا بالقضايا الجنائية والسياسية بعد ان تنظر فيها المحاكم بصورة تمهيدية .

كما أجريت اصلاحات فى حقل التعليم اثناء الحكم المصرى لسوريا . ففى عام ١٨٣٤ ، أنشئت فى بيروت اول دار طباعة بلبنان . وفى العام نفسه وضع ابراهيم الاساس للتعليم المدرسى الجديد . وحسب اوامره أنشئت المدارس الابتدائية فى جميع انحاء سوريا ، والمدارس الثانوية فى دمشق وحلب وانطاكية ، حيث كان التعليم باللغة العربية . وأسست هذه المدارس على النسق المصرى مع انضباط حربى صارم . وارتدى الطلاب البدلة الرسمية وسكنوا فى الاقسام الداخلية واطعموا مجانا . ويقول الباحث الاميركى انطونيوس ان كلوت بك ، مدير هذه المدارس المعروف كان قد تلقّى تعليمات خاصة لغرس الوعى القومى العربى الاصيل فى قلوب الطلاب .

ومما يجب ذكره ايضا ان ابراهيم كمحمد على ، تميّز بعدم التعصب الدينى وهى صفة غير معروفه لدى الباشوات الاتراك . اذ حرّر العرب المسيحيين ، الذين كانوا يحتكرون الحرف والتجارة فى المدن ، من جملة من القيود والالتزامات المهينة التى كانت مفروضة عليهم فى عهد الاتراك .

الاستياء فى البلاد . انتفاضات ضد التجنيد . رغم ان اصلاحات ابراهيم كانت قد ضمنت نمو القوى المنتجة بدرجة ما وحسنت وضع التجار والحرفيين والفلاحين الا انها اثارت استياء خطيرا فى سوريا .

ولم يقتصر الاستياء على الاقطاعيين ، الذين حرمهم ابراهيم من الامتيازات السياسية ، ولا على القبائل البدوية والجبلية التى حرمت من امكانية النهب فى قارعة الطريق . بل وشمل ايضاً

الجماهير الفلاحية . وسرعان ما لوحـــظ انعطاف حاد فى مزاج الفلاحين . وكان سببه قيام ابراهيم باشا بتدابير عسكرية تحمّـــل الفلاحون كافة اعبائها . وبعد ما ادرك ابراهيم باشا ان السلطان لم يسلّم بضياع سوريا الا موقتا وبانـــه سيحاول فى المستقبـــل القريب استرجاع هذا الاقليم عنوة قام بالاجراءات الدفاعية وامر ببناء القلاع وتحصين الممرات الجبلية واقتنى المدافـــع ووسّـــع الجيش . وتمّ بناء التحصينات بفضل عمـــل الفلاحين السوريين الاجبارى ، الذين حشّدوا من جميع انحاء البلاد . واقتنيت المدافع على حساب الفلاحين السوريين ، الذين فرض عليهم ان يدفعوا الى السلطات مزيدا من الضرائب عاما بعد عام . واذا كان ابراهيـــم باشا قد حدد الضرائب فى السنوات الاولى من الحكم المصرى ، فان الاستعدادات للحرب ضد الاتراك اضطرته الى اعتصار الضرائـــب بصورة اشد . واخيرا ، جنّد الفلاحون السوريون لاستكمال صفوف الافواج المصريـــة مما اضنى الفلاحين واثـــار حفيظتهـــم وسبّب قيام اضطرابات فلاحيـــــة وحتى انتفاضـــات كبيـــرة فى بعض المناطق .

وفى عام ١٨٣٤ ، كانت قد قامت اول انتفاضة فلاحية دبيرة ضد التجنيد ، شملت فلسطين كلها تقريبا . وابيدت آنئذ الحملة المصرية التنكيلية المرسلة الى جبال اليهوديـــة . وحاصر الثوار ابراهيم نفســه فى القدس . وجـاءت لمعونتـه امدادات مـن مصر بقيادة محمد على ، الذى خاض بنفسه الحملة للتنكيل بالمساهمين فى الانتفاضة .

وفى نهاية عام ١٨٣٧ ، قامت فى حوران والجبـــل الشرقـــى انتفاضة الفلاحين الدروز . وكان الحورانيون قد اعفـــوا لمـــدة ٥ سنوات من الخدمة العسكرية اعتبارا من بداية الحكم المصرى . وعندما انتهت المدة ، طلبت السلطات المصرية ارسال المجندين . وعندها ثار الحورانيون . وتحصنوا فى اللجا وهى منطقة بركانيـــة مهجورة على شكل متاه جبلى كبير يكوّن حصنا منيعا طبيعيا وباءت بالفشل كافة المحاولات التى قام بها المصريون لاقتحام اللجـــا : وابيد المصريون الذين افلحوا بالتوغل فيها . وواصل ابراهيـــم

ارسال اكثر من عشرات آلاف محارب اضافى الى اللجا ، كانوا ممن اعتادوا على العمليات فى الجبال ، الا انهم لم يستطيعوا مع هذا التغلب على الفلاحين الدروز القليلى العدد . وحاول ابراهيم الاستيلاء على الدروز بتجويعهم . الا انهم تحملوا آلام الجوع ولم يستسلموا . فنسف ينابيع مياه الشرب وردم خزانات المياه بالجثث . فشرب الدروز المياه الآسنة . ولم يخرجوا من اللجا الا بعد ان سمم ابراهيم تلك الينابيع . وحتى فى هذه اللحظة لم يستسلموا ، بل اخترقوا دائرة الحصار وواصلوا الصراع مع المصريين عند سفح الجبل الشرقى حيث سحقوا وشتّتوا فى خريف ١٨٣٨ .

مسألة الاستقلال . خلاف جديد مع الباب العالى . اثار قلقا كبيرا لدى محمد على الوضع الغامض الذى نشأ نتيجة لصالح كوتاهية المعقود فى ١٨٣٣ . اذ كان من الضرورى تدعيم الانتصار الذى اكتسبه بحكم القانون وتامين خلافة السلطة واضفاء طابع شرعى على استقلال مصر . وبذل محمد على فى غضون عدد من السنين جهودا كبيرة لكى يعترف بحقوق اسرته الوراثية على ممتلكاته الواسعة . ففى عام ١٨٣٤ قدّم اقتراحا الى الدول ومن ثم فى ١٨٣٦ـ١٨٣٧ الى الباب العالى مباشرة لحسم قضية استقلال مصر وحقوق ورثته فيها الا ان جهوده ذهبت ادراج الرياح . اذ وقفت الدول كالسابق ، الى جانب الباب العالى ورفض السلطان بعد ان شعر بمساندتها ، التخلى عن القسم الاكبر من امبراطوريته . ووافق كحل اخير على الاعتراف لخلفاء محمد على بحقوقهم الوراثية على مصر حصرا ، بشرط ان تعاد الى الباب العالى جميع ممتلكات الباشا المصرى الاخرى .

وادّى رفض الباب العالى حسم القضية سلميا الى توتر العلاقات المصرية-التركية من جديد . فنشب خلاف خطير ، وكان الرأى العام الناشئ حديثا فى الاقطار العربية وخاصة فى مصر يؤيد محمد على تماما . وفى عام ١٨٣٨ اعلن علماء القاهرة عن مساندتهم التامة لبرامج استقلال مصر . وعلى نقيض ذلك ، اتخذت الدول وخاصة انكلترا موقفا معاديا .

وكانت انكلترا تنظر منذ امـــد بعيد بعين الحذر الى ازديـــاد سطوة الدولة الفتية . واعتبرت مصر عقبة كأداء فى طريق فرض السيادة الانكليزية فى شرقى البحر الابيض المتوسط . ورأت فى سطوة مصر تهديدا لمركز بريطانيا فى الخليج العربى . وكان محمد على بالنسبـــة للانكليز المانـــع الاساسى الذى اعاق تطور طرق المواصلات والتجارة الامبراطورية بصورة ناجحة .

وفى ١٦ آب (اغسطس) ١٨٣٨ ، وقعت المعاهدة التجارية التركية-الانكليزية المعروفة والتى كانت فى صالح انكلترا تمامـــا . وفى الحقيقة مهدت هذه المعاهدة الطريق الى تحويل الامبراطورية العثمانية الى مصدر تابع للدول الاجنبية يزودها بالمواد الاوليـة الزراعية . والغت المعاهدة احتكار الخزينة التركية لتجارة مختلف انواع المواد الاولية مقابل رفع بعض الرسوم الجمركية ، وهكذا حصل المصدرون الانكليز على امكانية ابتياع المواد الاولية باثمان منخفضة من المنتجين مباشرة او بواسطة وكلائهم دون توســـط الخزينة .

وسعت البرجوازية الانكليزية الى توسيـــع هذه المعاهـــدة التجارية الملائمة لها للغاية لتشمـــل كل اراضى الامبراطوريـــة العثمانية ، بما فى ذلك ممتلكات محمد على . وارادت ، متجاوزة الاحتكار الذى فرضه محمد على ، تخفيض اسعار القطـــن المصرى والصوف والحرير السورى . وسعـــت الى الاستيـــلاء على اسواق التوريد من مصر وسوريا ، والتى كانت تسيطر عليهـــا فرنســـا آنذاك . الا ان محمد على رفض رفضاً باتا تشميل مفعول المعاهدة على ممتلكاته .

وعارض محمد على بصورة قاطعة ايضا انشاء طريق انكليزى مائى عبر الفرات (لنقل البريد والبضائع من مصب نهر العاصى) الى الفرات بطريق القوافل او بشق قناة خاصة تنقل فيها هذه المواد حدرا الى البصرة عبر الفرات) . كما عارض مختلف المشاريع الرامية الى انشاء قناة عبر برزخ السويس .

وادى فتح نجد ثانية من قبل محمد على ونفاذ المصريين الى الخليج العربى الى استياء الانكليز استياء كبيرا . وكانـــت مصر

بدورها ، قلقة من جراء التوسع الانكليزى فى الخليج العربى وجنوبى الجزيرة العربية .

ولعبت «السياسة العليا» اى صراع الدول من اجل السيادة فى الشرق الادنى وخاصة رغبة انكلترا فى اضعاف مركز فرنسا وروسيا فى الشرق ــ دورا هاما فى تطور الخلاف . اذ كافحت انكلترا محمد على وفرنسا ، التى كانت قد استولت حتى ذلك الحين على قسم كبير من الجزائر وشغلت مركزا راجحا فى سوريا ومصر كحليفة لمحمد على . واراد الانكليز بمناهضتهم محمد على ، تعزيز مركز السلطان وتحويل ميزان القوى لصالحه . وكانوا يبغون من وراء ذلك تقويض اسس معاهدة هنكار اسكلسى ، وفى الوقت ذاته القضاء كليا على النفوذ الروسى فى تركيا .

هذه هى العوامل التى قادت انكلترا الى اتخاذ قرار لاقصاء محمد على والتى عرقلت اى تسوية للخلاف المصرى التركى . وعارضت انكلترا بحزم الاعتراف باستقلال مصر ودخلت كضامن رابع لحماية كامل اراضى الامبراطورية العثمانية ، رغم انها لم تنضمّ رسميا الى معاهدة مونخن غراتز .

وعندما شعرت تركيا بمساندة الدول الاربع لها ، أخذت تستعدّ للحرب بصورة محمومة . فعبّأت جيشا تعداده مائة الف وحشّدته بالقرب من حدود سوريا . وان موقف بريطانيا جعل التصادم المسلّح حتميا ، فانها وقفت وراء الاتراك ودفعتهم الى الحرب .

الحملة السورية الثانية . عبرت القوات التركية الفرات فى ٢١ نيسان (ابريل) ١٨٣٩ وتغلغلت فى ممتلكات محمد على . ومع ذلك فانها فشلت فشلا ذريعا فى المعركة العامة التى نشبت فى الصباح الباكر من يوم ٢٤ حزيران (يوتيو) ١٨٣٩ والتى دارت رحاها بالقرب من نصيبين واحتلّ المصريون بقيادة ابراهيم باشا المرتفعات المسيطرة على المواقع التركية ، وفتحوا نارا حامية عليهم . وبعد ما استمرت المعركة ساعة ، اخمدت المدفعية المصرية نيران البطاريات التركية وشقّت الطريق لخيالتها . وادى هجوم الخيالة المصرية العنيف الى اتمام تدمير الجيش

التركى . وكما حدث فى عام ١٨٣٢ ، فتح امام ابراهيم الطريق الى العاصمة . وفى ٣٠ حزيران (يونيو) ١٨٣٩ ، اى بعـد مرور ستة ايام على موقعة نصيبين توفى السلطان محمود الثانى . وبعد ذلك باسبوعين انضمّ الاسطول العثمانى برمته بقيادة الاميرال احمد فوزى باشا الى جانب محمد على . وذكر غيزو ان تركيـا فقدت سلطانها وجيشها واسطولها خلال ثلاثـة اسابيـع . وهكذا كان الانتصار ثانية الى جانب المصريين .

ومع ذلك ، فلم يفكر ابراهيم باشا بالقيام بحملة على استانبول . بل اكتفى باحتلال الرهـا (اورفا) ومرعش تنفيـذا لارادة والده وفرنسا . ولم يعبر المصريون جبال طوروس فى نقطة . اذ لم يريدوا القيام باى عمل استفزازى لوقوع اى تدخـل روسى جديـد . وفضّل ابراهيم التفاهم مع الباب العالى . وكان مستعدا للاكتفـاء باعتراف السلطان بالحقوق الوراثيـة لسلالة محمد على على مصر وممتلكاتهـا . وكان الباب العالى ، الذى اندحر فى الحرب ، اكثر استعدادا لقبول اى شروط يقدمها ابراهيم .

ولم تكن انكلترا او الدول الاخرى الموقعة على اتفاقية مونخن غراتز تتوقع مثل هذه النتيجة للحرب التى دارت رحاها . اذ ان هـذه الدول لم تكن ترغـب فى توطيـد مصر . وفى ٢٧ حزيـران (يونيو) ١٨٣٩ عرضت هذه الدول على تركيا «عدم اتخاذ قرار نهائى بدون مساعدة الدول لها وان ترقب نتائج التعاون المشترك الذى اتخذ من قبلهم من اجل مصيرها» . ووقعت على هذه المذكرة الدول الاربع التى كونت الكتلة المعادية لمصر اى (انكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا) وكذلك فرنسا ، التى كانت تصور نفسها «حليفة وصديقة لمصر» ، والتى قررت المساهمة فى النشـاط الجمـاعى للدول ، حتى تتفادى العزلة وتحمى مصالح البرجوازية الفرنسية فى مصر وسوريا .

وجرت فى غضون عام مفاوضات بين الدول حول مصير تركيا ومصر المقبل . واقنعت فرنسا الدول بحسم القضية سلميا والتنازل الى محمد على عن حكم وراثى فى مصر وعموم سوريا . ورضيت النمسا وبروسيا بالتنـازل عن مصر وقسم من سوريـا . وأبدت

روسيا ، التى كانت حريصة على الاحتفاظ بالحالة الراهنة وباتفاقية هنكار اسكلسى ، عدم المبالاة فى القضية الاقليمية . اما انكلترا فانها ذهبت ابعد من الجميع . اذ اقترحت انتزاع سوريا باكملها من محمد على .

وجرت المفاوضات بصورة متواصلة . وعقد فى لندن دون انقطاع مؤتمر السفراء ، الذى ناقش القضية الشرقية . وطبّل الدبلوماسيون والصحفيون وزمّروا بوجود «الازمة الشرقية» الا انهم لم يتكلموا عن هذه «الازمة» كحصيلة لمجهوداتهم الخاصة ، وبانه كان فى الامكان تسوية جميع الخلافات بين تركيا ومصر بدون تدخلهم .

وفى ايار (مايو) ١٨٤٠ أفلحت فرنسا وهى تعمل دون علم الدول الاربع التى كونت تحالفا ضد مصر ، بان تعقد اتفاقية بين تركيا ومصر . ومنح السلطان بموجب هذه الاتفاقية ، محمد على ملكا وراثيا فى مصر وسوريا .

وقررت الدول احباط هذه الاتفاقية . واستغلّت الاستياء الذى كان سائدا فى سوريا وفلسطين لاثارة عدد من الانتفاضات ضد المصريين ، اكبرها انتفاضة لبنان (ايار ـ مايو ـ ١٨٤٠) .

وصف بازيلى هذه الاحداث كشاهد عيان وكتب يقول :

«لقد اندلع العصيان فى جميع انحاء المناطق المسيحية من لبنان ... وقدم الى بيروت بضعة آلاف من الجبليين نصفهم مدجج بالسلاح ، ويحمل النصف الاخر منهم المجارف والهراوات . وحاولوا الاستيلاء على المدينة . فأصلتهم القلاع بنيرانها ، الا انها لم تلحق اى ضرر بالجبليين الذين احتموا بالتعرجات والتضاريس الارضية . وبعد ما احتلّوا جميع الضواحى ، بدأوا بتقتيل الجنود الذين صادفوهم فى الحقول ونهبوا كافة الاموال الاميرية ، الا انهم لم يمسوا الافراد غير الرسميين ... وفى هذا الوقت ، أقسموا فى نداءاتهم على الاخلاص للسلطان ، وصبّوا جام غضبهم على المصريين . ووفقا لما جاء فى الكتاب المقدس ، صوّروا محمد على وابراهيم باشا كخلفاء جديرين للفراعنة ، الذين اضطهدوا شعب اللّه» .

وقمع ابراهيم الانتفاضة دون صعوبة لانها كانت سيئة

التنظيم ومحصورة على الاخص بالمناطق المسيحية فى لبنان . ونهبت واحرقت القرى الجبليـــة . وأرســـل قادة الانتفاضة الى سنار (فى السودان) .

تدخل الدول الكبرى . صادف فشل الانتفاضة اللبنانية ابتداء تدخل الدول السافر . وفى صيف ١٨٤٠ ، توصل مؤتمر السفراء فى لندن الى قرار حول شروط تسوية الازمـــة الشرقيـــة . وفى ١٥ تموز (يوليو) ١٨٤٠ ، وقّعت انكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا ، وكذلك تركيا على الاتفاقية التى قررت مصير محمد على وممتلكاته .

وكان عقد اتفاقية لندن عام ١٨٤٠ نصرا كبيرا للدبلوماسية الانكليزية . وكانت روسيا مقيدة فى نشاطاتها . وانعزلت فرنسا انعزالا كليا . واقتربت انكلترا من تحقيق هدفهـــا المنشود . اذ استندت الى دعم ثلاث دول لها وقادت الكفاح ضد محمد على .

وفى ١٩ آب (اغسطس) ١٨٤٠ ، طلبت الدول الكبرى من محمد على قبول شروط اتفاقية لندن التى تتلخّص فيمـــا يلى :

١ . تسلّم محمد على مقاليد مصر كملك وراثى .

٢ . اناطة ادارة فلسطين (ولاية عكا) به كملك عليها مدى الحيـــاة .

٣ . اعادة جميع الممتلكات الاخرى الى السلطان .

٤ . فى حالة عدم موافقة محمد علي على الشروط المقترحة خلال عشرة ايام يحتفظ بمصر وحدها .

٥ . وان لم يوافق خلال عشرين يومـــا على هذه الشروط ، يعمل على عزله عندئذ بجهود الحلفاء المشتركة .

الا ان محمد على رفض انذار الحلفاء . واعلن بانه ينوى ان يبقى بالسيف ما ربحه بالسيف . وردّا على ذلك ، بدأت انكلترا والنمسا سوية مع تركيا بعمليات حربية ضده . ووصل الى سواحل سوريا اسطول انكليزى ونمساوى . وكانت بضمنـــه بواخـــر استخدمت لاول مرة فى الحرب البحرية . وفى ١١ أيلول (سبتمبر) ١٨٤٠ ، انـــزل الاسطـــول الانكليزى بقيـــادة شـــارل نابير قوات مسلحة فى شمال بيروت قوامها ١٥٠٠ انكليزى و ٧٠٠٠ —

٨٠٠٠ تركى . وشرع الانكليز والنمساويون بتسليح الجبليين ، وامدادهم بالمدربين والاموال . وقامت انتفاضة بقوة جديدة ضد المصريين في لبنان . فوجد الجيش المصرى نفسه في وضع حرج .

واعتمد محمد علي على معونة فرنسا . الا انها لم تفعل شيئا سوى التهديد بالسلاح ، ولم تمد مصر باية مساعدة فعّالة . ولم تدع انكلترا الحملة الداعية للحرب ، التى قامت بها الصحف الفرنسية . وادركت الحكومة الفرنسية بان المساعدة المسلحة للدفاع عن مصر تنطوى فى ثناياها على حرب اوربية واسعة النطاق . زد على ذلك ، ان فرنسا ستضطر الى الصراع وحيدة وفى آن واحد ضد بروسيا على الرين وضد بريطانيا فى البحار . وعندما وجدت فرنسا نفسها امام مثل هذا الوضع ، لم تخاطر للقيام بحرب اوربية واسعة ، وتركت مصر فى كفة الاقدار . وكان يترأس الحكومة الفرنسية منذ آذار (مارس) ١٨٤٠ تيير — وهو من المتحمسين للتحالف مع مصر ومن مؤيدى العمليات الحاسمة . وفى ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٠ ، ارسل تيير مذكرة الى الدول انذرهم فيها بانه سوف لا يسمح باقصاء محمد على . ومع ذلك فقد استقال هو نفسه بعد ثلاثة اسابيع اى فى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٠ . ولم يكن فى نية وزارة سولت — وغيزو الجديدة القتال بسبب مصر . فسارعت الى التفاهم مع الدول بشأن محمد على .

وفى ذلك الوقت ، اصبح وضع جيش ابراهيم اكثر صعوبة . اذ كانت قواته مبعثرة فى جميع انحاء سوريا . وكانت تقاسى من الامراض وسوء التغذية واصبح الجيش المصرى بين نارين . اذ قطع الانصار خطوط مواصلاته . وحاصر الاسطول الانكليزى-النمساوى الموانئ وقصف الساحل السورى . وكالت القوات الانكليزية التى نزلت على البر والثوار ضربة قاصمة بالجيش المصرى . وفى غضون الاسابيع الاولى ، احتل الثوار بمعونة الاسطول الانكليزى عددا من المدن الساحلية فى سوريا : جبيل والبترون وصور وصيدا وحيفا . وجرت ناقلات جديدة محملة بالاسلحة من هذه المدن الى قلب البلاد .

وفى ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٠ ، سحق الثوار وجنود نابير التى انزلت على البر ، قوات ابراهيم فى موقعة كبيرة نسبيا على مقربة من بيروت . فاضطر المصريون الى اخلاء المناطق الجبلية من لبنان والجلاء عن الساحل . واصبحت بيروت واللاذقية والاسكندرونة فى ايدى المتدخلين . واستسلم الامير بشير الثانى ـ حليف محمد على ، الى الانكليز الذين ارسلوه الى مالطة . وعين بشير الثالث ـ بن خال بشير الثانى ، اميرا جديدا للبنان ، وحارب آنذاك بشير الثالث الى جانب الانكليز .

وفى ٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٤٠ ، سقطت عكا ـ الحصن الرئيسى للمصريين ، بعد قصفها بحرا . واحتلت المدينة وحدة انكليزية صغيرة وشرعت بالتقدم نحو القدس . وقامت فى فلسطين انتفاضات ضد المصريين ، فانتشرت فى الجليل ومناطق نابلس والخليل . وسرعان ما استحوذت المناطق الجنوبية من سوريا والبقاع والجبل الشرقى . واصبحت مقاومة المصريين فيما بعد بدون جدوى .

استسلام محمد على . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٤٠ ، اقترب الاسطول الانكليزى تحت قيادة نابير من الاسكندرية . فقدم نابير انذارا الى محمد على هدّد فيه باطلاق النار على القاعدة الرئيسية للاسطول المصرى .

وكانت انتفاضة السوريين ، وهزيمة الجيش المصرى فى سوريا وفلسطين وموقف فرنسا والخطر ، الذى كان يهدد الاراضى المصرية ، كان كل ذلك قد زعزع عزيمة محمد على الذى ادرك بان مصر لا تستطيع بقواها الخاصة مقاومة الدول الاربع الكبرى ، ولهذا وافق على شروط نابير .

وفى ٢٧ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٤٠ ، وقعت مصر تحت فوهات المدافع الانكليزية على الاتفاقية المقترحة من قبل نابير واضطر محمد على الى الجلاء التام عن سوريا وفلسطين واعادة الاسطول التركى ، لقاء تامين حقوق سلالته الوراثية على مصر .

واصدر محمد على مرسوما بالجلاء الفورى عن سوريا وفلسطين . وفى ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٠ ، غادر

ابراهيم باشا على رأس جيشه دمشق وزحف نحـــو الجنوب . واحتل الانكليز قبيل ذلك الوقت القدس فقطعوا طريق التراجع على الجيش المصرى . فاضطر ابراهيـــم الى التقهقر عبر السهـــوب والصحارى الاردنية ولم يصل غزة من عداد الستين ألـــف جندى مصرى ، الذين كانوا قد شنّوا هذه الحملة المضنية المفجعـة ، سوى ٢٤ ألف جندى . وهلك الآخرون فى الطريق من جراء الجوع والعطش والبرد والامراض ونتيجة لهجمات الانصار عليهم .

وتم تسوية القضيـــة المصريـــة فى اول حزيران (يونيو) ١٨٤١ باصدار «خطّ شريف» اى مرسوم سلطـــانى خاص ، وذلك بعد مفاوضات طويلـــة بين الدول . واحتفظ محمد على ضمن ممتلكاته الوراثية ــ بمصر والسودان . الا انه اعاد الى السلطان جميع الاراضى الباقيـة اى سوريـا وفلسطين وكيليكيـا والجزيرة العربية وكريت . وقلص جيشه حتى بلغ ١٨ ألف جندى . وحرم من حق تعيين الجنرالات فى جيشه ومن حق بناء السفن الحربية . واعاد الى تركيا كل اسطولها الحربى . واعترف بانـــه تابـــع للسلطان . وتعهد بدفع جزية كبيرة الى خزينته .

وبعد تحطيـــم الجيش والاسطول المصرى ، اضعفت الدول الاوربية حسب تعبيـــر كارل ماركس ، الشخص الوحيـــد ، الذى كان بمقدوره تحويل تركيـــا من «العمامة المفتخرة» الى رأس حى حقيقى* . وانزلت ضربة قاضية ببرامـــج الاستقلال المصرى واعدت العدة لتحويـل مصر الى مستعمرة انكليزيـــة ، وازدادت تبعية مصر شكليا الى الباب العالى ، الذى فقـــد مع ذلك مصر فعلا عام ١٨٤١ حينما وقعت برمتها تحت النفوذ الانكليزى .

---

* راجع ك . ماركس ، التعقدات الروسية-التركية .ــ خداع ومراوغات الوزارة البريطانية .ــ آخر مذكرة نسلروده .ــ مسالة الهند الشرقية ، ــ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانيـة ، المجلد ٩ ، ص ٢٠٢ .

ومنذ ذلك الحين ، «تبعت مصر» ، كما قال ماركس وانجلس ، «للانكليز اكثر من اي جهة اخرى *» .

وعندما وضعت انكلترا وادى النيل تحت سيطرتها ، وطّدت فى الوقت ذاته ، اقدامها فى الدردنيل . وبالحاح منها ، لم تجدد معاهدة هنكار اسكلسى ، التى كان قد انتهى مفعولها عام ١٨٤١ . وعوضا عنها ، وقعت خمس دول اوربية وتركيا فى لندن بتاريخ ١٣ تموز (يوليو) عام ١٨٤١ ، على اتفاقية جديدة حول المضايق . وبموجب هذه الاتفاقية ، اقفل البوسفور والدردنيل بوجه السفن الحربية الاجنبية بما فيها الروسية .

---

* ك . ماركس وف . انجس ، السياسة البريطانية . ـ دزرائيلى . ـ المهاجرون . ـ مازينى فى لندن . ـ تركيا ، ـ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٩ ، ص ٥ .

الفصل التاسع

لبنان وسوريا وفلسطين فى عهد التنظيمات (١٨٤٠ــ١٨٧٠)

جو البلدان العربية الى السوق الرأسمالية العالمية . دشّن التدخل الانكليزى واستسلام محمد على عام ١٨٤٠ بداية عهد جديد فى تاريخ البلدان العربية هو عهد تغلغل الرأسمال الاجنبى المتزايد فيها . يمكن اعتبار هذا العهد فاتحة الاستعباد الاستعمارى للبلدان العربية وعهد تبعيتها الاقتصادية . وكانت النتيجة المنطقية لهذا العهد ، تحويل البلدان العربية الى مستعمرات . وقد حصل هذا فى المرحلة التاريخية التالية ــ اى فى عهد تكوين وسيطرة الرأسمال الاحتكارى .

وفتح تشميل المعاهدة التجارية ، المعقودة بين انكلترا وتركيا عام ١٨٣٨ ، على مصر وسوريا امكانية كبيرة لدخول بضائع بريطانيا والدول الرأسمالية الاخرى فى اسواق الاقطار العربية . وازداد استيراد البضائع الانكليزية وحدها الى الامبراطورية العثمانية بين الاعوام ١٨٤٠ــ١٨٥٠ حوالى ثلاث مرات ، اى (من ١٤٤٠ الى ٣٧٦٢ الف جنيه استرلينى) . وادّى الاستيراد المتزايد للبضائع الاوربية الى انهيار المراكز الصناعية القديمة وتخريب الحرف والصنائع المنزلية ، كما اعاق تطور المعامل اليدوية (المانيفاتورة) الوطنية والانتاج الصناعى ، التى لم تستطع مقاومة مزاحمة الانتاج المصنعى الاوربى .

والى جانب هذا ، ادى تطور التجارة الخارجية الى نمو المدن التجارية ، والى توطيد البرجوازية الكومبرادورية . ونشّط هذا

التطور توسيع طرق المواصلات (كفتح قناة السويس وانشاء مرفأ الاسكندرية وشق طريق بيروت — دمشق) .

وتحت ضغط الرأسمال الاجنبى اتخذت الزراعة فى الاقطار العربية سمة الانتاج البضائعى . اذ اختصت أكثر فأكثر فى انتاج المحاصيل البضائعية القليلة العدد : كالقطن وقصب السكر فى مصر ، والقطن والحبوب والصوف فى سوريا وفلسطين ، وخامات الحرير فى لبنان . ومع هذا لم يكن نشوء الاقتصاد البضائعى مصحوبا هنا بتطور الاقتصاد الرأسمالى . اذ وقع الفلاح فى حالة تبعية للسوق الرأسمالية العالمية ، محافظا فى الوقت ذاته على تبعيته للاقطاعى .

وتم انضمام الاقطار العربية الى السوق الرأسمالية العالمية على اساس تحويلها الى ملحق يزوّد الصناعة الاوربية بالخامات الزراعية . اما العلاقات الاقتصادية فانشئت على اساس التبادل غير المتكافئ ، وكانت بحدّ ذاتها مظهرا لاستغلال الاقطار العربية من جانب الرأسمال الصناعى .

وبدأ الرأسمال الاجنبى باستعباد الاقطار العربية منذ .. ١٨٥٦ عن طريق تصدير الرساميل : وبالدرجة الاولى توظيفها فى قروض ، منحت الى مصر وتركيا ، وفى انشاء طرق المواصلات .

بيان قصر الكلخانة السلطانى (خط شريف) . وظهرت فى هذه المدة ايضا بوادر جديدة فى تركيا نفسها . اذ نشأت فئة صغيرة للغاية آنئذ من البرجوازية الوطنية التى كانت تتسم بطابع تجارى فى الغالب . وجرت عملية تفسخ العلاقات الاقطاعية فى الريف . وترعرعت الحركة التحررية الوطنية فى الاقاليم البلقانية المستعبدة من قبل الاتراك ، حيث بدأ تطور العلاقات الرأسمالية فيها قبل حدوثه فى تركيا نفسها . وقد انفصلت اليونان وصربيا فعلا عن الامبراطورية العثمانية . ولتلافى انهيار الامبراطورية التام وتدهور حكم السلطان ، اعدّ ممثلو الاوساط البيروقراطية-الاقطاعية الاكثر فطنة ، برنامج اصلاحات مقبلة . اذ ادركوا بأن الاصلاحات التى قام بها محمود الثانى كانت غير كافية لانقاذ الامبراطورية ، وان من الضرورى تحقيق تحويلات حاسمة .

وكان المبادر لاتخاذ الاصلاحات الجديدة رشيد باشا — وزير

الشؤون الخارجية ذو التفكير الحر و «النزعة الغربيــــة» . وكان برنامجه متواضعا الى درجة ما . اذ لم يمسّ اسس اسلوب الانتاج الاقطاعى ، وحافظ تماما على سلطة السلطان المطلقة . ومن الناحية الاجتمــاعيـة يمكن اعتبــار البرنامــج كمحــاولــة للتوفيــق بين السلطنة الاقطاعية ذات الطابع الدينى التى ولى زمانها من جهة وبين البرجوازية التجارية النامية والملاكين الاحرار من جهــة اخرى . ولذلك فالبرنامج الذى انبثق من مصالح الطبقة الحاكمــة كليــة ، يعكس الى درجة معينة مطامع العناصر البرجوازية فى تركيا .

وتبين للباب العالى بعد ان هزمت قوات محمد على الاتراك بانه لا يجوز تأجيل الاصلاحات أكثر من ذلك . وفى ٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٣٩ ، اى بعد مضى ٤ اشهر على معركــة نصيبين ووفاة محمود الثانى ، دعا السلطــــان الجديــد عبــد المجيــد (١٨٣٩-١٨٦١) وجهــاء القــوم والسفــراء الاجــانــب وممثلى التجار للاجتماع فى قصره ، اى قصر الزهور (الكلخانة) . وقرئ امام المجتمعين البيان الذى اطلق عليه اسم «خط الكلخانة الشريف» والذى احتوى على برنامــج الاصلاحات . وسميــت الاصلاحات الواردة فى «الخط الشريف» بـ «التنظيمات الخيرية» («الاصلاحات الخيرية») . ومن هنا اطلق اسم التنظيمــــات على مجموع عهد التحويلات فى تاريخ الامبراطورية العثمانية .

وجاء فى البيان نصًا : «يعلم العالم كله بأن التعاليم القرآنية الجليلة وقوانين الامبراطورية كانت قواعد محترمــة فى السنوات الاولى من عمر الامبراطورية العثمانية وبهذا تزايدت قوة وسطوة الدولة وتمتع جميع رعاياها دون استثناء باقصى الرفاه والنعيم» .

فكانــت الاصلاحات ، التى املتهــا باصرار ظروف الحيــاة الاجتماعية والاقتصادية الجديدة ، قد صوّرت فى «الخط الشريف» كبعث لقوانين ودساتير الامبراطورية العثمانية القديمة ، او عودة الى «عهدها الذهبى» . وجاء فى البيان ايضا انّه : «فى خلال المئة والخمسين سنة الاخيرة كفّ الناس ، تحت تاثيرات عوامل واحداث مختلفة ، عن التمسك بالقوانين المقدســة والقواعد المنبثقــة منها ـ فحلّ الوهن والاملاق فى الامبراطورية محل القوة والرخاء» .

ولذا تعهّد البيان «بايصال خيرات الادارة الجديدة الى كافة المناطق ، التى تتكون منها الامبراطورية وذلك بواسطة المصالح الجديدة» .

وكان من المقرر ان تؤمن المصالح الجديدة تحقيق المهمات التالية :

١ . ان تصون كليا حياة وشرف وممتلكات الرعايا بغض النظر عن معتقداتهم الدينية .

٢ . ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب .

٣ . ضمان طريقة صحيحة للجندية مع تحديد امدها .

وكانت تتسم باهمية كبيرة مسالة صيانة حرمة الشخص والممتلكات فى الامبراطورية العثمانية ، حيث لا شىء كان يحمى حياة الفرد من سلطة الطغاة والباشوات التعسفية . وتعهد بيان الكلخانة بايجاد الظروف للتملك البرجوازى . ومنح هذا الضمان لكافة الرعايا بغض النظر عن اديانهم . وكان لذلك اهمية بالغة اذكانت البرجوازية فى الامبراطورية تنتسب الى قومية اخرى وتدين بالديانة المسيحية المضطهدة ، كالارمن واليونانيين فى تركيا نفسها ، والارمن والعرب المسيحيين فى سوريا ، والموارنة فى لبنان ، والاقباط فى مصر وغير ذلك .

ونصّ البيان على تدابير عملية من شانها ضمان حرمة الشخص والممتلكات ولا سيما اجراء المحاكمات * علنا ؛ وتحريم مصادرة ممتلكات الجناة ** ؛ وتشكيل مجلس استشارى لسن القوانين الجديدة .

ورسم البيان خطوطا عامة بخصوص ضبط النظام الضرائبى

---

* «ولهذا فسيحاكم كل متهم علنا وفق شريعتنا الالهية ، وبعد انتهاء التحقيق والاستنتاج وحتى قبل اصدار حكم صحيح لا يحق لاى احد ان يقتل آخر سرا ام علنا بدس السم له او باية وسيلة اخرى» .

** «سيحوز كل شخص على ما شاء من الممتلكات الخاصة ، ويتصرف بها بحرية تامة دون عائق اى كان ؛ ومثلا سوف لا يحرم ورثة الجناة من حقوقهم الشرعية ولا تصادر ممتلكات الجانى» .

لتحديد مقدار الضرائب ووضع ميزانية ثابتة ، والغاء التزام جباية الاتاوات ونظام بيع الوظائف ، الذى آل الى مثل هذه الابتزازات كالالتزامات .

وفى الميدان العسكرى ، رسمت خطوط عامة لادخال التجنيد العسكرى العام والدعوة الى الجندية بانتظام ، وتخفيض مدة الخدمة العسكرية الى ٤ او ٥ سنوات وتحديد عدد من يدعون الى الجندية من الاقاليم بنسبة عدد السكان .

الاصلاحات فى الفترة الاولى من التنظيمات . واجه بيان كلخانة السلطانى رغم اعتداله وانصاف حلوله ، مقاومة عنيفة من جانب الاقطاعيين الاشد رجعية وكبار الموظفين وممثلى رجال الدين . ولم يتحرج السلطان عبد المجيد نفسه من ابداء استيائه من الاصلاحات المرسومة ، اذ انه كان قد وقّع على البيان مكرها . وكان هذا «المصلح رغم انفه» يعتبر التنظيمات دوما كتنازلات وافق عليها خلافا لادارته . وحالما كانت تتاح له الفرصة ، كان يعمل كلّ ما فى وسعه لعرقلة تنفيذها . ولهذا اصبحت حبرا على ورق اغلبية الاصلاحات ، وحتى اكثرها تواضعا سواء ما ادرج منها فى البيان ام ما اقر فيما بعد .

ومع ذلك ادت سياسة التنظيمات الى بعض النتائج . اذ كانت اجريت قبل كل شيء محاولات تقسيم السلطة وفصل الادارة المدنية عن العسكرية ووضع مرافعات اصولية قانونية جديدة . وادخل التجنيد العسكرى العام فى الامبراطورية ، وفق قانون سنة ١٨٤٣ ، وحددت مدة الخدمة العسكرية بخمس سنوات . واعيد تنظيم الجيش جذريا . وقد اعيد تنظيم وحدات المشاة والخيالة على النسق الفرنسى ، والمدفعية على النسق الالمانى . واصبح الجيش التركى مكونا من ٦ فيالق ، رابط فيلقان منها فى شبه جزيرة البلقان وفيلقان فى آسيا الصغرى وفيلق خامس فى سوريا وفلسطين (ومركزه القيادى فى دمشق) وسادس فى العراق (ومركزه القيادى فى بغداد) .

وفى عام ١٨٤٠ ، شرع السلطان فى اصلاح القضاء ، الذى استغرق سنوات عديدة . وهيأت خلال جميع فترة التنظيمات

تشريعات جنائية ، وتجارية ومدنيـــة جديدة ووضعـــت اسس جديدة للنظام القضائى .

كما قام محمود الثانى بمحاولة لتنظيم جبايـــة الضرائب . ففى عام ١٨٣٨ عيّن رواتب ثابتة للموظفين والغى بعد ذلك جملة من الاحتكارات الحكومية ، التى استخدمت كذريعة للقيام بالكثير من الاعمال التعسفية . والغى عام ١٨٤٠ نظام التزام الضرائب ، ولم تعد جبايتها من اختصاص باشوات الاقاليم بل عهدت الى جباة خصوصيين خاضعين مباشرة الى المصلحة المالية المركزية .

ولم يتحقق هذا الاجراء فى الواقع الا فى المدن . اذ فشلت محاولة الغاء التزام الضرائب الزراعية ومارس الملتزمون المتسلطون اعمالهم كالسابق فى هذا المجال .

وكانت الاصلاحات الادارية ، التى تمسّ فصل السلطة المدنية عن العسكرية ، قد حددت بوضوح واجبات الولاة والقائمقامين ، الذين يديرون الولايات والسناجق . واصبحوا موظفين يمكن تغييرهم ومنحوا سلطة مدنية صرفة . وتحولت الايالات ، التى كانت سابقا اقطاعيات موروثة للباشوات ، الى اجزاء من كيان دولة موحدة . وجرى تخصص المصالح الحكومية وانشئت هيئات استشارية او مجالس ادارية خاضعة للولاة مكونـــة من ممثلى البيروقراطيـــة ورجال الدين والملاكين والتجار . وصارت جباية الضرائب وتمويل الولاية من اختصاص موظف خاص مستقـــل عن الوالى اسمـــه الدفتردار . وخضع اليه المحصلون ، الذيـــن يترأسون مصلحـــة الضرائب فى السنجق وهم مستقلون عن القائمقام .

وفى عهد التنظيمات ازداد الاهتمام بتطوير التعليم . وصدر فى عام ١٨٤٥ قانون نادى بمبدأ التعليم المجانى والاجبارى . وقد ادّى هذا القانون الى نتائج ايجابية معروفة ، رغم انه بقى كغيره من القوانين حبرا على ورق . اذ وضعت المدارس الملحقة بالمساجد تحت مراقبة الدولة ، وانشئت المدارس الثانوية العلمانية ، حيث كان يدرّس التاريخ والجغرافية ومبادئ الحساب . وتأسست فى استانبول مدارس خاصة ، اعدت الاطباء والتكنيكيين والحقوقيين والضباط . وأنشئت وزارة المعارف عام ١٨٤٧ .

وفى عام ١٨٤٥ ايضا ، اجريت محاولة فى كل ايالة لتكوين لجان خاصة «للبحث عن اسباب التدهور الزراعى» . وعهد الى هذه اللجان بمناقشة المسائل التى تتعلق بالزراعة : كضريبة الارض وانشاء الطرق والرى . الا ان اعمالها منيت بالفشل ، اذ بقى مصونا الاساس الذى تتولد منه «اسباب التدهور الزراعى» ، اى النظام الاقطاعى .

وهكذا فان الاصلاحات ، التى اجريت فى فترة التنظيمات الاولى (١٨٣٩-١٨٥٦) فتحت منفذا لتطوير العناصر البرجوازية فى البلاد . الا انها كانت ، كما هو واضح ، غير كافية لتجديد النظام الاجتماعى فيها . اذ لم تقض على نمط الانتاج الاقطاعى ولا على الدولة الاقطاعية ، كما لم تهيأ الظروف اللازمة لتطوير الصناعة الرأسمالية الوطنية ، ولصدّ الغزو الاقتصادى للرأسمال الاجنبى . ومنحت هذه الاصلاحات بعض الحقوق الشخصية للبرجوازية ، الا انها لم تعطها حقوقا سياسية . اذ بقيت جميع السلطة فى الامبراطورية كالسابق ، فى قبضة البيروقراطية السلطانية القديمة .

الاصلاحات فى سوريا وفلسطين . عادت سوريا وفلسطين الى سلطة الاتراك بعد ان غادرتها قوات محمد على . وشرع الباب العالى مباشرة بتنظيم ادارة هذين الاقليمين النائيين عن المركز . ورغم معارضة الرجعية ، قامت الحكومة بتطبيق القوانين الجديدة بصورة تدريجية . وعلى غرار بقية اقسام الامبراطورية ، حُرم ولاة الايالات السورية من الصلاحيات المالية والعسكرية . اذ عين موظفون خصوصيون للمالية ، اى الدفتردار والمحصلون ، الذين كانوا يخضعون مباشرة الى وزارة المالية . الا انه احتفظ فى الواقع بنظام الالتزام . وبعد اجراء الاصلاح العسكرى فى سوريا ، حشد فيها فيلق من الجيش النظامى الجديد - اى «عربستان اردوسى» ، الذى كان مستقلا عن السلطة المدنية . وكان يقود الفيلق المشير ، الذى كان يخضع مباشرة الى وزارة الحربية .

وادخلت فى عام ١٨٤١ تقسيمات جديدة فى سوريا : اذ ادمجت ولايتا صيدا وطرابلس فى ايالة واحدة ونقل مركزها الى

بيروت . وجزئت فلسطين الى سنجق القدس الخاص ، الذى كان تحت اشراف والى بيروت .

ولم تبدل هذه التغييرات الادارية الطفيفة نسبيا من جوهر النظام الاقطاعى ، الذى كان سائدا فى سوريا . ومع ذلك ، فانها ادّت الى خلق اوهام معينة بين الفلاحين ، الذين ظنوها كفيلة بتحريرهم . وقوّت الانتفاضات ضد السيطرة المصرية والمساهمة الفعالة فى طرد الجيش المصرى من الحدود السورية والفلسطينية الثقة لدى السوريين بقوتهم . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان انبعاث السلطة التركية لم يخفف الاعباء عن الشعب السورى . وخلقت جميع هذه الاوضاع ممهدات لنهوض جديد فى النضال التحررى . وحدثت فى البلاد جملة من الانتفاضات ضد الاقطاعية ، اهمها انتفاضة حلب عام ١٨٥٠ وانتفاضة حوران سنة ١٨٥٢ ـ ١٨٥٣ .

تصفية الامارة اللبنانية . بلغت الحركة ضد الاقطاعيين فى لبنان اقصى درجات التوتر . اذ عاد الدروز الاقطاعيون الكبار الى لبنان بعد عزل الامير بشير الثانى عام ١٨٤٠ واصبحوا يتطلعون الى استعادة اقطاعياتهم وامتيازاتهم السياسية السابقة . فابدى الفلاحون الموارنة من جانبهم ، مقاومة للدروز ، فانهم كانوا قد حلوا فى اراضى الدروز خلال حكم الامير بشير الثانى . فنشب على هذا الاساس صراع اثار جملة من التناقضات المعقدة والعويصة . واضيفت الى التناقضات الطبقية الحقيقية ، التى كانت قد تعقدت بحد ذاتها من جراء الاختلافات الدينية بين الدروز والموارنة ، المزاحمة بين انكلترا وفرنسا . وكانت هاتان الدولتان تعوّلان على تقوية التناحر القائم بين الفئتين السياسيتين الدينيتين المتضاربتين . فساندت انكلترا الدروز ، وناصرت فرنسا الموارنة من جانبها .

وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤١ ، قام الاقطاعيون الدروز الذين سلّحتهم انكلترا ، بانتفاضة ضد الامير بشير الثالث ـ ابن خال بشير الثانى ، الذى كان قد عينه الباب العالى فى منصبه . وفاز الاقطاعيون بتوريط الفلاحين الدروز التابعين لهم فى هذه الانتفاضة . فحاصر الثوار قصر الامير . واقتحموا القرى

المارونية وابادوا ساكنيها وحرقوا البيوت واستولوا على الاراضي والبساتين . ونظّم الموارنة من جانبهم ، فصائل للدفاع عن انفسهم وصدوا بنجاح بين آونة واخرى هجوم الدروز . وتوغلت بعض فصائل الموارنة في القرى الدرزية وقامت بدورها بمذابح فيها . واستمرت اعمال الابادة المتبادلة هذه لمدة ٦ اسابيع . وقد انتصر الدروز في النهاية واستولوا على جنوبي لبنان .

فاستغلّ الباب العالي هذا النزاع الداخلي وأرسل قواته الى لبنان . فعزل الامير بشير الثالث واعتقل وارسل الى استانبول . وتحولت امارة لبنان الى ولاية تركية عادية . وعيّن الجنرال عمر باشا التركي واليا عليه .

وشرع عمر باشا بالتنكيل بالاقطاعيين الدروز ، الذين اعاقوه من ممارسة سياسة المركزة . وفي آذار (مارس) ١٨٤٢ ، دعا الى قصره في بيت الدين ثمانية من شيوخ الدروز فوقفهم وارسلهم تحت حراسة شديدة الى بيروت . وبعد توقيفهم عاد الموارنة ، الذين هربوا من جنوبي لبنان اثناء مذبحة عام ١٨٤١ الى قراهم والى اراضيهم وبساتينهم .

وأثارت اعمال الاتراك استياء الدول التي كانت تسعى الى تعزيز مراكزها في الشرق . فعارضت بشدة الحكم التركي المباشر وطالبت باعادة الحكم الذاتي في لبنان . واصرّت فرنسا على اعادة بشير الثاني (الشهابي) الى لبنان وهي تساند الموارنة . ولدعم مساعيها ارسلت اسطولها الى بيروت . ووقفت انكلترا الى جانب الاقطاعيين الدروز ، الذين حاربوا ضد الشهابيين .

وتحت ضغط الدول ، أجرى الباب العالي استفتاء عاما في لبنان في صيف ١٨٤٢ . وتبين من سير الاستفتاء ان الموارنة كانوا يؤيدون بعث امارة لبنان على ان يحكمها شخص مسيحي من اسرة شهاب . وتظاهر الاقطاعيون الدروز بأنهم خضعوا الى الباب العالي وصوتوا اثناء الاستفتاء من اجل الحكم التركي المباشر . ومع ذلك ، انتفضوا مرة ثانية في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٢ مطالبين باطلاق سراح الشيوخ الموقفين واستقالة عمر باشا . الا انهم

منيوا بالفشل مرة اخرى . اذ سحق عمر باشا فصائل الدروز وحرق قصر آل جنبلاط .

ومع ذلك ، اضطر الباب العالى عام ١٨٤٣ الى الامتناع عن حكم لبنان بصورة مباشرة . ووافق تحت ضغط الدول على تسليم حكم لبنان الى ايدى قائمقامين من بين الاقطاعيين المحليين . وعين قائمقام مسيحى على الموارنة ودرزى على الدروز وأبعد الشهابيون عن السلطة الى الابد . فزاد هذا «الحل» من ارباك المشكلة اللبنانية ، واضرام اوار المذابح بين الدروز والموارنة . وبحق وصف احد الباشوات لاتراك هذا الحل بانه «حرب اهلية منظمة» .

المذبحة بين الدروز والموارنة عام ١٨٤٥ . لم يكن سكان المناطق المختلفة من لبنان متجانسين من الناحية الدينية . ففى القسم الشمالى ــ اى فى كسروان ، كان كل السكان تقريبا من الموارنة . وفى القسم الوسطى ــ اى فى المتن ، كان يشكل الموارنة الاكثرية الساحقة ، رغم ان القرى الدرزية كانت مبعثرة هنا وهناك . وفى القسم الجنوبى ــ اى فى الشوف ، كان السكان الفلاحون خليطا من دروز وموارنة . اما الاقطاعيون ، الذين كانوا يدّعون بالسلطة فى الشوف فهم من الدروز . وبتوزيع الوظائف بين قائمقامين ، وقعت كسروان تحت سلطة قائمقام مارونى وأعلنت المناطق الباقية كمناطق «مختلطة» .

ونشات مشادة جديدة بين الموارنة والدروز بسبب المناطق المختلطة . اذ اعتبر مسيحيو المناطق المختلطة ، الذين كانوا يسعون الى الاحتفاظ باراضيهم ، بانهم يجب ان يخضعوا بصورة مباشرة الى قائمقام مسيحى وبالعكس ، أكد الاقطاعيون الدروز بانه لا يمكن قيام سلطتين فى منطقة واحدة وبان موارنة مناطق الشوف المختلطة يجب ان يخضعوا الى قائمقام درزى . فآلت هذه المخاصمات فى نهاية المطاف الى اتخاذ اقتراح وسطى من قبل القنصل الفرنسى فى ايلول (سبتمبر) عام ١٨٤٤ ، وقد وسّع هذا الاقتراح «الحرب الاهلية المنظمة» . اذ عين فى كل قرية من القرى المختلطة السكان ، عمدتان او وكيلان : وكيل للمسيحيين وآخر للدروز . وخضع موارنة الشوف الى القائمقام الدرزى ، الا انه كان

بوسعهم تقديم الشكوى ضد اعماله الى القائمقام المسيحى بواسطة وكيلهم .

وبعد تسليم جنوبى لبنان الى قائمقام درزى عـــاد شيوخ الدروز الى اقطاعياتهم السابقة . وصار الفلاحون الموارنة يتأهبون للانتفاضة . فانهار الغلاف الدينى بسرعة واتخذت الانتفاضة طابعا طبقيا واضح المعالم . وخلافـا لانتفاضـة عام ١٨٤٠ـ١٨٤١ ، عندما قاتل الفلاحون الموارنة تحت قيادة الشيـوخ الاقطاعيين والقسس ، تميزت فصائل الثوار عندئذ بطـابـع فلاحى بحت . وكتب شاهد عيان للاحداث قائلا : «اصبح المسيحيون يؤلفـون فصائل المتطوعين الشعبيين مع رؤسائها وغيرهم . الا انه لم يتجاسر اى شيخ او امير قيادة المتطوعين» .

وقادت الحركة لجنة سرية فى دير القمر ذات فروع فى كافة القرى الكبيرة من جنوبى لبنان . الا ان الفلاحين لم يفقهوا خصائص الصراع الطبقى بصورة جلية . اذ شملوا نقمتهـم ضد الاقطاعيين الدروز على عامة الدروز مما اثار ضدهم الفلاحين الدروز وادّى الى حدوث موجة من المذابح المارونية المعاكسة .

وبدأت الانتفاضـــة فى ايار (مايـو) ١٨٤٥ وعمّت جميع لبنان . ورافقتها اعمال ابادة عامة لكافة الفلاحين الدروز . وكردّ فعل ، شرع هؤلاء الفلاحون بابادة الموارنة . واخليت عشرات من القرى الدرزية والمارونية وأصبحت قاعا صفصفا .

واجبرت الحركة ، التى اتسمت بطابع العداء ضد الاقطاعيين ، السلطة التركية على تغيير سياستها . ورغم ان الباب العالى ، فى كفاحه من اجل مركزة الامبراطورية ، وقف ضد الاقطاعيين الدروز الذين كانوا يسعون الى الاحتفاظ بامتيازاتهم السياسية السابقة ، الا انه كان الحكومة ، التى كانـــت تذود عن مصالـــح طبقـــة الملاكين-الاقطاعيين كاملة . واذ كان الباب العالى قد سحـــق عام ١٨٤١ـ١٨٤٢ تمردات شيوخ الدروز ، المعارضـــة لتوحيـــد الامبراطورية ، فقد ساعد سنة ١٨٤٥ اولئـك الشيوخ الدروز انفسهم على قمع انتفاضة الفلاحين الموارنة ، المناهضـــة للنظـــام الاجتماعى الاقطاعى . وبفضل مساعدة القوات التركيـــة ، كانـــت

الغلبة للدروز . وظلّت السلطة فى جنوبى لبنان فى قبضة قائمقام درزى والاقطاعيات فى قبضة الشيوخ الدروز .

وكنتيجة لذلك ، انتقلت الانتفاضة الى شمالى لبنان ، حيث هبّ الفلاحون الموارنة ضد النبلاء والاساقفة الموارنة من ابناء عقيدتهم .

وقبيل خريف ١٨٤٥ ، كان لبنان قد «اخمد» ونزعت القوات التركية سلاحه . ووضع بمشاركة القناصل الاجانب ، نظام جديد للحكم . وبعدما احتفظ بالنظام المزدوج للسلطة-قائمقامان لكافة المنطقة ووكيلان لكل قرية ، اصرّ القناصل الاجانب على تكوين مجلس ، لدى كل من قائمقامين يكون له وظائف قضائية ويمتلك كذلك حق الاشراف على توزيع وجباية الضرائب . وتقرر ان يتكون هذا المجلس من عشرة اشخاص : اى من مارونييْن ، ودرزييْن ، وسنييْن ، واثنين من الروم الارثوذكس ، واثنين من الروم الكاثوليك . ولم يقض هذا القرار على التناقضات الاساسية بين الفلاحين والاقطاعيين . بل وسّع فى الوقت ذاته من تعميق الخلافات الدينية واثار انشقاقات جديدة بين الفئات الدينية المختلفة ، وأعطى ذريعة الى تدخل الدول الاجنبية فى شؤون سوريا الداخلية بصورة دائمة .

نشاط المبشرين . الخطط الانكليزية الرامية الى الاستعمار اليهودى لفلسطين . كان نشاط الارساليات الدينية طريقا آخر للتغلغل الاجنبى فى الشرق العربى . وبعد ان خفّت قوة نشاط هذه الارساليات فى مستهل القرن التاسع عشر ، اشتد ثانية فى الاربعينيات . اذ فتح المبشرون المدارس والمؤسسات فى سوريا وفلسطين ، ناشرين بحماس التعاليم المسيحية بالاضافة الى بسط نفوذ الدولة التى ينتسبون اليها .

وكانت الارساليات الكاثوليكية للعازاريين والجزويت فى الشرق من الاولين وأكثر نشاطا . وكانت اعمال المبشرين الكاثوليك تدار من قبل الفاتيكان وتحظى باسناد فعّال من قبل فرنسا . وافتتحت هذه الارساليات الكاثوليكية شبكة واسعة من المدارس والمعاهد الدينية . وفى عام ١٨٤٦ بعث البابا نظام بطركية القدس

اللاتينية ، الذى كان قائما فى وقت من الاوقات فى عهد الصليبيين .
وظهرت فى بيروت عام ١٨٢٠ اول ارسالية امريكية-برزبتيرية . وقبيل عام ١٨٦٠ ، فتحوا أكثر من ٣٠ مدرسة ودار طباعة . وفى ١٨٦٦ فتحوا الكلية البروتستانتية السورية التى اصبحت فيما بعد الجامعة الامريكية .
وفى عام ١٨٤٩ كوّنت روسيا فى القدس ارسالية دينية روسية . ولم يكن لروسيا اى هدف اغتصابى بصورة مباشرة فى سوريا وفلسطين . بل انها سعت عن طريق انشاء الارسالية الدينية ، الى تعزيز نفوذها بين السكان الارثوذكسيين من شبه جزيرة البلقان .
ولم تتقاعس انكلترا عن الركب ، وهى التى كانت تسعى للحصول على اقصى الفوائد من هزيمة محمد على . واقدمت على مخاطرتين فى آن واحد . اذ ساندت البروتستانت وخطط المستعمرين الالمان فى فلسطين . وانشات فى القدس عام ١٨٤١ اسقفية انكليزية-بروسية . ومن جهة اخرى ، شجّعت بريطانيا خطط الاستعمار اليهودى وبدأت تلهم مختلف انواع المشاريع الصهيونية .
وفى منتصف القرن التاسع عشر ، كان عدد السكان اليهود ضئيلا فى فلسطين ، وهو لا يكاد يبلغ الاحد عشر ألف نسمة . وكان الكثيرون منهم زوارا نزحوا الى هناك لاغراض دينية . وفيما يتعلق بالازمة الشرقية للاعوام ١٨٣٩-١٨٤١ ، فان الانكليز قد اخرجوا من محفوظاتهم خطط نابليون الطنانة بشأن انشاء دولة يهودية فى فلسطين . وفى ١٨٣٨ ، قدّم اللورد شفتبيرى ، وبعده غولر والقنصل البريطانى فى القدس جيمس فِنّ ، جملة من المشاريع لاسكان اليهود فى فلسطين وانشاء دولة يهودية فيها تحت الحماية البريطانية . فحظيت هذه الخطط بعطف من قبل بالمرستون ، الذى رأى فيها ضمانا لامن مواصلات الامبراطورية .
كما لقيت سندا من قبل مونتفيورى ، الصيرفى اليهودى-الانكليزى الذى يمتّ بصلة قربى الى أسرة روتشيلد . وقد قام مونتفيورى بزيارة الشرق بضع مرات وانه ابتاع عام ١٨٥٥ بستان برتقال بالقرب من يافا ، الا انه لم يستطع استمالة اى مستوطن يهودى .

كما اخفق مشروع الاسقفية الانكليزية-البروسية .
وانعكست كأنها في مراة ، منافسة الدول في الشرق في مشاجرة لا نهاية لها بين الارساليات الدينية المختلفة . اذ حصلت خلافات ومشاحنات من جراء امتلاك هذا او ذلك «الموضع من المواضع المقدسة» او بسبب تقسيم الارباح الواردة من زوار الاماكن المقدسة او لغيرها من الاسباب . وكانت احدى هذه الخلافات التى تراءت وكأنها طفيفة ، المشادة بشأن ترميم سقف كنيسة القيامة ومفاتيح كنيسة المغارة في بيت لحم . ثم تحوّل هذا الخلاف الى ازمة دولية خطيرة واستخدم كذريعة لاضرام نار الحرب الشرقية خلال الاعوام ١٨٥٣-١٨٥٦ .

ورغم ان تركيا كانت في عداد المنتصرين ومن بين الدول الاوربية الفاتحة ، الا ان نتائج هذه الحرب كانت كارثة على الامبراطورية العثمانية . فلسدّ النفقات الحربية ، عقد الباب العالى عام ١٨٥٤ اول قرض اجنبى ، كان بداية استعباد تركيا ماليا . وفرضت الدول اخيرا ، نوعا من الحماية الجماعية على تركيا وأملت على حكومة السلطان برنامجا جديدا للاصلاحات . وقد «فتح» هذا البرنامج الطريق واسعا لتغلغل الرأسمال الاجنبى في تركيا .

«خط همايون» عام ١٨٥٦ . الفترة الثانية من التنظيمات .

وفي ١٨ شباط (فبراير) ١٨٥٦ أصدر السلطان «بيانا ساميا» جديدا او «خط همايون» ، قبيل عقد الصلح بقليل وتحت ضغط الدول الاوربية . واعادت هذه الوثيقة وثبتت شكليا المبادئ الاساسية الواردة في بيان الكلخانة السلطاني ، مواصلة سياسة التنظيمات . الا ان الامر لم يكن كذلك في الواقع . فخلافا للبيان السلطاني («خط شريف») عام ١٨٣٩ ، اعتبر «خط همايون» عام ١٨٥٦ من قبل الدول كالتزام دولى . وهذا ما ورد في المادة التاسعة من معاهدة صلح باريس ، التى عقدت في ٣٠ آذار (مارس) ١٨٥٦ . وفعلا لم يكن باستطاعة السلطان الغاءه ولا تغييره بدون موافقة الدول . فان البيان الاول حرم الدبلوماسية الاجنبية من اية ذريعة للتدخل في شؤون الامبراطورية العثمانية ، فكان البيان الثانى قبل كل شيء وسيلة لمثل هذا التدخل .

وخلافـــا لبيـــان الكلخانــة السلطـــانى ، ركّز خط همايون ١٨٥٦ ، على التساوى الدينى وعلى المشاريـــع الاقتصاديـة من مختلف الانواع . وكان هذا لصالح الدول الاوربية ، التى طالبت بتوسيع الحقوق والامتيازات لرعاياها ولوكلائها ، الذين كانوا على الاغلب من التجار المسيحيين الارمن واليونانيين .

وقام الباب العالى باولى تنازلاتــه الى الدول اثنـــاء الحرب الشرقية عندما حاول ان يوسّع الخدمة العسكرية لكى تشمـــل المسيحيين . ولهذا السبب الغى الخراج فى ٧ ايار (مايو) سنة ١٨٥٥ . واثــار هذا الاجراء مقـاومـة الرجعيين المسلمين ، الذين استاءوا من السمـــاح « للكافرين » بالالتحاق فى الجيش وبحمـل السلاح . على ان هؤلاء « الكافرين » امتنعوا انفسهم عن الخدمة فى الجيش التركى . وعفا الباب العالى ، فى آخر المطاف المسيحيين من الخدمة العسكرية ، واستبدلها بضريبة خاصـــة تعرف ب « البدل العسكرى » الذى لم يكن فى جوهره الا خراجا ولكن تحت اسم آخر .

وفضلا عن الخراج ، احتفظ فى الامبراطورية العثمانية بالكثير من ضرائب القرون الوسطى ، التى اخذت تزداد من عام لعـام . وان فرض احتكار الدولة على الملح والتبغ زاد عـــام ١٨٦٢ من وطأة مختلف انواع الابتزازات المالية ومن ارتفاع اسعـار هذه البضائع . وتحققت جباية الضرائب كالسابق بواسطة الملتزمين . وفى عام ١٨٥٧ ، اجريت محاولة اخرى ايضا لالغاء نظام الالتزام ، الا انها لم تعمر طويلا .

وفى ٢١ نيسان (ابريل) ١٨٥٨ ، صدر قانون الاراضى ، الذى الغى بصورة شرعية نظام الاقطاعيات العسكريـة وتبعيـــة الفلاحين للتيمارجية السابقين ، وان كان النظام قد صفّى فى الواقع قبل صدور القانون بمدة . ومـع ذلك ، بقى الفلاحون محرومين كالسابق من الارض . اذ لم يمنح قانون ١٨٥٨ الاراضى للفلاحين ، بل اكتفى باعطاء مستأجرى اراضى الدولة حق شرائها والزمهم بدفـــع مبلغ كبير كثمن لها ، ووسّع قانون الاراضى هذا اصناف الاراضى التى اصبحت ملكا خاصا ، وساعد على تطوير الملكية الخاصة للارض وجعلها بضائع متداولة . ومع هذا ، احتفظ القانون بجملة من

القيود المفروضة على استعمال الاراضي ، التي كان من شأنها اعاقة المبادرة الاقتصادية . واخيرا نشر في عام ١٨٦٧ قانون جديد منح الاجانب حق حيازة وامتلاك الارض في الامبراطورية العثمانية .

وبالاضافة الى تشريع الاراضي ، والقوانين المتعلقة بالبنك العثماني (١٨٥٦) ومنح الامتيازات في المرحلة الثانية من التنظيمات ؛ صدرت قوانين بشأن حقوق واوضاع الطوائف الدينية وحول الجنسية العثمانية (١٨٦٩) واعدّت القوانين الجنائية والمدنية وقانون تحويل الوقف لاغراض دنيوية (١٨٧٣) ، الذي بقي برمته مع هذا حبرا على ورق . وفي ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٤ ، صدر قانون الولايات الذي ادخل اقساما ادارية جديدة في الامبراطورية واعاد تنظيم الادارة المحلية .

وبصورة عامة ، اضعفت اصلاحات المرحلة الثانية من التنظيمات الباب العالي ويسرّت تغلغل الرأسمال الاجنبي . اذ حصل الرأسماليون الاوربيون على امتيازات في البنوك والسكك الحديدية وامتيازات اخرى ، وعلى حق ابتياع الاراضي وما شابه ذلك . وهكذا ساعد «خط همايون» ١٨٥٦ والقوانين التالية له على تحويل الامبراطورية العثمانية الى شبه مستعمرة للدول الرأسمالية الاوربية . كما فتح «خط همايون» ١٨٥٦ المرحلة الثانية من التنظيمات ــ اى مرحلة نهب واستعباد تركيا وممتلكاتها العربية من قبل الرأسمال الاجنبي .

الانتفاضة الفلاحية في كسروان (١٨٥٩ــ١٨٦٠) . وسرعان مابدأت في سوريا ازمة جديدة بعد صدور «بيان ١٨٥٦ السامي» الذي كان العامل المباشر لانفجارها . اذ فسرّه الفلاحون اللبنانيون كوثيقة ، نادت بمساواتهم المدنية وكاشارة الى تحريرهم من الفروض الاقطاعية .

وادّى نمو التجارة الخارجية وازدياد قدرة التسويق الزراعي ما بين العقدين الخامس والسادس من القرن التاسع عشر الى تشديد استغلال الفلاحين اللبنانيين . فنضج الاستياء في القرى . وسجّل الفلاحون الشكاوى بشأن ازدياد ابتزاز الاموال والاعمال التعسفية .

ووحدت جميع الشكاوى فى عريضة واحدة فى بداية عام ١٨٥٨ ، وذلك فى حشد كبير عقد فى قرية الزوق حضره حوالى ٣٠٠ ممثل قدموا من مختلف قرى كسروان (بشمال لبنان) وقد حمل وفد خاص هذه العريضة الى خورشيد باشا والي بيروت . ويتلخّص فحوى مطاليب الفلاحين فى الغاء كافة الفروض الاقطاعية . الا ان الباشا رفض وهو يتظاهر باللطف ، هذه المطاليب رفضا باتا . فبدأ الفلاحون عندئذ بالاستعداد للانتفاضة . واخرجوا الاسلحة من المخابىء التى اخفيت فيها منذ ١٢ عاما مضت واخذوا يشكلون الفصائل الثورية .

وفى كانون الثانى (يناير) ١٨٥٩ أندلعت انتفاضة مسلحة قادها حداد قروى اسمه طانيوس شاهين . واتسمت الانتفاضة بطابع طبقى صرف . اذ طرد الثوار الاقطاعيين الموارنة من كسروان واستولوا على اراضيهم وممتلكاتهم . وشكل الثوار سلطة خاصة مما اضطر الباب العالى الى الاعتراف بطانيوس شاهين كقائمقام .

وأثرت الانتفاضة فى كسروان تأثيرا ثوريا فى سائر اقسام لبنان . وانتشرت الاضطرابات الى مناطق اللاذقية واواسط لبنان وشملت الفلاحين الموارنة فى القائمقامية الدرزية حيث بدأ الفلاحون بالاستعداد لانتفاضة مسلحة ضد الدروز . وساندهم رجال الدين الموارنة مساندة فعالة . فبدأ الاقطاعيون الدروز بدورهم بتسليح فصائل المتطوعين الدروز .

المذبحة المارونية ـ الدرزية ١٨٦٠ . وفى ربيع ١٨٦٠ ، تحولت الانتفاضة الى مذبحة مارونية-درزية جديدة ، مهدت لها الى درجة كبيرة ، التصرفات الاستفزازية التى قام بها القنصل الفرنسى فى بيروت . ونوه كارل ماركس بانه «كان للعملاء الفرنسيين ، الذين كانوا يسعون الى اثارة عراك دينى-سياسى ... على الساحل السورى» * ، ضلع فى الاحداث الدموية فى سوريا .

* ك . ماركس ، الاحداث فى سوريا ـ الجلسة البرلمانية الانكليزية . ـ اوضاع التجارة البريطانية ، ـ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ١٥ ، ص ١٠٢ .

وفى ٢٢ ايار (مـايو) ١٨٦٠ ، اطلق جماعة مؤلفـــة من ١٠ــ١٢ مارونيا النار على فئة من الدروز عند بوابة بيروت ، فقتل درزى وجرح اثنان . وكانت هذه المناوشة الطفيفة كافية لاضرام النيران والمذابح والتدمير المتبادل فى جميع انحاء لبنان . ودمّرت فى غضون ٣ ايام فقط (٢٩ــ٣١ ايار (مايو) ١٨٦٠) ستون قرية فى ضـواحى بيروت . وانتشرت الاضطرابـــات فى حزيران (يونيو) الى المناطق «المختلطة» فى جنوبى لبنان والجبل الشرقى ، وشملت صيدا وحاصبيا وراشيا ودير القمر وزحلة . وحـــاصر الفلاحون الدروز اثناء الاضطرابات الاديرة والارساليات الكاثوليكية وحرقوها وقتلوا الرهبان .

وفى تموز (يوليو) ١٨٦٠ ، وقعت احداث مفجعـــة فى دمشق . اذ نظم المتعصبون من المسلمين مذبحة مسيحية بعلم من السلطات العسكرية وحتى بمساهمـــة الجنود الاتراك . فقتلـــوا المسيحيين واحرقوا الكنائس والمدارس التبشيريـة . واستمرت المذبحة الدموية ثلاثة ايام (٩ــ١١ تموز يوليو) . ولم يُحل دون ابادة كافة المسيحيين الا عبد القادر شخصيا ، الذى كان بطلا شعبيا جزائريا يقيم مبعدا فى دمشق . اذ وقف اثنـــاء المذبحـــة بشجاعة وبسالة مدافعا عن المسيحيين ، ووضـــع قصره تحت تصرف ضحايا التعصب .

وكلّفت احداث عام ١٨٦٠ الدموية السوريين غاليـا . اذ استشهد اثناء المذابح والمجازر ما يربو على ٢٠ الف شخص من المسيحيين وحدهم . ودمـرت ٣٨٠ قرية مسيحية و٥٦٠ كنيسة و ٤٠ ديرا . كما تكبّد الدروز والمسلمون خسائر فادحـــة .

الحملة الفرنسية ١٨٦٠ــ١٨٦١ . اعطت المذابح والمجازر الدرزية-المارونية نابليون الثالث ــ امبراطور فرنسا ، الذريعـــة التى كان ينتظرها منذ مدة طويلة للتدخل فى شؤون سوريا . اذ شعرت الاوساط الحاكمة الفرنسية بانه قد حانت اللحظة المناسبة لتثبيت اقدامها تماما فى سوريا . ولعبت مساعى نابليون الثالث الى تعزيز هيبته «رشأن أكثر الملوك المسيحيين مسيحيـــة» ، ومقتضيات السياسة الخارجية والداخلية دورا حاسما ايضـــا .

فشرع نابليون بحدة فى الدفاع عن المسيحيين السوريين لبلوغ الاهداف المذكورة . وفى تموز (يوليو) ١٨٦٠ اعلن عن نيته فى ارسال قوات الى سوريا .

فاثارت الخطط الفرنسية مخاوف الدول وتركيا .

فاوفد السلطان عبد المجيد الى دمشق واحدا من أكبر موظفى الامبراطورية وهو فؤاد باشا ، بغية الحيلولة دون وقوع الحملة الفرنسية . وبعد ان خُوّل بممارسة الصلاحيات الاستثنائية ، نظّم فؤاد باشا فى دمشق حملة اعدام نموذجية . واعدم بامره رميا بالرصاص ١١١ شخصا وشنق ٥٧ وحكم بالاشغال الشاقة ٣٢٥ وابعد ١٤٥ شخصا آخر . واقتصر فؤاد باشا على انزال العقاب بالمسلمين حصرا ، وذلك سعيا منه لارضاء فرنسا . واعاد الجيش التركى «النظام» بسرعة واوقف المذابح . ومع ذلك واصلت الصحافة البونابرتية ضجتها الصاخبة ، واكّدت بان الاضطهاد الذى يقوم به فؤاد ما هو الا «مهزلة» . وطالبت بمضاعفة الاعدام عشرات المرات وأكثر .

ومن جهة اخرى ، فان انكلترا وروسيا ، اللتين لم تكونا تريدان السماح للفرنسيين بالاستيلاء على سوريا ، اصرّتا على عقد مؤتمر دولى لربط يدى نابليون الثالث . وفى ٥ ايلول (سبتمبر) ١٨٦٠ ، وقعت ست دول ، اى انكلترا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وتركيا على الاتفاقية ، التى قررت بان الفيلق الفرنسى الاحتلالى يجب الا يتجاوز عدده الاثنى عشر الف شخص والا يبقى فى سوريا أكثر من ٦ اشهر . وفضلا عن ذلك ، أوفد الى سوريا مندوبون خصوصيون عن الدول الموقعة على هذه الاتفاقية . فالفوا لجنة لكى تتحرى اسباب الاحداث السورية من مصادرها وتكشف عن المذنبين وتعاقبهم «وتتلافى وقوع احداث مماثلة» عن طريق ايجاد نظام جديد للبنان . واصبح ارسال القوات الفرنسية لا طائل من ورائه بعد اتفاق الدول وتكوين اللجنة الدولية .

ومع ذلك ، نزلت قوات فرنسية فى بيروت فى عشية الاتفاقية نفسها ، اى فى اواخر آب (اغسطس) ١٨٦٠ . وقامت فى ايلول

(سبتمبر) بجولة حربية فى البلد الذى اخمده الاتراك . وبعد ما قام الجنرالات الفرنسيون بهذه «المآثر الحربية» صبّوا جام غضبهم على الفلاحين «المتمردين» فى شمالى لبنان . فاضطر قائد الفلاحين الموارنة الى الفرار الى الجبال . واصبح يوسف كرم قائد الاقطاعيين قائمقاما . فقمع بمعونة الفرنسيين الانتفاضة فى كسروان واعاد الاراضى للشيوخ الموارنة .

وحاول نابليون الثالث تجاهل اتفاقية ٥ ايلول (سبتمبر) ١٨٦٠ وابقاء قواته فى سوريا بحجة ان البلاد ما زالت «غير هادئة» . الا ان انكلترا والنمسا طالبتا بانسحاب القوات الفرنسية الفورى وهددتا بالحرب . وحدّد ، فى النهاية ، اليوم الخامس من حزيران (يونيو) ١٨٦١ آخر موعد للانسحاب . وقبيل ذلك الوقت ، شحن كل جنود فيلق الحملة الفرنسية على ظهر سفن توجهت عائدة الى الوطن . وهكذا فشلت محاولة الاستيلاء على سوريا .

«النظام الاساسى للبنان» . وفى حزيران (يونيو) ١٨٦١ ، اعدت اللجنة الدولية بعد مناقشات طويلة «نظاما اساسيا» جديدا للبنان . وقد اعدّ النظام بشكل اتفاقية وقّعت عليها فى القسطنطينية تركيا والدول فى ٩ حزيران (يوليو) ١٨٦١ . واصبح جبل لبنان (بدون الساحل) منطقة ذات حكم ذاتى يترأسها حاكم مسيحي مستقل عن ولاة بيروت ودمشق ، ويخضع للباب العالى مباشرة . وقد الغى نظام القائمقامين . اما الحاكم (او «المتصرف») فيختاره ويعينه الباب العالى مباشرة . وأسس مجلس ادارى تابع للمتصرف ومؤلف من اثنى عشر شخصا ، وتختار كل من الطوائف الدينية الكبيرة الست القاطنة فى لبنان (المارونية والدروز والسنة والشيعة والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك) ممثلين اثنين عنها الى المجلس . وللمجلس الحق بتوزيع الضرائب والاشراف على جبايتها وصرفها ، وله وظائف استشارية ايضا فيما يتعلّق باية قضية اخرى . وقسّم لبنان الى ٦ مديريات يترأس كل واحدة منها مدير . واشترط ان يكون ثلاثة منهم موارنة ، وواحد درزيا ، وواحد من الروم الارثوذكس ، وواحد

من الروم الكاثوليك . واخضع لهم شيوخ النواحي والقرى والقضاة والكتبة . وحدّد القانون نسبة توزيع هذه المناصب بين الطوائف الدينية المختلفة . وألفت مجالس منطقية تحت ادارة كل مدير . وشكّلت شرطة خاصة بجبل لبنان واقيم نظام قضائى خاص ، واصبح دير القمر مركز المتصرفية . وخوّل المتصرف حقّ تجريد سكان لبنان من السلاح واستدعاء قوات تركية الى المتصرفية . وتعهد لبنان بدفع جزية سنوية الى الباب العالى .

وطبّق النظام الاساسى بصورة تمهيدية لمدة ٣ سنوات . وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٦٤ ، وقّعت الدول الكبرى وتركيا على المعاهدة ، التى صادقت على النظام بوصفه دستورا دائميا وأجرت عليه تعديلات طفيفة . وأنشات منطقة مارونيــة اخرى واعيد تنظيم المجلس الذى كان تحت سلطــة المتصرف فاصبح فيــه من بين ١٢ شخصا : ٤ موارنة ، و٣ دروز ، و٣ اشخاص من الروم الارثوذكس والروم الكاثــوليك ، وسنى واحد . وشيعى واحد . وبقى النظام الاساسى بهذا الشكل حتى عام ١٩١٤ .

الحركة التثقيفية فى الستينيات . بطرس البستانى . آل تطور التجارة الخارجية الى تكّون فئة هامّة نوعا ما من البرجوازية التجارية فى بيروت . ومع ذلك ، فالنير الاقطاعى والعداء المستأصل بين القبائل والزمر الاقطاعيــة وبين الطوائف والفرق الدينيــة العديدة ، اعاق التطور التجارى وتكوين سوق وطنية موحّدة . ولهذا قدمت البرجوازية التجاريــة البيروتيــة المساندة للوحدة السورية ، عددا من الايديولوجيين فى تلك الفترة . ودعا اولئك المفكرون الى التسامح الدينى والى توحيد جميع عرب سوريــا بغض النظر عن معتقداتهم الدينية ونسبهم القبيلى .

وكان أكبر ايديولوجيى البرجوازية السورية فى العقد السابع من القرن التاسع عشر ، بطرس البستانى (١٨١٩ـ١٨٨٣) ، وكان مسيحيا وقد تخرج من المدرسة الدينية المارونية . وكان يجيد لغــات عديدة . وتعرف فى عــام ١٨٤٠ على المبشرين الامريكيين فاعتنق العقيدة البرزبيترية . وفى دعوته الى حب الوطن ووحدة سوريا ، ندّد بالتعصب وعدم التسامح الدينى والنزاعات

والخصومات الدينية والخرافات والانفصالية الاقطاعية وفساد السلطات التركية ، واستعباد المرأة . وكان مثقفا ومعلما وكاتبا اجتماعيا لا يكل . اذ أنشأ فى بيروت اول مدرسة عربية وطنية (١٨٦٣) ونشر باللغة العربية مجلتين اسبوعيتين «نفير سوريا» (١٨٦٠) و«الجنة» ومجلة «الجنان» (١٨٧٠) . فوضعت هذه المجلات لاول مرة فى متناول القراء السوريين القضايا السياسية والثقافية والادبية . وعمل كثيرا من اجل ابداع لغة عربية فصحى جديدة ومن اجل نشر المعارف الاوربية بين العرب المثقفين . فصنّف معجما ضخما باللغة العربية وسبعة اجزاء من الموسوعة العربية (دائرة المعارف) ـ وكانت هذه مخلفاته الادبية . وواصل سليمان البستانى ـ بن خاله ، نشر الموسوعة العربية بعد وفاة بطرس البستانى . وترجم «الالياذة» لهوميروس الى العربية .

وكان ناصيف اليازجى (١٨٠٠ـ١٨٧١) شاعر بلاط بشير الثانى ، أقرب اصدقاء وانصار البستانى . وقد اسهم اليازجى اسهاما كبيرا فى بعث اللغة العربية الفصحى والادب العربى . ووقف ناصيف اليازجى ، وهو مسيحى كبطرس البستانى ، ضد التعصب الدينى ودعا العرب الى الوحدة لكيما يبنون مستقبلا اخويا قائما على اساس تراث مشترك .

وجمع البستانى واليازجى حولهما طلائع المثقفين السوريين لذلك العهد . وفى ١٨٥٧ ، شكّل اتباعهما فى بيروت الجمعية العلمية العربية التى وحّدت اول مرة فى تاريخ سوريا المثقفين العرب بغض النظر عن معتقداتهم الدينية . ومما يجدر الاشارة اليه انه لم يسمح للمبشرين الاجانب بالانتساب الى هذه الجمعية . ومع ذلك ، اقتصر البستانى واليازجى على النشاط التثقيفى واعتبرا التثقيف الوسيلة الوحيدة لمكافحة النظام الاقطاعى .

اما المشاكل السياسية فكانت من نصيب جيل جديد . ففى الاجتماعات السرية الذى كان يعقدها اعضاء الجمعية العلمية العربية ، بعد ان استانفت عام ١٨٦٨ نشاطها الذى كان قد توقف بسبب احداث ١٨٦٠ ، تحوّل النقاش حول البعث الثقافى الى

دعوات حـارة للكفـــاح من اجـــل الاستقلال . وفى احدى هذه الاجتماعات ، تلا ابراهيم اليازجى ، بن ناصيف اليازجى اشعارا وطنية انتشرت بصورة واسعة فى سوريا ولبنان . وغنى ابراهيم اليازجى فى اشعاره هذه مجد العرب التليد وندّد بالتعصب ودعا الى اسقاط النير التركى . وكانت هذه دعوة حماسية لقيام بانتفاضة باسم الوطن العربى . ومن اقوال ابراهيم اليازجى : اهداف سامية لا يتم ادراكها الا بحد السيف ، فـان شئت بلوغهـــا فتش عن السيـــف .

الفصل العاشر

العراق بين ١٨٣١ ـ ١٨٧١ . التنظيمات

الوضع الاقتصادى فى العراق خلال الثلاثينيات والاربعينيات من القرن التاسع عشر . لم يكن العراق ، وهو احد اقاليم الامبراطورية العثمانية الاشد تأخرا ، خاضعا لسلطة محمد على ولم تشمله اصلاحاته . وبقى مستعمرة نائية تابعة لشركة الهند الشرقية . وفى الفترة التى تلت عزل داود باشا (١٨٣١) ، بذل الحكام الاتراك فى العراق كل ما فى وسعهم لتوطيد سلطة الباب العالى فى هذا الاقليم النائى ، من وجهة نظرهم ، وتنفيذ اوامره تنفيذا تاما . وبعد تصفية الباشوات المماليك ، أصبح العراق فى وضع صعب جدا . اذ كان بلدا خربا مصابا بالتدهور الاقتصادى غير المألوف حتى بالنسبة لمثل هذا البلد . فقد اجتاحه الطاعون عام ١٨٣١ وأنزل ضربة قاصمة بقواه الانتاجية . ولم يسلم من اصل سكان بغداد ١٥٠ الف نسمة سوى ٢٠ الف شخص ، ومن أصل سكان البصرة ٨٠ الف نسمة بين ٥ـ٦ آلاف فقط وانقرضت مدن وقرى كثيرة عن بكرة ابيها . وأغلقت الدور وخلّت الحوانيت والمصانع . واهملت الحقول والبساتين . وتقلصت مساحة الاراضى المزروعة وهلكت اشجار الفواكه . وأصيبت التجارة بكساد خطير . وانتعشت بقوى مجددة الفوضى الاقطاعية ، التى عمقت التدهور الاقتصادى .

ولم يكن فى وسع العراق ان يسترجع قواه الا بعد مرور ما يربو على ٢٠ عاما من آثار الطاعون .

انتفاضة الاكراد والحروب القبيلية . اخضع داود باشا فى ايامه بكوات الاكراد وشيوخ العرب . واستطاع السيطرة عليهم .

ودخل فى صراع ضد الباب العالى الا انه وحّد العراق كلــــه تحت سلطته . وكان ولاة بغداد الجدد ، المعينون من قبل الباب العالى ، مذعنين للباب العالى ومنفذين لرغباته . اذ قضوا على آثار استقلال العراق السالف واخضعوه كليا للحكومة المركزية . الا ان سلطتهم فى العراق بالذات كانت وهمية ، اذ لم يكونوا قادرين على التغلب لا على مقاومة القبائل ، التى أحجمت عن دفع الضرائب ولا على مقاومة الاقطاعيين ، الذين رفضوا الاعتراف بسلطة الباشوات . فدخل العراق مجددا فى مرحلة تفسخ اقطاعى . وطغت فيه ثانية ، تمردات قبيلية متواصلة وحروب اقطاعية .

ودار بين قبائل المنتفق وشمر وعنيزة وغيرها القتـــال تارة وعقدت تارة اخرى فيما بينها تحالفا وحاربت ضد والي بغداد . وفى ١٨٣٣ ، حاصر محاربو قبيلة شمر بغداد لمدة ٣ اشهر .

وقام الاقطاعيون الاكراد فى الشمال بانتفاضات متواصلـــة ساندها شاه ايران من جهة ومحمد على ـ باشا مصر ، من جهـــة اخرى . وبذل محمد على جهده لضم العراق الى ممتلكاته اذ سعى الى اتمام توحيد «الامبراطورية العربية» لكى تتوطد فى الطريق التجارى الهام الموصل بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربى . ولبلوغ هذا الهدف كان مستعدا لاسناد اية حركة فى العراق من شانهـــا ان تضعف سلطة الباب العالى . واما الحكومة التركيـــة من جانبهـــا ، فارسلت الى كردستان حملات تنكيلية متواصلة نكلت مرارا بين ١٨٣١ـ١٨٤٢ بالحكام الاكراد المحليين وصفّت عددا من الامارات الكردية . الا ان هذه الانتصارات الجزئيـــة لم تؤد الى اخضـــاع كردستان . وكان يبدو للناظر فى عام ١٨٣٨ وكان المناطق الكردية قد هدأت . الا ان الاكراد ثاروا مجددا فى العام التـــالى ١٨٣٩ ، عندما وصلت انبـــاء انهزام الاتراك بالقرب من نصيبين . وأسند اقتحام القوات الفارسية الى السليمانيـــة عام ١٨٤١ الاقطاعيين الاكراد ، وكاد يؤدى الى حرب تركية جديدة .

وأفلحت الوساطة الروسية ـ الانكليزية فى تسويـــة هذا النزاع سلميا ، ومن ثم فى عقد ما يسمى بمعاهدة ارضروم الثانية فى ٣١ ايار (مايو) ١٨٤٧ ، التى حسمت المسائل المتنازع عليها بشأن

الحدود وزيارة الاماكن المقدسة . ووفقـا لهذه المعاهدة تخلّت ايران عن ادعائها بالسليمانية وبعض المناطق الاخرى . ولقاء ذلك تنازل الباب العالى لايران عن المحمرة التى تعرف حاليا بخرمشهر والساحل الايسر لشط العرب .

وكهزيمة محمد على ، لم تغير التسوية التركية-الفارسية اطلاقا الوضع العام لشؤون كردستان . وكانت محاولات قيام حكم تركى مباشر فى مناطق كردستان تؤدى دوما الى قيام انتفاضات جديدة وجديدة . وفى ١٨٤٣-١٨٤٦ حدثت فى كردستان انتفاضة اخرى . ولم تكد تركيا تتغلب على هذه الانتفاضـات حتى بدأت ، عـام ١٨٤٨-١٨٤٩ اضطرابات جديدة اخرى . وهكذا استمرت الحال من عام لعـام . وكان الاتراك يسجلون فى هذا الصراع المضنى بين آونة واخرى ظفرا عابرا . الا ان سلطتهم فى كردستان بقيت وهمية كالسابق .

التنظيمات فى العراق . كانت الآراء الليبراليـة الجديدة ، التى حمست المصلحين الاتراك ولقيت صدى فى بيان الكلخانة السلطانى ، بطيئة للغاية فى التغلغل فى العراق ، الذى ساده التدهور الاقتصادى والتمردات الاقطاعية والمنازعات القبيلية . وتمتع الباشوات الاتراك فى العراق بسلطة عسكرية ومدنية وقضائية مطلقة ، وحكموا البلاد كالسابق كطغاة اقحاح . ولم يكن للاصلاحات ، التى صوّبت فى مركز الامبراطورية * ، فى بادىء الامر ، اى تأثير فى العراق النائى .

ولم تبدأ بعض التغيرات الا بعد عام ١٨٤٢ ، عندما أخذت تعم العراق اصلاحات تنظيمات الفترة الاولى . الا ان هذه الاصلاحات نفسها التى انجزت فى العراق بصورة متأخرة كانت بعيدة الكمـال وغالبا ما أعطت نتائج معاكسة تماما . وبوجه عام ، لم يطبق القانون الخاص بالتجنيد العسكرى العام على جنوبى العراق حتى ١٨٧٠ . ولم يحدث فصل السلطة العسكرية عن المدنية الا فى ١٨٤٨ ، عندمـا ألف الفيلق السادس للجيش التركى ، ومقره القيـادى فى بغداد . وهكذا فُصلت وظائف الوالي عن واجبـات قائد الفيلق . وجرى فى

* راجع الصفحات ١٤٧ ـ ١٥٣ و ١٥٩ ـ ١٦١ .

الوقت ذاته ، اعادة تنظيم جهاز الدولة . الامر الذى ادى الى بعض المركزية والتخصص فى الدوائر والى الغاء نظام الالتزامات واعطاء القضايا المتعلقة بالضرائب والمالية فى عهدة موظفين خاصين ، والى نمو تدريجى للبيروقراطية التركية الجديدة ، التى كانت قد حصلت على المبادىء الاولى للثقافة الاوربية .

ولم تؤد هذه الاصلاحات فى العراق الى اية حركة اجتماعية ولم تقدم فى الواقع شيئا . وكانت الادارة الجديدة اكثر فسادا ولو اقل استبدادا ، اذ قاست الجماهير الشعبية كالسابق من الابتزازات ومن اساءات الموظفين ، الذين كانوا فى الغالب لا يميزون بين مصالحهم الخاصة ومصالح الدولة .

تطور التجارة وطرق المواصلات . ظلّ اقتصاد العراق لمدة طويلة فى تدهور تام . ولم تحدث بعض التطورات فى اقتصاديات هذا البلد الا فى العقد السابع من القرن التاسع عشر . اذ بدأ العراق قبيل ذلك الوقت بتموين السوق العالمية بالحبوب والتمور وبابتياع البضائع الصناعية الاجنبية . وادّى الاقبال على المنتوجات الزراعية المصدرة من العراق الى انعاش البساتين والحقول والى توسيع المساحات المزروعة وبساتين النخيل . ومن جهة اخرى ، ففى الوقت الذى انجرّ فيه العراق الى السوق العالمية ، انضمت الى التجارة العالمية ايران المجاورة ، ونقل جزء هام من التجارة الخارجية الايرانية بطريق الترانسيت عبر بغداد والبصرة . وساعدت تصفية الجمارك الداخلية فى العراق عام ١٨٦١ على تطور هذه التجارة الى درجة كبيرة .

وادّى نمو التجارة الخارجية والترانسيت الى ضرورة تطوير طرق المواصلات . وفى العقد الرابع من القرن التاسع عشر حاول البحاثة الانكليزى تشسني تنظيم الملاحة فى الفرات ، الا ان مشروعه باء بالفشل ، وذلك لان الطريق الى الهند عبر مصر والبحر الاحمر بدا أكثر فائدة ، وكانت تجارة العراق نفسها غير ذات اهمية الى درجة لم تبرر النفقات لانشاء طريق جديد . وبالعكس ، ادت مقتضيات التجارة النامية فى العقد السابع الى تحوّل فى وسائل المواصلات . فمنذ بداية عام ١٨٦٢ ، انشأت الحكومة التركية

خطوط بواخر منتظمة فى دجلة بين بغداد والبصرة . وفى العام ذاته تألفت شركة لنتش الانجليزية التى انشأت خط ملاحة منتظما ايضا فى هذا الطريق . وكان ثمة طريق مواصلات منتظم بحرى بين البصرة وموانىء الخليج العربى والهند . وفى عام ١٨٦٤ ، كانت بغداد متصلة بخط تلغرافى مع استانبول وطهران والبصرة والهند .

مدحت باشا فى العراق . وعهدت الاصلاحات فى نهاية المطاف فى العراق الى مدحت باشا ــ رجل الدولة التركى البارز . كان مدحت باشا (١٨٢٢ــ١٨٨٣) بطل الحركة الدستورية التركية وواضع الدستور العثمانى لعام ١٨٧٦ . فمنحته الحكومة التركية صلاحية فوق العادة . وعيّن فى عام ١٨٦٩ واليا فى بغداد وقائدا فى الوقت ذاته للفيلق السادس . فحصرت فى يده السلطة المطلقة المدنية والعسكرية فى العراق .

وشرع مدحت باشا حسبما جُبل عليه من همة فى الاصلاحات وفى اعادة تنظيم جميع اوجه الحياة فى العراق . فوجه عناية خاصة الى انشاء طرق المواصلات . ووسّع الملاحة البخارية فى دجلة وانشأ مصلحة الملاحة الحكومية . وبعد فتح قناة السويس ، قام بتنظيم خطوط بخارية بحرية بين البصرة من جهة واستانبول ولندن من جهة اخرى . ووضع تصميما لتوسيع الملاحة صعدا فى دجلة حتى الموصل وصعدا فى الفرات حتى منطقة حلب ، الامر الذى استلزم اجراء حفريات كثيرة . وبمبادرته انشئت دار بناء السفن فى البصرة . وكان فى نية مدحت باشا ايضا تنظيم استخراج النفط فى مقاطعة الموصل وتغطية العراق بشبكة من السكك الحديدية . وعمل بدأب على مشروع «سكة حديد الفرات» ، الا انه نجح فى اتمام خط بغداد ــ الكاظمين فقط ، الذى يبلغ طوله ١٢ كيلومترا والذى كان يسير عليه ترامواى بخارى . وبذل عناية كبيرة لتوسيع المزارع ومساحة الاراضى المزروعة .

وقام مدحت باشا ايضا بجملة من الاصلاحات الادارية والثقافية . وفى عام ١٨٦٤ سن فى تركيا قانون بشأن الولايات فصل السلطة القضائية عن الادارية ، وأنشأ محاكم انتخابية وجذب السكان الى المساهمة فى الادارة المحلية . وقبيل ١٨٦٨ ، نفّذ هذا

القانون فى جميع الاقاليم ما عدا العراق واليمن . فنفذه فى العراق مدحت باشا . اذ كوّن محاكم جديدة وأسس البلديات وفتح مدارس جديدة . وفى عهده صدرت اول جريدة فى بغداد .

واعتبر مدحت باشا مهمته الاساسية اخضاع العراق التام للحكومة المركزية والتصفية الكاملة لانفصالية القبائل والاقطاعيين . وأدخل فى العراق الخدمة العسكرية وطلب من القبائل تقديم المجندين . وفرض الضرائب على القبائل وطالبها بدفعها باطراد . وادت سياسة مدحت باشا هذه الى وقوع انتفاضة كبيرة فى ١٨٦٩ قامت بها القبائل العربية . الا انها قمعت بدون هوادة .

ومع ذلك ، أدرك مدحت باشا بان الاضطهاد وحده غير كفيل لتحطيم مقاومة القبائل . فقرر ان يجذب الى جانبه رؤساء القبائل الاقطاعيين وان يثير اهتمامهم الى «الاستثمار السلمى» للفلاحين . ولهذه الغاية واقتفاء لاثر عدد من اسلافه ، شجع بجميع الوسائل عملية استيطان القبائل . وبدأ بيع اراضى الدولة الى شيوخ القبائل . وكجزء من تطبيق قانون الاراضى ١٨٥٨ ، اخذ مدحت باشا يبيع اراضى الدولة باثمان بخسة نسبيا الى الاصحاب السابقين «للتيمارات» و«الزعامتات» والتجار وخاصة الى شيوخ القبائل (دون ان يعطيهم — من الوجهة الشكلية — حق الملكية الخاصة المطلق) . وغالبا ما أصبح هؤلاء الاشخاص ملاكين لمساحات شاسعة من الارض ، التى أصبحت تعرف باسم «ميرى الطابو» . وبقيت الدّولة المالك الاعلى لهذه الاراضى الا انها منحت حق الاستغلال الى الاصحاب الجدد على اساس وثائق خاصة («طابو») تسلّم لمالكيها عند ابتياعها .

وكان استيلاء مدحت باشا على الكويت والاحساء (١٨٧١) أكبر اجراءاته الرامية الى توطيد السلطة التركية فى هذه المنطقة . اذ كانت هاتان المقاطعتان قد ضمتا الى وحدة ادارية خاصة (سنجق نجد) ، الذى كان تابعا للحكام الاتراك فى العراق .

على ان فتح الاحساء وتنكيل مدحت باشا الضارى بالبدو المتمردين هما من الامور التى تشير الى ان طلائع ممثلى الطبقة الحاكمة التركية فى البلدان العربية تصرفوا بانفسهم كخانقين

للحركات الشعبية . وعندما نفذوا الاصلاحات ، تصرفوا كحملة للنير القومى . ومثل اصلاحات الفترة الاولى من التنظيمـــات ، وطدت اصلاحات مدحت باشا السيطرة التركية فى العراق . فابعد العرب عن ادارة بلدهم . وشغل الاتراك جميع المناصب الهامة فى جهاز الدولة . وسمح للعراقيين ، فى أفضل الحالات ، باشغال المناصب السفلى فى سلم التدرج البيروقراطى . وان أكبر ما كانوا يحلمون به هو منصب المتصرف .

واتمت اصلاحات مدحت باشا اعادة تنظيم ادارة العراق ، التى غدت منذ ذلك الوقت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاقاليــم المجاورة وبمركز الامبراطورية . واصبحت عزلة العراق السابقة فى حكـــم الماضى . وحاول خلفاء مدحت باشا ، الذى نقل لوظيفـــة اخرى فى ١٨٧١ الى ادرنة ، اقتفاء اثره الا ان اغلبية الاصلاحات التى رسمها مدحت باشا بقيت حبرا على ورق .

الفصل الحادى عشر

اقاليم الجزيرة العربية بين عامى ١٨٤٠ و١٨٧٠

الجزيرة العربية بعد عام ١٨٤٠ . تجزأت الجزيرة العربية ثانية ، بعد ان غادرها المصريون ، الى اقاليم عديدة . الا ان هذه الاجزاء لم تكن على شكل دويلات-مدن صغيرة كما كان الامر فى حضرموت وبعض مناطق الخليج العربى فقط ، بل على شكل اتحادات اقطاعية كبيرة نسبيا كما كان الحال فى الحجاز واليمن على البحر الاحمر ، ونجد الوهابية والقصيم وشمر فى اواسط الجزيرة العربية وعمان على الخليج العربى . وكانت جميع انحاء الجزيرة العربية ما عدا عمان وجنوبى الجزيرة العربية ، تحت السيادة التركية شكليا . ومع ذلك ، فلم تحتفظ تركيا بحامياتها الا فى مدن الحجاز الرئيسية وفى موانىء تهامة . ولم يكن للباشوات الاتراك اى سلطة خارج حدود هذه المدن . وكانت كل الدويلات الاقطاعية فى الجزيرة العربية مستقلة فعلا عن الباب العالى .

وكما كان الحال فى الازمنة الغابرة كان يمارس السلطة الحقيقية شرفاء مكة فى الحجاز والائمة الزيديون فى اليمن . وقد فشلت محاولة تركيا لوضع اليمن تحت حكمها المباشر فى عام ١٨٤٩ . وانبعثت الدولة الوهابية فى نجد . فاستولت على جميع اواسط الجزيرة العربية تقريبا وعلى الاحساء ايضا . ولم يقاومها الا الاقطاعيون وتجار القصيم ، ذائدين عن استقلالهم . وفى الوقت ذاته ، تكونت فى شمال نجد امارة جديدة هى امارة شمر التى تعززت على مرّ الزمن وشرعت فى الصراع ضد نجد من اجل السيادة فى شمالى الجزيرة .

اما فيما يتعلق بعمان ، فقد انشطرت الى جزئين ، كان احدهما تحت حكم سيّد مسقط ، سعيد (١٨٠٧ـ١٨٥٦) الذى قبض على دفة الحكم ايضا فى عدد من جزر المحيط الهندى (كزنجبار وغيرها) ، والاقاليم الواقعة على ساحل ايران وشرقى افريقيا . وكان الجزء الثانى المتكون من ساحل الصلح البحرى ، مقسما الى جملة من مشايخ «القرصنة» الصغيرة . وكان كلا الجزئين خاضعين لرقابة المقيم الانكليزى . وبفضل مدافع الاسطول الانكليزى ، قدّم الساحل برمته الطاعة الى الانكليز . كما قمع المقيم الانكليزى بفضلها الانتفاضات الشعبية وعزل وعيّن من شاء من الحكام وربط شيوخ الساحل بمعاهدات جديدة وجديدة . وأصبح جنوبى الجزيرة العربية عبارة عن تجمعات من سلطنات صغيرة ومشايخ . وحازت انكلترا هنا على مستعمرة عدن وهى بؤرة المشاغبات والانتفاضات فى شبه الجزيرة العربية .

نجد الوهابية . بعث الوهابيون دولتهم فى نجد بعد مرور عشرين عاما من الاحتلال المصرى . وفى عام ١٨٤٣ ساد فيها الامير فيصل ، الذى كان منذ عام ١٨٣٨ فى الاسر المصرى ثم فرّ الى دمشق حيث اختفى ، وادّعى بانه طالب لاهوتى . وعندما غادر المصريون وطنه ، عاد الى الرياض واسترجع سلطته ، معتمدا على مساندة السكان له .

وفى مدة قصيرة نسبيا ، أفلح فيصل فى انبعاث الامارة التى كانت قد تفككت فى الواقع . وبالطبع ، كان استرجاع السطوة القديمة بعيد المنال . اذ اعترفت نجد المنهوكة القوى فى عام ١٨٤٦ حتى بالسلطة التركية ، وتعهدت بدفع جزية لها قدرها عشرة آلاف تالير سنويا . كما لم تستعد الدولة الوهابية حدودها السابقة ابدا . اذ لم يكن تحت سلطة امير الرياض الا نجد نفسها والاحساء .

ولقد ورّط حرص آل سعود على استرجاع سلطتهم فى القصيم فى خوض نضال متواصل مع الحجاز . ولم يرق لشرفاء مكة اطلاقا امكانية لآل سعود اقامة سيطرة وهابية فى هذا المركز التجارى الهام من الجزيرة العربية . وكان ضد السلطة الوهابية حتى تجار القصيم انفسهم الذين كانوا قد اثروا بسرعة من تجارة الجزيرة العربية

النامية . وحصر تجار القصيم فى ايديهم قسما هاما من التبـــادل التجارى المتزايد سواء أكان بين مناطق الجزيرة المختلفة ام مع البلدان العربية المجاورة . وكتب الرحالة الانكليزى البارز بالغراف (الذى زار اواسط الجزيرة العربية فى ١٨٦٢ـ١٨٦٣) ان « تجارة القصيم مع مكة والمدينـــة ونجد وحتى مع دمشق وبغداد جمعت الديها مخزونا من البضائع لا مثيل له فى اماكن اخرى من اواسط الجزيرة العربية . وكان من الممكن ان تلتقى مع تجار القصيم الاجرياء على سواحل البحر الاحمر والخليج العربى واحيانا فى وادى الفرات وفى واحة دمشق » .

وتضايق تجار القصيم مما كان يبتزه الاقطاعيون من اموال ومن تقاليد الدولة الوهابية الصارمة . وكانوا يساندون استقلال دويلات-مدنهم . وبفضل مساندة شرفاء مكة تمكن سكان القصيم فى آخر المطاف ، من صدّ الحملات الوهابية بنجاح ، حتى اعترف فيصل فى عام ١٨٥٥ باستقلال عنيزة وبريدة . ولم تنتج شيئا فى الواقع محاولات آل سعود اللاحقة لاخضاع مدن القصيم . ولكنهم افلحوا بين حين وآخر فى اجبارهم على دفع الاتاوة لا غير .

واصطدم الوهابيون فى شرقى الجزيرة العربيـــة بمقاومـــة انكلترا . اذ كانوا قد حاولوا مرتين الاستيلاء على مراكزهم القديمة الواقعة على الخليج العربى ، المرة الاولى فى ١٨٥١ـ١٨٥٢ حاولوا فيها الاستيلاء على غربى عمان والمرة الثانيـــة ، فى ١٨٥٩ ، على قطر ، الا ان الاسطول الانكليزى صدّهم فى المرتين . واخيرا ، تخلى آل سعود فى عام ١٨٦٦ وفقا للمعاهدة الانكليزية-النجدية ، عن محاولات توسيع سلطتهـــم على ساحل الصلح البحرى والبحرين واكتفوا بجباية الاتاوة منهما .

وتغلغلت فى الحياة الداخلية للدولة الوهابية المنبعثة روحية التعصب المسعور . اذ بلغ عدم التسامح الدينى ذروتـــه . ففى منتصف القرن التاسع عشر زاولت فى نجد محكمة خاصة عملهـــا وكانت مكونـــة من المتحمسين فى الدين . فنكلت بشدة بمن يخلّ بالتعاليم الدينية والتقاليد . وغرّم المذنبون وتعرضوا الى عقوبات بدنية صارمة .

وكانت الدولة الوهابية الجديدة مفتقرة الى التلاحم الداخلى . اذ كانت السلطة المركزية ضعيفة . ولم تشهر القبائل السلاح ضد بعضها البعض فحسب ، بل وفى وجه الامير . وبعد وفاة الامير فيصل (١٨٦٥) اضيفت الى الانفصالية القبيلية الاقطاعية مشاحنات الاسرة الحاكمة . وكان فيصل قد قسّم نجد بين أكبر اولاده الثلاثة . فنشب لذلك صراع عنيف بين ورثة فيصل من اجل الهيمنة على الحكم .

وادّى الصراع بين المدّعين بالحكم والحروب الداخلية القبيلية-الاقطاعية الى اضعاف الدولة الوهابية المتضعضعة الاركان . فلم يلبث الاتراك ان استغلوا هذا الوضع فاستولوا على الاحساء ، كما استغله امراء شمر ، الذين ناضلوا ضد آل سعود من اجل السيادة فى شمالى الجزيرة العربية .

نمو امارة شمر . تمتعت امارة شمر باهمية خاصة بين الدويلات الاقطاعية ، التى تجزأت اليها الجزيرة العربية بعد خروج المصريين . وكانت عاصمتها حائل . واستغلت اسرة رشيد الجديدة ، التى كانت قد تمركزت هنا فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، ضعف نجد لكى تقوى سلطتها . واعترف آل رشيد بتبعيتهم لنجد ، الا ان هذه التبعية أصبحت اسمية صرفة فى اواسط القرن التاسع عشر . وعلى غرار نجد ، كانت شمر دولة وهابية . ومع ذلك فهى تتميز عن نجد بسياسة التسامح الدينى الواسع التى اتبعها حكام شمر .

وعمل امراء شمر كعبد الله (١٨٣٤-١٨٤٧) وخاصة ابنه طلال (١٨٤٧-١٨٦٨) الكثير من اجل تطوير التجارة والحرف . اذ انشأ طلال فى حائل اسواقا ومستودعات وخصص اماكن للحوانيت والمصانع . واستدعى الى حائل التجار والحرفيين سواء أمن المناطق العربية المجاورة ام من العراق . ومنحهم امتيازات وتسهيلات مختلفة . وجذب التسامح الدينى التجار والحجاج . وغيّرت القوافل ، التى كانت تسير من العراق ، طرقها المعتادة وأصبحت تذهب الى مكة عبر حائل مبتعدة عن نجد المتعصبة . واهتم طلال بسلامة هذه القوافل . فقضى نهائيا على اعمال السلب فى الطرق ، واخضع قبائل البدو واجبرها على دفع ضرائب ، واخضع ايضا جملة من الواحات

(كخيبر والجوف وغيرهما) وعزل الاقطاعيين العصاة وعيّن حكامه في كل مكان. وادّى نمو التجارة وسياسة الامير طلال الى مركزة وتوطيد شمر.

ونظر امراء الرياض بعين الاستياء الى نمو سطوة تابعهم. وفي ١٨٦٨، دُعي طلال الى الرياض ودسّ له السم في الطعام. ومع ذلك بقيت دولته قائمة وخاضت بمساندة الاتراك النضال ضد الرياض من اجل السيادة في اواسط الجزيرة العربية.

المستعمرات الانكليزيـــة في الجزيرة العربيـــة (١٨٤٠ــ ١٨٧٠). وبعد اقصاء المصريين عن الجزيرة العربية، حكم الانكليز ساحل الخليج العربي وعدن حكما مطلقا. وفضلا عن عمـــان، التي فقدت استقلالها في ١٧٩٨، كان تحت سلطة انكلترا منذ ١٨٢٠ سبع مشايخ من ساحل الصلح البحري والبحرين. وعهدت انكلترا بالسلطة في جميع هذه الدويلات الصغيرة والاصغر منهـــا الى حكام محليين، مقتصرة بقيام علاقات التحالف المزعومة.

وكانت هذه العلاقات، التي قيّدت شيوخ ساحل الصلح البحري والبحرين تقييدا كليا، تؤكد وتجدّد بصورة دورية. وكانت كل معاهدة جديدة (كمعاهدات ١٨٣٩، ١٨٤٧، ١٨٥٣، ١٨٥٦). تطيل امد الصلح والوئام «الى ابد الابدين»، كما كانت توسّع «الحقوق» السياسية للمقيم البريطاني في بوشهر، الذي كان يدير فعلا جميع هذه الاقاليم. وقد حرم الحكام المحليون من امكانيـــة تنفيذ سياسة داخلية مستقلة. وتدخلت انكلترا لهذا السبب او ذاك بصورة دائمية في الشؤون الداخلية لساحل الصلح البحري والبحرين. وقد ضمنت جملة من الحقوق والامتيازات للتجار الانكليز.

وفي عام ١٨٦١، ربطت انكلترا البحرين باتفاقية جديدة. وتعهدت بموجب هذه الاتفاقية «بالدفـــاع» عن البحرين ضد اي هجوم خارجي وحصلت لقاء ذلك على حق ادخال قواتها في البحرين في اي وقت كان. وكان توقيع هذه الاتفاقيـــة يعني في الواقع فرض الحماية البريطانية على البحرين.

ولقي التوسع الانكليزي في الخليج العربي مقاومة سافرة من قبل تركيا وايران، اللتين ادعتا بحقهما في عدد من الاقاليم. وفي

١٨٦٨ ، اقامت انكلترا «علاقات تحالف» مع قطر . ومع ذلك اضطرت بعد ٣ سنوات الى التنازل عن هذه المشيخة الى تركيا .

وهدّدت فرنسا المواقع الانكليزية فى عمان . وكان سيّد مسقط اكثر «حلفاء» انكلترا الموثوقين فى الجزيرة العربية . اذ كان طوع اوامر المعتمد السياسى البريطانى . وبحجة النضال المشترك ضد القرصنة وتجارة الرقيق ، ربطت انكلترا سيّد مسقط بجملة من المعاهدات الجديدة غير المتكافئة (فى ١٨٣٩ و ١٨٤٥) ، التى وطّدت «علاقات التحالف» بين انكلترا وعمان . وفى ١٨٣٤ ، أجبر الانكليز سعيد ــ سيّد مسقط ، على التنازل عن جزر خوريا موريا لهم . وفى ١٨٥٧ ، استولوا على جزيرة بريم ، التى ضمّت الى مستعمرة عدن .

وفى عام ١٨٥٦ توفى سعيد سيّد مسقط . فتدخل الانكليز فى النزاع الارثى الذى حدث بسبب موت سعيد . وفى ١٨٦١ بناء على اقتراح اللورد كاننغ وهو نائب ملك الهند ، قسمت ممتلكات سيّد مسقط الواسعة بين ولديه . فاستلم ثوينى ، الابن الاكبر ، اقليم عمان * والابن الاصغر ــ ماجد ، ساحل شرقى افريقيا وزنجبار التى كانت تعود الى مسقط منذ نهاية القرن الثامن عشر . فاضعف هذا التقسيم عمان ويسر على الانكليز الاستيلاء على زنجبار فيما بعد ووطدت سلطتهم فى عمان .

وفى منتصف القرن التاسع عشر ، أصبحت عمان هدف الصراع الانكليزى-الفرنسى ــ اذ عقدت فرنسا عام ١٨٤٦ اتفاقا تجاريا مع عمان على غرار المعاهدة التجارية الانكليزية-العمانية لعام ١٨٣٩ . واحتجت فرنسا عام ١٨٦١ على تقسيم عمان الى جزئين . وانتهى النزاع الانكليزى-الفرنسى بحل وسط : اذ وقّعت انكلترا وفرنسا فى العاشر من آذار (مارس) ١٨٦٢ فى باريس على بيان مشترك بشأن «استقلال» مسقط وزنجبار . وهكذا وافقت فرنسا على تقسيم

---

* فقدت عمان ممتلكاتها على ساحل ايران بصورة تدريجية . وفى عام ١٨٦٨ ضمت بندر عباس مع قطعة الارض الساحلية المجاورة لها الى الفرس .

عمان الفعلي . واعترفت انكلترا «باستقلال» عمان الوهمي ، الامر الذى اظهر بسرعة انها لا تعتبر باية اهمية لهذا البيـــان الورقى .
ونشبت فى عمان جملة من الانتفاضات خلال عشر سنوات ما بين ١٨٦٢ و ١٨٧١ . فخاضت الجماهير الشعبية النضال ضد سلطان مسقط الجديد ثوينى (١٨٥٨-١٨٦٦) ، الذى اعتبروه صنيعـــة الانكليز . واستغلت الجماهير فى هذا النضال مساندة الوهابيين لها . اذ كان الوهابيون يسعون الى بعث سلطتهم السالفة فى عمان وحتى انهم قاموا بجباية اتاوة منتظمة من عدة مدن ومناطق عمانية . وعلى الرغم من بيان ١٨٦٢ ، تدخلت انكلترا بصورة سافرة فى شؤون عمان . فامدّت ثوينى بـالمدافـــع والسفـن لمكافحـــة الشعب . وقصفت باسطولها المدن المعادية له ، وأمرت الشيوخ التابعين بمساندته . وعندما قتل ثوينى ، أبدت انكلترا المساندة نفسها لابنه . وعندما أقصى ابنـــه عن البلاد ، ساعدت اخا ثوينى الاصغر على قمـــع الانتفاضة الشعبية وولّته مسقط .
وشعر الانكليز فى عدن وكأنهم فى حصن محاصر . اذ نشبت انتفاضات متتابعة الواحدة تلو الاخرى ضد السلطات الانكليزيـــة وتدخلها فى شؤون جنوبى الجزيرة العربيـــــة . وفى عام ١٨٤٠ ، حدثت انتفاضة فى عدن ، حظيت باسناد سلطان لحـــج . ولم يكد الانكليز يقضون على الثوار حتى هجـم العرب عام ١٨٤٦ على عدن ثانية . وفى ١٨٤٩ تسنم العرش فى لحج السلطان على ، الذى طالب باعادة عدن اليه . فأرسل قواته لمحاربة الانكليز عام ١٨٥٨ . الا ان قواته هزمت فى معركة قرب شيخ عثمان ، فاضطر الى الاعتراف بالسيطرة الانكليزية فى عدن . وفى ١٨٦٧ ، قام الانكليز ثانيـــة بحملات تنكيلية ضد قبائل جنوبى الجزيرة العربية المتمردة ، التى رفضت الاعتراف باستيلاء بريطانيا على عدن .

الفصل الثانى عشر

مصر فى منتصف القرن التاسع عشر (١٨٤١-١٨٧٦)

مصر بعد استسلام عام ١٨٤٠ . فتح استسلام محمد على الطريق لغزو مصر من قبل الرأسمال الاجنبى . ففى ١٨٤٢ شملت مصر احكام المعاهدة التجارية الانكلو-تركية لعام ١٨٣٨ . والغى نظام الاحتكارات . واصبح اعتبارا من ذلك الوقت ، باستطاعة التجار وارباب الصناعة الانكليز ابتياع القطن المصرى بحرية وبصورة مباشرة من المنتجين او بواسطة وكلائهم الكومبرادور . كما استطاعوا تصدير بضائعهم الى مصر دون ان يدفعوا عنها الا رسوما ضئيلة جدا . ولقد اشغلت انكلترا عام ١٨٤٥ المرتبة الاولى فى تجارة مصر الخارجية : وكان من نصيبها حوالى ربع الاستيراد المصرى (٢٤٢ الفا من مليون جنيه استرلينى) ومما يربو على ثلث التصدير المصرى (٦٢٦ الفا من ١٧٤٧ الف جنيه استرلينى) .

وتحولت مصر من دولة شرقية كبيرة الى تابع للباب العالى الهرم . وبالطبع ، لم يستطع الاتراك الذين كانوا عاجزين انفسهم عن ادارة شؤونهم الخاصة ، ممارسة سلطتهم فى مصر بصورة ناجحة . واستخدمت وصايتهم على مصر مجرد ستار لتغطية هيمنة القناصل الاجانب . واصبحت مصر فى الواقع قطرا تابعا للحماية الانكليزية-الفرنسية المشتركة . ولولا المنافسة بين هاتين الدولتين لما اتيح لها الحفاظ على ما تبقى من استقلالها .

ونشب صراع داخلى بين فئتى الطبقة المسيطرة فى مصر . وان الفئة الاولى ، المكونة من اعداء التقدم اى من ملاكى المجتمع القديم ، كانت تسعى الى الاحتفاظ بصلاتها مع تركيا ، وتسير فى

ركاب انكلترا ، التى كان يسود نفوذها عندئذ فى القسطنطينيـــة . وكانت تتالف الفئة الثانية من التجار والملاكين الاحرار الذين بدؤوا يتبعون الاقتصاد الرأسمالى وساندوا المضى فى الاصلاحات واقتفوا اثر فرنسا .

ولقى الصراع بين هاتين الفئتين صدى فى اعمال ابراهيم باشا ووريثه عباس باشا . وكان التفوق فى بادئ الامر الى جانب الفئة ذات الميول الفرنسية برئاسة ابراهيم باشا ، الذى كان حاكم البلاد الفعلى فى الاربعينيات اذ كان محمد على طاعنا فى السن . وقد اثّر الاستسلام على مقدرته العقلية فهرم فورا وسرعـــان ما تنحّى عن ادارة شؤون الدولة .

فقام ابراهيم باشا بتنفيذ مهمات محمد على واعار اهتمامـــا كبيرا لتطور مصر الاقتصادى . وحاول تحسين عمل جهاز الدولة التى كان قد نخرها الفساد والروتين . وأصلح مالية مصر التى ارتبكت من جراء هزيمة ١٨٤٠ ، وأدخل ميزانية منتظمة للدولـــة . وفى ١٨٤٢ وسعت حقوق اصحاب الاراضى ، وأصبحوا قادرين اعتبارا من ذلك التاريخ على بيع اراضيهم . وفى ١٨٤٥ـ١٨٤٦ ، قـــام ابراهيم بجولة طويلة فى اوربـــا وجرى فى باريس عرض كبير فى ميدان مارس على شرف المنتصر فى قونية ونصيبين .

وفى ١٨٤٨ ، أصبح ابراهيم باشا حاكم مصر رسميا . الا انه توفى بعد ثلاثة اشهر اى فى ١٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٤٨ . وسرعان ما فارق الحيـــاة بعده اى فى ٢ آب (اغسطس) ١٨٤٩ محمد على نفسه . فآلت السلطة الى حفيده عباس باشا ، الذى كان على نقيض جده من جميع الوجوه .

عباس باشا (١٨٤٩ـ١٨٥٤) . استلم عباس باشا مقاليد الحكم رسميا فى ٢٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ ، وكان محمد على لا يزال على قيد الحياة . وكرجعى قلبا وقالبا تبين وكأنه وضع نصب عينيه القضاء على جميع نتائج الاصلاحات بصورة تامة . اذ صفّى المعامل اليدوية (المانيفاتورة) التى كان قد اسسها محمـــد على ، وامر بايقاف العمل فى بناء القناطر الخيرية الكبيرة وبتهديم ما قد انجز فى بنائها . وغلق المدارس التى كان قد فتحها محمد على .

وقلّص الجيش الى درجة اكبر . واذا كان الجيش فى عهد محمد على قد بدأ يكتسب طابعا وطنيا بصورة تدريجية ، ففى عهد عباس تحول الى حرس شخصى له كما كان فى عهد البكوات القدماء . وهكذا كانت تتألف فصائل حرسه الشخصى من عناصر اقوام اجنبية ، وخاصة من الالبانيين والارقاء المماليك . وكان سند عباس الاجتماعى ملاّكو الاراضى من كبار الاقطاعيين الباشوات الالبانيين والجراكسة والاتراك ، الذين كونوا لهم عقارات كبيرة فى عهد محمد على . فوزع عباس عليهم اراض جديدة بسخاء وكان هو نفسه أكبر الملاكين فى مصر ، ونهب الفلاحين بلا حياء ولا خجل وكان محمد على وابراهيم باشا يحلمان باستقلال مصر استقلالا تاما ، الا ان هذه الاحلام كانت غريبة على عباس باشا الذى كان على العكس يؤكد دوما وفى كل مجال ولاءه وتبعيته للسلطان التركى ومناصرته للانظمة التركية القديمة . وكان يحتقر جهارا الثقافة الغربية ويمقت الاوربيين ، الا ان هذا لم يعفه عن الخضوع الى التعليمات الواردة من انكلترا .

وفى ١٨٥١ منح عباس الانكليز امتيازا لمد سكة حديدية من الاسكندرية الى القاهرة والسويس . وكان لهذا الخط الحديدى اهمية استراتيجية كبرى بوصفه احدى الحلقات الاساسية فى الطريق الموصلة بين انكلترا والهند . ومع ان قناة السويس لم تكن قد شقت بعد ،الا ان الانكليز كانوا يحاولون منذ مطلع القرن التاسع عشر استبدال الطريق الطويلة حول افريقيا بطريق أقصر عبرمصر . وهكذا قامت السفن الانكليزية من انكلترا الى الاسكندرية ومن الهند الى السويس . وتمّمت القوافل حلقة الاتصال بين هذين الميناءين المصريين . اذ كانت الجمال السريعة الجرى تنقل المسافرين والبريد عبر صحارى مصر . وهكذا أصبحت مصر قاعدة لاعادة الشحن فى الطريق الانكليزى المؤدى الى الهند . وتمّ تحقيق مدّ السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة والسويس خلال الاعوام ١٨٥٣ـ١٨٥٧ . فارتفعت بذلك الى درجة كبيرة قيمة مصر كقاعدة لاعادة الشحن . ولقد قام الانكليز فى عام ١٨٥٨ بنقل قوات كانت مرسلة الى الهند عبر هذا الطريق لقمع انتفاضة السباهيين .

وازيح جانبا الرأسماليون الفرنسيون الذين كان لهم القول الفصل فى عهد محمد على وابراهيم باشا . الا انهم لم يفكروا بالاستسلام . بل بالعكس ، ضاعفوا جهودهم وجابهوا برنامج السكة الحديدية الانكليزى بمشروع القناة ، الذى يوصل بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر .

شق قناة السويس . عهد نابليون فى بداية القرن التاسع عشر الى ليبير ـ احد مهندسيه ، اعداد مشروع القناة . الا ان ليبير توصّل الى نتيجة خاطئة عند البحث عن الارض ، مفادها ان مستوى المياه فى البحر الاحمر اعلى منه فى البحر الابيض المتوسط ، وان حفر القناة يستحيل تقريبا من الناحية الفنية . ورغم ان لابلاس وفوريه بينا واثبتا خطاه فان جميع محاولات الفرنسيين لطرح مسألة القناة مجددا كانت تلقى مقاومة عنيدة من قبل محمد على وانكلترا . اذ لم يكن محمد علي راغبا فى انشاء «دردنيل ثان» . اذ انه ادرك تماما ما للقناة من أهمية استراتيجية كبيرة وعرف بانها ستجذب الدول الاوربية الى درجة لا تقل عن الدردنيل . كما ادرك بان الصراع من اجل قناة السويس لا بد وان سيجعل مصر هدفا للمخططات العدوانية كما كان الصراع من اجل الدردنيل قد حوّل تركيا الى ارض تطمع بها الدول الاوربية . ولصيانة استقلال مصر ، قاوم محمد علي مقاومة شديدة مشروع شق القناة . اما فيما يتعلق بانكلترا فكانت هى الاخرى ، واقفة ضد هذا المشروع ، طالما كان النفوذ الفرنسى سائدا فى مصر ، فستكون قناة السويس ـ وهى مفتاح الهند ـ فى ايدى الغير .

وفى الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، قدّم الرأسماليون الفرنسيون مجددا مشروع القناة ، وأصبح فرديناند دى ليسبّس نصيرا حميما له . لقد كان دى ليسبس (١٨٠٥ـ١٨٩٤) السياسى الفرنسى ، ورجل اعمال هام فى القرن التاسع عشر . وكالسابق ، وقفت انكلترا وعباس باشا ضد هذا المشروع .

ولم يقم عباس باشا بعرقلة حفر القناة فحسب ، بل واعاق تطور مصر الاقتصادى بصورة عامة . ولم يكن من الممكن الرجوع بهذا البلد الذى مرّ خلال بوتقة اصلاحات محمد على الى الانظمة

التركية القديمة . اذ كانت البلاد قد ارتبطت بالاقتصاد الراسمالى العالمى ، ونمت فيها القوى الانتاجية وتطورت السوق والانتاج البضائعى وبدأت العلاقات الرأسمالية تنضج والبرجوازية تتكون . وتطلبت حاجات البلاد الاقتصادية بالحاح ، كمصالح فرنسا ، اقصاء عباس باشا .

وفى ليلة من ليالى تموز (يوليو) الحارة ، قضى عباس باشا نحبه بسكتة قلبية ــ هذا ما ورد فى البيان الرسمى . ولكنه كان قد قتل فى الواقع من قبل حرسه . ولم يكتشف التاريخ بعد من كان وراء قتله . الا ان فرنسا ربحت بالدرجة الاولى من ازاحة هذا الحاكم .

وفى ١٤ تموز (يوليو) ١٨٥٤ ، أصبح حاكم مصر سعيد باشا ــ وهو احد اولاد محمد على الصغار . وكان سعيد باشا (١٨٥٤ــ١٨٦٣) «ذا تفكير حر» وميول غربية وصديقا حميما الى فرديناند دى ليسبس . ولم يكد يتربع فى منصبه حتى منح دى ليسبس فورا اى بتاريخ ٣٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٥٤ ، امتيازا لشق قناة السويس . وقد زادت هذه الخطوة من تبعية مصر للدول الاوربية وعجلت فى تحويلها الى مستعمرة .

وفى ١٨٥٥ قام دى ليسبس بتحريات اولية ، وفى ٥ كانون الثانى (يناير) ١٨٥٦ حصل على فرمان جديد حدّد شروط الامتياز . وطبقا لهذا الفرمان ، منحت حكومة مصر شركة قناة السويس مجانا المساحات اللازمة من الارض واعطتها مقالع الحجارة والتزمت بمدّ ترعة للمياه العذبة من النيل عبر الصحراء لتزويد منطقة البناء بمياه الشرب ، واستثنت الشركة من دفع الرسوم . كما تعهدت حكومة مصر بالدرجة الاولى بتقديم ٤/٥ عدد العمال الاجمالى ، الذى يتطلبه حفر القناة وذلك بصورة مجانية . وتمّ تحديد أمد الامتياز لمدة ٩٩ عاما من اللحظة التى تفتح فيها القناة . وكان رأسمال الشركة ٢٠٠ مليون فرنك .

وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٥٨ فتح دى ليسبس اكتتابا على اسهم «شركة قناة السويس البحرية العامة» . وصدر ٤٠٠ الف سهم ، قيمة السهم الواحد ٥٠٠ فرنك . واحتفظت فرنسا لنفسها بـ٢٠٧ آلاف سهم (٥٢٪) . واشترى سعيد باشا ٦٤

الف سهم ، بلغت قيمتها ٣٢ مليون فرنك . وعلاوة على ذلك سجل دى ليسبس على اسم سعيد باشا ظرفا كبيرا من الاسهم (١١٢ الف سهم) خصصت لتركيا وانكلترا وروسيا والولايات المتحدة ، ومبلغها ٥٦ مليون فرنك . واضطر سعيد باشا الى عقد قروض خارجية لكيما يدفع التزاماته الخاصة باقتناء ١٧٦ الف سهم . ففى عام ١٨٦٠ ، عقد فى باريس قرضا خاصا بقيمة ٢٨ مليون فرنك ، وفى عام ١٨٦٢ ، عقد اول قرض للدولة بقيمة ٦٠ مليون فرنك اى (٢,٤ مليون جنيه استرلينى) . وهكذا كان على سعيد باشا ان يعطى دى ليسبس حوالى نصف (٤٤٪) رأسمال الشركة المساهمة ، فضلا عن الارض والقوة العاملة والامدادات بمياه الشرب ومقالع الحجارة . وبنيت قناة السويس من قبل الايدى العاملة المصرية وعلى حساب موارد مصر المادية بصورة خاصة . ومع ذلك فلم تجلب القناة لمصر الا اضرارا كبيرة ، بصرف النظر عن تاثيرها السلبى على مصير البلاد السياسى .

وشرع بشق القناة فى نيسان (ابريل) ١٨٥٩ . وتمسك سعيد باشا بالتزاماته تمسكا تاما . اذ ساق الى القناة عشرات الآلاف من الفلاحين من جميع انحاء البلاد . وكان على اولئك الفلاحين ان يحفروا القناة باللجوء الى العمل اليدوى منذ شروق الشمس حتى غروبها وتحت اشعة الشمس المحرقة التى لا تطاق ، غير مستلمين حتى ولا قرشا واحدا تقريبا كاجور حقيقية كما لم تطمن وسائل معيشتهم الضرورية . ولم تكن المكننة معروفة فى موضع البناء : اذ كان العمل اليدوى المجانى يفى بالمرام . وكان يعمل فى موضع البناء دائما ما بين ٢٥ــ٤٠ الف فلاح . وعندما كان يغادر بعضهم عمل السخرة المضنى ، يأتى آخرون بالمناوبة . ولم يكن فى طاقة كثرة منهم احتمال شروط العمل المضنية : اذ قضى نحبه فى تشييد القناة حوالى ٢٠ الف عامل ! وبفضل العمل الاجبارى الشبيه بعمل العبيد الذى كان يقوم به الفلاحون المصريون المستعبدون وعلى جماجمهم شيد اضخم صرح للمدنية الرأسمالية فى القرن التاسع عشر .

وبعث عمل السخرة فى مئات الآلاف من الفلاحين شعور المقت نحو الاجانب وأثار موجة من الاحتجاجات الشعبية ضد الاستبداد

الاجنبي شملت حتى الطبقات الحاكمة في مصر . اذ قد ازعجهـــا استبداد الشركة ، التي لم تقــم اي اعتبـــار لا لقانون مصر ولا لمصالحها . وكان في وسع انكلترا ، التي شنت نضالا مسعورا ضد تشييد القناة ، استغلال هذا الوضع . اذ بدأت في الصحافة الانكليزية حملة ضد تطبيق العمل الاجباري في قناة السويس . وتحت ضغط انكلترا ، أعلن الباب العالي بان منح الامتياز لم يكن من صلاحية باشا مصر ، وطالب بالغائه . فاندلعت ازمـــة خطيرة هدّدت مشروع ليسبس برمته .

ولم يعمّر سعيد باشا حتى نهاية ملحمة السويس . اذ قضى نحبه في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٦٣ . وعلى غرار سعيد ، كان وريثـــه اسماعيل باشا (١٨٦٣ـ١٨٧٩) قد حصل تعليمـــه في فرنسا . وكان شديد الميل الى الغرب ، ويبغي جعل مصر «جزءا من اوربا» . ولذا واصل سياسة اصلاحات سلفه . ولم يعارض شق قناة السويس ، الا انه اعتبر امتيازات دي ليسبس باهضة ومرهقة لمصر .

وفي ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٨٦٣ ، أصدر اسماعيل باشا فرمانا بتحريم العمل الاجباري في انشاء قناة السويس . وحظي هذا التدبير سراعا بدعم الباب العالي ، الذي وقفت انكلترا من ورائـه . وأرسلت الحكومة التركية مذكرتين ، الواحدة تلو الاخرى ، قدّمت فيهما كشروط للمصادقة على الامتياز ، تحريم العمل الاجباري في القناة واسترجاع الاراضي المنتزعة لصالح الشركـــة وغير ذلك من المطاليب . وفي حالة العكس ، هدّد الباب العالي باستخدام القوة لايقاف اعمال شق القناة .

فحلت ايام سوداء بدى ليسبس . ومع ذلك فانه لم يفلح في التخلص من هذا الموقف الحرج فحسب ، بل وانه نجح في استغلال الموقف للزيادة في نهب مصر . اذ استأنف دي ليسبس الدعوى على ما اتخذه اسماعيل من تدابير واجبره على احالة النزاع الى مجلس تحكيمي .

وتم اختيار ... نابليون الثالث ـ امبراطور فرنســا كحكَم «غير متحيّز» ، ويقال بالمناسبة ، انه كان متزوجا من ابنة خال

دى ليسبس . وفى تموز (يوليو) ١٨٦٤ اقترح هذا «الحكم» على اسماعيل ان يدفع كغرامة ٨٤ مليون فرنك الى «شركة قناة السويس البحرية العامة» . ولم تدرج فى هذه الكمية غرامة القوة العاملة فحسب ، بل واحتفظت الشركة ايضا طبقا لشروط امتيازها الجديدة ، بممتلكاتها الارضية المحاذية لجانبى القناة على مسافة ٢٠٠ متر من مجراها فقط ، واضطرت الى ارجاع كل الاراضى الباقية الى مصر . ولم تكن الشركة قد دفعت فى حينه لمصر حتى ولا قرشا واحدا مقابل هذه الاراضى ، فضلا عن انه لم يكن لهذه الاراضى الصحراوية اهمية اقتصادية . ومع ذلك ، فبعد ان استرجعها اسماعيل باشا ، كان عليه ان يدفع الى دى ليسبس ٣٠ مليون فرنك . وكان هذا نهبا سافرا ! كما كان عليه ان يحفر للمنشاة ترعة لمياه الشرب . ورغم ان هذه الترعة كانت قد سدّت حاجة المنشاة ، فعندما أصبحت فى حوزة مصر ، اضطرت ان تدفع عنها ١٤ مليون فرنك الى دى ليسبس ، علما بان الترعة لم تكلّف دى ليسبس نفسه ولا قرشا واحدا فضلا عن انها كانت قد بنيت كلية باموال مصرية .

ولتلبية هذه الادعاآت الطائشة ، كان على اسماعيل ، الذى اقتفى اثر سعيد باشا ، ان يتجه الى البنوك الاوربية التى منحته قروضا بشروط فاحشة للغاية فوقعت مصر فى شبكة من الديون لم تتمكن من التخلّص منها فيما بعد

وعزّزت اتفاقية ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٦٦ شروط الامتياز الجديد ، التى صادق عليها الباب العالى فى ١٩ آذار (مارس) من نفس العام . وهكذا لم تصب الدسائس الانكليزية مرماها . وبعد ما فقدت القوة العاملة المجانية ، شرعت شركة قناة السويس باختراع اجهزة ميكانيكية لاجراء عمليات الحفر . فابتكر المهندس الفرنسى كوفرو فى عام ١٨٦٠ ، حفّارة كثيرة المجاريف ساعدت على مواصلة اعمال شق القناة بصورة حثيثة . وفى ١٧ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٦٩ ، تمّ الاحتفال بافتتاح القناة . فقدمت عشرات من الشخصيات المتوجة ومئات من رجال السياسة من جميع انحاء العالم لحضور الاحتفال بمناسبة افتتاح القناة . وبطلب من اسماعيل

باشا ، ألف الموسيقار فيردى اوبرا «عائدة» خصيصا لحفلة الافتتاح . وشيّدت قصور فخمة للضيوف الوافدين وبنيت اليختات . واستغرقت الاعياد بضعة اسابيع . ودفعت جميع المصاريف والنفقات على حساب الخزينة المصرية .

وكلّف شق قناة السويس ٤٠٠ مليون فرنك بما فيه قيمة الاسهم والغرامة المالية ونفقات الافتتاح وغير ذلك . وبعد مرور ستة اعوام ، باعت حكومة مصر حصتها من اسهم القناة بمبلغ ١٠٠ مليون فرنك . وكانت الخسارة الصافية ٣٠٠ مليون فرنك ، بصرف النظر عن حياة الآلاف من الاشخاص الذين هلكوا فى موضع البناء وبصرف النظر عن الاضرار السياسية التى سببتها قناة السويس لمصر .

تطور مصر الاقتصادى فى اواسط القرن التاسع عشر . مرت مصر فى الخمسينيات وبصورة خاصة فى الستينيات من القرن التاسع عشر فى عهد نهضة اقتصادية هامة . وكان سببها فى الدرجة الاولى ازدياد الطلب على القطن المصرى ، وقد ازداد هذا الطلب فى الستينيات على الاخص عندما كانت تقاسى صناعة النسيج الاوربية من نقص حاد فى الخامات بنتيجة الحرب الاهلية فى الولايات المتحدة الاميركية . وخلال هذه السنوات ، اخذت المساحات المزروعة بالقطن تتسع اتساعا كبيرا ولبلوغ ذلك ، جدّدت شبكة الرى القديمة وحفرت كثرة من قنوات الرى الجديدة الذى بلغ طولها الاجمالى ٢١ الف كيلومتر . وعمم فى الوجه القبلى نظام رى مستديم . وازدادت مساحة الاراضى المحروثة من ٤,١ مليون فدان عام ١٨٥٢ الى ٤,٧ مليون عام ١٨٧٧ .

وكان يصدّر الى الخارج معظم القطن الذى كان ينتج فى اراضى الملاكين المصريين شبه الاقطاعيين . فازداد تصدير القطن فى سنوات التضخم القطنى (١٨٦١ــ١٨٦٥) اربع مرات ، اى من ٠,٥ مليون قنطار فى عام ١٨٦٠ الى مليونى قنطار فى عام ١٨٦٥ . وهبط تصديره نوعا ما بعد انتهاء الحرب الاهلية فى امريكا ، ومع ذلك بقى محافظا على مستوى عال نسبيا . ثم عاد تصديره الى ارتفاع ثانية ، فبلغ عام ١٨٧٠ مليونى قنطار ، وفى ١٨٧٦ ثلاثة ملايين قنطار .

وقد ادى التطور العارم فى زراعة القطن الى تقليل مساحات المنتوجات الزراعية الاخرى وهبوط تصديرها . فاصبحت مصر فى خطر حقيقى بتحولها الى قطر يتعاطى زراعة غلة واحدة . فاخذ اسماعيل يسرع فى زراعة قصب السكر ، سعيا منـــه لاصلاح هذا الوضع . فانتجت مصر ١,٥ مليون قنطار من السكر فى عام ١٨٧٢ صدّر منه ٠,٥ مليون قنطار .

وواكبت تضخم انتاج القطن العارم وثبات شديدة فى التجارة الخارجية . فارتفعت القيمة الاجمالية للتصدير المصرى من ٢٠٠ مليون قرش فى عام ١٨٦٠ الى مليار فى عام ١٨٧٠ والى ١,٥ مليار قرش فى عام ١٨٧٢ . وتضخم الاستيراد الى الاسكندرية من ١٨٥ مليون قرش فى عام ١٨٤٣ الى ٤٠٠ مليون فى عام ١٨٦٣ ، والى ٦٠٠ مليون قرش فى عام ١٨٧٢ . وازداد الحجم الاجمالى للتجارة الخارجية المصرية بمقدار خمس مرات خلال الثلاثين عاما الممتدة بين ١٨٤٣ و١٨٧٢ .

ورافق النهوض التجارى تطور فى الملاحة . ففى ١٨٤٥ قدمت الى ميناء الاسكندرية ٦٢ باخرة مقابل ١١٤٥ باخرة فى عـــام ١٨٦٥ . وازداد عدد السفن الشراعية التى كانت تمرّ بالاسكندرية فى الفترة نفسها من ١٣٣٨ الى ٣١٣٨ . ومرت ٢٦ باخرة فى السويس فى عام ١٨٥٠ و٢١٦ باخرة فى عام ١٨٦٥ ، اى قبل افتتـــاح القناة .

وعبرت قناة السويس فى عام ١٨٧٠ اى بعد افتتاح القنـــاة ٥٧٠ باخرة . وازدادت حمولة السفن التجاريـــة التى كانت تمر بالاسكندرية من ٩٠٧ آلاف طن عام ١٨٦٣ الى ١٢٣٨ الف طن عام ١٨٧٢ ، وحمولـة السفـن المـــارة بـالسويس من ١٧٠ الى ٦٦٦ الف طن (بين العامين المذكورين) ؛ والمارة ببور سعيد من ٥٢ الى ٨٥٧ الف طـن . ونزل فى الاسكندريـــة فى عـــام ١٨٤٧ الف مسافر ، وفى عام ١٨٦٧ خمسة واربعون الفا ، وفى عام ١٨٧٢ ثمانية وستون الف مســافر . وغدت الاسكندريـة احدى المرافئ العالمية الهامة . وفى ١٨٧٥ بلغ مقدار البضائع المشحونة ١٩٢٥ الف طن اى ما يقارب مستوى مرسيليا .

وكان فى حيازة مصر اسطول تجارى خاص . ففى ١٨٧٣ كان عدد البواخر البحرية المصرية ٥٥ ، والنهرية ـ ٥٨ ، بصرف النظر عن عدد كبير من المراكب الشراعية . وتمّ تنظيم ملاحة منتظمة فى النيل والبحر الابيض المتوسط . وكانت اغلبية هذه البواخر ملكا خاصا الى اسماعيل باشا ـ حاكم مصر . ومن الجدير بالذكر انه لم يكن لدى فرنسا ـ وهى احدى الدول البحرية المتطورة فى ذلك الوقت والتى كانت تتفوق على مصر بعدد سكانها البالغ سبعة اضعاف ونصف سكان مصر ، سوى ثلاثة اضعاف حمولة الاسطول البخارى البحرى المصرى . ومما له دلالته ايضا ان الاسطول المصرى الاكثر حداثة ، كان اكثر اتقانا من الناحية التكنيكية . اذ كان متوسط حمولة باخرة بحرية فرنسية واحدة يتكون آنذاك من ٣٥٠ طنا مقابل الف طن حمولة باخرة بحرية مصرية واحدة . وكانت فى فرنسا البواخر تؤلف ١٥ ٪ فقط من حمولة الاسطول البحرى ، والمراكب الشراعية ـ ٨٥ ٪ ؛ وفى انكلترا كانت البواخر تؤلف ٢٥ ٪ والمراكب الشراعية ـ ٧٥ ٪ ؛ بينما كانت البواخر تؤلف اكثر من ٦٠ ٪ من حمولة الاسطول المصرى الاجمالية والمراكب الشراعية اقل من ٤٠ ٪ ومن أجل تطوير الملاحة ، شيد ١٥ فنارا على سواحل البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ما بين عامى ١٨٦٥ و١٨٧٥ .

وكانت مصر فى تلك الفترة مغطاة بشبكة هامة من السكك الحديدية العائدة للدولة . ولم يكن قبل عام ١٨٦٠ فى مصر سوى سكة حديدية واحدة تربط الاسكندرية بالقاهرة وطولها ٢١٠ كيلومترات (مع فرع منها الى الزقازيق يبلغ طوله ٣٥ كيلومترا) * . ثم مدّت خلال ١٥ عاما (١٨٦١ـ١٨٧٥) بوتائر عارمة ، وفى اقطار مختلفة سكك حديدية ، وبلغ طولها فى مصر ١٥٩٠ كيلومترا . فسبقت مصر فى هذا المضمار بعض الدول الرأسمالية المتطورة . ففى عام ١٨٧٦ مثلا كان فى فرنسا ٣٧,٥

---

* ان الخط الذى مد فى ١٨٥٦ـ١٨٥٧ ، بين القاهرة والسويس كان غير صالح للاستعمال .

كيلومترا من السكك الحديدية لكل الف كيلومتر مربع من الارض ، وفى مصر ٥٥ كيلومترا لكل الف كلومتر مربع من الاراضى الماهولة * .

وتطورت وسائل الاتصال الحديثة . فقبل عام ١٨٦٣ ، كان الطول الاجمالى لجميع خطوط التلغراف فى مصر يوازى ٥٨٢ كيلومترا . الا ان طول الخطوط التلغرافية ازداد قبل عام ١٨٧٢ احدى عشرة مرة اى بلغ ٦٤٥٠ كيلومترا . فتفوقت مصر فى هذا المضمار ايضا على عدد من الدول الاوربية المتطورة . اذ كان فى فرنسا فى عام ١٨٧٨ سبع وسبعون كيلومترا من خطوط التلغراف لكل الف كيلومتر مربع من الارض ، وفى مصر ٢١٦ كيلومترا ؛ وكان فى فرنسا ١١,٣٣ كيلومترا من خطوط التلغراف لكل ١٠ آلاف نسمة بينما كان فى مصر — ١٢,٢٥ كيلومترا .

وازدهرت المدن . فكان يقطن ما لا يقل عن ٢٠ ٪ من مجموع سكان مصر فى ١١٣ مدينة . وبلغ عدد سكان القاهرة ٣٥٠ الف نسمة والاسكندرية ٢١٢ الفا ، وطنطا ٦٠ الفا ، والزقازيق ٤٠ الف نسمة . وزوّدت القاهرة بانابيب الغاز ومياه الشرب وانابيب تصريف المياه القذرة .

وتطورت صناعة مصر تطورا كبيرا وكان اسماعيل باشا — حاكم مصر ، يملك شخصيا معملين للنسيج بالقرب من القاهرة ، وكان يشتغل فيهما أكثر من ٤٠٠ عامل ، و ٢٢ معملا كبيرا للسكر تبلغ طاقتها الانتاجية ١٥٠ الف طن من السكر سنويا ، ويشتغل فيها حوالى ١٠ آلاف عامل . وفضلا عن ذلك ، كان فى حيازة حاكم مصر ٤ معامل للاسلحة وداران لبناء السفن يعمل فيهما ٥٠٠ عامل ، ومناجم تستخرج منها نترات البوتاسيوم . وأنشئت فى مصر ايضا كثرة من المشاريع الصناعية الخاصة التى كانت اغلبيتها معامل صغيرة للنسيج ، وورش ترميم ومعامل صبّ الحديد ، وحلج القطن ، ومعامل الالبان والجلود ، وورش لتشغيل الخشب ، ومصانع الملح ، والطواحين البخارية .

---

* اى بغض النظر عن الصحارى غير الماهولة .

ومع ذلك كان المستوى التكنيكي للمشاريع المصرية منخفضا عما كان عليه في اوربا . ولم يكن بمقدور منتوجات معامل النسيج المصرية الصغيرة وورش السبك مزاحمة صناعة صب المعادن والنسيج الانكليزية الكبيرة ، التي كانت تتدفق بحرية الى الاسواق المصرية دون ان تلاقي اية تعريفات جمركية وقائية في طريقها ، بينما حرمت الصناعة المصرية بحكم المعاهدة التجارية الانكلو-تركية لعام ١٨٣٨ من الحماية الجمركية . وظلت مصر بصورة عامة كبلد زراعي في عهد تطورها الاقتصادي العارم اي ما بين العقدين السادس والثامن من القرن التاسع عشر . فلم تنتج في الاساس البضائع الصناعية بل خامات ـ القطن الذي زودت السوق العالمية بمزيد ومزيد منه . واستعاضت عنه بابتياعها مزيدا ومزيدا من البضائع الصناعية الاجنبية . وهكذا اشتدت تبعية مصر الاقتصادية للبلدان الاوربية مع تطور تجارتها الخارجية . وتحولت أكثر فاكثر الى ملحق يزود الدول الصناعية بالخامات الزراعية .

وهنالك ثمة تناقض آخر للاقتصاد المصري في عهد سعيد واسماعيل باشا هو ان مصر دخلت طريق التطور الرأسمالي دون ان تقضي باساليب ثورية ، على المخلفات الكثيرة القوية الباقية من القرون الوسطى . وكان الملاكون الاقطاعيون الحاملين الاساسيين للعلاقات الرأسمالية في الزراعة ، الذين كانوا يقرنون الاساليب الحديثة للاقتصاد بالاساليب القديمة للاستغلال . فانهم أدخلوا الماكينات الى ضياعهم (كالمحراث البخاري الذي استخدم لاول مرة لا في اوربا بل في مصر .) ووسعوا المساحات المزروعة بغلات التصدير كالقطن وقصب السكر . وقاموا باجراء عمليات تجارية واسعة النطاق وانشأوا المصانع في ضياعهم . الا انهم واصلوا في الوقت ذاته استغلال الفلاح كما كان الحال عليه في الماضي وفرضوا عليه ضرائب القرون الوسطى لابتزاز امواله وساقوه الى السخرة وما شابه ذلك من الاساليب القديمة . وكان اسماعيل باشا ـ حاكم مصر ، اول ملاك من هذا النوع ، شبه اقطاعي وشبه رأسمالي ـ اي انه كان رجل عمل ذا تأثير وتاجرا وصاحب مصانع ومضاربا ، وكان باستطاعته استغلال تقلبات الاسواق وهو في الوقت ذاته اقطاعي .

وحذا حذوه ملاكون كبار آخرون من نبلاء الاتراك-الألبانيين-الجراكسة .

وعرقل شيوع بقايا النظام الاقطاعى فى القرية تطور الزراعة الحقيقى وحال دون تطور الصناعة . وكانت القرية المصرية الجائعة المستغلة من قبل الملاك شبه الاقطاعى سوقا رديئة لترويج البضائع الصناعية .

واخيرا ، كان تقاطر الاوربيين الى مصر طرفا خلفيا لتطور هذا البلد اقتصاديا . وكانت بين هؤلاء الاوربيين اقلية من ذوى الاختصاص من مهندسين وزراعيين وميكانيكيين واطباء ومعلمين ورجال اعمال ، بينما كانت اغلبيتهم الساحقة تتكون من اسوأ العناصر الطفيلية : من باعة ومضاربين وسماسرة بورصة ومرابين ومهربين واصحاب بيوت الدعارة ومقامرين ومحتالين ولصوص وصحفيين ماجورين ومومسات وما شاكل ذلك . واستغلت شغيلة مصر من قبل هذه الحثالة الاوربية التى كانت تنشط تحت حماية نظام الامتيازات والقناصل الاجانب والتى كانت تعتبر نفسها ممثلة «لحضارة رفيعة» . فسممّت هذه الحثالة جو المدن المصرية وخاصة الاسكندرية ، المدينة الجميلة التى حولتها مجهوداتهم الى بؤرة فساد حقيقية . فنشأ فيها مركز عالمى لتجارة المخدرات السرية . وتحولت احياء كاملة من المدينة الى حانات وبيوت دعارة . وفى عام ١٨٤٠ كان فى مصر ٦١٥٠ اوربيا مقابل ثمانين الف اوربى فى عام ١٨٧١ بضمنهم ٣٤ الف يونانى (يعملون كمرابين بصورة خاصة) و١٧ آلف فرنسى و١٤ الف ايطالى و٦ آلاف انكليزى و٧ آلاف ألمانى . وكان يقطن فى الاسكندرية ٥٠ الف اجنبى (وهم يؤلفون حوالى ربع سكان المدينة) ، وفى القاهرة حوالى ٢٠ الف اجنبى .

اصلاحات سعيد واسماعيل . كان سعيد واسماعيل خلافا لعباس باشا ، مدركين بجلاء متطلبات تطور مصر الاقتصادى . وتلبية لهذه المتطلبات ، قاما بجملة من الاصلاحات الاجتماعية-الاقتصادية والسياسية .

وقد حرّم نظام الرق وتجارة الرقيق فى مصر فى عهد سعيد

باشا ، كما حرّم استيراد الرقيق وحرر العبيد الذين كانوا يعيشون على ارض مصر . وفى عام ١٨٥٨ ، صـــدر قانون الارض . فمنح الفلاحين الذين كانوا يمتلكون اراضى الاثر او الاراضى الخراجية ، الحق فى بيع وشراء ورهن وتوريث اراضيهم بحرية . وبكلمـــة اخرى ، منحهم هذا القانون نفس الحقوق التى كان يتمتع بها مالكو الاراضى العشرية ، للتملك الشخصى للارض . والغيت رسميا اعمال السخرة والالتزامــات الاخرى ، التى كانت قد انبثقت من عـــدم المساواة فى الحقوق المدنية للفلاحين . واصبحت جميع الاراضى مجرد بضاعة ــ فكوّن هذا الوضع ظروفا ملائمة لتطور العلاقات الراسمالية فى القرية واتاح للتجار والفلاحين الاثرياء شراء الارض . فانتقلت مساحات كبيرة من الاراضى الى ايدى المرابين والرأسماليين الاجانب .

ومع الاصلاح الزراعى أجريت فى الوقت ذاته اصلاحـــات فى الضرائب . وحلّت الضرائب النقدية فى كل مكان محلّ التسليـــم العينى . واستعيض عن الضرائب الجماعية على جميع القرى طبقـــا للتكافل المتبادل بضرائب شخصية لكل مزرعة فلاحية على حدة . وانتقلت آنذاك جباية الضرائب من ايدى شيوخ القرى الى عهدة موظفين خاصين .

وقام سعيد بالغاء ما بقى من نظام الاحتكارات وبتصفيـــة الجمارك الداخلية وباعطاء حرية تامة للتجارة . فاصبح فى مستطاع كل فلاح ان يزرع الغلات التى يريدها وان يبيع بحرية محصوله وان ينقله الى حيث يشاء دون اية رقابة من جانب الحكومة .

وجرت تغييرات كبيرة فى الجيش ايضا . اذ أفلح سعيد باشا فى الغاء جملة من القيود التى كانت قد أدخلت على الجيش عام ١٨٤١. وحصل على موافقة من الباب العالى فى عام ١٨٥٦ لزيادة الجيش المصرى مـــن ١٨ الى ٣٠ الـــف شخص . وكمحمـــد على ، حـــاول سعيد باشا ان يضفى على الجيش طابعا وطنيا واخذ يستزيد عدده بتجنيد الفلاحين وأصبح المصريون يرقّون لاول مرة فى تاريخ البلاد الى رتبة الضباط . ونال الاكثر كفاءة منهم تعليما عسكريا وعينوا فى مناصب قيادية . وكان عرابي واحدا من اولئك الفلاحين الذين حصلوا

على ترقية فبلغ بسرعة رتبة مقدم وغدا ياورا لسعيد باشا .
وخلافا لسعيد ، لم يرق اسماعيل باشا للمناصب القيادية في الجيش العناصر المصرية الوطنية ، بل ممثلي الاشراف الاقطاعيين الملاكين ـ من الالبانيين واتراك وجراكسة . وأبعد الضباط المصريون من الفلاحين الى المراتب الثانوية . فحدث بنتيجة هذه السياسة خلاف في صفوف الجيش بين العناصر الوطنية الديمقراطية من الضباط ، الذين كانوا يدعون انفسهم بـ «الفلاحين» والباشوات الارستوقراطيين ، الذين لقبوا بـ «الجراكسة» . ولعب هذا الخلاف دورا كبيرا في تطور الحركة الوطنية المصرية المقبل .

وبذل سعيد وخاصة اسماعيل الجهود من أجل ان تصبح مصر مستقلة عن الباب العالي . وتمتعت مصر في الواقع باستقلال ذاتي داخلي تام . وانتهجت سياسة خارجية مستقلة رغم قيود عام ١٨٤١ . وكان لديها جيش خاص وحكومة وقوانين . ولم تعمّم التشريعات التركية وخاصة التنظيمات في مصر . واراد سعيد واسماعيل تعزيز هذا الوضع بصورة شرعية . فكسبت فرمانات ١٨٦٦ـ١٨٦٧ في هذا الاتجاه اهمية كبيرة . وغيّر فرمان ٢٧ ايار (مايو) ١٨٦٦ ترتيب وراثة العرش . فعوضا عن تطبيق نظام الوراثة التركي الذي كان نافذا حتى ذلك الحين ، والذي كانت تنتقل بموجبه السلطة الى كبير الاسرة ، جرى العمل الآن بمبدأ الولد الاول المتبع في الملكيات الاوربية وبذلك صارت السلطة تنتقل من الاب الى الابن الاكبر . ومنح فرمان ٨ حزيران (يونيو) ١٨٦٧ اسماعيل لقب الخديوي الوراثي .

وان كلمة «خديوي» تعني باللغة الفارسية «اميرا او عاهلا» وليس لهما اي مدلول خاص . ومع ذلك أصبح هذا اللقب يميز عندئذ حاكم مصر ، الذي لم يكن باشا او واليا عاديا لاحد اقاليم الامبراطورية العثمانية المتعددة ، وحصل الخديوي طبقا لهذا الفرمان على حق عقد معاهدات تجارية واتفاقات اخرى ذات طابع غير سياسي مع الدول الاوربية .

وفي ١٨٦٦ اقتداء بالملكيات الدستورية الغربية ، امر اسماعيل بتشكيل ما يشبه البرلمان او المجلس النيابي وهو معروف

فى الادب باسم «مجلس شورى النواب» . ويتالف هذا المجلس من ٧٥ مندوبا يتمّ اختيارهم لمدة ٣ سنوات من قبل شيوخ القرى واعيان القاهرة والاسكندرية ودمياط . وكان للمجلس وظـــائف استشارية ، وهو ينظر فى ميزانية الدولة . وكان آلة طيّعة فى يدى الخديوى ولم يلعب اى دور فى ادارة البلاد .

وفى ١٨٧٣ حصـــل الخديوى اسمـاعيـل من السلطـان على فرمـان بشـان الاستقـلال الـذاتى المـالى لمصر . فحصلت بذلـك مصر على حق عقد قروض بدون اذن الباب العالى . وكان لهذا الفرمان طابع ثنائى . اذ انه اضعف تبعية مصر للباب العالى ؛ ومن جهــة اخرى ، يسّر استعباد البلاد من قبل البنوك الاجنبية بواسطـــة القروض ولذا اشتدت تبعية مصر للرأسماليين الاجانب .

كما حمل صفة مزدوجة الاصلاح القضائى الذى اجراه اسماعيل باشا . اذ قرّر اسماعيل انشاء محاكم مختلطة مؤلفة من قضـــاة اجانب ومصريين ، محاولا بذلك تحديد وظائف المحاكم القنصلية القائمة بحكم نظام الامتيازات . وانصرمت بضع سنوات فى تهيئة الاصلاح وفى مفاوضات مع الدول . واخيرا أخذت هذه المحـاكـم تزاول عملها فى اول شباط (فبراير) ١٨٧٦ . فنظرت فى الخلافات المدنيـــة بين الاوربيين والمصريين وبين الاوربيين مـــن مختلف القوميات . كمـا نظرت فى الشؤون الجنائيـة الخاصـة بالاوربيين . اما فى الواقع فلم تقم المحاكم المختلطـــة بتحديد الامتيازات التى كانت قـد منحت للاجـانب عن طريـق نظـام الامتيـــازات ، بـــل واصبحت وسائل اضافية لسيادة الاجانب على مصر ايضا .

واخيرا ، واصل سعيد واسماعيل الاصلاحات الثقافية ، التى بدأها محمد على . فأصبحت اللغة العربية فى عهد سعيد اللغـــة الرسمية الوحيدة فى مصر . وتطور التعليم الشعبى باللغة العربيـــة وبذلت عليه جهود كبيرة . ولم تنبعث المدارس القديمة التى أغلقت فى عهد عباس باشا فحسب ، بل وفتحت كثرة من المدارس الجديدة ايضا . وازداد عدد المدارس فى عهد اسماعيل من ١٨٥ فى عـــام ١٨٦٣ الى ٤٦٨٥ فى عام ١٨٧٥ ، وكان يدرس فيها حوالى مئة الف تلميذ . وازداد عدد المؤسسات الدراسية الخاصة الثانويـــة .

وانشئت فى مصر دار الكتب ومتحف وجمعيات علمية واوبرا القاهرة . ونشأ اهتمام الى التاريخ والادب العربى . وظهرت الترجمات والمؤلفات الاصلية للشعراء والكتاب والمؤلفين المسرحيين المصريين الواحدة تلو الاخرى . وقدّم محمود سامى البارودي ـ الشاعر المعروف والشخصية السياسية ، وابراهيم المويلحي ـ الاديب والكاتب الاجتماعى الموهوب ، وحسين المرصفي ـ المربى والمؤرخ الادبى ، رصيدا لا يستهان به الى النهضة العربية . وبدأت تصدر خلال الاعوام ١٨٦٥ـ١٨٧٥ كثرة من الجرائد والمجلات باللغتين العربية والفرنسية وخاصة «وادى النيل» فى عام ١٨٦٦ ، و «Le Progrés Egyptien» فى عام ١٨٦٨ ، و«نزهة الافكار» فى عام ١٨٦٩ ، و«الاهرام» فى عام ١٨٧٥ . وصدرت اولى المجلات العلمية والادبية .

ويصوّر كثرة من الكتّاب اسماعيل باشا كشخص كسول وكباشا شرقى جاهل . ولرغته فى الكسب ، قام بالمضاربات المريبة . وقد لامه كرومر بوصفه «فضلّ معشر حوذيته وخدمه على صحبة الدبلوماسيين الاوربيين» . الا ان اسماعيل كان فى الواقع ، شخصية مثقفة ونشيطة ورائد التطور الرأسمالى فى بلاده . اذ قد تفوق من الناحية الثقافية على الدبلوماسيين والتجار الاوربيين الذين كانوا يحيطون به . ومع ذلك ، فكان قبل كل شىء ممثلا لطبقته ـ الملاكين شبه الاقطاعيين ، الذين سلكوا طريق المشروع الرأسمالى . وفى الوقت ذاته ، قدّم التطور الاجتماعى الى المسرح التاريخى فى مصر فى السبعينيات من القرن التاسع عشر ، عناصر جديدة من البرجوازية الوطنية أكثر ديمقراطية وتطورا . فاكتسحت عندئذ الحركة البرجوازية الديمقراطية النامية ، الملاكين شبه الاقطاعيين فى مصر برئاسة اسماعيل من طريق التاريخ الرئيسية .

الفصل الثالث عشر

استيلاء فرنسا على الجزائر والحرب التحررية للشعب الجزائرى بقيادة عبد القادر

الجزائر عشية الفتح الفرنسى . كانت تعتبر الجزائر شكليا من املاك الامبراطورية العثمانية وكانت تعانى تدهورا خطيرا فى نهاية القرن الثامن عشر. اذ كان مستوى التطور الاقتصادى فيها منخفضا جدا. وكان يزاول معظم السكان البدو تربية المواشى . اما سكان الوديان والواحات فكانوا يمارسون الزراعة كزراعة القمح والشعير وغرس اشجار الزيتون والبلح . واشتهرت مدن قليلة بمنتجاتها الحرفية الفنية وبالتجارة .

وكان اهل البلاد الاصليون يتألفون من العرب والبربر . وكان جميعهم تقريبا باستثناء قاطنى المدن وبعض المناطق الحضرية متحدين فى عشائر وقبائل . وكانت ملكية الارض المشاعية أكثر انواع الملكيات انتشارا . وكانت تعود الاراضى للعشائر فى المناطق البدوية ، وللمشاعية القروية فى المناطق المستقرة . واحتفظ فى بعض الاماكن بالفلاحة الجماعية وكانت تجنى المحاصيل على اساس مشترك ، وكذلك كان الشأن مع الاستهلاك فى نطاق العوائل الكبيرة التى كانت تنقسم اليها العشائر .

وعرقل النظام الاقطاعى القائم فى الجزائر آنذاك ، تطور البلاد الاجتماعى بصورة خطيرة . وفضلا عن الاراضى المشاعية ، كانت توجد فى الجزائر اراض اميرية واراضى الحبوسات * ، وكذلك العقارات

* الحبوس هو الوقف فى شمال افريقية .

التى كانت ملكا خاصا للاقطاعيين . واستغل الاقطاعيون الخماسين * المستعبَدين ونهبوا البدو والمزارعين الاحرار واحلوا الخراب بهم . واثار رؤساء الانكشارية الذين كانوا يحكمون البلاد ، العداء بين القبائل المتفرقة . واحتفظ الانكشارية بسيطرتهم على الجزائر ، مستغلين الخلافات العشائرية القبيلية والاقطاعية . فمنحوا بعض القبائل ، المعروفة بقبائل المخزن ، امتيازات خاصة . وساعدت هذه القبائل الاتراك على جباية الضرائب وكانت معفاة من جميع انواع الضرائب لانها كانت تؤدى الخدمة العسكرية . وغالبا ما تمتع الكثير من الشيوخ ورؤساء القبائل بسلطتهم الوراثية المطلقة .

واثار نير الاقطاعيين الاتراك والمحليين حركات شعبية ، وخاصة البدو . وكانت تتخذ هذه الحركات دوما صبغة دينية . وكانت للطرائق الدينية التى ترأست هذه الحركات ، صلات وثيقة مع الجماهير القبيلية . وغالبا ما اصبح رؤساؤها ، المرابطون ، الذين قادوا الانتفاضات الشعبية طغاة اقطاعيين انفسهم فيما بعد . وخاضت الطرائق الدينية نضالا دؤوبا ضد الاتراك وتمتعت بنفوذ كبير بين الجماهير الشعبية . وكانت القادرية والرحمانية أكبر هذه الطرائق الدينية .

استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر . اصبحت الجزائر ، كاضعف حلقة فى شمالى افريقيا ، اول ضحية للتوسع الفرنسى فى المغرب . وفى نفس الوقت كان هذا التوسع اول فتح استعمارى للاقطار العربية حدث فى مرحلة التطور الرأسمالى التى سبقت ظهور الاحتكارات .

وقد نضجت مشاريع الفتح الفرنسى للجزائر منذ وقت طويل قبل «ضربة المروحة» الشهيرة اذ قد اعتبر نابليون الاول الجزائر كسوق خارجية ضرورية لتطور الصناعة الفرنسية . وفى حديث له مع ألكسندر الاول فى تيلسيت (عام ١٨٠٧) وارفورت (عام ١٨٠٨) كان نابليون الاول يضيف دوما الجزائر

---

* الخماسون هم الفلاحون الذين لا يملكون ارضا ويزرعون الارض على اساس استيفاء خمس المحصول .

الى ممتلكاته المقبلة عندما تثار مسالة تجزئة الامبراطورية العثمانية . واستعدادا للاستيلاء على هذه البلاد ، اوفد نابليون الى الجزائر وتونس عام ١٨٠٨ المهندس الحربى الماجور بوتين لاجراء مسح طوبوغرافى فيهما ولاعداد مخطط الحملة عليهما . ورغم ان نابليون الاول لم يتمكن من تحقيق مآربه لانهزامه فى اسبانيا وروسيا ، الا ان المعلومات التى حصل عليها بوتين كانت ذات فائدة فيما بعد اثناء الاستعداد لحملة عام ١٨٣٠ .

وتذكر شارل العاشر مشاريع نابليون الاول عندما كانت ملكية البوربون تعيش ايامها الاخيرة . وكان التعطش لاسواق جديدة العامل الاساسى للاستيلاء على وصاية عرش الجزائر ، كما كانت تعرف البلاد فى السجلات الرسمية لذلك الوقت . ولم تكن رغبة الملاكين الفرنسيين فى اقتناء ضياع جديدة امرا يستهان به ، إذ انهم فقدوا اراضيهم فى وقت الثورة الفرنسية العظمى . واخيراً ، كانت اسرة البوربون تحلم بتوطيد عرشها المتزعزع عن طريق فتح الجزائر . وقدّر شارل العاشر وبولينياك رئيس وزرائه ان المخاطرة الحربية لا بد من ان تزيد من موجة الشعور الشوفينى وان تعيق اندلاع الثورة . وساندت روسيا القيصرية مشاريع الاستيلاء المرسومة من قبل ملكية البوربون . ورغم ان انكلترا كانت قد احتجت على ذلك ، الا انها لم تبد اى مقاومة حازمة .

وقدّمت فرنسا كذريعة وستار دعائى للمخاطرة الجزائرية ، قضية «القرصنة والسجناء الجزائريين المعذبين» وقضية الحسابات النقدية لحكومة الداى . ويجب التنويه بان القرصنة المغربية كانت قد اصيبت بالوهن منذ القرن الثامن عشر وخاصة بعد الحملات التنكيلية التى قامت بها الاساطيل الاوربية والتابعة للولايات المتحدة فى مطلع القرن التاسع عشر ، ولم تعد منذ وقت طويل تدر بالارباح على الطغمة الحاكمة فى الجزائر . ومع ذلك ، فان عدم موافقة الجزائريين علىّ قرارات مؤتمر «أكس لا شابل» اتاح لفرنسا فرصة التاكيد بان حكومة الداى كانت حامية للقرصنة .

وبطبيعة الحال كانت مسالة الحسابات النقدية وهمية فى جوهرها . ففى وقت الثورة كان الداى مستمرا فى تزويد فرنسا

بالقمح واللحوم المملّحة والجلود بينما كانت محاصرة من جميع الجهـــات ، وزوّد الجيش البونابرتـــى بالمؤن فى فترة الحملتين الايطالية والمصريـة . وكان القسـم الاكبر من هذه المواد قد صدر كقروض ، اذ لم يتقاض الداى عنها شيئا . ولم ترض الداى اتفاقية تسديد الديون وتسوية الدعاوى المتبادلة التى وقّعت فيما بعد بواسطة بكرى وابى زناك التاجرين اليهوديين الجزائريين . انه اعتبر ان الجانب الفرنسى كان قد خدعه ، فخسرت الخزينة الجزائريـــة بسبب ذلك بضعة ملايين من الفرنكات . واستغرق النزاع حول الديون بضع سنوات ، الامر الذى ازعج الداى وحاشيته . وبالاضافة الى ذلك نشأ خلاف بشأن حصن فى القالة ، اذ أخذ الفرنسيون بتقويته رغم المنع الرسمى الذى اصدره الداى .

وتفاقمت هذه الخلافـــات كثيرا بجهود القنصل الفرنسى فى الجزائر بيير ديفـــال ، الذى كان يعتبر فيهـــا ، حسب تعبير احد المؤرخين الفرنسيين ، ذا سمعة مشبوهـــة ونذلا وسافلا ومدبرا للمكائد . وقد لعب القنصل فى الخلاف النقدى دورا قذرا استفزازيا . فدبّر المكائد ولفّق الاكاذيب وابتزّ الاموال والرشاوى من الداى . وفى صبيحة يوم قائظ ، هو يوم ٢٩ نيسان (ابريل) ١٨٢٧ ، اهان ديفال ، اثناء المهاترات التى لا تحصى ، الداى اهانة شديدة . فضرب الداى الممتعض ديفال السافل بمروحة كان يهوى بها نفسه ويطرد الذباب اللجوج عنه .

فقدمت ضربة المروحـــة العذر المنتظر منذ امد طويل . اذ قطعت فرنسا فورا جميع علاقاتها مع الجزائر وضربت حصارا بحريا على الساحل الجزائرى . وعزمت على تحريك اصابع المصريين بادىء الامر . وفى ١٨٢٩ ، وافق محمد على ـ حاكم مصر ، وكان من اهم حلفاء فرنسا فى الشرق ، على الهجوم على الجزائر ، الا ان المساومة لم تتمّ مع الفرنسيين بسبب ضآلة التعويض .

وفى ظروف كهذه ، قررت حكومة بولينياك ـ الملك شارل العاشر ، ان تعمل فرنسا مستقلة . فبتاريخ ١٤ حزيران (يونيو) ١٨٣٠ نزل جيش فرنسى تعداده ٣٧ الف مقاتل على شاطىء خليج سيدى فَرّج الواقع على بعد ٢٣ كيلومترا الى غرب الجزائر و كان

يقوده الجنرال دى بورمون . وكانت المقاومة الجزائرية شديدة الا انها عديمة الجدوى . اذ قد فقد الفرنسيون فى المعـــارك التى خاضوها للاستيلاء على الجزائر ٤٠٠ شخص بينما فقد الاتراك ١٠ آلاف شخص . وفى ٤ تمـــوز (يوليـــو) ١٨٣٠ سقط حصن الامبراطور . وفى المساء وقّع الداى على وثيقة الاستسلام دون قيد او شرط ، وفى اليوم التـــالى اى فى ٥ تموز (يوليو) ، دخـــل الفرنسيون مدينة الجزائر . وفى ٢٣ تموز (يوليو) ١٨٣٠ ، أقصى الداى عن البلاد ، وغادر الانكشارية الجزائر الى تركيـــا . فنهب المنتصرون خزينة الجزائر (حوالى ٤٨ مليون فرنك او ١٢ مليون روبل فضى) . كما استولوا على المساكن والاراضى والاموال العائدة الى كثرة من الجزائريين .

وحدثت بعد اسبوعين ثورة فى باريس . فانهار عرش شارل العاشر المتزعزع . وحاول الجنرال دى بورمون استخـدام قواتـه لانقاذ اسرة البوربون ، الا انه لقى مقاومـــة من حشود الجنود . فغادر الجيش وفرّ هاربا الى البرتغال .

فتولىّ حكـــم تموز (يوليو) المَلَكــى للويس فيليب دى اورليان ــ ملك فرنسا آنذاك ، الارث الجزائرى من اسرة البوربون وقرّر بعد تردد لم يطل امده مواصلـــة الحرب من اجل الاغراض الانانية الخاصة لاسياد فرنسا الجدد وهم من فرسان كيس النقود والكسب اليسير . وفى ١٨٣٤ أعلن لويس فيليب وفقا لتوصيات « لجنة شؤون افريقيا » ضم الجزائر رسمياً الى فرنســـا ، ونظّم الادارة المدنية « للمتلكات الفرنسية فى شمالى افريقيا » برئاســـة الحاكم العام . ولم يكن فى حيازة فرنسا قبيل ذلك الوقت الا المدن الجزائرية الساحلية وهى الجزائر وبونة (عنابة) ووهران ومستغانم وارزيو وبجاية وكذلك الساحل الجزائرى ومتيجة . ولم يخضـــع القسم الباقى من الجزائر للسلطات الفرنسية .

الحرب التحررية . عبد القادر . وبعد ان استولى دى بورمون على الجزائر ، اعلن فى تقريره وهو واثق تماما من نفسه : « بانه ستخضع الينا جميـــع المَمْلَكَة خـــلال ١٥ يومـــا وبدون طلقـــة واحدة » . ولكنه اخطأ الحساب اذ لم يخضع الفرنسيون البلاد الا

بعد ٤٠ عاما شنوا خلالها حروبا دموية ضد الشعب الجزائرى .

ولم تكد انباء الاستيلاء على العاصمة تنتشر فى البلاد ، حتى هبت القبائل مناضلة ضد الغزاة . واستخدم الجزائريون تاكتيك الارض المحروقة ، فوجدت القوات الفرنسية نفسها مرارا فى وضع حرج اذ كانت تعتمد على تموينها محلياً . وادّت المصادرة واعمال النهب التى قام بها الجيش الفرنسى الى رصّ صفوف السكان أكثر من ذى قبل وتوحيدهم لصدّ المعتدين. وفى غرب الجزائر، قاد الحركة البطل الشعبى عبد القادر وفى شرقها ـ حاكم منطقة قسنطينة ـ الباى احمد .

ولقد ولد عبد القادر عام ١٨٠٨ فى عائلة محى الدين المرابطية . وترأس والده القادرية وهى الطريقة الدينية فى غربى الجزائر . وخلال سنوات عديدة خاض النضال ضد الفاتحين الاتراك ، ومن ثم ضد المحتلين الفرنسيين . وكان عبد القادر قد حصل على ثقافة لاهوتية وحج ، قبل الغزو الفرنسي للجزائر ، الى مكة وعرج على بغداد ومصر وتركت اصلاحات محمد علي تأثيرا كثيرا لديه .

ولم يكن عبد القادر مرابطا عاديا . بل قبل كل شيء محاربا جريئا وفارسا ماهرا وقناصا صائبا وقائدا عسكريا عبقريا . وكان خطيبا ملهما يسحر السامعين كلامه الحكيم الفصيح ، وكاتبا فذا ومنظما قديرا .

وفى ١٨٣٢ اختارت القبائل وهى تحارب المحتلين ، عبد القادر قائدا لها . وعندئذ واجهته أصعب المهام ، وهى التغلب على الانقسام الاقطاعى والقبيلي واخماد الخلافات القديمة وتوحيد الشعب فى لحمة واحدة وفى مطمح واحد ، هو الدفاع عن استقلال الوطن . واذ استطاع عبد القادر ان ينجز الشيء الكثير فى هذا الاتجاه ، فلقد كان مردّ ذلك كونه قريبا الى الجماهير الشعبية ومعبرا عن امانيها .

وبعد ان قاد عبد القادر نضال قبائل غربىّ الجزائر ، انزل ضربات قاصمة بالقوات الفرنسية ، مستخدما التاكتيك الكلاسيكى ، تاكتيك حرب الانصار . وبعد ما تكبدت فرنسا جملة من الهزائم والاخفاقات الكبيرة ، وافقت على المفاوضات مع عبد القادر . وفى شباط (فبراير) ١٨٣٤ عقدت معه ما يعرف بمعاهدة دى ميشيل . وقد رضى

عبد القادر بهذه المعاهدة عن طيب خاطر لانه شعر بضرورة الى فترة راحة سلمية لاعادة تنظيم الجيش واعداد قواته اعدادا أفضل لخوض حرب مقبلة ضد المغتصب . وفضلا عن ذلك اعترفت هذه المعاهدة بان كل غربى الجزائر ما خلا ثلاث مدن ساحلية هو اراض تابعة للدولة العربية الجديدة ذات السيادة برئاسة عبد القادر الذى اتخذ لقب امير المؤمنين .

وواصل عبد القادر بعد ما اصبح حاكم دولة كبيرة ، حياته المتواضعة : فاكل البسيط من الطعام وشرب الماء القراح ، ولم يتحلّ باية حلية . وكان امينا لتقاليد القبائل الرحل وفضّل السكنى فى خيمة . ولم يكن يملك عبد القادر سوى قطيع صغير من النعاج وقطعة ارض يحرثها زوجان من الثيران . وكانت ثروته الوحيدة مكتبة ممتازة . ولم يصرف لحاجاته الشخصية حتى ولا قرشا واحدا من تلك الايرادات الكبيرة ، التى كانت تدفع لخزينته من القبائل الجزائرية .

وركّز عبد القادر جلّ اهتمامه على الجيش ــ فهو الوسيلة الاساسية للكفاح ضد الغزاة . وبالاضافة الى القوات غير النظامية من متطوعى القبائل الذين يبلغ عددهم حوالى ٧٠ الف شخص ، الّف عبد القادر جيشا نظاميا قوامه ١٠ آلاف جندى . وعهدت قيادة الجيش الى الاغا العسكرى . وكان ينقسم الجيش الى وحدات مكونة من الف جندى او (كتائب) ومائة جندى وفصائل ، كان يقودها على التوالى : الاغا والسياف ورئيس الصف . وكان لدى عبد القادر ٣٦ مدفعا (منها ١٢ فقط صالحة للاستعمال فى الواقع) . واستقدم عبد القادر المدربين من مراكش وتونس لتدريب وتنظيم وحدات الجيش النظامية . كما كان يوجد بعض المدربين الاوربيين وخاصة الفرنسيين . وحصل عبد القادر على مساعدة كبيرة من مراكش لتجهيز قواته . اذ قامت علاقات متينة بينه وبين سلطان مراكش الذى جهّزه بالاسلحة والاموال . ولاسكان الجيش والدفاع عن البلاد ، شيّد عبد القادر الثكنات والحصون وانشأ لتجهيزه معملا لصبّ الحديد ومعملين للبارود ومصنع نسيج (مانيفاكتورة) .

وللحصول على موارد للانفاق على الجيش والبناء الحربى ،

كان عبد القادر يستعين على السواء بالاساليب القديمة التقليدية والاساليب الحديثة الاستثنائية . فجبى من الاراضى التابعة له العشر ، والزكاة من كل رأس من تعداد الماشية ، وضرائب استثنائية . وفضلا عن ذلك ، استعان باعانات سلطان مراكش ومداخيل الاراضى الاميرية والاحتكارات . واخيرا ، كانت ترد الى خزينته الغنائم المتأتية عند الغارات على القبائل المعادية له وغير المنضمة الى حركته وحتى المنحازة الى الفرنسيين .

وكانت قاعدة عبد القادر الاجتماعية مكونة من رجال الدين الاسلامى واهل البداوة الذين كانوا يؤلفون قسما اساسيا فى جيشه . ويمكن وصف النظام الاجتماعى كاقطاعى مبكر حيث نجد ضمن اسلوب الانتاج الاقطاعى بقايا هامة من نظام المشاعية البدائية . ومع ان عبد القادر لم يغير اسس اسلوب الانتاج الاقطاعى ، الا انه ادرك ضرورة تخفيف النير الاقطاعى . ولهذا اجرى عددا من الاصلاحات للحدّ فى التعسف الاقطاعى . وقام باصلاحات ادارية ، فجزأ البلاد الى ٩ مناطق يترأسها «خلفاؤه» — اى ولاة ينوبون عنه ويخضعون الى السلطة المركزية . والغى نظام بيع المناصب ، وطارد مختلسى اموال الدولة وحاول حماية العرب الرحل والفلاحين من تعسف الاقطاعيين وشيوخ القبائل .

ولم يكن باستطاعة عبد القادر القضاء على العلاقات الاقطاعية فى الجزائر ، بل ولم يضع نصب اعينه مهمة كهذه . الا انه قلّص من الحكم المطلق الذى كان يتمتع به الاقطاعيون ، فكانوا يمقتونه ويقولون بحقد : «لقد حلّ عهد حكم الرعاة والمرابطين» . ورفض الشيوخ الاقطاعيون فى شرقى الجزائر الخضوع له . وخاضوا بقيادة الباى احمد النضال ضد الفاتحين الفرنسيين بمعزل عن عبد القادر . ولم يخضع له اقطاعيو منطقة «القبائل» وشيوخ واحات الصحراء . وكان عبد القادر يعيّن عادة المرابطين كمفوضين عنه او رؤساء الاقطاعيين فى حالات نادرة فقط . وحتى اولئك الاقطاعيون المتحالفون مع عبد القادر ، كانوا مستعدين بخيانته والوشاية به عند الفرنسيين . اذ انهم وضعوا مصالحهم ومنافعهم الشخصية قبل مصالح الوطن . واضعف غدر الاقطاعيين وفتنهم الدولة التى كوّنها

عبد القادر أكثر من نجاح الجنرالات الفرنسيين المشكوك فيه .
واقتحم الجنرالات الفرنسيون اراضى عبد القادر عام ١٨٣٥ خارقين بغدر المعاهدة التى كانوا قد عقدوها معــه . فانتهت بهذا الفترة السلمية . ومع ذلك ابرمت فرنسا بعد عامين ، شنّت فيها حربا عنيفة ولكن غير مجدية ، معاهدة جديدة مع عبد القــادر . ووقّعت المعاهدة فى ٣٠ ايار (مايو) ١٨٣٧ على نهر التافنـــا . واضطر الفرنسيون فى هذه المرة الى الاعتراف بسلطة عبد القادر لا فى غربى الجزائر فحسب ، بل وفى اواسطها ايضا .
ووافقوا على ذلك لكى يكونوا قادرين على تحشيد كل قواهم للهجوم على قسنطينة ، حيث كانت توجد البؤرة الثانية للمقاومة ضد الفرنسيين .
الاستيلاء على قسنطينة . حرب جديدة مع عبد القادر . حاول الفرنسيون فى شتاء ١٨٣٦ فتح قسنطينة ، الا انهم دحروا من قبل العرب وتراجعوا بعد ان فقدوا ألف شخص . وبعد مرور عام ، عقدوا الصلح مع عبد القادر ، وقام الفرنسيون بارسال قوات حربية كبيرة الى قسنطينــــة . وفى تشرين الاول (اكتوبــر) ١٨٣٧ ، استطاعوا فى آخر المطاف ، فتح هذه المدينة الواقعة على صخرة شاهقة والتى كانت تترآى وكأنها منيعة . وقد ابدى سكان المدينـــة مقاومة عنيدة . ودارت المعارك فى الشوارع الضيّقة وفى كل زاوية وتحت كل سقف . واضطر الباى احمد فى النهاية الى التقهقر الى قلب البلاد للتوجه الى الجبال النائية ، حيث واصل المقاومة لمدة من الزمن .
وصاحب فتح قسنطينـــة واخضاع القسم الشرقى من الجزائر اعمال نهب استعمارية وحشية . اذ استولى الفرنسيون على اراضى واموال المغلوبين . وكنتيجة لهذه الاعمال اندلعت الاضطرابات . وشرعت قبائل شرقى الجزائر فى خوض حرب الانصار ضد الغزاة . واعترفت بعبد القادر قائدا لها والتمست منه انتداب مفوضيه الى مناطق قسنطينة .
واستنادا الى ذلك اتّهم الفرنسيون عبد القادر بخرق معاهدة الصلح ، وفى ١٨٣٩ اضرموا ضده نار حرب جديدة . وأعلن عبد

القادر من جانبه ضد فرنسا الجهاد المقدس الذى استغرق بضع سنوات .

وقبيل ١٨٣٩ ، حشّدت فرنسا فى الجزائر جيشا قوامه ٧٠ الف محارب واستمرت بارسال الامدادات . وهلك آلاف من الجنود الفرنسيين اثناء المعركة او بسبب الاوبئة والحر الذى لا يطاق وتبخرات المستنقعات والجوع . الا ان تعداد الجيش الفرنسى كان يتزايد على الدوام . فبينما كان تعداده ٤٢ الف جندى عام ١٨٣٧ ، بلغ عام ١٨٤٤ تسعين الف شخص اى ضعف قوات عبد القادر . وكان فى حوزته معدات حربية لم يتصورها العرب . ولم يكن باستطاعة عبد القادر مجابهة هذه القوة الفرنسية الا بفضل تفوق محاربيه المعنوى وتاكتيك الانصار الحاذق . وكتب عبد القادر الى المارشال الفرنسى : «عندما يهجم جيشك ، نتراجع . وعندها يضطر جيشك الى التراجع ، وسنعود الكرة . ونقاتل ، عندما نرى لزوم ذلك . وانت تعرف باننا لسنا جبناء . الا اننا لسنا بالاغبياء لنعرّض انفسنا لطعنات جيشك . وسنحاول انهاكه وتمزيقه وتدميره قطعة فقطعة وعلى الطقس ان يقوم بالباقى» . واتاح هذا التاكتيك الى قوات عبد القادر ان تقاوم خلال سنوات عديدة .

ولقد عين لقيادة الجيش المحتل المارشال بيجو ـ وهو من اكبر القواد الفرنسيين . واخذ هذا المارشال برشوة الاقطاعيين الجزائريين ، الذين اصبحوا فى حالة تبعية لفرنسا وحصلوا على مناصب نواب فى اشد مناطق البلاد تاخرا . واستخدم بيجو فى حروبه ضد عبد القادر تاكتيكا جديدا يعرف بالطوابير المتحركة . واختار ما بين ٩ الى ١٢ طابورا تتحرك فى الوقت نفسه فى الطرق المرسومة لها ، وفتشت هذه الوحدات العسكرية قطاعات البلاد واستولت على الحصون والمدن ، حيث كانت قواعد عبد القادر ومصانعه الحربية . وكانت هذه الاعمال اقرب الى «مناوشات الانصار» المتبادلة منها الى العمليات الحربية المنظمة . واستغرقت المعارك والهجمات المتبادلة بضع سنوات . واستخدم الفرنسيون اشدّ الاساليب وحشية لارهاب الشعب الجزائرى ، وابادوا القبائل الموالية لعبد القادر عن بكرة ابيها . وبشهادة المساهمين فى الحملة ،

قام الفرنسيون بقطع آذان الاسرى وسبوا الزوجات العربيات والاطفال واستولوا على القطعان ، واستبدلوا النساء السبايا بالخيول او عرضوهن في المزاد العلني كالدواب . وكتب احد المعاصرين قائلا : «ان قطع رأس الاسير غلانية لتلقين العرب درسا لاحترام السلطة كان امرا هينا لدى الفرنسيين» .

وبنتيجة هذه الحرب الوحشية ، واضرام لهيب الشقاق القبلي وخيانة من قبل كثيرين من الاقطاعيين ، تمكن الفرنسيون من اقصاء عبد القادر عن الجزائر واخضاع اراضيه بعد ٤ سنوات من النضال . الا ان عبد القادر لم يستسلم . ففي ١٨٤٤ ، التجأ مع جماعة من زملائه المخلصين الى مراكش ، التي كانت تساعده مساعدة فعّالة طيلة هذه السنوات . وأخذ يعدّ العدة لمعارك جديدة .

الحرب الفرنسية المراكشية ١٨٤٤ . وجّه بيجو انذارا نهائيا الى سلطان مراكش مولاي عبد الرحمن مطالبا اياه بتسليم عبد القادر . ولما رفض السلطان ، اقتحم بيجو مع قواته ارض مراكش ودحر في ١٤ آب (اغسطس) ١٨٤٤ جيش سلطان مراكش شبه الاقطاعي في موقعة ضروس عند نهر أسلي . وفي الوقت ذاته قصف الاسطول الفرنسي بقيادة الامير جوانفيل المدينتين المراكشيتين الساحليتين ، طنجة في السادس من آب (اغسطس) والصويرة (موغادور) في ١٥ آب (اغسطس) ١٨٤٤ . ولم يكبح هوس الغزاة الحربي الا تهديد الانكليز بالتدخل مما ادّى الى انقاذ مولاي عبد الرحمن . واضطر الفرنسيون الى الجلاء عن مراكش . الا ان مولاي عبد الرحمن اعلن وفقا لصلح طنجة المنعقد في ١٠ ايلول (سبتمبر) ١٨٤٤ ، بان عبد القادر اصبح خارج حكم القانون ، وامتنع عن تقديم اية مساعدة للانتفاضة الجزائرية ، وتعهّد بسحب قواته من الحدود ومعاقبة الضباط «المجرمين» الذين ساعدوا الثوار[9] . ولم تثبت المعاهدة حدودا دقيقة بين الجزائر ومراكش ، الا لجزء صغير نسبيا يقع على ساحل البحر الابيض المتوسط . اما الجزء الواقع بعيدا الى الجنوب فلم تكن حدوده واضحة وهناك كانت تكمن امكانية خلافات جديدة .

بداية الاستعمار . انتفاضة ١٨٤٥ـ١٨٤٦ . عاد عبد القادر الى الجزائر بعد فترة قصيرة من عقد صلح طنجة وقاد حركة الانصار وهو متشرد فى الصحراء . ونشبت فى ذلك الوقت انتفاضة شعبية جديدة بقيادة الراعى ابى معزى فى المنطقة الواقعة بين وهران والجزائر بشمال البلاد .

وكان سبب الانتفاضة نهب الاراضى من قبل الغزاة الفرنسيين . اذ شرعت السلطات الفرنسية فى اوائل سنوات الاحتلال فى اغتصاب الاراضى على نطاق واسع . وفى ٨ ايلول (سبتمبر) ١٨٣٠ ، اعلنت كافة الاراضى الاميرية (البيالك) واراضى الاتراك الجزائريين كأملاك للدولة الفرنسية . وفى اول آذار (مارس) ١٨٣٣ صدر قانون بنزع ملكية الاراضى ، التى لا توجد مستندات لحيازتها . وفى ١٨٣٩ جرت مصادرة اراضى القبائل الثائرة فى متيجة والساحل الجزائرى . وانتقلت كل هذه الاراضى الى قبضة المستعمرين الفرنسيين ، او اصبحت عرضة لمضاربات هائلة . وفى الركض وراء الكسب السهل ، قدم الى الجزائر مضاربو الاراضى والمغامرون والنبلاء ، الذين فقدوا ضياعهم فى فرنسا وأنشأوا فى السهول الخصبة المحيطة بمدينة الجزائر ضياعا اقطاعية جديدة وحولوا الفلاحين العرب الذين اغتصبت اراضيهم الى اقنان لهم او «خماسين» واحاط بعض المستعمرين انفسهم بالفخفخة الشرقية وشيّدوا القصور واقتنوا الحريم . واثرى الجنرالات الفرنسيون وكبار الموظفين الذين أسهموا فى كافة هذه الاعمال المشينة واستحوذوا على ضياع كبيرة .

كما اتخذ نهب الاراضى مدى واسعا بنتيجة تطبيق «الاصلاح الزراعى» من قبل المستعمرين . ففى عام ١٨٤٣ـ١٨٤٤ نشرت السلطات الفرنسية مراسيم ضمنت نموا سريعا للاستعمار الفرنسى . وفى ٢٤ آذار (مارس) ١٨٤٣ ، نشر مرسوم لمصادرة الحبوسات (الاوقاف) ، اى الاراضى التابعة للمساجد والمؤسسات الخيرية الاسلامية . وفى اول تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٤ سمح للاوربيين بابتياع الاوقاف الخاصة على اساس عقد دائم لا يمكن فسخه . واخيرا فان مرسوم اول تشرين الاول ١٨٤٤ ، الذى

صودق عليه فى ٢١ تموز (يوليو) ١٨٤٦ ، أعلن جميع الاراضى التى لا مالك لها ملكا للحكومة (باعتبارهـــا اراضى بور لم تصدر سندات تعترف بحق ملكتيها قبل اول تموز ــ يوليو ــ ١٨٣٠) .
واستنادا الى هذه «القوانين» دعيت جميع القبائل الجزائرية الى ابراز السندات لاثبات حقوقها فى الارض . وفى اغلب الحالات لم يكن لدى القبائل مثل هذه السندات اذ انها كانت تمتلك الأراضى وفقا للعرف والعادة . وهذا ما كان يبيته المستعمرون . وبدأت مصادرة الاملاك على نطاق شامل . ففى منطقة الجزائر وحدهـــا صادرت السلطات الفرنسية ١٦٨ ألف هكتار ، واستلم العرب منها ٣٠ ألفا والمستعمرون الفرنسيون ١٣٨ ألف هكتار . وحدثت العملية ذاتها فى سائر انحاء البلاد .
ولقد ادّى نهب الاراضى الى نفاد صبر السكان ، ففى ١٨٤٥ انتفض جميـــع غربى الجزائر فى وجـــه المستعمرين الفرنسيين واستغاث بطل الانتفاضة ابو معزى بعبد القادر وسلمــــه قيادة النضال الشعبى . فهرع الفرنسيون الى مضاعفة جيش الاحتلال حتى بلغ تعداده ١٠٨ آلاف شخص . وابادت ١٨ وحدة تنكيلية مجددا السكان ودمرّت القرى .وقد ضرب الجنرالان بليسيبيه وسانت ارنو الرقم القياسى فى الاعمال الهمجية التى ارتكبت اثناء هذه الحملة . اذ طرد بليسيبيه آلافا من العرب الى الكهوف الجبلية حيث خنقهـــم بالدخان . وردم سانت ارنو فى الكهوف ١٥٠٠ عربى بضمنهـــم النساء والاطفال . ولم يتاخر عنهما كافينياك الذى كان فى ذلك الوقت فى صفوف جيش الاحتلال الفرنسى .
وان الاضطهاد العنيف ومرسوم مصادرة الاراضى من جراء «التواطؤ مع الاعداء» الصـــادر فى ٣١ تموز (يوليو) ١٨٤٥ أدّيا الى النتائج المتوخاة . اذ أخذت الانتفاضة تتضاءل ولاحقت الوحدات الفرنسية دون كلل عبد القادر فى محاولة منها لمحاصرته . الا انه تراجع الى الواحات الصحراوية حيث واصل حرب الانصار . ولم يستطع الفرنسيون أسر عبد القادر وارساله الى فرنسا الا فى نهاية عام ١٨٤٧ وذلك نتيجة لخيانة سلطان مراكش . وسمح له بعد خمس سنوات بالذهاب الى الشرق . فعاش بضع سنوات فى

بروسا ثم استوطن عام ١٨٥٥ فى دمشق حيث قضى هناك ما تبقى من حياته . وفارق عبد القادر الحياة عام ١٨٨٣ فى سن طاعنة . واسر الفرنسيون اثر عبد القادر ، الباى احمد (١٨٤٨) .

انتفاضات شعبية فى الخمسينيات . بعد استسلام عبد القادر اصبحت جميع البلاد فى قبضة الفرنسيين ، ما عدا منطقتين همـا واحات الجنوب النائية ومنطقة القبائل الجبليـــة . وقد استغرق افتتاحهما بضع سنوات اخرى . وفى ١٨٤٩ قام الفرنسيون بحملة على القسم الجنوبى واستولوا على جملة من الواحـات فى الصحراء الجزائرية . وقد ازيلت من وجه المعمورة واحة الزعاطشة العاصية ، حيث اضطر الفرنسيون الى القتال فى كل خيمة من اجل اخذهـا . واعدم قائد النضال الشعبى ابو زيان ، وقطع «المتمدنون» رأسه ووضعوه على سور الحصن .

وفى ١٨٥١ تشبت انتفاضة كبيرة بقيادة ابى بقلة فى منطقة القبائل الجبلية . وقامت حملة تنكيلية بتدمير ونهب ٣٠٠ قرية الا انها لم تستطع القبض على قائد الانتفاضة .

وفى ١٨٥٢ ، نشبت انتفاضة كبيرة اخرى فى واحة الاغواط ، وفى ١٨٥٤ فى واحة تقرت . ولم تكد تبدأ الحرب الشرقيـــة عام ١٨٥٤ ، حتى استؤنف النضال فى القبائل مجددا وعلى نطاق واسع . وبقيادة ابى بقلة صدّت الجماهير الشعبية بنجاح هجوم الحملات التنكيلية الفرنسية خلال ٣ سنوات (١٨٥٤-١٨٥٧) . وفى هذا النضال لعبت الطريقة الدينية الرحمانية دورا طليعيا . ولم يستطع الجنرالات الفرنسيون اخضاع منطقة القبائل الا فى تموز (يوليو) عام ١٨٥٧ .

وكانت الحرب الجزائرية كمدرسة لجلادى الطبقة العاملـــة الفرنسية ، حيث برز كافينياك وسانت ارنو ومكماهون ، وطبقوا فيما بعد على البروليتاريا الثورية فى باريس تلك الاساليب التنكيلية الدموية نفسها التى كانوا قد استخدموهـــا فى الجزائر ضد العرب المحبين للحرية .

الجزائر تحت سلطة البرجوازية الفرنسية . كانت الجزائر بلادا زراعيـــة ، ولم يفكر الرأسماليون الفرنسيون ، بعد ما استولوا

عليها ، فى تطورها الصناعى اطلاقا . اذ قد نظروا اليها كسوق لترويج بضائعهم ومصدر للخامات والمواد الغذائية . وكان جلّ اهتمامهم اعتصار اكبر ما يمكن من الارباح وبيع بضائعهم فى اسواقها بابهظ الاثمان وشراء الخامات الزراعية المحلية بارخصهـــا . اما المدى الذى افلحوا فيه فى تطبيق هذه الخطة فتشهد عليه ارقام الاستيراد الى الجزائر والتصدير منها (المتوسط السنوى ، بمليون فرنك) :

الاعوام	الوارد (الى الجزائر)	الصادر (من الجزائر)
١٨٣٠-١٨٤٠	١٥	٢,١
١٨٤١-١٨٥٠	٧١,٩	٣,٧
١٨٥١-١٨٦٠	٨٠,٨	٣١,١
١٨٦١-١٨٧٠	١٧٢,٦	٨١,٦

واذا كانت الصناعة المنزلية اليدوية (الفلاحية والبدويـــة) والمنتوجات الحرفية (فى المدن) متطورة تطورا كبيرا قبل الفتح الفرنسى للجزائر ، فانها أخذت تتدهور بعده تدهورا تاما .

وكانت السلطات المحتلّة فى خدمة الرأسمال الفرنسى وتتجاوب تماما مع متطلباته . فضمنت له كليا امكانيـــة تصدير البضائع الصناعيـــة الى الجزائر بصورة غير محدودة . وادّى هذا فعلا الى خراب الجماهير الواسعة من الصناع وعجّل فى نشوء التناقضـــات بين فئات الشغيلة الجزائريين والمستعمرين الفرنسيين .

وبالاضافة الى هذا ، امتصّ الرأسمال الفرنسى بكميات اكبر فاكبر الخامات الجزائرية . واذا كان الرأسمـــال الفرنسى قد دمّر الانتاج الصناعى الجزائرى باستيراد البضائع الصناعية الى الجزائر ، فانه بتصديره الخامات اخضع فعلا انتاج الخامات والمواد الغذائية وكذلك الزراعة وصناعة التعدين فى الجزائر .

فما هو الاسلوب الذى اتبع لتحقيق هذه التبعية ؟ انـــه اغتصاب الاراضى قبل كل شىء ، اذ بعد اندحار عبد القادر وفشل الانتفاضات الشعبية فى الخمسينيات استمرت عملية اغتصـــاب الاراضى بوتائر معجّلة . وبنوع خاص اتخذ نهب الاراضى فى عهد

نابليون الثالث مدى واسعا . ولخص قانون ٢٦ شباط (فبراير) ١٨٥١ فى مجموعة واحدة كل القوانين الفرنسية «الزراعية» التى نشرت سابقا فى الجزائر ، واقرّ اصناف الاراضى التى كانت خاضعة للمصادرة لصالح السلطات الفرنسية ، وكانت بضمنها الغابات . وان نزع ملكية الغابات الكبيرة التى كانت تشمل ايضا مساحات هامة من الاحراش الصغيرة ، مكّن المستعمرين من الحصول على مليونى هكتار من الاراضى القابلة للاستصلاح الزراعى وحرم العرب من الاراضى الاحتياطية والمراعى والوقود والمواد الانشائية . ومنح هذا القانون حرية بيع وشراء الاراضى باستثناء اراضى القبائل ، التى كان من الممكن التنازل عنها للدولة فقط . ومع ذلك فلما كانت القبائل لم تتنازل عن اراضيها عن طيب خاطر فانه اتخذ عام ١٨٦١ تدبير جديد يعرف بـ «نظام الانزال» . وبموجب هذا النظام أعلن بـان الاراضى القبيلية هى للاستعمال فقط وليس للتملك . واستنادا الى ذلك كان الزاما على القبائل اعادة «الاراضى الفائضة» الى الدولة التى تعترف بالقبائل بعد اتمام هذه العملية فقط كمالكة للارض المتبقية لديها . ونتيجة لتطبيق هذا النظام لم يبق لدى العرب والبربر الا الاراضى التى زرعت من قبلهـم خلال سنتين قبل عام ١٨٦١ ، والمراعى التى كانوا يمتلكونها ايضا . واغتصبت الحكومة ٦١ الف هكتار من مجموع ٣٤٣ الف هكتـار كانت قد دخلت تحت تأثير «نظام الانزال» لعام ١٨٦١ .

واثار «نظام الانزال» الاستياء فى البلاد . فاضطر الفرنسيون بموجب مرسوم مجلس الشيوخ المبرم فى ٢٣ نيسـان (ابريل) ١٨٦٣ الى الاعتراف بكل الاراضى ، التى كانت فى استعمال القبائل كملكية خاصة بها . وقد نصّ هذا المرسوم على عدم جواز بيـع الملكية الجماعية ، واقترح فى نفس الوقت الشروع بتقسيم الاملاك الجماعية اولا بين القبائل والعشائر ومن ثمّ بين الاسر المتفرقة . ويسّر هذا المرسوم امكانية اكتساب الاراضى من قبل المعمّرين الفرنسيين ، كما اعطى الدولة امكانية الاستيلاء المباشر على قسم من الاراضى القبيليـة . وهكذا انتزع مثلا خلال سبـع سنوات (١٨٦٣ــ١٨٧٠) فقط مليون هكتار لصالح الاستعمار من مجموع

سبعة ملايين هكتار من الارض التى كانت معرضة للتقسيم .
فكيف استغلّت الاراضى المغتصبة من قبل الدولة ؟ أعطى قسم كبير منها للايجار تارة او انتقل الى ملكية المستعمرين الفرنسيين فى مجرى «الاستعمار الرسمى» تارة اخرى . وقبل ١٨٧١ كان قد اعطى للمعمرين ٤٨٠ ألف هكتار من اجود الاراضى . فذهب منها ٩٠٪ الى ايدى كبار الملاكين ، الذين كان لدى كل منهم ما يزيد عن ٥٠ هكتارا . ومع ذلك فان صغار المعمرين ممن كانوا يملكون اقل من ٥٠ هكتارا ، استغلّوا أراضيهم فى اكثر الاحيان بزرع غلات ذات محصول وفير (كالعنب والخضروات وغير ذلك) ، وكانوا فى الواقع اصحاب مشاريع كبيرة . وهكذا فلا اساس لاسطورة الاستعمار الفرنسى كثمرة لجهود الناس العاملين . وكان بين المعمرين بالطبع ، فلاحون فرنسيون وخاصة الكولاك (المزارعون الاغنياء) ، الا انهم كانوا اقلّية . فلم يكن يتجاوز عددهم الاجمالى اكثر من ٥ الى ١٠ آلاف . كما كان تافها جدا الوزن النوعى لمساحات الارض التابعة لهم .
وفضلا عن الاراضى ، التى اغتصبت فى مجرى «الاستعمار الرسمى» قام المعمرون الفرنسيون بابتياع اراض واسعة من مالكيها المحليين . وفى عهد نابليون الثالث ، جرى على نطاق واسع اغتصاب الاراضى (وخاصة التابعة للدولة) من قبل الشركات الرأسمالية الفرنسية الكبيرة ذات الامتيازات . وفى غضون ١٨٥١ـ١٨٦١ استلمت الشركات وكبار اصحاب الامتيازات ٧٠ الف هكتار من الارض . وحازت شركة الجنفواز «Compagnie Genevoise» وحدها على ٢٠ ألف هكتار من هذه الاراضى (وهذا علاوة على ٢٥٠ ألف هكتار ، وزّعت خلال هذه السنوات بطريقة «الاستعمار الرسمى») . وما بين ١٨٦١ـ١٨٧١ استحوذت الشركات ذات الامتيازات على اراض تبلغ مساحتها ٤٠٠ الف هكتار (بصرف النظر عن ١١٦ الف هكتار بشكل «هدية» جديدة «للاستعمار الرسمى») . ويتجلّى مدى هذه العمليات من الارقام التالية : استحوذت ٣٠ شركة كبيرة لا صحاب الامتيازات بين ١٨٦٢ـ١٨٦٣ فقط على اراض تشمل ١٦٠ الف هكتار من

الغابات ، وفى ١٨٦٥ استلمت «Société Générale Algérienne»
١٠٠ الف هكتار ، و «Société du Khabra et Makta» ـ ٢٥ الف هكتار .

وهكذا جرت عمليـــة تركيز الاراضى فى ايـــدى الشركات الرأسمالية الفرنسية وكبار المعمرين من جهة ، وجرت من جهـــة اخرى عملية اغتصـــاب اراضى جمـــاهير واسعـــة من الفلاحين الجزائريين ، وتحويل الفلاحين الاحرار اعضاء المشاعية الفلاحيـــة سابقا الى محاصصين مستعبدين وأجراء مستغلّين استغلالا فاحشا .

فهل يعنى هذا بانـــه قد طرأت تغيرات كبيرة فى اسلوب الانتاج ، وبانه انبثق هنا اقتصاد رأسمالى كبير ؟ كلا ! اطلاقا ! فرغم انه ليس من الصحيح نفى نشوء وتطور اقتصاد رأسمالى اذ قد تطور فى غضون تلك السنوات استخدام الاجراء فى الاماكن التى اتسعت فيها زراعة الكروم ، الا ان مساحـــة مزارع الكروم كانت ضئيلة حتى ١٨٧٠ وبقيت محصورة فى منطقة متيجة . اما الانتاج الكبير مع استعمال العمل المأجور فكان استثناء فى زراعة الحبوب التى بقيت الشكل الرئيسى للزراعة فى الجزائر . وكالسابق ، كانت الزراعة قائمة هنا على الانتاج الصغير للفلاحين . ومع ذلك حدثت آنذاك تغييرات جوهرية فى شروط هذا الانتاج الصغير .

فقبل الفتح الفرنسى كان هذا الانتاج اقتصادا خاصا باعضاء المشاعية الفلاحية الاحرار تارة او بالمحاصصين التابعين للاقطاعيين تارة اخرى . وكان لدى اعضاء المشاعية الاحرار فى الغالب عوائل كبيرة . وكان للاقتصاد سمة عينية كالعادة (رغم انـــه كانت قد تراكمت لدى الملاكين كميـــات كبيرة نوعـــا مـــا من الحبوب البضائعية) .

الا انه تقلّص فيما بعد عدد اعضاء المشاعية الفلاحية الاحرار تقلّصا كبيرا على اثر اغتصـــاب اراضى الفلاحين والاستيلاء على الاراضى المشاعية من قبل الرأسماليين الفرنسيين ، كما تضاعف عدد المحاصصين المستعبدين . وتحوّل الاقتصاد العينى اكثر فاكثر الى اقتصـــاد بضائعى . واشتد استغلال المرابين للمحاصصين ، وتمّ انتشار واســـع لنظـــام الخمّاسين : فمن المعروف ، مثلا ، ان

«Compagnie Genevoise» شركـــة الجنفواز) أجّرت للخمّاسين
الاراضي التى اغتصبتها . وهكذا تصرفت «Société Algérienne»
(الشركة الجزائرية) ، التى كان لزاما عليها وفق شروط الامتياز ان
تؤجّر قسما من ممتلكاتها للمعمرين الفرنسيين ، الا انهـــا أجّرت
القسم الاساسى من الاراضى للخمّاسين . وعندمـــا اعيد تنظيـــم
«Société Algérienne» الى «Compagnie Algérienne» فى عـــام
١٨٧٨ وأكدّت ملكية ٧٠ ألف هكتار لهذه الشركـــة الجديدة ،
أُجرت منها ٥٩ ألف هكتار للخمّاسين ، واستاجر ٦ آلاف هكتار
من قبل المعمرين ، ولم يبق سوى ٥ آلاف هكتار كاستثمارة خاصة
بالشركة . وطبّق ايضا بعض المعمرين الفرنسيين ــ وخاصـــة فى
مناطق الحبوب ــ نظام الخمّاسة بصورة واسعة .

وان الاستيلاء على الاراضى من قبل المعمرين والراسماليين
الفرنسيين والشركات التى حصلت على امتيازات واغتصاب اراضى
مئات الآلاف من الفلاحين الجزائريين واستغلالهم القاسى كمحاصصين
واجراء كل ذلك ادّى الى قيام انتفاضات شعبية جديدة . ففى
عام ١٨٥٩ ، انتفضت قبائـــل غربى الجزائر بنو سناسين . وفى
١٨٦٤ ثارت قبائل اولاد سيدى الشيخ . واندلعت عـــام ١٨٧١
انتفاضة وطنية تحررية كبيرة بقيادة الشيخ محمد المقرانى .

الفصل الرابع عشر

الاستعباد المالي لتونس وتحويلها الى شبه مستعمرة

الصراع الانكليزي-الفرنسي من اجل تونس . جعل استيلاء الفرنسيين على الجزائر عام ١٨٣٠ تقرير مصير تونس المقبل امرا محتوما في الواقع . وبالطبع ، استرعت تونس انتباه المستعمرين الفرنسيين الذين شرعوا في تكوين امبراطورية استعمارية لهم في شمالي افريقية . وذلك لان تونس تشغل موقعا استراتيجيا هاما على البحر الابيض المتوسط ، وتحمي الجزائر من الشرق . ولم يكن الحكام التونسيون القصيرو النظر غير مدركين للخطر الذي كان يحدق بهم فحسب ، بل وانهم ابتهجوا بالنكبات التي حلّت بداي الجزائر - عدوهم القديم . واذ استغلّت فرنسا العداء المستحكم بين الاقطاعيين الجزائريين والتونسيين توصّلت الى ان يقوم باي تونس بان يزوّد بالقمح الجيش الفرنسي المرابط في الجزائر آنذاك .

ولتيسير مهمة استيلائها اللاحق على البلاد ، اعلنت فرنسا في حينه ان تونس دولة مستقلة عن تركيا وانها تنوي الدفاع عن استقلال هذا البلد . والواقع ان محمود الثاني - سلطان تركيا ، كان قد انتهج سياسة مركزة الامبراطورية العثمانية وسعى الى ان الحكومة المركزية تفرض رقابة فعّالة على الاقاليم النائية . وعزم بصورة خاصة على توطيد سلطة الباب العالي في ممتلكاته الافريقية . ففي عام ١٨٣٥ ، احتلّ الاتراك طرابلس واطاحوا باسرة بكوات الانكشارية الحاكمة فيها وحوّلوا هذه المنطقة الى اقليم عادي من اقاليم الامبراطورية العثمانية . وفي ١٨٣٦ ، حلّ دور تونس . فتوجّه الاسطول التركي نحو السواحل التونسية . الا ان فرنسا

ناهضت المخططات التركية واوفدت اسطولها لمواجهة الاتراك ، الذين تراجعوا عندما لاح لهم خطر الحرب . وهكذا احتفظت تونس بالوضع الذى كان قائما .

ولم يكد يغادر الاسطول التركى المياه التونسية ، حتى قامت فرنسا بمحاولة اقتحام تونس . فهجمت القوات الفرنسية عام ١٨٣٧ على الاراضى التونسية وخرّبت بعض القرى واحرقت المحاصيل . واستخدم النزاع الذى كان قد نشب اثناء تخطيط الحدود الجزائرية ـ التونسية ، كذريعة لهذا الهجوم الوحشى ، وكذلك مسألة الخراج ، الذى كان يقوم بدفعه باى تونس الى الجزائر فى وقت من الاوقات . وتحت ضغط انكلترا ، اضطرت القوات الفرنسية فى آخر المطاف ، الى الجلاء عن الارض التونسية .

وابدت انكلترا ، التى سلّمت بسهولة نوعا ما بالاحتلال الفرنسى للجزائر ، معارضة شديدة للخطط الفرنسية الخاصة بتونس . ويمكن تعليل ذلك قبل كل شىء بما لموقع تونس من الاهمية الاستراتيجية . اذ يقع ميناآها ـ بنزرت وفم الواد (غوليت) ـ فى اضيق جزء من حوض البحر الابيض المتوسط ، حيث يوجد ممر بين جزئيه الشرقى والغربى . وكان الانكليز قد وطدوا بصورة حثيثة اقدامهم فى هذا الجزء منه واستولوا على جزيرة مالطة وكانوا يعارضون فى السماح بانشاء قواعد فرنسية فى هذه المنطقة . وكشف نزاع عام ١٨٣٧ عن عموم هذا الصراع الانكلو-فرنسى الحاد من اجل تونس الذى لم تخف وطأته خلال ٤٠ عاما ونيف .

وتجلى هذا الصراع من اجل السيطرة على تونس بمختلف الاشكال : فلقد خاض الانكليز والفرنسيون صراعا ضاريا ، اولا ، فى سبيل السوق التونسية . وثانيا ، للحصول على امتيازات فى الاراضى والمناجم ولتشييد طرق المواصلات ووسائل الاتصال والموانئ وغير ذلك ، وثالثا ، لبسط نفوذهم السياسى على باى تونس وجهاز دولته . وكان بين كبار موظفى الباى عملاء فرنسيون وانكليز . واخيرا ـ فانهم تصارعوا للسيطرة على مالية تونس . ويجب التنويه بان هذا الصراع من اجل السيطرة على تونس كان يحتدم فى الوقت

الذى كان فيه البايات التونسيون يقومون ببعض الاصلاحات التى مهدت الطريق فى آخر المطاف ، الى الصيارفة الاوربيين الذين كانوا على اهبة الاستعداد للاستيلاء على تونس واستعبادها .

الاصلاحات فى تونس . كان تهديد الفتح الفرنسى والتركى حافزا للبايات التونسيين لاجراء تغييرات عصرية فى البلاد وفى الدرجة الاولى فى الجيش . وكان الباى احمد (١٨٣٧ـ١٨٥٥) اول مصلح انتهج سياسة المناورة بين انكلترا وفرنسا . فقام هذا «الطاغية المثقف» المعجب بنابليون واستراتيجيته بانشاء مدرسة حربية والغاء الرق وابتياع السفن والمدافع والذخائر الحربية فى خارج البلاد وتشييد الثكنات والتحصينات والقصور . وتطلّب اعادة تنظيم الجيش والعمران موارد ضخمة ولا سيما وان المدربين الحربيين الاوربيين والموردين قاموا بنهب الباى بلا حياء ولا خجل . وفضلا عن الاموال الطائلة التى صرفت على الجيش ، بذّرت اموال لا جدوى فيها للانفاق على القصر . وفوق هذا كله سرقت خزينة الدولة من قبل المقربين الى الباى وخاصة مصطفى الخازندار ، الذى كان خلال ٤٠ عاما الحاكم الحقيقى لتونس . ولسدّ حاجات جميع هذه النفقات ، اضطرت الحكومة الى رفع الضرائب واخيرا الى طلب القروض .

وبذّرت اغلبية هذه القروض بدون جدوى . اذ لم تصرف على تطوير القوى الانتاجية فى البلاد بل سرقت من قبل الطغمة الحاكمة وبعثرت على مظاهر البذخ والترف وتشييد القصور وعلى شراء الهدايا الباهظة الثمن التى وزعها البايات على مقربيهم وعلى الجيش الكاريكاتورى التونسى . فاذا كان الجيش الحديث بالنسبة الى محمد على ـ باشا مصر ، وسيلة جدية للصراع السياسى ، فانه كان لمعاصره الباى احمد ضربا من اللهو . وبالطبع ، استخدم الجيش كوسيلة لقمع الانتفاضات الشعبية ، الا انه ادى جيدا هذه المهمة بنجاح حتى فى شكله القديم . وبكلمة واحدة ، لم تكن نتيجة الاصلاح العسكرى شيئا يذكر . ولم تكن التغييرات العصرية التى اجريت فى الجيش مثمرة فيما عدا مكافحة الشعب الاعزل .

وصرفت اموال طائلة دون اى فائدة . اذ ابتاع الباى من الانكليز والفرنسيين اسلحة غير صالحة للاستعمال وذخائر حربية

لا تنفجر وبواخر غرقت قبل ان تمخر عباب البحر . والخلاصة ؛ دفع الباى مبالغ هائلة لابتياع سقط المتاع الذى اراد اصحاب المعامل الانكليزية والفرنسية التخلّص منه ، ولاقتناء نفايات نبذها جيش هاتين الدولتين ، بينما اثقلت هذه النفقات الطائلة كاهل الجماهير الشعبية واثارت بدورها سخطا شديدا فى البلاد . فحدثت انتفاضة شعبية فى مدينة تونس عام ١٨٤٠ ، وفى فم الواد (غوليت) ــ عام ١٨٤٢ ، وفى منطقة باجة ــ عام ١٨٤٣ .

واستدعى الباى مدربين ومستشارين حربيين فرنسيين وانكليز للخدمة فى جيش تونس واسطولها اللذين كانا اشبه بالعوبة . فانهمك هؤلاء الاجانب على الاعمال الجاسوسية وتدخلوا فى شؤون البلاد الداخلية . واطرى ممثلو انكلترا وفرنسا جميع اصلاحات الباى الحربية ، وشجعوا هوسه «الاصلاحى» وعن طريق ذلك قذفوا بتونس فى ايدى البنوك الاوربية .

وفى عام ١٨٥٦ ، اى بعد انتهاء الحرب الشرقية اصدر عبد المجيد ــ السلطان التركى «خط همايون» منح الرأسمال الاجنبى بموجبه جملة من الحقوق والامتيازات . فطالبت انكلترا وفرنسا بمثل هذه الحقوق والضمانات من الباى التونسى . وفى عام ١٨٥٧ اصدر الباى محمد باشا (١٨٥٥ــ١٨٥٩) «عهد الامان» الذى استعاد الشروط الاساسية الواردة فى بيان كلخانة السلطانى (خط شريف) لعام ١٨٣٩ وخط همايون لعام ١٨٥٦ . ونادى هذا البيان بتساوى كافة الاتباع امام القانون بغض النظر عن انتسابهم الدينى كما نادى بحرمة الاشخاص والاموال . ثم فى عام ١٨٥٨ انشئ المجلس البلدى فى مدينة تونس ، وفى عام ١٨٦١ فى عهد الباى محمد الصادق (١٨٥٩ــ١٨٨٢) أعلن الدستور التونسى ، ونصّ فيه على تأليف هيئة استشارية او مجلس اعلى . فضلا عن ذلك تم تصميم مشروع لمدّ سكك حديدية وخطوط تلغرافية وتشييد الموانئ واعادة وضع نظام الضرائب وتنظيم الجيش .

واستغلّ الرأسماليون الاجانب جميع هذه الاصلاحات بسرعة فائقة . فحصل الانكليز على امتياز انشاء اول سكة حديدية فى تونس تمتد من مدينة تونس الى فم الواد (غوليت) ، وحصل الفرنسيون

على امتياز اقامة خطوط التلغراف وتجديد مجرى زغوان المائى . واثر ذلك منح الاجانب حق حيـــازة الارض فى تونس . وفى ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٣ ، ربطت انكلترا تونس بمعاهدة جاء فى المادة الاولى منها نصّا : «سيسمح للرعايا الانكليز اعتبارا من الآن بحيازة املاك غير منقولة ايا كان نوعها فى وصاية عرش تونس وامتلاكها» . وعمّمت نفس الحقوق على الرعايا الفرنسيين طبقا للمعاهدة الفرنسية-التونسية التى كانت قد ابرمت عام ١٨٢٤ ، والتى ضمنت لفرنسا مبدأ الاكثر رعاية . ومع ذلك أمّنت فرنسا لنفسها فيما بعد ضمانا شرعيا اكثر متانـــة . اذ حصلت عام ١٨٧١ على مرسوم اصدره الباى ، منح المواطنون الفرنسيون بموجبه حق ابتياع الارض فى تونس . ومنحت نفس الحقوق للرعايا الايطاليين والنمساويين والبروسيين .

الاستعباد المالى لتونس . واكب تغلغل الرأســـال الاجنبى استعباد تونس المالى ، الذى حصل فى وقت واحد مع الاستعبـــاد المالى لتركيا ومصر . اذ أخذت البنوك الاوربية تفرض على تونس قروضا جائرة مباشرة بعد الحرب الشرقية ، مما اوقع هذا البلــد بسرعة فى شراك التبعية المالية .

وفى ١٨٦٢ ، بلغت سندات الدين المترتب على باى تونس مبلغا باهضا قدره ٢٨ مليون فرنك . وصـــارت البلاد على شفـــا الافلاس . فاستغلّ هذا الوضع اتحاد البنوك الفرنسية وعرض على الباى قرضا مقداره ٣٥ مليون فرنك فاستحسن الباى هذا العرض وأبرمت الاتفاقية اللازمة فى ٦ ايار (مايو) ١٨٦٣ . ومع ذلك ، تبين بان اتحاد البنوك قد حسم ١٠ ملايين فرنك (وبالدقة ٩٧٧٢ ألفا) من هذا القرض . ودفع من الكمية الباقية التى بلغت ٢٥ مليون فرنك ، حوالى ٢٠ مليون فرنك على شكل بضائع فاسدة . ولم يستلم الباى نقدا الا ٥٦٤٠ ألف فرنك سلّمت حالا لتسديد دفع اقساط الدين الجارى . والتزمت تونس لقاء ذلك بدفع طيلة ١٥ عاما ٦٣ مليون فرنك (٣٥ مليونا قيمة القرض الاصليـــة و٢٨ مليونـــا فائدته) ، وكذلك ١٣ مليون فرنك كدفعات عمولة .

ولم تستطع تونس التخلص من الافلاس ، فضلا عن انها وقعت

نتيجة لهذا القرض ، فى مصيبــة ادهى ، والمثل يقول : هرب من الموت فوقع فى حضرموت . وجنت البنوك الفرنسية فوائد قصوى غير آبهة اطلاقــا بمصير الشعب التونسي . فكيف كان بمقدور تونس تحمل مثل هذه الشروط المجحفة التى تضمنها القرض ؟ مع شديد الاسف ، لم تكن للشعب التونسى يد فى كل ما حصل . اذ اتخذ جميع القرارات الباى ووزراؤه وعلى رأسهم مصطفى الخازندار الذى كان قد حصل على رشوة من قبل البنوك الفرنسية ، وقام ارضاء لهــا بتخريب بلاده الاصلية .

وأخذ الوضع يزداد سوءا فى تونس من يوم الى يوم . اذ اضيف الاستعباد الاجنبى الى النير الاقطاعى . فلم تمسّ الاصلاحات جوهر النظام الاقطاعى ، الذى احتفظ به كليــة . وتطلب تسديد القروض الاجنبية موارد جديدة وجديدة . وبحثــا عن النقود ، ضاعفت الحكومة جزية النفوس او ما يعرف بالمجبى وجعلتها ثلاثة اضعاف فى بعض المناطق . وكنتيجة لذلك شبت انتفاضة شعبية عام ١٨٦٣ بقيادة على بن غذاهم . اذ هبت البلاد برمتها للكفاح ضد الطغمة الاقطاعية التى احلت الخراب بالبلاد لصالح الرأسمــال الاجنبى . وقد تم قمع هذه الانتفاضة (١٨٦٣ــ١٨٦٤) وكالسابق بقى الشعب يعيش فى وضع لا يحتمل . وصرفت تسعة اعشــار الميزانية لايفاء الديون .

وللبحث عن مخرج ، التجأ البــاى مرة ثانيــة الى البنوك الاجنبية . فحصل عام ١٨٦٥ على قرض جديد مقداره ٢٥ مليون فرنك . وكضمان لهذا القرض ، حصل المرابون الاجانب على مداخيل الدولة من الجمارك . وتبين بانه قرض احتيالى كالقروض السابقة . فلم تستلم تونس الا النزر اليسير من اصل ٢٥ مليون فرنك . اذ احتفظت البنوك بمبلغ كبير منه للعمولة ومصاريف الاصدار ومــا شابــه ذلك ، وأخذ الباقى لتسديد فائدة القرض القديم . وبقى للحكومة التونسيــة ثلاثة ملايين ونصف مليون فرنك وحتى هذا المبلغ لم يدفع نقدا بل «عينا» اى ان تونس استلمت فرقاطــة قيمتها مليونان ونصف مليون فرنك ، وقطع وعد بتسليمها مدافع قيمتها مليون فرنك .

وساء الوضع اكثر فاكثر بعد هذا القرض . اذ تجاوز النهب جميع الحدود . ولدفع الديون الاجنبية استحصلت الخزينة التونسية من الفلاحين والحرفيين قسرا كل ما يمكن استحصاله . فضُرب الناس وعذبوا او اعدموا . وفوق ذلك ، عمّت البلاد مجاعة هائلة ، فاقتات الناس بالحشائش والجذور ولحوم البشر ، وانتشرت الكوليرا وصارت الجماهير تهرب افواجا الى طرابلس الغرب . واندلعت انتفاضات فى مناطق عديدة . وفى هذه الظروف ، اضطرت الحكومة التونسية الى ايقاف دفع اقساط تسديد القروض الاجنبية .

وحلّ الافلاس المالى بحكومة الباى عام ١٨٦٧ ، اى قبل ٨ سنوات من افلاس تركيا ومصر . واستغلّت الدول الاوربية هذا الوضع لفرض رقابة مالية على تونس . وفى ١٨٦٩ ألّفت لجنة مالية دولية للاشراف على مداخيل ونفقات الحكومة التونسية . وأسهم فى هذه اللجنة ممثلون عن المرابين الفرنسيين والانكلو-مالطيين والايطاليين . ولعبت فرنسا فيها دورا قياديا . وقد حدّد المبلغ الاجمالى للدين التونسى بمقدار ١٢٥ مليون فرنك . فكان على تونس ان تدفع لفرنسا ٥٪ منه او ٦٢٥٠ ألف فرنك سنويا اى ما يوازى نصف نفقات الدولة . ووضعت جميع المداخيل الجمركية تحت تصرف اللجنة المالية الدولية . والتزمت الحكومة التونسية بتكملة المبالغ الناقصة فى حالة عدم كفاية المداخيل الجمركية .

وهكذا اصبحت تونس بقرا حلوبا حكرا على البنوك الاجنبية وشبه مستعمرة لهم . ولم تبق الا قضية واحدة وهى من سيسيطر من الدول الاستعمارية على تونس ويحوّلها الى مستعمرة خاصة به وتابعة له . وهذه القضية ادّت الى نشوب صراع حاد بين الدول للسيطرة على تونس ، ولا سيما بين فرنسا وانكلترا ، وسرعان ما انضمت اليهما ايطاليا ونشطت فى مزاحمتهما .

الفصل الخامس عشر

الاستعباد المالى لمصر

القروض الخارجية . ان النفقات الطائلة التى صرفت على تشييد قناة السويس والمشاريع الاخرى ارغمت الحكومة المصرية على طلب القروض الاجنبية التى منحت لها بشروط مجحفة ظالمة .

وكان سعيد باشا اول من عقد مثل هذه القروض . فانه اصدر سندات على الخزينة بيعت فى البورصات الاوربية وذلك للتغلب على صعوبة كونه لم يكن حائزا على حق عقد قروض خارجية دون موافقة الباب العالى . فتكوّن بهذه الطريقة ما يعرف بالدين الجارى المترتب على مصر والذى جاوز مقداره ٦ ملايين جنيه استرليني عند موت سعيد باشا .

ولم يكتف سعيد بعقد هذه القروض بل التجأ الى عقد قروض كبيرة . وفى هذا المضمار اضطلع بدور خطير هيرمن أوبنهايم — رجل العمل الدولى الشرير وصاحب النفوذ فى القضايا المالية . اذ قام بـ « تدبير » معظم قروض سعيد واسماعيل باشا . وقد اعتبر اوبنهايم البروسى الاصل من « الرعايا البريطانيين » وكان يملك مصارف فى باريس والاسكندرية وله صلات متينة مع شركة « فروهلنغ وغوشن » المالية فى لندن وخدم المصالح الانكليزية .

وفى عام ١٨٦٢ « ساعد » اوبنهايم سعيد على عقد اول قرض للدولة المصرية لتسديد السندات الخاصة بشق قناة السويس . وخصم الدائنون من هذا القرض مبلغا لا يستهان به كـ « فرق بين التسعيرات » ولكنهم ألزموا الحكومة على دفع فوائض مئوية وتسديد القرض بمبلغه الاسمى .

وفى عام ١٨٦٤ «وضع» اوبنهايم الترتيبـــات للحصول على قرض من مصرف فروهلنغ وغوشن مقداره ٥٧٠٠ ألف جنيه ، الا انه لم يدخل الى الخزينة المصرية فى الواقع سوى ٤٨٦٠ ألف جنيه استرلينى . وخصم اصحاب البنوك ثانية المبلغ الباقى كـ «فرق بين التسعيرات» ودفع قسم كبير مما استلمتـه مصر من هـذا القرض لتسديد اقساط الدين الجارى . وكضمان للقرض ، سلّم اسماعيل الى الدائنين المداخيل التى تحصل عليها الدولة من ثلاثة اقاليم واقعة فى الدلتا وهى اكثرها غنى .

وفى ١٨٦٥ عقد اسماعيل قرضا «خاصا» مع البنك الانكلو-مصرى . واستلم نقدا ٢٧٥٠ ألف جنيه استرلينى من اصل ٣٣٨٧ الف جنيه قيمة القرض الاسمية . وصرف قسم من هذا القرض على ابتياع الضياع والقسم الآخر على بناء مصانع للسكر .

وفى ١٨٦٦ عقد اسماعيل عددا من القروض الجديدة . وبوجه خاص طلب من فروهلنغ وغوشن قرضا لمد سكك حديدية وقدمت كضمان له السكك الحديدية المصرية . ولم تستلم الخزينة المصرية الا ٢٦٤٠ ألف جنيه استرلينى من المبلغ الاسمى للقرض وقدره ٣ ملايين جنيه .

وفى ١٨٦٧ عقد الخديوى قرضـــا «شخصيا» مـــع البنك الامبراطورى العثمانى (الانكلو-فرنسى) لابتياع اراض تعد فيهـــا مزارع قصب السكر . واستلم منه ١٧٠٠ ألف جنيه فقط من اصل ٢٠٨٠ ألف جنيه وهو المبلغ الاسمى للقرض .

وفى ١٨٦٨ عقد الخديوى قرضا مع اوبنهايم بمقدار ١١٨٩٠ ألف جنيه . ولم تستلم مصر نقدا سوى ٧١٩٥ ألف جنيه .

وفى ١٨٧٠ عقد الخديوى قرضا جديدا «شخصيـــــا» مع صاحبى البنوك بيشفسهايم وغولدشمدت بمبلغ ٧١٤٣ ألف جنيه . ولكنه استلم فعلا ٥ ملايين جنيه لا غير .

واخيرا ، وقّع الخديوى فى ١١ حزيران (يونيو) ١٨٧٣ اتفاقية مع اوبنهايم لمنحه قرضاً لتسديد اقساط الدين الجارى . وبلغت كمية هذا القرض الهائل ٣٢ مليون جنيه لم تستلم منه مصر نقدا الا ٢٠ مليون جنيه بينما ألزمت بدفع ٣,٥ ملايين جنيـــه

سنويا الى اوبنهايم ، اى ٢٠٪ من المبلغ الحقيقى الذى استلمته ، على شكل فوائد مئوية .

وتمكنت البنوك الانكليزية خلال ١١ عامـا لا اكثر من ربط مصر بدين تبلغ قيمته ٦٨ مليون جنيه استرلينى ، دفع منه نقدا فى الحقيقة ٤٦ مليون جنيه فقط واغتصب ما يزيد عن ٢٠ مليون جنيه «كفرق بين التسعيرات» ونفقات العمولة . وبلغت سندات الدين الجارى لهذه السنوات ٢٦ مليون جنيه ، دفعت عليها مصر فائضا سنويا قدره ١٥٪ وحتى ٢٥٪ .

وهكذا بلغت كمية دين مصر الخارجى الاجمالى قبيل عـام ١٨٧٦ اربعة وتسعين مليون جنيه استرلينى . فكيف أنفقت هذه الملايين ؟ روج المدافعون عن الامبريالية اشاعة مفادها ان هذه المبالغ بذرت على نزوات اسماعيل المنفاق وعلى قصوره وحريمه ومظاهر الترف والبهرجة . وغالبا ما يصادف المرء ادعاء آخر مفاده ان اسماعيل قام بالنهوض بالعمران وتشييد المصانـع والسكك الحديديـة والجسور والموانئ والخطوط التلغرافية والقنوات دون الالتفـات الى موارد الدولـة الفعلية ، وبـان مصر غرقت فى ديون باهضة بنتيجة نزعة المشاريع المتهورة . وممـا يجدر ذكره ان الخديوى دفع فعلا مبالغ طائلة الى شركات البناء الاوربيـة . فقد أنفق فى الواقع على مدّ السكك الحديدية ٧٥ مليون فرنك بينمـا دفعت منها مصر الى المقاولين الاجانب ٣٢٥ مليون فرنك . كمـا دفعت الخزينة المصرية ما يربو على ٢,٥ مليون جنيه استرلينى لشركة البناء الاوربية لغرض تشييد ميناء الاسكندرية بينما كلفته الفعلية ١,٥ مليون جنيه فقط .وكلّفت الاعمال الانشائية الاخرى مصر ضعفين او ثلاثة اضعاف قيمتها الحقيقية . وهكذا قامت شركات البناء الاوربية بنهب البلاد بلا حياء ولا خجل . الا ان قسما اكبر من مصاريف العمران دفعت بدون وساطـة البنوك الاوربيـة ، وسدّدت هذه المصاريف فى آخر المطاف ، من قبل الشعب المصرى . وأكد كايف ــ الاخصائى المالى الانكليزى ، بان مداخيل الدولـة المصرية للاعوام ١٨٦٤ــ١٨٧٥ كانت قد بلغت ٩٤ مليون جنيه ، ومجموع النفقات المصرية الكلى ٩٧ مليون جنيه بما فى ذلك العمران

ومصاريف قصر الخديوى والرشاوى التى دفعت الى السلطان التركى والمقربين لـــه وتكاليف الحـــرب السودانية والاثيوبيـــة . وهكذا يكون العجـــز المالى الفعلى ، خلال ١٢ عامـــا ، ٣ ملايين جنيـــه فقط .

فكيف نشأ فى ذمة مصر دين البنوك الاوربية ومقداره حوالى مئة مليون جنيه؟ انه نشأ من المبالغ التالية : ١) بذّرت الحكومة المصرية ١٦ مليون جنيه على تشييد قناة السويس ؛ ٢) تسرّب الى جيوب اصحاب البنوك كـ«فرق بين التسعيرات» ونفقات العمولـــة وغيرهما ٢٢ مليون جنيه استرلينى ، ومع ذلك أدرج هذا المبلغ الذى لم تستلمه مصر فى الواقع مع المبالغ الاسمية للدين ؛ ٣) دفعت مصر حتى عام ١٨٧٦ لا أقلّ من ٥٠ مليون جنيه كفوائض على القروض الاصلية وسندات الدين : ٤) لم ينفق فى الحقيقة سوى مبلغ يتراوح بين ٥ الى ٦ ملايين جنيه على تشييد منشآت تعود بالفائدة على مصر .

وهكذا نشأ القسم الاكبر من دين الدولة المصرية بنتيجة المكائد الاجرامية التى دبرها دى لسبس واوبنهايم وفروهلنغ وغيرهم . ولم يستلم الشعب المصرى فى الواقع شيئـــا من ذلك الدين الذى اثقل كاهله والذى ارغم على تسديده فيما بعد بثلاثة اضعاف قيمتـــه الاصلية .

قرضا «المقابلة» و«الروزنامة» . اثرت سياسة الصيارفة الاوربيين تاثيرا وخيما على وضع مصر المالى . ورهنت الدولة السكك الحديدية العائدة لها والمداخيل المستحصلة من الضرائب وضياع الخديوى . وأخذ يزداد من عام الى عام المبلغ الذى كان على مصر ان تدفعه الى «دائنيها» كفائدة القروض ولسندات الدين . وقبيل عام ١٨٧٥ قارب هذا المبلغ حوالى ٨ ملايين جنيـــه استرلينى سنويا . واضطر اسماعيل الى زيادة الضرائب من عـــام الى آخر لتسديد فوائد الديون . وهكذا تضاعفت ضرائب الارض فى مـــدة قصيرة باربع مرات ، اى من ٤٠ الى ١٦٠ قرشـــا على الفدان الواحد . وازدادت مداخيل ميزانيـــة مصر من مليونى جنيه عام ١٨٦١ الى ١٠,٥ ملايين عام ١٨٧٥ . ومع ذلك كان يتوجب على

الدولة دفع ٨٠٪ من مداخيلها لتسديد سندات الديون وفوائد القروض ، ولم تكن المبالغ الباقية بكافية لسدحاجات الدولة اليومية . فاضطر الخديوى الى البحث عن مصادر ايرادات جديدة واللجوء الى القروض الداخلية .

وفى عام ١٨٧١ عقد اول قرض داخلى عرف «بالمقابلة» . وطبقا لقانون «المقابلة» منح اصحاب الاراضى حقا مستديما فى ان يدفعوا مستقبلا نصف مقدار الضريبة الارضية المترتبة عليهم ، اذا ما دفعوا للدولة ، خلال ١٢ عاما ، واعتبارا من عام ١٨٧٣ اقساطا متساوية يبلغ مقدار كل منها ستة اضعاف هذه الضريبة . ولقى هذا القانون تأييدا من جانب الملاكين وفئة المزارعين الميسورين (الكولاك) الذين بدأوا يتميزون فى ذلك الوقت عن بقية المزارعين والذين كانوا قد دفعوا توا من اجل تحسين اوضاعهم المقبلة ، حوالى ٧ ملايين جنيه الى الخزينة ، ثم اكثر من ٨ ملايين جنيه وبلغ مجموع ما دفعوه ١٥,٧ مليون جنيه للاعوام الممتدة بين ١٨٧١ و١٨٧٨ .

ومع ذلك لم تف هذه الاموال بالمرام . فقررت الخزينة فى عام ١٨٧٤ اصدار قرض داخلى آخر عرف «بالروزنامة» بلغت قيمته ٥ ملايين جنيه . ولم يحقق هذا القرض رغم فرضه قسرا ما كانت تتوقعه الحكومة المصرية ، اذ انه زوّد الخزينة باقلّ من مليونى جنيه استرلينى لا غير .

ابتياع انكلترا لاسهم قناة السويس . قرّر اسماعيل فى نهاية عام ١٨٧٥ بيع اسهم قناة السويس العائدة لمصر بغية تسديد المدفوعات الدورية المترتبة على القروض الخارجية . وقدم الى انكلترا وفرنسا عروضا مناسبة لشرائها . واتخذت الحكومة الانكليزية تدابير سريعة وحازمة بينما كانت فرنسا مترددة . اذ اقترض دزرائيلى (اللورد بيكونسفيلد) رئيس وزراء بريطانيا العظمى ودون ان يطلع البرلمان واعضاء وزارته على السواء ، ٤ ملايين جنيه استرلينى من صديقه روتشيلد وابتاع بها اسهم قناة السويس . وعقدت هذه الصفقة فى ٢٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٧٥ . وهكذا انتقل ١٧٦ ألف سهم الى ملكية الحكومة

البريطانية . وفى ٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧٥ دعا دى ليسبس الممثلين الانكليز الى احتلال مناصبهم فى المجلس الادارى « لشركة قناة السويس البحرية العامة » .

وهكذا تمّ بيع مشروع قناة السويس باربعة ملايين جنيه لا غير — مع انه كلّف مصر ١٦ مليون جنيه واغرقها بدين بلغ مقداره مئة مليون جنيه وحرم الشعب المصرى من جرائه من ٣٠٠ مليون جنيه دفعت كفوائد للبنوك الاجنبية . ودرّ هذا المشروع على اصحابه فيما بعد ارباحا قناطير مقنطرة ، فان الاسهم التى كان قد تمّ شراؤها فى عام ١٨٧٥ باربعة ملايين جنيه استرلينى ، بلغت قيمتها ٣٥ مليون جنيه فى عام ١٩١٠ .

تلك هى الناحية التجارية الصرفة لهذه الصفقة ، اما الناحية السياسية فهى اكثر خطورة .

وكما هو معلوم ان انكلترا حاولت الاستيلاء على مصر فى بداية القرن التاسع عشر ، ثم حاولت ثانية فى عام ١٨٤٠ ان تضع مصر تحت سيطرتها . ولكنها كانت تصادف فى كل مرة المقاومة سواء أكان من جانب الشعب المصرى ام من غريمتها فرنسا . وكان النفوذ الفرنسى سائدا فى مصر حتى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، باستثناء الفترة الممتدة بين ١٨٤٩ و١٨٥٤ . وسار فى ركاب السياسة الفرنسية كل من محمد على وابراهيم وسعيد واسماعيل . واسهم المصريون حتى فى مغامرة المكسيك التى قام بها نابليون الثالث . ومنذ عهد دى ليسبس غدت قناة السويس اهم مركز للراسمال الفرنسى . وكان القسم الاكبر من سندات الدين فى قبضة اصحاب البنوك الفرنسيين . بينما سيطر الاخصائيون والاساتذة والمستشارون الفرنسيون على المؤسسات والمشاريع والمعاهد الدراسية المصرية . وأوفد الشبان المصريون لتلقى العلم فى فرنسا . وتخرج الخديوى اسماعيل نفسه من كلية سان سير العسكرية الفرنسية .

وقرّر الانكليز فى السبعينيات من القرن التاسع عشر تغيير هذا الوضع بصورة جذرية . وبهذا الصدد كتب المؤرخ الانكليزى يانغ :

«انتقل المركز الرئيسى لمصالح الاستعمار البريطانى فى الشرق الادنى من القسطنطينية الى القاهرة وذلك بعد افتتاح قناة السويس» .

واذا كان الانكليز قد قاوموا سابقا النفوذ الفرنسى بجميع الوسائل ، فهم يعملون الآن على ازاحته كليا من مصر .

واسترسل يانغ قائلا : «واذا كان الانكليز يكتفون سابقا بالحيلولة دون السيطرة الفرنسية على القاهرة كما حالوا دون سيطرة الروس على القسطنطينية ، فاصبحت الآن* قضية بسط هيمنتهم على القاهرة وابعاد جميع الدول الاخرى عنها قضية حيوية بالنسبة لهم . وما هذه الا وجهة نظر امبريالية جديدة» .

وكانت «وجهة النظر» الجديدة هذه تابعة من ظروف اقتصادية وسياسية جديدة تكونت فى اوربا بعد عام ١٨٧٠ ، عندما بدات عملية الانتقال من الرأسمالية الى مرحلتها الاخيرة ــ وهى مرحلة الرأسمال الاحتكارى ، مرحلة الامبريالية . وكان هذا الانتقال ذا صلة باحتدام الصراع من اجل اقتسام العالم واستفحال السياسة الاستعمارية التى انتهجتها الدول الرأسمالية ، بصورة لم يسبق لها مثيل .

وقبيل ذلك الوقت احتكر الانكليز تصدير القطن من مصر ، كما سيطروا على استيراداتها ، وحازوا على جملة من الامتيازات . وقام صيارفة لندن من امثال فروهلنغ وغوشن وبيشفسايم واوبنهايم بتوريط مصر فى شبكة من القروض الجائرة . وكان فى قبضتهم جميع سندات دين الدولة المصرية تقريبا . واخيرا ، ابتاع دزرائيلى فى عام ١٨٧٥ أسهم قناة السويس باسم الحكومة الانكليزية . وكان هذا بمثابة ضربة جديدة للنفوذ الفرنسى . فاصبحت الحكومة الانكليزية اعتبارا من ذلك الحين اكبر المساهمين فى قناة السويس ، التى كانت حتى عام ١٨٧٥ مشروعا فرنسيا على الاغلب . وبالطبع ، احتفظ الرأسماليون الفرنسيون بحيازة اغلبية الاسهم واكثرية المقاعد فى مجلس ادارة «شركة قناة السويس

---

* اى بعد افتتاح قناة السويس . ــ **المؤلف** .

البحرية العامة» . وكالسابق ، بقيت ادارة القناة فى باريس . الا ان الحكومة الانكليزية حازت لوحدها بدون اشتراك حملة الاسهم الآخرين ، على مجموعة من الاسهم بلغت قيمتها ٤٥ ٪ من رأسمال الشركة ، فى الوقت الذى كانت فيه الاسهم الفرنسية موزعة بين عدد من حملة الاسهم .

ويتضح مما تقدم بانه لم تتحقق أمانى اسماعيل الذى قال : «ستكون القناة عند مصر وليس مصر عند القناة» . اذ كان ابتياع اسهم قناة السويس من قبل الحكومة الانكليزية اولى بوادر الاحتلال البريطانى لمصر . وكتب م . صبرى معلقا : «اصبح رجال السلك السياسى والمرابون اعتبارا من الآن منهمكين فى قضية عامة واحدة ، وعجّل تحالفهم فى تطور الاحداث المشؤومة» .

افلاس مصر المالى . تأثرت البورصات العالمية بالافلاس الذى اصاب تركيا فى خريف ١٨٧٥ ، فهبطت من جراء ذلك جميع الاسعار المصرية هبوطا شديدا ، مما جعل الرأسماليين الاوربيين يتنبأون بان الافلاس سيحل حتما بمصر على اعقاب افلاس الباب العالى . واستنادا الى ذلك فرضت الحكومة الانكليزية على مصر فى نهاية ١٨٧٥ لجنة خاصة لفحص شؤونها المالية . وكانت هذه الخطوة بداية للرقابة الاجنبية على شؤون مصر المالية . وفورا اوفدت فرنسا بعثة مالية عنها الى مصر اذ انها لم تكن تريد التخلف عن غريمتها .

وفى ٨ نيسان (ابريل) ١٨٧٦ توقف الخديوى عن دفع سنداته المالية . واعلنت الحكومة المصرية افلاسها . فاستغل الدائنون هذا الوضع حالا لكيما يفرضون على مصر رقابة مالية حقيقية . والّفت الدول فى ٢ أيار (مايو) ١٨٧٦ لجنة لمراقبة دين الخديوى ، كان من اعضائها ممثلو فرنسا والنمسا وايطاليا . وعرف اعضاء هذه اللجنة بمفوضى الديون ، الذين كان عليهم ضمان دفع اقساط القروض فى مواعيدها . وبادئ ذى بدء لم تعين انكلترا مفوضا عنها فى اللجنة لعدم توصل الدائنين الانكليز والفرنسيين الى اتفاق فيما بينهم حول شروط توحيد الدين المصرى . اذ حصرت فى قبضة حملة السندات الانكليز سندات القروض المصرية

الاساسية ، فى الوقت الذى كانت فى ايدى الفرنسيين والدائنين الآخرين فى الغالب سندات الدين الجارى .

وفى ٧ ايار (مايو) ١٨٧٦ أصدر الخديوى مرسوما بتوحيد دين الدولة المصرية . اذ دمج ووحّد جميع ما فى ذمة مصر من ديون اساسية وسندات فى دين موحد التزم بتسديده فى غضون ٦٥ عاما بفائدة سنوية قدرها ٧٪ . وعند تحويل سندات القروض القديمة الى بونات الدين الموحد ، استلم حملة الديون الاساسية نفس المبلغ ، بينما استلم حملة سندات الدين فائدة اضافية قدرها ٢٥٪ (اى ١٠٠ وحدة من السندات الجديدة لكل ٨٠ وحدة من القديمة) . ووضعت ضرائب الارض عن اغنى اقاليم الدلتا الاربعة كضمان للدين الموحد وكذلك مداخيل جمارك القاهرة والاسكندرية وضريبة انتاج التبغ ومداخيل ضياع الخديوى المعروفة « بالدائرة السنية » . ووضعت كافة هذه المداخيل تحت تصرف لجنة دين الخديوى .

وتوجهت الى مصر فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٦ لجنة مالية انكلو-فرنسية جديدة بنتيجة المساومات التى تمت بين حملة السندات المصرية الانكليز والفرنسيين . ناب عن مصالح اصحاب البنوك الانكليزية غوشن — اكبر دائنى الحكومة المصرية ، وعن مصالح البنوك الفرنسية — جوبير . وفى ١٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٧٦ أصدر الخديوى ، استنادا الى استنتاجات لجنة غوشن — جوبير ، مرسوما جديدا حول توحيد الدين المصري . وقسّم الدين الموحّد طبقا لهذا المرسوم الى اربعة اقسام مستقلة : ١) افرزت قروض الاعوام ١٨٦٤ ، ١٨٦٥ ، ١٨٦٧ التى كان لغوشن مصلحة شخصية بها ودمجت فى دين خاص تدفع عنه فائدة اعلى ؛ ٢) كما افرزت ديون الخديوى الشخصية ووحّدت فى دين خاص عرف بقرض « الدائرة السنية » على ان يسدد من مداخيل ضياع الخديوى ؛ ٣) سلّمت مداخيل السكك الحديدية وميناء الاسكندرية كضمان الدين الممتاز (المفضل) الخاص بفائدة قدرها ٥٪ سنويا وشكلت لجنة خاصة تكونت من انكليزيين اثنين وفرنسى واحد ومصريين لادارة هذه المداخيل . القسم الرابع يتألف من القروض الباقية

وغير المذكورة اعلاه وقد كوّن دينا اساسيا بلغت قيمتــه ٥٩ مليون جنيه استرليني تدفع عليه فائدة قدرها ٧٪ سنويا . وبقى هذا الدين تحت ادارة لجنة الديون التى تشكلت فى ايار (مايو) ١٨٧٦ والتى سرعان ما انضمّ اليها ممثل انكلترا الماجور بارنغ ، وهو اخصائى بالقضايا المالية وبيروقراطى استعمارى اصبح فيما بعد اللورد كرومر وكان من اقرباء احد اغنى صيارفة لندن . وبفضل هذه الميزات اختارته البنوك الانكليزية رئيسا لوكلائها فى القاهرة . وكان بارنغ قبل تعيينه فى مصر يشغل منصب السكرتير الخــاص لنائب ملك الهند لمدة اربع سنوات . واصبح بعد مرور ستة اعوام حاكما مطلقا على مصر .

وفضلا عن ذلك ، حصل غوشن وجوبير من الخديوى على امر ينصّ بتعيين موظف انكليزى كمراقب عام على مداخيــل مصر وموظف فرنسى كمراقب عام على مصروفاتها . وعرف هذا الوضع بالمراقبة الثنائية (اى الانكلو-فرنسية) على شؤون مصر المالية . وعين موظف ثالث وهو انكليزى ، مديرا لقسم الميزانية فى وزارة المالية المصرية ، ورابع وهو جنرال انكليزى مديرا للسكك الحديدية المصرية . فصارت تتصرف هذه الحفنة الصغيرة من الموظفين الاجانب بمصر وكانها ملك من املاكها الموروثة . وحاول اسماعيل صدّيق وزير مالية مصر الاعتراض على قرارات لجنة غوشن — جوبير الا انه وجد غريقا فى النيل وأحاطت بهذا الحادث ظروف غامضة .

المراقبة الثنائية . اعتبر المراقبون الاجانب ومفوضو الديون بان مهمتهــم الاساسيـــة هى ابتزاز أموال الشعب المصرى كمورد لتسديد سندات القروض الجائرة .

فجمعت الضرائب من السكان وخاصة من الفلاحين لمدة تتراوح بين ٩ الى ١٢ شهرا مقدمـــا لكيمـا تسدد سندات كانون الثـانى (يناير) ١٨٧٧ . وتنفيذا لهذه العملية ارسلت الحكومة المصرية فصائل تنكيلية الى الريف ، فتمت جباية الضرائب كرها بواسطة التعذيب تحت «الكرباج» المصرى المعروف — الذى هو عبارة عن سوط ذى خمسة سيور جلدية لها اصل واحد . ورافق الجبـــاة والفصائل التنكيلية مرابون محليون من اقباط ويونانيين ، ابتاعوا

محاصيل الفلاحين بثمن بخس وهو دراهم معدودات . ودفع الفلاحون النقود الى الجباة بعد ما اقترضوهـــا من المرابين . وبفضل هذه التدابير الاستثنائية استطاعت الحكومة المصريـــة تسديد فوائد الديون . الا انهـــا توقفت عن دفع رواتب الموظفين والضباط المصريين .

وفى صيف ١٨٧٧ لم يكن مستوى مياه النيل اثناء الفيضان كافيا للرى ، فأدّى الجفاف الى قلة المحاصيل . فهلك آلاف الفلاحين من الجوع وما صاحبه من اوبئة . واقتات الناس الحشائش واوراق الشجر . وتسكع النساء والاطفال من قرية الى اخرى للاستجداء الا انه لم يجد عليهم احد بلقمة خبز ، بينما كان فى مقدور المرابين المبتزين الاجانب القساة اغتصاب الغنائم من القرى المصرية . وفى التعليق على المجاعة اعلنت الحكومة الفرنسية بتهكم واستهزاء : ان المجاعة قد اختلقت لذر الرماد فى العيون واثارة العطف على الفلاحين المصريين الذين لا يستحقون العطف . وفى نيسان (ابريل) ١٨٧٨ أرسلت الى القرى المصرية مجددا الفصائل التنكيلية عندما حـــان موعد دفع الضرائب الدوريـــة وقرعت الاسواط ، وكالجراد هجم ثانية جيش من المرابين على القرى وابتاعوا من الفلاحين القمح وهو فى سنابله بسعر ٥٠ قرشا للاردب الواحد ، بينما كان ثمنه الحقيقى آنذاك ١٢٠ قرشا . فقاسى الشعب المصرى مقاساة هائلة ، ومع ذلك تمّ تسديد السندات تسديدا تاما : فاحتفل اصحاب البنوك الانكليزية والفرنسية بالنصر .

وفى بداية عام ١٨٧٨ شكل اسماعيل وفقا لطلب اصحاب البنوك ، اجنـة لفحص شؤون مصر الماليـــة . وعيّن فردينـانـد دى ليسبس ـ منشئ قناة السويس ، رئيسا لها . وكان تعيينه امرا صوريا صرفا . اذ انه لم يسهم فى اعمال اللجنة . بينما قام برئاسة اللجنـــة فعلا نائبـــه ريفرز ولسن ـ الموظف المالى الانكليزى . وكان رياض باشـــا نائبـــا ثانيـــا للرئيس ، وهـــو رجعـــى وعميل انكليزى . وكان اعضاء لجنـــة التحقيق انفسهم مفوضى الديون وبضمنهم الماجور بارنغ .

واستخدمت لجنة التحقيق حالا لهجة وقحة . اذ عاملت الخديوى اسماعيل ووزراءه كمتهمين . واستدعت مرة شريف باشا ـ وزير العدل ، للادلاء بشهادته . ثم طالبت باقالته عندما رفض حضور جلستها مقترحا ارسال شهادة مكتوبة . وشهّرت اللجنة فى تقريرها باشكال واساليب الادارة المصرية ، ووضعت صيغة قرار اتهام كامل ضد الخديوى . وألقت على عاتقه مسؤولية الوضع فى مصر وفى شؤونها المالية . وصمّمت لجنة التحقيق على ارغام الخديوى على قبول قائمة مخصصاته وعلى ان تنتزع منه الضياع الخاصة التى كان قد منحها الى روتشيلد ـ صاحب بنك لندن كضمان للقرض الجديد .

واخيرا ، طلبت اللجنة من الخديوى ان يتخلّى عن ادارة شؤون الدولة بصورة مباشرة وان يعهد بها الى مجلس وزراء «مسؤول» يساهم فيه الاجانب .

تكوين «الوزارة الاوربية» . اضطر الخديوى الى الموافقة على مطاليب لجنة التحقيق ، وتنازل عن ضياعه ، وفى ٢٨ آب (اغسطس) ١٨٧٨ امر بتشكيل وزارة جديدة مؤلفة على الاغلب من موظفين اوربيين ، وترأسها نوبار باشا الكومبرادور المحلّى . وكان نوبار باشا ، الارمنى الاصل ، معروفا بصلاته مع بنوك لندن وباريس . ولقد اعترف اللورد كرومر نفسه بان هذا الباشا «لم يكن يتمتع باى نفوذ بين السكان المصريين ، وبانه لم يستطع التفاهم معهم لجهله اللغة العربية . وكان يعتمد فقط على مساندة الحكومتين الاجنبيتين له» . وكان رئيس الوزارة الفعلى ريفرز ولسن ـ الانكليزى ، المدير الحقيقى للجنة التحقيق ، الذى شغل اهم منصب وهو وزير المالية . وعين دى بلينيير ـ مفوض الديون الفرنسى ، وزيرا للاشغال العامة وشغل ممثلا النمسا وايطاليا منصبى المراقب العام ومساعد وزير المالية . ولم تنس «افضال» رياض باشا ، الذى قُلّد منصب وزير الداخلية جزاء لما قدم من خدمات لولسن وبارنغ .

وكانت هذه الحكومة موضع المقت الشامل واطلق عليها المصريون اسم «الوزارة الاوربية» . وبفضلها اصبح الاوربيون لا

يسيطرون على شؤون مصر المالية فحسب ، بل وعلى ادارة البلاد ايضا . وبعد ان فقدت مصر كل استقلالها تحولت الى مستعمرة للصيارفة الانكلو-فرنسيين . وردا على غزو الراسمال الاجنبى ، اختمرت فى البلاد حركة وطنية تحررية ، سرعان ما ادّت الى الاطاحة «بالوزارة الاوربية» .

الفصل السادس عشر

الحركة الوطنية التحررية فى مصر فى اعوام ١٨٧٩-١٨٨١

اشتداد الاتجاهات المعارضة . اثار الاستبداد الاجنبى واستعباد مصر المالى وبالتالى تأليف الرقابة الثنائية «والوزارة الاوربية» استياء عميقا بين مختلف طبقات المجتمع المصرى ، التى كانت تقاسى بشكل او بآخر من نير المرابين الاجانب .

وكان الفلاحون يقاسون من هذا النير اكثر من غيرهم . اذ انهم ارغموا على تحمل اعباء الدين المصرى بصورة لا تطاق . فدفعوا اربعة اضعاف ما كانوا يدفعونه من الضرائب سابقا . وكان عليهم ان يبيعوا الى المرابين محاصيلهم ، وهى لا زالت فى الحقل ، باسعار ارخص مرتين او ثلاث مرات من اسعارها الحقيقية ، لكيما يسددوا حسابهم مع جباة الضرائب ، وفضلا عن ذلك كانوا يتعرضون ، عند جباية الضرائب الى الاهانات والتعذيب والاذى ، ويتضوّرون جوعا فى الوقت الذى كانت فيه مئات الملايين من الفرنكات تستحصل منهم كرها بالسياط وتتسرب الى صناديق البنوك الاجنبية . ومنذ بداية ١٨٧٩ اكتظت القاهرة بالفلاحين القادمين اليها حاملين الى الخديوى الشكاوى من اضطهاد السلطات لهم على نحو لا يطاق .

كذلك كان سكان المدن المصرية يقاسون من نير الرأسمال الاجنبى . اذ فرضت ضرائب باهضة على التجار واصحاب الحرف فى الوقت الذى حلّ فيه كساد فى التجارة وبارت سوق المصنوعات الحرفية .

ونفذ الاستياء الى صفوف مختلف فئات الطبقة الحاكمة . وكانت احاسيس التذمر تشمل بوجه خاص الضباط المصريين ، الذين

يشغلون مناصب قيادية متوسطة . اذ لم يتقاضوا رواتبهم شهورا بسبب التدابير الاقتصادية وسغبت عوائلهم فى الوقت الذى احتفظ فيه برواتبهم العالية ممثلو الوجهاء الاقطاعيين-الملاكين اى البكوات والباشوات «الجراكسة» .

وكان الموظفون ناقمين ايضا لعدم تقاضيهم لرواتبهم كما تذمر الملاكون العقاريون فان المرابين الاوربيين فرضوا عليهم جزءا من اعباء الديون الخارجية . وكان الخديوى اسماعيل - وهو الملاك الاول فى مصر مستاء نفسه من الاجانب وخاصة من «الوزارة الاوربية» التى حرمته من ضياعه ولم تبق له الا سلطة وهمية صرفة .

وهكذا عمّت مصر الاتجاهات المعارضة . والتفت الحلقات والجمعيات السرية . وفى ١٨٧٦ تشكلت اول جمعية سرية بين الضباط المصريين وذلك اثر انتهاء الحرب الاثيوبية الفاشلة . وترأس هذه الجمعية الاميرالاى احمد عرابى (١٨٣٩-١٩١١) الذى تميز بفصاحته واخلاصه لقضية الشعب المصرى . وسمّى اتباع عرابى انفسهم بـ «الوطنيين» الذين ناهضوا بادئ ذى بدء الخديوى اسماعيل وبذلوا الجهود للحصول على المساواة القومية فى داخل الجيش فقط ، وخاضوا نضالا من اجل مصالحهم المهنية الصرفة . واتخذ نضالهم فيما بعد سمة تحررية وطنية عامة . وهم الذين رفعوا لاول مرة شعار «مصر للمصريين» . ونادوا بان مصر امة لها الحق فى ان تتمتع بكيان دولة مستقلة . وكانوا يستندون الى جماهير الفلاحين والجنود .

وكان زعماء الوطنيين قريبين الى الشعب المصرى . وقال عرابى فى نداءاته بانه فلاح . وكان والده فلاحا بالفعل من قرية هرية رزنة الواقعة فى الوجه البحرى . وصوّر الكثيرون من المؤرخين البرجوازيين عرابى بوصفه شخصا جاهلا . ولكنه دخل الجيش فى الحقيقة بعدما جاور فى الازهر . وانكب فيما بعد على المطالعة . وهو شخص يحب الاطلاع ذو ذكاء حاد ووطنى غيور . وقد درس بانتباه كبير خبرة الثورة الفرنسية وحروب نابليون والحركة الوطنية التحررية الايطالية . ورقى عرابى بسرعة فى عهد سعيد فاصبح ياورا له ، الا انه كان فى عدم الرضى فى عهد اسماعيل ولم يُرقّ الى

رتبة اعلى الا بعد انصرام ١٢ عاما ، اى فى عام ١٨٧٥ اثناء الحرب الاثيوبية .

وتمتع عرابى بما يستحقه من نفوذ وسمعة بين الضباط المصريين وجنود الجيش المصرى . كما تمتع بسمعة لا تقل عن ذلك على الروبى وعبد العال وعلى فهمى ومحمود فهمى وغيرهم من الضباط الوطنيين وانصاره المقربين .

وبالاضافة الى قادة الحركة الوطنية العسكريين المذكورين برزت جماعة معبرة عن ايديولوجية الحركة . وكان من بينهم الشيخ العلامة محمد عبده العالم الدينى الذى كان يحلم بـ «اصلاح الاسلام» بتكييفه وفق شروط الحياة البرجوازية ، واديب اسحق الكاتب والصحفى السورى ، الذى استوطن مصر عام ١٨٧٦ ، وعبد اللّه نديم الخطيب الموهوب والكاتب الاجتماعى ومثقفون آخرون وخاصة اساتذة وطلاب الازهر وتلامذة السيد جمال الدين الافغانى (١٨٣٩ـ١٨٩٧) ـ رجل الدين والسياسة المعروف ومؤسس الجامعة الاسلامية .

وفى عام ١٨٧١ استقر السيد جمال الدين الافغانى فى القاهرة بعد تجوال طال امده فى الشرق . ودرّس فى الازهر وأسهم مساهمة فعّالة فى الحياة الاجتماعية والسياسية المصرية . وانبرى يطالب باصلاح الاسلام وتوحيد الشعوب الاسلامية فى نضالها ضد اوربا . ودعا المسلمين الى استيعاب العلوم والتكنيك الاوربى لمحاربة الاوربيين بسلاحهم الخاص بهم . وتقبل الناس فى مصر تعاليمه بحرارة رغم انها كانت متضاربة جدا فى جوهرها . واثرت تعاليمه تأثيرا كبيرا فى تكوين وجهات نظر المفكرين المصريين فى السبعينيات من القرن التاسع عشر . وكان عرابى وزملاؤه يعتبرون انفسهم من اتباع جمال الدين الافغانى . وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٧٩ أبعد جمال الدين عن مصر ، الا ان القادة الوطنيين ظلوا متأثرين بافكاره .

وكانت اتجاهات المعارضة تناوئ فى بادئ الامر الخديوى اسماعيل، ثم تحولت فيما بعد ضد «الوزارة الاوربية» . وفى ١٨٧٧ اتخذت مظهرا سافرا . فظهرت لاول مرة فى مصر معارضة فى الصحف . اذ شرع اديب اسحق وسليم نقاش باصدار مجلة «مصر»

وتلتها صحيفة «التجارة» ونشرت كل منهما مقالات جمال الدين الافغانى ومريديه ، وكانت موجهة ضد الخديوى والاستعباد الاجنبى لمصر .

وفى ١٨٧٩ شملت اتجاهات المعارضة مجلس النواب الذى كان مؤلفا غالبا من ملاكى الاراضى ورجال الدين المسلمين . وتزعم فيه الملاكون الاحرار ، الذين كانوا يمثلون جناح الوسط فى الحركة الوطنية التحررية . وكانوا تحت تأثير افكار الاحرار الدستوريين من صنف مدحت باشا ، ومن مؤيدى استقلال مصر والدستور والبرلمان وحكومة مسؤولة فيها . وفى ٢ كانون الثانى (يناير) ١٨٧٩ عقد مجلس النواب جلسته الدورية . فحوّلها المندوبون الى منبر لالقاء خطبهم الموجهة ضد «الوزارة الاوربية» . وساند الخديوى سرا هذه الخطابات لانه كان يحقد على «الوزارة الاوربية» .

المظاهرة العسكرية فى ١٨ شباط (فبراير) ١٨٧٩ . وفى شباط (فبراير) ١٨٧٩ قررت «الوزارة الاوربية» لاغراض الوفر ، تسريح ٢٥٠٠ ضابط من الجيش وتخفيض رواتب الباقين بمقدار النصف وعدم دفع ما عليها من ديون سابقة . واذا دلّت هذه الاجراءات على شيء فهو الحكم بالموت جوعا على المسرَّحين . ولذا قرروا الانتفاض ضد «الوزارة الاوربية» . ونال قرارهم هذا عطف جنود حامية القاهرة وهم الفلاحون المجندون .

وفى ١٨ شباط (فبراير) ١٨٧٩ أحاط حشد من الضباط بمركبتى نوبار باشا وريفرز ولْسن . فاخرجوهما من مركبتيهما ووضعوهما تحت الحراسة فى وزارة المالية . ثم أخذ رياض باشا الى هناك ايضا . فخف الخديوى اسماعيل الى محل الحادثة ، وبناء على طلب القنصل الانكليزى اقترح على الضباط بان يتفرقوا . لكنهم أبوا ان يفعلوا ذلك . فاستدعى الخديوى قوات الى هناك وطلب منها اطلاق النار عليهم . فاطلقوا النار فى الهواء . ولم يستطع اسماعيل اطلاق سراح الموقوفين الا بعد ان قطع وعدا للضباط بـ «تلبية مطاليبهم العادلة» .

فتراجعت الحكومة بنتيجة هذه الانتفاضة وألغت امر تسريح الضباط من الجيش وتقليص الرواتب كما دفعت

الديون المتبقية في ذمتها للضباط . ولهذه الغاية قد اقترض اسماعيل من روتشيلد ٤٠٠ ألف جنيه ، وفي ٩ آذار (مارس) ١٨٧٩ أحال نوبار باشا الى التقاعد . وترأس الحكومة توفيق ــ ابنه الاكبر . واحتفظ ولسن ودى بلينيير بمنصبيهما ووقفت السلطات وفقا لطلبيهما ، محرضي المظاهرة ، الا انه سرعان ما اطلق سراحهم . وكتب كرومر بهذا الصدد : «كان من الصعوبة بمكان تعريضهم * في الظروف القائمة آنذاك الى اى عقاب مهما كان نوعه دون الاقدام على مخاطرة جسيمة في الواقع» .

وحظيت بالمساندة العامة في البلاد انتفاضة الضباط ضد «الوزارة الاوربية» . اذ ادرك المصريون انه من الممكن خوض نضال مظفر ضد الظلام الاوربيين . فخاضوا النضال باصرار أشد من اجل اقصاء الوزراء الاوربيين من الحكومة .

خطة ولسن المالية . ومع ذلك ، اعتبر الموظفون الانكليز والفرنسيون بان الحادثة قد تم تسويتها ، وبانهم سيكونون كالسابق اسياد البلاد فابلغوا الخديوى بانهم ينوون اتخاذ تدابير مشتركة في كافة القضايا التي تتعلق بمصر وانهم لا يسمحون باجراء اى تغييرات في المبادئ السياسية والمالية .

وقالوا ، وهم يلقنون الخديوى ، من الضرورى ان يفهم جيدا بان اقالة نوبار باشا لا تعني شيئا بنظر الحكومتين (اى الحكومة الانكليزية والفرنسية . ــ المؤلف) سوى قضية شخصية ولا يمكن ان تؤدى الى تبديل النظام . ومع انهم وافقوا على اقالة نوبار باشا ، لكنهم طالبوا في الوقت ذاته بعدم حضور الخديوى الجلسات الوزارية مهما كانت الدوافع ، وبمنح ولسن ودى بلينيير حق النقض (الفيتو) ضد اى مشروع حكومي .

فوافق اسماعيل على هذه المطاليب . واعتبر ولسن حينئذ بانه قد وضع حدا لاى مقاومة ، وقدم بناء على ذلك خطته المالية . وانطلق من مبدأ استحالة «مطالبة» من الدائنين «بالتضحيات» وان يكون تحملها من نصيب المدينين . ولهذا اقترح اولا ــ ان يثبت

---

* المقصود المحرضون على المظاهرة . ــ **المترجمة** .

بصورة قانونية تنازل الخديوى عن ضياعه لصالح لجنـــة دين الخديوى ؛ ثانيا ــ ان تخفّض قائمة مخصصات الخديوى الى ٣٠٠ الف جنيه ؛ ثالثا ــ ان ترفع ضرائب الارض سواء أكانت على اراضى الفلاحين (الاراضى الخراجية) ام على اراضى الملاكين العقاريين (الاراضى العشريـــة) ؛ رابعا ــ ان تلغى القروض الداخليـــة اى «الروزنامة» و«المقابلة» ، وذلك يعنى نهب حملة القروض الداخلية من اجل مصالح حملة القروض الخارجيـــة ؛ واخيرا ــ ان تخفّض مؤقتا فائدة الدين الموحد ودين «الدائرة السنية» الى ٥٪ ، مع الاستمرار على تسديد الدين الممتاز وفق الشروط السابقة .

وكان من المفروض ان تحقق خطة تصفية القروض الداخلية بطريقة فظة للغاية . اذ اعتبرت «الروزنامة» وفقا لهذه الخطـــة مجرد ضريبة والمبالغ التى دفعها المصريون الى الخزينة لتسديد هذا القرض غير قابلة للاسترداد على العموم . اما فيمـــا يتعلّق بـ «المقابلة» ، فلم يعترف ولْسن كسندات صالحـــة الا بـ ٩,٥ ملايين جنيـــه بينمـــا كان مجمـــوع قرض «المقـــابلـــة» الذى قدمه المصريون للخزينة ١٥,٧ مليون جنيـــه . والغى ولْسن السندات الباقيـــة . والتزمت الخـزينـــة امـــام حملـــة السندات المعترف بها تسديد القرض على التوالى بدفع سنويا ١,٥٪ من مبلغ «المقابلة» الاجمالى خلال ٥٠ عاما ، اى دفع ٧٥٪ من هذا المبلغ تسديدا لمدة ٥٠ عاما . والخلاصة لم تنص خطة ولْسن الا على دفع تعويض جزئى من المبلغ الذى دفعه حملة «المقابلـــة» الى الدولة . وفى نفس الوقت مدد التعويض على هذا المبلغ لمدة ٥٠ عاما ، وحرم ولْسن فى الوقت ذاته حملة «المقابلة» من جميع امتيازاتهم . اذ كان عليهم وفقا لخطته ان يقوموا الآن بدفع ضرائب الارض بكاملها ، اى بدفع مبلغ اضافى قدره ١١٥٠ ألف جنيـــه سنويا ، بينما كانت قد غطّت الدولة تسديدا مبالغ قدرها ١٥٠ ألف جنيه فقط لاولئك الذين دفعـــوا «المقـــابلـــة» ســـابقـــا . فاصابت الخسارة جميع الملاكين العقاريين تقريبا نتيجـــة لهذه الاجراءات وقسما هاما من الفلاحين المصريين . ودفعت بكاملهـــا «المقابلة» المفروضة على ٢٤٠ ألف فدان من الاراضى الخراجية

وعلى ٤٨٠ ألف فدان من الاراضى العشرية ، اى على ١٥٪ من كافة الاراضى المصرية . وفضلا عن ذلك ، دفعت جزئيا «المقابلة» على ٧٢٥ ألف فدان من الاراضى العشرية لوحدها بغض النظر عن الاراضى الخراجية الواسعة .

وفى ٢٨ آذار (مارس) ١٨٧٩ أرغم ولسن الخديوى على توقيع مرسوم «المقابلة» . فادى هذا الاجراء الى استياء عام فى مصر وخاصة بين الملاكين العقاريين المصريين .

اقالة **«الوزارة الاوربية»** . بدأت اجتماعات احتجاجية ضد الوزراء الاوربيين وسياستهم المالية فى جميع انحاء البلاد . وتقاطرت العرائض على الخديوى من كل صوب وحدب مطالبة باقالة «الوزارة الاوربية» وتشكيل حكومة وطنية ووضع نظام دستورى والغاء مرسوم «المقابلة» . واحتج اعضاء مجلس النواب والعلماء والموظفون الكبار والضباط على سياسة الوزراء الاوربيين المالية . وشرع مجلس النواب باعداد خطة مالية خاصة خلافا لخطة ولسن .

وفى ٧ نيسان (ابريل) ١٨٧٩ دعا الخديوى الى قصر عابدين اعضاء السلك السياسى والاعيان المصريين . واعلن فى هذا الحفل الرسمى بان الاستياء قد بلغ ذروته فى البلاد وبأن الامة تطالب بتأليف وزارة مصرية خالصة تكون مسؤولة امام مجلس النواب . وقال : وانى اعتبر واجبى المقدس كرئيس دولة وكمصرى ان أراعى وجهة نظر بلادى وان أحقق امانى امتي الشرعية بصورة تامة . وأبلغ الحاضرين عن عزل «الوزارة الاوربية» وتأليف حكومة جديدة من «عناصر مصرية اصيلة» . واعطى اسماعيل وعدا بوضع نظام دستورى لمصر . ثم استطرد قائلا : سيعدل نظام الانتخابات وحقوق المجلس طبقا للامانى الوطنية . واعلن فى الوقت ذاته عن استعداده لتبنى خطة مجلس النواب المالية .

وكان بيان الخديوى اسماعيل يتسم بمسحة وطنية تحررية . وصيغت فيه للمرة الاولى وجهة نظر رسمية على المصريين بوصفهم امة قائمة بذاتها . وكان للحكومة الجديدة طابع وطنى مصرى بالاضافة الى الطابع الدستورى . ويترأسها الملاك العقارى شريف

باشا ذو الافكار الحرة الذى كان وزيرا للعدل منذ مدة قصيرة ونال شهرة فى البلاد برفضه حضور جلسة لجنة التحقيق التى كان يترأسها ريفرز ولسن . وجدير بالذكر انه اسهم فى ذلك العهد ، اى فى فجر الحركة المصرية الوطنية ، قسم من الملاكين العقاريين برئاسة اسماعيل وشريف باشا فى النضال التحررى الوطنى وحتى انهم قاموا بقيادته . وبالعكس كان نشاط الجماهير الشعبية لا يزال ضعيفا جدا فى ذلك الحين .

وفى ٢٢ نيسان (ابريل) ١٨٧٩ نشرت الحكومة الوطنية خطتها المالية . وقد ثبّتت هذه الخطة جميع سندات القروض الداخلية وخفّضت موقتا فائدة الدين الموحد الى ٥٪ سنويا . وتعهدت بالاحتفاظ بشروط غوشن ـ جوبير للقسم الباقى من الالتزامات ، والتى نص عليها مرسوم ١٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٧٦ . وعزلت الحكومة الوطنية عددا من الموظفين الاوربيين ، الذين كانوا يديرون اقسام مختلفة من جهاز الدولة ، وقررت زيادة عدد الجيش الى ٦٠ الف شخص ، وشرعت باعداد مشروع اول دستور مصرى . وفى ١٧ أيار (مايو) ١٨٧٩ عرض شريف باشا على مجلس النواب مشروع «اللائحة الاساسية» وقانون الانتخابات . وفى ٨ حزيران (يونيو) صادق المجلس عليهما وأحالهما الى الخديوى للنظر فيهما . الا ان اسماعيل لم يستطع المصادقة على هذه المشاريع القانونية . اذ قد خلع من منصبه بجهود الدول الموحدة .

خلع اسماعيل واقالة شريف . ولم يكد الخديوى اسماعيل يقاوم جهارا نير اصحاب البنوك الاوربية ، حتى تحول فى رأى الدول الى «طاغية شرقى» ووضعت الدول نصب اعينها مهمة اقصائه عن طريقها مهما كلفها الامر ، بينما كانوا يمجدونه ويثنون عليه كحاكم مثقف وتقدمى ، عندما كان يعقد ، الواحد تلو الآخر ، القروض الخارجية ممهدا بذلك سبيل استعباد البلاد للرأسماليين الاجانب .

وفور اقالة الوزراء الاوربيين ونشر الخطة المالية الجديدة شرعت الدول تنذر اسماعيل وتهدد بخلعه . وفى ٢٥ نيسان (ابريل) ١٨٧٩ كتب سالسبرى ـ وزير خارجية بريطانيا ، الى

القنصل الانكليزى فى القاهـــرة : «فيمـــا لو رفض الخديوى فى المستقبل ... باصرار مساعدة الوزراء الاوربيين الذين قد يقدمون له من قبل الدولتين ، فبامكاننا ان نستنتج من ذلك ... بانه ينبذ صداقتهما متعمدا . ولا يبقى لدى الحكومتين فى هذه الحالة الا ان تتخذا الحرية التامة فى التصرف للدفاع عن مصالحهما فى مصر ولخلق ظروف من شانها ان تضمن حكما افضل وازدهارا لهذه البلاد» .

فقدم القنصل الانكليزى هذا الانذار الى اسماعيل . ومع ذلك اظهر اسماعيل صلابة ورفض اعادة الوزراء الاوربيين . وعندئذ استخـــدم اسلـــوب الضغـــط الدبلـومـــاسى . واستغلّت انكلترا بيسمارك ، الذى كان يسعى الى اثارة التناقضات الانكلو-فرنسيـــة وعزل فرنسا ، وساند المطامع الانكليزية فى مصر عن طيب خاطر . وفى ايار (مايو) ۱۸۷۹ احتجت على اجراءات اسماعيل حكومتا المانيا والنمسا بصورة لم تكن تتوقعهـا مصر . واعلن الدائنـــون الألمان بان خطة التسوية المالية المؤرخة فى ٢٢ نيسان (ابريل) ، خطة غير قانونية وقدموا القضية الى المحكمة المختلطة . وفى بداية حزيران (يونيو) تقدمت حكومتا انكلترا وفرنسا باحتجاج مماثل . وقام معتمدون من قنصليات مختلفة ــ باتصالات «خاصة» وصاروا «ينصحون» اسماعيل بالحاح على التنازل عن العرش ومغادرة مصر .

وفى ١٩ حزيران (يونيو) ۱۸۷۹ قدّمت انكلترا وفرنسا الى اسماعيل انذارا نهائيا رسميا بالتنازل عن العرش . وتعهدت الدولتان بمنح اسماعيل معاش تقاعد وبتولية ابنه الاكبر ــ توفيق للعرش ، فيما لو تنازل عنه طواعية . وفى حالة اظهار الخديوى اية مقاومة ، فهددته الدولتان بالالتجاء الى السلطان التركى وخلعـــه بالقوة . وحظى هذا الانذار بمساندة الدول الاخرى . فقدّم كل من قناصل المانيا والنمسا وروسيا وايطاليا «نصيحة» مماثلة .

فرفع اسماعيل نفسه القضية الى السلطان عبد الحميد الثانى لحسمها ، اذ لم يكن يتوقع من الدول احالتها الى استانبول . وكانت هذه خطوة غير موفقة . اذ عجّل عبد الحميد بتنفيذ ارادة الدول خشية من الاصطدام بها ، وفى ٢٥ حزيران (يونيو) ۱۸۷۹ أبلغ السلطان اسماعيل ببرقية بخلعه وتعيين توفيق خلفا له .

وبهذا الصدد كتب اللورد كرومر : «جرى هذا الانقلاب كله باقصى ما يمكن من الهدوء حتى لم يطلع جمهور السكان على خلـع اسماعيل قبل سماع اطلاق المدافع شرفا لخلفه» .

وفى بادى الامر اراد اسماعيل المقاومة الا انه كانت تعوزه العزيمـة ورباطـة الجاش ، فغادر مصر فى ٣٠ حزيران (يونيو) متوجها الى ايطاليا . ولم يكن فى وداعه اى موظف من الديبلوماسيين الاوربيين . ومع ذلك نظمت له مظاهرة تعبيرا عن المشاعر الشعبية لموقفه . ومع ان الشعب المصرى لم يكن يحب اسماعيل ، اذ اعتبره بحق احد الرؤساء الذين اقترفوا الفاجعـة التى حلت به . ولكن اسماعيل كان فى تلك الآونة ضحيـة النضال الذى خاضـه ضد المستعبدين الاجانب ، وقد حاول تزعم الكفاح الوطنى التحررى . ولذا تناسى الشعب الماضى القريب ، وقام بمظاهرة عفوية للتعبير عن تاييده للمحاولة التى قام بها الخديوى لتاليف حكومة وطنية وانتهاج سياسة مستقلة عن الصيارفة الاوربيين .

وبعد مغادرة اسماعيل تقرر مصير شريف باشا ـ اقرب شريك له فى الرأى . فان توفيق ـ وهو شخص ضعيف الارادة وعديـم الكفاءة وكان مجرد صنيعة بيد الانكليز ، رفض التوقيع على لائحة الدستور الذى كان قد اعدها شريف باشا . وفى ٤ ايلول (سبتمبر) اعاد الرقابة المالية الثنائية ، وفى ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٨٧٩ اقال الوزارة الوطنية . واصبح رياض باشا ـ عميل الانكليز ، رئيس وزراء مصر الجديد . وبدأت معه مرحلة رجعية . وحسب تعبير المؤرخ المصرى م . صبرى ، ساد فى البلاد نظام الاستبداد والارهاب والجاسوسية .

وزارة رياض . عهد الرجعية . كانت وزارة رياض ستـارا لتغطية السيادة المطلقة التى تمتعت بها «لجنة دين الخديوى» ، وخاصة ممثل انكلترا الماجور بارنغ فيهـا . وباعتراف بارنـغ (اللورد كرومر) نفسـه ، الذى ادلى به بعد انصرام سنوات عديدة ، ان رياض اولى بارنغ «ثقة» الى درجة انه كان يوقـع وثائق الدولة والمستندات الهامة التى صادق عليها كرومر دون ان يقرأها . وتحت ضغط الدول قام الباب العـالى بتقليص حقوق

الحكومة المصرية . ومنذ ٧ آب (اغسطس) ١٨٧٩ ألغى فرمان عام ١٨٧٣ . فحرمت مصر ثانية من حق عقد قروض خارجية بدون موافقة الباب العالى ، وخفّض عدد الجيش المصرى مرة ثانية الى ١٨ ألف شخص .

ومارس المراقبون الاجانب واعضاء « لجنة دين الخديوى » وظائف الحكومة الفعلية فى البلاد . ومع ذلك لم يكن باستطاعتهم انفسهم تأمين الحصول على الاموال الضرورية لتسديد السندات الدورية . وعلى الرغم من عنف الفصائل التنكيلية المرسلة لجباية الضرائب الى الريف لم يكن فى استطاعة البلاد الفقيرة المسلوبة والمنهوبة اعطاءهم ما كانوا يطالبون به . ولم يسدد فى اواخر ١٨٧٩ الا ثلثا السندات الدورية للدين الموحد . كما لم تدفع الجزية الى الباب العالى اطلاقا . فاعلن المراقبون انه : « اذا لم تتوفر الاموال لدفع الجزية ، فسيكون ذلك من سوء طالع الباب العالى » .

وفى كانون الثانى (يناير) ١٨٨٠ طبّقت خطة ولْسن المالية ، وفسخت « المقابلة » . وفرضت ضرائب اضافية على الاراضى العشرية . وتحولت جميع الابتزازات العينية الباقية ـ حيث بقيت على حالها فى بعض الاماكن ، الى ضرائب نقدية . وحدّدت مواعيد جديدة لدفع الضرائب . وادخل احتكار الملح وهو عبء ثقيل على كاهل السكان . وحدّدت مداخيل عام ١٨٨٠ بمبلغ ٨,٥ ملايين جنيه ، خصص نصفها لا غير لنفقات الحكومة المصرية ، وتسرب النصف الثانى برمته الى ايدى الدائنين الاجانب . ومع ذلك لم تؤمن حتى هذه التدابير تسديد المبالغ التى كان يتطلبها المرابون الاجانب ، فخفضت اقساط سندات الدين الموحد الى ٤٪ سنويا .

وفى نيسان (ابريل) ١٨٨٠ ألفت من اجل حلّ قضية الدين المصرى هيئة عرفت بلجنة التصفية وترأسها ريفرز ولسن . والحق بها كافة اعضاء لجنة التحقيق لعام ١٨٧٨ (ما عدا دى ليسبس) . وكان هؤلاء الاعضاء يمثلون انكلترا وفرنسا وايطاليا والنمسا مع مندوب عن المانيا ايضا . وطبقا لاقتراح اللجنة ، صدر فى ١٧ تموز (يوليو) ١٨٨٠ « قانون التصفية » الذى حدّد مبلغ الديون المصرية بمقدار ٩٨ مليون جنيه وعيّن مواعيد تسديدها ،

مخصصا لهذه الغاية قسما معينا من مداخيل الدولة المصرية .
فقسم الدين المصرى الجارى الى ثلاثة اقسام : دفع قسم واحد منه الى الدائنين كلية ، ودفع جزء من القسم الثانى نقدا وجزء كسندات للدين المفضل ، واخيرا ، دفع القسم الثالث على اساس اتفاقات خاصة عقدت مع الافراد الدائنين . وفيما بعد كتب اللورد كرومر وهو احد المساهمين فى وضع هذا القانون : «كان من النواقص الرئيسية لهذا القانون دفع جزء كبير جدا من مداخيل الدولة (٦٠٪) الى حاملى القروض ، فى الوقت الذى اصبحت فيه المبالغ التى وضعت تحت تصرف الحكومة غير كافية اطلاقا» .

فقرع السوط من جديد على ظهور الفلاحين . ولم يستلم الضباط مجددا رواتبهم . وازدهرت المحسوبية والمنسوبية فى الجيش اكثر من اى وقت مضى مع ترقية «الجراكسة» الى مناصب قيادية على حساب المصريين على الاخص . ومرة اخرى شملت البلاد موجة حركة وطنية تحررية .

تقدم العسكريين . وفى ١٨٨٠ ظهرت قوى جديدة فى طليعة الحركة الوطنية . ففضلا عن الملاكين العقاريين الاحرار من طراز شريف باشا ، جاءت الى قيادة الحركة عناصر ديمقراطية راديكالية من الضباط كاحمد عرابى . وبالطبع ، لم تكن هاتان الفئتان تتميز الواحدة منهما عن الاخرى بجلاء فى داخل الحركة التحررية عام ١٨٨٠-١٨٨١ . اذ دعا كل من شريف باشا وعرابى نفسيهما بـ «الوطنيين» . وفى عام ١٨٨١ الّف اتباع شريف وهم الملاكون العقاريون الاحرار والتجار، الذين كانوا مستائين من تسلط الرأسمال الاجنبى ، الحزب الوطنى برئاسة محمد سلطان باشا . وألف فى نفس العام اتباع عرابى وهم الضباط الراديكاليون ومن انضمّ اليهم من المثقفين حزبا وطنيا ايضا . ولم يناهض الحزبان بعضهما البعض فى بادئ الامر . الا انه سرعان ما نشأت بينهما خلافات جذرية فى المصالح . اذ ايّد شريف ومحمد سلطان الاتفاق مع الرأسماليين الاوربيين ؛ بينما اصرّ عرابى واتباعه على خوض نضال حازم ضدهم . واصر شريف ومحمد سلطان على اقامة مَلَكية دستورية معتدلة فى مصر تضمن سيادة الملاكين شبه الاقطاعيين ؛ بينما

اصرّ عرابى واتباعه على القضاء على سلطة الخديوى وسيادة الوجهاء الملاكين من الاتراك والجراكسة ، وعلى اقامة حكم ديمقراطى . وناضل شريف ومحمد سلطان ضد الحركات الزراعية للفلاحين المصريين ، بينما ايّد عرابى واتباعه مثل هذه الحركات . وادّى اتساع الحركة الجماهيرية الشعبية فيما بعد الى ان وجد شريف ومحمد سلطان نفسيهما فى معسكر الرجعية وساعدا الانكليز على غزو مصر ، بينما صعد عرابى واتباعه الى قيادة الحركة الشعبية ، ودافعوا فى معاركهم التى خاضوها ضد الانكليز عن استقلال وطنهم .

ولم تكن هذه التناقضات الجذرية بينهما قد انجلت بعدُ فى عامى ١٨٨٠ـ١٨٨١ عندما ناضل الحزبان ضد وزارة رياض الرجعية ، وضد خطط ولسن وبارنغ المالية . اذ كان عرابى واتباعه لا يزالون يعتبرون شريف باشا شريكا لهم فى الرأى ونصيرا فى النضال من اجل استقلال مصر الوطنى ، رغم ان شريف نفسه كارستقراطى كان يحتقر «الجنود المتمردين» ويخشاهم فى الوقت ذاته .

نضال الوطنيين ضد وزارة رياض باشا . قدّمت جماعة من الضباط الوطنيين فى ايار (مايو) ١٨٨٠ احتجاجا الى عثمان رفقى ـ وزير الحربية ، على عدم دفع الرواتب وارسال الجنود الى العمل الاجبارى فى ضياع الخديوى . الا ان الاحتجاج لم يحظ بالقبول . وعلى العكس ، قام عثمان رفقى بصورة سافرة بترقية عدد من ضباط وجهاء الاتراك والجراكسة مهملا الضباط المصريين .

فقابل عرابى بك ـ قائد الاى المشاة الرابع وبرفقة ضابطين وطنيين آخرين وهما الاميرالاى عبد العال والاميرالاى علي فهمى فى ١٧ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ رياض ـ رئيس الوزراء ، وسلّمه عريضة جديدة . واعلن عرابى بان عثمان رفقى ـ وزير الحربية ، يهمل الضباط المصريين ذوى المآثر والمعرفة الحربية الممتازة ، ويقوم بترقية اناس من طغمته عوضا عنهم ، وطالب التحقيق فى الترقيات الاخيرة وعزل عثمان رفقى . فاستلم رياض العريضة وطلب مشورة المراقبين الاجانب ، فنصحوه بتوقيف الضباط الذين قدموا العريضة . وفى اولّ شباط (فبراير) ١٨٨١ دعا رياض الضباط الثلاثة الى وزارة الحربية . وكان كل شيء مهيئا

للتنكيل بهم . ولم يكد عرابى وزميلاه يحضرون الى الوزارة حتى القى القبض عليهم فورا وقدّموا الى محكمة عسكرية كانت فى انتظارهم . الا ان التمثيلية الدقيقة الحبك منيت بالفشل . اذ عندما اطلع جنود وضباط حامية القاهرة على الخيانة ، سارعوا الى مساعدة قادتهم . فطوق الايان وزارة الحربية . وقدم الاى ثالث عسكر فى ضواحى القاهرة لنجدتهما . فاقتحم الجنود قاعة المحكمة واوقفوا المحاكمة الصورية . فهرب عثمان رفقى من الشباك ، ورفع الجنود على ايديهم الضباط الثلاثة المحالين على «المحاكمة» . فتوجه من مبنى الوزارة عرابى على رأس الفى جندى الى قصر الخديوى . وطالبوا بحقوق متساوية فى الجيش وعزل عثمان رفقى فورا . فاصاب الذعر توفيق ووافق على كافة مطالبهم ، عندما تبين له عدم امكانية المقاومــة . وعزل حالا وزير الحربية البغيض . وعين محمود سامى البارودى عوضا عنه . وكان محمود سامى وطنيا معتدلا ودستوريا وشاعرا مصريا معروفا ، وهو من المقربين الى شريف باشا . فرحب الجنود والضباط الوطنيون ترحيبا حارا بهذا التعيين . وكان محمود سامى اهلا لثقتهم فيما بعد ، وكوطنى مستقيم ، سرعان ما ابتعد عن جماعة شريف باشا وانضمّ كلية الى عرابى .

وكان على توفيق ان يعلن على مضض منه بان كافة الضبــاط سواء أكانوا اتراكا ام جراكسة ام مصريين ، سيتمتعون فى المستقبل بنفس الحقوق . والّفت لجنة خاصة انضمّ اليها عرابى للتحقيق فى الترفيعات التى اجراها عثمان رفقى .

وتخيّل للضباط الوطنيين بانهم قد حققوا انتصارا تاما . الا ان الانتصار فى الواقع كان غير كامل . اذ انهم تقيدوا بمطالب مهنية ضيقة ولم يتقدموا باى مطلب سياسى عام، رغم ان القوة كانت الى جانبهم . وأبقى الوطنيون رياض وجميع طغمته الرجعية فى السلطة ، كما لم يمسوا صلاحيات المراقبين الاجانب ولم يحدوا مـن تعسف الخديوى توفيق .

فاغتنمت الرجعية هذه الغلطة من جانب الوطنيين . ولم تكد تهدأ الاضطرابات التى قام بها حشود الجنود ، حتى عزل الخديوى توفيق محمود سامى البارودى واخذ يتهيأ للتنكيل بالقادة الوطنيين.

الفصل السابع عشر

انتفاضة عرابي باشا

انقلاب ايلول (سبتمبر) ١٨٨١ . توتر الوضع في اوائل ايلول (سبتمبر) ١٨٨١ توترا شديدا في مصر . اذ قد اعد الضباط الوطنيون انتفاضة جديدة ضد حكومة رياض باشا . وصمم الخديوي من جانبه على التخلص بضربة واحدة من حامية القاهرة ذات الاتجاهات الثورية . فأصدر امرا في ٩ ايلول (سبتمبر) ١٨٨١ بنقل هذه الالايات الى الريف وكان ينبغي ان يرتحل معها عرابي وعلي فهمي وغيرهما من القادة الوطنيين . ولم يكن هذا الاجراء مجرد نفي مستتر ، بل محاولة لتشتيت شمل القوات المسلحه للثورة الوطنية الناضجة التي كانت قد تجمعت في القاهرة .

وتفاديا لضياع الوقت ، قرر القادة الوطنيون الانتقال الى الهجوم وانتفضوا بتاريخ ٩ ايلول (سبتمبر) ١٨٨١ أي في نفس اليوم الذي استلموا فيه امر الخديوي بنقل قواتهم . وبقيادة عرابي اصطف الفان ونصف ألف جندي من حامية القاهرة على شكل رباعي في الساحة امام سراي عابدين وقدموا الى الخديوي المطالب التالية : ١) اقالة وزارة رياض فورا ، ٢) منح الدستور ، ٣) زيادة عدد الجيش .

وكانت هذه المطالب سياسية عامة لا مهنية ضيقة .

فارتبك الخديوي توفيق عندما بلغه خبر الانتفاضة المسلحة ، وارسل في طلب الموظف الانكليزي اوكلند كلفن . وكان اوكلند كلفن يشغل آنذاك منصب المراقب المالي عوضا عن بارنغ الذي

ذهب الى الهند . فاقترح كلفن على الخديوى استدعاء قوات الرجعية المسلحة الى سراى عابدين حالا . ورغم ان اجاب توفيق المذعور انه يوجد لدى عرابى المشاة والمدفعية ، وباستطاعتهم ان يطلقوا النار ، اجلس المراقب الانكليزى الخديوى فى عربة حنطور واخذ يلفّ معه من ثكنة مصرية الى اخرى .

ولم تجد هذه الجولة فتيلا ، سوى انها اقنعت الاثنين بواقع عدم مساندة اية وحدة عسكرية للخديوى ، وبحرمانــه من اى سند عسكرى .

وعاد الخديوى الى سراى عابدين بعد وقوفه على حقيقــة الامر . ولكن كلفن قاده الى الساحة لمواجهــة الجنود المتمرديـن وأمره بالقاء القبض على قائدهم عرابى شخصيا وبدون اىّ سند عسكرى .

ــ هيا اعمل ــ قال الانكليزى للخديوى .

ــ نحن معرضون الى النيران من كل جانب ! ــ أجاب الخديوى وهو يموت خوفا .

ــ تشجع ! ــ تفوه الانكليزى .

ــ ماذا استطيع صنعه ؟ نحن تحت النيران من كلّ صوب وحدب . وسيقتلوننا ! ــ اجاب الخديوى .

فتقدم عرابى فى تلك الآونة الى الخديوى وسلّمــه مطاليب الثوار ، وخاطبه قائلا :

ــ حضر الجيش الى هنا استنادا الى ارادة الشعب وسوف لا نبرح المكان حتى تنفّذ هذه المطاليب .

فسمح كلفن عندئذ للخديوى الفاقد الرشد بالعودة الى سراى عابدين واخذ المفاوضات على عاتقه . فعرض على عرابى مساومة فحواها موافقته على عزل رياض وتعيين شريف باشــا رئيســا للوزراء بدلا عنه . اما فيما يتعلّق بالمطلبين الآخرين ، فاقترح كلفن تقديمهما الى الباب العالى للبت فيهما . فوافق عرابــى على المساومة .

ومرة اخرى ، كان النصر جزئيا ، اذ جاء الى السلطة الارستقراطى شريف ، العدوّ اللدود للحركــة الشعبيــة . واعلن شريف عــن

عدم رغبته فى اشغال منصب رئيس الوزراء «كمرشح من قبل الجيش المتمرد» . ولم يتولّ هذا المنصب الا تحت ضغط انكلترا وفرنسا وبشرط نقل الالايات «المتمردة» من القاهرة . ولردع جماح شريف ، جمع عرابى فى ١٣ ايلول (سبتمبر) اعيان القاهرة . وكان يأمل الحصول على مساندة الاعيان له فانه لم يدرك بعد طبيعة التناقضات الطبقية فى داخل معسكر الوطنيين المصريين ولم يكن ليفهم ان شريفا كان يشاطر المخاوف العامة التى كانت تنتاب جميع ملاكى البلاد حيال الحركة الشعبية .

فايد اجتماع الاعيان شريف ضد عرابى الذى اضطر الى الموافقة على سحب الالايات الثورية من القاهرة . وعند ما جاء شريف الى السلطة ، احتفظ بالمراقبة الثنائية . وأعلنت انكلترا وفرنسا بدورهما انهما ستؤيدان حكومة شريف .

ومع ذلك كان لانتفاضة ايلول (سبتمبر) نتيجة لا جدال فيها وهى تعزيز مكانة الوطنيين فى البلاد . فاذا كان عرابى سابقا مجرد قائد لجماعة عسكرية ، فانه اصبح الآن قائدا لكافة الشعب المصرى . وعند الكتابة عن هذا العهد قال احد المؤرخين الانكليز ان عرابى حصل خلال بضعة اسابيع على سلطة هامة . اذ بعث له بشكاويهم جميع من كانوا يقاسون من الظلم . ونال شهرة كمدافع عن الفلاحين ضد طغيان الطبقة الحاكمة التركية . وكان صديقا للفلاحين المنخرطين فى الجيش ، فلماذا لا يصبح كذلك صديقا لجميع الفلاحين فى البلاد ؟ وسرعان ما انتشرت شهرته انتشارا واسعا بين شيوخ القرى ، وثم بين الفلاحين انفسهم . ولم يجرؤ الفلاحون عبر الاجيال على رفع اصواتهم ضد نير وطغيان اسيادهم . ولكنّ عرابى ـ ابن شيخ القرية ، تجرأ عندئذ على رفع صوته عاليا باسطا فيه شكاوى الفلاحين فى الجيش ومدافعا عن حقوقهم امام المتنفذين فى البلاد ، وتكلّل عمله هذا بالنجاح . فبدأ المصريون يفقهون بان الوضع فى الجيش لا يختلف عنه فى سائر انحاء البلاد ، وغدا عرابى مثلا لهم . والتجأوا الى هذا «النبى» الجديد الذى قام من بين ظهرانيهم والذى بعث فيهم الامل

للتحرر من العبودية الابدية وحفّزهم على التمرد والمقاومة ، الامر الذى لم يدر بخلد الفلاحين حتى ذلك الحين » .

نضال الوطنيين ضد شريف باشا . شرعت الدول الاوربية باعداد تدخل مسلّح ردّا على انقلاب ايلول (سبتمبر) . ومع ذلك ، لم يتحقق هذا التدخل خلال مدة طويلة وذلك بسبب الاختلافات الانكلو-فرنسية . اذ وقفت فرنسا ضد الاجراءات التى اتخذتها انكلترا على انفراد ، وأصرّت على القيام باعمال مشتركة . وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٨١ اى فى الوقت الذى جرى فيه الانقلاب فى القاهرة اقترح برثليمى سانت هيلر ـ وزير خارجية فرنسا ، على اللورد غرنفل ـ وزير خارجية انكلترا ، اقامة رقابة عسكرية « ثنائية » (انكلو ـ فرنسية) على مصر . فرفضت انكلترا الخطّة المقترحة (كما رفضت الخطّة الايطالية للتدخل الجماعى من قبل الدول الست) . ورفضت فرنسا بدورها خطة التدخل التركى ، التى اسندتها المانيا والتى كانت تخدم مصالح انكلترا . وفى مذكرة مشتركة مع فرنسا ، اضطرت انكلترا الى ان تقطع وعدا الى مصر بالتأثير على الباب العالى « بغية الحؤول دون احتلال الجيش العثمانى لها » . بل وان ايفاد الباب العالى مبعوثيْه الى مصر لاقى معارضة من لدن انكلترا وفرنسا ، للتين ابلغتا السلطان فى مذكرة مؤرخة فى السادس من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٨١ ، بانهما « اطلعتا باستغراب واسف على عزمه لايفاد مبعوثين الى مصر » . وتعزيزا لهذه المذكرة ارسلت الدولتان سفينتين حربيتين الى الاسكندرية ، ولم تسحباهما الا بعد ان غادر المبعوثان التركيان اضطرارا مصر فى ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨١ .

فقرّر شريف باشا اغتنام فرصة حضور العمارة الحربية الانكلو-فرنسية لقمع حركة الافواج الثورية . وقد قدم كلفن الاقتراحات التالية بعد مرور بضعة ايام على انقلاب ايلول (سبتمبر) : ١) تشتيت الوحدات الثورية وتوزيعها على حاميات الارياف ، ٢) استخدام الاعيان من الملاكين المعتدلين لمجابهة الضباط الثوريين . ٣) تأييد مطاليب الاعيان الى المدى الذى لا يتعارض مع رقابة انكلترا وخططها المالية .

وشرعت حكومة شريف فى تنفيذ هذه الخطة فعلا . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨١ ، انسحب الايـــا عرابى وعبد العال من القاهرة وفقا لامر شريف باشا . واتجه الواحد منهما الى دمياط والثانى الى التل الكبير . ومع ذلك ادّى انسحـــاب الفوجين الى نتيجة معــاكسة تماما . اذ تحولت مغادرة عرابى القــاهـرة الى مظاهرة شعبية جبارة ضد حكومة شريف . واحتشد عشرات الآلاف من سكان القاهرة لتوديع عرابى وجنوده . وفى كل مكان قابلهم الناس على طول الطريق معبرين بحماس شديد عن تضامنهم السافر معهم . وكان طريق عرابى الى الريف عبارة عن موكب نصر حقيقى . وتوجب على الموظفين الانكليز ان يذكروا باسف بان « عرابى كان حاكم البلاد الفعلى » .

ولم يفكر عرابى فى هذه الظروف بالمكوث فى الريف . وبحجة توعّك صحة زوجته ، عاد الى القاهرة حيث واصل النضــال ضد حكومة شريف ، كما لم تفلـح الحكومـــة بـ« تشتيت » الوحدات الثورية ؛ اذ واصل جنود وضباط حامية القاهرة مساندتهم الى عرابى حتى بعد تغيير الوحدات التى رابطت فيها .

وعندئذ وقف عرابى جهارا ضد نير طغمة الخديوى ووجهاء الاتراك الجراكسة . واكد عرابى ان اسرة الخديوى كانت كالمماليك تظلم سكان البلاد العرب ، وقال : ان سلامة الاشخاص والاموال كانت معدومة ! ويودع المصريون فى غيـاهب السجون ويبعدون ويخنقون ويغرقون فى النيل ، يموّتون جوعا وينهبون اموالهم . وان اشد الاتراك جهلا كان يقدّم على افضل مصرى !

وقررت انكلترا تغيير تاكتيكها بعد ان فشلت فى التوصل الى اتفاق مع فرنسا على طبيعة التدخل ، آخذة بنظر الاعتبار نفوذ عرابى . وقام ممثلو انكلترا فى مصر بمحاولة اجراء مفاوضات مع الوطنيين . وفى اول تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨١ قابل اوكلند كلفن ـ المراقب المالى الانكليزى فى مصر ؛ وفدا من الوطنيين برئاسة عرابى . وفى ١٥ تشرين الثانى (نوفمبر) نشرت فى مصر رسالة مستعجلة كان قد بعثها اللورد غرنفل فى ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨١ الى مالت ـ المعتمـد السياسى الانكليزى فى القاهرة . واعلن

غرنفل فى هذه الرسالة بان انكلترا لا تبحث عن اقامة حكومة محابية فى مصر . وبعد ان ارتأى عدم تأليف حكومة مصرية قائمة على اساس مساندة دولة اجنبية او مدعومة من قبل المعتمد الدبلوماسى الاجنبى فى مصر ، اكد بان مطامح الوطنيين المصريين التحررية تطابق تقاليد انكلترا الوطنية ، وسوف لا تقوم انكلترا بمناهضتها . ومع ذلك فانه ترك منفذا دبلوماسيا للتدخل اذ لمح ان انكلترا سترغم على التخلّى عن هذا المبدأ فى حالة نشوء الفوضى فى مصر .

ومع ذلك فلم تتعد القضية الاتصالات الاولية بين انكلترا والوطنيين . ففى كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨١ استلمت الحكومة الانكليزية مذكرة سرية من اوكلند كلفن جاء فيها ان الوطنيين المصريين يهددون لا الخديوى فحسب ، بل والمواقع التى كانت تشغلها انكلترا وفرنسا فى مصر . واكّد كلفن بان الوضع مفعم بخطرين ، اولهما ــ تخلّى مصر عن التزاماتها المالية ، وثانيهما ــ رفضها تدخل الاوربيين فى ادارتها .

ونظرا الى ذلك ، لم تحذف انكلترا قضية التدخل من جدول اعمالها اليومية ، وواصلت الاعداد الدبلوماسى للقيام به ، فضلا عن انها وافقت على عقد اتفاق موقت مع فرنسا ضد الحركة الوطنية التحررية المصرية النامية .

وفى ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨١ طالب غمبتا ــ رئيس وزراء فرنسا ، انكلترا بتهيئة خطة مشتركة للعمل فى مصر . وقال بانه يجب ان تكون كلتا الدولتين على تحالف وثيق ، وان يكون تحالفهما واضحا تماما . فاستجاب غرنفل الى اقتراح غمبتا ووافق على ارسال مذكرة الى مصر بالاشتراك مع فرنسا .

وقرّر شريف باشا عندئذ عقد مجلس النواب لكى يحرم الجيش من الطابع الذى انتحله فى الاحداث الاخيرة . وصرّح شريف باشا بان مجلس النواب سيصبح هيئة نيابية يستند اليها الخديوى وحكومته فى نضالهما ضد «الاستبداد العسكرى» .

ورفض شريف باشا اقرار ذلك الدستور الذى اعده هو نفسه منذ سنتين مضت ، رغبة منه فى اضفاء طابع اكثر رجعية

على المجلس قدر المستطاع . وبينما اصرّ عرابى والوطنيون على تطبيق الدستور الذى اعده شريف ، احتفظ شريف نفسه بقانون عام ١٨٦٦ الانتخابى الذى كان قد انتخب بموجبه اعضاء المجلس فى مجالس الوجهاء الاقليمية .

وفى ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨١ التأم المجلس . وخيّل وكأنه حقق امانى شريف . اذ كان يتألف فى الواقع من الملاكين المعتدلين ، وترأسه محمد سلطان باشا ـ صديقه الحميم . وشرع المجلس اعماله بالتعبير عن مشاعره المخلصة تجاه الخديوى . وحسبما قاله مالت ـ المعتمد العام البريطانى فى القاهرة ، اعرب الخديوى عن ارتياحه التام من اتجاهات المندوبين الواضحة الاعتدال .

ومع ذلك لم يكد المجلس يصل الى بحث قضية وظائفه حتى تبدد الهدوء الذى كان سائدا . اذ اعلن المجلس عن حقه فى التصويت على الميزانية المصرية وفى الحد الادنى على ذلك القسم الذى كان قد خصّص منها للانفاق على الحكومة المصرية . وان هذا «التطاول» على حقوق الرقابة المالية اثار معارضة الدول الغربية فورا .

وفى ٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٨٢ قدّمت انكلترا وفرنسا مذكرة الى مصر جاء فيها : «ان حكومتى انكلترا وفرنسا تعتبران ان الضمان الوحيد لرفاهية مصر هو المحافظة على عرش صاحب سموّ الخديوى ، استنادا الى الشروط الواردة فى الفرمان السلطانى ، والتى اعترفت بها الدولتان رسميا . وقرّرت الحكومتان بحزم ان تحميان بجهودهما المشتركة النظام المصرى القائم من جميع التعقيدات الخارجية والداخلية التى يمكن ان تهدده . وانهما واثقتان بان هذا الضمان المنوه عنه علنا فى هذا الصدد ، لنواياهما الرسمية من شأنه ان يحول دون الاخطار التى يمكن ان تتعرض اليها حكومة الخديوى والتى ستقاومها انكلترا وفرنسا معا» .

وادّت هذه المذكرة الى وقوع استياء عام فى مصر وحتى انها قرّبت بين الاعيان والوطنيين موقتا .

وفى اول شباط (فبراير) ١٨٨٢ أبلغ قنصلا انكلترا

وفرنسا شريف باشا بانه « ليس بمستطاع المجلس التصويت على الميزانية بدون خرق مرسوم المراقبة الثنائية . ولا يمكن ادراج بدعة كهذه استحدثها البرلمان ، بدون موافقة الحكومتين الانكليزية والفرنسية » .

فقبل شريف ما جاء فى مذكرة الدولتين . واقترح على المجلس اجراء مفاوضات مع انكلترا وفرنسا . الا ان المجلس الحانق ، اعلن بان حقه فى التصويت على الميزانية لا يمكن ان يكون موضع نقاش مع الدول الاجنبية . واستنادا الى طلب المجلس استقالت وزارة شريف . وفى ٥ شباط (فبراير) ١٨٨٢ تألفت وزارة جديدة سيطر عليها الوطنيون ، وترأسها محمود سامى البارودى الذى كان وزيرا للحربية فى حكومة شريف . وعين وزيرا للحربية عرابى بك ــ قائد الوطنيين .

حكومة محمود سامى ــ عرابى (من شباط ــ فبراير حتى ايار ــ مايو ١٨٨٢) . وفى ٧ شباط (فبراير) ١٨٨٢ نشرت الوزارة الجديدة ، بعد مجيئها الى السلطة فورا « اللائحة الاساسية » التى كان قد اعدها مجلس النواب والتى ضمنت للمجلس حقوقه . وابطلت المراقبة الثنائية فعلا . واحتجاجا على ذلك غادر مصر بروح من التحدى دى بلينيير ــ المراقب الفرنسى . ولم تقف حكومة محمود سامى ــ عرابى عند هذا الحد ، بل ذهبت الى ابعد من ذلك . فشرعت باعداد قانون انتخابى جديد ، اكثر ديمقراطية . كما اعدت جملة من المشاريع القانونية التقدمية وخاصة مشاريع قوانين الغاء السخرة وتأسيس البنك الزراعى واصلاح المحاكم المختلطة . وحرّمت استعمال السياط عند جباية الضرائب وشرعت تكافح بشدة تعسف الموظفين وخاصة المستشارين والاخصائيين الاجانب ، الذين كانوا يمارسون الرشوة وابتزاز الاموال من خزينة الدولة على نطاق واسع .

وادّى تأليف الوزارة الجديدة الى يقظة الشعب المصرى . وعندئذ فقد المدراء الذين كانت قد عينتهم الوزارات السابقة ، جميع سلطتهم فى الاقاليم . وشرعت تنمو حركة زراعية فلاحية فى الوجه البحرى وخاصة فى منطقة الزقازيق . وهجمت فصائل من

الفلاحين على عقارات الملاكين وخربتها . واكدّ دعاة الوطنيين ، وهم يخاطبون الشعب ، بان اراضى الملاكين تعود للفلاحين بحق . وطالبت الحشود الفلاحية فى كل مكان بالغاء الديون المترتبة عليها للمرابين وباسترجاع الاراضى المرهونة . كما طالبت بتصفية دين الحكومة وتخفيض الضرائب وبعث «المقابلة» .

الا ان نمو الحركة الزراعية دفع الى اليمين كثرة من الملاكين الاحرار ، الذين كانوا قد اسهموا مع الوطنيين فى الوزارة الوطنية . وفى ايار (مايو) ١٨٨٢ قال سلطان باشا ـ زعيم الحزب الوطنى ، كما كان يعرف آنذاك ، للقنصل الانكليزى ان اقالة شريف باشا من قبل مجلس النواب كانت نتيجة لضغط عرابى ، وان اولئك المندوبين الذين كانوا يصرّون على الاتجاه المتبع عندئذ ، وجدوا انه كان قد غرّر بهم وهم يريدون الآن اسقاط حكومة محمود سامى .

الخلاف بين الحكومة والخديوى . ادّى نمو الحركة الزراعية الفلاحية الى تنشيط فئات الملاكين الاقطاعيين التى اتخذت منذ بداية الامر موقفا معاديا من حكومة سامى ـ عرابى . فالتفت هذه الفئات حول الخديوى وطغمته فى البلاط . وكان الضباط «الجراكسة» يؤلفون الفصائل الصدامية للرجعية المالكية الاقطاعية . واختمرت فى وسطهم مؤامرة ارهابية على حياة عرابى واتباعه . وفى ١١ نيسان (ابريل) ١٨٨٢ اكتشفت المؤامرة ومثل امام المحكمة العسكرية ٥٠ شخصا من الارهابيين من بين الضباط «الجراكسة» وكان بضمنهم عثمان رفقى ـ وزير الحربية السابق . واصدرت المحكمة بحقهم حكما معتدلا للغاية . اذ قد قامت بتجريدهم من رتبهم وبنفيهم الى السودان ، بينما لم يُستدع الى المحكمة الخديوى توفيق وشريف باشا ـ مدبرا المؤامرة الرئيسيان . ولم ترد فى الحكم سوى اشارة خفيفة الى العمل التحريضى الذى قام به اسماعيل ـ الخديوى السابق . وفضلا عن ذلك خفّف الخديوى بايعاز من القنصلين الانكليزى والفرنسى ، قرار المحكمة العسكرية بتاريخ ٩ ايار (مايو) ١٨٨٢ واستبدل النفى الى السودان بمجرد الابعاد عن القاهرة الى الريف . واتخذ

الوطنيون هذا الاجراء الذى كان بمثابة تحد لهم وللحكومة ، كاشارة الى النضال السافر . فقرر الوطنيون اقصاء الخديوى . وفى ١٣ أيار (مايو) عقدوا مجلس النواب ، وطلب عرابى خلع توفيق والتخلّص من اسرة محمد على . ولكن المجلس كان فى حالة تردد . فمن جهة ، كان النواب يعطفون على الخديوى ، ومن جهة اخرى لم يجرأ الوجهاء ، الذين كانوا يخشون الجنود ، على تأييد الخديوى جهارا اذ كان عرابى يمثل السلطة الحقيقية فى البلاد . وعليه ، واتخذ المجلس موقفا وسطا وحاول مصالحة الخديوى مع الوطنيين .

فاعلن الخديوى عقد المجلس بصورة ليست قانونية وطالب بحلّه فورا ـ فاستقال محمود سامى احتجاجا على ذلك . بدا وكان ذلك ما كان يسعى اليه الخديوى وانكلترا التى تقف من ورائه . الا انهما وجدا انفسهما بصورة ليست متوقعة فى وضع حرج . اذ لم يوافق اى احد من عملاء الخديوى على تاليف الوزارة ما دام الجيش باقيا تحت امرة الوطنيين ، ومن جهة اخرى ، اعلن الوزراء الوطنيون بانهم لن يستقيلوا حتى يصدر امر بذلك من مجلس النواب علما بان المجلس كان يتردد فى اصدار مثل هذا الامر . وفى ١٦ أيار (مايو) اضطر الخديوى الى الرضوخ واستبقاء محمود سامى فى السلطة .

وفى ٢٠ آيار (مايو) ١٨٨٢ قدم الى الاسكندرية اسطول انكليزى-فرنسى ، كما استلم فى ١٩ آيار (مايو) مالت ـ القنصل الانكليزى امرا يقضى بـ « نصح الخديوى الافادة من هذه اللحظات الملائمة ، كحضور الاسطول الاجنبى ، لكيما يقيل الوزارة القائمة ويؤلف وزارة جديدة برئاسة شريف باشا او أى شخص يوحى بالثقة المماثلة » .

وفى ٢٥ أيار (مايو) ١٨٨٢ طلبت انكلترا وفرنسا رسميا الى الخديوى :

١) ابعاد عرابى عن مصر ، ٢) ابعاد على فهمى وعبد العال ، ٣) اقالة وزارة محمود سامى البارودى . فقبل الخديوى هذا الانذار واعلن إقالة الوزارة .

وفى ٢٧ أيار (مايو) أرســـل ضباط حامية الاسكندرية برقية الى الخديوى بعد ما اطلعوا على امر اقالة الوزارة . واعلنوا عن عدم موافقتهم على اقالة عرابى وانهم يعطون الخديوى مهلة قدرها ١٢ ساعة للتفكير ، وسوف لا يكونون من بعدها مسؤولين عـــن السلامـــــة العامـــــة . وكان هذا بمثابـــة تهديد للقيـــام بانتفاضة .

والتمس الخديوى المذعور وساطة سلطان باشا ، الذى دعا الوطنيين الى الطاعة ، فى اجتماع عقد فى القاهرة فى ٢٧ أيـــار (مايو) . وطالب الوطنيون بدورهم بخلع الخديوى الخائن الذى سلك جهارا كعميل للدول الاجنبية . وصرح مصطفى فهمى ـ وزير الخارجية انه : لم يبق لدى الخديوى شيء يعمله سوى حزم حقائبه والانتقال الى فندق « شبرد » كـــأى اجنبى آخر . وحدثـــت اجتماعات وتظاهرات فى جميع انحاء البلاد ، طـــالب المشتركون فيها بخلع الخديوى وبتثبيت عرابى والوزراء الوطنيين الآخرين فى السلطـــة .

وبعدما اقتنع الخديوى ثانية بضعفه ، وافق على اعـــادة عرابى وحده الى الوزارة . الا ان هذه المناورة قد باءت بالفشل إذ غدا عرابى وزيرا وحيدا مطلقا فى البلاد . واصيبت الدولتان والخديوى بهزيمة مرة اخرى . ووجدوا انفسهم فى مأزق حرج . وفى ٣٠ أيار (مايو) اقترحت فرنســـا عقد مؤتمر دولى لبحث القضية المصرية . وعادت انكلترا مرة اخرى تفكر فى خطة التدخل التركى فنصحت الخديوى بدون علم فرنسا ، ان يلتمس المعونة من السلطان .

بعثة درويش . قام السلطان التركى ، استنادا الى طلب الخديوى ، بايفاد مبعوثيه درويش باشا وشيخ السعيد الى القاهرة . وعهد اليهما بحل الخلاف بين الخديوى وعرابى بروح المصالحة . وكان كلا الرسولين قد ارتشيا حال وصولهما الى مصر ، اى فى ٧ حزيران (يونيو) ١٨٨٢ . فقدم اليهما الخديوى رشـوة كبيرة جدا ، واشترى الانكليز ضيعة درويش الصغيرة بمبالغ خيالية . فتقدم درويش من بعدها الى عرابى باقتراح للشخوص الى استـــانبول

ووعده بمنصب كبير فى الحكومة المركزية للامبراطورية العثمانية . فاجاب عرابى : اننى لا اسعى الى السلطة ، فالسلطة التى اتمتع بها الآن لم اقم باغتصابها . بل قلّدنى اياها الشعب ويتوجب علىّ ان انزل على ارادته واعطى اذنا صاغية لشكاويه .

وهكذا انتهت بعثة درويش بالفشل .

الاضطرابات فى الاسكندرية . بعد انصرام بضعة ايام على احداث أيار (مايو) اعلن مالت ـ المعتمد الانكليزى انه : « يمكن ان تنشب اصطدامات بين المسلمين والمسيحيين فى اية لحظة ، وفى تلك الحالة يمكن طلب التدخل الاجنبى » . فتلقّف الخديوى توفيق هذا التلميح فورا وقرّر اثارة الاضطرابات فى الاسكندرية لكى يعجل الشروع بالتدخل المسلح .

ولم تكن قضية اثارة الاضطرابات من الامور الصعبة . اذ كان المصريون يضمرون مقتا للمرابين والمضاربين الاجانب والكومبرادور ، الذين كانوا يؤلفون « نخبة » سكان الاسكندرية الاوربيين . ولم يؤد وصول الاسطول الاجنبى الا الى تقوية هذا المقت . فاصبح الجو متوترا ، وكانت ملاكمة بسيطة كافية لنشوب الاصطدامات فى المدينة .

وفى ١١ حزيران (يونيو) ١٨٨٢ ، استاجر مالطى ، كان يشتغل كخادم لدى القنصل الانكليزى ، حوذيا عربيا وتوجه فى عربته الى حانة ، وبعد الوصول اليها طلب الحوذى اجرته . فانهال عليه المالطى بشتائم بذيئة بدلا من دفع اجرته . فنشبت ملاكمة بينهما وخرّ العربى صريعا . واطلق بعض الاوربيين المشتبه بهم ، الذين كانوا يحيطون بالمالطى ، النار على جمهور العرب الهائج . وظهر على المسرح البدو القادمون من الصحراء المجاورة والذين كان قد استاجرهم الخديوى ، واُحضروا الى الاسكندرية فى الوقت المناسب للمساهمة فى الاضطرابات بصورة خاصة . وسرعان ما شملت جميع المدينة مذبحة قتل فيها ٥٠ اوربيا و ١٤٠ مصريا .

ولكن عرابى استطاع السيطرة على الاضطرابات الناشبة وايقافها عند حدها واحباط الاستفزاز المبيّت . فازيح اللثام عن

المجرمين وضاعت من ايديهم الحجة التى ارادوا ان يتذرعوا بها للتدخـــل .

وبعد حادثة الاسكندرية بدا انقسام القوى المتصارعة فى داخل البلاد اكثر وضوحا . ففى ١٣ حزيران (يونيو) هرب الخديوى توفيق من القاهرة الثائرة الى الاسكندرية تحت حماية الاسطول الانكليزى . وهرب معه ايضا اكبر رجالات الرجعية فى البلاد كنوبار ورياض وشريف وسلطان باشا . كما قدم الى الاسكندرية القنصل مالـت ودرويـــش ــ المبعـــوث التركى ، وكثيرون مـن ممثلى وجهـــاء البيروقراطية-الاقطاعية . وفى ٢٠ حزيران (يونيو) ١٨٨٢ تألفت فى الاسكندرية حكومة خاضعة الى الخديوى برئاسة راغب باشا . فاصبحت الاسكندرية مركزا للجماعة الانكلو-خديوية . وبالعكس ، كانت السلطة فى القاهرة تعود الى الوطنيين وعرابى ، الذى كان لا يزال يعتبر وزير حربية الخديوى .

ولاذ بالفرار من مصر الآلاف من الاجانب الذين كانوا يخشون من غضبة الشعب . وغادر البلاد فى اثرهم الملاكـــون العقاريـــون المحليون والمرابون . واذاع العميل الانكليزى فى القاهرة فى اواخر حزيران (يوليو) ، خبر هروب الاوربيين الجماعـــى ، والاتراك «والعرب الاشراف» . وردا على ذلك قرر عرابى مصادرة ممتلكات المهاجرين المصريين ، الذين غادروا البلاد بلا اذن .

مؤتمر القسطنطينية . كانت مصر فى صيف ١٨٨٢ معرضة الى خطر تدخل انكليزى حقيقى . واستنكر مجلس النواب الفرنسى سياسة جول فيرى الاستعمارية ، ورفضت الحكومة الفرنسية التى كان يترأسها فى كانون الثانى (يناير) ١٨٨٢ دى فريسينيه ، خطط التدخل الانكلو ــ فرنسى المشترك . وذلـك ما كانـــت تنتظـــره الدبلوماسية الانكليزية . ولم يكن بمقدور فرنسا ، حيال الاتحـــاد الثلاثى ، المضىّ فى تأزيم العلاقات مع انكلترا بسبب مصر ، بينما لم تكن راغبة البتة فى ان تستولى انكلترا على مصر منفردة .

ورأى دى فريسينيه ان المخرج الوحيد من هذا المأزق هو عقد مؤتمر دولى بشأن القضية المصرية . وظن انه من الافضل فى

هذه الظروف المعقدة الاحتفاظ باستقلال مصر ، لئلا تقع فريسة في ايدى انكلترا . وحتى انه كان على استعداد لمساندة عرابى . وكان يتوجب على هذا المؤتمر الدولى ، حسب خطة دى فريسينيه ، تسوية المشاكل الحادة وعرقلة التدخل البريطانى .

فساندت الدول مبادرة فرنسا هذه . وافتتح المؤتمر فى القسطنطينية فى ٢٣ حزيران (يونيو) ١٨٨٢ واسهم فيه ممثلو انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا والمانيا وايطاليا . ورفضت تركيا الاشتراك فى اعمال المؤتمر ، الذى رات فيه خرقا لحقوق سيادتها .

واستنادا الى اقتراح فرنسا ، تعهدت الدول المؤتمرة : « بعدم السعى فى مصر الى اقتناء الاراضى ايا كان نوعها ولا الحصول على امتيازات ذات ميزات استثنائية وامتيازات تجارية لرعاياها » . كما اتخذ قرار ايضا بصدد تحاشى اية اجراءات منفردة فى مصر ما زال المؤتمر منعقدا . وادخل اللورد دفرين على هذا الاقتراح التحفظ التالى : « اذا لم يكن هنالك احوال طوارئ (force majeure)». وادى هذا التحفظ الى ابطال قرار المؤتمر .

ولم يكن على انكلترا عندئذ الا ان تخلق « احوالا طوارئا » فتضع الدول امام الامر الواقع .

قصف الاسكندرية . استغل « كاحوال طوارئ » الخلاف بسبب التحصينات الساحلية فى الاسكندرية . ان هذه التحصينات ، التى شيدت فى عهد محمد على كانت قد اصبحت عتيقة تماما وغدت وسائل دفاعية غير صالحة وخاصة ضد اسطول الدوارع البريطانى ، فضلا عن انها كانت مدمّرة الى درجة كبيرة . وشرع المصريون بعد وصول الاساطيل الاجنبية الى الاسكندرية باجراء ترميمات على الحصون الساحلية بامر من عرابى باشا . فاصدر الباب العالى امرا ، بناء على طلب انكلترا ، بتوقيف اعمال التحصينات . ومع ذلك استؤنفت فى تموز (يوليو) اعمال الترميم ، وفورا اغتنمت انكلترا ذلك كذريعة للتدخل .

وفى ٦ تموز (يوليو) ١٨٨٢ ، قدم الاميرال سيمور ، الذى كان يقود الاسطول الانكليزى فى مصر انذارا نهائيا الى رئيس حامية الاسكندرية طالبا اليه بتوقيف اعمال التحصينات . فاجاب

المصريون بان لهم الحق حيال الخطر الخارجى ، فى الدفاع عن حدودهم وتشييد اية تحصينات ممكنة فوق اراضيهم . وفضلا عن ذلك اشارت الاجابة الى ان المصريين لا يقومون الا باعمال الترميم ، اى انهم سوف لا يشيدون اية تحصينات جديدة ولا يضعون اية مدافع اضافية وما شابه ذلك من التاكيدات . فقدّم الاميرال سيمور فى ١٠ تموز (يوليو) ١٨٨٢ انذارا ثانيا طالب فيه بتسليم التحصينات الساحلية فى الاسكندرية خلال ٢٤ ساعة وبعدما استلم رفضا باتا ، شرع بالاعمال الحربية . وفى ١١ تموز (يوليو) ١٨٨٢ قامت السفن الانكليزية بقصف الاسكندرية وحولت المدينة الى كومة من الانقاض .

وصف ريتشردس ـ احد نواب البرلمان الانكليزى ، اعمال الاميرال سيمور كالآتى : « لنفرض انى اشاهد شخصا ما مريبا ذا نوايا شريرة يحوم حول دارى . فاسرع واوصد الباب بالمفتاح والمزلاج واحصّن الشبابيك . فيقوم هذا الشخص السيئ النية ، الذى يرى فى عملى هذا اهانة له وتهديدا ، بتحطيم ابواب دارى ويعلن بانه يعمل كلّ هذا لمجرد الدفاع عن النفس » .

وفى ١٢ تموز (يوليو) أصدر عرابى أمرا الى قواته بمغادرة المدينة المحترقة . وغادرها معهم الآلاف من سكان الاسكندرية . وبعد انصرام ٤ أيام احتلّ جنود الانزال الانكليز المدينة المهجورة .

الحرب الانكلو-مصرية عام ١٨٨٢ . كان قصف الاسكندرية بداية للحرب الانكلو-مصرية لعام ١٨٨٢ ففى ٢٧ تموز (يوليو) صوت مجلس العموم على اعتمادات للحملة المصرية . وعهدت الى الجنرال ولسلى قيادة الفيلق ، الذى جُرد للحرب فى مصر .

وانحاز الخديوى ووجهاؤه الى جانب الانكليز ومكثوا فى الاسكندرية ملازمين اثناء القصف فيلاّتهم وقصورهم الريفية بعدما حذرهم سيمور فى الوقت المناسب .

ولم يكد عرابى يغادر الاسكندرية حتى اصدر اليه الخديوى امرا بايقاف العمليات الحربية ضد الانكليز فورا . فرفض عرابى تنفيذ هذا الامر واعلن مخاطبا الشعب بان حربا لا هوادة فيها قد

اندلعت بين المصريين والانكليز ، وسيتعرض كل من يخون البلاد الى عقاب صارم وفقا لاحكام المحكمة العسكرية .

وفى ٢٢ تموز (يوليو) اعلن الخديوى عصيان عرابى وعزله رسميا من منصب وزير الحربية . واعلن عرابى ردا على هذا الاجراء بخيانة الخديوى . وقال فى ندائه الى الشعب فى ٢٥ تموز (يوليو) ١٨٨٢ ان الخديوى قريب الى الانكليز وكل ما يتفوه به يعود بالفائدة عليهم . وهو يقوم بتضحية مصالح البلاد والشعب ... واما فيما يتعلّق بنا فنحن لا نتخلّى عن الشعب ما دام لنا قلب ينبض .

وتفاديا لضياع الوقت ، شرع عرابى بتنظيم الدفاع . فالتحق فى الجيش الآلاف من الفلاحين واهالى المدن المتطوعين . وقدم الفلاحون بسرور كبير كلّ ما ادخروه . فساعدت هذه الاموال عرابى على ابتياع اسلحة كافية لتزويد جميع المتطوعين بها . وخمن عرابى بانه سيقوم قبيل الخريف بتسليح وتدريب جيش مؤلف من ١٠٠ ألف شخص على اقل تقدير .

وعوضا عن حكومة راغب باشا القائمة فى الاسكندرية ، والتى نادى الوطنيون بانها حكومة خائنة ، الّفت فى القاهرة هيئتان جديدتان للسلطة الثورية وهما مجلس الطوارئ والمجلس الحربى . وكان المجلس الحربى يتألف من الضباط الوطنيين ، واسهم فى مجلس الطوارئ بالاضافة الى القادة الوطنيين ، العلماء والمشايخ والاعيان ، الذين مكثوا فى القاهرة وواصلوا التذبذب بين عرابى والخديوى . وفرّ بعضهم فيما بعد الى الاسكندرية . وبقى آخرون فى القاهرة يفسدون مؤخرة الجيش الوطنى فيها . واستخدم عرابى اساليب ارهابية ثورية ضد الخونة فوقّف ما يقارب الف شخص من وجهاء القاهرة الذين ثبتت عليهم جريمة الاتصال مع عملاء الخديوى .

وادى نشوب الاعمال الحربية فى مصر الى استياء الدول .

واحتجاجا على ذلك دعت روسيا مندوبيها من مؤتمر القسطنطينية . وفوّضت المانيا والنمسا حرية العمل الى انكلترا على شرط ان تتخذ الاجراءات على مسؤوليتها وليس استنادا الى

تفويض من اوربا . وتقسمت الآراء في فرنسا . فأصرّ غمبتا — الذي كان من دعاة التوسع الاستعماري الفرنسي في افريقيا ، على المساهمة في التدخل المشترك مع انكلترا ، واعترض على المغامرة المصرية كليمنصو — الذي كان يعتبر ان المهمة الرئيسية لسياسة فرنسا الخارجية هي الاستعداد لاخذ الثار من المانيا . ووقف دي فريسينيه موقفا وسطيا . فاقترح ارسال قوات فرنسية الى مصر ، على ان تقتصر مهمتها على «الدفاع» عن قناة السويس . ومع ذلك رفض مجلس النواب التصويت على الاعتمادات للحملة على مصر .

وفي ٢٩ تموز (يوليو) ١٨٨٢ استقال دي فريسينيه وعلى غرار كليمنصو ، ساند دوكلرك — رئيس الوزراء الذي حلّ محلّ دي فريسينيه ، عدم تدخل فرنسا في القضية المصرية ومنح انكلترا في الواقع حرية العمل .

ومن اجل عرقلة التدخل الانكليزي في مصر ، قرّرت الدول التي اشتركت في مؤتمر القسطنطينية ، تدبير تدخل تركيّ . وقبل ذلك ، اي في ٦ تموز (يوليو) ١٨٨٢ تقدمت الدول الى السلطان باقتراح ارسال قوات تركية الى مصر تحت شروط معينة ، وهي المحافظة على الحالة الراهنة وعدم التدخل في شؤون مصر الداخلية وتحديد مدة الاحتلال بثلاثة اشهر . وفي ٢٠ تموز (يوليو) وافق السلطان على هذه الشروط واوفد مبعوثيه الى المؤتمر الدولي وفي ٢٦ تموز (يوليو) اعلنت تركيا عن استعدادها لارسال قوات الى مصر . فاجابت انكلترا بانها سوف تواصل العمليات التي كانت قد بدأت بها وقبلت في الوقت ذاته التعاون مع تركيا . على ان انكلترا عملت فعلا كل ما في وسعها لتحاشي «تعاون تركيا» معها . وماطل اللورد دفرين — السفير الانكليزي في القسطنطينية باجراء مفاوضات حول الاتفاقية الحربية الانكلو — تركية لمدة شهر ونصف شهر . وكان يضع امام تركيا شروطا جديدة وجديدة في اثناء المفاوضات . ولم يسمح غرنفل — وزير خارجية انكلترا ، لدفرين بتوقيع الاتفاقية الحربية الانكلو-تركية الا في يوم موقعة التل الكبير ، اي في ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٢ ، التي انتهت بانتصار الانكليز ودخولهم القاهرة . فارسل إثر ذلك برقية جاء

فيها : « بما ان الازمة قد زالت ، فلا حاجة للسلطان بارسال قوات الى مصر » . فانقطعت المفاوضات الانكلو-تركية ولم يحدث التدخل التركـــى .

وقد قرّرت الدول انفضاض مؤتمر القسطنطينية فى ١٤ آب (اغسطس) ١٨٨٢ اى لمدة شهر قبل الحادث المار ذكره بعدما اقتنعت بعجزه عن عرقلة التدخل الانكليزى فى مصر وبالتـالى عن فائدته . وهكذا افلحت الديبلوماسية الانكليزية بضمـان قيـــام القوات الانكليزية فقط بالتدخل واحتلال مصر لوحدها .

فكيف تمّ سير العمليات الحربية ؟ كان بوسع الانكليز شنّ هجوم على مصر اما من الشمال ــ من جانب البحر الابيض المتوسط ام من الشرق ــ من جانب قناة السويس . وكانت تعترض الطريق الشمالى الى مصر مستنقعات لا يمكن اجتيازها . وقد كوّن عرابى فى الثغرات الكائنة بين المستنقعات مواقع دفاعية حصينة . وباءت بالفشل محاولة الانكليز لاقتحام احدى هذه المواقع فى كفر الدوار (بالقرب من الاسكندرية) .

وكانت الاوضاع سيئة بالنسبة الى الدفـاع عن حدود مصر الشرقية . وبالطبع ، قد كان على القوات الانكليزيـة ان تنزل فى منطقة السويس ، الامر الذى يتعارض مع مبدأ حيـاد القنـاة الذى اتخذته الدول وتركيا . وفضلا عن ذلك كان يتوجب على القوات الانكليزية ان تعبر الصحراء . الا انــــه كانت قد رابطت احسن القوات المصرية فى الدلتا . ومن اجل حماية الجنـــاح الايمن ، اقترح رئيس اركان حرب الجيش المصرى محمود فهمى ، تعطيل قناة السويس وسدّ قنال المياه العذبة . وكان بالامكان ان يؤمن هذان التدبيران سلامة حدود مصر من الشرق ويسمحا للمصريين المقاومة بنجـــاح خلال مدة طويلـــة . الا ان فردينـــاند دى ليسبس ــ صاحب بنــاء القناة ، اعترض على خطة محمود فهمى . وقرّر من اجل الحفاظ على فوائد فاحشة للشركة ، ضمان عمل القناة المطّرد مهما كلّف الامر . فتعهد الى عرابى باشـــا بانـــه سوف لا يسمح للقوات الانكليزية بالنزول فى منطقة القنـــاة . فالغى عرابى بعد وثوقـــه بدى ليسبس ، هذين التدبيرين اللذين

رسمهما محمود فهمى . وهكذا اقترف عرابى غلطـــة حربيـــة وسياسية خطيرة .

ولم تكن خطة ولسلى تنحصر الا فى الهجوم من جهـة الشرق مفاديا خط البحر الابيض المتوسط الدفاعى للتحصينات المصرية . وفى ٢ آب (اغسطس) احتـــل الانكليز السويس بدون خـوض معركة ، وفى اوائل آب (اغسطس) شرعوا فى خوض معركة قرب الاسكندرية من اجل تضليل عرابى بصدد اتجاه الضربة الرئيسى . ورغم تاكيدات دى ليسبس ، قام الانكليز فى ٢٠ آب (اغسطس) بعملية الانزال فى بور سعيد والاسماعيلية . واصبح وادى النيل مكشوفــا من الشرق اذ كانت حامياتــه من اسوأ وحدات الجيش المصرى ، وقد درّب اغلبيتهم تدريبا سريعا وكانوا مجندين جددا وغير نظاميين من فصائل بدوية . وقد افسد سلطان باشـا هذه القوات البدوية قبيل هجوم الانكليز بتغلغله فى المناطق البدوية ، بايعاز من الانكليز ، وبتقديمــه رشوة الى عدد من شيوخهـــا .

واخذ الانكليز يستعدون خلال ٣ أسابيع للمعركة الحاسمة ، وفى ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٢ وبعد سيرة ليلية ، شنـــوا بصورة غير متوقعة ، هجوما على المواقع المصرية فى التل الكبير . وانتهى كل شىء خلال ٢٠ــ٣٠ دقيقة . ولاذ البدو بالفرار ، دون ابداء اية مقاومة جدّية ضد الانكليز . فهرع عرابى الى ساحـة المعركة ، وحاول لمّ فلول القوات التى هربت جزعا . فدعا البدو الى مواصلة النضال ، الا ان شيوخ البداوة رموه بالحجـــارة .

وبعدما رأى عرابى ان مواصلة الاقناع غير مجدية ، ارتحل فورا الى القاهرة . وفى جلسة مجلس الطوارئ ، اصر على مواصلة النضال . واقترح تشييد التحصينات فورا حول القاهرة . وايده عبد العال وعبد الله نديم ومحمود سامى ، الذين اقترحوا اغراق الوادى حول القاهرة . الا ان الملاكين فى مجلس الطوارئ صوتوا من اجل الاستسلام . وهكذا اقترف عرابى غلطة ثانية بخضوعه الى قرار المجلس . وكانت احسن وحدات الجيش الوطنى المصرى المرابطة فى الشمال ما زالت سليمة . واحتـــل العدو الاسكندريـــة فقط

ومنطقة السويس ، بينما ظلت كافة اقسام البلاد الاخرى فى ايدى المصريين وكانت المقاومة ممكنة الا انها لم تتحقق . وكسر الجيش المصرى لا بالاسلحة الانكليزية بل بخيانة شيوخ البدو ووجهاء القاهرة وكذلك بعدم حزم عرابى باشا نفســـه ، الذى لم يجرأ فى اللحظة الخطيرة على ان يمارس صلاحيات دكتاتورية وان يحـــل مجلس الطوارئ الذى كان قد انحاز الى جانب العدو .

انتصار الرجعية . وفى مساء ١٤ أيلول (سبتمبر) اقتربت الخيالة الانكلو ـ هندية من القاهرة . فاستسلم عرابى للانكليز . وعلى اعقاب ذلك ، نزع سلاح القوات الموجودة فى كفر الدوار وابى قير ودميـــاط . وفى ٢٤ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٢ وصل العاصمة الخديوى توفيق مع «وزرائه» . وأطلق سراح الموقوفين المعادين للثورة من سجن القاهرة . واحتفلت الرجعية بالنصر .

ونزع الفاتحون سلاح الجيش المصرى وسرّحوه ، وأرسلت فصائل تنكيلية ضد الوحدات التى لم تزل تواصـــل المقاومـــة . وفرضت على الشعب المصرى تعويضات بلغت قيمتها ٩ ملايين جنيه استرلينى . وقدمت الى القاهرة لجنة خاصـــة برئاســـة اللورد دفرين ــ السفير الانكليزى فى استانبول ، للتنكيل بالمشتركين فى النضال من اجل الاستقلال . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨٢ صدر حكم على عرابى وانصاره بالموت . واستعاض دفرين عن الحكم على عرابى بنفيه نفيا مؤبدا الى سيلان ، اذ ادرك ان اعدامه قد يؤدى الى انتفاضة جديدة . وأبعد مع عرابى ستة من قـادة الانتفاضـــة . وفرّ عشرات الوطنيين من البلاد . وعامل الانكليز الكثيرين من المساهمين فى الانتفاضة كمجرمين جنائيين . وعرضهم المحققون الانكليز الى التعذيب . وحكمت عليهم المحاكم العسكرية بالموت او بالابعاد الى واحات نائية فى الصحراء .

وكتب دفرين فى تقريره : «يحتاج الشعب المستعبد الى يد السيد الحديدية وليس الى نظام دستورى» . وطبقا لهذا المبدأ ، اقام دفرين فى مصر نظاما استعماريا تعسفيا . واصبح الماجور بارنغ الممثل الجدير بهذا النظام ، وهو اللورد كرومر نفسه الذى عيّنه الانكليز الفاتحون فى ١٨٨٣ حاكما مطلقا على مصر .

الفصل الثامن عشر

مصر تحت حكم الانكليز (١٨٨٢ـ١٩١٤)

قضية مواعيد الاحتلال الانكليزى. بعد مرور بضعة ايام على دخول الانكليز القاهرة ، استفسر دوكلرك ـ رئيس وزراء فرنسا ، من غرنفل ـ وزير خارجية انكلترا ، عن نوايا حكومته تجاه مصر . فاجاب غرنفل بان للاحتلال طابعا موقتا وسوف ينتهى امده بعد تنظيم الشؤون المصرية . وفيما بعد غالبا ما ادلى ولاة الامور الانكليز بتصريحات علنية مفادها ان الجلاء عن مصر سيتم فورا بعد احلال النظام فيها . وبوجه خاص ، قال غلادستون ـ رئيس وزراء انكلترا عندما تكلم فى مجلس العموم عام ١٨٨٤ بان مسألة الجلاء عن مصر هى قضية شرف بالنسبة الى انكلترا .

ولم تقم انكلترا بالحاق مصر اليها لان مثل هذه الخطوة كانت تنطوى على وقوع ازمة دولية خطيرة . وقد ادركت بانها ستجابه مقاومة من جانب فرنسا ، وبأن روسيا ستساند فرنسا فى هذه القضية وسيؤدى ذلك ايضا الى مقاومة تركيا مع ان انكلترا كانت تخشاها فى الحقيقة اقل من الجميع لولا الموقف الذى اتخذته فرنسا وروسيا من القضية المصرية .

وفى ١٨٨٤ طلب الفرنسيون من غرنفل استدعاء القوات الانكليزية من مصر ، فوعدهم غرنفل بانه سيفعل ذلك فى بداية عام ١٨٨٨ .

وفى ١٨٨٥ ، شرعت انكلترا تحت ضغط فرنسا ، بمفاوضات حول الجلاء عن مصر . واجريت هذه المفاوضات فى

القسطنطينية . وسعى الانكليز جهد المستطاع الى اطالتها واقترحوا ايفاد مبعوثيْن الى مصر واحد عن انكلترا وآخر عن تركيا . ولم يتم اعداد مشروع الاتفاقية الانكلو-تركية الا فى عام ١٨٨٧ . وتعهّد الانكليز بالجلاء عن مصر خلال ثلاثة اعوام منذ اللحظة التى تصبح فيها الاتفاقية نافذة المفعول شريطة ان لا يحدث فى غضون هذه المدة خطر خارجى او داخلى جديد يهدد أمن مصر . فجعل هذا التحفظ الاتفاقية غير ثابتة بكاملها . ولم تكتف انكلترا بذلك بل وطالبت ايضا ان تضمن لها الاتفاقية حق احتلال مصر مجددا فى حالة حدوث خطر خارجى او داخلى . فعارض السلطان مشروع الاتفاقية معارضة تامة .

فكيف كان موقف الدول من مشروع هذه الاتفاقية ؟ الّفت ألمانيا فى عام ١٨٨٢ ، عندما كانت تتأهب للحرب ضد فرنسا وروسيا ، الكتلة الامبريالية المعروفة باسم الحلف الثلاثى ، الذى ضم ما عدا المانيا ، النمسا-المجر وايطاليا . ومن جهة اخرى ، حصل تقارب بين فرنسا وروسيا ، تحت تأثير التهديد الالمانى . وحاولت انكلترا ان تلعب دور الوسيط بين هاتين الكتلتين . فانتهجت سياسة عرفت باسم العزلة الظاهرية . ولم تنحز الى اى كتلة من الكتلتين ، بل تمسكت بدور الوسيط لكيما تلعب دورا قياديا فى السياسة الاوربية . الا ان ميولها كانت الى جانب الحلف الثلاثى . واتخذت موقف حياد ودّى تجاه اقطار الحلف الثلاثى ، وحياد عدائى تجاه الكتلة الفرنسية-الروسية . وكانت الميزة الاساسية للعلاقات المتبادلة بين انكلترا وفرنسا فى ذلك الوقت تناقضاتهما فى افريقيا ، واما العلاقات المتبادلة بين انكلترا وروسيا فكانت تتميز بتناقضاتهما فى الشرق الادنى والاوسط . وساندت المانيا والنمسا-المجر وايطاليا الاحتلال الانكليزى لمصر ، الامر الذى قدرته انكلترا اقصى التقدير . ومن جهة اخرى ، ساندت كل من فرنسا وروسيا السلطان وطالبتا بجلاء القوات الانكليزية عن مصر . وفى هذا الظرف ، رفض السلطان المشروع الانكليزى .

ولم تعقد الاتفاقية وبقيت القوات الانكليزية مرابطة فى مصر . وكالسابق كانت تعتبر مصر جزءا من الامبراطورية العثمانية ،

وكالسابق اعلنت انكلترا عن نواياها للجلاء عن هذه البلاد فى اجل غير مسمى .

وفى كانون الثانى (يناير) ١٨٨٨ ، قال احد الساسة الانكليز الى دى لابولايه ـ الديبلوماسى الفرنسى : « لا تفرق بيننا الا القضية المصرية ، الا انكم تخطئون فى فرنسا بتفكيركم باننا نريد البقاء فى مصر الى الابد . ولا يوجد فى انكلترا احد من ولاة الامور ادرج فى منهجه فقرة الاحتلال الدائم لهذه البلاد . نحن نريد الخروج منها ولكننا لا نستطيع ان نفعل ذلك حتى نوّطد نظاما معينا فى مصر » .

هذا هو الموقف الذى اتخذه الانكليز من القضية المصرية . فانهم كانوا ينوون الجلاء عن مصر قولا ، الا أنهم عملوا كلّ ما فى وسعهم للبقاء فيها . وبعد عام ١٨٨٧ ، طرحت الديبلوماسية الفرنسية والتركية مرارا قضية الجلاء عن مصر . وكان الانكليز يقدّمون دوما مختلف انواع التأكيدات الشفهية ، الا انهم واصلوا البقاء فى البلاد . ولم يحدث اى تغيير جذرى فى هذه القضية الا فى عام ١٩٠٤ .

ففى ٨ نيسان (ابريل) من هذه السنة عقدت انكلترا وفرنسا عددا من الاتفاقيات التى وضعت بداية للوفاق الانكلو۔ فرنسى ، وكانت الحلقة الرئيسية منها تتمثل فى البلاغ الانكلو۔فرنسى حول مصر ومراكش . وقد احتوى البلاغ على بنود علنية وسرّية . ونص القسم العلنى على « ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعلن بانه ليس لديها نية فى تغيير الوضع السياسى فى مصر* . وتعلن حكومة الجمهورية الفرنسية من جانبها بانها سوف لا تعرقل الاعمال الانكليزية فى هذه البلاد وذلك بمطالبتها تحديد اجل معين للاحتلال الانكليزى او باى اسلوب آخر » . وهكذا منحت فرنسا الى انكلترا حرية العمل فى مصر لقاء حصولها على حرية العمل فى مراكش .

واشارت بنود البلاغ السرية الى امكانية تغيير السياسة

* اى ان مصر تبقى جزءا من الامبراطورية العثمانية تحت الاحتلال الانكليزى . ـ **المؤلف** .

الانكليزية تجاه مصر ، اى الى امكانية الحاقها بشكل او آخر الى انكلترا ومع ذلك وضع تحفظ «كريم النوايا» فحواه بانه سيتم ذلك فقط فيما لو اضطرت انكلترا الى القيام به بحكم الظروف . ومن البديهى انه يمكن خلق الظروف فى اى وقت كان .

وفى عام ١٩٠٤ تمت معالجة التناقضات الانكلو-فرنسية حول قضية احتلال مصر . كما عولجت مسالة التناقضات الانكلو-فرنسية الاخرى ايضا فى مصر كقضية دين الدولة المصرى ونظام قناة السويس .

نظام قناة السويس . ظلت قضية نظام قناة السويس لمدة ٢٠ عاما مصدر تطاحن بين انكلترا وفرنسا . واصرّت فرنسا على تأليف هيئة مراقبة دولية خشية من ان يهدد احتلالْ مصر حرية الملاحة فى السويس . وبمبادرة من فرنسا ، تألفت فى عام ١٨٨٥ لجنة دولية انهمكت فى اعداد تدابير لضمان استعمال القناة بصورة حرّة . وبعد صراع عنيد وطويل اعدّت اللجنة مشروع اتفاقية لضمان ملاحة حرة فى قناة السويس . وفى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٨ وقّع على الاتفاقية فى القسطنطينية ممثلو فرنسا وروسيا والمانيا والنمسا-المجر وايطاليا واسبانيا وهولندة وتركيا .

وجاء فى اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ ان «قناة السويس البحرية ستكون حرّة ومفتوحة دوما ، سواء أكان ذلك فى وقت الحرب ام السلم ، لجميع البواخر التجارية والحربية دون تمييز فى الاعلام» . واستنادا لاحكام الاتفاقية ، ليس بمقدور المراكب الحربية البقاء فى منطقة القناة اكثر من ٢٤ ساعة . وعليه خرمت انكلترا من امكانية ابقاء اسطولها ضمن حدود قناة السويس . كما حرّمت الاتفاقية تشييد التحصينات او انزال القوات او تكوين المستودعات الحربية فى منطقة القناة ، الامر الذى مسّ مصالح انكلترا ايضا .

فعارضت الحكومة الانكليزية اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ وعملت كل ما فى وسعها للحيلولة دون تنفيذها فعلا . وخلال التوقيع على الاتفاقية قدّمت انكلترا تحفظا جعل توقيعها

لها امرا غير مؤمن بالكلية . وفي الواقع انها رفضت الانضمام الى الاتفاقية . ولم تسحب هذا التحفظ من متن الاتفاقية الا عـــام ١٩٠٤ عند التسوية العامة للعلاقات الانكلو-فرنسية . وعليه فلم تنضمّ انكلترا الى اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ الا في عــام ١٩٠٤ ووافقت على تطبيقها عندئذ .

وتلخيصا لهذا العرض الوجيز للوضع السياسي الدولي لمصر ، يجب الاشارة الى ان انكلترا ضمّت في عام ١٩٠٦ شبه جزيرة سيناء الى مصر واحتلتها . فاثارت هذه الخطوة اعتراضات الباب العالي . ولكنها كانت اعتراضات ضعيفة تماما . ولم تتدخل فرنسا في هذه القضية . وهكذا استحوذت انكلترا على هذه المنطقة للدفاع عن قنـاة السويس وكراس جسر للهجوم على فلسطين في الحرب العالمية القادمة .

قضية المالية المصرية . وفي ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١٨٨٢ ، قامت انكلترا على اثر احتلال قواتها للقاهرة بابلاغ فرنسا بالغاء المراقبة الثنائية على شؤون مصر المالية . ولم تشأ انكلترا السماح بوجود مراقبين ماليين فرنسيين سوية مع السلطات الانكليزية ، بعدما ثبتت سيطرتها التامة على البلاد . فعرضت على فرنسا منصب ناظر صندوق دين الدولة المصري عوضا عن منصب المراقب . الا ان الفرنسيين اجابوا انه لا يناسبهم اشغـــال مجرد مركز امين صندوق بسيط في ظلّ الادارة الانكليزية .

وبعدما استولى الانكليز على مصر ، ارادوا تحويلها الى قاعدة تزويد الصناعة البريطانية بالقطن . فدعا ذلك الى اجراء اعمـال انشائية واسعة للارواء ، ارادت انكلترا تحقيقها على كل حال على حساب مصر . وفضلا عن ذلك ضغط الانكليز على مصر لكي تقوم بدفع غرامة للانكليز (اي بدفع تعويضات لقـاء الخســائر التي سببتها العمليات الحربية في الاسكندرية) . ومع ذلك لم يفلـــح الانكليز في اتزان ميزانية مصر بدون عجز . ولكيما تحـــل هذه المشاكل ، اعدّ الانكليز خطة الاجراءات المالية ، تتألف اساسا من النقاط الرئيسية التالية :

١) الغاء القانون الخاص بتصفية جزء من المداخيل المخصَّصة وغير المخصَّصة ، ونقل فائض المداخيل المخصَّصة الى الميزانية المصرية ؛

٢) تقليص تسديد الديون السابقة تقليصا جزئيا وموقتا ؛

٣) قرض جديد لمصر يساوى ٩ ملايين جنيه استرلينى بفائدة قدرها ٣٪ سنويا ؛

٤) الحق فى بيع الاقطاعيات الحكومية والخديوية .

٥) الحق فى فرض ضرائب على المقيمين الاجانب فى مصر .

ولم يكن باستطاعة انكلترا تطبيق هذه الخطة دون موافقة جميع دائنى مصر . الا ان فرنسا رفضت قطعا قبول هذه التدابير التى رسمتها انكلترا . وعندئذ اقترحت انكلترا عقد مؤتمر دولى فى لندن لتداول قضايا دين الدولة المصرى . وجرى هذا المؤتمر من تموز (يوليو) حتى نهاية ايلول (سبتمبر) ١٨٨٤ ، الا انه لم يؤد الى اية نتيجة . وفى آذار (مارس) ١٨٨٥ فقط وافقت فرنسا ، بعد مفاوضات طويلة ، على قبول الخطة الانكليزية على شرط ان يكون للدين الجديد ضمان دولى ، اى فيما لو منحت فرنسا حق الاشتراك فى الرقابة على هذا القرض .

وفى ١٨ آذار (مارس) ١٨٨٥ وقعت فى لندن اتفاقية دولية حول دين الدولة المصرى . ولبت هذه الاتفاقية كافة مطاليب انكلترا . ومع ذلك ادخلت فى الاتفاقية بناء على اصرار فرنسا النقطة التالية : «اذا لم تحقق انكلترا ، فى غضون ثلاث سنوات ، توازنا فى الميزانية المصرية فستنتقل ادارة شؤون مصر المالية الى لجنة دولية» .

وكانت هذه النقطة تهديدا خطيرا لانكلترا ، فعمل الانكليز كل ما فى وسعهم لتنظيم المالية المصرية . واجروا اصلاحا نقديا فى عام ١٨٨٥ ، وزادوا الضرائب وازالوا الفرق بين الأراضى العشرية والاراضى الخراجية . وعلى حساب مصر ، قاموا باجراءات توفيرية فى عدد من الفروع الادارية للدولة ، وخاصة فى ميزانية التعليم الشعبى . وزادوا قسط الضرائب غير المباشرة زيادة كبيرة . ونتيجة لهذه الاجراءات وازن الانكليز فى عام ١٨٨٨ الميزانية

المصرية وحرموا فرنسا من مسوغ للتدخل فى شؤون مصر المالية .

وبعد ما قوّى الانكليز وضع مصر المالى ، قاموا فى عام ١٨٩٠ بتحويل دين الدولة المصرى وخفّضوا نسب الفوائض المفروضة على ديون الدولة . وفى عام ١٩٠٤ وافقت فرنسا عند عقد معاهدة الوفاق على تحويل الدين وأيّدت تصفية الادارة الاجنبية للجمارك المصرية والسكك الحديدية التى خصّصت مداخيلها لتسديد الدين ، كما وافقت على الكف عن تجزئة الميزانية المصرية الى جزئين ، وتغيير وظائف صندوق دين الدولة المصرى وغير ذلك من الاجراءات التى اتخذتها السلطات الانكليزية فى مصر .

وفى عام ١٨٩٨ أسس الانكليز ما يعرف بالبنك الاهلى المصرى ، الذى بالرغم من اسمه لم يكن وطنيا بل بنكا خاصًّا ولم يكن مصريا بل بنكا انكليزيا . وخلافا للبنوك الانكليزية الاخرى فى مصر ، عُهدت الى البنك الاهلى المصرى وظيفة بنك الاصدار المركزى : اى انه قام باصدار الاوراق المالية المصرية واستودعت لديه كافة الاموال النقدية للحكومة المصرية .

وضمنت سياسة انكلترا المالية فى مصر مصالح اصحاب البنوك الاوربية . وكانت ترد الى خزائنهم بصورة منتظمة ارباح دين الدولة المصرى ، الذى كان له مستوى ثابت ويبلغ نحو ١٠٠ مليون جنيه استرلينى . واستلم الدائنون الاجانب ٤,٥ ملايين جنيه استرلينى سنويا كمدفوعات اقساط الدين . وفضلاً عن ذلك دفعت مصر سنويا جزية الى الباب العالى تتراوح بين ٦٠٠ـ٧٠٠ ألف جنيه . واستخدمت هذه الجزية كضمان لواحد من القروض التركية وتسربت الى ايدى المرابين الاوربيين ايضا . ودفعت مصر الى البنوك الاجنبية بصورة عامة ما يزيد على ٥ ملايين جنيه استرلينى سنويا ، اى ما يعادل ٥٠٪ فى بادئ الامر ثم ٣٠٪ من الميزانية المصرية .

سياسة انكلترا الاقتصادية فى مصر . عبرت السياسة الاقتصادية للبنوك الانكليزية وممثليها فى مصر عن مطامع الرأسمال المالى الانكليزى فى استغلال مصر بالاساليب الربائية المحضة من

جهة ، وفى تحويل مصر الى قاعدة تزويد الصناعة الانكليزية بالقطن من جهة اخرى . وتنطق عن ذلك الاجراءات الاقتصادية واتجاه توظيفات الرساميل الاجنبية فى عهد الاحتلال البريطانى .

ولم تكن كبيرة نسبيا توظيفات الرساميل الجديدة فى اوائل سنوات الاحتلال . اذ بلغت ٦,٦ ملايين جنيه مصرى خلال الاعوام ١٨٨٣ـ١٨٩٧ (وذلك باستثناء «شركة قنـــاة السويس») . ثم نمت من بعدها نموا كبيرا . وفى وقت تضخم المضاربات المالية للسنوات ١٨٩٧ـ١٩٠٧ ، والتى سبقت الازمة الاقتصادية العالمية لعام ١٩٠٧ ، ألفت توظيفات الرساميل الاجنبية فى مصر مبالغ طائلة اى ٧٣,٥ مليون جنيه مصرى . وبعد الازمة تقلّصت مرة اخرى وساوت ١٣ مليون جنيـــه مصرى خلال الاعوام ١٩٠٧ـ ١٩١٤ .

واشغلت حصة التوظيفات الصناعية نسبة طفيفة بين توظيفات الرساميل الانفـــة الذكر . اذ بلغت ٢٩٪ فى غضون الاعـــوام ١٨٨٣ـ١٨٩٧ واقلّ من ٩,٣٪ فى اعوام التضخـــم (١٨٩٧ـ ١٩٠٧) . فاين ذهبت الرساميل الاجنبية الضخمة الموظفـــة ؟ كانت الفروع الاساسية لتوظيفها التجارة ، والبنوك وشركات الرهون العقارية والاراضى ، والمشاريـــع ذات الامتيازات فى المرافـــق المدنية . وحسب معطيات ١٩١٤ ، من مجموع ٢١٠ مليـــون جنيه مصرى (اى من المبالغ الاجمالية لتوظيفـات الرساميـــل الاجنبية فى مصر) كان نصيب التوظيفات غير المنتجة (اى دين الدولة ، والرهن العقارى ، والبنوك) ١٦٦,٣ مليون جنيه مصرى او ٧٩٪ ، ونصيب المواصلات والتجارة ٢٦,٥ مليونا او ١٢,٦٪ ، وفقط ١٠,٥ ملايين او ٥٪ نصيب الصناعة والعمران .

وكان للرأسمال الاجنبى فى مصر طابع ربوى واضح وهو لم يساعد على تطور القوى المنتجة فى البلاد . وكانت زراعـة القطن الفرع الوحيد من الاقتصاد المصرى ، الذى جلب انتباه الرأسماليين الانكليز والسلطات المحتلّة . وكانت كافة حياة البلاد الاقتصادية فى عهد الاحتلال البريطانى خاضعة لمهمة انتاج خامات القطن لتزويد الصناعة الانكليزية بها .

ولاغراض تطوير زراعة القطن حققت السلطات الانكليزية اعمال ريّ واسعة . وخلال الاعوام ١٨٩٠ـ١٩١٤ شيدت فى مصر بضعة سدود وانظمة ريّ وخاصة سد اسوان القديم (١٩٠٢) ، الذى بعد تشييد البناء الفوقى فى ١٩١٢ ، اعطى امكانية اختزان ما يبلغ ٢,٣ مليار متر مكعب من الماء . وكان نظام الارواء الدائم قد وسع فى الوجه البحرى وعمم فى اواسط مصر . ونتيجة لهذه التدابير اتسعت مساحة الاراضى المزروعة من ٤٤٧٢ الف فدان عام ١٨٧٧ الى ٥٥٠٣ الف فدان فى ١٩١٣ .

وكان انتاج القطن حكرا للراسمال الانكليزى فى الواقع ، والفلاح المصرى المنتج الرئيسى له . وكان القسم الاكبر من القطن ينمو فى قطع صغيرة من الارض قام بزراعتها فلاحون لا يملكون الا جزءا صغيرا منها . وفى ١٩١٤ كان ٢٣٩٧ ألف فدان اى ٤٤٪ من مجموع مساحة الاراضى المملوكة يعود الى ١٢,٥ ألف ملاك عقارى . بينما بلغت حصة ١٤٩١ ألف فلاح (ممن كانوا يملكون ما يقارب من ١٠ فدادين) ١٩٥٤ ألف فدان او ٣٥,٨٪ فقط . وجرت عملية تقسيم الاراضى الفلاحية بسرعة شديدة . وخلال ٢٠ عاما (١٨٩٤-١٩١٣) ازداد بثلاث مرات عدد ملاكى الاراضى الذين يملكون اقل من ٥ فدادين .

وكانت اغلبية مزارع القطن فى مصر تحت سيطرة الرأسمال الاجنبى المباشرة او غير المباشرة . وفى عام ١٩١٠ كان يعود للاجانب ٧٠٠ الف فدان او ١٣٪ من مجموع مساحة الاراضى المملوكة . وعلاوة على ذلك كان الاجانب يسيطرون لا على الاراضى التى كانت تعود اليهم مباشرة فحسب ، بل وايضا بصورة غير مباشرة او بواسطة الرهن العقارى ، على ٢٧٪ من الاراضى التى كانت مرهونة فى بنوك وشركات الرهن العقارى .

وكان نظام الرى نقطة ارتكاز السيطرة الانكليزية على زراعة القطن . ومع ان السدود الاساسية والقنوات الرئيسية كانت قد شيدت على حساب الشعب المصرى ، الا انها كانت تحت اشراف مفتشى الرى الانكليز . وكانت تتشعب من هذه القنوات الرئيسية شبكة من القنوات الفرعية والسواقى الصغيرة التى كانت تنقل المياه

الى الحقول . وقد شيدت شركات الرى الانكليزية الخاصة شبكة الارواء الفرعية . وكانت هذه الشركات تقوم بجباية مقادير كبيرة من رسوم الرى من فلاحى القطن المصريين . ولم تكن الارض ولا الماء وحدهما تحت الرقابة الانكليزية ، بل وايضا معالجة القطن الاولية وصناعة حلج القطن اذ كان معظمهما فى ايدى الرأسماليين الانكلـــيز .

وكان القطن يحمَّل عبر السكك الحديدية والانهـــار والقنوات وغير ذلك من طرق النقل . وكانت تعود الى الانكليز شركات البواخر النهرية التى تنقله من اقسام البلاد الداخلية الى الاسكندرية . ومع ان السكك الحديدية الرئيسية كانت تعود الى الدولة المصرية ، الا انها كانت فى ايدى المفتشين الانكليز . وفضلا عن ذلك شيدت الشركات الانكليزيـــة وبعض الشركات الفرنسيـــة عددا من الطرق الحديدية الضيقة الفرعية ، فنقلت بواسطتها القطن من قلب الديار المصرية الى الطرق الرئيسية ومن ثم الى الاسكندرية . وكانت جميع تجارة القطن الداخليـــة والخارجيـــة فى ايدى الانكليز . وكان لدى البنوك الانكليزية فى مصر اقسام خاصة بالقطن تسلف تجارتـــه الداخلية والخارجية . وقام التجـــار المحليون بابتيـــاع القطن فى محلاته ، الا انهم كانوا كلهـــم وكلاء لبنـــوك وشركات التصدير الانكليزية الخاصة . وجرى تصدير القطن كله تقريبـــا بواسطـــة الشركات الانكليزية . وقامت شركات الملاحة الانكليزية بنقل القطن من مصر الى انكلترا . وكانت بورصة القطن فى الاسكندرية تحت الرقابة الانكليزية . والخلاصة ، كان جميع جهاز اقتصاد القطن من مرحلـــة زراعتـــه حتى معالجتـــه وتصديره محصورا فى ايدى الرأسماليين الانكليز .

وكانت مصر قد تحولت الى قطر يتعاطى زراعة القطن وحده . وازدادت المساحات المزروعة به من ٤٩٥ ألف فدان عام ١٨٧٩ الى ١٧٢٣ ألف فدان عام ١٩١٣ . ونما ثقله النوعى فى هذا العهد من ١١,٥٪ الى ٢٢,٥٪ مع نموٍّ اجمالى هام نوعا ما فى المساحات الزراعية . وخلال الاعوام ١٩١٠-١٩١٤ كان نصيب القطن ٤٣٪ من قيمة المنتوجات الزراعية . وازداد تصديره من ٣,٥ ملايين

قنطار فى عام ١٨٨٤ الى ٧,٤ ملايين قنطار فى ١٩١٣ وبلغت قيمته وسطيا ٨٥٪ من قيمة الصادرات المصرية .

وبتطور زراعة القطن ، خنقت السلطات الانكليزية جميع الفروع الزراعية الاخرى . وانخفض الثقل النوعى لمزروعات القمح فى غضون الاعوام ١٨٧٩-١٩١٣ من ٢٠,٦ الى ١٦,٩٪ ، والشعير من ١١,١٪ الى ٤,٨٪ . واصبحت مصر فى اوائل القرن العشرين تستورد الحبوب والطحين . وتقلصت مزارع قصب السكر والكتان . وفى ١٨٨٣ حرّمت زراعة التبغ فى مصر لكيما تتحول كافة مساحتها الى اراض لزراعة القطن . وانتقلت معامل السكائر فى مصر الى استخدام الخامات المستوردة من تركيا والبلقان .

وخنقت انكلترا تطور الصناعة المصرية ، والاستثناء الوحيد لذلك ، كانت صناعة حلج القطن وجزئيا صناعة التعدين . ولأغراض التوفير ، جرت فى اماكن زراعة القطن معالجة اولية ، اى فصل اليافه عن البذور . الا ان كافة العمليات الاخرى لمعالجة القطن كانت تجرى فى انكلترا . وكانت مصر ، القطر الذى كان يزرع احسن قطن فى العالم ، ويشغل المرتبة الثانية او الثالثة فى العالم بمقادير انتاجه ، بل وكانت قطرا يزرع القطن وحده ومع هذا لم يكن لديها اى مصنع من مصانع القطن ، وكانت تصدر جميع قطنها الى الخارج ، الى انكلترا بصورة خاصة . فيصنع كله فى الخارج ثم يدخل الى السوق المصرية كاقمشة جاهزة . وسدّت مصر ثلث متطلبات الصناعة الانكليزية من الخامات القطنية .

وفى تصنيع اى بلاد ، تلعب الطاقة وانشاء قاعدة متينة لتوليدها دورا لا يستهان به . ولم تكن توجد فى مصر مكامن الفحم الحجرى . فحازت الطاقة المائية فى هذه الظروف اهمية بالغة . واعطت السدود المصرية امكانية تشييد عدد من المحطات الكهرمائية . ومنذ عام ١٩٠٢ كان قد اعدّ مشروع تشييد محطة كهربائية عند سد أسوان القديم . الا ان هذا المشروع بقى حبرا على ورق . وباحتفاظ مصر كملحق زراعى يزود بالخامات المتروبول ، لم تراع انكلترا ، تطور البلاد الصناعى واعتبرته غير مربح لها .

نظام الدولة فى مصر خلال الاعوام ١٨٨٢-١٩١٤ . اصبحت مصر منذ عام ١٨٨٢ مستعمرة انكليزية . الا انـه لم يحدث اى تغيير فى وضعهـا الدولى والشرعى حتى عـــام ١٩١٤ . وبسبب التناقضات بين الدول الامبريالية لم تجرأ انكلترا على الاعلان لا عن الحاق مصر ولاعن وضعها تحت الحماية الانكليزية . وكانت البلاد تعتبر رسميا كجزء من الامبراطورية العثمانيـــة وسلكت انكلترا كمجرد «دولة محتلة بصورة موقتة» .

وظل الخديوى يترأس هيئات السلطـــة السابقة فى مصر . وحتى عام ١٨٩٢ كان الخديوى توفيق متربعا على العرش . وبعد وفاته اعقبه ابنه عباس حلمى الثانى ، الذى حكم مصر من ١٨٩٢ حتى ١٩١٤ . وكانت توجد لدى الخديوى وزارة مكونة من ٦ وزراء. وفى اول ايار (مايو) ١٨٨٣ وضع الخديوى «القانون النظـامى» الذى اسس بموجبه مجلسان نيابيان فى مصر وهما مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية . ويتألف مجلس شورى القوانين من ٣٠ عضوا ، ١٤ منهم يعينـون و١٦ ينتخبون فى اجتمـــاعـــات مجالس الاقاليم . وكانت الجمعية العمومية مؤلفة من ٨٢ عضوا . ويدخل فى عدادها جميع الوزراء والثلاثون عضـــوا من مجلس شورى القوانين ، وفضلا عن ذلك ينتخب ٤٦ مندوبا ممن يملكون ثروات طائلة . ويجتمع المجلسان مرة واحدة فى كـل سنتين . وهما لا يملكان اى مبادرة تشريعية ولا يناقشان سوى اللوائح التى تقدمها الحكومة اليهما . وليس لقراراتهما قوة إلزامية . وكانت موافقة الجمعية العمومية لازمة فقط لفرض الضرائب المباشرة . وعدا ذلك كان المجلسان محرومين من الحقوق تمامـــا فى كافة القضايا الاخرى .

وكان مجلس الوزراء والخديوى نفسه فى وضع مماثل . وفى الحقيقة كانت السلطة كلها محصورة فى ايدى الحاكم الانكليزى ، رغم انه لم يكن يتمتع بلقب رنان . فانه كان يعتبر مجرد ممثـل دبلوماسى لانكلترا ــ قنصلها العام او مقيما عاما لها . وفى الواقع كانت قد حصرت فى يدى هذا القنصل العام كافة السلطـــة الفعليـة المطلقة فى البلاد . وبالاستنـاد الى جيش الاحتلال الانكليزى كان

يحكم البلاد حكما مطلقا . وخلال الاعـــوام ١٨٨٣ـ١٩٠٧ كان القنصل العام فى مصر الماجور بارنغ ، الذى كان سابقـا المفوض الانكليزى فى لجنة الديون ثم منـح لقب اللورد كرومر . وتشير الانظمة الاستعمارية التى وضعها ، والتى كانت تعرف بنظام كرومر ، الى ان الحكومة المصرية كانت مجردة تماما من السلطـــة والى ان الشعب المصرى كان محروما كليا من الحقوق . واقام بارنغ فى البلاد دكتاتورية الرأسمال الصيرفى الانكليزى وقمع بلا هوادة الحركة الوطنية التحررية .

الحركة الوطنية . محمد عبده . عبد الرحمن الكواكبـــى . مصطفى كامل . لم تكن توجد فى البلاد حركة وطنية منظمة بعد قمع انتفاضة عرابى باشا ، اى فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر . وكانت كوادر الوطنيين الرئيسية قد تشتتت او تمارس نشاطا سريا . ونكّلت المحاكم الاستثنائية بالمحاربين المقبوض عليهم من فصائل الانصار ، الذين واصلوا النشاط فى البلاد . ومع ذلك شكلت بمصر مرة اخرى فى التسعينيات منظمات وحلقـــات وطنيـــة ، وانتعش النشاط الذى قام به ايديولوجيو البرجوازية الوطنية المصرية .

ولم تكن البرجوازية المصرية فى هذه الحقبة من الزمن تؤمن بامكانية الحركة الشعبية الجماهيرية . وحسبت حساب انكلترا التى ستقوم بقمع اية حركة شعبية . وفضلا عن ذلك ، صارت بضـع فئات من البرجوازية المصرية تستنكر خوض النضال ضد المحتلين الانكليز ، معتبرة بان نشـــاط الانكليز «مصدر خير» على البلاد ومستقبلها . واعتبرت ان مهمتها الرئيسية هى النضال من اجـل الاصلاحات ومن اجل تغيير الكيان الداخلى للحياة المصرية .

وكان ابلغ مثل ساطع على هذه الاتجاهـــات محمد عبده واتباعه الذين كانوا قد وضعوا الحجر الاســـاسى للاصلاحـــات الاسلامية فى مصر .

ولد الشيخ محمـــد عبده عام ١٨٤٩ فى عائلـــة فلاحيـــة وحصل على تعليمه فى الازهر . وفى ١٨٧٢ تقرب الى جمال الدين الافغانى ، الذى ترك اثرا كبيرا فى نفسه . ونظرا لاسهامـــه فى

انتفاضة عرابى ، نفى الى الخـــارج ، فعاش فى بيروت وباريس وتونس . وفى ١٨٨٩ عاد الى الوطن وفى ١٨٩٩ شغل منصب مفتى الديار المصرية بمساندة السلطات الانكليزية له . وهكذا شغل اعلى منصب اسلامى فى البلاد . وتوفى محمد عبده عام ١٩٠٥ . ونشرت آراؤه فى مجلة «المنار» التى اسسها رشيد رضا فى عام ١٨٩٨ والتى اصبحت لسان حال الحركة الاصلاحية الاسلامية .

وناضل محمد عبـده والمصلحون المسلمون ضد السيطرة السياسية للاقطاعيين وايديولوجيتهم وضد رجال الدين المسلمين المحافظين المرتبطين بهم . واتهموهم «بتشويه» الاسلام وحملوهم مسؤولية تأخر البلاد واستعبادها ودعوا الى تجديد الاسلام الذى صوروه كعودة الى الاسلام الاصلى الحقيقى . وفى الحقيقة كانوا يسعون الى تكييف الاسلام وفقا للعلاقات البرجوازية . وكمفتى الديار المصرية ، اعطى محمد عبده فتوى بالسماح بتعاطى الفائض . وايّد تبنى المدنية الرأسمالية «الغربية» ونشر الثقافة والمعارف التكنيكية فى الاقطار الاسلامية . وكان يرى انه لا يوجد اى تناقض اساسى بين الاسلام الاصلى والعلم ، ودعا الى الاعتراف بالحقوق والحريات البرجوازية الاولية على اساس المبادئ الاسلامية واعتبر الاسلام دينا ديموقراطيا .

واثر نشاط محمد عبده والمصلحين المسلمين تاثيرا بالغا فى النمط المعاشى لحياة المسلمين المصريين ، وفى طريقة تفكيرهم وفى جميع التطور اللاحق للآراء الاجتماعية والسياسيـة فى مصر . ومع ذلك تقبل الناس نشاط المصلحين ، فى ظروف عهدهم كدعوة قبل كل شىء الى اجراء نهضة اقتصادية وثقافية فى مصر مع التخلى عن النضال السياسى . وفى هذا التخلى يكمن الجانب الرجعى لنشاط المصلحين المسلمين الذين كانوا عائقا موضوعيا فى سبيل تطور الحركة الوطنية التحررية فى البلاد .

ونشأت آراء ومبادئ نزعة القومية العربية فى اتصال وثيق مع الحركة الاصلاحية الاسلامية . اذ ناضل محمد عبده واتباعه ضد تتريك السكان العرب فى الامبراطورية العثمانيـة . ودعوا الى بعث اللغة العربية الفصحى التى افردوا لها مكانا خاصـا فى تاريخ

الشعوب الاسلامية ، وطرحوا فكرة الوطن العربى . ومع ذلك حظيت هذه الفكرة بقسط اوفى لا فى نشاط المصلحين المسلمين ، بل فى مؤلفات كاتب اجتماعى عربى سورى الاصل ، وهــو عبد الرحمن الكواكبى ، الذى يعتبر بحق ، مؤسس نزعة القومية العربية .

وقد ولد الكواكبى بحلب عام ١٨٤٩ . وتأثر فى صباه بآراء البستانى وجمال الدين الافغانى . وزجّت به السلطات التركيــة فى السجن لانه ادان استبداد الادارة العثمانية واشار الى فسادها . وفى عام ١٨٩٨ أطلق سراحه فهجر بلاده واستوطن فى القاهرة حيث مات بغتة فى عام ١٩٠٣ .

وفى مصر نشر عبد الرحمن الكواكبى كتابين ، احدهما « طبائع الاستبداد » ويحتوى على المقالات التى كان قد نشرها الكواكبى فى الصحافة المصرية . والكتــاب الثانى ــ « ام القرى » * ويحتوى على محاضر مؤتمر خيالى للمسلمين ، تصوره الكاتب ، عولجت اثنـــاء عقده مشكلة تكوين خلافة عربية ودولة عربية مركزها ــ مكة . وفى هذين الكتابين هاجم الكواكبى الاستبداد بينما دافع عن الفقراء والبؤساء . والى درجة كبيرة تشبه آراؤه وطريقــة تعليله آراء المثقفين الفرنسيين والايطاليين الذين عاشوا فى القرن الثامن عشر وفجر القرن التاسع عشر . واستنكر الكواكبى علم اللاهوت المدرسى والتعصب الدينى ودعا الى حكم الشعب والى تكوين دولة عربيــة واحدة ، ووضــع الوطن فوق الدين ، والوطنيـــة فوق الخلافات الدينية . ومع ذلك لم يكن الكواكبى خلوا من تصور الاسلام بهيئة كمالية فانه اثنى فى مؤلفاته على الاكليركية والجامعة الاسلامية . وبالرغم من هذه النواقص فى عقائد الكواكبى وزملائــه ، كانت نشاطات هذا المفكر الممتــاز ، بلا ريب ، ذات مدلول تقدمى . وكانت بمثابة اعداد ايديولوجى للنهضة الوطنية واحد العوامل التى سببت نهوض الحركة الوطنية التحررية فى الاقطار العربية .

وواكب انتعاش الآداب العربية والآداب الاجتماعية فى مصر ، موجة متصاعدة من النضال الوطنى التحررى . اما من حيث السياسة

---

* احد النعوت التى كانت تطلق على مكة . ــ **المؤلف** .

فهيأ هذا النهوض فى مصر مصطفى كامل ـ الوطنى العربى البارز ، واكبر الكتاب الاجتماعيين المصريين والمثقفين ، الذى لعب دورا طليعيا فى تطوير المنظمات الوطنية والنضال السياسى .

ولد مصطفى كامل عام ١٨٧٤ بالقاهرة فى عائلة طبيب وكان حقوقيا . وفى ١٨٩١ كوّن حلقة من الشبيبة الوطنية وهو لم يزل فى دور التلمذة . وذهب بعدها الى فرنسا لاكمال تعليمه ، حيث نشر بضع كراسات هجائية سياسية ، طالب فيها باقصاء الانكليز عن مصر . فجلبت هذه الكراسات انتباه الدوائر الفرنسية ، التى كانت تعمل ضد السياسة الاستعمارية الانكليزية . فمنحته امكانية لنشر مؤلفاته فى الصحافة الفرنسية وتكوين اتصالات سياسية . فتقرب الى الكولونيل مارشان بطل فاشودة ، والى الكاتبين الفرنسيين الكولونياليين ليون دوده وبيير لوتي ، وكذلك الى جوليت أدان الكاتبة الفرنسية التى كتبت كراسات كفاحية ضد انكلترا حتى شيخوختها وأيدت مصطفى كامل .

ولم يكن من قبيل الصدفة هذا التقارب بين مصطفى كامل وفئة من الكتاب الفرنسيين الكولونياليين والسياسيين . اذ كان مصطفى كامل نفسه يشاطر حينذاك البرجوازية المصرية فى عدم ايمانها بقوى وامكانية الحركة الشعبية الجماهيرية . وكان يأمل الحصول على التحرر الوطنى عن طريق استغلال التناقضات بين الامبرياليين وخاصة التناقضات بين انكلترا وفرنسا . وكرّس لهذه الغاية كل طاقته وقواه .

واعتبر مصطفى كامل التثقيف والدعاية للآراء الوطنية كوسيلة اخرى للنضال من اجل استقلال مصر . وأولى اهتماما خاصا لهذه الوسيلة ، بعد ما تبين له بان تاكتيك استغلال التناقضات الانكلو-فرنسية عديم الجدوى . وجلبت له العمليات فى فاشودة خيبة امل عميقة . وكتب مصطفى كامل من بعدها الى اصدقائه الفرنسيين بان امله قد خاب فى فرنسا ، التى فضلت المساومة مع انكلترا عوضا عن الدفاع عن استقلال مصر .

وفى ١٨٩٨ فتح مصطفى كامل مدرسة وطنية فى القاهرة . وفى ١٩٠٠ ترأس هيئة تحرير صحيفة «اللواء» وصار يكتب فيها

لا ضد السياسة الانكليزية فى مصر فحسب بل وضد سياسة الدول الامبريالية بصورة عامة . ففضح السياسة الانكليزيـــة فى جنوبى افريقية ، والفرنسية فى مراكش ، والالمانية فى الصين . وفى هذا العهد قام بمحاولة للتقرب من الخديوى عباس حلمى الثانى ، الذى كان من اترابه .

تسنم عباس حلمى الثانى العرش وهو ما زال شابا فى الثامنة عشرة من عمره . وبالرغم من صغر سنه ، حاول انتهاج سياسة مستقلة ، وادى ذلك الى خلافات دائمة بينه وبين الانكليز . ولم يكد يتربع عباس على العرش حتى قرر فى عام ١٨٩٣ تعيين مصطفى فهمى وزيرا ، وهو الذى كان يشغل منصبا مماثلا فى وزارة عرابى . فاحتج كرومر على قرار الخديوى هذا وتمكن من تعيين شخص آخر موال للانكليز فى هذا المنصب . ونشأ خلاف جديد فى عام ١٨٩٤ عندما اعترض عباس حلمى الثانى على تعيين كيتشنـــر فى منصب سردار . ولم تنجح المعارضة ، اذ عين كيتشنر سردارا . الا ان العلاقات مع الانكليز كانت قد فسدت .

وفى عام ١٩٠٤ تقرب عباس حلمى الثانى الى مصطفى كامل ودعمه فى نشاطاته . فأدى هذا الى اجراء تحر فى قصر الخديوى فى العام ذاته ، وذلك بامر من اللورد كرومر . ففتشت السلطات البوليسية قصر الخديوى لعلها تعثر فيـه على مطبوعـات ومواد محرمة تسيء الى سمعة مصطفى كامل .

وكان مصطفى كامل مع الخديوى ينوى التقرب من السلطان التركى عبـد الحميد . وظن مصطفى كامل ان تركيـا وحليفتيهـا الاوربيتين المانيا والنمسا-المجر قد تسانده من الخارج بعدان خانته فرنسا وهو فى حاجة ماسة الى سند خارجى . ولم يرفع مصطفى كامل شعار استقلال مصر التـــام ، بل ناضل لاعـــادة البلاد الى حظيرة الامبراطورية العثمانية ، وبهذه المناسبـة بشر بفكرة الجامعـــة الاسلامية . وفى ١٩٠٤ انعم عليه السلطان بلقب باشا ، ولم تعط سياسة تقربه من السلطان اية نتيجة اخرى سوى حصولـه على هذا اللقب .

حادث دنشـــواى (١٣ حزيـران ـ يونيــو ١٩٠٦) . كان نشاط مصطفى كامـــــل حتى عام ١٩٠٥ مقتصرا على الدعايـــة والتثقيف والقيـــام بكل انواع المباحثات الدبلوماسية . وكانت الحركة الوطنية الجماهيرية فى هذا العهد معدومة فى مصر . ولكنها نشأت فى عام ١٩٠٦ بمناسبـــة الاوضاع العالمية العامة لذلك العهد ـ عهد يقظة آسيا ، فتحت تأثير الثورة الروسيـــة للاعوام ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ نشأت جملة من الحركات البرجوازية-الديمقراطية فى الشرق وبضمنها فى مصر .

وكانت القضية المعروفة بحادث دنشواى * حافزا لتطويـــر الحركة الوطنية التحررية المصرية . ففى يوم حار من ايام حزيران (يونيــو) ، هو ١٣ حزيران (يونيـــو) ١٩٠٦ ، توجهت الى دنشواى جماعة من الضباط الانكليز لصيد الحمام . وكما كان يحدث غالبا فى حالات مماثلة ، اتلف الضباط باقدامهم المزروعات ، فطلب اليهم الفلاحون الغاضبون مغادرة القريـــة . وعندئذ فتح الانكليز النار على الفلاحين فجرح بضعة منهم ووقع صدام استخدم فيـــه الفلاحون عصيهم . واصيب ضابط انكليزى برضّة بسيطة وتقرر نقله الى محطة القطار . وكانت درجة الحرارة فى ذلك اليـــوم ٤٢ فاصيب بضربة شمس وتوفى على اثرها فى الطريق . واتهم فلاحو دنشواى بقتله مع ان سبب الوفاة كان ثابتـــا طبيا ، وقدموا الى محكمة خاصة . فحكم على اربعة منهم بالشنق وعلى ٩ بالاشغال الشاقة المؤبدة وبجلد الاخرين على قواعد المشانق .

واثارت عقوبات دنشواى اثرا عميقـا فى مصر . وبدأت فى البلاد تظاهرات واجتماعات احتجاجية . وامتلأت الصحافة المصرية بمقالات السخط . ونظـــم الشعراء القصائـــد على شرف شهداء دنشواى . ومن كل صوب وردت المطالبة بالعفو العام عن سجناء دنشواى .

وبقدر ما كان حادث دنشواى مثيرا للاستياء ، كان لـه صدى

---

* دنشواى ـ قرية صغيرة قريبة من مدينة طنطا فى دلتا النيل . ـ المؤلف .

عالمي الى درجة اضطر معها الانكليز في النهاية الى التنازل . وفي ١٩٠٧ صدر العفو العام عن سجناء دنشواى . ودعا كرومر مصطفى كامل لمقابلته، وكان قد لقبه «باسوأ عدو لانكلترا» ، وساله من يقترح من اصدقائه للوزارة . وكان من بين الذين رشّحهم مصطفى كامل ، سعد زغلول ــ زعيم الوفد المقبل الذى ولد عام ١٨٦٠ وكان من المساهمين في حركة عرابي . وهو حقوقيٌ مارس المحاماة ثم خدم في المحكمة . وفي عام ١٩٠٦ عينه كرومر وزيرا للمعارف .

وفي نيسان (ابريل) ١٩٠٧ تقاعد كرومر . واصبح المعتمد العام الانكليزى في مصر السير ألدون غورست ، الذى كان يشغل في عهد كرومر منصب السكرتير الشرقي للمفوضية البريطانية ، اى انه كان الموظف السياسي الذى عهدت اليه مراقبة الحركات الوطنية المحلية . وبخلاف كرومر ، الذى عاش في مصر ٢٥ عاما دون ان يتقن اللغة العربية ودون ان تكون لديه اية صلات في المجتمع المصرى ، تميز ألدون غورست عن سلفه بانه كان يجيد اللغة العربية بحكم طبيعة عمله وكانت له صلات في مصر .

الحركة الوطنية في عام ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ . نشوب الاحزاب السياسية والنقابات . قرر ألدون غورست العمل على شق صفوف الحركة الوطنية المصرية . وبمبادرة منه ألفت جماعة من المصريين من ذوى المشارب الانكليزية «حزب الاصلاح» في عام ١٩٠٧ . وكان من بين اعضائه اصحاب الذوات المصريون والبيروقراطيون والمثقفون ، الذين كانوا يساندون التعاون مع الانكليز . واعتمد هذا الحزب على اسناد المفوضية الانكليزية له وكان يسيطر على امهات الصحافة المصرية كـ «المقطم» و «الاهرام» وغيرهما .

ولمواجهة حزب الاصلاح ، ألف مصطفى كامل عام ١٩٠٧ حزبه السياسي الذى اطلق عليه على غرار حزب عرابي ، اسم «الحزب الوطني» . وفي ٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٧ عقد هذا الحزب مؤتمره الذى حضره ١٠١٧ مندوبا يمثلون عناصر البرجوازية الصغيرة الديمقراطية في الحركة الوطنية التحررية .

واحتل «حزب الامة» الذى تشكل فى ١٩٠٦ والذى كان يمثل العناصر البرجوازية والملاكين العقاريين فى الحركة الوطنية مكاناً متوسطا بين هذين الحزبين .

ونشأت النقابات العمالية سوية مع الاحزاب السياسية فى مصر . وقد اجريت للمرة الاولى محاولة لتشكيل نقابة فى عام ١٨٩٩ فى وقت الاضرابات التى قام بها عمال صناعة التبغ ، ولكنها باءت بالفشل . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٨ ألف الوطنيون نقابة عمال الصناعات اليدوية ، التى فتحت لها فروعا فى مختلف المدن المصرية وقادت الحركة العمالية فى البلاد . وفى ١٩١١ كان فى مصر ١١ نقابة تضم ما يزيد عن ٧ آلاف عامل .

وكان موت مصطفى كامل ضربة شديدة اصابت الحركة الوطنية التحررية . وقد أثرت فى صحته النشاطات السياسية العارمة ، التى ابداها بعد حادث دنشواى . اذ تجول فى جميع انحاء مصر بلا كلل وألقى فى الاجتماعات خطبا عديدة اثناء اليوم الواحد . وتوفق فى الوقت ذاته فى تحرير الصحيفة وتصدير النداءات وقيادة عمل حزبه . فادى هذا الى اصابته السل ، وفى شباط (فبراير) ١٩٠٨ فارق الحياة فى الرابعة والثلاثين من عمره . وتحول موكب تشييع جنازته الى تظاهرة جبارة ضد الامبريالية . وسار فى جنازته مئات الآلاف من الناس .

وسرعان ما ، بعد موت مصطفى كامل ، تضاءلت الحركة الجماهيرية .

وكان لثورة عام ١٩٠٨ التركية وبعث دستور ١٨٧٦ صدى كبير فى مصر ونشطت الحركة حينا من الزمن فجرى فى البلاد عدد من التظاهرات ضد الامبريالية البريطانية . وتقدمت كافة الاحزاب السياسية فى مصر بمطالبة دستور ، واصرت على الاستعاضة عن مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية بمؤسسات تمثيلية اصيلة . وترأس هذه الحركة الدستورية «الحزب الوطنى» الذى كان له اتصال بانصار حركة تركيا الفتاة واستمد منه الارشاد . ومع ان الأحزاب الباقية طالبت بالدستور الا انها وقفت ضد انصار حركة تركيا الفتاة .

وان مرد وهن الحركة الدستورية نشوبها فى ظروف ابتدأت فيها الحركة الوطنية التحررية الجماهيريـــة فى الهبوط . ووجهت الاحزاب السياسية الحركة نحو النضال الشرعى من اجل الاصلاحات الدستورية . وان «الحزب الوطنى» نفسه وهو حزب الديمقراطية البرجوازية الصغيرة حصر نشاطه فى الدعاية والتثقيف وتنظيم حلقات المثقفين .

المرحلة الرجعية للسنوات ١٩٠٩ــ١٩١٤ . قامت المفوضية الانكليزية بشن هجوم على الوطنيين ، مستغلّة هبوط الحركـــة الجماهيرية فى مصر . ومنذ ١٩٠٧ اصبح رئيس مجلس وزراء مصر بطرس غالى ــ القبطى الرجعى ، رئيس محكمة دنشواى . وكان آلة طيعة بيد الانكليز . ونكل بوحشية بالحركة الوطنية التحررية . وان القوانين الاستثنائية لعام ١٩٠٩ ، التى كانت موجهـــة ضد اعضاء الحزب الوطنى قبل كل شىء ، استخدمت كأساس « شرعى » لاضطهاد الوطنيين على نطاق واسع . وان قانون المطبوعات الصادر فى ٢٥ آذار (مارس) ١٩٠٩ حرم فى الواقع الصحف المصرية من امكانية نقد السلطات الانكليزيـــة . اما قانون ٤ تموز (يوليو) ١٩٠٩ بشأن الاشخاص المشتبه بهم فخوّل السلطات نفى جميع الناس المشتبهين بعطفهم على الوطنيين دون تحقيق ومحاكمة .

وسببت القوانين الاستثنائية لعام ١٩٠٩ بلبلة فى صفوف الوطنيين . فنقل قسم منهم نشاطه الى المهجر . وانعقد فى الخارج مؤتمران «للحزب الوطنى» ــ واحد فى جنيف (عام ١٩٠٩) ، وآخر فى بروكسل (عام ١٩١٠) . وبقى القسم الآخر من الوطنيين فى مصر ومارسوا العمل السرى .

وبسبب العمـــل السرى انقطعت صلات الوطنيين بالجماهير واتبعـــوا تاكتيك الارهـــاب الفردى . وفى ٢٠ شباط (فبرايـــر) ١٩١٠ اغتيل بطرس غالى ــ رئيس الوزراء ، من قبل ابراهيـــم الوردانى وهو احد الوطنيين الارهابيين . ورغم ان الوطنيين اعتبروا ابراهيم الوردانى بطلا وطنيا ، حتى قرض الشعر ونظمت الاجتماعات تكريما له الا ان عمله الارهابى لم يغير من الوضع شيئـــا ، وادى حصرا الى اشتداد الارهاب الانكليزى . فاعدم الوردانى . واستغل

الدون غورست اغتيال بطرس غالى لاثارة العداء بين الاقباط والمسلمين على غرار ما فعله الانكليز فى الهند . وكان بطرس غالى قبطيا ، فاضفى ألدون غورست على الحادث طابع الخصومات الدينية الطائفية .

وفى ١٩١١ مات الدون غورست وخلفه الجنرال كيتشنر ــ فاتح السودان وجنوبى افريقية ووزير حربية انكلترا فيما بعد (اى اعتبارا من ١٩١٤) . وواصل كيتشنر السياسة التى انتهجها ألدون غورست فى مصر .

وحاول الاتفاق مع اوساط البرجوازية والملاكين العقاريين من القوميين . ولهذه الغاية أجرى فى عام ١٩١٣ اصلاحا فى الدستور المصرى . وعوضا عن المجلسين السابقين ــ مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، شكل مجلسا واحدا وهو الجمعية التشريعية المؤلفة من اعضاء منتخبين بالاغلبية (١٧ موظفا و ٦٦ منتخبا) . ومع ذلك كانت لهذا المجلس وظائف محدودة كالمجلسين السابقين اللذين كانا قد تأسسا بموجب «القانون النظامى» لعام ١٨٨٣. واختير نائبا لرئيس الجمعية التشريعية سعد زغلول ، الذى لعب فيما بعد دورا كبيرا فى تاريخ الحركة الوطنية التحررية المصرية .

الفصل التاسع عشر

الدولة المهدية في شرقي السودان

تغلغل الاوربيين فى شرقى السودان . بعد وفاة محمد على ، بقى شرقى السودان تحت حكم المصريين وتحكم فيه الباشوات والبكوات الاتراك والمصريون ، واغتصبوا اقطاعيات واسعة منه ، واحتكروا بضائع التصدير السودانية الرئيسية ، ونهبوا الشعب بفرض ضرائب فاحشة عليه . وانتشرت تجارة الرقيق على نطاق واسع ، رغم ان سعيد باشا ــ حاكم مصر ، اعلن تحريمها رسميا فى عام ١٨٥٧ . وتحولت مناطق كاملة من البلاد الى عقارات كبيرة تابعة للنخاسة .

وفى السبعينيات من القرن التاسع عشر ، اضيف نير المستعمرين الاوربيين الى نير الباشوات الاتراك المصريين والنخاسة. ويمكن تسمية العقدين الثامن والتاسع من ذلك القرن بعهد الاقتسام الاستعمارى لافريقيا . ففي غضون ما يقارب العشرين عاما اقتسمت الدول الاوربية فيما بينها القارة الافريقية برمتها تقريباً .

ومن البديهى ان الاوربيين كانوا يطمعون فى شرقى السودان بموارد خاماته وبتجارته التى كانت تدر ارباحا طائلة من البضائع الاستوائية ، فضلا عن انهم كانوا يطمعون فى الاستيلاء على هذه البلاد لكونها طريقا هاما للتغلغل فى اواسط افريقيا . اما النيل فهو الطريق الطبيعى المؤدى الى قلب افريقيا . زد على ذلك ان لامتلاك السودان مساسا وثيقا بالقضية المصرية : فكل دولة سيطرت على مجرى النيل فى السودان ، سيطرت فى الوقت ذاته على مصر .

فبـــاى اسلوب جرى اقتســـام افريقيـــا ؟ كان المغامرون الاوربيون المنفردون يكونون طلائع الدول الراسماليـــة فى هذه القارة .

وقد استولى على الجهة الجنوبية الغربية من افريقيا مغامر واحد هو التاجر الألمانى لودرتز . واستلب الفاتح الالمانى بيترس شرقى افريقية . وأخضعت نيجيريا حفنـــة من المغامرين الانكليز ذوى المراس ، الذين كانوا قد ألفوا «شركة نيجيريا» . واغتصب الكنغو المغامر ستانلى ، الذى كان يعمل بمساعدة ليوبولد الثانى ملك البلجيك . وكان اذا باء هذا المغامر او ذاك بالفشل فانه يبقى خامل الذكر . اما اذا كلل مشروعه بالنجاح فتحتضنه دولة ذات مصلحة وتضعه تحت حمايتها وترسل اسطولها او جيشهـــا الى «ممتلكاته» وتعلن الارض المحتلة من قبله مستعمرة لها .

وبهذه الصورة ذهب فى الطليعة افراد ذوو مراس مولعون فى الكسب الاستعمارى . وهذا ما جـــرى بالذات فى السودان . ففى السبعينيات من القرن التاسع عشر ، لم تتخذ اية دولة من الدول الاوربية تدابير فى السودان باسمهـــا الخاص . وفى هذه البلاد بدأ الصراع المباشر بين الدول عقب عام ١٨٨١ ، بعد استيلاء الانكليز على مصر .

فكيف تم تغلغل المغامرين فى السودان ؟ انهم استغلوا مطامع اسماعيل ــ الخديوى المصرى ، فى الاستيلاء على حوض النيل باجمعه انطلاقا من سياسته القطنية . وبعد ما انشأ اسماعيل مزارع القطن فى مصر ، قام بتوسيع نظام الرى فيها . الا انه ادرك بـــان تأمين شبكة قنوات الرى المائية فى مصر سوف لا يضمن الا فى حالـــة السيطرة على حوض النيل باكمله وعلى جميع ينابيعه . ومن هنا انبثق سبب حروب اسماعيل فى اثيوبيا وفى افريقيا الاستوائية . وان سياسة الخديوى اسماعيل التوسعية هذه استرعت انتباه عدد من المغامرين الاوربيين فى مقدمتهم صمويل بيكر الانكليزى . ففى ١٨٦٩ عهد اسماعيل الى بيكر بادارة مديرية خط الاستواء فى السودان ومدينة لادو . وكان صمويل بيكر يعتبر مديريـــة خط الاستواء كملكه الخاص . اذ انه استحوذ فيها على تجارة العـــاج

باسرها ، التى كانت تمر عبر المديرية والتى درت عليه بارباح طائلة . ومن هنا جرد عددا من الحملات على المناطق الواقعة الى الجنوب من السودان ، اى على منطقة بحيرة ألبرت ومنطقة الاونيورو ، وضم جميع هذه الاراضى الى ممتلكاته . ونشط صمويل بيكر فى هذه الاصقاع لمدة ٥ سنوات .

وفى ١٨٧٤ استعيض عنه بانكليزى آخر هو الجنرال غوردون الذى اصبح حاكما لمديرية خط الاستواء . وواصل غوردون الحملات التى قام بها بيكر حتى بلغ بحيرة فكتوريا ، واوفد بعثة الى حاكم اوغندة واستولى على منطقة حوض منابع النيل الابيض باسرها . واصطحب معه زمرة كبيرة من المغامرين الاوربيين : كالايطالى رومولو جسّي والالمانى أدوارد شنتزر (امين باشا) والفرنسى لينان دى بلفون والامريكى لونغ وغيرهم .

وفى نفس الوقت الذى جرى فيه التوسع فى منطقة منابع النيل الابيض ، بدأ صراع من اجل منابع النيل الازرق ، اى من اجل اثيوبيا . وفى ١٨٧٤ غادر السويسرى منزنغر ميناء مصوع (باريتريا فى الوقت الحاضر) الذى كان فى قبضة المصريين واتجه نحو اعماق اثيوبيا . ونجح فى الاستيلاء على كرن وتغلغل فى القسم الشرقى من اثيوبيا فى منطقة هرر وضمها الى الممتلكات المصرية . وفى ١٨٧٥ استولى المصريون على مدينتى زيلع وبربرا (فى شمال الصومال فى الوقت الحاضر) .

وفى ١٨٧٥–١٨٧٦ توغل الجيش المصرى بقيادة الدانماركى اندروب فى المناطق الجبلية من اثيوبيا واحتل عدوة . الا ان الاحباش صدوا هجوم المصريين وانتهت الحرب المصرية الاثيوبية للاعوام ١٨٧٤–١٨٧٦ بصورة غير موفقة للمصريين لا كالحرب فى مديرية خط الاستواء . ولم يفلحوا الا فى الاحتفاظ بممتلكات منفردة ساحلية ، وقد أُبعدوا عن قلب البلاد .

وفى الوقت ذاته تطور التوسع المصرى فى اتجاه ثالث ، اى فى اتجاه منطقة دارفور التى تقع فى القسم الغربى من السودان وكانت هذه المنطقة حتى عام ١٨٧٤ عبارة عن سلطنة مستقلة . وفى ١٨٧٤ شن المصريون حملة على هذه السلطنة . واستغلوا

الزبير باشا ـ حاكم منطقة بحر الغزال ، وعهدوا اليه بفتح دارفور. فنفذ الزبير هذه المهمة . ودعى على اثرها الى القاهرة وانعم عليه بلقب باشا وبكل انواع التكريم الممكنة ، الا انه اجلت عودته الى السودان . وعوضا عنه توجه الى دارفور حاكم اوربى . وحدثت بعد هذا انتفاضات كبيرة فى منطقتى دارفور وبحر الغزال . فمن جهة ثار سليمان ابن الزبير باشا ، وسلطان دارفور من جهة اخرى . وعمل هذان الاقطاعيان السودانيان بصورة غير منسقة فيما بينهما . ولذا نجحت فى قمع كلتى الانتفاضتين السلطات المصرية التى كان يخوض باسمها غوردون باشا الحرب .

وفى ۱۸۷۷ عين الجنرال غوردون حاكما عاما على جميع السودان . ونصب غوردون فى مديرية خط الاستواء أدوارد شنتزر حاكما ، كما عين زملاءه الاوربيين حكاما بمديريات اخرى . فاصبح الايطالى رومولو جسى الذى قهر سليمان ابن الزبير ، حاكما على مديرية كردفان ، والنمساوى سلاتين باشا حاكما على مديرية دارفور ، والانكليزى لبتون حاكما على مديرية بحر الغزال ، وغدا الالمانى غيغلر باشا اقرب مساعد لغوردون . وهكذا اصبح السودان الذى كان رسميا تحت سلطة المصريين ، ملكا لفئة من المغامرين الدوليين ذوى المراس الطامعين فى الكسب . ففرضوا على سكان السودان ضرائب نقدية وعينية باهظة لا تحتمل واتخذوا تدابير لنهبه الى درجة سرعان ما طغت فيها فى البلاد كلها موجة ثورية ضد الاوربيين ، ضد النير المصرى ـ الاوربى .

ثورة المهديين . وفى عام ۱۸۸۱ نشبت فى البلاد ثورة عامة ضد النير الاوربى . وقاد هذه الثورة الدرويش المتجول محمد احمد ، الذى اعلن انه المهدى المنتظر .

ولد محمد احمد فى عام ۱۸٤۳ باحدى جزر النيل بالقرب من مدينة دنقلة . وكان والده نجارا . ومارس اخوته الحرفة ذاتها . وتجول فى طفولته بصحبة والده واخوته فى وادى النيل ، فى طول البلاد وعرضها . فتعرف جيدا على حياة ومعيشة الناس . وبعد وفاة والده ، التحق بالطريقة الاسلامية الدينية السمّانية فى مدينة بربر (المخيرق) فى شمال السودان . ودرس هناك اللاهوت

واصبح بعدما انهى المدرسة درويشا متجولا . واستوطن فى نهاية المطاف فى جزيرة آبا الكبيرة الواقعة فى جنوب الخرطوم على النيل الابيض ، حيث كان اخوته يمارسون حرفتهم . وامست هذه الجزيرة بؤرة انتشرت منها الى جميع انحاء البلاد تعاليم الدراويش المتجولين . ودعا اتباعها الى التنسك . واشاروا الى ان فساد الاخلاق يحل فى البلاد وبان مسببيه هم الاتراك والمصريون والاوربيون ، وبان الاتراك والمصريين هم مسلمون كاذبون ومرتدون . ودعوا الى بعث نقاوة الاسلام السالفة واقامة المساواة العامة والاخوة واعادة تقسيم الاموال والاقطاعيات والاراضى بصورة متساوية والى انتزاع الاقطاعيات من الاقطاعيين الاتراك والمصريين والسودانيين . كما دعوا الى الثورة بغية وضع حد للنهب الاوربى ولنير الباشوات الاتراك والمصريين . وقالوا : «ان الآلاف من القبور خير من دفع درهم واحد من الضرائب» .

وفى آخر المطاف ادت مواعظ محمد احمد المنطلقة من مقدمات اخلاقية ودينية الى نضال وطنى تحررى وطبقى وكانت ثمرة كافة الظروف الاقتصادية والسياسية القائمة فى البلاد .

وفى آب (اغسطس) ١٨٨١ المصادف شهر رمضان ، اعلن محمد احمد انه المهدى المنتظر ودعا الشعب السودانى الى الثورة. وكان الظرف ملائما للثورة . اذ تطورت فى مصر ازمة سياسية . وكان اهتمام الدول ومصر ذاتها مقتصرا على الاحداث المصرية ، ونشأت فى السودان امكانية للعمليات الحاسمة .

ويصف شهود ومعاصرون بداية الثورة كما يلى : حضر فى آب (اغسطس) ١٨٨١ من الخرطوم الى جزيرة آبا موظف من الحكومة المصرية وعندما مثل امام محمد احمد قال له : «يتهمونك باتك تريد الشروع بالنضال ضد الحكومة ، اذهب الى الخرطوم واحظ بالمثول بين يدى سيد البلاد لكى تبرئ ساحتك» . فرد عليه محمد احمد : «انا نفسى بفضل الله ونبيه سيد هذه البلاد وسوف لاتطأ قدمى فى يوم من الايام ارض الخرطوم اطلاقا ، لأبرئ نفسى امام اى انسان» . فعاد الموظف الى الخرطوم ـ الا انه جاءت الى جزيرة آبا بعد ذلك حملة تنكيلية كانت مؤلفة من سريتين ومزودة بمدفع

واحد فقط . واشار قوام هذه الحملة الضئيل بانهم لم يعيروا اهمية كبيرة الى حركة محمد احمد . الا ان المهديين ابادوا هذه الحملة برمتها .

وبعد انهزام الحملة قرر محمد احمد النزوح مع اتباعه الى كردفان، حيث احاط بفصيلته مؤيدون كثيرون وتحولت الى جيش ثوري يعد بالآلاف .

فمن هم الذين اتبعوا المهدى ؟ ومم تألفت القوى الدافعة للثورة المهدية ؟ كان الفلاحون والبدو الرحل والرقيق والحرفيون هم فى الاساس القوى الدافعة لثورة المهدى . وتحدث عبد الله اقرب مساعد للمهدى قائلا : «تقاطرت الينا زرافات من الشعب البائس وابتعد عنا الاثرياء والميسورون الذين لم يكترثوا الا بثرواتهم ، بهذه الاوساخ الدنيوية ، التى ألهتهم عن معرفة وتذوق نعيم الفردوس الحقيقى» .

ودعا المهدى أتباعه الى الجهاد المقدس وسماهم بالانصار اسوة بالنبى محمد . ووعد كل من يسقط فى المعركة بالسعادة الابدية ومن تكتب له الحياة باربعة اخماس جميع الغنائم .

وكتب سلاتين ، الذى ترك وصّفا مسهبا عن هذه الثورة : «كان السودان يعود الى الاتراك والمصريين خلال ما يزيد عن ٦٠ عاما . وبالطبع ، امتنعت فى غضون هذه السنوات بعض القبائل عن دفع الضرائب احيانا وتعرضت الى العقاب ، الا انه لم يجرأ اى انسان على التمرد على حكام البلاد او على اعلان حرب حقيقية عليهم . والآن ثار فقير ومسكين ومجهول وحاز بفضل حفنة من الانصار الجيعان وذوى السلاح الردئ على انتصار اثر انتصار» .

وانشأ المهدى معسكرا فى جبال كردفان ، حيث تقاطر الفقراء من جميع انحاء البلاد مع نسائهم واطفالهم . وكونوا هنا فصائل الانصار واختاروا القادة وهجموا على المراكز الحكومية وعلى جباة الضرائب والفصائل المسلحة التى أرسلت لجباية الضرائب . وكتب سلاتين بان «هؤلاء الفقراء كانوا يأملون بان الانقلاب سيحسن وضعهم . وعم هجوم فى جميع البلاد على من ارسلوا لجباية الضرائب

وعلى الموظفين الحكوميين وعلى المراكز المسلحة . وأبيد قسم منهم واضطر القسم الآخر الى التراجع» .

ولعب العامل القومى دورا كبيرا فى الثورة المهدية . وبهذا الصدد كتب سلاتين : «زهت نفوس الجميع عزة وكرامة ، لان السودانى اصبح مهديا وبالتالى لانه سيحكم البلاد لا الاجانب بل اولادها فى المستقبل» .

وكقاعدة عامة ، قابل الثورة بالعداء الاقطاعيون وتجار الرقيق الاثرياء السودانيون . الا انهم غالبا ما كانوا يضطرون الى ان يأخذوا بعين الاعتبار قوة الثوار رغم ان المواعظ حول التساوى فى الاموال واعادة اقتسام الاراضى كانت تتعارض ومصالحهم . ولم يقف اى واحد منهم وقفة ثابتة الى جانب المهدى ، الا ان البعض منهم كان يساومه تارة او يحاول التزلف اليه تارة اخرى لكى يتلخص من اقتسام امواله او ليستغل المهدى لصالحه .

وخلال مدة قصيرة ، انضمت كردفان برمتها الى المهدى ، فتسنّى له وهو فى هذه المنطقة ان يصدّ عددا من الحملات الاوربية-المصرية التنكيلية .

وفى خريف ١٨٨١ أوفد المغامر الالمانى غيغلر -حاكم كردفان ، حملة بقيادة سعيد محمد باشا ضد المهدى . ولكن هذه الحملة لم تنل مرماها . وخشية من الهزيمة ، تراجع قائدها .

وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨١ وجّه رشيد بك - حاكم فاشودة الى كردفان حملة اخرى بقيادة الالمانى برغخوف . الا ان الحملة ابيدت ابادة تامة .

وفى آذار (مارس) ١٨٨٢ توجهت من الخرطوم فصيلة عسكرية قوامها ٦ آلاف محارب ، بقيادة يوسف باشا الشلالى . وفى حزيران (يونيو) ١٨٨٢ دمّرت هذه الفصيلة تدميرا تاما .

وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٨٢ ضرب المهديون حصارا على الابيض عاصمة كردفان . واستولوا عليها فى ١٨ شباط (فبراير) ١٨٨٣ . وبذلك اتموا فتح كردفان . ومن هنا انتشرت الثورة الى عموم مناطق السودان الاخرى .

ويعتبر عام ١٨٨٣ عام انتصار المهديين الحاسم . ففي ربيع ١٨٨٣ قدم الى كردفان جيش انكليزي-مصري جرار بقيادة الجنرال الانكليزي هكس ، وانتهت عمليات هذا الجيش في كردفان بفشل تام بعد ان استمرت ٨ اشهر . وطبق المهديون في حربهم ضد هكس تاكتيك الارض المحروقة : اي انهم ساقوا الماشية واحرقوا القرى وردموا الينابيع . وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٣ هزم جيش هكس المنهوك هزيمة تامة في المعركة التي دارت رحاها في شمال الابيض . وقتل الجنرال هكس ، وانضمّ قسم من قواته الى جانب الثوار . ويجب الاشارة الى انه التحق في جيش هكس الجنود المصريون الذين كانوا قبل عام ، اي في ١٨٨٢ ، في جيش عرابي وحاربوا ضد الانكليز . ثم ارسلوا كعقاب لهم الى السودان . ومن الناحية السياسة كانت هذه القوة غير صالحة للعمليات التنكيلية . وتحدّث كرومر نفسه عن كيف كان يهتف هؤلاء الجنود في المعركة : «آه يا افندينا عرابي ، لو ترى الى اي وضع قادنا اللعين توفيق» ، ثم يرمون اسلحتهم .

وفي آب (اغسطس) ١٨٨٣ عمت الثورة مناطق مديرية البحر الاحمر . وهنا انزل المهديون عددا من الهزائم بجيوش الانكليز-المصريين بقيادة الجنرال بيكر . وقبيل انصرام عام ١٨٨٣ كانت مديريات السودان في قبضة الثوار . وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨٣ كف عن المقاومة سلاتين - حاكم دارفور . وفي بداية ١٨٨٤ استسلم لبتون - حاكم بحر الغزال . وهكذا وقعت جميع البلاد من جهتي النيل الغربية والشرقية بيدي المهدي . ولم يبق تحت سلطة الانكليز - المصريين سوى قطعة ضيقة من وادي النيل . كما لم يبق لديهم اي أمل بالمكوث في هذه البلاد ، خاصة وانه كان باستطاعة الثوار سدّ الوادي في اي وقت وقطع صلات الانكليز-المصريين بمصر .

وفي تلك الحقبة من الزمن ، دبرت السلطات الانكليزية الموجودة في مصر المناورة التالية . فنظرا الى ان الثورة كانت موجهة ضد السيطرة المصرية ، قرّر الانكليز اعلان استقلال السودان عن مصر ، ومقابل ذلك قرروا تعيين الانكليزي غوردون حاكما عاما

على السودان . وبكلمة اخرى ، انهم ارادوا التواطؤ مع المهدى ليجعلوا السودان ، بمساعدته ، مستعمرة انكليزية .

وفى ١٨ شباط (فبراير) ١٨٨٤ وصل غوردون بصحبة مساعده ستيوارت الى الخرطوم ، حيث طبق هذه السياسة الجديدة . فاعلن استقلال السودان عن مصر وعين المهدى سلطانا على مديرية كردفان واحتفظ ، بدهاء ، بمنصب حاكم عام لنفسه . وقام بعدها بالغاء جميع الضرائب المتاخرة واعلن العفو العام عن السجناء الذين تاخروا عن دفعها . وكان قد اودع السجن عدد كبير من الفلاحين لانهم لم يدفعوا الضرائب فاطلق غوردون سراحهم وظن انه يستطيع التوصل بهذه التدابير الى مساومة مع المهدى . الا ان المهديين اكتشفوا هذه المناورة ، ولم يكن فى نيتهم تقديم السودان الى السلطة الانكليزية فردوا على اقتراح غوردون بضرب الحصار على الخرطوم ابتداء من آذار (مارس) ١٨٨٤ .

وفى خريف ١٨٨٤ توجه من مصر ، لاغاثة غوردون ، جيش مؤلف من ٧ آلاف جندى بقيادة الجنرال ولسلى ــ فاتح مصر . الا ان هذا الجيش لم يستطع بلوغ الخرطوم . وفى ٢٣ كانون الثانى (يناير) ١٨٨٥ توقفت الخرطوم المحاصرة عن المقاومة . فاحتلها الثوار ، وقتل غوردون اثناء اقتحام المدينة ، وقضى على الانكليز الذين كانوا معه . فعاد ولسلى بعد ذلك بجيشه الى مصر . واتم الثوار خلال الاشهر الباقية من عام ١٨٨٥ فتح وادى النيل .

وهكذا تأسست الدولة المهدية خلال ٤ اعوام ضامّة فيها شرقى السودان باسره (باستثناء منطقة صغيرة فى شمال دنقلة ومديرية خط الاستواء) .

الكيان الداخلى للدولة المهدية . توفى المهدى بعد فتح الخرطوم بمدة قليلة فانتقلت رئاسة الدولة المهدية الى عبد الله التعايشي اقرب مساعديه الذى لقب بالخليفة .

وكانت هذه الدولة ، التى قامت منذ عهد قريب والتى حكمت البلاد ، رغم كل شىء ، لمدة ١٣ عاما اى حتى عام ١٨٩٨ ، عبارة عن معسكر مسلّح محاط بالاعداء من كل جانب ومعرض للحصار بصورة متواصلة . وكانت مهمتها الرئيسية تنظيم الدفاع . ولهذه

الغاية ، شيد الخليفة عبد الله ترسانات بدائية ومعامل ودورا لبناء السفن ، كما اصلح السفن التى حصل عليها كمخلفات تركها المصريون وراءهم ، وحتى انه شيّد دارا للطباعة . ولتنظيم الجيش والصناعة الحربية ، استخدم الاسرى الاوربيين كاختصاصيين . وكان فى خدمته بصورة خاصة سلاتين وروموملو جسى ولبتون وغيرهم . ويصف سلاتين بصراحة الاساليب التخريبية التى قاموا بها وكيف انهم عرقلوا ترميم البواخر وكيف اجروا ذلك الترميم بلا ذمة وكيف دمروا الادوات فى المعامل الحربية وما شابه ذلك من الاعمال التخريبية الاخرى . وكان على الدولة التى تطوقها من كل صوب قوى معادية (بالاضافة الى العدو الذى كان ينشط فى داخل السودان) ، ان تطبق باطراد اساليب الارهاب ضد الخونة . وهذه هى المهمة الاساسية الثانية التى كانت تقع على عاتق الخليفة عبد الله والدولة المهدية .

وكانت الدولة تتسم فى بادئ الامر بطابع ديمقراطى . اذ كان الجيش يتألف من الفلاحين والرحل والارقاء . وشغل مناصب القيادة فيه ابناء الشعب . وقد خفضت الضرائب تخفيضا كبيرا . ومارس الضباط وموظفو الدولة الزهد والتقشف كنموذج لحياتهم . وكان رئيس قضاة الدولة المهدية يتناول ٤٠ تاليرة شهريا اى ما يعادل متوسط راتب الصانع الحرفى . وكان الموظفون الآخرون يستلمون ما بين ٢٠ـ٣٠ تاليرة شهريا .

وناهض المهديون اثراء اشخاص منفردين ، وسعوا الى المساواة العامة . وعاقبوا اولئك الذين ينهبون ويسلبون عقابا شديدا . وحرم المهدى على اتباعه ركوب الخيل ودعا المؤمنين الى السير على الاقدام من اجل ارضاء اللّه . وفرض عليهم تقديم الاشياء الذهبية والثمينة الى بيت المال الذى كان يشرف على الحياة الاقتصادية فى البلاد . وسمح بذبح خروف واحد فقط من اجل مآدب الاعراس . وخفّض المهر الى ١٠ تاليرات للفتاة العذراء و ٥ تاليرات للارملة .

ورغم جميع الاتجاهات الديموقراطية المائلة الى التساوى لم تؤد هذه الحركة الفلاحية فى اساسها الى تصفية العلاقات الاقطاعية القائمة فى البلاد . وفى هذه الحركة ظهر مفعول القوانين الطبيعية الخاصة

بالحركات الفلاحيــة الكثيرة الاخرى . والتاريخ حافــل باحداث كثيرة للحركات الفلاحية . وهى تنتهى عادة بالفشــل بحكــم كونها عفوية.وبحكم افتقارها الى برامج دقيقة والى غايات واضحة يدركونها والى تاكتيك فكر فيه بالتفاصيل وغير ذلك . وانتصرت الحركة الفلاحية فى السودان ، الا ان انتصارها لم يجعلها قادرة على تصفية العلاقات الاقطاعية التى حاربت ضدها .

واشار انجلس بدقة الى هذه الخاصية للحركة المهديــة السودانية فتكلم فى مؤلفه «بصدد تاريخ المسيحية البدائية» عن الحركة المهدية السودانية بالنسبة الى الحركات الشعبية الدينية فى افريقيا فى القرون الوسطى . واعتبر هذه الحركات كنزاعات بين الرّحل الفقراء وابناء البلد الميسورين . وبهذا الصدد كتب : «ان ابناء البلد يصبحون اثرياء وينهمكون فى الترف ويستخفون بمراعاة الشريعة . وينظر البدو الذين يعيشون فى شظف العيش ويتمسكون ، بسبب الفقر ، بآداب صارمة ، الى هذه الثروات والمتع بحســد وطمع . وهكذا يتوحدون تحت زعامة نبىّ ما ، المهدى ، لعقاب المرتدين عن الدين ولبعث الاحترام الى الطقوس والدين الصحيح وينتزعون الثروة من المرتدين كمثوبة لهـم . وبعد انصرام ١٠٠ عام او ما يقرب من ذلك يجدون انفسهم فى الوضع ذاته بالضبط ، الوضـع الذى كان فيـه اولئـك المرتدون ، فيتوجب عندئذ تطهير المعتقدات مجددا ، فيظهر مهدى جديد وتبدأ اللعبة ذاتها مرة اخرى . وهكذا كان الوضع عند الحملات التوسعية التى قام بهــا المرابطون والموحدون الافريقيون فى اسبانيا حتى ظهور المهدى الاخير فى الخرطوم ، الذى قاوم الانكليز بهذا النجاح . . . وجميع هذه الحركات التى قامت مقنعة بغلاف دينى ، كانت قد تطورت على اسس اقتصادية ؛ ولكنها حتى فى حالات الانتصار كانت لا تمس الظروف الاقتصادية السالفة وتدعها مصونة لا تنتهك حرمتهــا . وهكذا يبقى كل شىء على حاله وتصبح الاصطدامات دورية» . *

---

* ف . انجلس ، بصدد تاريخ المسيحية البدائية ، ـ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٢٢ ، ص ٤٦٨ .

هذا هو المفتاح لفهم الدولة المهدية ، حيث بقى كل شىء على ما كان عليه سابقا . ولم يتطلب الامر حتى ١٠٠ عام لكى يحدث الارتداد الاقطاعى لقادة الحركة المهدية ، وقد جرى هذه الارتداد الاقطاعى بوتائر سريعة للغاية . اذ بعد مضى ٥ سنوات على احتلال الخرطوم استحوذ قاضى القضاة نفســـه على ضياع واسعة وعلى عشرات من الرقيق بعد أن عاش بادئ ذى بدء كواحد من النساك والمتقشفين . ومما له دلالته ، ان الدولة المهدية لم تقض على نظام الرق ، وانها اتخذت بعض التدابير فقط للحد من تجارة الرقيق . وقد حرمت تجارة الذكور من العبيد ، ولم يعرض للبيع الذكور من الاسراء بل جندوا الى العمل فى اقطاعيات الخليفة او المقربين اليه . وكان الخليفة يهدى احيانا الإسراء كرقيق الى القبائل التى كان يستند اليها . الا ان تجارة الاناث من الرقيق كانت مستمرة واحتفظ بنظام الرق باكمله . ولم يعتق المهديون العبيد رغم انهم اسهموا فى الحركة المهدية وهم يحلمون بالحرية . واستنادا الى ذلك اندلعت جملة من الانتفاضات التى قام بها العبيد انفسهم ضد الدولة المهدية . وطالما شن المهديون حروبا مظفرة فى عهد الثورة ، فالنهوض الاخلاقى والسياسى مهد لالتفاف القبائل حولهم . ثم عادت الانشقاقات بين القبائل عقب الانتصار . واصبحت بعض القبائل ، خاصة قبائل كردفان التى ينتسب اليها الخليفة عبد الله ، فى وضع ممتاز بينما كانت قبائل اخرى فى وضع سيئ وخاصة قبائل وادى النيل التى ينتسب اليها المهدى محمد احمد . ومنح القسم الاعظم من الاسلاب والغنائم الى قبائل كردفان ، الامر الذى اثار استيـــاء قبائل النيل التى خاضت نضالا ضد القبائل المتنعمة .

وقام آل شريف ــ اقرباء المهدى ، بانتفاضة فى الخرطوم . قامت بها العناصر الديمقراطية من الحركة ضد الطغمة الاقطاعية المرتدة ، وهى انتفاضة قبائل وادى النيل وكذلك النجارين وبحارة اسطول النيل السودانى .

وقد اضعف الصراع القبلى والطبقى الدولة المهديـــة التى اضطرت فى ذلك الظرف الداخلى المعقد الى صد الهجمات المتواصلة التى كان يشنها عليها الاعداء من الخارج .

اعمال الدول ضد الدولة المهدية . اضطرت الدولة المهدية الى القيام بحروب متواصلة ضد الاعداء من الخارج . ففى عامى ١٨٨٥ ـ ١٨٨٦ استمر القتال ضد الجيش الانكليزى-المصرى الذى كان محتفظا كالسابق بمنطقة سواكن ووادى حلفا . وفى غضون الاعوام ١٨٨٧ ـ ١٨٨٩ ، شن المهديون الحرب على الجهة الشرقية ، ضد نجاشى الحبشة ، وضد سلطان دارفور فى الجهة الغربية . وفى ١٨٩١ ، اضطروا الى شن الحرب على الجيش الانكليزى-المصرى المرابط على ساحل البحر الاحمر ، كما قارعوا المتمردين فى كردفان ودارفور .

وفى عام ١٨٩٦ بلغ مرحلة حاسمة نضال الدولة المهدية ضد الدول الاوربية .

وبعد ان فتح الانكليز مصر شرعوا فى توسيع مزارع القطن ، واعتبارا من العقد العاشر من القرن التاسع عشر بدأوا بتشييد خزان كبير للمياه بالقرب من اسوان . وهكذا صمم الانكليز توطيد اقدامهم فى منطقة منابع النيل وتصفية الدولة المهدية مهما كلفهم الامر .

كما سعت فرنسا الى السيطرة على منابع النيل . وكانت هذه الفترة من اشد الاوقات توترا فى الصراع الانكلو-فرنسى من اجل اقتسام افريقيا . فمن جهة ، اراد الفرنسيون توطيد اقدامهم فى اثيوبيا اى فى منطقة منابع النيل الازرق ، حيث كان لهم نفوذ كبير على منليك ـ نجاشى اثيوبيا . وبعد ان ثبتوا اقدامهم فى غربى السودان واواساطه ارادوا من جهة ثانية ، توسيع نفوذهم على شرقى السودان اى على منطقة منابع النيل الابيض . وان التوسع الفرنسى فى غربى وشرقى افريقيا اجبر الانكليز على الاسراع بمهاجمة السودان ...

وعزم الانكليز خوض النضال ضد الفرنسيين باستغلال دول اخرى . فقاموا باسناد الايطاليين فى نضالهم ضد التوسع الفرنسى فى اثيوبيا . وكانت ايطاليا فى ذلك الحين دولة ضعيفة لا تهدد انكلترا التى استغلت عن طيب خاطر التناقضات الايطالية ـ الفرنسية للحيلولة دون التوسع الفرنسى فى اثيوبيا . كما شجعت التوسع البلجيكى فى منابع النيل الابيض صوب الكونغو ، لمواجهة التوسع الفرنسى .

وفى ١٨٩٣ـ١٨٩٤ ، اقتحم الايطاليون السودان واستولوا على منطقة كسّلا بعد ان استقروا فى اريتريا ـ على ساحل البحر الاحمر .

وفى ١٨٩٥ شن الايطاليون الحرب على اثيوبيا . ممّا ادّى الى تصاعد موجة وطنية كبيرة فى البلاد . فتراصّت صفوف الاحباش لصد الايطاليين وانتهت الحرب باندحار الايطاليين بالقرب من عدوة فى اول آذار (مارس) ١٨٩٦ .

وفى هذه الحرب تلقى الاحباش المساعدة من فرنسا وروسيا وبصورة خاصة من فرنسا التى عززت نفوذها فى الحبشة فى اعقاب هذه الحرب .

وفى ١٨٩٤ عقدت انكلترا اتفاقية مع بلجيكا بشأن توزيع مناطق النفوذ فى اعالى النيل الابيض . واجرت انكلترا الى «جمعية الكونغو» البلجيكية مديرية خط الاستواء فى السودان ، اى منطقة لادو التى كانت فى قبضة البلجيك حتى عام ١٩١٠ عندما اعيدت الى حظيرة السودان الانكلو-مصرى . وبعد ما استأجر البلجيكيون هذه المنطقة ، اقتحموا عام ١٨٩٤ اراضى الدولة المهدية التى اضطرت الى شن الحرب ضد البلجيكيين فى الجهة الجنوبية ، بينما كانت تقاتل ضد الايطاليين فى الجهة الشرقية .

وبعد معركة عدوة ، قررت فرنسا استغلال نفوذها السائد فى اثيوبيا لتجريد حملة على السودان . وكانت فرنسا قد حصلت فى ذلك الوقت على امتياز لمد سكة حديدية من جيبوتى الى اديس ابابا . وظنّت انها ستواصل مدها الى ما وراء حدود اثيوبيا حتى تقطع جميع القارة الافريقية من المحيط الهندى الى الاطلسى . وفى الوقت ذاته عهد الى الكولونيل مارشان ـ القائد الحربى الفرنسى فى افريقيا ، بالزحف بالجيش من اواسط السودان الى اعالى النيل . وفى آذار (مارس) ١٨٩٦ ، اتخذت انكلترا بدورها قرارا لتجريد حملة انكلو-مصرية بقيادة كيتشنر على شرقى السودان .

وهكذا هجمت على الدولة المهدية مباشرة انكلترا وفرنسا اعتبارا من ١٨٩٦ . وزحفت انكلترا بقواتها من الجهة الشمالية وذلك بقيادة كيتشنر ، وفرنسا من الجهة الغربية بقيادة مارشان .

وفى ١٠ تموز (يوليو) ١٨٩٨ اتجه مارشان نحو فاشودة ورابط فيها . واقترب كيتشنر فى ٢ ايلول (سبتمبر) ١٨٩٨ من عاصمة الدولة المهدية ــ ام درمان الواقعة مقابل الخرطوم على ضفة النيل الاخرى . وجرت هنا معركة عامة بين القوات الانكلو مصرية والمهدية . واستخدم كيتشنر فى هذه المعركة سلاحا جديدا هو الرشاشات . وتقدم المهديون فى صفوف متماسكة مسلّحون بالبنادق القديمة وبالسهام والخناجر ودون ان يهابوا الموت . فحصدهم كيتشنر بنيران رشاشاته . وهلك فى هذه المعركة اكثر من ٢٠ الفا من المهديين فاصيب جيش المهدى باندحار تام وتراجع ما بقى منه الى الجهة الغربية ، اى الى كردفان . ولم يقتف اثره كيتشنر فى ذلك الحين ، ولكنه زحف بقواته سراعا نحو الجنوب ، واقترب فى ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٨٩٨ من فاشودة التى تعرف الآن بكدق .

فاشودة . التقت القوات الانكليزية فى فاشودة وجها لوجه مع القوات الفرنسية . فأدّت هذه الحادثة الى ازمة فاشودة العالمية المشهورة . وكما كتب لينين فى سفر الاحداث ، كانت انكلترا «على شفا الحرب مع فرنسا» . * واختلق الفرنسيون فيما بعد اسطورة مفادها انهم كانوا ينتظرون معونـــــة منليك ــ نجاشى اثيوبيا . ومع ذلك فلم توسل النجدات رغـــــم وعود النجاشى فاضطرت فرنسا الى ان تأمر مارشان بالتراجع .

وانحسمت القضية على اساس توازن القوى لا فى افريقيا بل على النطاق العالمى . واجرى الانكليز فى ذلك الوقت مفاوضات مع المانيا حول الاتحاد ، ولم تقم فرنسا بالهجوم على انكلترا خشية القتال على جبهتين . وبعد مفاوضات طويلة أمرت الحكومة الفرنسية مارشان فى ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٩٨ بالتراجع من فاشودة . وهكذا انتهى اصطدام فاشودة باستسلام فرنسا .

وبعد انصرام بضعة اشهر عقدت الاتفاقية الانكلو ــ فرنسية فى آذار (مارس) ١٨٩٩ ، حول توزيع مناطق النفوذ فى افريقيا .

---

* ف . إ . لينين ، دفاتر عن الامبريالية ، ــ مجموعة المؤلفات الكاملة الروسية ، المجلد ٢٨ ، ص ٦٦٨ .

وبموجب هذه الاتفاقية اصبح شرقي السودان برمته في منطقة النفوذ الانكليزي . ووضعت الاتفاقية نهاية للصراع الذي دام طويلا بين انكلترا وفرنسا من جراء اقتسام افريقيا . وكان توتر التناقضات الانكلو-فرنسية قد بلغ ذروته في فاشودة .

وبعد حادث فاشودة حصل تقارب بين انكلترا وفرنسا ادى الى عقد معاهدة الوفاق ، ومما مهّد الى هذا التقارب ظهور مزاحم جديد ، هو المانيا .

تأسيس الحكم الثنائي الانكلو-مصري . لم يبق لدى انكلترا بعدما وطدت اقدامها في شرقي السودان الا اتخاذ تدابير شكلية للسيطرة على البلاد . ولكن هذه القضية شكلت صعوبات معينة وذلك لان شرقيّ السودان كان ارضا تعود شكليا الى مصر وبالتالي الى تركيا . وطالما ان مصر كانت في عداد الامبراطورية العثمانية فالاستيلاء عليه مباشرة كان من شأنه ان يدعو الى عدد من المضاعفات الدولية . فقامت انكلترا باتخاذ تدابير شكلية عن طريق ما يعرف بالحكم الثنائي الانكلو-مصري ، اي «الحيازة المشتركة» .

وفي ١٩ كانون الثاني (يناير) **١٨٩٩** عقدت في القاهرة معاهدة وقعها اللورد كرومر عن بريطانيا العظمى وبطرس غالي عن مصر . وفي مقدمة المعاهدة ذكر ان الاسباب التي دعت الى الحكم الثنائي هي ان مصر حكمت السودان حكما سيئا مما ادى الى ضياعه . و«وافقت» الحكومة المصرية على السماح الى انكلترا بادارة السودان لقاء المعونة التي قدمتها الى مصر في السودان .

ووفقا لهذه المعاهدة ، يمثل الحاكم العام السلطة العليا في السودان . اذ حصرت في يده جميع السلطات المدنية والعسكرية والتشريعية والتنفيذية حصرا تاما . وعين الحاكم العام طبقا لتوصية من الحكومة الانكليزية وبمرسوم صادر عن الخديوي ، وبكلمة اخرى ، مُنح الخديوي حقا باجراء ذلك الترشيح الذي اشارت عليه الحكومة الانكليزية . ولم يكن من المستطاع عزل الحاكم العام من منصبه دون موافقة الحكومة الانكليزية . ولا يعزل بمرسوم خديوي الا اذا اعتبرت الحكومة الانكليزية ان هنالك ضرورة تدعو لذلك . وبدون موافقة الحاكم العام لا يمكن اخضاع اراضي شرقيّ السودان

لاحكام اى قانون مصرى . ويقوم الحاكم العام باستقبال قناصل الدول الاجنبية فى السودان وباستطاعته رفض ترشيحهم .

فبم كان يتمثل اسهام مصر فى ادارة السودان ؟ احتفظت مصر ، الى جانب القوات الانكليزية ، بكتيبة فى السودان . ومنح للمصريين عدد من الوظائف الثانوية . وكان على مصر ان تتحمل اعباء الاحتلال المالية برمتها ، وان تدفع ٧٥٠ ألف جنيه استرليني سنويا الى الحكومة السودانية لسد نفقات احتلال السودان وادارته . وان هذا المبلغ مبلغ ضخم خاصة بالنسبة الى الميزانية المصرية .

ووضع حكام انكليز على راس جميع المديريات السودانية ، باستثناء مديرية دارفور فى اقصى الغرب من السودان ، حيث احتفظ بالسلاطين المحليين الذين ظلوا فى علاقات تبعية للحكومة الاستعمارية الانكليزية . وبقيت سلطنة دارفور حتى عام ١٩١٦ عندما قام السلطان بانتفاضة ضد الانكليز . وعندهـــا صفيت السلطنة واصبحت دارفور مديرية سودانيـــة خاضعـــة للحاكم الانكليزى مباشرة .

ومنذ ١٨٩٩ عرف السودان رسميا بالسودان الانكليزى- المصرى . واقيم فيه نظام ثنائى ، وشرعت انكلترا بتصفية آخر بقايا القوات المهدية التى كانت قد تراجعت الى سهوب كردفان .

وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٩٩ وجه كيتشنر قواته الى هذه المديرية ، وفى ٢٥ تشرين الثانى (نوفمبر) دمرت بقايـــا المهديين عند جديد وقتل الخليفة عبد الله نفسه فى المعركـة .

وفى ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٩ تمّ الاستيلاء على عاصمة المهديين ــ الابيض . وسحقت الثورة رغم ان فصائل منفردة مهدية بقيت تواصل المقاومة لمدة من الزمن فى مختلف انحاء البلاد .

ومع ذلك فقد ظهر ان القبض على ناصية السودان كان من الامور الصعبة بالنسبة لانكلترا . فمنذ ١٩٠٠ حتى ١٩٢٧ ، لم يمر عام دون انتفاضة . الا انه لم تتسم اية واحدة من هـــذه الانتفاضات بصفة الشمول . وحدثت فى مناطق منفصلة او قامت بها قبائل منفردة . واتصفت جميعها بسمة محلية وكانت منفصلة عن بعضها البعض ولهذا حكم عليها جميعا بالفشل .

الفصل العشرون

الجزائر فى غضون الاعوام ١٨٧٠ـ١٩١٤

المعارضة الجمهورية فى الجزائر . كان لكمونة باريس صدى مباشر فى الجزائر ، هذا القطر الذى قاسى كثيرا والذى كان يرزح تحت نير الطغمة العسكرية البونابرتية والبرجوازية الكبيرة الفرنسية . وكانت ثورة كمونة باريس ذات صلة وثيقة بالاحداث الثورية التى وقعت بين ١٨٧٠ـ١٨٧١ فى الجزائر ، وواكبت الثورة الوطنية التحررية الكبيرة عام ١٨٧١ . ولم يكن هذا التصادف عرضيا على الاطلاق . اذ ان فشل الامبراطورية الثانية اظهر للجزائريين من عرب وبربر كل ما تحتويه الدولة البرجوازية الفرنسية من ضعف وفساد . ولذا فانهم ، بعد ان حسبوا للظرف حسابه ، هبّوا للنضال مرة اخرى من اجل تحطيم النير الاجنبى البغيض .

وكان مجرى الاحداث فى هذه الاعوام العاصفة معقدا بحدّ ذاته الى درجة ما . وكانت قد وصلت الى الجزائر ليلة الخامس من ايلول (سبتمبر) ١٨٧٠ اولى الاخبار الخاصة باحداث فرنسا كاستسلام الجيش الفرنسى فى سيدان وأسر الامبراطور واعلان الجمهورية فى الرابع من ايلول (سبتمبر) . ولم يكن العرب والبربر ، الذين يؤلفون معظم سكان البلاد (مليونان ومائة الف نسمة) مستعدين بعد الى القيام بانتفاضة سريعة . واول من استجاب الى احداث باريس كان السكان الفرنسيون القاطنون فى الجزائر ، والذين كان يبلغ عددهم حينذاك زهاء ٢٧٠ الف شخص .

ولم يكن متجانسا التركيب الاجتماعى لسكان الجزائر الفرنسيين . ففضلا عن البرجوازية الفرنسية والمعمرين الفرنسيين ؛ ظهرت فى الجزائر جماعات من العمال والمثقفين الفرنسيين . واتخذت كافة فئات سكان الجزائر الفرنسيين باستثناء حفنة من الصيارفة واصحاب الامتيازات موقف المعارض من النظام البونابرتى . ومما يجدر ذكره ان الاكثرية الساحقة من الصيارفة واصحاب الامتيازات كانوا يسكنون فى باريس وليس فى الجزائر . فما الذى دعا المعمرين الفرنسيين المحليين والبرجوازية المحلية الفرنسية الى معارضة نظام الامبراطورية الثانية ؟ ان مما استدعى معارضتهم الصراع من اجل الاستغلال الاحتكارى للجزائر والاستيلاء على ثرواتها الارضية . اذ وزّع نابليون الثالث الامتيازات على ممثلى البرجوازية الكبيرة فى العاصمة ورجال المال الباريسيين ، وغبّن بذلك فى القسمة كتلة الرأسماليين الفرنسيين القاطنين فى الجزائر . وأمن جميع نظام السلطة الاستعمارية الفرنسية فى الجزائر مصالح كبار اصحاب الامتيازات الباريسيين قبل كل شيء .

ولم تساهم البرجوازية الفرنسية المحلية فى ادارة البلاد المباشرة بل وحتى انها حرمت فى عام ١٨٥٢ من حق ارسال مندوبيها الى البرلمان الفرنسى (وكان هذا الحق قد منح لها عام ١٨٤٨ فى عهد الجمهورية الثانية) . وكان ممثلو الطبقة العليا من الطغمة العسكرية الفرنسية كالمارشال بيليسييه والمارشال مكماهون وغيرهما ، يعينون عادة فى مركز الحاكم العام للجزائر . ولهذا عبر المعمرون الفرنسيون والبرجوازية الفرنسية فى الجزائر عن معارضتهم باستيائهم ، قبل كل شيء ، من دكتاتورية الطغمة العسكرية . وطالبوا بتصفية «النظام العسكرى» وتسليم ادارة البلاد الى ايدى البرجوازية الفرنسية المحلية وتأسيس مستعمرة للنازحين الى الجزائر على غرار الولايات المتحدة الامريكية وطرد وابادة السكان الاصليين منها كليا . وحتى ان بعض المعمرين ايدوا فصل الجزائر عن فرنسا فصلا تاما (وبالطبع هذا لا يعنى الجزائر العربية بل الجزائر الفرنسية بسكانها المحليين المستعبدين والمحرومين من الحقوق) .

وكانت اكثرية كبار المعمرين الفرنسيين مـــن الاورليانيين او الشرعيين ، اى انهم دافعوا عن الاحتفاظ بالملكية فى فرنســا شريطة تغيير الاسرة الحاكمة . امـــا الباقون فكانـــوا يعرفون بالجمهوريين المعتدلين .

وقرّر هذا التكتل البرجوازى الاستعمارى استغلال سقوط نابليون الثالث للاستيلاء على السلطة فى الجزائر . ولم يتجرأ على ابعاد الحاكم العام دورييه الذى كان قد عيّن فى عهد الامبراطورية الثانية ، ومع ذلك استطاع استبدال عدد من الموظفين البونابرتيين بجمهوريين معتدلين . واحتلّ ممثلو هذا التكتل جميع المناصب الرئيسية فى الادارة المحلّية تقريبا .

ومع ذلك دفعت ثورة ١٨٧١ الى الصعيد السياسى بالاضافة الى هذا التكتل ، اوساطا ديمقراطية من المهاجرين الفرنسيين . ويجب ان لا يغرب عن البال بان الجزائر استخدمت كمنفى لكافة العناصر المعارضة فى فرنسا . ففى ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩ نفى اليهـــا ٢٠٥٠٠ من العمال الباريسيين ، الذين ساهموا فى ثورة حزيران (يونيو) ١٨٤٨ . وعقب انقلاب لويس بونابرت الذى حدث فى ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، نفى الى الجزائر ٩٥٣٠ مـــن الجمهوريين النشيطين وخاصة الثوريين من البرجوازية الصغيرة . وكان المنفيون فى ظروف صعبة . اذ هلك الكثيرون منهم من شدة الفاقة وتفشى الامراض السارية وقساوة المناخ .

وبالطبع لم يقف هؤلاء الديمقراطيون الفرنسيون مكتـــوفى الايدى تجـــاه الاحداث . ففى ٥ ايلـول (سبتمبر) ١٨٧٠ نظّم الآلاف من العمال والديمقراطيين الفرنسيين من البرجوازيـــة الصغيرة تظاهرة جماهيرية فى الجزائر واسقطوا نسور الامبراطورية من جميع العمارات ووضعوا صارية عليها قلنسوة فريجية * فى ساحة قصر الحاكم العام . وألفوا من بعدها منظمات ديمقراطية وهى لجان الدفاع والجمعية الجمهورية فى الجزائر والحرس الوطنى والبلديات . والّفت لجان الدفاع فى كافة المدن الجزائرية المأهولة من قبل

---

* اى رمز الثورة . ــ **المؤلف** .

الفرنسيين . وكانت هذه اللجان خاضعة جميعها للجنة الدفاع في مدينة الجزائر ، التي قادها الجمهوريون البرجوازيون والديمقراطيون من البرجوازية الصغيرة . وطالبت لجنة الدفاع حق المساهمة في ادارة المستعمرة وتطهير المؤسسات من العناصر البونابرتية وتصفية النظام العسكرى . ولم يدخل في قوام هذه اللجان اى ممثل من سكان البلاد الاصليين . ومع ذلك احبط الجمهوريون البرجوازيون محاولات لجان الدفاع لوضع رقابة على رؤساء البلديات ونوابهم وصان وارنييه ــ زعيم البرجوازية الجمهورية ، وهو رئيس بلدية مدينة الجزائر ، جميع جهاز السلطة السابق في المدينة . فضلا عن انه افلح في عزل ممثلى الطبقة العاملة من لجان الدفاع .

اما الجمعية الجمهورية في الجزائر فكانت عبارة عن منظمة سياسية لكتلة العمال الثوريين والديموقراطيين من البرجوازية الصغيرة . وكانت لها فروع في كافة مدن الجزائر ، ونظمت اجتماعات عامة واصدرت الصحف . وانتسب الى هذه الجمعية وفروعها العمال الاعضاء في القسم الجزائرى من الاممية (ولم يكونوا ماركسيين بل معظمهم من البرودونيين) . واعتبرت الجمعية الجمهورية ان السلطة في الجزائر يجب ان تعود باسرها الى البلديات-الكمونات المنتخبة ، وان تكوّن الجزائر اتحادا لهذه البلديات-الكمونات . ومن البديهى ان امانى السكان العرب والبربر لم تؤخذ بعين الاعتبار اطلاقا لا في الجمعية الجمهورية ولا في الكمونات التى كانت الجمعية ترتأى تشكيلها . وكان الديمقراطيون من البرجوازية الصغيرة والبرودونيون شوفينيين مؤمنين بغطرسة الدولة الكبرى ، مثلما كانت الحال مع البرجوازية الفرنسية الكبيرة .

وجدير بالذكر انه انتسب الى الجمعية عرب منفردون وكذلك يهود واوربيون من اصل غير فرنسى . ومع ان اعضاء الجمعية الجمهورية سمحوا للعرب بان ينضموا الى صفوفهم الا انهم ابدوا ، في احسن الاحوال ، عدم اكتراث بالنضال الوطنى التحررى للسكان الاصليين . واما اتباع برودون المعروفون بـ «نكرانهم للوطنية» فانهم ارتأوا انه لا يمكن حل القضية الوطنية الا عن طريق فرنسة جميع العرب . وفي تشرين الاول

(اكتوبـــر) ١٨٧٠ حـــدّدت صحيفـــة «Algérie Française»
(«الجزائر الفرنسية») التى كانت على صلة بالجمعية الجمهوريـــة
فى الجزائر ، مهمات الحرس الوطنى الذى كان قد ألّف بمساهمـــة
اعضاء الجمعية الفعّالة . وتتلخص هذه المهمات على النحو التالى :
١) النضال ضد العدو الخارجى ؛ ٢) النضـــال من اجل تأسيس
جمهورية مستقلة فى الجزائر ، فيما لو بعثت الملكية فى فرنسا ؛
٣) النضال ضد انتفاضات السكان المحليين .

وكان الحـــرس الوطنى خاضعـــا للجـــان الدفـــاع
وللبلديات المنتخبـــة ، وكانت اغلبيـــة البلديـــات تعود الى
الديموقراطية البرجوازيـــة الصغيرة . وتزعمهـــا المحـــامى رومـوالـد
فويرموز ، الذى تم اختياره فى اول ايام الثورة كرئيس للجنـــة
الدفاع الجمهورية ورئيس بلدية مدينة الجزائر .

الكمونة الجزائرية . وفى ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٠
عيّن حاكما عاما موقتا للجزائر الجنرال والزين-استيرهازيه ،
المؤيد للملكية والذى لطّخ سمعته بالتنكيل الدموى بعمال وهران
فى ايلول (سبتمبر) ١٨٧٠ . وعقب قدوم الحاكم العام الجديد الى
الجزائر (٢٨ تشرين الاول ١٨٧٠) ضرب الحصار على قصره العمال
الاوربيون فى مدينة الجزائر بالاشتراك مع الفقراء العرب . فهرب
الجنرال على ظهر سفينة حربية بعدما تخلّى عن منصبه ، واستولى
العمال على قصره بمساعدة الحرس الوطنى . واستقـــال رئيس
البلدية وارنييه ايضا . واخذ العمال و ٤ آلاف من الحرس الوطنى
يستعدون لهجوم على آخر حصن الثورة المضادة وهو قصر ادارة
الاسطول البحرى الذى كان يحرسه ٢٠٠ بحار فقط . ومع ذلك
دخل فويرموز بمفاوضات مع الاميرال واوقف الهجوم وبذلك مهد
للاحتفاظ بمعقل الرجعية .

ولما وصلت الجزائر انباء سقوط متز واستسلام المارشال
بازين فى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٠ ، حدثت تظاهرات
جديدة فى الجزائر ووهران وغيرهما من المدن مطالبة باستخدام
الارهاب الثورى ضد الخونة . وفى ٧ تشرين الثانى (نوفمبر) طالبت
الجمعية الجمهورية فى الجزائر بتسليم جميع ادارة البلاد الى لجان

الدفاع الجمهورية . وتحقيقا لقرارها ، انتخبت فى اليوم التالى بلدية الجزائر ولجنة دفاعها فويرموز قوميسيرا استثنائيا موقتا للجزائر ، اى حاكما على البلاد . واعلن اثناء الاجتماع ان «الكمونة هى مصدر اصلى لكل ديمقراطية» وان البلاد ستكون كلها اتحاد كمونات .

ومع ذلك لم يترك هذا الثوران اى اثر تقريبا . اذ اعلنت حكومة فرنسا ان قرار الكمونة الجزائرية «عمل اغتصابى مناف للقانون» وعينت الرجعى شارل دى بوزيه قوميسيرا مدنيا استثنائيا فى الجزائر مزوّدا بصلاحيات الحاكم . وتنازل له فويرموز عن السلطة حالا (١١ تشرين الثانى – نوفمبر ١٨٧٠) . ووفقا لطلب دى بوزيه ، وُضع الحرس الوطنى تحت تصرفه . وأبعدت عن ملاكه القيادى جميع العناصر الثورية . وأخذت تتضاءل الحركة المشوشة من قبل البرجوازيين الصغار المسالمين .

فما الذى دعا الى فشل العناصر الديمقراطية ؟ يمكن بالطبع ، الاشارة الى خيانة فويرموز ولكن القضية لا تقتصر عليها فقط . اذ انه لم يكن لدى الفئة الديمقراطية الضعيفة ركيزة متينة بين الجماهير تستند اليها وخاصة بين جمهور السكان الاصليين . فاتاح هذا الظرف بالذات للبرجوازية الاستعمارية فيما بعد امكانية قمع جميع محاولات الكمونة الجزائرية الرامية الى وضع رقابة على السلطة والحرس الوطنى .

وادّى اعلان كمونة باريس فى آذار (مارس) ١٨٧١ الى تصاعد الحركة الثورية فى الجزائر مرة ثانية . فجرت فى البلاد تظاهرات تحت الشعارات : «لتعش باريس ! ولتسقط فرساى !» ونشرت الصحف الثورية اخبارا مفصّلة عن فعاليات كمونة باريس . واوفدت الجمعية الجمهورية فى الجزائر مندوبيها الى فرنسا وانضموا الى كمونة باريس بعد وصولهم الى العاصمة واصبحوا من مجاهديها وبناتها النشيطين . وكان من بينهم ألكسندر لامبير . ونوقشت فى الجمعية الجمهورية مرة اخرى ، قضية الاستيلاء على السلطة . الا ان الجمعية امتنعت هذه المرة عن متابعة النضال وذلك تحت تأثير المسالمين من البرجوازية الصغيرة .

وقد اوحت هذا القرار الانتفاضة الوطنية التى شرع بها العرب والبربر قبيل ذلك الحين . ولم يدرك الديمقراطيون من البرجوازية الصغيرة الفرنسية وحتى البروليتاريون فى الجزائر طابعا ثوريا للنضال الوطنى التحررى للجماهير الشعبية العربية . وتتلخّص الغلطة الرئيسية التى اقترفها الثوار الفرنسيون فى انهم اهملوا القضية القومية . وقد فاتهم بان النصر على البرجوازية الفرنسية المضادة للثورة فى الجزائر غير ممكن الا عن طريق الاتحاد مع جماهير السكان الاصليين . ولم يفهموا بانه لا يمكن لشعب يضطهد شعوبا اخرى ان يكون حرا نفسه ، وبانهم انفسهم كان ينبغى عليهم ان يكونوا ، قبل كل شىء ، حريصين على تحرير الجزائر من الناحية القومية .

ولهذا فعندما قام السكان الاصليون فى الجزائر بثورة تحررية كبيرة فى آذار (مارس) ١٨٧١ ، اثارت الاوهام الخاصة للدولة الكبرى لدى الفرنسيين البرجوازيين المحليين بلبلة كبيرة وفوضى فى الحركة العمالية . واما فويرموز وغيره من قادة البرجوازية الصغيرة ، فانهم ازدادوا خضوعا للرجعية الفرنسية خشية من الانتفاضة العربية . وفى نيسان (ابريل) ١٨٧١ حضر الى الجزائر حاكم عام جديد متعصب للملكية والاكليريكية وهو الاميرال غيدون ، الذى عهد اليه قادة فرساى بمهمة قمع انتفاضة العرب والبربر . واستغلّ غيدون جبن ساسة البرجوازية الصغيرة وخوفهم من «الخطر العربى» ، وحلّ بدون عناء البلدية الجزائرية وشتّت الحرس الوطنى .

الثورة الوطنية التحررية لعام ١٨٧١ . ادّى نير المستعمرين الى كارثة اقتصادية تامة فى الارياف الجزائرية . ففى غضون الاعوام ١٨٦٨ ــ ١٨٧٠ ، عمت البلاد المجاعة واقتات الناس الحشائش وفى حالات كثيرة كانت تلاحظ حوادث أكل لحوم البشر . ورافقت المجاعة ــ الكوليرا التى اودت بحياة عشرات الآلاف من الضحايا . وفى عام ١٨٦٦ كان عدد السكان الجزائريين الاصليين ٢٦٥٢ ألفا ، بينما هبط الى ٢١٢٥ الف نسمة فى عام ١٨٧٢ . وهلك ما يزيد عن ٥٠٠ ألف (اى ٥/١ مجموع السكان) من جرّاء

المجاعة والامراض السارية والاعمال الوحشية التي اقترفتها الحملات التنكيلية الفرنسية .

ومن عام الى عام كانت تشبّ التفاضات في منطقة او اخرى من مناطق البلاد . الا انها كانت محلية وتتسم في اغلب الاحيان بطابع العفوية ، ولم يكن النضال منظما على النطاق الوطني ولذلك استطاعت السلطات الفرنسية اخضاعها بسهولة .

ولكن الوضع تبدّل في اواخر عام ١٨٧٠ . اذ فتحت امكانيات جديدة امام العرب الذين رأوا ضعف فرنسا العسكري في حرب ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ ولمسوا ان القادة الفرنسيين غير اهل للنضال . واطّلعوا على كارثة سيدان وعلى استسلام متز واحاطوا علما بالنضال الطبقي الذي جرى في فرنسا ، وبين الفرنسيين القاطنين في الجزائر . وفهم السكان العرب بانه قد حان الوقت للقيام بحركة حاسمة . وفي المراكز المدنية وخاصة في مدينة الجزائر اسند الممثلون الجزائريون العمال الفرنسيين مساندة فعّالة . وابتداء من تموز (يوليو) ١٨٧٠ اصبح التذمر متواصلا في القرى وفي مناطق الرحل .

واشتد التذمر كثيرا عندما رأى السكان انتقال السلطة في الجزائر من ايدي الجنرالات والصيارفة الباريسيين الى كبار المعمرين الفرنسيين الذين كانوا يظلمون السكان الاصليين بقسوة . وكان الفلاحون الجزائريون يكنّون لهؤلاء الطغاة المباشرين الحقيقيين اشدّ المقت . كما اثار استياء كبيرا المرسوم الذي نشر في اواخر عام ١٨٧٠ حول اليهود الجزائريين . اذ منحهم هذا المرسوم حقوقا كاملة كمواطنين فرنسيين ، مما زاد في حرمان جمهور السكان الاساسي من حقوقهم . وبالاضافة الى ذلك ، احدثت انطباعا قويا لدى الفلاحين الجزائريين الاخبار حول نزوح الهاربين المقبل من الالزاس واللورين الى الجزائر ودفع فرنسا غرامة حربية الى البروسيين . وقرنوا هذين الحدثين بنزع الملكيات الجديدة وابتزاز الاموال في الجزائر .

وفي ١٤ آذار (مارس) ١٨٧١ بدأت ثورة القبائل العربية والبربر بقيادة الشيخ محمد المقراني ـ حاكم منطقة مرجان في بلاد

القبائل (بالقرب من سطيف) . ولم يكن باستطاعة المقرانى - سليل الاسرة الاقطاعية الاصيلة ، ان يُسلّم بتحويل فرنسا له من حاكم مستقل تقريبا الى مجرد موظف فى جهاز السلطة المركزية وبانها قللت مساحة اراضيه ومداخيله وتدخلت فى شؤونه وربطته بعملائها الذين عينتهم له كمساعدين . وكان تحت نفوذ المقرانى ٣٠ قبيلة وباستطاعته تجهيز ٢٥ الف مقاتل .

وكانت القوة الاساسية للثورة تتمثل لا فى الاقطاعيين الذين انحازوا الى جانب المقرانى بل فى الفلاحين والرحل . وفى ٨ نيسان (ابريل) ١٨٧١ تمردت الطريقة الدينية الرحمانية ، التى كان تحت نفوذها ٢٥٠ قبيلة اى حوالى ٦٠٠ الف من الفلاحين والرحل (وذلك ما يقرب من ١/٣ سكان البلاد الاصليين) . واستطاعت الطريقة تجهيز ما يزيد عن ١٠٠ ألف محارب وطاف دعاتها فى القرى والاسواق وبين مضارب العرب الرحل ، داعين اياهم الى الجهاد المقدس ضد المغتصبين .

وبعدما انضمت الطريقة الرحمانية للانتفاضة غدت الجهة الشرقية من الجزائر برمتها مسرحا لحرب تحررية طاغية . وطرح المقرانى خطته على القادة الثوريين فى المجلس الحربى . وهى تتلخّص فى عدم اقصاء الفرنسيين عن الجزائر ، بل الحصول منهم على تنازلات للوجهاء العرب والطغمة الحاكمة فى بلاد القبائل . ولكن هذه الخطة لم تحظ بالقبول ، وتم القرار على خوض النضال من اجل طرد الفرنسيين طردا تاما من الجزائر . ورغم نصيحة المقرانى ، استولى الثوار على حصن برج بو اراريج الفرنسى (فى بلاد القبائل) بعد قصفه . وفى مجرى المواقع اللاحقة التى جرت خلال نيسان (ابريل) وايار (مايو) حرّر الثوار ، وهم يحرزون نصرا اثر آخر ، جميع القسم الشرقى من البلاد تقريبا من ربقة الفرنسيين . وخاض الثوار خلال ١٠ اشهر فقط ٣٤٠ معركة . وقتل المقرانى فى ايار ١٨٧١ فى احدى هذه المعارك وحلّ محلّه اخوه احمد ابو مزراق .

وطالما كانت كمونة باريس تصدّ هجوم قوات الفرساليين ببطولة ، كان يحرز الثوار انتصارا اثر انتصار ، وان مقاومة

الكمونة كانت تحرم حكومة تيير من امكانية ارســـال قوات الى الجزائر . الا ان الوضع تغير بعد ما سحق الفرساليون رجال كمونة باريس ، فانهم زادوا تعداد جيش الاحتلال فى الجزائر حتى بلـــغ ٨٥ ألف جندى . وقبيل تموز (يوليو) ١٨٧١ اندحرت قوى الثوار الرئيسية ، واستسلم لرحمة المنتصرين زعماء الطريقـــة الرحمانية بقيادة الشيخ الحداد . فحرقت الفصـــائـل التنكيليـــة الفرنسية القرى وسرقت الماشية وخرّبت الينابيع وقتلت النساء والاطفال . ومع ذلك واصل الانصار فى بلاد القبائل النضال بشجاعة لمدة نصف عام رغم ان النضال كان غير متكافئ . وبعدما كسرت مقاومتهم تراجع احمد ابو مزراق الى الجنوب ، حيث شنّ آخر المعارك وهو يتراجع . وفى كانون الثانى (يناير) ١٨٧٢ سقطت بؤرتا المقاومة الاخيرتان وهما واحتا تقرت وورقلة وأسر احمد ابو مزراق وقمعت الثورة .

وباستهتار اعترف قادة فرساى بانهــم نكّلــوا بالثـــوار الجزائريين على «الطريقة الباريسية» . وشنق الآلاف من الثوار او سجنوا او نفيوا من البلاد الى كاليدونيا الجديدة للقيام بالاعمال الشاقة .

ودفعت القبائل الثائرة ٣٦ مليون فرنك كغرامة . وانتزع منها ٥٠٠ الف هكتار من اجود اراضيها . ولتفادى مصادرة الاراضى المتبقية لديها توجب عليها ايضا دفع ٢٧ مليون فرنك للمنكّلين .

وكان لدى رجال كمونـــة باريس والفلاحين الجزائريين عدو مشترك ، وهو البرجوازية الفرنسية . وخاضوا فى وقت واحد حربا ضد هذا العدو . الا انهم لم يستطيعوا بعد عقد تحالف فيما بينهم لكى يضمنوا وحدة العمل . بل انهم قاموا بعمليات منفردة مما يسّر للبرجوازية الفرنسية كسر شوكتهم الواحد بعد الاخر .

الجزائر تحت نير الامبريالية الفرنسيـــة . كان سحق ثورة ١٨٧١ نقطة انعطاف شعر الفرنسيون على اثره انهم ذوو مركز وطيد فى البلاد تماما . وكانت انتفاضـــة الوحل فى جبـــل اورس (١٨٧٩) وانتفاضة قبائل اولاد سيدى الشيخ فى غربىّ الجزائر (١٨٨١) الانتفاضتين الاخيرتين فى هذا العهد اللتين ناضل الشعب الجزائرى فيها بقوة السلاح من اجل حريته . وتحت سلطة الجمهورية

الثالثة لم تحدث اية انتفاضة كبيرة فى الجزائر المحطمة والمستعبدة عنوة . وبلغ الاستغلال الاستعمارى والنهب الامبريالى ذروتهما فى البلاد .

وكالسابق ، كانت السياسة الرئيسية للفاتحين نهب الاراضى . ووفق قانون ١٨٧٣ الذى أدخل الى الجزائر التشريع الفرنسى للاراضى ، اصبحت جميع الاراضى العشائرية والمشاعية خاضعة للتقسيم الاجبارى وغدت ملكا خاصا . وطبقا لهذا القانون ، كان باستطاعة اى عضو من اعضاء المشاعية فرز قطعة ارضه عن الملكية الجماعية التابعة للعشيرة والقبيلة . وبعدما حطّم هذا القانون المشاعية يسرّ للمرابين والمعمرين الاثرياء ابتياع الاراضى . ويسّر قانون ١٨٨٧ الى درجة اكبر انتقال ملكية المشاعية الفلاحية الى ايدى المعمرين الاوربيين فانه نصّ على متابعة تقسيم اراضى القبائل بين العشائر والعوائل ، كما سمح للاوربيين بابتياع الاراضى المشاعية حتى قبل فرزها الى ملكية خاصة .

وان جميع هذه التدابير عرّضت الفلاحين العرب الى تعسف المضاربين والمرابين الاوربيين . وفى غضون السبعينيات من القرن التاسع عشر ، استحوذ المعمرون الفرنسيون على ٤٠٠ الف هكتار من الاراضى التى صودرت من العرب ، كما استولوا على ٥٠٠ ألف هكتار خلال الاربعين عاما اللاحقة . واستحوذ الفرنسيون قبيل عام ١٩١٧ على ٥٥٪ من كافة الاراضى المسجّلة فى البلاد . وفى نفس الوقت احتفظ الاستعمار الفرنسى كشأنه دوما بطابع الملكية الكبيرة . وكانت حصّة المعمرين الصغار والمتوسطين ١٠٪ فقط من مجموع الاراضى التابعة للاستيطان . اما التسعون بالمئة الباقية فقد حصل عليها كبار المعمرين وعددهم حوالى ١٠ آلاف شخص . وحتى عام ١٨٧١ تطورت زراعة الكروم تطورا كبيرا وخصّص لها قسم كبير من الاراضى المنتزعة من العرب . فنشأت هنا استثمارات من طراز رأسمالى . وقسّم الجزء الآخر من اراضى المعمرين الى قطع صغيرة أجرت للمحاصصين العرب على اساس نظام الخماسة الاستعبادى .

وادت السياسة الوحشية ، التى انتهجها «الممدّنون» الفرنسيون والرامية الى الاستيلاء على الاراضى ، الى تدمير الاقتصاد الفلاحى العربى . ولقمع القبائل المتمردة ، دمّر الفاتحون الينابيع وحوّلوا الواحات المزدهرة الى صحارى . واستولى المعمرون على احسن المراعى . وأبعدوا الرحل الى الاراضى القاحلة والى البقاع الداخلية من البلاد ذات المناخ القاسى ، ولم يستطع المبعدون العثور على العشب لاطعام قطعانهم التى هلكت من شدة الجوع والعطش ومن الصيف القائظ والشتاء القارس .

واستولت التروستات الفرنسية على مكامن خامات الحديد والفوصفوريت فى جوف ارض الجزائر . وعدنت على نطاق ضيق نسبيا فى بادئ الامر مكامن خامات الحديد التى اكتشفت قبل عام ١٨٧١ . ففى عام ١٨٧٩ استخرج مثلا ٤٣٨ ألف طن من خامات الحديد . ومع ذلك فبعد تأجير المناجم كامتياز لتروست الفلزات شنايدر — كريزو وغيرها من الشركات ازداد استخراج خامات الحديد الى ١٢٣٠ ألف طن قبيل عام ١٩١٣ . وفى عام ١٨٧٣ اكتشفت مكامن الفوصفوريت فى منطقة الحدود الجزائرية التونسية فسيطرت على استغلالها اربع شركات مساهمة فرنسية . وفى ١٩١٣ استخرج ٩٦٧ الف طن من الفوصفوريت وشرع ايضا بتعدين مكامن النحاس والزنك .

وعقب عام ١٨٧١ كانت المرحلة الجديدة فى استغلال الجزائر هى مساهمة الاحتكارات المرتبطة بالبنوك فى فرنسا فى هذا الاستغلال . وهكذا أسست بضعة بنوك فوق ارض الجزائر . واصبحت شركة الجزائر « Compagnie Algérienne » اضخمها فى البلاد . وسيطرت هذه الشركة ايضا على بنك الجزائر للاصدار «Banque d'Algérie» والبنك العقارى الجزائرى «Crédit Foncier d'Algérie» وغيرهما .

وفى السبعينيات من القرن التاسع عشر تقدم مدّ السكك الحديدية بالنظر الى ازدياد طلبات التجارة الخارجية والداخلية وكذلك للاهداف الاستراتيجية الحربية . وفى ١٨٧٠ تمّ مدّ سكة

حديد قسنطينة ـ فيليبفيل ، وفى ١٨٧١ ـ سكة الجزائر ـ وهران ، وفى ١٨٧٥ ـ ثلاث سكك حديدية فى آن واحد وهى : عنابة (بونة) ـ تبسة ، وعنابة (بونة) ـ القالة ، والجزائر ـ قسنطينة . وفى ١٨٨١ مدت سكة حديد وهران التى تتجه الى قلب البلاد نحو الجنوب . وقبيل عام ١٨٨٥ بلغ مجموع طول خطوط السكك الحديدية فى الجزائر ٢٠٣٠ كيلومترا .

وفى التجارة الخارجية لوحظ نفس الاتجاه كما فى سنوات ١٨٣٠ـ١٨٧٠ . وكان نمو التجارة الخارجية خلال اعوام ١٨٧١ ـ ١٩١٤ خير دليل على ازدياد اهمية الجزائر كسوق لتصريف البضائع الفرنسية وكمصدر الخامات لصناعة فرنسا . وتشهد الارقام التالية على استيراد وتصدير الجزائر (المتوسط السنوى ، فى مليون فرنك) :

الاعوام	الواردات	الصادرات
١٨٧١ـ١٨٨٠	١٨٠,٠	١٧٢,٤
١٨٨١ـ١٨٩٠	٢٥٥,٨	١٥٨,٦
١٨٩١ـ١٩٠٠	٢٧٠,٣	٢٥٠,٨
١٩١٤	٥٢٧,٠	٣٧٥,٠

ان البضائع الصناعية كانت تمثل جزءا كبيرا من استيرادات الجزائر من فرنسا . ففى عام ١٨٧٤ مثلا كان نصيب المنسوجات المستوردة ٩٠ مليون فرنك من مجموع ٢٧٠ مليون فرنك اى ثلث استيراد الجزائر من فرنسا ، ونصيب المكائن والمواد المعدنية ٢٢ مليون فرنك وما شابه ذلك . وهكذا تقوضت حتى امكانية تاسيس صناعة تحويل خاصة بالجزائر . وفرض على الجزائر ان تكون ملحقا زراعيا يزود بالخامات اقتصاد فرنسا الرأسمالى .

ومع ذلك فقد اصبح السبيل ممهدا لتكوين ونموّ البروليتارية المحلية بنتيجة شق الطرق وانشاء الموانئ والمنشآت المختلفة الاخرى واللجوء الى العمل الماجور فى الزراعة وفى النقل ، وكذلك بنتيجة انبثاق عدد من المشاريع الصغيرة ذات الاهمية المحلية (وخاصة لتحويل الخامات الزراعية) . وبادئ ذى بدء كانت هذه

الكوادر مقتصرة على الفرنسيين فقط او الاوربيين بالولادة الذين كانوا يؤلفون ، فى السبعينيات من القرن التاسع عشر ، كوادر الطباعة وعمال السكك الحديدية والبنائين وعمال التعدين وما شابه ذلك . ومع ذلك بدى بتشغيل العمال العرب تدريجيا فى اعمال البناء والموانى وكذلك فى الزراعة (وبصورة متأخرة نوعا ما فى صناعة التعدين) . وان انعدام معطيات احصائية دقيقة جعل من الصعوبة بمكان تحديد العدد الاجمالى للطبقة العاملة الجزائرية ما بين العقدين الثامن والعاشر من القرن ذاته . وكل ما يمكن قوله ان هذا العدد كان صغيرا نسبيا .

وفى ذلك العهد لم تكن الطبقة العاملة الجزائرية تلعب بعد دورا محسوسا فى حياة البلاد الاجتماعية السياسية . ويستثنى من ذلك ما حدث فى عام ١٨٧٠ عندما أسهم العمال الفرنسيون مساهمة فعالة فى حركة الكمونة الجزائرية ، وفى عام ١٨٧١ عندما قاتل عمال الزراعة العرب فى صفوف المحاربين للثورة الوطنية التحررية الجزائرية . ولمدة طويلة لم تكن فى الجزائر منظمات عمالية . اذ انها انبثقت فى وقت لاحق بعد ان تشكلت فى فرنسا ، وكانت مؤلفة فى الاساس من الفرنسيين . وكقاعدة عامة ، تبنّت هذه المنظمات اتجاه الرعاية والاندماج بفرنسا تجاه العرب والبربر . ولم تلد الحركة العمالية فى الجزائر كعامل هام فى تطوير المجتمع فى الحقيقة الا عقب ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا .

وحالت الفروق الهامة القائمة بين العمال الفرنسيين والجزائريين دون توحيد الطبقة العاملة فى الجزائر . اذ كان معظم الجزائريين لا يجيدون الفرنسية ، الامر الذى كان نفسه حائلا دون تكوين اتصالات مع العمال الاوربيين . ويجب ان نضيف الى ذلك الوضع الممتاز الذى كان يتمتع به العمال الاوربيون . اذ انهم كانوا يتقاضون رواتب اعلى وينجزون اعمالا اسهل و«انظف» من العمال الجزائريين . واخيرا ، فانهم كانوا يتمتعون بحقوق سياسية لم يكن يتمتع بها العمال الجزائريون . وكانت الادارة الفرنسية الاستعمارية والبرجوازية الفرنسية المحلية تسعيان دوما الى

استغلال جميع هذه الظروف لخلق التعارض بين العمال الجزائريين والفرنسيين ولاحداث انشقاق فى صفوف البروليتارية فى الجزائر .

وكانت سياسة فرنسا الاستعمارية فى الجزائر مستندة الى الاقلية الفرنسية الممتازة والى استعباد غالبية العرب والبربر المحرومين من الحقوق . وكان جميع سكان البلاد منقسمين الى «مواطنين» (الفرنسيين) و«رعايا» (الجزائريين) . وكان «المواطنون» يختارون مندوبيهم الى البرلمان الفرنسى والبلديات ، وابتداء من عام ۱۸۹۸ الى ما يعرف بالمندوبيات المالية ــ وهى نوع خاص لهيئات الحكم الذاتى التى تنظر فى ميزانية الجزائر المحلية . وكانت تتألف واحدة من هذه المندوبيات من المعمرين الفرنسيين واخرى من الفرنسيين غير المعمرين وثالثة (وهى اقل عددا وغالبا ما ، كان اعضاؤها يعينون من قبل الحاكم العام) من رؤساء الاقطاعيين المحليين ، الذين كانوا آلة طيعة بيد المستعمرين . واستلم كثرة من هؤلاء الاقطاعيين الجنسية الفرنسية والرتب والاوسمة كمكافاة لخيانتهم لمصالح شعبهم الوطنية .

واما «الرعايا» فكانوا محرومين من الحقوق الانتخابية وكان عليهم ان يقبلوا دون اعتراض تعسف الموظفين والضباط الفرنسيين . وكان «المواطنون» الفرنسيون يدفعون نفس ما يدفعونه من الضرائب فى فرنسا ، بينما فرضت على الرعايا اتاوة استعمارية باهضة . وكان «المواطنون» يحاكمون وفق القوانين الفرنسية ، بينما أعد للرعايا «قانون السكان الاصليين» . وكان باستطاعة السلطات الاستعمارية القاء الرعايا فى السجن دون محاكمة او جلدهم او ابعادهم الى اماكن نائية فى الصحراء او مصادرة اموالهم . وكان «الرعايا» محرومين من حق اصدار الصحف باللغة الوطنية او تأليف احزاب سياسية او نقابات خاصة بهم ، او الاجتماع دون موافقة السلطات . وعند اى خرق للقوانين التى سنها الفرنسيون ، كانت تفرض غرامة جماعية على قرى كاملة او قبائل او مناطق باسرها . وبصورة خاصة كان وضع «الرعايا» صعبا فى القسم الجنوبى من البلاد الذى بقى تحت حكم وزارة الحربية وتحكمت فيه الطغمة العسكرية الفرنسية . وكانت

«المكاتب العربية» التي يترأسها ضباط «الشؤون المحلية» تراقب حياة «الرعايا» في هذا الجزء من البلاد مراقبة كلية وتامة .

مطاليب العرب الجزائريين . خاض سكان الجزائر الاصليون كرد فعل على نهب الاراضي والاستغلال الصارم والتعسف الاستعماري ، نضالا حازما من اجل القضاء على «قانون السكان الاصليين» المخجل ومن اجل اشاعة الديموقراطية في النظام السياسي الجزائري . واستغرق هذا النضال طيلة الربع الاخير من القرن التاسع عشر وامتدّ الى القرن العشرين .

وانبثقت في الجزائر اولى المنظمات القومية في مستهلّ القرن العشرين بالنظر الى النهوض العام للحركات التحررية البرجوازية الديموقراطية في الشرق في عهد يقظة آسيا . ومع ذلك كانت هذه المنظمات محرومة تقريبا من الركائز التي تسندها بين الجماهير . ومردّ ذلك لا ضعف الطبقة العاملة فحسب ، بل وايضا هزال البرجوازية الوطنية ، التي لم تتطور الا قبيل ذلك الوقت والتي قصرت نطاق عملها على التجارة وحدها تقريبا . وتم صهر اكثرية المثقفين المحليين ممن كانوا على صلة بالبرجوازية صهرا تاما تقريبا او انهم على كل حال تفرنجوا الى درجة كبيرة . وان جميع هذه الاوضاع تفسر لنا حقيقة ان اولى المنظمات الوطنية في الجزائر لم تضع نصب اعينها مهمة النضال من اجل الاستقلال . وانها لم تطالب الا بالمساواة في الحقوق بين العرب الجزائريين والفرنسيين وبالقضاء على «قانون السكان الاصليين» ومنح الجزائريين حقوق المواطنين الفرنسيين او على الاكثر بالحكم الذاتي للجزائر وتاليف حكومة ذاتية محلّية يتمثل فيها على نطاق واسع السكان الاصليون .

وكانت حركة «المسلمين المتفرنسين» تتسم بشدة الاعتدال . وكان «المسلمون المتفرنسون» يجيدون اللغة الفرنسية وقد حصلوا على ثقافة فرنسية وبذلوا اقصى جهودهم للحصول على حقوق متساوية مع الفرنسيين ضمن اطار امبراطورية فرنسا الكولونيالية . وكونوا «الاتحاد الفرنسي-الجزائري» واتحادات اخرى كان ينقصها جميعا الشكل التنظيمي الدقيق . وبالعكس كانت مطاليب الاتحاد المغربي ولجنة تحرير

الجزائر وتونس اشد حزما . ولقد بذلا اقصى جهودهما من اجل ان تحصل الجزائر على الحكم الذاتى وذلك باسم الامة المغربية التى اعتبروا انها متكونة . وكانت هنالك جماعة صغيرة ايضا من الاقطاعيين الذين علّقوا آمالهم على السلطان التركى . وفى وسط هذه العناصر ، اتسعت الدعاية للجامعة الاسلامية الا انهـا لم تلاق استجابة جدية لدى الجماهير .

وفى ١٩١٢ حدثت فى الجزائر حركات منفردة ضد النظـام الكولونيالى . وكانت هذه الحركات فى الاساس عبارة عن احتجاجات صحفية وعدم الطاعة السلبى للسلطات . وعلى هذا فلم يكـن باستطاعتهـا زعزعة سيطرة فرنسـاً على الجزائـر او احداث اى تغيير جذرى فيهـا ، وذلك نظرا الى الطابـع الارستقراطى والافق الضيق التى اتّسمت به هذه الحركات .

الفصل الواحد والعشرون

استيلاء الامبريالية الفرنسية على تونس

مطامع ايطاليـــا . كانت تونس اول قطر عربى تحوّل الى مستعمرة فى عصر الاستعمار . وقد استولت عليها فرنسا فى ١٨٨١ اى قبل فتح الانكليز لمصر بعام واحد . ومع ذلك مهّدت البرجوازية الفرنسية السبيل للاستيلاء على تونس تدريجيـا فى غمرة الصراع العنيف الذى خاضته عبر عشرات السنين ضد مزاحميهـا فى النهب الاستعمارى . ولمدة طويلة كانت انكلترا منافسها الرئيسى . ومع ذلك ظهر على المسرح التونسى فى السبعينيات من القرن التاسع عشر منافس آخر ، وهو ايطاليا .

ولم تكد تتكون ايطاليا كدولة وطنية ، حتى أخذت تتحول الى دولة امبريالية ذات مطامع استعمارية قوية . وحسب تعبير بيسمارك ، كانت مطامع ايطاليا اشبـــه بمطامع ابن آوى الا ان اسنانها كانت منخورة او انها كانت اشبه بحيوان مفترس صغير وهزيل زاحمته فى كل مكان الحيوانات الاخرى الاقوى منه . ومع ذلك فانها نالت فى تونس نجاحا ملحوظا بفضـل مساندة انكلترا لها . اذ أفلح الايطاليون فى الحصـول على امتيـــازات لاستخراج الرصاص من جبل الرصاص وانتزعوا امتيـــاز التلغراف من ايدى الفرنسيين وابتاعوا امتياز سكة حديد تونس ــ فم الواد (غوليت) من الانكليز . وكانت السبعينيات من القرن التاسع عشر فاتحـــة الاستعمار الايطالى لتونس وتكوين الدساكر الزراعية فيها ايضا .

وفى ١٨٧١ حاولت ايطاليا ، مستغلّة فشل فرنسا فى حربها ضد بروسيا ، ربط تونس بمعاهدة تمنح المقيمين الايطاليين فى

تونس امتيازات خاصة . وعندما قرّر الباى المقاومة ، اخذ الايطاليون يتاهبون لتجريد حملة عسكرية بحرية على تونس ، ولولا تدخل انكلترا وفرنسا وتركيا تدخلا دبلوماسيا مشتركا لما انصاعت ايطاليا وعدلت موقتا عن خططها .

التهيؤ للاستيلاء على تونس . احتفظت فرنسا بتونس لنفسها وهى تقاوم المطامع الايطالية . وفى غمرة التنافس العنيف ، استولى الرأسماليون الفرنسيون على الاراضى التونسية وحصلوا على امتيازات . هكذا حصلوا على امتيازات لمدّ سكة حديدية تمتد من مدينة تونس الى تخوم الجزائر وانشاء مرفأ فى نفس المدينة ، ولاستخراج الرصاص وغيرها من الامتيازات . وابتاعت شركة مرسيليا «Société Marseillaise» عقارات «انفدا» الضخمة التى تبلغ مساحتها حوالى ٩٠ ألف هكتار ، او ٩٠٠ كيلومتر مربع ، وعزمت على تحويلها الى قاعدة فرنسية فى داخل تونس .

وطالب الرأسماليون الفرنسيون باصرار تحويل تونس كليا من شبه مستعمرة الى مستعمرة فرنسية . وقد أثيرت الناحية العملية لقضية ضمّ تونس الى فرنسا فى مؤتمر برلين الذى انعقد فى ١٨٧٨ حيث قامت الدول الكبرى بتقسيم الامبراطورية العثمانية فى الحقيقة بينما طالبت فرنسا هى الاخرى بحصتها .

ووافقت فرنسا على الاعتراف باستيلاء انكلترا على قبرص ، والنمسا على البوسنة والهرسك ، وكذلك بتوسع روسيا فى البلقان شريطة ان تحصل على تعويض مناسب . ورغم ان معاهدة برلين لم تحتو على نصّ صريح فلقد حصلت فرنسا من الدول على رخصة غير رسمية للاستيلاء على تونس . واعلن بيسمارك وهو يخاطب وادنغتون ــ ممثل فرنسا : «أينع الثمر ، وما عليكم الا قطافه» . وقد شجعت المانيا بنوع خاص التوسع الفرنسى فى تونس ، لان بيسمارك اعتبره بمثابة ربح مزدوج لالمانيا . فاولا ــ صرف هذا التوسع فرنسا عن خططها الانتقامية فى اوربا . وكذلك اصبحت فرنسا مضطرة الى التخلّى عن اعداد العدة للحرب الاوربية . وثانيا ــ ان اصطدام الفرنسيين مع انكلترا وايطاليا على التربة الافريقية هو لصالح بيسمارك . فطالما بقيت فرنسا فى وضع معاد

لانكلترا ، لم يكن فى وسعها خوض حرب فى اوربا ، وكانت ايطاليا المستاءة مضطرة الى طلب المعونة من المانيا والنمسا-المجر .

ومع ذلك فلقد كفت انكلترا ، منذ عام ١٨٧٨ عن الاعتراض على التوسع الفرنسي فى تونس . واعلن سالسبوري بانه ليس لدى انكلترا اى مصلحة خاصة فى تونس تجعلها تنظر بعين القلق او الاستياء من توسع فرنسا المتزايد والمشروع . وكانت انكلترا فى تلك الآونة تستعد للاستيلاء على مصر ، وقد حسبت الحساب للتعويض على كل حال عن تونس باستيلائها على قبرص ومصر .

وتبين بان تركيا وايطاليا كانتا الخصمين الوحيدين لفرنسا فى تونس ، الا انه فى استطاعة فرنسا عدم الاهتمام بهما .

اقرار الحماية الفرنسية . لم يتحقق الاستيلاء المباشر على تونس الا بعد انصرام ثلاث سنوات على انعقاد مؤتمر برلين ، اى فى ١٨٨١ وذلك باستغلال فرنسا كالعادة الاستفزاز الذى جرى فى حادث الحدود . فزحفت بقواتها نحو تونس بدعوى احلال الامن . وفى ١٢ نيسان (ابريل) ١٨٨١ عبر الجيش الفرنسى الحدود الجزائرية التونسية . وكان قوامه ٣٠ ألف جندى . وبعد مرور بضعة ايام أنزل ٨ آلاف جندى الى بنزرت ، ثم زحف سراعا نحو العاصمة . وفى ١٢ ايار (مايو) طوّقت هذه القوات الفرنسية قصر سعيد مقر باى تونس الواقع فى باردو وهى احدى ضواحى مدينة تونس ، واجبرت الباى على توقيع معاهدة قصر سعيد او باردو نسبة لاسم الموضع الذى تم فيه توقيعها .

ولم يرد فى المعاهدة اشارة الى كلمة «حماية» الا انها كانت فى الواقع معاهدة استعباد استعمارى للبلاد . ووافق الباى بموجبها على احتلال القوات الفرنسية لتونس بدعوى «اعادة النظام والامن الى حدودها وسواحلها» . واتخذت فرنسا على عاتقها مهمة ممارسة العلاقات الخارجية التونسية وضمان تنفيذ الاتفاقيات التى ابرمت بين الحكومة التونسية والدول الاوربية . وحصلت فرنسا على حقّ تنظيم شؤون البلاد المالية ، مؤمنة دفع دين الدولة وضامنة حقوق دائنى تونس . ولمراقبة تطبيق المعاهدة ، عينت فرنسا وزيرا-

مقيما اصبح الوسيط الوحيد بين الحكومة الفرنسية والسلطات التونسية . واخيرا ، تعهدت فرنسا بتقديم المعونة الى باى تونس فى حالة حدوث خطر يهدده هو شخصيا او اسرته الحاكمة .

واعترفت جميع الدول باستيلاء فرنسا على تونس ما خلا تركيا وايطاليا فقد احتجتا على ذلك رغم ان احتجاجهما لم يجد فتيلا . واعلن الاتراك بان الباى التونسى هو مجرّد موظف تركى وعلى هذا فانه غير مخوّل لعقد معاهدات دولية . واعتبر السلطان التركى نفسه مالكا لتونس حتى الحرب العالمية الاولى ، ولم يتخلّ عن حقوقه فيها الا بعد انتهاء الحرب على اساس ابرام اتفاقيات دولية قانونية .

وفى الواقع كان الشعب التونسى الجهة الوحيدة التى قاومت الفاتحين الفرنسيين مقاومة فعلية . فانه انتفض على اثر ابرام معاهدة باردو . فاضطر الفرنسيون الى الاستيلاء على البلاد شبرا شبرا ، واستغرق ذلك وقتا طويلا . ولم يكن لدى الثوار اى منظمة سياسية معينة . وكان يقودهم ممثلو الطرائق الدينية ، التى خاضت النضال تحت شعارات القرون الوسطى المتمثلة فى الجهاد المقدس . واستغرقت الانتفاضة بضعة اشهر . وفى ١٥ تموز (يوليو) ١٨٨١ ، اى بعد قصف دام عشرة ايام ، استولى الفرنسيون على صفاقس . وفى تشرين الاول (اكتوبر) احتلّوا القيروان ، وفى ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) اخذوا قفصة . ولم يكن باستطاعة الفرنسيين قمع الانتفاضة واحتلال البلاد برمتها الا فى ٣٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨١ ، اى بعدما احتلوا قابس .

وبعد ما فتح الفرنسيون تونس ، شرعوا بتاسيس جهاز الدولة الاستعمارية ووضع كيانه الحقوقى . وكان على هذا الجهاز ان يضمن سيطرة الرأسمال الاحتكارى الفرنسى على البلاد . وتطويرا لمعاهدة باردو ، وقّع الباى فى ٩ حزيران (يونيو) ١٨٨١ مرسوما اعتبر «ممثل فرنسا الوسيط الوحيد الرسمى لممارسة العلاقات المتبادلة بين تونس والدول الاخرى» . وبهذه الصورة تخلّى الباى التونسى رسميا وكليا عن استقلاله فى الشؤون الخارجية . فى ٨ حزيران (يونيو) ١٨٨٣ عقدت فى المرسى اتفاقية فرنسية-تونسية

سلبت الباى من استقلال فى الشؤون الداخلية ايضا . ولاول مرة سجلت كلمة «محمية» بالمداد فى هذه الاتفاقية . وعززت اتفاقية المرسى معاهدة باردو لعام ١٨٨١ ، وألزمت الباى بـ «الشروع بتحقيق الاصلاحات الادارية والقانونية والمالية التى ترتأى الحكومة الفرنسية بانها مجدية» . وحدّد فى المعاهدة مبلغ الدين الاساسى بمقدار ١٢٥ مليون فرنك والدين الجارى بمقدار ١٧ مليون فرنك . واتخذت فرنسا على عاتقها الاهتمام بتلبية مطاليب الدائنين . وفى ٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٤ حُلّت اللجنة المالية الدولية وانتقلت جميع شؤون تونس المالية الى المقيم العام الفرنسى ووضعت تحت تصرفه . واخيرا فوّض المقيم العام ، طبقا لمرسوم رئيس الجمهورية الفرنسية المؤرخ فى ١٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨٤ ، لاقرار وتطبيق «جميع المراسيم الصادرة من سموّ الباى» . وفى ٢٣ حزيران (يونيو) ١٨٨٥ قلّد المقيم العام بـ «سلطة الجمهورية المطلقة التامة» ضمن الحدود التونسية . ووضعت تحت تصرفه قوى فرنسا البرية والبحرية المرابطة فى تونس ، وكذلك جميع الهيئات الادارية التى تشرف سواء على السكان الاوربيين او التونسيين المحليين .

ومارس المقيم العام سلطته فى الاقاليم التونسية عن طريق المراقبين المدنيين الفرنسيين الذين قد تم تعيينهم فى ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٤ . وكان المراقبون المدنيون خاضعين للمقيم العام الذى من صلاحيته تعيينهم او عزلهم . وجزّئت جميع البلاد ، باستثناء الاراضى الجنوبية الموضوعة تحت سلطة الطغمة العسكرية الفرنسية المباشرة ، الى ١٣ منطقة من مناطق الرقابة المدنية . وكانت كل منطقة مؤلفة من قاعدة * واحدة او بضع قواعد ، وترأس كلا منها موظف تونسى محلى عينه الباى استنادا الى اوامر السلطات الفرنسية . وكان يخضع هؤلاء الموظفون شكليا الى حكومة الباى ، ولكنهم كانوا يعتمدون فى الواقع اعتمادا تاما على المراقبين المدنيين الفرنسيين . ووفقا للمنشور الصادر فى ٢٢ تموز (يوليو)

---

* وحدة للتقسيم الادارى للاراضى . ـــ المؤلف .

١٨٨٧ ، كان لهؤلاء المراقبين الحق في «مراقبة أعمال الرؤساء المحليين الادارية واعطائهم الاوامر المكتوبة او الشفهية» .

وهكذا فعن طريق سلسلة من المراسيم الصادرة في السنوات الاولى من الحماية ، تأسس البناء الفوقي الحقوقي للدولة الاستعمارية الذي أمّن دكتاتورية الاحتكارات الفرنسية وخدم مصالحها . وفي الواقع اناط هذا النظام بالمقيم العام الفرنسي سلطة مطلقة يتمتع بها . ورغم انه لم يقض على الدولة الاقطاعية التونسية (وهذا ما يميز نظام الحماية من المستعمرات الاعتيادية) فانها تحوّلت الى جهاز اضافي للسلطة الاجنبية ترأسه المقيم العام الفرنسي . وكان تحت امرته رؤساء فرنسيون ذوو سلطة مطلقة ويديرون فروعا مستقلة من ادارة الدولة . وبقي الباي متربعا على عرشه الا انه لم يحكم . اذ لم يكن له الحق في نشر اي مرسوم او تصميمه دون موافقة المقيم العام الفرنسي . وبالطبع ، احتفظ بوزيرين هما الوزير الاول ووزير القلم وببعض الدواوين ، الا انها كانت جميعا تحت رقابة المستشارين الفرنسيين . ووضعت جميع مداخيل الدولة تحت تصرف المقيم العام الفرنسي . وكان الباي يتقاضى سنويا ١٢٥٠ الف فرنك تنفق على اسرته والقصر والحكومة ــ وهي مكافأة لغدره وخيانته لمصالح البلاد الوطنية .

ايطاليا والحماية الفرنسية . استولت فرنسا على تونس رغم الاحتجاجات العنيفة غير المثمرة التي قدمتها ايطاليا . وبصرف النظر عن كل شيء ، واصلت حكومة ايطاليا بثّ عملائها في تونس وتشجيع الاستعمار الايطالي ولم تكن تنوي التخلّي عن مطامعها . وقدم التجار والمزارعون الايطاليون الى تونس وظهرت الشركات وجمعيات الاراضي الايطالية . وبدافع الحاجة ، استوطن الكثيرون من الايطاليين في تونس بحثا وراء العمل ، واسسوا هناك مستعمرة ايطالية تطورت بصورة سريعة .

وفي صعيد السياسة الخارجية ، عقدت ايطاليا عددا من المعاهدات والاتفاقيات الموجهة ضد فرنسا وتوسعها الاستعماري في شمالي افريقيا . وكردّ فعل لتوطيد الحماية الفرنسية على تونس ، وقّعت ايطاليا في ٢٠ ايار (مايو) ١٨٨٢ معاهدة

التحالف الثلاثى مع المانيا والنمسا-المجر . وفى ١٨٨٧ و١٨٩١ أبرمت اتفاقية مدريد مع اسبانيا موجهة ضد مطاليب الفرنسيين فى المغرب وانضمت الى هذه الاتفاقية النمسا-المجر .

ومع ذلك شرعت ايطاليا فى اواخر القرن التاسع عشر باعادة النظر فى سياستها الخارجية واخذت تساوم فرنسا بصدد القضايا الاستعمارية . وفى ١٨٩٦ اعترفت بالحماية الفرنسية على تونس ، لقاء حصولها على عدد من التنازلات . ووفقا لاتفاقية ١٨٩٦ ، اعترفت فرنسا بالوضع الخاص للمقيمين الايطاليين فى تونس . وحصل الايطاليون على حق الاقامة فى البلاد بصورة حرّة وابتياع الاراضى والاموال غير المنقولة الاخرى وتأسيس المدارس والمستشفيات الخاصة بهم .

وكان تفوق الايطاليين العددى والمراكز الهامة التى يشغلونها مصدر قلق متواصل للمستعمرين الفرنسيين . فعمل الاخيرون كل ما فى وسعهم للحدّ من الهجرة الايطالية بطريقة ما وصهر المهاجرين الايطاليين . ومع ذلك لوحظت حتى ١٩٣١ ارجحية متواصلة ثابتة للسكان الايطاليين على الفرنسيين فى تونس ، وهو ظرف استغلّته الدعاية والدبلوماسية القومية الايطالية على نطاق واسع .

تونس تحت نير الامبريالية الفرنسية . ان توطيد الحماية الفرنسية مهّد السبيل لاستغلال الشعب التونسى استغلالا تاما وسلب ثروات البلاد الطبيعية من قبل المحتكرين الفرنسيين . اذ هرع الى تونس مختلف انواع الهواة المولعين بالكسب بلا عناء . واستولوا على الاراضى والامتيازات والمقاولات .

وعلى غرار ما حصل فى الجزائر ، جرى نهب الاراضى فى تونس على نطاق واسع الا انه سار بوتائر اسرع . وعملت السلطات الاستعمارية كل ما فى وسعها لتشجيع وحتى لتنظيم الاستيطان الفرنسى . وفى اولى سنوات الحماية سنت جملة من المراسيم التى ضمنت انتزاع ملكية الاراضى العربية على نحو شامل . ومنذ اول تموز (يوليو) ١٨٨٥ صدر قانون الاراضى الذى فرض تسجيل الارض وفقا لنظام تورنس . ويتلخّص هذا النظام فى قيام محكمة الاراضى الخاصة بالتحقيق علنا فى حقوق ملكية الارض

وفى تسجيل الاراضى مع الغاء الحقوق التى اعترف ببطلانها . وفتح قانون تسجيل الاراضى بابا واسعا لاضفاء صيغة شرعية على اغتصاب الاراضى ولـ«حماية» حقوق المستملكين المستعمرين الفرنسيين من مطاليب الملاكين السابقين . وطبق التشريع الفرنسى للارض على الاملاك المسجّلة . وعن رضى أقرضت البنوك هؤلاء الملاكين الفرنسيين برهونة الاراضى المسجلة .

واستحوذ الفرنسيون على معظم الاراضى بطريقة خاصة وبدون معونة مباشرة من السلطات (اى «استعمار خاص») . واستثنيت من التداول اراضى القبائل المشاعية ، وخاصة اراضى الاوقاف (الحبوسات) المكرسة للاغراض الدينية والخيرية والتى تعتبر ملكية لا تصادر وبالتالى ليس فى الامكان نقلها الى ملاكين جدد . ومن اجل تصفية هذا الوضع وتيسير استيلاء الفرنسيين على اى ارض يستهوونها ، اباح تشريع الحماية (اى مراسيم اعوام ١٨٨٥ ، ١٨٩٨ ، ١٩٠٥) الايجار الطويل الامد لاراضى الاوقاف او استبدالها وابتياعها . وهكذا حصل المستعمرون الفرنسيون على امكانية تامة لابتياع اراضى الاوقاف رغم انه لم تلغ ملكية الاوقاف .

وفى ١٨٩٢ باشرت حكومة الحماية بما يعرف بالاستعمار الرسمى الذى قد طبّق فى الجزائر ايضا . ويمكن وصفه باعادة توزيع ملكية الارض بصورة مزدوجة . اذ قامت السلطات الاستعمارية باديُ ذى بدء بمصادرة الاراضى من اصحابها العرب وحصرها فى يدها وثم باعتها باثمان بخسة للمستعمرين الفرنسيين . وفى ١٨٩٧ تكوّن صندوق استعمارى خاص لابتياع الارض تلبية لحاجات الاستعمار . وفى ١٨٩٨ ألزمت ادارة الاوقاف العامة بتخصيص الفى هكتار من الاراضى «تتكون من قطع كبيرة الحجم وصالحة للزراعة» لوضعها تحت تصرف الدولة سنويا . واخيرا ، صفت مراسيم ١٨٩٠ ، ١٨٩٦ ، ١٩٠٣ الخاصة بالغابات «والاراضى الموات» ، ملكية اراضى القبائل الجماعية ، غير معترفة بحقوق القبائل التونسية بالملكية على اراضيها المشاعية . واصبح البدو الرحل وشبه الرحل التونسيون اصحاب حق الانتفاع فى

اراضيهم السابقة لا غير . وهكذا صودرت طائفة من الاراضى المشاعية بدعوى كونها «اراض فائضة» وقد حوّلت الى الصندوق الاستعمارى .

واثرت حفنة من اصحاب العمل والمضاربين الفرنسيين اثراء لم يسبق له مثيل عن طريق مصادرة الاراضى بالجملة وفق «الاسلوب الجزائرى» وبيعها على حساب خراب الفلاحين التونسيين وتجريدهم من اراضيهم . ونمت ملكية الاراضى الفرنسية فى تونس من ١٠٧ آلاف هكتار فى عام ١٨٨١ الى ٤٤٣ الف هكتار فى ١٨٩٢ و٨٨٢ الف هكتار فى ١٩١٢ . وفضلا عن ذلك امتلك الايطاليون وغيرهم من الاوربيين ١٣٥ ألف هكتار فى عام ١٩١٢ . وخلافا للجزائر ، لم يكن يوجد فى تونس معمرون صغار ، باستثناء الايطاليين الذين امتلكوا ، كقاعدة عامة ، مزارع صغيرة . وحمل الاستعمار الفرنسى طابع المضاربة بجلاء . وقال جان جوريس فى وصفه الاستعمار الفرنسى : «هكتارات كثيرة واناس قليلون» . وابتاع المعمرون الفرنسيون وشركات المساهمة ضياعا هائلة ثم باعوها الى مستعمرين آخرين أو حتّى الى تونسيين. واتضح بان قطعا كبيرة من الارض كانت فى ايدى شركات رأسمالية كالشركة الفرنسية-الافريقية «Société Franco-Africaine» وشركة الفوصفات وسكة حديد قفصة «Compagnie de Phosphate et Chemin de Fer de Gafsa» وشركة الايجار الفرنسية «Société de Ferme Française» والاتحاد العقارى التونسى «Omniom Immobiliere Tunisienne» وكان بين المعمرين صيارفة ورأسماليون واصحاب امتيازات باريسيون ممن لم يروا تونس فى حياتهم ، وادارو شؤون ضياعهم عن طريق وكلائهم او اشخاص صوريين . وابتاع ضياعا هائلة الجنرالات ممن اسهموا فى فتح تونس والدبلوماسيون الذين لعبوا دورا فى توطيد الحماية عليها . وكان يكفى بان تفضح صحيفة برجوازية أو أخرى هذا النظام حتى تعطى لمحررها ضيعة فى تونس ليكف عن الكلام . كما كان يكفى بان يطالب عضو من مجلس النواب او الشيوخ بالتحقيق فى الاستهتار الذى حصل فى تونس حتى يقتنى ايضا

اعضاء لجنة التحقيق البرلمانية الضياع ويعترفون بالطبع بان كل شيء سائر على ما يرام وبان هذه الادعاءات باطلة . وبهذا الشكل حصل الكثيرون من رجال السياسة البرجوازيين واعضاء مجلس النواب والشيوخ ومحررو الصحف على ضياع كبيرة فى تونس .

وعلى هذا النمط من الاستعمار أجّرت معظم اراضى المعمرين الى كبار المستاجرين التونسيين الذين دبروا شؤون استثماراتهم حسب الاساليب الاقطاعية التقليدية . وطبّقت بصورة واسعة اشكال عديدة من الاستغلال كالخماسة والمناصفة والمغارسة على اراضى المعمرين وكذلك فى ضياع الاقطاعيين التونسيين . وتطورت بمنتهى البطء علاقات الانتاج الرأسمالى . وبالطبع ، حاول معمرون منفردون تنظيم المزارع باللجوء الى العمل الماجور فى انتاج الحبوب والمحاصيل الزراعية الاخرى . الا ان هذه المزارع لم تتطور تطورا كبيرا حتى الحرب العالمية الاولى باستثناء مزارع الكروم وصناعة الخمور . واستغلّ فى صناعة الخمور العمل الماجور للعمال المهاجرين وخاصة الايطاليين . وفى ١٩١٣ كوّنت مساحة مزارع الكروم ١٧٩٤٢ هكتارا ، اما انتاج النبيذ فبلغ حوالى ٣٠ مليون لتر .

وبعد الاستيلاء على تونس ، حوّلت الاحتكارات الفرنسية البلاد الى سوق لتصريف بضائع الصناعة الفرنسية ومصدر لتزويدها بالخامات . وأنزل تدفق البضائع الفرنسية ضربة ممضة بالانتاج الحرفى التونسى . وتقلّص عدد الحرفيين فى مدينة تونس خلال الاعوام الخمسة والعشرين الاولى من الحماية من ٦ او ٧ آلاف حرفى الى ألفين . وان فرع الصناعة التونسية الوحيد الذى تطور تطورا عارما فى سنوات الحماية ، هو صناعة التعدين . ففى الاعوام الاولى للاحتلال بدأ تصدير خامات الرصاص . وفى ١٨٩٩ بدأت شركة الفوصفات وسكة حديد قفصة بالاستغلال الصناعى لمناجم الفوصفات التى اكتشفها توما فى ١٨٨٥ . وفى ١٩٠٨ شرع باستخراج وتصدير خامات الحديد .

وقامت بضع شركات فرنسية ذات صلة وثيقة بالرأسمال الاحتكارى فى المتروبول بتحقيق جميع مستخرجات الخامات

والفوصفات . وكذلك قام الالمان والايطاليون والبلجيكيون بتوظيفات رساميل كبيرة نسبيا . اما البرجوازية الوطنية ، فانها لم تسهم اطلاقا فى استغلال ثروات البلاد المعدنية . اذ انها ازيحت الى الوراء لضعفها من الناحية المالية والتكنيكية . وكان يعود اليها معظم المشاريع الصغيرة وخاصة معالجة الخامات الزراعية .

وبالنظر الى متطلبات الاستعمار وصناعة التعدين فى تونس تقدّم مدّ السكك الحديدية . ففى فترة قصيرة من الوقت نسبيا ، نما طول خطوط السكك الحديدية التونسية من ٢٢٤ كيلومترا فى ١٨٨١ الى ١٣٧٥ كيلومترا فى ١٩٠٩ . وبالاضافة الى ذلك أنشئت الموانئ وعبّدت الطرق العامة .

وان النمو التدريجي للاقتصاد الزراعى التابع للمعمرين ومدّ السكك الحديدية وانشاء الموانئ وتطور صناعة التعدين والمواصلات ، كانت كلها عوامل مهدت الى نشوء وتكوين الطبقة العاملة التونسية التى كانت ظروف حياتها وعملها فى غاية الصعوبة . اذ كان التشريع العمالى معدوما . وقد سيطر على كافة المشاريع تقريبا تنظيم عمل استعمارى نموذجي . وكان العمال والمستخدمون الاجانب يستلمون «علاوات كولونيالية» ويتمتعون بعدد من الامتيازات التى جعلتهم فى وضع ممتاز بالنسبة للعمال المحليين . ولم تكن لدى العمال التونسيين اية منظمة نقابية . وكانوا تحت تأثير البرجوازية الوطنية من الناحية السياسية وساندوا مطاليبها الموجهة ضد الامبريالية .

وكان سكان تونس الاصليون محرومين من الحقوق حرمانا تاما . واحتل الفرنسيون جميع المناصب الهامة نوعا ما فى جهاز الدولة . وطغى فى البلاد التعسف الاستعمارى البيروقراطى والتعصب العنصرى والاضطهاد القومي . وفقد دستور ١٨٦١ كل قيمته ولم يوضع مجددا موضع التنفيذ . وانتهكت الادارة الاستعمارية بفظاظة حقوق التونسيين السياسية والمدنية . وللتخويف بالعقاب الصارم ، صدر مرسوم الصحافة والمطبوعات فى ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٤ وحرّم على الصحف نقد «سموّ الباى وامراء اسرته الحاكمة والطقوس الدينية» كما منعها من انتقاد «حقوق

وسلطة الجمهورية الفرنسية فى تونس» . واقر مرسوم ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٨٨٨ بانه «لا يمكن تاليف اية جمعية الا بموافقة الحكومة» . ووفقا لمرسوم ١٣ آذار (مارس) ١٩٠٥ ، كان من الممكن عقد الاجتماعات «بحرية» على شرط ان «لا تستهدف مناقشة القضايا السياسية او الدينية» .

ولمدة طويلة لم تكن فى تونس مؤسسة تمثل الشعب ، سوى المؤتمر الاستشارى الذى تاسس فى١٨٩١ ، وهو هيئة تمثيلية للسكان الفرنسيين القاطنين فى تونس . ويتالف من ممثلى المنظمات الاقتصادية الفرنسية (غرف التجارة والزراعة) . وكانت الحكومة تعين قسما منهم ، بينما كان ينتخب القسم الاخر . ولم يمتلك حق التصويت فى الانتخابات للمؤتمر الاستشارى الا المعمرون الفرنسيون . وفى ١٩٠٧ أدخل فى قوامه ١٦ مندوبا تونسيا تعينهم حكومة المحمية . وعلى غرار «المفوضيات المالية» الجزائرية ، جزّئ المؤتمر الاستشارى فى ١٩١٠ الى جزئين : القسم الفرنسى والقسم التونسى .

الحركة الوطنية التحررية . حزب «تونس الفتاة» . اثار الاستعمار والاضطهاد القومى والحرمان من الحقوق السياسية موجة استياء واسعة فى تونس . فعمّ الاستياء سواء بسواء البرجوازية الوطنية وبعض اوساط الاقطاعيين ـ الملاكين ، والطبقة العاملة والفلاحين . وفى نهاية القرن التاسع عشر حدثت فى تونس اضطرابات فلاحية ونشأت أولى منظمات وحلقات «تونس الفتاة» ، التى وضعت هدفا لها خوض النضال ضد نظام الحماية والعمل على البعث القومى فى تونس .

وان مّرد صعود الحركة الوطنية فى تونس كونها حدثت فى عصر استيقاظ آسيا . ففى ١٩٠٥ تالف الحزب الجمهورى الذى كان يضمّ الديموقراطيين البرجوازيين الصغار الفرنسيين من جهة والمثقفين القوميين التونسيين من جهة اخرى . وسرعان ما انشق هذا الحزب الى جماعتين . واحداهما جماعة الوطنيين العرب برئاسة عبد العزيز الثعالبى ، التى انسحبت من الحزب الجمهورى وانضمت فى ١٩٠٩ الى حزب «تونس الفتاة» الذى ألفه علي باش

حانبه وبشير صفر فى عام ١٩٠٧ . وادت الاختلافات حول القضية الوطنية الى الانشقاق . فدافع الحزب الجمهورى عن صهر التونسيين واكتفى بالمطالبة بالمساواة فى الحقوق ، بينما سعى حزب «تونس الفتاة» الى الاصلاحات الدستورية الواسعة والى الاستقلال فى آخر المطاف . وطرح حزب «تونس الفتاة» شعار «الامة الجزائرية التونسية» وبذل الجهود لكى تنال هذه الامة كيان الدولة المستقلة .

وفى ١٩١١ قام حزب «تونس الفتاة» بحملة سياسية واسعة بصدد الاعتداء الايطالى على طرابلس الغرب . وجمع التونسيون الاموال والادوية للشعب الطرابلسى . وفى مدن مختلفة حدثت اصطدامات بين العرب والاوربيين وتوسعت فى بضعة اماكن الى عدد من التظاهرات السياسية الكبيرة . وبلغت الذروة فى حادث الجلاز الذى جرى فى السابع والثامن من تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١١ . وكانت الجلاز مقبرة اسلامية فى مدينة تونس . واتخذ قرار السلطة لتسجيل هذه المقبرة كذريعة لاندلاع تظاهرات احتجاجية ضمّت الآلاف من الناس فأطلقت القوات والشرطة الفرنسية عليهم نيرانها .

وفى شباط (فبراير) ١٩١٢ طالب التونسيون شركة الترامواى فى مدينة تونس ، بوضع حدّ للتمييز العنصرى ضد العرب ، بان تدفع لهم لقاء نفس العمل اجورا متساوية مع تلك التى تدفع للاوربيين . وعندما امتنعت ادارة الشركة عن تلبية هذه المطاليب ، شرع سكان مدينة تونس بمقاطعة الترامواى . وعندها تأزّم الوضع . واعلنت السلطات المذعورة حالة حصار فى تونس وأغلقت عددا من الصحف الوطنية وحرّمت حزب «تونس الفتاة» واوقفت قادته . وفى آذار (مارس) ١٩١٢ القى القبض على عبد العزيز الثعالبى وعلي باش حانبه وابعدا الى خارج البلاد .

وفى ١٩١٣ عاد الثعالبى الى تونس واستأنف نشاطاته فيها ، اما علي باش حانبه فنقل نشاطاته الى المهجر .

ويجب الاشارة الى ان قادة حزب «تونس الفتاة» علّقوا آمالا كبيرة على «التفاهم» مع حكومة فرنسا ، فانهم حاولوا اقناعها بالقيام بتنازلات للحركة الوطنية التحررية . كما علّقوا آمالهم على معونة تركيا والمانيا القيصرية لهم . وعلى كل حال ، استغلّ

الالمان من جانبهم الحركة الوطنية التحررية فى تونس . وجاء فى مذكرة سرية وضعتها اركان الحرب الالمانية فى اوائل ١٩١٤ انه يجب ، بكل الوسائل اللازمة ، مساندة نضال المسلمين فى افريقيا ضد السيطرة الفرنسية ، واقامة علاقات معهم ومساعدة نشاطات الجمعيات الاسلامية الوطنية . وأنشئت مثل هذه الاتصالات فعلا اثناء الحرب عندما اوفد الى افريقيا عدد من العملاء الالمانيين الذين وضعوا نصب اعينهم الحؤول دون استغلال الفرنسيين للجزائر وتونس وجعلهما كمصدر للخامات الاستراتيجية والطاقات البشرية .

واعدّ قادة حزب «تونس الفتاة» ، اعتمادا على مساندة الالمان وتركيا الفتاة ، انتفاضة ضد فرنسا فى شمالىّ افريقيا فى السنوات للحرب العالمية الاولى . ومع ذلك فلقد ادّت الآمال المعقودة على المساعدة الاجنبية الى الاستخفاف بقوى وامكانيات الحركة الجماهيرية السياسية فى داخل البلاد وبالتالى الى الانعزال المعين عن الجماهير .

الفصل الثانى والعشرون

استيلاء فرنسا على مراكش

نظام الامتيازات .احتفظت مراكش ، خلافا للجزائر وتونس ، باستقلالها الشكلى طيلة القرن التاسع عشر . الا انهـــا تحولت فى الواقع فى غضون القرن ذاته الى شبه مستعمرة للدول الاوربيـة . واعدت هذه الدول العدة للاستيلاء عليها مستغلة ضعفها وتأخرها ، ولولا المنافسة بينهـــا لمـا تأجل مدة مـا تحويل مراكش الى مستعمرة مباشرة .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر ، تطورت الرأسماليـــة تطورا عارما فى الاقطار الاوربية . وعلى العكس ، عاشت مراكش فى ركود القرون الوسطى والفوضوية الاقطاعية . ولم يكن باستطاعـــة هـذا البلد المتاخر صد هجوم الدول الاوربية . ولهذا خسرت عددا من الحروب التى خاضتها ضد هذه الدول . واضطرت الى عقد اتفاقيات غير متكافئة معها . وفى ١٧٦٧ وقّعت فرنسا وسلطـان مـراكش اتفاقية اصبحت بموجبها صلاحية دائرة المحاكم القنصلية ، خلافا لاتفاقية ١٦٣١ ، وحيدة الطرف اى ينتفع منها الرعايا الفرنسيون المقيمون فى مراكش دون ان تشمل الرعايا المراكشيين المقيمين فى فرنسا . واستنادا لاتفاقية ١٧٦٧ ، توسعت ايضا امتيـازات التجار والمقيمين الفرنسيين والمستوطنين توسعا كبيرا . اذ انهم اصبحوا لا يتمتعون بالحصانة القضائية فحسب، بل وايضا بالاعفاءات الضرائبية اى بالحصانة الضرائبية . كما تحرر من دفع الضرائب «المحميون» وهم الجماعة التى لم يعرف بها نظام الامتيـــازات فى تركيا . و«المحميون» هم السكان الاصليون ، رعايـا سلطـــان

مراكش ، الذين كانوا يخدمون المقيمين الفرنسيين . وكان باستطاعة اى تاجر فرنسى استئجار اىّ مراكشى لاستخدامه وعندئذ يشمله نظام الامتيازات ايضاً بحكم كونه مستخدما . ويتوقف عن دفع الضرائب (رغم ان هذا لم يشترط فى الاتفاقيات) ويتمتع بالحصانة القضائية ايضا ، ويُحاكم امام المحاكم القنصلية الفرنسية وليس امام المحكمة المراكشية . ولما كانت هذه الاعفاءات الضرائبية والقضائية تستهوى المراكشيين الى أقصى حد وخاصة الاقطاعيين والتجار المراكشيين فانهم كانوا يلجأون الى «الحماية» الفرنسية للتخلّص من الضرائب ومن الحكام المحليين ويعلنون بانهم مستخدمون لدى القناصل والمقيمين الفرنسيين . وبهذا الاسلوب كونت فرنسا شبكة عملائها الواسعة فى داخل مراكش من بين الاقطاعيين والتجار المحليين ، وهم عملاء لم يكونوا خاضعين لسلطان مراكش وافلتوا من سيادته . وعمّ هذا النظام جميع المراكشيين الذين كانت لهم صلة بالتجار الفرنسيين بل وعمّ المحاصصين . وغالبا ما كان التجار الفرنسيون يزاولون الزراعة فى مراكش وخاصة تربية المواشى . ونظرا لعدم حوزتهم على الارض فانهم كانوا يتركون قطعان المواشى لدى الفلاحين لرعايتها على اساس المحاصصة . ولم يكن يدفع حتى هؤلاء الرعاة المحاصصون الضرائب لسلطان مراكش ولا يخضعون لقضائه .

وان نظام الامتيازات هذا شمل فيما بعد عددا من الدول الاخرى علما بانه لم يكن سوى نسخة سيئة من نظام الامتيازات المعمول به فى الامبراطورية العثمانية .

وعقدت اسبانيا اتفاقية مع مراكش فى ١٧٦٧ ، اى فى نفس العام الذى عقدت فيه الاتفاقية الفرنسية المراكشية وهكذا اصبحت دولة تتمتع بنظام الامتيازات ايضا . وحصلت دول اخرى على الامتيازات فى القرن التاسع عشر ، وعقدت بعضها اتفاقيات تمنحها امتيازات بصورة مباشرة ، وبعضها عقدت اتفاقيات للتمتع بحق الدولة الاكثر رعاية فحصلت بحكم ذلك على امتيازات .

وعلى هذا النحو اصبحت تتمتع بالامتيازات فى مراكش النمسا وسردينية (التى انتقلت حقوقها فيما بعد الى ايطاليا) والولايات

المتحدة الامريكية وانكلترا وهولندة وبلجيكا بالاضافة الى فرنسا واسبانيا . وفى ۱۸۸۰ اصبحت الامتيازات موضوع معاهدة دولية خاصة . واعدّ المؤتمر الدولى ، الذى انعقد فى مدريد فى صيف ۱۸۸۰ معاهدة عامة حول نظام الامتيازات والحماية الفردية فى مراكش . ووفقا لهذه المعاهدة صارت تتمتع بالامتيازات بالاضافة الى الدول المار ذكرها ، دول اخرى أسهمت فى مؤتمر مدريد وهى المانيا واسوج ونروج والدنمارك والبرتغال . وفضلا عن ذلك ، انضمت روسيا الى معاهدة مدريد عام ۱۸۸۱ وحصلت على الامتيازات ايضا .

وعلاوة على نظام الامتيازات ، بذل الاوربيون الجهود للحصول على حق ابتياع الاراضى وامتلاك العقارات فى مراكش . وبادىء ذى بدء حصلت اسبانيا على هذا الحق وفق اتفاقية السلم المعقودة عام ۱۷۹۹ ومن ثم انكلترا وفق اتفاقية ۱۸٥٦ ، وتمتعت دول اخرى بهذا الحق بحكم مبدأ الدولة الاكثر رعاية . واخيرا منحت معاهدة مدريد لعام ۱۸۸۰ هذا الحق لجميع دول اوربا المتمتعة بالامتيازات .

ولم تتناول الاتفاقيات غير المتكافئة حقوق الامتيازات فحسب، بل تناولت قضايا اخرى كالتعريفات الجمركية ، وبصورة خاصة ثبتت الاتفاقية الانكلو-مراكشية لعام ۱۸٥٦ التعريفات الجمركية فى مراكش التى اعطت للتجار الانكليز وفيما بعد الى تجار اوربيين آخرين امكانية تصدير بضائعهم الى مراكش بحرية تامة وذلك على اساس مبدأ الدولة الاكثر رعاية . وفى ۱۸۹۰ عقدت المانيا ايضا اتفاقية تجارية تعود عليها بفائدة اكبر ، ممّا ادّى الى تخفيض التعريفات الجمركية السابقة تخفيضا كبيرا (ولعدد من المواد بمقدار النصف) . وشملت شروط هذه المعاهدة دولا اوربية اخرى بحكم مبدأ الدولة الاكثر رعاية ايضا .

اغتصاب الاراضى . قام الاوربيون باغتصاب الاراضى فى مراكش فى فجر العصر الجديد وبين القرنين الخامس عشر والسابع عشر ، سيطر البرتغاليون على ساحل مراكش الغربى برمته ، والاسبانيون على عدد من الحصون («بريسيديوز») على الساحل

الشمالى ، والانكليز على طنجة . وقبيل مستهل القرن التاسع عشر أزيح البرتغاليون من مراكش ، واحتفظت اسبانيا بحصونها وهى سبتة ومليلة وجزر الخزامة وبينيون دى فيليس . واستخدمت هذه الحصون كقواعد لتغلغل اسبانيا اقتصاديا وسياسيا فى قلب مراكش وكرؤوس جسور لانطلاق الاسبانيين منها وشن عدد من الحملات على القبائل المراكشية المجاورة . وفى ١٨٤٨ استولى الاسبانيون على الجزر الجعفرية . وفتحوا تطوان اثناء الحرب الانسبانية-المراكشية لعامى ١٨٥٩-١٨٦٠ ، التى شرحها فريدريك انجلس باسهاب فى مراسلاته الحربية التى نشرت على صفحات «نيويورك دايلى تريبيون» * . الا ان الانكليز ، الذين تدخلوا فى مجرى المفاوضات السلمية ، لم يدعوا مجالا للاسبانيين للتمتع بثمرة انتصارهم . اذ أعيدت تطوان الى المراكشيين ولم تحصل اسبانيا الا على منطقة افنى .

كما اقتحمت فرنسا مرارا البلاد المراكشية فى غضون القرن التاسع عشر . ففى ١٨٤٤ تغلغل الفرنسيون فيها وهم يتعقبون اثر عبد القادر . واسند الاسطول الفرنسى المارشال بيجو بقصفه طنجة والصويرة (موغادور) . وتحت ضغط انكلترا ، لم يكن بوسع فرنسا الاستفادة من ظفرها للاستيلاء على الاراضى المراكشية . الا انها تعمدت عدم تثبيت حدود دقيقة بين ممتلكاتها الجزائرية ومراكش . وبموجب الاتفاقية التى عقدت فى لالا مارنية (١٨٤٥) ثبتت خط الحدود على طول قطعة شمالية صغيرة فقط . وبعيدا الى الجنوب جرى تخطيط وضع حد فاصل بين القبائل البدوية عوضا عن تحديد تخوم المنطقة . فاصبحت بعض القبائل تحت السيادة الفرنسية واخرى تحت السيادة المراكشية .

واستولت فرنسا فى غضون القرن التاسع عشر على عدد من

---

* ف . انجلس ، مجرى الحرب مع المغاربة ، ـ ك . ماركس وف . انجلس ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ١٣ ، ص ص ٥٧١ ـ ٥٧٦ ؛ ف . انجلس ، الحرب مع المغاربة ، ـ نفس المصدر ، ص ص ٥٧٧ ـ ٥٨١ ، ٥٨٧ ـ ٥٩٢ .

الواحات المراكشية المتاخمة للجزائر ، مستغلّة هذا التخطيط غير الدقيق للحدود . وفي مستهل القرن العشرين ، وضعت تحت مراقبتها المباشرة منطقة مسماة بمنطقة الحدود . وفي ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٠١ عقدت فرنسا اتفاقية حدود مع مراكش . ووفق هذه الاتفاقية ، تألفت لجنة فرنسية-مراكشية مختلطة عهد اليها بانشاء مراكز فرنسية ومراكشية على طول الحدود واعطاء حرية اختيار الجنسية لسكان المناطق المتاخمة . ونتيجة للتدابير التي اتخذتها هذه اللجنة ، وقّعت في مدينة الجزائر في ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٠٢ اتفاقية جديدة بصدد الحدود بين فرنسا ومراكش التزمت الحكومة المراكشية بموجبها بـ«توطيد سلطتها» في المناطق المتاخمة وتعهدت فرنسا بابداء المساعدة لها ، وذلك بارسال قواتها وشرطتها الى اراضي منطقة الحدود المراكشية ، حيث أنشأت فرنسا مراكز جمركية وعسكرية. كما حصلت فرنسا على حق توقيف المجرمين ومحاكمتهم في الاراضي المراكشية . وأنشئت كذلك هيئة مفوضي الحدود الفرنسيين وأنتقلت اليهم السلطة المطلقة في جميع المناطق المراكشية المتاخمة .

ونتيجة لهذه الاتفاقية ، زحفت فرنسا بقواتها في ١٩٠٢ الى منطقة الحدود المراكشية بقيادة الجنرال ليوتي ، كما ضمّت الى الجزائر الواحة المراكشية كولومب-بشار . وهكذا شرعت القوات الفرنسية باحتلال مراكش تدريجيا .

الا ان فرنسا لم تستطع ، في غمرة ظروف الصراع الامبريالي الحاد ، الاستيلاء على مراكش بسهولة . بل ترتب عليها الحصول على موافقة الدول الكبرى بهذا الخصوص . ولذا فانها شرعت بالتهيؤ دبلوماسيا للوصول الى هذا الهدف في فجر القرن العشرين . فعقدت عددا من الاتفاقيات السرية مع الدول الاوربية واعدة اياها بتقديم مختلف انواع التعويضات لها لقاء اطلاق يد فرنسا في مراكش .

اتفاقية فرنسا مع ايطاليا في ١٩٠٠ ، ومع انكلترا في ١٩٠٤ ، ومع اسبانيا في ١٩٠٤ . ولقد عقدت اولى الاتفاقيات بروما بين فرنسا وايطاليا في عام ١٩٠٢ (بعد تبادل الرسائل

بينهما فى ١٤ و١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠) . وبموجب هذه الاتفاقية تعهدت فرنسا بمنح ايطاليا ولاية طرابلس الغرب ، التى كانت تابعة الى تركيا . واعلنت بانها سوف لا تعتدى على هذه الولاية وسوف تتركها خارج منطقة نفوذها . وبكلمة اخرى ، منحت ايطاليا حرية العمل فى طرابلس الغرب . واعلنت ايطاليا من جانبها بانها لا تعترض على «اجراءات فرنسا فى مراكش ، المتأتيـة عن مجاورتها لهذه المملكة» .

كما اتفق الجانبان انه «فى حالة حدوث اى تغيير فى الوضع السياسى والاقليمى لمراكش» (اى فى حالة ضمّهـا الصريح الى فرنسا) «تحتفظ ايطاليا لنفسها ، على اساس المعاملة بالمثل بحق بسط نفوذها على طرابلس الغرب وبرقة» .

وبهذه الصورة تمّت «مقايضة» مراكش بطرابلس الغرب . وبما ان مراكش لم تكن تابعة الى فرنسا ولا طرابلس الغرب الى ايطاليا ، فان باريس وروما كانتا قد عقدتا مع ذلك صفقة على حساب الشعوب المستضعفة .

وكانت الاتفاقية التالية مشابهة لسابقتها سوى انهـا اكثر اهمية . والمقصود بها الاتفاقية الانكلو-فرنسية المشهـورة التـى وقّعت فى لندن فى ٨ نيســان (ابريل) ١٩٠٤ ، والتى دشّنت الوفاق بين انكلترا وفرنسا ، وبموجبها «غفرت الواحدة منها عن ذنوب الاخرى» . وتعهدت فرنسا «بالّا تعرقل تدابير انكلترا فى مصر ، بطلبها تحديد امد الاحتلال البريطـانى او بـاى وسيلـة اخرى» . واعترفت انكلترا بـ«حق فرنسا ، كدولة مجاورة لمراكش على طول اراض واسعـة ، فى المحافظة على الامن فى هذا القطـر وتقديم المعونة له باجراء كافة الاصلاحات الادارية والاقتصادية والمالية والعسكرية ...» . وبكلمة اخرى تركت انكلترا مراكش تحت رحمة فرنسا ، موكلة لها امر السيطرة الاقتصادية والمالية والعسكرية والشرطية على هذه البلاد . واصدرت انكلترا وفرنسـا بيانا عاما اعلنتا فيه بانه ليس فى نيتهما تبديل الوضع القائم فى مصر او فى مراكش . الا انهما استدركتا فى المواد السرية المرفقة بالاتفاقية وقالتا بانهما «ستضطران الى تغيير سياستهمـا بخصوص

مصر ومراكش طبقا للظروف» . وهكذا عقدت صفقة نموذجية للعصر الامبريالي على حساب الشعوب المستضعفة . اذ ان فرنسا بادلت مراكش بمصر لقاء حصولها من انكلترا على حرية العمل في مراكش .

وكانت النقطة الاساسية في الاتفاقية الانكلو-فرنسية هي تجزئة مراكش الى مناطق نفوذ وُضعت حدودها في الجزء السري من الاتفاقية . فغدا شمال مراكش في منطقة النفوذ الاسباني ، ووضعت طنجة تحت الاشراف الدولي . وفضلا عن ذلك ، طالبت انكلترا بان يُجرد من السلاح كلّيا القسم الشمالي من مراكش المطل على المحيط الاطلسي وساحل البحر الابيض المتوسط . فوافقت فرنسا على هذا الطلب . وتعهدت هي واسبانيا بعدم اقامة اية تحصينات في هذه المنطقة .

وان اصرار انكلترا على تجزئة مراكش وفصل القسم الشمالي من البلاد وتحويلها الى منطقة اسبانية، حفّز فرنسا على اجراء مفاوضات مع اسبانيا . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٤ وقّعت فرنسا في باريس اتفاقية مع اسبانيا . وعلى غرار الاتفاقية الانكلو-فرنسية ، كانت تحتوي هذه الاتفاقية على جزئين — علني وسري . وفي البيان العلني الذي نشر في الصحف ، أعلنت فرنسا واسبانيا بانهما تدافعان عن حرمة كامل اراضي المملكة المراكشية تحت سيادة السلطان . وكان هذا نفاق صرف ، لان هذه «المملكة الكاملة» جزّئت في القسم السري من الاتفاقية الى منطقتي نفوذ : الاولى فرنسية والثانية اسبانية . ونصّ القسم السري على انه «في حالة ثبوت عدم صلاحية الوضع السياسي لمراكش والحكومة الشريفية او عدم امكانية الاحتفاظ بالوضع الراهن بسبب ضعف هذه الحكومة وعجزها التام عن اقامة الامن والنظام او لاي سبب آخر وحسبما يقرّه الطرفان معا ، فيكون بمقدور اسبانيا اتخاذ ما تراه من تدابير في المنطقة المذكورة التي تصبح عندئذ منطقة نفوذ لها» .

وضمنت اسبانيا من جانبها اطلاق يد فرنسا في منطقة نفوذها . وبالطبع ، تم ذلك لا مباشرة بل باساليب متستّرة . اذ

قد انضمت اسبانيا الى الاتفاقية الانكلو-فرنسية وبهذا منحت فرنسا حرية العمل المطلق .

واثار موقف المانيا منتهى القلق لدى الدبلوماسيين الفرنسيين الذين قاموا فى عام ١٩٠٤ بجسّ نبضها لاستيضاح موقفها من مراكش ولاستطلاع امكانية التوصل الى اتفاق ما معها . فاجاب الالمان بانه ليس لديهم فى الحقيقة اية مصلحة فى مراكش ، فشعر الفرنسيون من جراء ذلك بانهم قد ضمنوا هذه الناحية . اما فيما يتعلّق بروسيا فانها كانت حليفة فرنسا ولم تبد فى الحقيقة ايّ مصالح خاصة فى مراكش .

قرض عام ١٩٠٤ وبعثة تالاندييه . شرعت فرنسا بـ« القبض » على ناصية الامور فى مراكش متبّعة الاساليب التى جرّبتها تماما وذلك بعد أن اعتبرت انها قد أتمت التهيئة الدبلوماسية اللازمة .

ففى حزيران (يونيو) ١٩٠٤ منحت البنوك الفرنسية مراكش ، قبل كل شيء ، قرضا جائرا . وكان عبد العزيز ــ سلطان مراكش مولعا بالدراجات والغراموفونات والملاهى ومظاهر « المدنية » المشابهة الاخرى . فانفق قسما كبيرا من موارد الدولة على اهوائه . كما تطلب اموالا طائلة النضال الدائم ضد القبائل المتمردة . وصفوة القول ، تورّط السلطان فى الديون الجارية ، وقدمّت له فرنسا قرضا تبلغ قيمته ٦٢,٥ مليون فرنك . وخُصّص ٦٠ ٪ من مداخيل الجمارك المراكشية كرهان لهذا القرض . وللاشراف على هذا الدين لحكومة « المخزن » المراكشية * كوّنت ادارة خاصة بالدين .

وعلى اثر هذا جاءت الى مراكش فى مستهلّ عام ١٩٠٥ بعثة يترأسها رينيه تالاندييه عهد اليها باجراء مفاوضات حول « اصلاحات » الادارة وجهاز الشرطة والمالية والاقتصاد فى مراكش . وفى وقت سريع أعدت البعثة برنامج « اصلاحات » ينصّ على ما يلى:

١) تنظيم الشرطة المراكشية تحت الاشراف الفرنسى (وفى منطقة النفوذ الاسبانى ــ تحت الاشراف الاسبانى) ؛

---

* المخزن هى الحكومة المراكشية . ــ **المؤلف** .

٢) تأسيس بنك الدولة المراكشية تحت رقابة البنوك الفرنسية . ويقوم هذا البنك باصدار العملة المراكشية ، وحفظ اموال الخزينة ، وتقديم اعانة للامتيازات الفرنسية في مراكش وخاصة لمدّ سكة حديد طنجة ــ فاس ، واخيرا بتقديم القروض ؛

٣) تشجيع منح امتيازات (السكك الحديدية والموانئ والغابات والتعدين وغيرها) للتروستات الفرنسية بجميع الوسائل اللازمة .

وان تحقيق هذه «الاصلاحات» كان يعني تحويل مراكش الى شيء اشبه بمحمية فرنسية . ولعدم وجود مخرج آخر ، كاد يوافق السلطان عبد العزيز على قبول البرنامج ، الذي اعدته بعثة تالانديبيه لولا حصول امر غير متوقع اطلاقا ، وهو تدخل المانيا القيصرية في شؤون مراكش .

خلاف طنجة عام ١٩٠٥ . اقترب يخت القيصر غليوم الثاني من طنجة في ٣١ آذار (مارس) ١٩٠٥ . فنزل غليوم الثاني الى البر وامتطى صهوة جواد ابيض قاصدا طنجة ، حيث احاط به جمع غفير من المراكشيين الذين خطب فيهم قائلا بانه جاء بزيارة الى صديقه السلطان وانه سيدافع عن سيادته كما سيذود عن مصالح المانيا في مراكش . ثم ركب اليخت وعاد ادراجه . وتركت هذه الزيارة انطباعا كبيرا . وفي الواقع قصد غليوم الثاني اظهار نية المانيا الاستيلاء بنفسها على مراكش او اخضاعها الى نفوذها . ومما يجدر ذكره ، ان غليوم الثاني نفسه كان متقززا من المخاطرة المراكشية اذ انه كان قد علّق الآمال على سكة حديد بغداد والخطط المتعلّقة بها . وتبين من مراسلاته مع مستشار الدولة الالمانية بولوف انه قام برحلته الى طنجة تحت ضغط مستشار الدولة وبالحاح منه . وحتى انه انهال عليه باللوم لانه اضطر الى ركوب جواد ابيض كان يخاف ركوبه ولان جمهورا من الناس الافّاقين الانذال احاط به في طنجة .

وبعد زيارة القيصر الى مراكش ، رفض السلطان ، الذي اوعز اليه الدبلوماسيون الالمان ، اقتراح بعثة تالانديبيه . واعلن انه لا يستطيع قبول برنامج الاصلاحات بصورة منفردة وانه يترتب عليه طرح

هذه القضية ذات الاهمية الدولية على مؤتمر دولى لمناقشتها .
وأيدت المانيا شكليا مطلب السلطان . ورفضته فرنسا رفضا باتا ،
وهكذ نشأت خلاف طنجة .

واضطرت فرنسا الى التنازل اولاً ، لان الجيش الفرنسى لم يكن مستعدا لخوض الحرب ضد المانيا ، ثانيا ، لان حليفتها روسيا كانت منهمكة بالحرب المندلعة فى الشرق الاقصى وبالثورة المتفجرة. ولذلك اضطر وزير الخارجية دلكاسيه الى الاستقالة باعتباره مؤيدا لانتهاج سياسة فعّالة فى مراكش وأحد منظمى الوفاق . واصبح المالى روفييه وزيرا للخارجية ورئيس وزراء فرنسا . وكانت له صلة وثيقة بالبنوك الالمانية . وتحدث عنه الكتّاب الاجتماعيون الفرنسيون كعميل المانى . وعقد روفييه اتفاقية مع المانيا وقرر الاشتراك فى المؤتمر الدولى ، معترفا مقدما بالمبادئ الاربعة التالية :

١) سيادة واستقلال سلطان مراكش ؛
٢) حرمة كامل اراضى امبراطوريته ؛
٣) الحرية الاقتصادية ومساواة الدول فى مراكش ؛
٤) اصلاح شؤون مالية وشرطة مراكش وفقا للمعاهدة الدولية .

وسددت هذه المبادئ ضربة كبيرة الى برنامج فرنسا . وبالطبع ، تعهدت المانيا بالاعتراف بـ«مصالح وحقوق فرنسا الشرعية فى مراكش» طالما انها لا تناقض المبادئ المارة الذكر ، الا ان هذا لم يغير من الوضع شيئا .

مؤتمر الجزيرة الخضراء (الجزيراس) ١٩٠٦ . التام فى ١٥ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٦ المؤتمر الدولى الخاص بالقضية المراكشية فى الجزيرة الخضراء ، وهى مدينة اسبانية صغيرة بالقرب من جبل طارق . وأسهمت فى المؤتمر بالاضافة الى فرنسا والمانيا ، انكلترا وروسيا والولايات المتحدة الامريكية وايطاليا واسبانيا والنمسا-المجر وبلجيكا وهولندة واسوج والبرتغال ومراكش . واستغرق المؤتمر حوالى ٣ اشهر ولم ينته الا فى نيسان (ابريل) ١٩٠٦ . وان طول مدة انعقاده لدليل على الصراع

الدبلوماسي المتفاقم الذى احتدم وراءه ، ولم يكن ميزان القوى فى صالح المانيا .

وايدت انكلترا وروسيا والولايات المتحدة الامريكية وايطاليا واسبانيا مطاليب فرنسا . وكانت فرنسا مرتبطة مع انكلترا وايطاليا واسبانيا باتفاقية خاصة حول مراكش ومع روسيا بحلف . وانضمت كذلك الى هذه الكتلة بلجيكة والبرتغال بحكم اعتمادهما على فرنسا او انكلترا . وكانت المانيا فى الحقيقة منعزلة وحتى حليفتها ـ النمسا ـ المجر لم تشعر بحاجة الى تأييدها . واذا كان انعقاد المؤتمر بذاته ظفرا دبلوماسيا لالمانيا ، فان الوثيقة العامّة التى اتخذها كانت فشلا دبلوماسيا لها . وانبثقت الوثيقة العامة شكليا من المبادئ الاربعة التى اصرت عليها المانيا الا ان فرنسا حصلت فعلا فى هذا المؤتمر على انتداب لادارة الاقتصاد المراكشى والدولة المراكشية .

وتبنّى مؤتمر الجزيرة الخضراء فى الواقع برنامج الاصلاحات الفرنسية وفوّض فرنسا انجاز هذا البرنامج . ورغم ان مؤتمر الجزيرة الخضراء اعلن رسميا استقلال وكلية المملكة الشريفية ، فلقد اعتبر الفرنسيون نتائجه كاشارة للبدء باحتلال مراكش واقتسامها .

ووفق الوثيقة العامة لمؤتمر الجزيرة الخضراء ، أعلن عدد من المرافئ المراكشية كمرافئ مفتوحة . وأنشئت فيها شرطة تحت الاشراف الدولى ، خضعت فى المنطقة الاسبانية الى اشراف الاسبانيين ، وفى الفرنسية الى اشراف الفرنسيين . واستثنى من ذلك مرفأ طنجة والدار البيضاء ، فانه فرضت عليهما رقابة فرنسية ـ اسبانية مختلطة .

وقرر مؤتمر الجزيرة الخضراء ايضا تأسيس بنك الدولة فى مراكش . وكان باستطاعة كل دولة اشتركت فى المؤتمر ان تطلب الاسهام فى هذا البنك . كما قرّر ان تحصل كل دولة من الدول الاعضاء على حصة واحدة من الاسهم ، بينما تستلم فرنسا ثلاث حصص من اسهم بنك الدولة . ويجب القول بان فرنسا حصلت على

اغلبية قاطعة فى هذا البنك ، مستغلّة حصة المساهمين الصوريين بالاضافة الى حصصها الثلاث .

واعدّ المؤتمر الذى انعقد فى الجزيرة الخضراء قوانين حول نظام الجمارك ومكافحة تهريب الاسلحة الى مراكش ومكافحة التهريب عامة . وعهد الى فرنسا بتطبيق هذه القوانين على الحدود المراكشية الجزائرية والى اسبانيا على حدود الحصون اى فى المنطقة الاسبانية ، والى كافة الهيئات الدبلوماسية او القنصلية فيما يتعلق بالمرافئ .

كما اعتبر المؤتمر السكك الحديدية المراكشية برمتها والمرافئ ووسائل الاتصال وغير ذلك ملكية «المخزن» اى الحكومة المراكشية، ولا يمكن بيعها الا بالمزاد العلنى ولا ترسو الا الى من يقدّمون احسن الشروط بغض النظر عن جنسياتهم . وان هذه النقطة بصيغتها الحالية قد تطابق ومبدأ «الحرية الاقتصادية والمساواة» . وفى الواقع استلمت فرنسا امتياز انشاء مرفأ فى الدار البيضاء ، كما حصلت على دور رئيسى فى تشييد السكة الحديدية التى تمتد من طنجة الى قلب مراكش .

الاحتلال الفرنسى والاسبانى (١٩٠٧–١٩٠٨) . انتفاضة عام ١٩٠٧ . شرعت فرنسا عقب مؤتمر الجزيرة الخضراء مباشرة باحتلال المناطق الرئيسية فى مراكش . وفى نهاية ١٩٠٦ وجهت اسطولها الى طنجة بذريعة حماية الاوربيين فيها . وكذلك بعثت اسبانيا باسطولها الى طنجة ، وهى التى قلّدت بغيرة متناهية كل خطوة خطتها فرنسا فى مراكش .

وفى آذار (مارس) ١٩٠٧ اغتيل فى مراكش طبيب فرنسى اسمه موشان . وقد تلقى السجلات السرية فى المستقبل ضوءاً على هذا الاغتيال . ولربما يكون الفرنسيون هم الذين قاموا بتدبيره . اذ انه يمكن التضحية بحياة طبيب فرنسى واحد من اجل احتلال قسم هام من مراكش . وكعقاب على الاغتيال ، احتلّ الفرنسيون مدينة وجدة وشرقىّ مراكش برمته .

وفى آب (اغسطس) ١٩٠٧ دبّر استفزاز جديد . اذ شرعت بالعمل شركة مراكش الفرنسية «Compagnie Marrocaine» التى

حصلت على امتياز لانشاء ميناء فى الدار البيضـــاء ، وبـدأت بشق سكة حديدية ضيقة عبر مقبرة اسلامية ، مدنّسة القبور بعملهـــا هذا . وبغضّ النظر عن هذا الحـــادث لم يكن سكان مـــراكش قـــد استساغوا التغلغل الاجنبى وقابلوه بمنتهى الاسى ، وها ان الاوربيين يقتحمون مقبرة اسلامية فهجم المراكشيون على عمال البناء ، وهم ساخطون من تدنيس مقدساتهم ، وقتلوا بعض العمال وبضمنهم ستة فرنسيين فاستغلّت فرنسا هذا الحادث كذريعة لاحتلال الدار البيضاء وناحية الشاوية .

واحتلّت اسبانيا بدورها رأسا فى منطقة مليلة .

واثار الاحتلال الفرنسى موجة تذمر فى عموم البلاد . كمـــا ان السلطان عبد العزيز اثار سخطا كبيرا لدى القبائل المراكشية ، التى اعتبرته خائنا وسببا لجميع المصائب التى حلّت بالبلاد . وفى ١٦ آب (اغسطس) ١٩٠٧ ، اى بعد بضعة ايام من احتلال الدار البيضاء ، انعقد فى مدينة مراكش مؤتمر شيوخ القبائل الذين قرروا خلـع السلطـان عبد العزيـز وتنصيب اخيـه مولاى عبد الحفيـظ بدله .

واندلعت فى البلاد حرب اهلية بين مؤيدى عبد العزيز وانصار مولاى عبد الحفيظ . ومع ذلك ، فلم تكن هذه الحرب بواقعها نضالا بين فئتين مدّعيتين بالعرش بقدر ما كانت حركة وطنية تحرريـــة قامت بها القبائل المراكشية ضد السلطان الذى انحـــاز الى جـانب المحتلّين .

وفى تموز (يوليو) ١٩٠٨ سحقت قوات عبد العزيز . وهرب هو نفسه ملتجئا لدى الفرنسيين وخضعت البلاد برمتها الى السلطان الجديد . ومع ذلك استغـلّ الفرنسيون جميـع هذه الفتن لاحتلال مناطق اخرى سواء فى غربى البلاد او فى شرقيها .

خلاف بالدار البيضاء ١٩٠٨ والمعاهدة الفرنسية-الالمانيـة ١٩٠٩ . وفى ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨ نشأ خلاف فرنسى-ألمـانـى جديد . وكما هو معروف ، كانت لدى فرنسا فرقة اجنبية للخدمة فى المستعمرات ، جندت فيها من جميع انحاء المعمورة عناصر منبوذة متنوعة من المغامرين والمجرمين العاديين . وعسكرت احدى وحدات

هذه الفرقة فى الدار البيضاء ، وفر من الجيش جنديان المانيان كانا يخدمان فى الفرقة والتجآ الى دار القنصل الالمانى . فاقتحمت الشرطة الفرنسية داره رغم احتجاجاته واجرت التحرى فيها والقت القبض على الفارين . واحتجت المانيا على اجراءات فرنسا هذه . وأُحيل الخلاف الى محكمة لاهاى الدولية ، التى اعطت حكما يشابه قرار سليمان . اذ اعلنت بان كلا الطرفين مذنبان ، ولذا لا ينبغى عقاب اى منهما . ففرنسا مذنبة لكونها خرقت بفظاظة حصانة دار القنصلية ، والمانيا لكونها حمت الفارين .

وبالطبع لم يسوّ «قرار سليمان» الصادر عن محكمة لاهاى العلاقات الفرنسية-الالمانية ، التى تأزمت بشدة مرة ثانية . وبالنظر الى هذا الوضع بدأت مرحلة جديدة من المفاوضات الفرنسية-الالمانية بصدد القضية المراكشية . وفى ٩ شباط (فبراير) ١٩٠٩ وقعت فى برلين اتفاقية أكدت المبادئ الاربعة الواردة فى اتفاقية الجزيرة الخضراء . واحتوت هذه الاتفاقية على صيغة جديدة . اذ اعترفت فرنسا بمصالح المانيا الاقتصادية فى مراكش ، والمانيا بمصالح فرنسا السياسية فيها . وبناء على ذلك اعلنت المانيا بانها لا تستهدف اىّ مصالح سياسية فى هذه البلاد . وكانت هذه الصيغة ناقصة ومنافقة من حيث الاساس ، لانها كانت تفترض شيئا مستحيلا ، اى فصل المصالح السياسية عن الاقتصادية . كما انها لا تعكس نوايا المانيا الحقيقية ، ذات المصالح السياسية المحدّدة تماما فى مراكش .

اخيرا ، اعلنت كلتا الدولتين بانهما ستعملان على احلال التعاون بين الرأسماليين الفرنسيين والالمانيين فى مراكش وطبقا لهذه الاتفاقية التى يشار اليها فى الادب احيانا باتفاقية توطيد الحكم الاقتصادى الثنائى (اى الفرنسى-الالمانى) على مراكش ، شكّلت جملة من الشركات الفرنسية-الالمانية المختلطة . وظهرت كلها كجنين يولد ميتا . اذ لم تتطور اية واحدة منها فيما بعد .

اعتراف الدول بمولاى عبد الحفيظ . عقب انتصار السلطان مولاى عبد الحفيظ واجهت الدول قضية تجديد علاقاتها به . وشرع السلطان مولاى عبد الحفيظ نفسه باجراء مفاوضات معها ، طمعا

منه فى الغاء احتلال القوات الفرنسية لمنطقتى الدار البيضاء ووجدة . فوافقت الدول على الاعتراف به كسلطان وفق الشروط التالية : ١) يجب عليه دفع تعويضات الى فرنسا واسبانيا ؛ ٢) تحتفظ كل من فرنسا واسبانيا بجيشيهما فى الاجزاء المراكشية المحتلّة من قبلهما ؛ ٣) يراعى السلطان جميع التزامات عبد العزيز الدولية ، اى معاهدات الحدود مع فرنسا والتعهدات بخصوص القروض ووثيقة مؤتمر الجزيرة الخضراء . ووافق مولاى عبد الحفيظ على هذه الشروط ، وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٠٩ اعترفت الدول به سلطانا .

وفى ١٩١٠ ربطه الفرنسيون بقرض جديد بمقدار ١٠٠ مليون فرنك منح له وفق شروط اشدّ فتكا من قرض عام ١٩٠٤. وخصّص القرض الجديد : اولا ، لتسديد الديون الجارية المتراكمة من جديد ؛ ثانيا ، لتنظيم الشرطة فى المرافىء المكشوفة ؛ ثالثا ، لدفع التعويضات . وكضمان لهذا القرض ، لم تحصل ادارة قرض حكومة «المخزن» على الجمارك فحسب ، بل وايضا على عدد من المداخيل الهامة الاخرى التابعة لحكومة مراكش .

واضطر مولاى عبد الحفيظ الى البحث عن مصادر ايرادات اضافية . ففرض ضرائب جديدة على القبائل ، مما ادّى الى سخطها وتذمرها فى كل مكان . واصبحت تنظر اليه كشخص خائن يواصل فعلا السياسة التى انتهجها عبد العزيز . وفى ١٩١١ قامت القبائل بانتفاضة واسعة جديدة . واستخدمت هذه الانتفاضة كذريعة لاقتحام القوات الفرنسية ارجاء البلاد الداخلية .

احتلال فاس وازمة اغادير . زحف الفرنسيون ، قبل كل شيء ، الى فاس ــ عاصمة مراكش ومقر السلطان مولاى عبد الحفيظ . وعلنت السلطات الفرنسية رسميا بان فاس محاصرة من قبل القبائل المتمردة ، وبان القوات الفرنسية توجهت نحوها لانقاذ حياة السلطان والمقيمين الاوربيين .

وتشير تقارير القناصل الاجانب فى الحقيقة الى ان فاس لم تكن محاصرة عندما بلغتها القوات الفرنسية . ولم يكن السلطان ولا الاوربيون معرضين الى اى خطر مباشر . وكانت هذه الذريعة اختلاقا

صرفا . واثر ذلك احتلّ الفرنسيون مكناس . وقرّر الاسبانيون عدم التخلّف عنهم ، فاحتلوا العرائش والقصر الصغير .

وحفزت الدبلوماسية الالمانية الاسبانيين الى هذا الاحتلال ، اذ سعت الى اثارة الخلاف الفرنسي-الاسبانى . ولم يكتف الالمان بهذا ، بل قرروا ان يتدخلوا بانفسهم فى شؤون مراكش ، وان يستولوا على الصويرة (موغادور) واغادير كردّ فعل على احتلال فاس . واتجه الزورق المسلح الالمانى «بانتر» («فهد») الى سواحل افريقيا تحقيقا لهذا الهدف . فبلغ اغادير فى اول تموز (يوليو) ١٩١١ . واستخدمت «وثبة فهد» هذه كما لقبتها الصحف ، كفاتحة لنزاع دولى كبير ، كتب عنه لينين : «كانت المانيا على شفا الحرب ضد فرنسا وانكلترا . وهم ينهبون («يقتسمون») **مراكش**» * .

واعلنت المانيا فى مذكرة رسمية وزعتها فى اول تموز (يوليو) ١٩١١ على جميع الدول الكبرى بان ارسال الباخرة الحربية الى اغادير يعود الى ثلاثة عوامل :

١) إلحاح التجار الالمان المتواصل على الدفاع عن حياتهم واموالهم . (واستقبل هذا التصريح بدهشة فائقة لانه لم يكن يوجد اى تاجر المانى فى اغادير . وسرعان ما اتّضح ، بالطبع ، بان شركة «الاخوة مانيسمان» الالمانية كانت قد حصلت على امتياز للتعدين فى ناحية اغادير فالتمست من حكومة المانيا الاستيلاء على هذه الناحية . وبعبارة اوضح ، قررت المانيا الاسهام فى تجزئة مراكش واختارت لنفسها القسم الجنوبى الغربى من البلاد) .

٢) سخط «الرأى العام» الالمانى بسبب اقصاء المانيا عن الاسهام فى حل القضية المراكشية .

٣) تدابير فرنسا واسبانيا ، التى جعلت وثيقة مؤتمر الجزيرة الخضراء وهمية (وعند ذلك اعلنت المانيا بانها سوف لا تسترجع

---

* لينين ، دفاتر عن الامبريالية ، - مجموعة المؤلفات الكاملة الروسية ، المجلد ٢٨ ، ص ٦٦٨ .

سفينتها الحربية من اغادير الا عقب انسحاب القوات الفرنسية والاسبانية من مراكش) .

وفضلا عن ذلك ، لم يكن لدى المانيا اى مانع ، على كل حال ، من اجراء مفاوضات جديدة بغية انتزاع قطعة من مراكش او للحصول على تعويضات استعمارية كبيرة اخرى . وقال الدبلوماسى الالمانى كوهلمان للدبلوماسى الروسى بينكندورف عندما قابله فى ذلك اليوم : «اننا سنساوم» . وكانت المفاوضات الفرنسية-الالمانية التى بدأت فى برلين فى ١٠ تموز (يوليو) ، حسب تعبير الدبلوماسيين المحنكين ، «مساومة لا مثيل لها» فى الواقع . اذ طلبت المانيا كلما يمكن طلبه . فانها طالبت اولا بقسم من مراكش ، الا ان فرنسا رفضت ذلك . وعندئذ طالبت الكونغو الفرنسية برمتها ، ورفضت فرنسا مجددا . وانتهت المفاوضات بوقوع الطرفين فى مأزق .

واثناء المفاوضات ، هدّد كلّ طرف الآخر باللجوء الى السلاح. ودعت الصحافة الالمانية بصراحة الى الحرب ضد فرنسا ، معلّقة «بان التاريخ يجب ان لا يكتب بالمداد بل بنصل من الفولاذ» . ودعت الصحف الفرنسية بدورها الى «قطع المفاوضات والالتجاء الى اسلوب آخر لحلّ الخلافات» .

ففى مجرى ازمة اغادير ، وقفت انكلترا الى جانب فرنسا تماما . وهى الاخرى هدّدت باللجوء الى السلاح ايضا . وصارت تضغط على المانيا من الناحيتين الدبلوماسية والعسكرية . وألغت مناورات الاسطول البريطانى السنوية ورابطت مراكبه فى قواعدها . وأجّل سفر اللورد كيتشنر الذى عينّ مندوبا ساميا لانكلترا فى القاهرة ، وبقى فى لندن لقيادة الجيش الانكليزى فى حالة شروع العمليات الحربية . وكان موقف انكلترا من العوامل الرئيسية التى اجبرت المانيا على التراجع . كما كان لتدهور البورصة التى نظمته البنوك الفرنسية فى برلين تأثير كبير ايضا . وبالاضافة الى كل ذلك ، بدأت فى المانيا تظاهرات ضد الحرب قامت بها البروليتارية الالمانية . وفى الختام ، اضطرت الدبلوماسية الالمانية الى قبول حل وسط وعقدت فى ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١١ اتفاقية جديدة

مع فرنسا . ووفقا لهذه الاتفاقيــة ، صادقت المانيـا على توطيـد الحماية الفرنسية على مراكش . وتعهدت فرنسا بمراعاة حريــة التجارة ومساواة الدول اقتصاديا فى مراكش وكذلك تنــازلت الى المانيا عن « قطعة » من الكونغو تبلغ مساحتها ٢٧٥ ألف كيلومتر مربع.

اما فيما يتعلّق بروسيا ، فانهـا أيدت حلّ الخلاف بصـورة سلمية . اذ لم تكن مستعدة بعد لخوض حرب ضد المانيا والنمسـا-المجر وذلك لان اعادة تنظيم جيشها كان يتقدم ببطء . واخيرا ، ادركت حكومة القيصر الروسى بان خوض حرب من اجل مصالــح فرنسا الاستعمارية سوف لا يحظى بشعبية فى روسيا .

وهكذا فان اتفاقيــة برلين التى أبرمت فى ٤ تشرين الثــانى (نوفمبر) ١٩١١ تبدو وكأنها خاتمة لعدد من الاتفاقيات السالفة ، السرية منها والعلنية . وها ان المانيا تمنح فرنسا حريــة العمل فى مراكش . وقد جرت « مقايضة » الكونغو بمراكش كصفقة اعتيادية جديدة على حساب الشعوب المستضعفة . وهكذا فتح المجال لتوطيد الحماية الفرنسية .

اتفاقية الحماية . أطلقت الاتفاقية الفرنسية-الالمانية لعـــام ١٩١١ يد فرنسا ، التى شرعت بسرعة لتحقيق خططها التوسعية . وتحت ضغط فرنسى شديد ، وقّع السلطان مولاى عبد الحفيظ فى فاس فى ٣٠ آذار (مارس) ١٩١٢ على اتفاقيــة الحمايــة ، التى أملاها عليه المبعوث الفرنسى رينو . ومرة أخرى عادت الى فاس القوات الفرنسية التى كانت على وشك مغادرتها ، وقامت بقمــع المقاومة الشعبية فيها .

واستعادت اتفاقية فاس الاوضاع والاحكام الرئيسية لاتفاقية باردو لعام ١٨٨١ واتفاقية المرسى لعام ١٨٨٣ ، اللتين وطّدتا حماية فرنسا على تونس . واحتفظ السلطان بالعرش والمظاهــر الخارجية للسلطة ، التى حرمت تماما من محتواها الحقيقى ، اذ انتقلت السلطة باسرها الى فرنسا .

ووفق الاتفاقية وضع فى مراكش « نظام جديد » احتفظ « بمركز الدين وهيبة السلطان التقليدية وحرمتــه » . واتّفق السلطـان على

اجراء اصلاحات ادارية وتشريعية وتعليمية واقتصادية ومالية وعسكرية ، مما تراه فرنسا نافعا .

وحصلت فرنسا على حق «احتلال اراضى مراكش عسكريا» واقامة «اية اجراءات بوليسية» فيها .

وتعهدت الحكومة الفرنسية بابداء المساعدة للسلطان ضد «اى خطر يهدد شخصه او عرشه او يعكر الهدوء فى ممتلكاته» .

واصبح الوسيط الوحيد بين مراكش والدول الاجنبية المقيم العام الفرنسى ، وهو المفوض الذى قلّد سلطة مطلقة تامة فى بلاد مراكش باسم الجمهورية الفرنسية . وصارت تقدّم اليه جميع مراسيم السلطان لابداء رأيه فيها والمصادقة عليها .

وكلّف بتمثيل مراكش فى الخارج الوكلاء الدبلوماسيون والقنصليون الفرنسيون ، الذين عهد اليهم بـ«الدفاع عن الرعايا المراكشيين ومصالح مراكش فى الخارج» . ونصت اتفاقية فاس على «اعادة تنظيم مالية البلاد ، لضمان تسديد القروض الاجنبية» . ومنع السلطان من عقد قروض حكومية او شخصية او منح اى امتياز دون موافقة الحكومة الفرنسية .

وشملت اتفاقية الحماية جميع بلاد مراكش ، الا ان فرنسا احتفظت لنفسها بحق الاتفاق مع اسبانيا حول مصالح اسبانيا فى مراكش وفصل طنجة وجعلها منطقة خاصة .

وهكذا حرمت اتفاقية فاس لعام ١٩١٢ مراكش لا من استقلالها فحسب ، بل ومن وحدتها ايضا . وبموجبها وقّعت فى مدريد فى ٢٧ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٢ اتفاقية بين فرنسا واسبانيا ، ثبّتت حدود المنطقتين الشمالية والجنوبية الواقعتين تحت حماية اسبانيا .

وبعد ما وطّدت فرنسا حمايتها على مراكش «تنازلت» ، اجرت مرة ثانية الى اسبانيا وكان هذا تنازلا منها ، قسما من البلاد التى احتلتها وذلك وفقا للاتفاقيات المبرمة بين الامبرياليين .

وبعد تثبيت الحماية بدأت حالا مفاوضات بين انكلترا وفرنسا واسبانيا حول نظام طنجة . واظهرت هذه المفاوضات

التناقضات بين هذه الدول الى درجة انها لم تنته حتى انفجار الحرب العالمية الاولى . ولم تختتم الا فى ١٩٢٣ .

وعينت فرنسا مقيما عاما لها فى مراكش الجنرال ليوتى ، الذى كان ذا خبرة استعمارية متينة . وشغل هذا المنصب بصورة متواصلة لمدة ١٣ عاما ، اى حتى ١٩٢٥ . وكان يعتبر بحق « بانيا » لمراكش الفرنسية .

واعتبرت فرنسا السلطان مولاى عبد الحفيظ ، الذى حاول انتهاج سياسة مستقلة ، شخصية لا يُركن اليها ، فعزلته من منصبه فى آب (اغسطس) ١٩١٢ وعينت عوضا عنه اخاه الاصغر مولاى يوسف ، وهو شخصية ضعيفة الارادة وآلة طيّعة بيد فرنسا .

وفى ايلول (سبتمبر) ١٩١٢ ، احتلّ الفرنسيون مدينة مراكش ، منجزين بذلك احتلال القسم السهل من البلاد . ومع ذلك اضطر الفرنسيون الى خوض حرب استعمارية استغرقت ٢٠ عاما فى جبال البلاد وسهولها للتغلب على المقاومة الشديدة التى ابدتها القبائل المراكشية المحبة للحرية التى واصلت الذود عن حريتها طيلة تلك المدة . ولم ينجح الفرنسيون فى انهاء الحرب واخضاع البلاد الا بعد انصرام ٢٠ عاما على توطيد حمايتهم فى مراكش .

الفصل الثالث والعشرون

استيلاء الايطاليين على ليبيا

التهيؤ الدبلوماسي للفتح . تمّ الاستيلاء على ليبيا فى نفس الوقت الذى فتحت فيه مراكش . وان اصطلاح « ليبيا » نفسه فى معناه الحديث هو من ابتداع الايطاليين الذين استعاروه من الجغرافية القديمة . وقد اطلق اليونانيون القدماء اسم « ليبيا » على شمالى افريقيا قاطبة ، بينما استعمل الايطاليون هذه الكلمة على المقاطعات الواقعة بين تونس ومصر ، وهى طرابلس الغرب وبرقة وفزان . وكان لكل من هذه المقاطعات الثلاث مصير تاريخى خاص بها فى القرون الوسطى اذ انجذبت برقة الى مصر ، وارتبطت طرابلس الغرب ارتباطا وثيقا بتونس . ولم تضم المقاطعات الثلاث فى وحدة ادارية متماسكة ، وهى باشوية طرابلس الغرب ، الا فى القرن السادس عشر بعد استيلاء الاتراك عليها .

وفى ١٨٣٥ وجه السلطان التركى محمود الثانى ، الذى قام بسياسة مركزة الامبراطورية العثمانية ، الى طرابلس الغرب قوات تركية وازاح الاسرة القرمانية الانكشارية عن السلطة واخضع باشوية طرابلس الغرب كلية . واعيد تنظيم الباشوية كايالة تركية اولا ، ومن ثم كولاية يديرها الحكام الذين تعينهم الحكومة المركزية .

وان تغلغل الاتراك فى انحاء البلاد الداخلية وسعيهم الى انزال حامياتهم وقيامهم بجباية الضرائب واجه مقاومة عنيفة من القبائل المحلية التى قامت بانتفاضات متكررة ضد السلطات التركية . وقادت هذا النضال الطريقة الدينية السنوسية ، نسبة الى مؤسسها

محمد السنوسي . وكان هذا الجزائرى البربرى الاصل قد حصل على تعليمه الاساسى فى مستغانم وفاس . وبعد ان مكث طويلا فى مكة والقاهرة ذهب الى برقة واسس فيها بضع زوايا بضمنها زاوية فى واحة جغبوب (١٨٥٥) التى غدت فيما بعد مقره ومركزا للحركة السنوسية . وعقب وفاة السنوسي فى عام ١٨٥٩ ، ترأس الطريقة ابنه محمد المهدى (١٨٥٩ـ١٩٠١) الذى نقل مقره فى عام ١٨٩٥ الى الجوف فى واحات الكفرة . واستنادا الى الزوايـا الكثيرة العدد (١٠٠ زاوية فى ١٨٨٤) انشأ منظمة دينية-عسكرية قوية ضمنت سلطة الوجهاء السنوسيين على القبائل الليبية والواحات . وقـام زعماء السنوسية بتوطين البدو الرحل على مقربة من الزوايـا واجبروهم على زراعة الارض لصالحهـم . وشجـع السنوسيون التجارة ناشرين بذلك نفوذهم بعيدا فى قلب افريقيا .

واضطر خلفاء المهدى ، وخاصة ابنه محمد ادريس ، الى الاشتباك مع عدو جديد اى مع ايطاليا الامبريالية . ففى نهايـة القرن التاسع عشر اثناء اقتسام افريقيا قدمت دولتان مطاليبهما بخصوص طرابلس الغرب : فمن جهة قامت فرنسا التى استندت الى تونس كرأس جسر ، بضمّ الواحات الواقعـة على حدود طرابلس الغرب الى الارض التونسية بصورة تدريجية ؛ ومن جهـة اخرى بذلت ايطاليا جهودها للحصول على حصة مناسبة فى طرابلس الغرب وكانت تعتبر نفسها مغبونة اثناء اقتسام افريقيا .

ومن المستبعد ان تكون ايطاليا قد قدمت مطاليبها مدفوعة باعتبارات اقتصادية . اذ لم تكتشف فى طرابلس الغرب اية انواع ثمينة من الخامات وكل ما كانت تقدمه هذه البلاد هى التمور ووبر الابل والاسماك والاسفنج . الا ان طرابلس الغرب عوضا عن ذلك كانت تشكل بحد ذاتها قاعدة ملائمة للفتوحات المقبلة فى افريقيا او كرأس جسر حيث تتمكن ايطاليا التوسع فى المستقبل منطلقة منه الى كافة الجهات . واعطت الحيازة على طرابلس الغرب امكانيـة تهديد تونس الفرنسية ومنطقة بحيرة تشاد ومصر الانكليزيـة والسودان الشرقى .

واعدت ايطاليا العدة للاستيلاء على طرابلس الغرب منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر . وقبل كل شيء استعدت لذلك استعدادا سياسيا متينا . ففي ١٨٨٧ عقدت ايطاليا اتفاقية مع انكلترا والنمسا-المجر حول الوضع الراهن في البحر الابيض المتوسط . وكانت هذه الاتفاقية موجهة ضد فرنسا ، اي ضد المطامع الفرنسية في طرابلس الغرب ومراكش . وبموجبها تعهدت انكلترا والنمسا وايطاليا بالاحتفاظ بالوضع الراهن في البحر المتوسط . الا ان هذه الدول الثلاث اشارت الى انها لا تعطي مجالا لاي دولة اخرى من ان تتحكم في سواحل شمالي افريقيا في حالة تغير الوضع الراهن . وبكلمة اخرى ، رفضت انكلترا والنمسا-المجر وايطاليا جميع مطاليب فرنسا في ليبيا ومراكش . ومن جهة اخرى، وعدت ايطاليا بمساندة مطامع بريطانيا العظمى في مصر بينما طالبت من انكلترا مساندة ما قد تتخذه ايطاليا من تدابير في اية نقطة اخرى من ساحل شمالي افريقيا، وخاصة في طرابلس الغرب وبرقة.

وأرفقت باتفاقية استئناف التحالف الثلاثي ، اتفاقية المانية-ايطالية خاصة عام ١٨٨٧ اشترط فيها بالا تسمح هاتان الدولتان بتوطيد مركز فرنسا في مراكش وطرابلس الغرب وفي حالة اتخاذ فرنسا اي تدابير في هذين القطرين فعندئذ تساند المانيا ايطاليا في حربها ضد فرنسا . وعقدت في الوقت ذاته اتفاقية ايطالية-نمساوية سرية تنص على انه في حالة خرق الوضع الراهن في البحر الابيض المتوسط فلا يجري اقتسام بلدان البحر الابيض المتوسط الا وفق اتفاقية تعقد على اساس مبدأ التعويضات المتبادلة . وعقدت اتفاقية سرية شبيهة في ١٨٨٧ بين ايطاليا واسبانيا . وهكذا حصلت ايطاليا منذ ١٨٨٧ على مصادقة من انكلترا والمانيا والنمسا واسبانيا تخولها فتح طرابلس الغرب .

وفي ١٩٠٠ عقدت ايطاليا اتفاقية مع فرنسا حول تحديد مناطق النفوذ في البحر الابيض المتوسط . وبموجبها تخلت فرنسا لصالح ايطاليا عن جميع مطامعها في طرابلس الغرب ، ولقاء ذلك منحتها ايطاليا حرية العمل في مراكش . واقرت هذه الاتفاقية في عام ١٩٠٢ ثم اعيد ابرامها في تشرين الاول /اكتوبر/ ١٩١٢

عندما اعترفت فرنسا وايطاليا باستيلائهما بصورة متبادلة الذى قد تم فى السابق .

وكانت هنالك دولة اوربية اخرى ، حصلت منها ايطاليا على مصادقة ديبلوماسية للاستيلاء على طرابلس الغرب ، وهى روسيا . واستنادا الى اتفاقية ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٩ ، التى ابرمت بشكل مذكرتين متبادلتين فى ركونيجي (بالقـرب من تورين) ، اعترفت ايطاليا بادعاءات روسيا فى منطقة المضايق لقاء اعتراف الاخيرة بادعاءات ايطاليا فى طرابلس الغرب وبرقة .

وقد وقف الرأى العام والصحافة فى روسيا وفرنسا وانكلترا والمانيا ضد مغامرات ايطاليا التوسعية فى طرابلس الغرب . فكتبت الصحف عن اعمال السلب التى قامت بها ايطاليا وعن خرقها الفاضح للحقوق الدولية . الا ان كافـة الدول اتخذت موقف عدم التدخل التام فى الخلاف الايطالى-التركى . وعندما وقع النزاع فى آخر الامر والتمس سفراء تركيا من حكومات بطرسبورغ ولندن وباريس وبرلين وفينا التوسط ، اجاب وزراء الخارجية ببرود بان هذا الامر لا يخصهم فى الواقع . وقالوا : «ان هذا هو خلاف يخصكم وايطاليا ، وعليكم ان تحاولوا تسويته كيفما تريدون» .

وهكذا ضمنت ايطاليـا فتح طرابلس الغرب عن طريـق الاتفاقيات السرية ، وهى صفقـات عقدت على حسـاب الشعوب الضعيفة . وساندت انكلترا ايطاليا لانها فضلت وجود ايطاليـا الضعيفة بجوار مصر ، معتبرة بأن التوسع الايطـالى هو توازن للتوسع الفرنسى والالمانى فى طرابلس الغرب (قدمت الماتيـا فى ١٩١١ مشروعا لانشاء قاعدة عسكرية-بحرية فى طبرق) . ودفعت المانيا والنمسا-المجر الى ايطاليا ثمن اسهامها فى التحالف الثلاثى . بينما دفعت فرنسا الى ايطاليا ثمن تخليها الفعلى عن التحالف الثلاثى وعدم تدخلها فى الشؤون المراكشية . وساندت روسيا ايطاليا لقاء وعدها بمساندة النشاط الروسى فى المضائق .

وبالاضافة الى التهيؤ الدبلوماسى ، قامت ايطاليا باستعدادات وافية فى داخل طرابلس الغرب . ففى ١٩٠١ زارها وفد برلمانى ايطالى . وقام ضباط الاسطول الايطالى الذين كانوا يرتدون لباس

الصيادين باصطياد الاسفنج عند سواحل طرابلس الغرب ، حيث مسحوا سواحلها فى الوقت ذاته .

وابتداء من ١٩٠٠ دعت الصحافة الايطالية الحكومة الى فتح طرابلس الغرب كمنطقـــة «كانت تعود بصورة طبيعيـــة» الى الايطاليين . وفى هذه المرحلـــة بالذات ، اخرج احد الجغرافيين الايطاليين من سجلات تاريخ الماضى القديم اصطلاح «ليبيا» واطلقه على ولاية طرابلس الغرب . وفتح اكبر البنوك الايطاليـــة فرعا له فى طرابلس الغرب . وابتاع الايطاليون الاراضى فى طرابلس الغرب بواسطة اشخاص صوريين ، وانشأوا مشاريع زراعية . واحتكرت شركات البواخر الايطالية الاتصال بين طرابلس الغرب واوربـــا . واعد المهندســـون الايطاليـــون مشروع سكـــة حديـــد طبرق ــ الاسكندرية .

وافترضت ايطاليا على انشاء قاعدة عسكرية بحرية فى طبرق ، فى اكثر الخلجان صلاحا لذلك على السواحل الليبية . وقطنت بعثات كاثوليكية ايطالية فى طرابلس الغرب وفتحت مدارس ايطالية فيها. ونشرت فى ايطاليا مطبوعات كثيرة عن طرابلس الغرب ، وصـــار الجغرافيون الايطاليون يسمّون هذه البلاد «بارضهم الموعودة» .

الحرب الايطالية-التركية ١٩١١ . وفى ١٩١١ قرّرت ايطاليا استغلال الازمة الدولية ، الناجمة عن «قفزة الفهد» ، للاستيلاء المباشر على طرابلس الغرب . ولاقتحامها ، اختارت ذريعة سخيفة . ففى ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩١١ ، قدمت ايطاليا الى تركيـــا انذارا نهائيا جاء فيه ان ايطاليا قد الهمت بتشميل «نعم التقدم» على طرابلس الغرب وان عمل ايطاليـــا «المشروع» هذا اصطدم بمقاومة الباب العالى . ولما كانت ايطاليا لا تريد اضاعـــة الوقت باجراء مفاوضات لا جدوى فيها ، لذا قررت احتلال طرابلس الغرب وبرقة عسكريا ، صيانة لكرامتها وحفاظا على مصالحها . واستنادا الى ذلك ، اقترحت على تركيا ان تأمر موظفيها بعدم مقاومـــة الاحتلال الايطالى . وأمهلت تركيا ٢٤ ساعة لتنفيذ هذا المطلب .

فقدمت تركيا الى الدول الاوربية قضية الوساطة ، الا انها لم تحظ باسناد منها . وأمام تواطؤ الدول الصامت ، ردت تركيا على

الانذار الايطالي باسلوب مسالم للغاية . اذ قالت بان حكومة تركيا الفتاة الجديدة لا تستطيع تحمل المسؤولية عن وضع تكون في عهد حكومة سابقة ، وبانها لا تضمر ايّ عداء ازاء المشاريع الايطالية في طرابلس الغرب وبرقة . وهي مستعدة لتطمين جميع المطاليب الايطالية التي لا تتنافى وكرامة تركيا ومصالحها . الا انها تمانع بصورة قاطعة الاحتلال الايطالي .

وبعدما استلمت ايطاليا جواب تركيا اعلنت عليها الحرب في اليوم ذاته اى في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩١١ .

وعلى حين غرة فوجئت تركيا بالحرب . ولم يكن في طرابلس الغرب في بداية الحرب لا وال ولا قائد حربي تركي . وكانت تتألف القوات المسلحة التركية في ولاية طرابلس الغرب من فرقة فقط تضم ٧ آلاف شخص . وعم البلاد الجوع . وعرض الاسطول الايطالي طرابلس الغرب الى حصار بحرى ؛ ولم يكن بوسع الاتراك من جراء ذلك نقل الامدادات ولا المواد الغذائية . وفي الواقع حاصرت انكلترا طرابلس الغرب من جهة اليابسة ، برفضها السماح للقوات التركية بالمرور عبر مصر . وقد بلغ تعداد فيلق الحملة الايطالية ٣٤ ألف شخص ، ثم وصل الى ٥٥ الف شخص في عام ١٩١٢ . وكانت لدى فيلق الحملة مدفعية خاصة بالجبال والحقول والقلاع ، وتلغراف لاسلكي وسلاح الطيران ، الذى استخدم لاول مرة في العمليات الحربية . وقصف الاسطول الايطالي السواحل التركية وانزل قوات الى جزر الدوديكانيز . واحتلت في الوقت ذاته ولاية طرابلس الغرب . واحتل جنود الانزال مدينة طرابلس الغرب في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١١ ، ودرنة في ١٨ تشرين الاول ، وبنغازى في ١٩ منه ، والخمس في ٢٠ منه .

وبعد ما استولت القوات الايطالية على هذه المدن الساحلية الاربع ، اعلنت حكومة روما ضم ولاية طرابلس الغرب بتاريخ ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١ . وعرفت هذه البلاد منذ ذلك الحين بـ « ليبيا » التي كانت تحت سيادة ايطاليا المطلقة والتامة .

وبناء على تفوق القوات الايطالية المطلق ، حسب الايطاليون ان الاستيلاء على البلاد سيتم بسرعة . ولكن القضية اتخذت مجرى

آخر . اذ ابدت القبائل الليبية مقاومة عنيفة ضد الغزاة . ففى ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١١ اباد العرب قسما كبيرا من جنود الانزال الايطاليين الذين كانوا قد انزلوا الى طرابلس الغـرب ، وشرعوا بكفاح شاق متواصل فى سبيل استقلالهم . وفى غضون شتاء ١٩١١-١٩١٢ احتمى الايطاليون فى المدن الاربع المارة الذكر . وفى صيف ١٩١٢ احتلوا بعض المراكز الساحلية ايضا . فقد احتلوا مصراتـــة فى ٨ تموز (يوليو) ، وزوارة فى ٦ آب (اغسطس) ، وزنزور فى ٢٠ ايلول . وعندما استسلمت تركيـا فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٢ وعقدت الصلح مع ايطاليا ، لم يكن الايطاليون بعد قد احتلوا الساحل بكامله ولم يشرعوا بعد فى احتلال انحاء البلاد الداخلية .

وكتب لينين بصدد انتهـــاء الحرب الايطالية-التركيـــة : « "انتصرت" ايطاليـا . وهرعت منذ عام مضى الى نهب الاراضى التركية فى افريقيا ، واصبحت طرابلس الغرب منذ ذلك الحين تابعة الى ايطاليا ... فما هى العوامل التى استدعت الحرب ؟ انها طمع كبار الماليين والرأسماليين الايطاليين ... واى حرب كانت هذه ؟ انها مذبحة متهذبة متمدنة للناس ، وهى ابادة العرب بمعونـة "احدث" الاسلحة » .* وقد وصف لينين فى مقاله هذا وحشيـة الامبرياليين الايطاليين ، الذين ذبحوا عوائل بكاملها وقتلوا النساء والاطفال . وبلغ مجموع عدد القتلى ١٤٨٠٠ وشنق الف عربى . واستنتج لينين : « بالرغم من "الصلح" ستستمر الحرب وما دامت القبائل العربية فى داخل القارة الافريقية وبعيدة عن الساحل فهى لن تخضع . وسوف "يتمدنون" ، خلال مدة طويلـة بالحراب والرصاص والحبال واغتصاب النساء » .**

وتحققت تنبؤات لينين كلية . اذ لم تخضع القبائل العربية

---

* لينين ، نهاية حرب ايطاليا ضد تركيا ، - مجموعـة المؤلفات الكاملة الروسية ، المجلد ٢٢ ، ص ١١٣ .

** نفس المصدر ، ص ١١٤ .

فى داخل القارة ، بل واصلت حربها ضد ايطاليا فى غضون ٢٠ عاما عقب اندحار تركيا .

صلح لوزان عام ١٩١٢ . لم تستطع تركيا مواصلة الحرب ضد ايطاليا نظرا لبداية الحرب البلقانية ، ولهذا لجأت الى عقد الصلح معهـــا . وفى ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٢ وقعت اتفاقية تمهيدية (سرية) ، وفى ١٨ منه أبرمت اتفاقيـــة السلم النهائية فى لوزان . ولم تعترف تركيا شكليا بالسيادة الايطالية على ليبيا . ولم تتعهد الا بسحب قواتها واستدعاء موظفيها من ليبيا .

واستنادا الى الاتفاقية الايطالية-التركية السرية ، التى أبرمت فى ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٢ ، عدت ايطاليا باستحالة الغاء القانون الذى اعلن سيادتها * على طرابلس الغرب وبرقـة ؛ وأعلنت تركيا من جانبها عن استحالـــة اعترافهـــا الشكلى بهذه السيادة . وعليه تعهدت تركيا باصدار فرمان سلطانى يمنح سكان طرابلس الغرب وبرقـــة «حكما ذاتيا مطلقـــا تاما» يؤمن لهما الانتقال الى ظل «القوانين الجديدة» . بينما تعهدت أيطاليا باعلان العفو العام وبمنح حرية الدين الاسلامى وبالاحتفاظ بالاوقاف وكذلك بتقبل الممثل التركى وتعيين لجنة بمساهمة الوجهاء المحليين لاعداد جهاز مدنى وادارى لهاتين المنطقتين . وتعهدت تركيا بعدم الارسال قواتها الى طرابلس الغرب وبرقة . وقد تقرر بان تثبت الحكومة الايطالية مقدما ممثل السلطان فى ليبيا ورؤســـاء الدين المسلمين ، الذين كانوا خاضعين الى السلطان التركى كخليفة .

وفى الواقع لم تراع احكام اتفاقية الصلح التمهيدية التى أبرمت فى ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٢ ، والتى نصت على اقامة حكم ثنائى ايطالى-تركى من نوع خاص على ليبيا . واعتبرت ايطاليا ليبيا مستعمرة اعتيادية تابعة لها . الا ان تركيا لم توافق على ذلك . اذ لم تتنازل تنازلا تاما عن حقوقها وسيادتهـــا على طرابلس الغرب وبرقة الا عقب الحرب العالمية الاولى ، وذلك وفق اتفاقية صلح لوزان لعام ١٩٢٣ . اما فيما يخص الدول الاوربية ، فانها اعترفت

---

* سيادة ايطاليا . ــ **المترجمة** .

بالسيادة الايطاليـــة على ..نين المنطقتين عقب انتهـــاء الحرب الايطالية-التركية وعقد اتفاقية لوزان لعام ١٩١٢ مباشرة .

حرب ايطاليا ضد القبائل العربية . وبالرغم من «الصلح» استمرت العمليـات الحربيـــة في ليبيـا . ففي ١٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٢ احتل الايطاليون طرهونة . وقبيل انتهاء هذا العام ، احتلوا السواحل الغربية من سرت . وفي نيسان (ابريل) ١٩١٣ سارت القوات الايطالية عبر الجبال المتاخمة الى سواحل طرابلس الغرب واحتلتها في غضون ٣ اشهر . واقتحمت في الوقت ذاته الجبل الاخضر (وهو جبل في برقة) ، الا ان فصائل الانصار ، التي كونها السنوسيون هناك ، انزلت بالقوات الايطالية عددا من الهزائم .

وأعلن السنوسيون الجهاد المقدس ضد ايطاليـــا . فاضطر الايطاليون الى التراجع عن انحاء برقة الداخلية واكتفوا باحتلال المراكز الساحلية . وفي ٢٩ نيســان (ابريل) ١٩١٣ احتلـــوا توكرة ، وفي آب (اغسطس) ١٩١٣ احتلوا سواحل سرت الواقعة الى جنوب بنغازي .

وفي ١٩١٤ كان الايطاليون على وشك احتلال فزان بعدمـــا افتتحوا عاصمتها مرزوق . الا انهم أبعدوا عقب بدايـــة الحرب العالمية الاولى عن جميع انحاء البلاد . وقبيل بداية عام ١٩١٦ نجحوا في الاحتفاظ بمدينتين فقط وهما طرابلس الغرب والخمس . وانتقل قسم ليبيا الشرقي برمته الى سلطة السنوسيين .

وأسندت القيادة الالمانية-التركيـــة كفاح السنوسيين ضد ايطاليا . وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ استغلهم الالمـــان والاتراك للهجوم على رأس الجسر الانكليزي في مصر من ناحيـــة السلوم . وقبيل حلول شباط (فبراير) ١٩١٦ افلح الانكليز في صدّ هذا الهجوم . وفي تموز (يوليو) من نفس العام عقدت انكلترا اتفاقية مع ايطاليا حول الكفاح المشترك ضد السنوسيين ، وانضمت الى هذه الاتفاقية فرنسا في آذار (مارس) ١٩١٧ . وفي نيســـان (ابريل) ١٩١٧ عقدت انكلترا وايطاليا اتفاقية مع محمد ادريس السنوسي ــ احد قادة السنوسيين ، واعترفتا به «اميرا» . ووعدتاه

بالمؤونة والسلاح لقاء تعهده بالكف عن الكفاح ضد انكلترا وايطاليا ومقاومة الخطط الالمانية-التركية . الا ان قسما اكبر من السنوسيين الموجودين فى شرقى ليبيا بقيادة احمد شريف السنوسى (١٩٠١-١٩٢٥) - الزعيم الرئيسى للطريقة السنوسية ، وكذلك القبائل السنوسية الموجودة فى غربى ليبيا التى يقودها محمد العابد ، واصل الكفاح ضد انكلترا وايطاليا وفرنسا . وفى غمرة هذا الكفاح اظهرت ايطاليا عجزها التام . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩١٧ توفق الايطاليون فى الاستيلاء من جديد على زوارة ، واستولوا فى نهاية هذا العام على جميع الساحل الممتد بين طرابلس الغرب وزوارة . وبهذا كانت خاتمة انتصاراتهم .

وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٨ ، عقب انتهاء العمليات الحربية فى اوربا ، انزلت ايطاليا الى طرابلس الغرب جيشا مؤلفا من ٨٠ ألف جندى وبدأت مفاوضات مع رؤساء البدو فى غربى ليبيا ، باذلة الجهود لدفعهم على الاستسلام . الا ان المفاوضات لم تنجح . فاستأنفت ايطاليا العمليات الحربية فى شباط (فبراير) ١٩١٩ .

ولم يستطع الغزاة الايطاليون تحطيم مقاومة القبائل الا بعد مرور ١٣ عاما اخرى وقد تميزت العمليات الحربية التى كانت تجرى فى البلاد تارة فى ناحية وطورا فى ناحية اخرى ، بمقاومة عنيدة وببطولة فائقة ابداهما الشعب الليبى . ولم يكن بوسع الطغمة الحربية الايطالية اخضاع البلاد وانجاز احتلال ليبيا واستعمارها الا فى عام ١٩٣٢ بعد مذابح جماهيرية وتنكيلات وحشية بالقبائل المحبة للحرية .

الفصل الرابع والعشرون

سوريا وفلسطين والعراق فى نهاية القرن التاسع عشر

الاستعباد المالى لتركيا . بقيت سوريا وفلسطين والعراق فى اواخر القرن التاسع عشر اقاليم تابعة للامبراطورية العثمانية . وخلافا لمصر او السودان ، كانت صلاتها بالباب العالى ابعد من ان تكون مجرد صلات شكلية . اذ كان تاريخ الاقطار العربية فى آسيا الغربية فى تلك الحقبة مرتبطا ارتباطا وثيقا بتاريخ تركيا ، ولا يمكن النظر الى هذا الجزء من الشرق الاوسط بمعزل عن التاريخ العام للامبراطورية العثمانية .

وقد ادى تطور الرأسمالية فى اوربا وامريكا الشمالية قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، الى انتقالها الى المرحلة الاخيرة ، وهى مرحلة الامبريالية . بينما لم تكن متوفرة فى تركيا وممتلكاتها العربية سوى اولى مقدمات الرأسمالية . وقد تأخرت فيها تأخرا كبيرا عملية تفسخ واضمحلال التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية . ورغم انه كان قد بدأ فيها الانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية ، الا انه كان يجرى بوتائر بطيئة للغاية وفى ظروف متناقضة الى اقصى حد .

وقد تحولت تركيا الى سوق للتصريف ثم الى شبه مستعمرة للدول الاوربية الرأسمالية . وقد مهدت السبيل الى الرأسمال الاجنبى مرحلة التنظيمات الثانية التى بدأت « بخطى همايون » عام ١٨٥٦ والتى اكتسبت ، بحكم صلح باريس ، شكل الالتزامات الدولية وفتحت بابا للرأسمال الاجنبى . اذ تعهدت تركيا بمنح امتيازات السكك الحديدية والبنوك وصناعة التعدين وغيرها من

الامتيازات الى الرأسماليين الاجانب . كما منحتهم حق شراء الاراضى فى الامبراطورية العثمانية ، واعطت عملاءهم المحليين (من التجار الارمن واليونانيين والعرب-المسيحيين) عددا من التسهيلات . وهكذا كان صلح باريس لعام ١٨٥٦ فاتحة لتحويل تركيا وممتلكاتها العربية الى شبه مستعمرة للرأسمال الاجنبى .

والى جانب هذا كانت الحرب الشرقية للاعوام ١٨٥٣-١٨٥٦ التى سبقت صلح باريس ، بداية لاستعباد تركيا ماليا . ففى ابان الحرب ، اى فى عام ١٨٥٤ ، عقدت تركيا لتسديد النفقات العسكرية ، اول قرض خارجى علما انه منح لها وفق شروط مجحفة . اذ استلمت تركيا نقدا ٦٠ مليونا فقط من مجموع ٧٥ مليون فرنك وهى قيمة القرض الاصلية . وخصصت الجزية التى كانت تدفعها مصر ، كضمان لهذا القرض . وفى عام ١٨٥٥ أبرم القرض الثانى ومبلغه ١٢٥ مليون فرنك وقد خصص ايضا لتسديد النفقات العسكرية . كما أخذت مداخيل جمارك ازمير وسوريا ضمانا له . وتلا ذلك قرض فى عام ١٨٥٨ بمبلغ ١٢٥ مليون فرنك ، لم تستلم منه تركيا فعلا الا ٩٥ مليونا . واعتبرت مداخيل جمارك استانبول ضمانا له . ثم تلاه احد عشر قرضا : قرض فى كل من الاعوام ١٨٦٠ ، ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ ، قرضان عام ١٨٦٥ ، والستة الباقية فى ١٨٦٩ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧١ ، ١٨٧٢ ، ١٨٧٣ و١٨٧٤ . وهكذا حدث فى تركيا نفس ما جرى فى مصر ، الا انه كان على نطاق اوسع . وقبيل ١٨٧٤ بلغت قيمة القروض الاسمية ٥٣٠٠ مليون فرنك ، اى ما يربو على مليارى روبل ذهبى . ولم تستلم تركيا من هذا المبلغ الاسمى سوى ٣٠١٢ مليونا نقدا او ٥٦,٨٪ من قيمته الاسمية . وحسمت البنوك (الفرنسية على الاغلب والانكليزية الى حد ما) ما يربو على مليارى فرنك او ٤٣,٢٪ كفوائض وعمولة وغير ذلك .

وقد لعب البنك العثمانى ، الذى تاسس فى ١٨٥٦ كبنك انكليزى وتحوّل فى ١٨٦٣ الى بنك انكليزى-فرنسى دورا كبيرا فى استعباد تركيا ماليا . وقام بنفسه بمنح القروض المجحفة والتوسط فى الحصول عليها من بنوك اخرى . واخيرا ، اسّس عددا

من الشركات الفرعيـــة ، التى حصلت على امتيـــازات فى اراضى الامبراطورية العثمانية درّت عليها بارباح طائلة .

فلماذا أبرمت تركيا جملة من القروض الجديدة اثر القروض العسكرية الاولى ؟ اثرت هنا نفس العوامل التى لعبت دورهـا فى مصر ، مع فارق وحيد وهو ان الاموال التى اقترضتها مصر كانت قد انفقت على تشييد قناة السويس بالدرجة الاولى . اما فى تركيـا فقد صرفت لمدّ السكك الحديدية ، التى شيدت على اساس الضمان بالكيلومترات . ويعنى ذلك انه كان على الباب العـــالى ، عند منح امتياز لتشييد السكك ، ان يكفل ارباحا معينة لاصحاب الامتيازات يتقاضونها من كل كيلومتر ممدود . وكان الفرق بين المبلغ الحقيقى المستلم والمبلغ المضمون للارباح ، يسدد على حساب الخزينـــة . وهكذا اصبح الضمان بالكيلومترات احدى الوسائل الرئيسية لنهب تركيا وممتلكاتها العربية نهبـــا ربويـــا من قبـــل الراسمـــال الاجنبى .

وان دفع الضمان بالكيلومترات تطلّب مبالغ طائلة ، مما دفع الحكومة التركية الى الالتجاء الى القروض الخارجية بحثا عن موارد لتسديده . وقد اضطرت الحكومة الى ان تخصص مداخيل الدولة لضمان القروض . فقامت بتخصيص الجزية المصرية والاربـــاح الجمركية اولا ثم ايراد ضريبة الاغنام وريع احتكارات الملح والتبغ وغير ذلك من المداخيل . وكلّما ازداد انفاق المداخيل التركيـــة لتسديد فوائض القروض ، كلما احتاجت تركيا الى قروض جديدة . وبسبب الضرائب المرتفعة فى الامبراطوريـــة ، فقد حاق الخراب التام بالاقتصاد الفلاحى . وبالرغم من الضرائب المرتفعة لم يتقاض صغار الموظفين والضباط ورجال الدين رواتبهم .

وفى ١٨٧٥ بلغ مجموع مداخيل تركيا ٣٨٠ مليون فرنك ، وكان يتحتم عليها صرف ٣٠٠ مليون فرنك منها كليا لتسديد اقساط القروض المستعجلة . وبسبب هذه الظروف اعترف الباب العـــالى بافلاسه فى ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٥ . واعلن بانه يدفع نقدا نصف الالتزامات على القروض لا اكثر ، اما النصف الثـــانى فيسدده بالسندات .

انقلاب العثمانيين الجدد ودستور عام ١٨٧٦ . ادّى افلاس تركيا ، مثلما كانت الحال فى مصر ، الى توتر وضع الامبراطورية العثمانية السياسى ، الداخلى والدولى . كما ان نير الصيارفة الاوربيين ومظالم الدولة التركية ، التى تحولت الى دولة عميلة للمرابين الاجانب ، اثارت موجة استياء عميقة بين اوسع الفئات حتى قبيل اعلان الافلاس . فعمت الامبراطورية العثمانية حركة فلاحية ، اشتدت بصورة خاصة فى الولايات البلقانية كالبوسنة والهرسك وبلغاريا .

وفى صيف ١٨٧٥ انتفض فلاحو البوسنة والهرسك ضد الاقطاعيين المسلمين وطالبوا بتطبيق الاصلاح الزراعى . وقد اتسمت الانتفاضة بطابع وطنى تحررى واسندتها صربيا وروسيا . وطالب الثائرون بفصل البوسنة والهرسك عن تركيا والانضمام الى صربيا . وفى تموز (يوليو) ١٨٧٦ شنت صربيا والجبل الاسود (مونتنيغرو)الحرب على الاتراك وكبدتاهم عددا من الهزائم . وقد ادّى هذا كله الى توتر الوضع فى البلاد مرة ثانية . ولوحظ فى كل مكان التذمر والاستياء من تصرفات السلطان عبد العزيز الذى اتهم بخيانة مصالح تركيا ارضاء للاجانب .

وفى ايار (مايو) ١٨٧٦ بدأت فى القسطنطينية تظاهرات شعبية . وفى ٢٢ منه توجه الى السلطان جمهور مؤلف من بضعة آلاف من طلاب المدارس الملحقة بالمساجد وانضم اليهم الحرفيون والتجار وصغار الموظفين . فوعدهم السلطان المذعور بدفع الرواتب المتأخرة وبوضع الدستور . ومع ذلك اتضح بعد بضعة ايام بان السلطان كان قد دخل سرا فى مفاوضات مع الاجانب . وعندئذ استدعت ثلة من الضباط القوات العسكرية والقت القبض على السلطان عبد العزيز فى ليلة الثلاثين من ايار (مايو) ١٨٧٦ واعلنت عزله ثم اجلست مكانه على العرش اخاه مراد الخامس المعروف بغباوته .

وكان العاملون النشيطون فى هذا الانقلاب ثلة من الضباط الاتراك والموظفين والمثقفين الاحرار ، الذين اطلقوا على انفسهم اسم بـ«يكى عثمانلر» اى «العثمانيون الجدد» . وقد تكونت هذه

الثلة في الستينيات من القرن التاسع عشر . وكان «العثمانيون الجدد» مستائين من الوضع في الامبراطورية العثمانية ومن نتائج التنظيمات المزرية ومن تغلغل الرأسمال الاجنبي . ويتلخص برنامجهم في ثلاث نقاط اساسية :

١) تنمية الرأسمالية الوطنية . وقد ورد في احدى مستندات «العثمانيين الجدد» : «دع العثمانيين انفسهم يؤلفون الشركات التجارية والصناعية في تركيا ، دع العثمانيين انفسهم يقومون بمد السكك الحديدية» .

٢) وضع نظام دستوري-برلماني .

٣) تطوير الثقافة البرجوازية والكفاح ضد نمط الحياة القديم ومعيشة الاتراك الخاصة للقرون الوسطى .

وقد اقتصر «العثمانيون الجدد» على النشاط التثقيفي الصرف . ففي ١٨٦٠ أسسوا «دار الفنون» وهي اشبه بقاعة محاضرات ، كان يحاضر فيها العلماء والكتاب والشخصيات الاجتماعية الاخرى . وفي ١٨٦٥ ألفوا جمعية سياسية سرية تمتاز نشاطاتها بنقصين جوهريين :

اولهما ــ ان «العثمانيين الجدد» ، كممثلين للقومية السائدة في الامبراطورية العثمانية ، كانوا قد اعتبروا الامبراطورية برمتها كسوق للبرجوازية التركية ولذلك رأوا ان من واجب الامبراطورية الاحتفاظ بسيادتها على الشعوب المغلوبة ، وتبنّوا اتجاها معاديا للحركات الوطنية-التحررية الرامية الى تحرير الشعوب المضطهدة من ربقة النير العثماني . ولتبرير سياسة الدولة الكبيرة هذه ، ابتدعوا نظرية سخيفة تؤكد وجود «امة عثمانية واحدة» . وقد انكرت هذه النظرية اصالة القوميات التي كانت تضمها الامبراطورية العثمانية ، بل وانكرت اصالة الاتراك انفسهم . وعرفت هذه النظرية في الادب «بالجامعة العثمانية» .

وثانيهما ــ ان «العثمانيين الجدد» كانوا معزولين عن الجماهير الشعبية ، ولذلك تمسكوا بتاكتيك الانقلاب لازاحة الطغمة الحاكمة ورجال القصر فقط . ففي ١٨٦٧ قاموا بمحاولة اولى لاجراء انقلاب في القصر . الا ان الشرطة اكتشفت هذه المؤامرة ، وألقى

القبض على اعضاء الجمعية السرية . وافلح بعض الاعضاء بالفرار الى خارج البلاد . وفى ١٨٧٣ عادوا الى الوطن الا انهم ابعدوا فورا الى انحاء مختلفة من تركيا .

وكان على صلة وثيقة «بالعثمانيين الجدد» مدحت باشا ، نصير الدستور والاصلاح الراسخ العقيدة ، الذى كان والى العراق من ١٨٦٩ الى ١٨٧١ . وفى ١٨٧٢ عين وزيرا اعظم ، الا انه سرعان ما احيل الى التقاعد لاختلافه مع السلطان . وفى ١٨٧٦ أسهم فى انقلاب ايار (مايو) مساهمة فعالــــة كواحد من قادة حركـــة «العثمانيين الجدد» .

وبعد مجىء «العثمانيين الجدد» الى السلطة واصلوا نشاطهم عن طريق تدبير الدسائس ضد الطغمة الحاكمة . اذ بعد مرور ٣ إيام على الانقلاب ازاحوا بصورة نهائية عبد العزيز ، الذى اغتيل فى ليلة الثانى من حزيران (يونيو) . وجاء فى البيان الرسمى ان «سمو البادشاه اودى بحياته فى نوبة جنونيـــة مما احل الاسف الشديد لرعاياه الامناء» .

وفى آب (اغسطس) ١٨٧٦ خلع السلطان مرة ثانية . اذ ان حالة مراد الخامس المعتوه الذى كان يقاسى من هوس التعقب ، كانت قد وصلت الى درجة لا يمكن معها ابقاؤه على العرش . فاتفق مدحت باشا واشياعه مع اخيه عبد الحميد الذى نودى به سلطانا فى ٣١ اب (اغسطس) . وسند عبد الحميد الثانى «العثمانيين الجدد» بصورة مؤقتة . ومع انه كان يمثل اشد فئات الطبقة الاقطاعية التركية رجعية ، الا انه عين مدحت باشا وزيرا وعهد اليه باعداد الدستور .

وان هذا الدستور ، الذى اعده مدحت باشا واجرى عليه عبد الحميد بعض التعديلات ، منح السلطان حقوقا واسعة . اذ اصبح السلطان بموجبه يعين ويعزل الوزراء ويعلن الحرب ويعقد الصلح ويعطل البرلمان ويبطل مفعول القوانين المدنية ويبعد دون محاكمة الشخصيات المشتبه بها . وكان البرلمان يتالف من مجلسين : مجلس الشيوخ الذى كان يعين السلطان اعضاءه ، ومجلس النواب الذى كان يتم اختيار اعضائه بناء على توفر شروط السن والاهلية وحيازة ملكية شاسعة تراعى بصرامة . واعترف بجميع رعايا السلطان ،

بغض النظر عن لغاتهم واديانهم المختلفة ، «كعثمانيين» يتمتعون بحقوق والتزامات متساوية . ومع ذلك اعتبرت اللغة التركية لغة الدولة الرسمية والاسلام دين الدولة .

ووقّت اعلان الدستور بافتتاح المؤتمر الدولى فى القسطنطينية ، الذى كان تناول قضية الاصلاحات فى الولايات البلقانية التركية . وفى ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧٦ سمعت الوفود قصف المدافع بينما كانت حاضرة فى قاعة الاجتماع . وقال الممثل التركى للمؤتمرين ان المدافع تقصف كتحية شرف للدستور . واردف قائلا : «اننى اعتقد بان لا جدوى فى عملنا ، نظرا لوقوع هذا الحدث العظيم» .

ومع ذلك لم تنل هذه المناورة مبتغاها . وفضلا عن ذلك فان رفض الباب العالى تلبية مطاليب الشعوب البلقانية ادى الى توتر العلاقات الروسية-التركية والى الحرب الروسية-التركية فى عامى ١٨٧٧-١٨٧٨ .

عهد الظلم (١٨٧٨-١٩٠٨) . ان الوضع الداخلى والدولى الذى كان قد نجم من الحرب الروسية-التركية ، سمح لعبد الحميد الثانى التخلص من الدستور ومن «العثمانيين الجدد» . اذ انه لم يكن يرغب فى الدستور فى الحقيقة اطلاقا . وانما استخدمه فى تمثيلية دبلوماسية ، وسوى ذلك فانه لم يشعر باية حاجة اليه .

وفى شباط (فبراير) ١٨٧٧ اعفى السلطان مدحت باشا من منصبه وابعده من العاصمة (اولا الى سوريا ثم الى الحجاز حيث اغتيل فى ١٨٨٣) . وبعد مضى عام ، اى فى ١٣ شباط (فبراير) ١٨٧٨ ، عطل الى اجل غير مسمى حتى ذلك البرلمان الحقير الذى تم اختياره فى بداية عام ١٨٧٧ ، والذى انصاع اليه كلية . وقد بقى ولم يلغ الدستور شكليا . اذ كان ينشر سنويا ، طيلة حكم عبد الحميد الثانى ، فى التقويم التركى الرسمى كقانون الدولة الاساسى .

وبعد تعطيل البرلمان وابطال مفعول الدستور طغى فى الامبراطورية العثمانية نظام سلطانى استبدادى عرف بعهد «الظلم» واصبح عبد الحميد الثانى حاكما مطلقا ذا سلطة غير متناهية فى الامبراطورية .

ولفهم حقيقة الظلم فمن الضرورى جدا الاطلاع على ماكتبه لينين فى مقاله «فصل جديد فى التاريخ العالمى» . كتب لينين انه «لم يتم حتى الآن ازالة بقايا القرون الوسطى القوية والتى تعيق بصورة مريعة التطور الاجتماعى والنمو للبروليتارية فى شرقى اوربا (النمسا والبلقان وروسيا) . وهذه البقايا هى السلطة المطلقة ــ او الحكم الاستبدادى الذى لا حدود له ، والاقطاعية ــ او ملكية الارض وامتيازات الاقطاعيين ، وقمع القوميات» . *

وتصف هذه النقاط الثلاث النظام الاجتماعى والسياسى للامبراطورية العثمانية فى عهد الظلم . اذ كانت ملكية الارض الاقطاعية اساس النظام الاجتماعى . كما كان كبار الاقطاعيين السند الرئيسى لعبد الحميد الثانى ، واحتلوا جميع المراكز القيادية فى الحكومة التركية . وكان عهد الظلم عهد الاضطهاد القومى الجائر والمذابح الجماهيرية . وقد غاص عبد الحميد الثانى فى دماء الارمن حينما قمع حركتهم الوطنية التحررية التى حدثت فى شرقى الاناضول خلال الاعوام ١٨٩٤ــ١٨٩٦ ، كما نكل باليونانيين الثوار فى جزيرة كريت عام ١٨٩٦ ، وخنق المطامح التحررية لسكان مكدونيا المسيحيين .

وفى عهد الظلم ، لم تكن البلاد تدار من قبل الحكومة بقدر ما كانت تديرها حاشية السلطان . وقد احاط عبد الحميد الثانى نفسه بالاقطاعيين القادمين من اشد الولايات تأخرا ، اى من الجزيرة العربية وكردستان . وقد كوّن الاكراد بقيادة الضباط الرجعيين من عرب وجراكسة ، ركيزة الخيالة غير النظامية «الحميدية» التى دوخت السكان المسيحيين فى الامبراطورية . وفى القصر لعب الاقطاعيون الجراكسة والالبانيون والاكراد والعرب الدور الرئيسى . وكانوا بمثابة حكومة البلاد الاصلية . وتمتعت آية جارية من جوارى السلطان بنفوذ اوسع من نفوذ وزرائه . وكانت هذه الحاشية برمتها متفسخة للغاية . وبالرشاوى ، كان فى وسع الرأسماليين

---

* لينين ، فصل جديد فى التاريخ العالمى ، ــ مجموعة المؤلفات الكاملة ، الطبعة الروسية ، المجلد ٢٢ ، ص ١٥٥ .

الاجانب ابتياع اى واحد من اصحـــاب الذوات وحتى السلطـــان نفسه .

وفى عهد الظلم ازدهرت فى الامبراطورية العثمانية الوشايـــة والتجسس المتبادل والوقيعة . اذ كان اصحاب الذوات الملتفّون حول السلطان يراقبون بعضهم البعض ويوشون بهم . وكانت عيون الشرطة اليقظة ترعى الحياة الاجتماعية برمتها فى الامبراطوريـــة العثمانية ، وكذلك عملاء الشرطة العديدون . وقد حرّم عبد الحميد الثانى توصيل القوة الكهربائية والتلفون الى قصره ، خشيـــة من استخدام حاشيته لهما لاغتياله .

وكانت ايديولوجية الظلم الرسمية هى الجامعة الاسلامية ، ولكن فى تأويلها الرجعى . اذ كيف عبد الحميد الثانى لاغراضه تعاليم جمال الدين الافغانى عن وحدة الشعوب الاسلامية . وكان يتلخص مثله الاعلى فى اقامة دولة اسلامية واحدة يحكمها هو نفسه بوصفه اميرا للمؤمنين . واراد ان يوحـــد تحت سلطتــــه مسلمى مصر (الخاضعين لانكلترا) ومسلمى افريقيا الشمالية الواقعين تحت ادارة فرنسا ومسلمى الهند البريطانية ومسلمى القفقاس وآسيا الوسطى والفولغا القاطنين فى روسيا . وحظيت هذه الخطط الامبريالية الفارغة بمساندة القيصر غليوم الثانى ، الذى اراد استغلال الاتراك فى الكفاح ضد دول الوفاق .

مرسوم شهر محرم . كان عهد الظلم اكثر الاشكال الحكومية ملائمة لتغلغل الرأسمال الاجنبى فى تركيا والاقطـــار العربيـــة ولاستعبادها اقتصاديا . وفى عهد الظلم تحقق بطريقتين الاستغلال شبه الاستعمارى لممتلكات عبد الحميد الثانى . وهذان الطريقـــان هما استغلال تركيا وولاياتها العربيـــة كسوق للتصريف ومصدر لتزويد الخامات من جهة ، والنهب الربوى بواسطة القروض المجحفة والضمان بالكيلومترات عند تشييد السكك الحديدية من جهة اخرى .

وفى نهاية القرن التاسع عشر ازدادت اهميـــة تركيا كسوق للتصريف ومزود بالمواد الخام . وخير دليل على هذا تداول التجارة الخارجى للامبراطورية العثمانية آنذاك . فطوال ثلاثين عاما سبقت

الحرب العالمية الاولى ، نمت التجارة الخارجية التركية اكثر من ضعفين (المتوسط السنوى فى مليون ليرة) :

العام	الواردات	الصادرات
١٨٨٠	١٧,٨	٨,٥
١٩٠٠	٢٣,٨	١٤,٩
١٩١٣	٤٠,٨	٢١,٤

وقد بلغت حصة سوريا والعراق وفلسطين زهاء ربع واردات وحوالى خمس صادرات الامبراطورية العثمانية .

وقد ادى نمو التجارة الخارجية الى توريط تركيا وممتلكاتها العربية بالانخراط فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى ، ولكن لا كاعضاء متساوين فى الحقوق بل كملحق يزود اقتصاد اوربا الرأسمالى بالخامات والمواد الزراعية . وكانت التجارة التركية قائمة على التبادل غير المتكافئ واتسمت بطابع استعمارى خاص . وكانت المواد الاساسية للاستيراد التركى هى المنسوجات والغزل ، وبضائع التصدير الرئيسية هى خامات الصوف والحرير وكذلك خامات الجلود والتبغ وجميع انواع الاثمار شبه الاستوائية .

وقد لعب الرأسمال الانكليزى ، كشأنه دوما ، اكبر دور فى التجارة التركية . ومع ذلك أخذ هذا الوضع يتغير فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر . فرغم محافظة انكلترا على وضعها السائد فى السوق التركية اخذت المانيا تزاحمها مزاحمة نشيطة . وقد ازداد استيراد البضائع الالمانية ازديادا كبيرا . فاذا كانت المانيا قد صدرت الى تركيا فى عام ١٨٨٢ بضائع تبلغ قيمتها ٦ ملايين مارك فانها صدرت اليها ما قيمته ٣٥ مليون مارك فى عام ١٨٩٥ .

وكانت الميزة الخاصة لعصر الامبريالية الناشئ هى التصدير المتزايد للرساميل التى حالت دون تطوير الامبراطورية العثمانية اقتصاديا . اذ لم تستخدم توظيفات الرساميل الاجنبية فى الصناعة بل لقروض الدولة ومد السكك الحديدية . وقد حصلت تركيا على ١٢ قرضا جديدا فى عهد الظلم وبتعبير ادق خلال الاعوام ١٨٩٠ــ ١٩٠٨ . وبلغت هذه القروض ٤٥ مليون ليرة . بينما بلغ مجموع

ديون الباب العالى الخارجية حتى فاتحة الحرب العالميـــة الاولى ١٥٢,٣ مليون ليرة . وكان دين الدولة هو الحقل الاساسى لتوظيف الرساميل الاجنبية فى تركيا ، بالاضافة الى شؤون الصيرفة وتشييد السكك الحديدية . وقد قدرت التوظيفات الاجنبية فى تركيا قبيل عام ١٩١٤ بمبلغ ٦٣,٤ مليون جنيه استرلينى وذلك بصرف النظر عن القروض . وقد خصص منها ٣٩,١ مليونا لمد السكك الحديدية و ١٠,٢ ملايين للبنوك . وبلغت التوظيفات الصناعية ٥,٥ ملايين جنيه استرلينى ، اى حوالى ٨٪ فقط من توظيفات الرساميل الاجنبية (بغض النظر عن دين الدولة) .

وقد انهك الرأسمال الاجنبى بربائه الفاحش مالية تركيا وادى الى انهيار البلاد المالى انهيارا تاما . وتلا الافلاس الاول لعام ١٨٧٥ افلاس جديد فى ١٨٧٩ . وفى ١٨٨١ أصدر السلطان ، وفقا لطلب الدول الكبرى ، ما يعرف بمرسوم شهر محرم الذى رسخ الرقابـــة الاجنبية على مالية الامبراطورية العثمانية . ووقع هذه المرسوم فى ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨١ الموافق ٢٨ محـــرم حسب التقويم الاسلامى ، ولهذا سمى بمرسوم محـــرم . وبمقتضى هذا المرسوم تم توحيد الدين العام للامبراطورية ، الذى حدد بمبلغ ٢,٤ مليار فرنك . وقد خفض مبلغ الدين باكثر من النصف ، ومع ذلك فانـــه فاق دين الباب العـالى الحقيـــقى بمقدار ٣٠٠ مليون فرنك .

وبغية ادارة الدين ، تأسست ادارة خاصة بدين الدولـــة العثمانية . وكانت تعتبر شكليا كمؤسسة عثمانية ، الا انها كانت فى الواقع فى قبضـــة الاجانب الذين يمثلون البنوك الفرنسيـــة والانكليزية والالمانية والنمساوية-المجرية والايطاليـــة . ولم تكن روسيا ممثلـــة فى مجلس ادارة الدين العثمـــانى . الا ان المبالغ المدفوعة الى روسيا كتعويضات حربية وقدرها ٣٠٠ مليون روبل (٨٠٢ مليون فرنك) كانت تتم بواسطة ادارة الدين . اما تركيـــا نفسها فلم يكن لدى ممثلها فى مجلس ادارة الدين العثمانى سوى صوت استشارى .

وقد تحولت ادارة الدين العثمانى الى وزارة مالية ثانيـــة فى

الامبراطورية العثمانية ، اذ كان يشتغل فيها ما يربو على ٥ آلاف موظف كانوا يعملون بموازاة جهاز الدولة التركيـــة ويتمتعون بصلاحيات واسعة للغاية .

واصبحت تحت تصرف ادارة الدين العثمانى اكثر المواد اهمية من مداخيل الدولة فى الامبراطورية العثمانية . فدرت فى خزينتهـا الارباح الواردة من احتكارات التبغ والملح ورسوم الطوابع ورسوم الانتاج على المشروبات الروحية وضريبة العشر لبعض الولايات ، وكذلك الجزية البلغارية وايرادات روملى الشرقيـــة وقبرص ، والفوائض من الرسوم الجمركية (فى حالة ازديادها) وغير ذلك .

وان ابتزاز ادارة الدين العثمانى واساليبها المتقنة فى السلب زاد فى وطأة النير الضرائبى فى الامبراطورية العثمانية . وتفرع من الادارة عدد من الجمعيات الصغيرة ، التى انهمكت فى النهب الربوى ايضا ، وكانت خاضعة لنفس المجموعات من الرأسمال الاجنبى . وفى عام ١٨٨٣ حول احتكار التبغ عالى الربح الى امتياز مستقل عرف « Régie cointeressée des tabacs Ottomans » مختصرا باسم « Régie » . وحصل الامتياز على حق احتكار شراء ومعالجة وبيع التبغ . وان تعسف الـ « Régie » أثر تأثيرا سيئـا فى وضع مزارع التبغ وخاصة فى سوريا .

تغلغل المانيا . اتخذ مدّ السكك الحديدية طابعا سياسيـا سافرا فى نهايـــة القرن التاسع عشر بعد ان كان قد استخدمـه الرأسماليون الاجانب كواسطة لاستنزاف ارباح خيالية . فاضحى وسيلة من وسائل التغلغل السياسى فى الامبراطورية العثمانيـــة . وتحول الى موضوع صراع حاد بين الامبرياليين .

وكان الكونت فون ملتكه ، وهو اكبر العلمـــاء العسكريين النظريين والعمليين الالمان من اول من لاحظوا مـا لمدّ السكك الحديدية من اهمية جديدة . ففى اواسط القرن التاســع عشر ، اقترح فى احدى مقالاته انشاء سكة حديديـــة عبر الامبراطوريـــة العثمانية كلها . وكتب بانه يجب ان تكون الامبراطورية الالمانية الموحدة الكتف الذى تمتد منه هذه اليد الحديدية ، ويجتاز بعدها آسيا الصغرى ، ثم تمتد اصابعها الى تخوم القفقاس والعراق والهند .

ومن الاربعينيات الى الستينيات من القرن التاسع عشر اعتبر علماء الاجتماع والاقتصاد الالمان الامبراطورية العثمانية كمستعمرة مقبلة لهم . وكتب العالم الاقتصادى الالمانى رودبرتس : «اتمنى ان اعيش حتى ذلك الوقت الذى ينتقل فيه الارث التركى الى المانيا وترابط افواج الجنود الالمان على سواحل البوسفور» .

وبعد اعادة وحدة المانيا هرع الملاكون العقاريون والرأسماليون الالمان الى تحقيق هذه الخطط التوسعية . وكانوا يحلمون بتحويل الامبراطورية العثمانية الى مستعمرة ألمانية ، وجعل العراق مخزنا يمون الامبراطورية الالمانية بالحبوب ومزرعة قطن خاصة بها . ورفضت الدبلوماسية الالمانية رفضا باتا الاسهام فى اى خطة من شانها تجزئة الامبراطورية العثمانية ، املا منها بان تغدو تركيا بأسرها خاضعة لسلطة المانيا . وقد تحقق التغلغل الالمانى بأساليب عسكرية واقتصادية وسياسية .

وفى ١٨٨٢ دعيت الى تركيا البعثة الالمانية العسكرية برئاسة فون دير غولتس ، ومكثت فيها ١٤ عاما . واصبح الكولونيل فون دير غولتس باشا تركيا وقام باعادة تنظيم الجيش التركى . وكانت المدارس الحربية تحت رقابة هذه البعثة . وانتشرت التقاليد الالمانية العسكرية بين صفوف جيش السلطان . واوفد الكثيرون من الضباط الاتراك الى المانيا بغية تدريبهم وانهاء تعليمهم العسكرى فيها .

وقد شرع الالمان فى الوقت ذاته ، بتحقيق خطط ملتكه الخاصة بالسكك الحديدية . ففى ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٨ حصل الرأسمالى الالمانى ألفريد كاولا ، الذى كان يعمل بالنيابة عن البنك الالمانى وبنك فورتمبرغ على امتياز مدّ سكة حديدية من البوسفور الى انقرة . وكان من المقرر ان تكون بداية الخط عند محطة حيدر باشا فى احدى نواحى القسطنطينية ، الواقعة على ساحل البوسفور الآسيوى . وقد قامت شركة انكليزية - يونانية بمد جزء من هذا الخط حتى ازميت . وابتاعت الحكومة التركية هذا الجزء من انكلترا وسلمته الى المانيا . واتخذ ألفريد كاولا على عاتقه مهمة مد السكة الى انقرة . ولم تكن هناك اية خطة لمدها الى بغداد آنذاك . ومع ذلك شرع بتشييد سكة جديد

بغداد ، التى لعبت دورا تاريخيا كبيرا فى تاريخ العلاقات الدولية فى عصر الامبريالية .

وبغية تقوية النفوذ الالمانى ، قام غليوم الثانى تظاهرا وابهة برحلتين مسرحيتين الى الشرق ، تمت اولاهما فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨٩ ، بعد ان تربع غليوم الثانى على العرش مباشرة . وكانت الرحلة محاطة بمظاهر كبيرة من الفخفخة . اذ استقبل السلطان نفسه الامبراطور على رصيف القصر تحت قصف المدافع كتحية لقدومه . وبأمر من السلطان ، سكت مدالية خاصة على شرف الضيف الالمانى . وورد فى البرقية التى بعث بها غليوم الثانى الى بيسمارك : «ان مكوثى فى القسطنطينية حلم سماوى» .

واستغلت الدبلوماسية الالمانية تناقضات الباب العالى مع الدول الاوربية الاخرى بمهارة . واشار الدبلوماسيون الالمان الى معاداة الدول الاوربية الكبرى لتركيا . فها ان انكلترا قد استولت على مصر وقبرص ، وفرنسا على الجزائر وتونس ، وقامت روسيا بضم قارص واردهان وبتحرير البلقان . وأكدت الدبلوماسية الالمانية بنفاق ، بان المانيا هى الدولة الوحيدة التى ليست لها مصلحة خاصة فى اضعاف تركيا واغتصاب اراضيها . واستخدم الالمان جميع الوسائل لتخويف السلطان من خطط الدول الكبرى سواء أكانت فعلية او وهمية .

ولعبت هذه السياسة دورا ملموسا فى التقارب الالمانى-التركى وفى ترسيخ الاشراف السياسى الالمانى على تركيا . وفى الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر حصل انقلاب فى السياسة التركية ومالت من الاتجاه الانكليزى القديم الى الاتجاه الالمانى الجديد . واصبحت المانيا «صديقة وحليفة» للباب العالى .

وقوّت الرحلة الثانية التى قام بها غليوم الثانى الى الشرق نجاح الدبلوماسية الالمانية . وتمت هذه الرحلة فى تشرين الاول ـ تشرين الثانى (اكتوبر ـ نوفمبر) ١٨٩٨ وكانت محاطة بمظاهر ترف وابهة اكبر مما كانت عليه الرحلة الاولى . وفى الرحلة الثانية لم يقم الامبراطور بزيارة القسطنطينية فحسب ، بل والقدس ودمشق ايضا . وتظاهر

بانه محام عن الاسلام ونصير له . كما قام بزيارة الاماكن المقدسة الاسلامية ووضع الاكاليل على ضريح صلاح الدين . وقال هناك : « ليكن سموّ السلطان على ثقة من ان امبراطور المانيا سيكون دوما صديقا حميما له والثلاثمئة مليون مسلم » .

ووقعت رحلة الامبراطور الثانية فى ابان الصراع الشديد حول امتيازات السكك الحديدية . اذ لم يكد ينتهى مد السكة الحديدية الى انقرة فى عام ١٨٩٢ ، حتى طلب الالمان امتيازا لمتابعة مدّها . وكان يجب ان تتفرع السكة ، قبل وصولها الى انقرة الى الجنوب وثم تدور الى الشرق ، اى الى قونية . وقد اثار هذا الامتياز احتجاج انكلترا وروسيا وفرنسا . الا ان المانيا اصرت الاحتفاظ بالامتياز وهددت بالوقوف ضد انكلترا فى القضية المصرية . فاضطرت انكلترا الى تغيير موقفها وحصلت الشركة الالمانية على الامتياز .

وفى ١٨٩٤ ، اى عندما تم مدّ السكة الحديدية الى قونية ، نشأت قضية مدّها الى بغداد ، فنشب صراع دبلوماسى حاد . وكانت تركيا مستعدة لمنح الضمان بالكيلومترات ، الا انها كانت خالية الوفاض . فاقترح الالمان رفع رسوم الاستيراد على الاسعار من ٨ الى ١١٪ . ومع ذلك فكان من الضرورى أخذ موافقة انكلترا وفرنسا وروسيا ، اى الدول التى كانت مرتبطة معها تركيا باتفاقيات تجارية .

فوافقت انكلترا على رفع الرسوم ، الا انها طالبت ، كتعويضات ، السماح للرأسمال الانكليزى بالمساهمة فى مدّ سكة حديد بغداد . واتخذت فرنسا الموقف نفسه . فنشأت قضية تدويل هذه السكة . واعترضت روسيا بصورة قاطعة على مد هذه السكة .

وفى ١٨٩٩ وافق الرأسماليون الالمان على تدويل سكة حديد بغداد . وبعدما احتفظوا فى ايديهم بكمية من الاسهم تسمح لهم بالسيطرة على الشركة وبمجموع ادارة السكة ، افترضوا بان يسمح للرأسمال الفرنسى والانكليزى بالاشتراك فيها . فنشأ عندئذ

نزاع طويل حول توزيع الاسهم والمناصب القيادية وغيرها من المناصب الادارية للسكك . وفى آخر المطاف رفضت الحكومة الفرنسية الاسهام فى مدّ السكة فانها لم تتوصل الى اتفاق مع الالمان بهذا الشأن .

وعندما فشل الالمان فى التوصل الى اتفاق مع الدول ، صمموا على مدّ المئتى كيلومتر الاولى من السكة بانفسهم . وفى ١٩٠٣ وقعت الامتيازات النهائية بخصوص ذلك ، الا ان الالمان لم يحصلوا على موافقة الدول لتغيير نسبة الرسوم ومد السكة الحديدية الا فى عام ١٩١١ .

مواقف انكلترا وفرنسا فى الاقاليم العربية التابعة لتركيا .

ظلّ الرأسماليون الفرنسيون والانكليز محتفظين بمراكز هامة فى الامبراطورية العثمانية وخاصة فى الانحاء العربية منها ، رغم اشتداد التغلغل الالمانى . وفى هذه الامبراطورية كانت منطقة النفوذ الفرنسى الرئيسة سوريا ولبنان ، ومنطقة النفوذ الانكليزى ـ العراق وجزء من فلسطين .

وقامت فرنسا بتحويل سوريا ولبنان الى مصدر للخامات الزراعية الرخيصة . ففى بداية القرن العشرين مثلا استهلكت ١/٣ صادرات سوريا . وقد سيطر الرأسماليون الفرنسيون فى الواقع على انتاج وتصريف خامات الحرير السورية التى استخدمت جميعها تقريبا فى معامل نسيج ليون . وكانت صناعة معالجة الحرير الاولية فى قبضة الرأسمال الفرنسى وعملائه من الكومبرادور . واعتمدت زراعة التبغ بكاملها فى سوريا على شركة « Régie » التى يسيطر عليها الرأسمال الفرنسى .

وفى سبيل الاسراع فى ابتزاز الخامات ، انشأ الفرنسيون ميناء كبيرا فى بيروت ومدوا جملة من خطوط السكك الحديدية ، التى كانت توصل انحاء البلاد النائية بالموانئ البحرية (كسكة حديد يافا ـ القدس ، وبيروت ـ دمشق) . وفتحت فى مدن سوريا وفلسطين الرئيسية فروع للبنوك الفرنسية وخاصة بنك ليون للاعتماد «Crédit Lyonnais» الذى لعب دورا قياديا فى استعباد البلاد ماليا .

واحتل الرأسمال الانكليزى مركزا سائدا فى العراق ، القطر الذى اصبح سوقا لتصريف البضائع الانكليزية ومصدرا لتزويدها بالمحاصيل الزراعية . وفى بداية القرن العشرين استورد العراق ثلثى وارداته تقريبا من انكلترا . وصدّر حوالى ثلث صادراته الى انكلترا والممتلكات الانكليزية فى الهند . واعتمد انتاج وتصريف محاصيل العراق الزراعية اعتمادا كليا على المصدرين الانكليز ، الذين كانوا يقيمون فى البصرة وبغداد . وكان فى قبضة الانكليز منذ عام ١٨٦١ امتياز لتاسيس طرق النقل النهرية عبر دجلة والفرات.

وفضلا عن ذلك يجدر القول ان الرأسماليين الانكليز والفرنسيين لم يكونوا الاسياد الوحيدين فى الاقطار العربية التابعة للباب العالى . اذ انهم اضطروا الى خوض صراع حاد ضد الرأسماليين البلجيكيين والنمساويين-المجريين والايطاليين . ومع ذلك كان الرأسمال الالمانى المنافس الرئيسى لهم فى الاقطار العربية وفى سائر انحاء الامبراطورية العثمانية . اذ فتح البنك الالمانى الشرقى «Deutsche Orient Bank» والبنك الالمانى الفلسطينى «Deutsche Palestina Bank» فروعا فى كثير من مدن سوريا وفلسطين . وبهذا الصدد كتب باول روهرباك ، احد العلماء النظريين للامبريالية الالمانية : «ان مستقبل المانيا فى الشرق ، يكمن فى آسيا الصغرى ، وسوريا ، وما بين النهرين وفلسطين . ويوجد منبع من اغنى منابع النفط فى العالم بجوار نينوى ، حيث تمر سكة حديد بغداد . وتتوفر فى بطون جبال طوروس مكامن هائلة للنحاس ومعادن اخرى . ويمكن ان يصبح سهل بابل اعظم مزود للحبوب والقطن فى العالم . وتوجد فى ما بين النهرين مراع تكفى لرعى ملايين الاغنام والنعاج . وهناك لدينا القسم الاكبر مما نحتاجه من المواد الخام ، بالاضافة الى انها محصورة كلها فى محل واحد» .

نضال جماهير الشعوب العربية ضد الظلم . اثار تغلغل الرأسمال الاجنبى والنظام البوليسى الصارم لعهد الظلم استياء واسعا . اذ كانت جماهير الشعوب العربية فى الامبراطورية العثمانية تقاسى من نوعين من الاضطهاد : اى من اضطهاد الرأسماليين

الاجانب ومن ظلم الباشوات الاتراك . ومع ذلك كان الشعب يعتبر عهد الظلم بتعسفه الاقطاعي-البيروقراطي والضرائبي المصدر الرئيسي والاساسي للكوارث التي حلت به . كما كان يعتبره السبب الاساسي للاستعباد الاجنبي .

وقد عمت موجة الاستياء من هذا العهد سواء بسواء بين ممثلي البرجوازية الوطنية والمثقفين الوطنيين وبين الجماهير الشعبية الواسعة ، كالفلاحين والحرفيين والطبقة العاملة الناشئة . وانعكس هذا الاستياء في تفشي روح المعارضة بين المثقفين العرب ضد الحكومة ، وفي الانتفاضات العفوية للجماهير الشعبية .

وفي ١٨٨٦ شبت انتفاضة فلاحية في جبل الدروز بقيادة شبلي الاطرش ، ممثل احدى الاسر الدرزية النبيلة . وكان يعرف بـ « صديق الفلاحين » وفي نضاله ضد الاتراك ، لقي تاييدا حارا بين الفلاحين الدروز . ولم تتضاءل الانتفاضة الا عندما وافقت السلطات التركية على التنازل وعينت الاطرش اميرا للدروز .

وفي ١٨٩٦ ابتدأت انتفاضة جديدة في جبل الدروز ردا على محاولة الاتراك تطبيق التجنيد الاجباري بين الدروز . وفي ١٨٩٩ اندلع لهيبها مرة اخرى عندما شرعت السلطات التركية في تشييد ثكنات عسكرية في السويداء ـ المركز الاداري لجبل الدروز . وسقط في المعركة التي خاضها الاتراك ضد الثوار ٥٠٠ تركي . ومع ان الاتراك قمعوا هذه الانتفاضة في آخر المطاف ، الا ان قلاقل جديدة نشبت في جبل الدروز في ١٩٠٦ .

وكانت اكبر الانتفاضات التي قام بها سكان المدن الاضطرابات والفتن التي وقعت في حلب (١٨٩٥) وفي بيروت (١٩٠٣) . وكانت كلها عفوية ومحلية ولم تشكل خطرا يهدد السلطات التركية . وقد قمع الاتراك بلا عناء هذه الانتفاضات الجماهيرية الشعبية المفككة الاوصال .

وقد ادّى الاستياء العميق الجذور ضد عهد الظلم الى تاليف جمعية سرية في بيروت في عام ١٨٧٥ ، ضمت فئة من المثقفين العرب . وترأس الجمعية ابراهيم اليازجي وفارس نمر . وكانت للجمعية فروع في دمشق وطرابلس والسويداء . ووزعت بعض

المناشير ، التى كان من شانها نشر اهداف ومهمات الجمعية . ودعا منهاجها الذى وضع فى ١٨٨٠ الى استقلال سوريا ولبنـــان والى الاعتراف باللغة العربية كلغة الدولة الرسمية ، والغاء الرقابـــة المفروضة على حرية الكلام ، وتحريم استخدام الملاكات العسكرية المحلية خارج حدود سوريا ولبنان . واخذت نشاطات الجمعيـة السرية المنعزلة عن الجماهير تتضاءل تدريجيا ، وانحلت الجمعية فعلا حوالى ١٨٨٥ .

واخر الاضطهاد البوليسى العنيف واسلوب الوشاية والتجسس الشامل ، تكوين وانتشار الافكار الوطنية التحررية . وقد لاذ بالفرار الى مصر واوربا وشمالى امريكا الكثيرون من زعماء المثقفين العرب تخلصا من اضطهاد عبد الحميد الثانى . وقد استطاعوا وهم فى المهجر التعبير ، بحرية اوسع ، عن وجهات نظر واماني مواطنيهم . وقام فارس نمر وعبد الرحمن الكواكبى وغيرهما بتوسيع نشاطاتهم فى مصر .

واعتمد الكثيرون من الوطنيين العرب فى كفاحهـــم ضد عهد الظلم الجائر على معونة جمعية تركيا الفتاة الثورية . وظنوا انهم يستطيعون بتحالفهم معها اسقاط عبد الحميد وتحقيق امانى العرب الوطنية ، ضمن اطار الامبراطورية العثمانية . ودافع آخرون عن فصل واستقلال البلاد العربية التام وظنوا انهم يستطيعون الاعتماد على معونة الدول الاوربية .

وفى ١٩٠٤ ألف نجيب عازوري فى باريس رابطـــة الوطن العربى(«Ligue de la Patrie Arabe») . وكان هذا العـــــربى المسيحى العضو الوحيد تقريبا فى الجمعية ، الا انه كان فى غايـــة النشاط . اذ نشر باسم الرابطة عددا من النداءات ، وفى ١٩٠٥ طبع باللغة الفرنسية كتاب « يقظة الامة العربية ــ «Le Réveil de la Nation Arabe» وفى ١٩٠٧ شرع باصدار مجلـــة « استقلال العرب ــ « L'Independence Arabe » . وكان شعار نجيب عازوري هو ــ « الاقطـــار العربيـــة للعرب » . ودعا فى نداءاتـــه الى الثورة وتأليف دولة من الولايات العربية مستقلة عن الباب العالى . ولم تكن مصر وبلدان شمالى افريقيا فى قوام الدولة العربية التى تصورها .

ولم يكن من نية عازورى تعكير العلاقات مع الدول الكبرى . وفضلا عن ذلك كان مشروعه صدى للمطامح البرجوازية السورية الرامية الى الزعامة . ووعد عازوري باحترام مصالح الاجانب ، واعتمد على معاضدتهم فى الكفاح ضد الاتراك . ولم يكن يحتوى منهاجـــه على مطاليب الثورة البرجوازية-الديمقراطية . وكانت رابطة الوطن العربى التى ألفها فى عزلة عن الجماهير الشعبية ، ولم تثق بقوى الحركـــة الجماهيرية الشعبية .

وكان هذا الانعزال عن الشعب وانقطاع الصلة بالجماهير السمة المميزة للقوميين العرب والعامل الاساسى لضعفهم فى اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وكان يعيش معظمهـــم خارج البلاد ، واقتصروا فى نشاطهم على الدعاية للافكار الوطنية . الا انه رغم جميع عيوبهم ونواقصهم كانت نشاطاتهم توطئة ليقظة العرب الوطنية ، وكانت عاملا من العوامل التى سببت صعود الحركـــة الوطنية التحررية فى الاقطار العربية فى عهد يقظة آسيا .

الفصل الخامس والعشرون

ثورة تركيا الفتاة والاقطار العربية

ثورة عام ١٩٠٨ فى تركيا . اندلعت فى تموز (يوليو) ١٩٠٨ انتفاضة مسلّحة فى تركيا كانت قد اعدت لها جمعية «الاتحاد والترقى» التى تألفت عام ١٨٩٤ .

وقد انتسب الى هذه الجمعية ممثلو الضباط الطليعيين والمثقفين الذين كانوا يعكسون مصالح البرجوازية التركية ويؤيدون تحويل الامبراطورية العثمانية الى دولة برجوازية-دستورية . فكان بعث الدستور من مطالبهم الرئيسية .

وقد اتبع قادة الجمعية فى بادئ الامر تاكتيك حبك المؤامرات وساعد العملاء وجواسيس عبد الحميد الثانى على كشف جزء من المنظمات السرية لتركيا الفتاة وقطع دابر الحركة . وفى ١٨٩٧ و١٨٩٩ جرت محاكمات اعضاء جمعية «الاتحاد والترقى» وغادر الكثيرون من مؤيديها البلاد الى الخارج .

وفى المهجر حصل انشقاق فى حركة تركيا الفتاة . ففى مؤتمر باريس الذى انعقد فى ١٩٠٢ ، انشقت عن جمعية «الاتحاد والترقى» جماعة من الاحرار العثمانيين برئاسة الامير صباح الدين ، الذى كان قد ألف «جمعية التشبث الشخصى وعدم المركزية» . وقد اعتبر صباح الدين نفسه فوضويا من اتباع كروبوتكين وريكلو . وشرع بتطوير المبادرات الفردية محاولا تفسير تاريخ تركيا وفق النظرية الفوضوية . وكان يعتبر ان اصل الشرّ فى البلاد هو نظام القرون الوسطى الاقتصادى السائد فى تركيا وانعدام مبادرات اصحاب المشاريع الخاصة . وان الاضطهاد القومى وتركيب الدولة المتعددة

القوميات هما عامل آخر من عوامل الشر الجذرية وتنبع منه ، حسب اعتقاده ، مختلف ضروب البلبلة والقلاقل .

وقد جلب صباح الدين ومؤيدوه انتباه الثوار الاتراك الى القضية القومية وكانوا اول من اقاموا الاتصالات مع المنظمات السياسية للاقليات القومية . ومع ذلك ظهرت اختلافات حول هذه القضية بين اعضاء تركيا الفتاة . فان احد الاتجاهات بقيادة صباح الدين و«جمعيته التشبث الشخصى وعدم المركزية» ، ايّد حسم القضية القومية عن طريق تأسيس ولايات ذات استقلال ذاتى على اساس مبدأ لامركزية الامبراطورية العثمانية . وساند هذا الاتجاه مساندة نشيطة ممثلو البرجوازية اليونانية والارمن وكذلك اقطاعيو القوميات الاخرى ـ كالعرب والالبان لحدّ ما ومع ذلك لم يكن يشغل صباح الدين ، الذى ايّد تأسيس اقاليم قومية ذات استقلال ذاتى واسع ، مركزا قياديا فى حركة تركيا الفتاة ثم اعتزل النشاطات السياسية بصورة عامة . وسفّ مؤيدوه باتخاذ موقف معاد للثورة فيما بعد والّفوا حزبا خاصا لمعارضة جمعية تركيا الفتاة .

وايّد الاتجاه الثانى تكوين دولة تركية مركزية موّحدة وكان يتكون من اكثرية الثوريين الاتراك ، الملتفين حول جمعية «الاتحاد والترقى» . وقد انطلقت هذه الاكثرية من مبدأ وجوب سيطرة القومية التركية فى تركيا . وبما ان المهمة الرئيسية التى طرحتها كانت قلب نظام حكم عبد الحميد الذى طغى عليه الظلم فانها ارتأت انه من الممكن التحالف مع منظمات الاقليات القومية لايجاد حلّ مشترك لهذه المهمة .

وكانت الثورة الروسية لاعوام ١٩٠٥ــ١٩٠٧ محفزا لتطور الاحداث الثورية فى تركيا . اذ احدثت انطباعا كبيرا على المثقفين الاتراك وعلى الاتجاهات الثورية بين الضباط . ففى ١٩٠٦ وجّهت جماعة من الضباط الاتراك رسالة الى اقرباء الليفتننانت شمدت ، الذى كان يقود انتفاضة سباستوبول فى عام ١٩٠٥ ، اقسموا فيها على الكفاح من اجل «الحرية المدنية المقدسة» و«حق الحياة الانسانية» .

وفى ١٩٠٦ نقلت لجنة جمعية «الاتحاد والترقى» مقرها الرئيسى الى سلانيك وشرعت بتاليف شبكة واسعة من المنظمات الثورية . وتم اختيار مكدونيا ـ البؤرة التى لا تخبو للكفاح الشعبى ضد الاقطاعية ، كقاعدة رئيسية لحركة تركيا الفتاة . وعزمت فى الوقت ذاته على توحيد جميع القوى الثورية . ولهذه الغاية دعت الى عقد مؤتمر فى باريس فى نهاية ١٩٠٧ يضم كافة الاحزاب والكتل المعارضة فى الامبراطورية العثمانية . وحضر المؤتمر فضلا عن جمعية «الاتحاد والترقى» ممثلون عن «جمعية التشبث الشخصى وعدم المركزية» لصباح الدين ، وعن المنظمة الثورية المكدونية الداخلية ، وحزب «طاشناق تزوتيون» الارمنى ، والقوميين العرب .

وعلى اساس وحدة الاهداف المقبلة ، تكونت فى مؤتمر باريس جبهة موحّدة من القوى الوطنية الثورية . وقامت جمعية تركيا الفتاة وممثلو الاقليات القومية بتنازلات متبادلة . فوافق اعضاء جمعية تركيا الفتاة على مبدأ تقرير المصير السياسى والثقافى بالذات ، واعلن ممثلو الاقليات القومية انهم يكتفون بالحصول على الاستقلال الذاتى فى نطاق الامبراطورية العثمانية . واعدّ المؤتمرون اشكال واساليب الكفاح : ومنها الامتناع عن اداء اليمين فى الجيش والعمل على اشاعة القلاقل بين السكان المدنيين واثارة الاضرابات بين الموظفين والشرطة لاحداث البلبلة فى جهاز الدولة والامتناع عن دفع الضرائب والمقاومة المسلّحة ضد السلطات ، واخيرا الثورة المسلحة .

واكدت قرارات المؤتمر على ان قوات الجيش هى التى ينبغى ان تفجّر الثورة من حيث الاساس . وعيّن شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٨ كموعد لاندلاعها .

لقد عجّلت الاحداث العالمية بوقوع الثورة . ففى ٣ تموز (يوليو) ١٩٠٨ ، تمرد نيازى ـ قائد حصن رسنة فى مكدونيا فاعتصم بالجبل . وانضمّ اليه انور ومصطفى كمال وجمال وآخرون مع وحداتهم وسرعان ما احتلت المفارز الثورية مدينة مناستر (بيتولج) حيث يوجد مقر قيادة الجيش الاول ، وهدّدوا بالهجوم

على القسطنطينية من هناك . وقرّر السلطان عبد الحميد الثانى اجراء تنازلات ، عندما تأكد بان القوات المعسكرة فى العاصمة وفى آسيا الصغرى ، كانت موالية ايضا الى جمعية تركيا الفتاة . ففى ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٠٨ ، اعاد الدستور وحدد موعدا للانتخابات . ومن ثم صدرت مراسيم عن حرية الكلام والمطبوعات والاجتماعات والغيت الرقابة وأعلن العفو العام عن السجناء السياسيين .

وهكذا انتصرت ثورة تركيا الفتاة .

ومع ذلك لم يكن هذا الانتصار الا جزئيا . اذ ان اعضاء تركيا الفتاة كانوا يخشون مبادرات الجماهير الثورية ويسعون الى الاتفاق مع السلطة القديمة ولم يؤلفوا حكومة جديدة . بل ابقوا السلطة فى ايدى السلطان والحكومة المعينة من قبله ، التى لم يبعد عنها الا اكثر رجالات النظام القديم المشكوك فيهم .

وبصدد الانتصارات الاولى التى احرزتها ثورة تركيا الفتاة كتب لينين : «هذا الانتصار ما هو الا نصف انتصار ، بل وحتى جزء اقل من انتصار اذ ان نيقولاى الثانى التركى قد اكتفى انذاك بوعوده المتعلّقة ببعث الدستور التركى المشهور» . *

العرب وثورة تركيا الفتاة . قوبلت انباء انتصار الثورة وبعث الدستور بابتهاج فى الولايات العربية التابعة للباب العالى . اذ اعتبر العرب الثورة كنصر لهم . فعمّت الافراح والمسرات كل مكان . وبهذا الصدد كتب احد شهود العيان : «اثارت هذه الاحداث الحماس فى كل انحاء سوريا . اذ عانق المسيحيون والمسلمون ، بل وحتى القساوسة والملالى بعضهم البعض فى الاجتماعات العامة . وحيّا الكتاب عهد الحرية الجديد والمساواة والاخوة» .

وكتب شاهد عيان آخر للاحداث : «لا يمكن وصف حماس الشعب . اذ زالت مباشرة جميع الحواجز واضمحلّ العداء الدينى الطويل الامد . وفى قارعة الطريق عانق الناس بعضهم بعضا كاخوة . واعتلى المنصات المصنوعة بسرعة الشباب ، الذين كانوا غير

---

* لينين ، المادة القابلة للاحتراق فى السياسة العالمية ، ــ مجموعة المؤلفات الكاملة الروسية ، المجلد ١٧ ، ص ١٧٧ .

معروفين لدى الجمهور بالامس القريب ،.والقوا خطبا ملتهبة أثاروا بها مشاعر الشعب . ولم تعرف لحماستهم حدود...»

وقد اطلقت الثورة عنان مبادرات الجماهير . وثار الشعب ضد مستعبديه وعمت بيروت حركة جماهيرية ضد المتصرف الذى كان يقيم فى بيت الدين (مركز جبل لبنان) ، من اجل ضمّ بيروت ووادى البقاع الى لبنان المستقل ذاتيا . وتزعم الحركة سليم عمّون ، الحاصل على على ثقافة عالية والذى يمت بنسبه الى الاشراف . ومن اقواله المفضّلة : «انبل مطمح للفرد ان يكون فلاحا جيدا لبلاده» . وفى ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨ اصبح رئيس مجلس الادارة واجرى عددا من الاصلاحات ، وانشأ «الجمعية الديمقراطية» . ومع ذلك ففى نيسان (ابريل) ١٩١٩ قضى نحبه عند سماع انباء الانقلاب الجديد فى القسطنطينية وقمعت الحركة الديمقراطية فى لبنان .

وفى ١٩٠٩ نشبت حركة فلاحية فى مكان آخر من لبنان . اذ انتفض الدروز مرة ثانية وكانت حوران مركز الحركة . وحاصر الثوار بُصرى ثم استولوا عليها ، ودخلوا وادى البقاع . وفى غضون عامين شنوا حرب الانصار . فهجموا على القطارات واغتصبوا القوافل وباغتوا الحاميات الصغيرة والارتال المتفرقة للقوات التركية . وقتل الاتراك ٦ آلاف درزىّ ، اى حوالى عشر مجموع سكان جبل الدروز قبل ان يفلحوا فى قمع هذه الانتفاضة .

وعمت حركة الفلاحين العراق فى وقت متأخر عمّا حدث فى الاقسام الاخرى من الامبراطورية العثمانية . وبلغت اوجها فى ١٩١٣-١٩١٤ عندما صدر قرار السلطات التركية ببيع الاراضى الاميرية للاجانب . وحينئذ ، عاد الفلاحون فامتنعوا عن دفع الضرائب . ومن اجل قمع هذه الاضطرابات ، وجهت السلطات حملات تنكيلية ضد الريف .

وكان السبب الرئيسى لضعف الحركة الديمقراطية فى الاقطار العربية انتفاء الصلة بين الانتفاضات الفلاحية وما كان يجرى فى المدن . وغالبا ما كان الفلاحون ينتفضون تحت قيادة الاقطاعيين او شيوخ القبائل . ومن جهة اخرى ، لم تكن بعد الكتل الديمقراطية

الصغيرة فى المدن (وخاصة فى لبنان وسوريا) قد وجدت لها لغة عامة مع الفلاحين ، ولم يكن فى وسعها الأعتماد على الجماهير الشعبية ولهذا السبب تخلّت عن قيادة الحركة الوطنية التحررية للبرجوازية الوطنية والاقطاعيين .

((الاخاء العربى-العثمانى)) . فى الايام الاولى التى تلت الثورة شاعت بين الاوساط البرجوازية العربية الوطنية الاوهام على نطاق واسع حول امكانية اجراء تحولات جذرية لدى العرب وتحررهم الوطنى فى نطاق تركيا الجديدة . فاعتمد القوميون العرب على التعاون مع انصار تركيا الفتاة واملوا فى ان يحلّوا بمساعدتهم المشاكل الانية للاقطار العربية .

وبعد الثورة ، انتقل مركز الحركة العربية الوطنية من المهجر الى القسطنطينية حيث تجمعت اكثرية العناصر النشيطة للاوساط الاجتماعية العربية ، من ضباط وطلاب وموظفين .

وفى ٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨ عقدت هذه العناصر اجتماعا كبيرا للجالية العربية فى القسطنطينية وكونت اول منظمة عربية جماهيرية نوعا ما ، عرفت باسم «الاخاء العربى-العثمانى» . وبدأت باصدار صحيفة خاصة بها وفتحت لها فروعا فى جميع الاقطار العربية التابعة للباب العالى تقريبا .

وسار «الاخاء العربى-العثمانى» على اثر جمعية تركيا الفتاة . وحضر اعضاء جمعية «الاتحاد والترقى» جلسات مجلس الاخاء التأسيسى . وانطلق قادة الاخاء من مبدأ الجامعة العثمانية واعترفوا بوجود ما يعرف بالامة العثمانية . فقالوا بان الامة العثمانية الموحدة تنقسم الى عدد من الملل منها العرب الذين يكونون اهم عنصر من عناصر الامة العثمانية . ولم ينبس برنامجهم ببنت شفة عن وجود امة عربية خاصة . كما لم تذكر فيه اية كلمة عن الاستقلال بل وعن الحكم الذاتى للعرب او اى شكل خاص للاستقلال الذاتى . وعلى العكس ، اعتبر برنامج الاخاء المهمة الاساسية للجمعية ان تساعد جمعية «الاتحاد والترقى» فى عملها . وكانت النقاط القومية الوحيدة التى تضمنها البرنامج هى المطاليب

الخاصة بالمساواة القومية ونشر الثقافة باللغة العربية والمحافظة على العادات العربية .

وكان قادة «الاخاء العربي العثماني» عربا ينتسبون الى حزب تركيا الفتاة . وكان صادق باشا العظم ، وهو رئيس الاخاء واحد منظمي جمعية «الاتحاد والترقي» ، ضابطا سابقا في اركان حرب تركيا العام ودبلوماسيا . من ثم عاش في المهجر حيث حرّر باللغة العربية ، احدى صحف جمعية تركيا الفتاة . وعاد بعد ثورة عام ١٩٠٨ الى القسطنطينية واصبح واحدا من قادة حركة تركيا الفتاة .

الوفد العربي في البرلمان . السياسة القومية لجمعية تركيا الفتاة . ان انتخابات البرلمان التركي ، ومنهاج جمعية تركيا الفتاة الذي نشر في خريف ١٩٠٨ والذي كان اشد اعتدالا من كافة المناهج والوعود السابقة ، انزلا ضربة حاسمة بالاوهام التي كونها القوميون العرب حول جمعية تركيا الفتاة . وبهذا الصدد كتب لينين في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٨ : «يثنون على اعضاء تركيا الفتاة لاعتدالهم وتحفظهم ، اي انهم يثنون على الثورة التركية لكونها ضعيفة ولانها لم توقظ سواد الناس ولم تستثر الاعمال المستقلة الحقيقية للجماهير ولكونها معادية لكفاح البروليتارية الصاعد في الامبراطورية العثمانية ...» *

وكانت احد امثلة هذه «التحفظات» وهذا «الاعتدال» انتخابات البرلمان التركي ، التي اجريت على مرحلتين . اذ لم يحضر ممثلو الشعب الحقيقيون اجتماعات الناخبين في السناجق . وكانت تسيطر على جميع جهاز التصويت لجان حزب «الاتحاد والترقي» التي قدّمت مرشحيها وضمنت انتخابهم الى البرلمان . وقد خيبت نتائج الانتخابات آمال العرب . اذ رشّح ١٥٠ تركيا مقابل ٦٠ عربيا لا غير من مجموع ٢٤٥ نائبا ، مع العلم بان النسبة بين سكان الامبراطورية كانت على العكس من ذلك تماما . اذ كان تعداد

* لينين ، الاحداث في البلقان وايران ، ـ مجموعة المؤلفات الكاملة ، الطبعة الروسية ، المجلد ١٧ ، ص ٢٢٣ .

الاتراك ٧,٥ ملايين ، والعرب ١٠,٥ ملايين من مجموع ٢٢ مليون نسمة تقريبا وهم مجموع سكان الامبراطورية العثمانية آنذاك .

ولم يتخذ الوفد العربى اى موقف مستقلّ فى البرلمان . اذ انه كان مؤيدا لمواقف اعضاء تركيا الفتاة ومساندا لهم . ومع ذلك فكان معظم العرب مستائين من الوضع . وفى نهاية ١٩٠٨ أيّد الكثيرون من الاقطاعيين العرب بل وحتى من القوميين العرب تأسيس «حزب الاحرار» الذى يعبّر عن مصالح الاوساط الاقطاعية والكومبرادور والذى اتخذ فعلا مواقف معادية للثورة . الا انه ورث فى القضية القومية تقاليد «جمعية التشبث الشخصى وعدم المركزية» لصباح الدين .

وبمعونة هذا الحزب وكذلك بمعونة رجال الدين المسلمين وطلاب المدرسة والحرس قام السلطان عبد الحميد الثانى بانقلاب . وفى ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ استولى المتمردون على عدد من المبانى الحكومية وقاموا بحملة اضطهاد ضد اعضاء تركيا الفتاة . وكان من بين القتلى محمد ارسلان ـ الشخصية الكبيرة فى الحركة العربية . ومع ذلك تمكن اعضاء تركيا الفتاة من تنظيم المقاومة على عجل . وبعد معارك ضارية فى الشوارع ، استطاع قمع التمرد «جيش الحركة» بقيادة محمود شوكت باشا ومصطفى كمال . وفى ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ خلع عبد الحميد الثانى ونادت جمعية تركيا الفتاة بالامير رشاد ـ اصغر اخوان عبد الحميد الثانى والبالغ من العمر ٦٤ عاما ، سلطانا جديدا باسم محمد الخامس . وبعد قمع التمرد ، عزم قادة تركيا الفتاة الا يقتصروا على السيطرة على الجهاز الحكومى ، بل تاليف الحكومة بانفسهم .

وبعد مجيئهم الى السلطة ارتد اعضاء حزب تركيا الفتاة ارتدادا تاما وانعزلوا عن الجماهير بالكلية . واخذوا ينتهجون سياسة توفيقية مع الرجعية والاوساط الشوفينية فى تركيا ، وشنوا كفاحا سافرا ضد الحركات الثورية . وعلى صعيد السياسة الداخلية ، احتفظوا بملكية الارض للاقطاعيين والملاكين ، وامتنعوا عن اجراء اصلاحات ضرائبية فى صالح الفلاحين واتخذوا عددا من الاجراءات ضد العمال وخاصة قانون الاضراب لعام ١٩١٠ . وعلى

صعيد السياسة الخارجيـــة ، اخلف حزب تركيا الفتاة بوعد تحرير البلاد من ربقة النفوذ الاجنبى ، واخذ يتواطئ مع الامبرياليـــة الالمانية . ورحب بميل عبد الحميد الثانى نحو الالمان وحـــوّل البلاد الى تابع لامبراطور المانيا . ومن اجل الكفـــاح ضد انكلترا وفرنسا وروسيا ، استخدمت الدبلوماسية الالمانية بمهارة تعلّق انصار تركيا الفتاة بمبدأ الجامعة الاسلامية والجامعة الطورانية ـ اى المبدأ الشوفينى الذى اعتبر جميع الشعوب الناطقة باللغـــات التركية كاٮمة واحدة .

وكانت السياسة القومية التى انتهجها اعضاء تركيا الفتـــاة رجعية بصورة خاصة . اذ انهم تخلّوا كليا عن العهود التى التزموا بها امام الاقليات القومية فى مؤتمر بـــاريس عام ١٩٠٧ . وعلى غرار ما حدث على عهد عبد الحميد الثانى ، واصلوا مذابح الارمن . كما اغلقوا المنظمات العربية والالبانية ومنظمات القوميات الاخرى. وخاصة ، فى نيسان (ابريل) ١٩٠٩ حرّم نشاط «الاخاء العربى-العثمانى» . واتخذ اعضاء تركيا الفتاة سلاحا لهم مبدأ الجامعة العثمانية بمفهومه التركى . وانتهجوا سياســـة التتريك القسرى للشعوب غير التركيـــة . فاغلقوا المدارس القوميـــة وادخلوا اللغـــة التركية كلغة الدولة الرسمية الوحيدة فى الامبراطورية العثمانية .

«المنتدى الادبى» والجمعية «القحطانية» . ادّت السياسة القومية لحكومة تركيا الفتاة الى مقاومة الاقليات القومية وحفّزت الوطنيين العرب لتبنى مبدأ المعارضة ضد نظام تركيا الفتياة . اذ قد انتهى عهد الاخاء العربى-العثمانى ، واكتسبت الحركة العربية الوطنية صبغة مقاومة الاتراك بصورة سافرة .

وان تحريم المنظمات السياسية العلنية ارغم قادة الحركـــة العربية على تغيير تاكتيكهـــم . فالتجأوا الى التوفيق بين اســـاليب الكفاح العلنية والعمل السرى ، ونشّطوا العمـــل فى الخـــارج . وفى صيف ١٩٠٩ أسسوا فى القسطنطينية «المنتدى الادبى» بدلا من جمعية «الاخاء العربى-العثمانى» المغلقة . ولم تكن لاهداف المنتدى الرسمية اى صلة بالسياسة ، فاعترفت به جمعية تركيا الفتاة كمنظمة ثقافيـــة-تهذيبيـــة . وكانت الناحيـــة الاجتماعيـــة «للمنتدى

الادبى» مماثلة «للاخاء العربى-العثمانى» الا ان الهيئة القيادية كانت على نقيض ذلك تماما اذ انها كانت مؤلفة من اناس كرسوا انفسم كليا للكفاح ضد النير التركى . وقد شنق الاتراك اثناء الحرب العالمية الاولى اربعة من بين اعضاء لجنة «المنتدى الادبى» الستة .

وقد بلغ عدد اعضاء «المنتدى الادبى» بضعة آلاف شخص ، اكثرهم من الطلاب والتلاميذ . وكانت له فروع فى كثير من مدن سوريا والعراق .

واصبح «المنتدى الادبى» فى القسطنطينية وفروعه كمراكز لتجمع المثقفين العرب الوطنيين . وحصلت هذه المراكز على مطبوعات ممنوعة من مصر والولايات المتحدة الامريكية واستخدمت بالدرجة الاولى كستار لمنظمات القوميين العرب السرية .

وفى نهاية ١٩٠٩ أسس عبد الكريم الخليل ، رئيس «المنتدى الادبى» جمعية سرية سياسية كانت تعمل بموازاة المنظمة العلنية . وعرفت بـ«القحطانية» باسم سلف العرب الاسطورى قحطان . وقد تألفت هذه الجمعية من الضباط العرب الذين كانوا مجندين فى الجيش التركى خاصة . ولعب عزيز علي المصرى دورا مرموقا بينهم . وكان مصرى المولد وخدم فى الجيش التركى واسهم فى ثورة تركيا الفتاة وفى عام ١٩٠٩ انضم الى جمعية سرية معادية للاتراك وقاد شؤونها فى الواقع .

وكانت اهداف ومهمات «الجمعية القحطانية» مسجلة بصورة غامضة للغاية وهى: «نشر مبادئ الحقيقة بين ابناء الشعب وتوحيد جهودهم ولمّ صفوفهم» وغير ذلك من الاهداف . وتنكر اعضاء الجمعية لمبادئ الجامعة العثمانية التى تبنتها جمعية «الاخاء العربى-العثمانى» واعتبروا العرب امة قائمة بذاتها . وصمّموا على اعادة تنظيم الامبراطورية العثمانية كدولة مؤلفة من الامتين العربية والتركية على غرار النمسا-المجر ، على ان يكون السلطان التركى فى الوقت ذاته ملكا للعرب ، وان تكّون الولايات العربية مملكة مستقلة فى نطاق الامبراطورية العثمانية لها برلمان خاص وحكومة محلية ولغة رسمية هى اللغة العربية .

وكان مركز الجمعية السرية فى القسطنطينية ولها فروع فى خمس مدن اخرى ، وفى الايام الاولى من تأسيسها قامت الجمعية باعمال تنظيمية عارمة ، الا انها لم تقم بعمل نشيط فى خاتمة المطاف . وتبين انه كان بين اعضائها عملاء مدسوسون ولذا اتخذ قرار بحلّ الجمعية قبلما تنتهى الامور الى مرحلة الاضطهادات .

((الجمعية العربية الفتاة)) . وفى ١٩١١ أسس فريق من الطلاب من اعضاء «المنتدى الادبى» الذين ذهبوا لمواصلة دراستهم فى فرنسا ، جمعية سرية فى باريس عرفت بـ«الجمعية العربية الفتاة» . وقد لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الحركة العربية الوطنية التحررية . وقد استشهد الكثيرون من اعضائها فى سنوات الحرب العالمية الاولى على ايدى الجلادين الاتراك . واصبح الآخرون رجال دولة وسياسة مرموقين فى الاقطار العربية (جميل مردم وعونى عبد الهادى) .

ووضع مؤسسو الجمعية امامهم هدفا معينا ثابتا . اذ انهم ارادوا ان يكونوا للعرب جمعية تحاكى جمعية تركيا الفتاة لتركيا . وبصورة تدريجية نضج منهج الجمعية واصبح اشد وضوحا واستقر على مبدأ الاستقلال العربى .

وفى بادئ الامر تكلم اعضاء الجمعية بصورة عامة عن بعث الشعب العربى وايدوا مبدأ لامركزية الامبراطورية العثمانية . ومن ثم طالبوا باستقلال الاقطار العربية وكافحوا من اجل تحرير العرب من السيطرة التركية او من اى طغيان اجنبى آخر .

وقد كانت «الجمعية العربية الفتاة» منظمة سرية للغاية . وكان اعضاؤها ينقسمون الى ٣ مجموعات : ١) المجموعة الادارية وهى مؤلفة من ستة قادة ؛ ٢) مجموعة الاعضاء العاملين وهم الذين اجتازوا مرحلة الاختبار التمهيدية . ٣) مجموعة من المرشحين الذين كانوا يمرون بمرحلة الاختبار وهم لا يعرفون بعضهم البعض . وادرجت فى سجلات الجمعية مختلف الرموز السرية والتعابير المتفق عليها . وكانوا يدعون بعضهم بعضا بـ«ياأخى» . وكانوا يستعملون بمعان معينة اوصاف غروب الشمس وشروقها

ويكتبون عن الحب والثقة كما استعملوا المصطلحات الماسونية .
ومع ذلك لم يكن هذا التمسك بمراعاة الاساليب السرية مجرد لعبة جوفاء . اذ عند العودة الى الوطن ، خاض اعضاء الجمعية السرية نضالا سياسيا نشيطا . وفى ١٩١٣ شرعوا فى مبادرة توحيد نشاطات كافة الاحزاب والمنظمات العربية الوطنية .

مطامع فرنسا فى سوريا ولبنان . ساندت فرنسا وانكلترا ، بجميع الوسائل ، الاتجاهات الانفصالية فى الاقاليم العربية التابعة للباب العالى . وبعدما نشطتا فى مناطق النفوذ الخاصة بهما ، سعيتا لاجتذاب العرب الى جانبيهما لدعم مركزيهما عند اقتسام الامبراطورية العثمانية فى مستقبل الايام .

وقد ابدت فرنسا نشاطا خاصا فى هذا الباب . اذ اقامت القنصليتان الفرنسيتان فى دمشق وبيروت اتصالات مع بعض القوميين العرب ومولتا العديد من الصحف اللبنانية . وانفقت الحكومة الفرنسية اموالا طائلة على تأسيس مدارس فرنسية فى سوريا ولبنان ، تلقى العلم فيها ما يربو على ٢٥ الف تلميذ . واسندت مختلف انواع المنظمات العلمية والثقافية-التهذيبية والخيرية .

فى ١٩١٢ ، اى فى غضون الحرب الايطالية-التركية وصلت السفن الحربية الايطالية على مقربة من بيروت واطلقت نيرانها على السفن التركية الراسية فى الميناء . واثار الرمى قلقا شديدا فى سوريا ولبنان واعطى فرنسا ذريعة للافصاح عن مطامعها جهارا . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٢ اعلن ريمون بوانكاره ، رئيس وزراء فرنسا ، ان لبلاده مصالح خاصة فى سوريا ولبنان وانها سوف لا تتخلّى عن مواقعها التقليدية فى هذين القطرين ولا عن «عطف» السكان المحليين عليها او عن حقها فى الدفاع عن مصالحها ومواقعها . وفى هذا الوقت اى فى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٢ ، وقّعت فرنسا بروتوكولا جديدا حول القضية اللبنانية ، وسّعت بموجبه الى درجة كبيرة استقلال لبنان الذاتى السابق ، الممنوح له على اساس اتفاقيتى ١٨٦١ و١٨٦٤ .

وسرعان ما تلقى بيان بوانكاره الاسناد من قبل غراي ـ وزير خارجية انكلترا ، وذلك باسم حكومته . وبالطبع ، اعلن غراي فى البرلمان فيما بعد «على سبيل الايضاح» ، ان التاكيدات الانكليزية لعام ١٩١٢ لا تخص الا مدّ السكك الحديدية وان انكلترا تؤيد المحافظة على وحدة وسلامة الامبراطورية العثمانية .

حزب اللامركزية . وفى ١٩١٢ـ١٩١٣ مهّد الوضع الدولى السبيل للقوميين العرب . فانتفاضة اليمن والبانيا ، وفشل الاتراك فى حربهم ضد ايطاليا (١٩١١ـ١٩١٢) وتحالف دول البلقان (١٩١٢ـ١٩١٣) كل هذه العوامل ادت الى تقويض دعائم الامبراطورية العثمانية والى تحرير الشعوب اليونانية والسلافية فى البلقان من النير التركى . وفى ١٩١٢ اصبحت البانيا مستقلة . وكان لهذه الاحداث تاثير كبير على الكفاح التحررى للشعوب المضطهدة . واعتبر لينين الحرب البلقانية الاولى «كحلقة فى سلسلة الاحداث العالمية التى ترمز الى الانهيار الذريع الذى حلّ فى نظام القرون الوسطى فى آسيا وفى شرق اوربا» . *

وقد ادّى الفشل الذى منّى به اعضاء تركيا الفتاة فى سياستهم الخارجية وسياستهم الرجعية فى القضية القومية واهمالهم التام لمصالح الجماهير الشعبية الى موجة استياء واسعة فى تركيا ، عمت الجناح اليسارى واليمينى على السواء . وفى ١٩١١ انضوت القوى اليمينية المعارضة تحت لواء حزب «الحرية والائتلاف» . وقد عكس هذا الحزب مصالح الاوساط الاقطاعية- الكومبرادورية فى تركيا . وخلافا لجمعية تركيا الفتاة ، اتجه فى السياسة الخارجية نحو بلدان الوفاق . وواصل فى القضية القومية تقاليد صباح الدين ووقف موقفا تقدميا . كما ايّد هذا الحزب لامركزية الامبراطورية العثمانية . واسند شعار «الاقطار البلقانية للشعوب البلقانية» و«الاقطار العربية للعرب» و«ارمينيا للأرمن» و«كردستان للاكراد» . وطالب الائتلافيون بالاستقلال

---

* لينين ، الحرب البلقانية والشوفينية البرجوازية ، ـ مجموعة المؤلفات الكاملة ، الطبعة الروسية ، المجلد ٢٣ ، ص ٣٨ .

الذاتى لهذه الاقاليم فى داخل الامبراطورية العثمانية . وفى تموز (يوليو) ١٩١٢ قام الائتلافيون بانقلاب وجاءوا الى السلطة . ومع ذلك فلم يكن فى وسعهم حل مشاكل تركيا الملحّة فى السياستين الخارجية والداخلية . ووقعوا بانفسهم ضحية للانقلاب . وفى ٢٣ كانون الثانى (يناير) ١٩١٣ جاءت الى السلطة مرة ثانية جمعية تركيا الفتاة . وتبين بان السلطة الحقيقية كانت فى قبضة ثالوث من الباشاوات هم انور وطلعت وجمال . وقد جعل هؤلاء الثلاثة البلاد ضيعة للامبريالية الالمانية . وهزلا ، اطلق الالمان على الامبراطورية العثمانيـة اسم «انورلاند» («البلاد الانورية») نسبة الى انور باشا الذى كان اهم شخصية موالية لهم من بين الثالوث .

وان جميع هذه الاحداث ، من فشل الاتراك العسكرى وتحرير الشعوب البلقانية ومجىء حزب «الحرية والائتلاف» الى السلطة ، بالاضافة الى ضغط الدول المعينة ، مهدت السبيل الى نهوض الحركة الوطنية فى الاقطار العربية خلال الاعوام ١٩١٢ــ١٩١٤ . واشارت هذه الاحداث الى ان الانهيار التام كان يحيق بالامبراطورية العثمانية . وكان تعاقب الانقلابات الواحد تلو الآخر ، دليلا على بدء ازمة «الاوساط الحاكمة» فى تركيا . فعمّت الولايات العربية اتجاهات ثورية . وتالفت احزاب سياسية وجمعيات ثورية جديدة . واصبحت المطاليب الوطنية فى حوزة الجماهير الواسعة من السكان العرب .

وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٢ ، اى فى غضون الحرب البلقانية الاولى ، الف القوميون العرب فى القاهرة «حزب اللامركزية الادارية العثمانى» . وكان هذا الحزب على اتصال وثيق بالحزب التركى «الحرية والائتلاف» . وكان منهاجه مطابقا لمنهاج الائتلافيين الى درجة كبيرة .

وبلغ عدد اعضاء حزب اللامركزية ١٠ آلاف شخص ، وكانت له فروع فى جميع المدن السورية والفلسطينية تقريبا وفى ارجاء كثيرة من العراق . وترأست الحزب لجنة مركزية مؤلفة من ٢٠ عضوا وهيئة تنفيذية مكوّنة من ٦ اعضاء . وكان رفيق العظم ــ رئيس الحزب ، كاتبا سياسيا وفيلسوفا وعالما اجتماعيا وواجدا

من مشتركى حلقة الكواكبى فى القاهرة . وكان الشيـخ الزهراوى ، نائب رئيس الحزب ، تلميذا آخر من تلامذة الكواكبى . وهو الاخر من الكتاب الاجتماعيين العرب المرموقين مـن حمـاة ونـائب فى البرلمان التركى .

وقد بذل الحزب الجهود لمساهمة العرب القصوى فى حكومة الدولة العثمانية وفى مجلس الشيوخ والنواب لهـا . وعمـل عـلى الاعتراف باللغة العربية كلغة الدولة الرسمية وتعليمها فى المدارس العربية بصورة الزامية . كما بذل الجهود لكى تنفصل الولايات العربية الى اقاليم خاصة ذات استقلال ذاتى وحكومات محليـة ومجالس اقليمية خاصة بها . وكان يعمل من اجل ان تمنـح هذه الاقاليم المستقلة ذاتيا حقوق واسعة : كاستدعاء المستشـارين الاجانب بصورة مستقلة ، وعقد القروض الخـارجيـة ومنـح الامتيازات . وعلّق حزب اللامركزية آمالا كبيرة على تدخل الدول الغربية ، بل وحتى انه وافق على اقامـة الاشراف الفرنسى على سوريا ولبنان والاشراف الانكليزى على القسم الاكبر مـن فلسطين وعلى العراق .

وشرع حزب اللامركزية وفروعه فى القيام بنشاطات عارمة.اذ نشر اعضاؤه الاعلانات والمناشير ونظموا الاجتماعات والتظاهرات واشاعوا الاغانى والاشعار الوطنية . كما اقاموا اتصالات وثيقة مع «المنتدى الادبى» والمنظمات العربية الوطنية الاخرى وخاصة مع الجمعيات الاصلاحية السورية والعراقية .

الجمعيات الاصلاحية العراقية والسورية . نشـا فى لبنـان وسوريا والعراق وفقا لمبادئ الاستقلال الذاتى ، التى قدمهـا حزب اللامركزية ، عدد من الجمعيات واللجان العلنية التى دافعت عن اجراء اصلاحات فى نطاق الامبراطورية العثمـانيـة . وكانت اهمها «الجمعية الاصلاحية» البيروتيـة ، وجمعيـة «النهضـة اللبنانية» ، و«النادى الوطنى العلمـى» البغدادى و«الجمعيـة الاصلاحية» فى البصرة ، وفرع فى البصرة للجمعيـة الاصلاحيـة البيروتية .

وكان تأثير العناصر الكومبرادورية الشديد والخاص للبرجوازية

السورية واللبنانية ملموسا فى الجمعيات الاصلاحية السورية وخاصة فى «النهضة اللبنانية» . وكانت «الجمعية الاصلاحية» البيروتية و«النهضة اللبنانية» على اتصال دائم بمركز المهاجرين فى مصر والولايات المتحدة الامريكية وفرنسا ، وتعاونتا تعاونا وثيقا مع القنصليات الفرنسية بل وحتى انهما قدّمتا رسالة الى حكومة فرنسا فى ١٩١٣ ، التمستا فيها منها ان تحتل سوريا ولبنان وان تثبّت حمايتها عليهما . وخلافا للسوريين ، اتجه نحو الانكليز «المصلحون» العراقيون الذين كانوا تحت تاثير العناصر الاقطاعية-الكومبرادورية الاشد قوة . اذ ايّد السيد طالب النقيب ، وهو احد القادة المصلحين العراقيين ، اقامة اشراف انكليزى على اجراء الاصلاحات ، بل وحتى بسط الحماية البريطانية على العراق .

وكانت مناهج الاصلاحات لهذه الجمعيات التوائم المختلفة ، متشابهة الى درجة كبيرة . وقد اكتسب منهاج «الجمعية الاصلاحية» البيروتية اهمية قصوى ، مع العلم انها كانت اهم الجمعيات الاصلاحية . وقد طالبت هذه الجمعية بان تناط قضايا الادارة المحلية كلها بحكومة ولاية بيروت ذات الاستقلال الذاتى ، وان لا يبق تحت اشراف الحكومة المركزية الا قضايا الدفاع والعلاقات الخارجية وطرق مواصلات الامبراطورية ومالية الدولة العامة . كما طالبت بالاّ يخدم المجندون الجدد فى ولاية غير ولايتهم ، وبالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية تستعمل فى البرلمان وفى السجلات الرسمية على مستوى اللغة التركية .

وفى منتصف شباط (فبراير) ١٩١٣ ، نشرت الجمعية خطتها الاصلاحية وكان لها صدى استحسان فى الاجتماعات الجماهيرية التى عقدت فى دمشق وحلب وعكا ونابلس وبغداد والبصرة . ومع ذلك ففى كانون الثانى (يناير) ١٩١٣ ، اتخذ اعضاء تركيا الفتاة ، الذين حلّوا محلّ الائتلافيين فى دفة الحكم ، موقفا مغايرا تماما لعلاقاتهم مع القوميين العرب . اذ انهم لم يرفضوا مطاليب المصلحين البيروتيين رفضا باتا وحسب ، بل وحرّموا فى ٨ نيسان (ابريل) ١٩١٣ نشاطات «الجمعية الاصلاحية» والقوا القبض على رؤسائها . وادّت هذه الاجراءات الى اندلاع موجة اضطرابات فى

بيروت . فبدعوة من القوميين قام سكانها باضراب احتجاجي عام . واغلقت الاسواق والحوانيت ومشاغل الحرفيين . وصدرت الصحف العربية يعلوها السواد حدادا .

وعمّت الاضطرابات انحاء اخرى من سوريا ، حيث جرت تظاهرات التضامن . وازاء سورة الغضب المتفجرة اضُطر اعضاء تركيا الفتاة الى التراجع فاطلقوا سراح الموقوفين ووعدوا بتحقيق الاصلاح في ادارة الولايات .

وفي ٥ ايار (مايو) ١٩١٣ اصدرت حكومة تركيا الفتاة قانونا جديدا عن الولايات . وقد وسّع هذا القانون الحقوق السابقة لمجالس الولايات الى درجة ما ، الا انه كان بعيدا جدا من ان يحقق المطاليب التي قدمها المصلحون وحزب اللامركزية . بل واعتبره الكثيرون كخطوة لاسدال النقاب على مركزية الامبراطورية العثمانية المقبلة .

واثار قانون الولايات موجة كبيرة من التظاهرات والاجتماعات الاحتجاجية ، التي جرت في كثير من مدن سوريا والعراق ، حيث بدأت ايضا حملة واسعة لاصلاح ادارة الولايات .

المؤتمر العربي الاول . في الوقت الذي كانت تجري فيه الاحداث المارة الذكر ، قام «فريق من الطلاب العرب في باريس» (هكذا سمّى انفسهم قادة «الجمعية العربية الفتاة» زيادة في الاحتياط) بمبادرة لتوحيد كافة القوى الوطنية بغية ممارسة ضغط مشترك على الحكومة التركية . وفي ٤ نيسان (ابريل) ١٩١٣ قدموا اقتراحا الى حزب اللامركزية بعقد اول مؤتمر عربي في باريس . فقبل الاقتراح وشرع حزب اللامركزية بالتهيؤ الى المؤتمر .

ونظرت حكومة فرنسا الى عقد المؤتمر بعين العطف الشديد ، خاصة وانه ينسجم وتلك المطاليب التي تيسّر تغلغل الفرنسيين في سوريا ولبنان . ويسرت الحكومة الفرنسية القوميين العرب محلا لعقد المؤتمر وضمنت نشر مواده . وكتبت صحيفة «لوتان» الحكومية باسهاب عن سير المؤتمر ونشرت خطب الوفود . وساهم

فى هيئة تحرير «لوتان» مباشرة خير الله ــ الكاتب الاجتماعى العربى واحد سكرتاريى المؤتمر ، وكموظف فى الصحيفة المذكورة نشر فيها جميع وثائق المؤتمر .

وقد انعقد المؤتمر فى حزيران (يونيو) ١٩١٣ . وجرت جلساته الرسمية بين ١٨ــ٢٣ منه . وحضره ٢٤ مندوبا (١٩ من سوريا ولبنان و٢ من العراق و٣ من الجاليات العربية فى الولايات المتحدة الامريكية) وما يربو على ٢٠٠ ضيف . وفى قراراته ، انطلق المؤتمر من منهج حزب اللامركزية «والجمعية الاصلاحية» البيروتية . وطلب الاعتراف بحقوق العرب القومية واعلن ان العرب يطالبون : اولا ، بمساهمة اكبر فى الحكومة المركزية للامبراطورية العثمانية : وثانيا ، بالاستقلال الذاتى للولايات العربية . واعلمت وزارة الخارجية الفرنسية وسفراء الدول فى باريس والحكومة التركية بقرارات المؤتمر .

وقامت الحكومة الفرنسية ، التى كانت تجرى آنذاك مفاوضات مع الاتراك حول امكانية عقد قرض ، وبالتالى اصبح بمقدورها الضغط على تركيا ، بدعوة ممثل الحكومة التركية مدحت شكرى بك ــ سكرتير حزب «الاتحاد والترقى» الى باريس. وباسم حزب «تركيا الفتاة» وقّع مدحت شكرى اتفاقية مع الزهراوى ــ رئيس المؤتمر العربى الاول . وتعهّد اعضاء تركيا الفتاة بموجبها ، بتنفيذ جميع قرارات المؤتمر العربى الاول . وفى الوقت ذاته عقدت فرنسا فى صيف ١٩١٣ اتفاقية مع تركيا . فمنحها الباب العالى بموجب هذه الاتفاقية عددا من امتيازات السكك الحديدية والمرافئ . الا انه لم تنفذ هذه الاتفاقية ولا الاتفاقية السابقة التى عقدت مع الزهراوى .

وعمل اعضاء تركيا الفتاة كل ما فى وسعهم لنقض الاتفاقية العربية التركية .* وفى غضون شهرين استمر ما يشبه الكوميديا . وفى ١٥ آب (اغسطس) ١٩١٣ استقبل اعضاء تركيا الفتاة بحفاوة مندوبى المؤتمر ، الذين قدموا الى القسطنطينية . ونظموا بضعة اجتماعات

---

* الاتفاقية التى عقدت بين مدحت بك والزهراوى . ــ **المترجمة** .

تكريما «للتقارب العربي-التركي» وساهم فيها وزراء تركيا الفتاة .
وفى ١٨ آب (اغسطس) ١٩١٣ اصدرت حكومة تركيا الفتاة مرسوما عن حقوق العرب لم يشف غليل العرب اطلاقا ، بل اعتبروه كخدعة . وقد شرع الاتراك بتوزيع الرتب والمداليات على شخصيات عربية مختلفة ، محاولين تأجيل وقوع الانقطاع المحتم. كما عيّن ٥ من العرب اعضاء فى مجلس الشيوخ . وباستثناء الزهراوى كان هؤلاء الاعضاء من الاقطاعيين والتجار العرب ، ولم تكن لهم اية صلة بالحركة القومية .

ولم تؤد الى اية نتائج عملية مظاهر الرياء حول «التقارب العربي-التركي» ولا الاصلاحات الجزئية التى لم تنفذ قط . وبقى كل شيء كما كان عليه سابقا .

جمعية ((العهد)) . السير نحو الثورة العربية . فقد القوميون اى امل فى الاتفاق مع اعضاء تركيا الفتاة بعد ان فشلت الاتصالات العربية التركية فى صيف ١٩١٣ . وبالطبع ، حاول البعض استئناف المفاوضات معهم ، الا ان معظم القوميين العرب اصبحوا يعتبرون هؤلاء بمثابة خونة . بل ونظّم اعضاء «المنتدى الادبى» الناشئون تظاهرات احتجاجية ضد قبول الشيخ الزهراوى عضوية مجلس الشيوخ التركى .

وعقب شهرى آب ـ ايلول (اغسطس ـ سبتمبر) ١٩١٣ ، لم يقم القوميون العرب باية محاولة جدية لاجراء اتفاق مع الاتراك ، وشرعوا بالتهيؤ للقيام بانتفاضة مسلّحة .

وفى ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٣ الف عزيز على المصرى جمعية «العهد» السرية فى القسطنطينية . وقد تأسست هذه الجمعية على اساس الجمعية السرية «القحطانية» وكانت مماثلة لها الى حد كبير بتكوينها ومهماتها . ومع ذلك فانها كانت ، خلافا «للقحطانية» ، جمعية عسكرية صرفة ، وحدّت الضباط العرب الذين كانوا يخدمون فى الجيش التركى ، وخاصة العراقيين ، المنحدرين من اوساط اقطاعية-ملاكية . وناهز عدد اعضاء الجمعية ٤ آلاف شخص وكان لها فروع فى بغداد والموصل وحلب ودمشق . وكان نورى السعيد وجميل المدفعي من بين الشخصيات

التى لها اتصال بجمعية «العهد» . وقد اتجهت الجمعية نحو الانكليز . وكان الكثيرون من اعضائها بضمنهم عزيز على المصرى على اتصال بالمخابرات الانكليزية .

وقد قطعت جمعية «العهد» الامل من التطور السلمى والاتفاق مع اعضاء تركيا الفتاة . ودعت الى اسقاط السلطة التركية عنوة واتخذت العراق قاعدة للقيام بالانتفاضة .

وفى ١٩١٤ ، شعرت السلطات التركية بالمؤامرة العسكرية ، والقت القبض على عزيز على المصرى ، الذى اتّهم بالخيانة وفى آذار (مارس) ١٩١٤ قدّم الى محكمة عسكرية . واثارت محاكمته موجة من الاحتجاجات فى الاقطار العربية ، خاصة فى مصر . ونتيجة لتدخل السفارة الانكليزية . لم يوضع حكم الاعدام موضع التنفيذ . وفى ٢١ نيسان (ابريل) ١٩١٤ صدر العفو عن عزيز على وغادر تركيا الى مصر .

ومع جمعية «العهد» تشكلت جملة من الجمعيات الصغيرة التى كانت تستهدف الكفاح المسلّح ضد الاتراك . فتألفت فى الموصل «جمعية العلم» ، وفى القاهرة «جمعية الثورة العربية» التى وضعت نصب اعينها قضية الاستقلال التام للاقطار العربية والثورة المسلّحة ضد الاتراك .

وقبيل ١٩١٤ تخلّت اغلبية المنظمات العربية السياسية والجمعيات السرية عن التاكتيك التوفيقي وسلكت طريق الانتفاضة المسلّحة . وقد بدّدت السياسة الشوفينية التى انتهجها اعضاء تركيا الفتاة اخر الاوهام حول امكانية التوصل الى اى نوع من الاتفاق . وخيفة من نمو الاتجاهات الانفصالية بين العرب قرر اعضاء تركيا الفتاة فى كانون الثانى (يناير) ١٩١٤ غلق جميع المنظمات العربية السياسية وتشتيت الضباط العرب بتوزيعهم على الحاميات والوحدات العسكرية المختلفة . الا ان هذا الاجراء لم يؤد الا الى تقوية الموقف الذى اتخذه مؤيدو الانتفاضة الذين انتقلوا من الدعاية الى العمل .

وبعد ما استعد القوميون العرب الى الانتفاضة ، قاموا باجراء اتصالات مع ممثلى السفارات الغربية كما اتصلوا

بالاستخبارات الانكليزية والفرنسية . وفى بداية ١٩١٤ اجرى شفيق المؤيد باسم حزب اللامركزية مفاوضات مع بومبار - السفير الفرنسى فى القسطنطينية وطلب من فرنسا تقديم المعونة المالية والسياسية للثورة العربية . وقبيل الحرب العالمية الاولى ، عقد حزب اللامركزية مع فرنسا اتفاقا حول تسليم ٢٠ الف بندقية وارسال بعض المدربين وغير ذلك من المطاليب . واجريت اتصالات مماثلة مع المقيمين الانكليز فى الشرق . وفى نيسان (ابريل) ١٩١٤ قام عبد الله الهاشمى بمقابلة كيتشنر ، مندوب انكلترا السامى فى مصر ، وشخصيات انكليزية رسمية اخرى . والتمس من انكلترا تزويد العرب بالرشاشات واسناد الثورة العربية المقرر تفجيرها فى الحجاز .

وهكذا ، قبيل بداية الحرب العالمية الاولى ، لوحظ فى الحركة العربية اتجاهان متعارضان تماما . اذ سلك معظم القوميين العرب خط الثورة ضد تركيا ، وأخذوا يعملون بالتواطؤ مع دول الوفاق . وكان القسم الآخر من القوميين العرب ما زالوا يأملون التوصل الى اتفاق مع الاتراك . واعتبروا بان الثورة ستكون مصحوبة بخطر لا اقل بل واكثر من امكانية الاحتلال الانكليزى الفرنسى للاقطار العربية .

الفصل السادس والعشرون

الجزيرة العربية خلال الاعوام ١٨٧٠ــ١٩١٤

استعراض عام . كانت بلدان الجزيرة العربية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اكثر اجزاء العالم العربى تأخرا . وقد جرى تطورها فى غاية البطء . وكانت مجزأة الى دويلات صغيرة متعددة تابعة جميعها لانكلترا او تركيا .

وقد ساد الانتاج الاقطاعى فى كافة ارجاء الجزيرة العربية ، كما هيمن طراز الاقتصاد الطبيعى على الاقسام الداخلية منها . ورغم انه نمت بعض النمو التجارة عن طريق القوافل والعلاقات البضائعية-النقدية فى نطاق التشكيلة الاجتماعية ــ الاقتصادية الاقطاعية ، فان السوق الداخلية كانت تتكون بمنتهى البطء . وفى داخل الجزيرة كانت ظروف القرون الوسطى ما زالت طاغية بكل معنى الكلمة . وكانت التأثيرات الخارجية (التجارة مع دمشق وبغداد وعدن وقوافل الحجاج) ضعيفة لدرجة انها كانت عاجزة عن تغيير مجرى التطور الاجتماعى-الاقتصادى وتوجيهه .

وفى نطاق سيطرة نمط الانتاج الاقطاعى ، ظلت ايضا بقايا قوية لعلاقات المجتمع المشاعى البدائى ونظام الرق الذى كان يحمل فى شمال الجزيرة ، اى فى نجد والحجاز وشمر طابع العمل المنزلى على الاغلب . اذ استخدم الرقيق كخادم فى منزل الاقطاعى او كحرس شخصى له . اما فى الجنوب ، اى فى اليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، فان عمل الرقيق استغلّ استغلالا واسعا فى الزراعة وصيد اللؤلؤ من قعر البحار .

وفى نهاية القرن التاسع عشر ، وجدت الاقطار العربية نفسها فى دوّامة السياسة العالمية مرة اخرى . اذ اصبحت هدفا لسياسة الدول الكبرى الامبريالية التوسعية . فمن جهة ، كانت انكلترا تسعى الى تقوية نفوذها ونشره على القسم الاكبر من الجزيرة العربية . وقد بذلت الجهود للسيطرة التامة على اراضى الجزيرة العربية الواسعة وعلى سواحلها . ومن جهة اخرى ، حاولت المانيا وكذلك فرنسا وروسيا عرقلة التوسع الانكليزى وتوطيد اقدامها فى الجزيرة . واخيرا ، بذلت تركيا جهودا محمومة لتقوية سلطتها ونفوذها فى الاراضى العربية .

نقيضا لذلك ، نشطت فى داخل الجزيرة قوى كانت تسعى الى مركزة الجزيرة . وبغية الوصول الى هذا الهدف ، استغلت هذه القوى استغلالا واسعا منافسة الدول وصراعها من اجل الجزيرة العربية .

عدن وحضرموت . كانت مستعمرة عدن من اهم المواقع التابعة لانكلترا فى جنوب الجزيرة العربية . وان فتح قناة السويس (١٨٦٩) زاد فجاة من مكانة عدن الاستراتيجية والتجارية . اذغدت عدن محطة فحمية هامة على الطريق البحرى الموصل بين اوربا والهند ، ومركزا كبيرا لتجارة الترانسيت . ونادت بها انكلترا كمرفأ حر . وكانت توزّع البضائع الانكليزية منها الى كافة ارجاء القسم الجنوبى من الجزيرة والى الساحل الافريقى لمضيق باب المندب .

وبعد فتح قناة السويس تفاقمت كثيرا السياسة العدوانية التى كانت تتبعها انكلترا فى «الاراضى الداخلية» لعدن . ففى السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر وسع الانكليز مساحة ممتلكاتهم فى جنوب الجزيرة بصورة محسوسة . وبعد ان اغرق الغزاة الانكليز سواحل وجزر جنوبى الجزيرة بالدماء أخذوا يخضعون مناطق الجزيرة العربية الواحدة بعد الاخرى قاصفين المدن والقرى الآمنة بنيران مدافعهم وزاشين الاقطاعيين الفاسدين .

وفى ١٨٦٩ احتلّ الانكليز سلطنة لحج وسرعان ما اخضعوا بعدها جميع امارات الجنوب العربى التسع ، المجاورة الى مستعمرة عدن . واجبروا العواهل المحليين على توقيع معاهدات غير متكافئة

وفرضوا الحماية عليهم . وفي ١٨٧٣ ارغمت انكلترا الباب العالى على الاعتراف رسميا بهذا الاغتصاب ، وفى ١٩٠٥ عقدت مع الباب العالى اتفاقية لتعيين الحدود التى تفصل بين الممتلكات التركيـة فى اليمن والانكليزية فى عدن . ومع ذلك رفض اليمنيون الاعتراف بخطِ الحدود الانكلو-تركى ، وخاصة الحكومة اليمنيـة التى جاءت الى السلطة بنتيجة الانتفاضية التى شبت خلال الاعوام ١٩٠٤-١٩١١ . واعتبروا عدن والاراضى المجاورة لها جزءا من اليمن سلخ عنهـا بصورة غير قانونية ، واسندوا كفـاح قبائل الجنوب العربى ضد السيطرة الانكليزية .

وفى الوقت ذاته ، شرعت انكلترا بالاستيلاء على حضرموت التى كانت تمخر فى مياهها باستمرار سفن الاسطول الانكليزى الحربى . وشنت هذه السفن حملات تنكيليـة ، وعزلت انكلترا الحكام غير المرغوب فيهم ، تحت ستار مزيف ، هو ستار مكافحة النخاسة . وتحت فوهات المدافع الانكليزية خضع سلاطين وشيوخ حضرموت الواحد تلو الآخر وقبلوا الحماية الانكليزيـة . وفى ١٨٨٨ وقّع سلطان المكلا معاهدة الحماية وهو من سلالة القعيطى وكان يحكم اكبر الممتلكات الاقطاعية فى حضرموت . وفى ١٨٨٦ استولى الانكليز على جزيرة سقطرة وضمّوها الى ممتلكاتهم .

وقبيل انفجار الحرب العالمية الاولى ربط الانكليز بمعاهدات غير متكافئة الثلاثة والعشرين سلطنة ومشيخة واقعـة فى جنوبى الجزيرة وهى ما بين صغيرة ومتناهية فى الصغر . وفرضوا عليهـا جميعا الحماية وضمّوها تحت لواء سلطات عدن الاستعماريـة .

عمان . وفى ١٨٧١ استطاع الانكليز قمع اكبر الانتفاضات الشعبية التى بقيت مندلعة فى عمان قرابة عشر سنوات ، مع العلم ان عمان كانت اقدم المستعمرات الانكليزية فى الجزيرة العربية . وقد لقى عزان بن قيس -قائد الثوار حتفه فى المعركة . واستولى الانكليز على مدينة مسقط ووضعوا على العرش عميلهم السلطـان تركى (١٨٧١-١٨٨٨) . واستطاع تركى بمعونـة الاسطول الانكليزى وحراب السباهيين الهنود التنكيـل بالقبائل المتمردة والعناصر المعادية له ، التى كانت تكافح من اجل استقلال البلاد .

وفى ١٨٨٦ نشبت فى عمـان انتفاضـة جديدة . وحاصر الثوار مسقط . فاتجه تركى ثانيـة الى الانكليز وقمـع الانتفاضـة بمساعدتهم .

وقد كان تركى «حليفا» مخلصا لانكلترا ومنحها جملـة من الحقوق والامتيازات الجديدة . ورغم البيان الانكلو-فرنسى لعام ١٨٦٢ ، نجحت انكلترا فى فرض حمايتها فعلا على عمان . وتقوت هذه الحماية فى عهد السلطان فيصل (١٨٨٨-١٩١٣) وهو ابن وخليفة تركى ، الذى عقد معهـا فى ٢٠ آذار (مارس) ١٨٩١ معاهدة جديدة عن الصداقة والتجارة والملاحـة . وبموجب هذه المعاهدة تعهّد فيصل بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن ورثته ، بان لا يحوّل ملكية بلاده الى دولة ثالثة .

وبمساندة روسيا ، وقفت فرنسا ضد اقامـة الحمايـة الانكليزية . واتّهمت انكلترا بخرق بيان عام ١٨٦٢ الخـاص «باستقلال» عمان وطالبت باحترام حقوقها . وفى ١٨٩٣ حاول الفرنسيون تأسيس محطة فحمية فى صور ، الا انهـم اصطدموا بمقاومة حاسمة من الانكليز . فاغتاظ مجلس النواب الفرنسى . ولاظهار العزيمة ، ظهرت فى مياه عمان السفن الحربية الفرنسيـة مرارا وكذلك الروسية . وفى ١٨٩٣ قدم الطرّاد الروسى «نيجنى نوفغورود» الى عمان وحظى ضباطه بمقابلة السلطان . وفى ١٨٩٤ ، أسست فرنسا قنصليـة فى مسقط وصـارت تمدّ العمانيين بالسلاح . وبدأ القنصل الفرنسى بتسجيل «المحميين» وشرع توزيع الاعلام الفرنسية على قباطنة السفن العمانية .

وقد اوشك وقوع خلاف كبير . اذ كان السلطان فيصل بين نارين . فتحت فوهات مدافع الطرّاد الفرنسى ، منح الفرنسيين فى ١٨٩٨ امتيازا لانشاء محطة فحمية . وردا على هذا اتهمته انكلترا بخرق معاهدة ١٨٩١ . وفى شبـاط (فبراير) ١٨٩٩ ، اقترب الاسطول الانكليزى من سواحل عمان وسدّد مدافعـه على مقر سلطان مسقط . فسارع السلطان المذعور الى الخضوع . وفى ١٦ شباط (فبراير) ألغى الامتياز الممنوح الى الفرنسيين ولبىّ مطاليب الانكليز الاخرى . فاعيدت «العلاقات القلبية» بين انكلترا وعمان .

الا ان فرنسا وروسيا لم تسلما بالامر الواقع . ففى ١٩٠٠ قدم الى مسقط الطرّاد الفرنسى «دروم» والزورق المسلح الروسى «غيلاك» . وظهرت فى مياه عدن على اثرهما الطرّادات الروسية «فريـــاغ» و«اسكولد» و«بويارين» . وفى ١٩٠٣ قدمت الى مسقط ثانية الطرّادة الفرنسية «انفرنيه» والروسية «بويارين» لتقويـــة مركـــز السلطان الذى كان مهدّدا دوما بالمدافـــع الانكليزية .

ومع ذلك بقى الاسطول الانكليزى راسيا فى عمان . وفضلا عن ذلك اصلى الانكليز بنيرانهم احدى السفن العمانية التي كانت تجوب البحر حاملة العلم الفرنسى واستولوا عليهـــا ، رداً على المظاهرة البحرية-الحربية الروسية والفرنسية . ومثلما كان الامر فى فاشودة ، اضطرت فرنسا الى التراجع اذ كان الوضع ينذر بخطر وقوع اصطدام مسلّح واسع . وقدّم النزاع حول الامتياز الى محكمـــة لاهاى الدولية . وفى ١٩٠٤ ، اى عقب عقد معاهدة الوفاق ، فقد النزاع حدته وأهمل . وكان قرار محكمة لاهاى لصالح انكلترا . وتنازلت فرنسا عن مطاليبها فى عمان وحصلت على حق استخدام المحطة الفحمية فى المكلاّ عوضا عن محطة مسقط الفحمية ، بل وحتى انها تنازلت عام ١٩١٦ عن حقوقها فى هذه المحطة الاخيرة . وفى ١٩٢٠ أغلقت قنصليتها فى مسقط .

واثار خنوع سلطان مسقط ومذلّته امام الانكليز موجـــة استياء واسعة فى البلاد . وباستغلال وفاة فيصل وتبؤ العرش من قبل ابنه تيمور الذى كان هو الآخر صنيعة انكليزية جديدة ، قام العمانيون بانتفاضة عام ١٩١٣ . وترأست الانتفاضة طائفة العبادية الاسلامية . واختار الثوار سالم بن راشد الخروصى اماما لهم والّفوا دولة مستقلة واتخذوا نزوى عاصمة لهم . وفى مدة قصيرة حرّر الثوار جميع اراضى عمان باستثناء مدينـــة مسقط والمناطق الساحلية ، التى كانت تحت حماية الاسطول البريطانى . وبدأوا بكفاح عنيد طويل ضد السيطرة الانكليزية وسلطان مسقط . وفى ١٩٢٠ اضطر سلطان مسقط الى توقيع معاهدة الصلح والاعتراف باستقلال امامة عمان .

الممتلكات الانكليزية فى الخليج العربى . فى نهاية القرن التاسع عشر ، وسّعت انكلترا مواقعها فى الخليج العربى وقوّتهـا بكل الوسائل . وبمعونة اسطولها حافظت على « علاقات التحالف » مع البحرين ومشيخات ساحل الصلح البحرى (شاطئ القرصنة) . وفى ١٨٧١ اكّد الشيخ عيسى بن على ـ حاكم البحرين وصنيعة الانكليز ، جميع الالتزامات الناجمة عن المعاهدات الماضية . فوعدته انكلترا بان « تحميه » سواء من رعيتـه الخاصـة ام من حكومة تركيا وايران ، اللتين ادعتا السيادة على جزر البحرين .

وفى ١٨٨٠ فرضت انكلترا على البحرين ما يعرف بالاتفاقية الاستثنائية الاولى (First exclusive agreement) التى كانت فى الواقع عبارة عن معاهدة حماية ، رغم ان هذه الكلمة لم ترد فيها نصا . وقد تعهّد شيخ البحرين بموجبها ان لا يمنح امتيازا ما الى اية دولة ثالثة ، ولا يسمح بانشاء محطات فحمية ، ولا يجرى مفاوضات ديبلوماسية ولا يقيم علاقات قنصلية ولا يعقد معاهدات ما مع اية دولة ما خلا انكلترا .

وفى ١٨٨٢ استولى الانكليز على شبـه جزيرة قطر وألزموا حاكمها ان يكوّن مع الانكليز « علاقات التحالف » . واصبحت قطر تحت سيطرة انكلترا وفى ١٩١٦ صارت محمية تابعة لها رسميا .

وفى ١٨٩٢ عقد ، على غرار المعاهدة الانكلو-عمانية لعام ١٨٩١ ، ما يعرف بالاتفاقية الاستثنائية النهائية Final exclusive agreement مع البحرين . وتعهد شيخ البحرين بموجبهـا بان لا يؤجّر ولا ينقل ، باى شكل من الاشكال ، ملكيـة اية قطعة من اراضيه لاى دولة كانت عدا انكلترا . وفى العام نفسه وقّع شيوخ ساحل الصلح البحرى اتفاقية مماثلة .

وخشية من المشاريع الروسية والالمانية للمنفذ الى الخليج العربى ، وجهت انكلترا انتباهها فى منتصف التسعينيات من القرن التاسع عشر الى الكويت ، ذلك الجزء القاحل من الصحراء المجاور لشط العرب والبصرة جنوبا . وكانت الكويت تحت سيادة البـاب العالى ، رغم خلوّها من القوات التركية . وفى ١٨٩٥ اقترح الانكليز على شيخ الكويت ـ محمد الصباح ، اقامة « علاقات التحالف » معهم

على غرار امارات الخليج العربى الاخرى . فورفض الشيخ محمد مطامع انكلترا . وعندئذ دبّرت مؤامرة ضده . وفى ايار (مايو) ١٨٩٦ أغتيل محمد والمقربون له . وجاء الى السلطة اخوه الشيخ مبارك الصباح الذى اقام علاقات مع ناصر باشا السعدون رئيس قبيلة المنتفق ، ذى السطوة الكبيرة ، فى جنوب العراق . ورفض الشيخ مبارك فعلا الخضوع الى الحاكم التركى فى البصرة . وفى ٢٣ كانون الثانى (يناير) ١٨٩٩ وقّع اتفاقية مع انكلترا احتفظت بطابعها السّرى لان مبارك ، بصفته متصرفا تركيا (اى حاكم المنطقة) لم يكن له حق الدخول فى مفاوضات وخاصة عقد اتفاقيات دولية حقوقية . وقد تجاوز صلاحياته بتوقيعه سرا الاتفاقية التى ألزمته ان لا ينقل ملكية اراضيه الى اى دولة ما عدا انكلترا .

وبعدما اقامت انكلترا سيطرتها على الكويت ، اكملت حلقة ممتلكاتها فى الخليج العربى . وكانت الكويت آخر حلقة فى سلسلة مخطط تحويل الخليج العربى الى «بحيرة انكليزية» .

الخلاف حول الكويت. ان انتقال الكويت الى ايدى انكلترا استخدم كذريعة لنشوء خلاف دولى جديد . وفى ١٨٩٩ حصل الالمان على امتياز تمهيدى لسكة حديد بغداد . فارسلوا الى العراق بعثة كان عليها ان تستقصى من طريق السكة الحديدية . وعيّنت الكويت آخر نقطة لهذا الخط . فقدمت اليها فى بداية ١٩٠٠ بعثة المانية استكشافية .

وقد اعتبرت انكلترا وصول البعثة الالمانية الى الكويت تهديدا للمواقع البريطانية فى الخليج العربى . حتى ان اوكونر ، السفير الانكليزى فى القسطنطينية ، حذّر الاتراك من انّ مدّ السكة الى الكويت سيؤدى الى «صعوبات محلية» بل والى «تدخل الدول الاجنبية» . وقال اللورد كيرزون ، نائب ملك الهند ، بكل حزم ، بان الحدود الغربية للهند البريطانية تمتد الى الفرات . وبوحى من كيرزون ، بدأت الصحافة الانكلو-هندية تطالب فجأة وكأنها ترجّع صدى ببسط الحماية الانكليزية على الكويت .

واحتجت بدورها الصحافة بل وحتى الدبلوماسية الالمانية على اعتزام الانكليز فرض الحماية على الكويت .

واعلنت المانية ان الكويت هى بلد تركى وانه لا مفرّ من بسط السلطان سيطرته عليها .

وفى نيسان (ابريل) ١٩٠٠ أنبأ اوكونر – السفير الانكليزى فى القسطنطينية ، السفير الالمانى مارشالّ بان انكلترا عقدت مع مبارك شيخ الكويت اتفاقية «تحول دون منحه امتيازات لرعايا دولة ثالثة» . وقدم لاسيلز ــ السفير الانكليزى فى برلين ، بلاغا مماثلا فى حزيران (يونيو) ١٩٠٠ . واعتقد الالمان بادئ ذى بدء بان القضية تتعلّق «باتفاقية قانونية خاصة» موضوعهـــا امتياز انكليزى ما ، وانه يتعين على البنك الالمانى ابتيـــاع هذا الامتياز من الرأسماليين الانكليز . وعندما انجلت الحقيقة ، امرت المانيا سفيرها فى القسطنطينية «باتخاذ كافة التدابير اللازمة لدعم حقوق تركيا فى الكويت» . وكتب ريختهوفن ــ نائب وزير الخارجية الالمانية : «انه ليس فى صالحنا حلول اية دولة اجنبية فى الكويت ، سواء أكانت انكلترا او روسيا . فاية دولة اجنبية تهدد المشروع الالمانى بكامله ، الذى يرمى الى مد سكة حديد الاناضول الى الخليج العربى . واول ممهدات هذا المشروع هو سيطرة تركيا على جميـــع الاراضى الممتدة من حيدر باشا الى الكويت . ولذا فانها لضرورة ملحّة الحصول على بيان من الشيخ مبارك يشير فيـــه الى انه لن يمنح الى الاجانب اية اراض او امتيازات اقتصادية طالما يزود بالارض والمرافئ وغيرها من اللوازم سكة حديد بغداد» . وبكلمة اخرى بذلت المانيا جهودها للحصول على امتيازات استثنائية ، كالتى حصلت عليها انكلترا من قبل .

وفى آب (اغسطس) ١٩٠١ أعلنت المانيا انها لا تعترف بمطاليب انكلترا فى الكويت . فاجابت الاخيرة بانها ستتوصل الى الاتفاق مع تركية وحدها وبان قضيـــة النظام الاساسى للكويت لاتخص المانيا واعرب الانكليز عن استغرابهم لتظاهر الالمان فى هذه القضية بانهم اكثر تركية من السلطان نفسه . وفضلا عن ذلك اعلن وزير الخارجية الانكليزية انّـــه لا يمكن ان يكون ولن يقوم بين انكلترا والمانيا اى تفاهم بخصوص قضية الكويت . ثم اردف قائلا بان وجهتى نظر الحكومتين على نقيض تام فى هذه القضية .

وبينما كانت تجرى هذه المفاوضات ، وقعت فى الكويت نفسها الاحداث التالية : فى آب (اغسطس) ١٩٠١ أوفد الاتراك الى الكويت نزولا عند طلب الالمان ، قوات لتعزيز سطوة السلطان فيها . وابحرت القوات وواجهت طرّادا انكليزيا كان راسيا فى الكويت . وابلغ قبطان الطرّادة الانكليزية الاتراك ، بان الانكليز سيطلقون النار ويغرقون المراكب التركية فيما لو نزل جندىّ واحد الى الساحل . فعادت المراكب التركية ادراجها .

وفى ٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٠١ وقّعت انكلترا اتفاقية مع تركيا حول قضية الكويت . تنص على ما يلى : اعترفت انكلترا بسيادة تركيا على الكويت على شرط ان لا ترسل الاخيرة قوات اليها ، كما اعترفت تركيا بمصالح انكلترا الخاصة فى الكويت وبالاتفاقية الانكلو-كويتية لعام ١٨٩٩ . وعليه ارضت الاتفاقية من جهة غرور تركيا فان الكويت ظلّت شكليا تحت سيادتها ، ولبّت من جهة اخرى مطاليب انكلترا اذ اصبحت الكويت فعلا تحت سيطرتها .

وفى تلك الاونة قررت المانيا الانسحاب من المسرح واستغلال التناقضات الانكلو-روسية من تحت ستار .

وبذلت روسيا جهودها لتسوية قضية الكويت بين انكلترا وتركيا . فمن جهة لم تكن راغبة ، على غرار انكلترا ، فى ظهور المانيا فى الخليج العربى ، ومن جهة اخرى ، انها لم توافق اطلاقا على فرض الحماية الانكليزية المباشرة على الكويت .

وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠١ وقع حادث ادّى الى تفاقم التناقضات الانكلو-روسية . فبعد ٣ اشهر من عقد اتفاقية السادس من ايلول (سبتمبر) ، الانكلو-تركية ذات الحلول الوسطية ، خرقت انكلترا بصورة غير متوقعة الوضع الراهن . اذ امر قائد احدى السفن الحربية الانكليزية ، التى كانت تتردد بكثرة على الكويت ، بازالة العلم التركى من مقرّ الشيخ مبارك ونصب علم جديد عليه غير معروف لدى الكويتيين ، وسمّى بعلم الكويت . وفى الوقت ذاته اعلن الحماية الانكليزية على ممتلكات مبارك .

وادى تصرّف انكلترا هذا الى سخط كبير فى الصحافة

الروسية . حتى ان زينوفييف ـ السفير الروسى فى القسطنطينية ، اشار على الباب العالى بمراجعة محكمة لاهاى الدولية . وابحر الى الكويت فى بداية ١٩٠٢ الطرّادان الروسى «فرياغ» والفرنسى «انفرنيه» .

وقام القنصل الروسى فى بغداد بزيارة الشيخ مبارك وقدّم له مدالية روسية وهدايا . وتحت ضغط روسيا انكرت انكلترا على عمليات ضابطها البحرى واعلنت انها تنوى التمسك التام بالاتفاقية مع تركيا والمحافظة على الوضع الراهن .

ومع ذلك ، لم تفكر انكلترا بالتخلى عن خططها فى الكويت . وفى نهاية ١٩٠٣ قام اللورد كيرزون برحلة استعراضية فى بلدان الخليج العربى ، وخاصة بزيارة الكويت . وكان المفروض ان تظهر هذه الرحلة عزم انكلترا على الدفاع عن مواقعها فى الخليج العربى باى ثمن كان . وكانت معاهدة الوفاق لعام ١٩٠٤ والاتفاقية مع روسيا لعام ١٩٠٧ قد اطلقتا يد انكلترا فى عمل ما كانت تتوقعه منذ مدة طويلة . وفى ١٩٠٤ اقام بالكويت مقيم سياسى انكليزى ، وفى عام ١٩٠٧ ربطت انكلترا مبارك بمعاهدة جديدة ، اعتبرت تركيا بموجبها فى عداد الدول الاجنبية .

واضطر الاتراك فى آخر المطاف الى الاعتراف بهذا الوضع كحقيقة مسلم بها . وفى ٢٩ تموز / يوليو / ١٩١٣ وقّعوا اتفاقية مع انكلترا عن الخليج العربى . واعترفوا بالكويت كقضاء ذى استقلال ذاتى وعلم خاص به . وتعهّدت تركيا بعدم التدخل فى شؤونها الداخلية واعترفت بالاتفاقية الانكلو كويتية . وتخلّت فى الوقت ذاته عن حقوقها فى البحرين وقطر . ومقابل ذلك ، اعترفت انكلترا بحقوق تركيا فى الاحساء ، التى كانت محتلة من قبل الوهابيين آنذاك .

وسرعان ما اعلنت انكلترا عقب بداية الحرب العالمية الاولى ، فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ ، بان الكويت «امارة مستقلة تحت الحماية البريطانية» .

كفاح آل رشيد ضد آل سعود . بعث الدولة الوهابية .

ان صراع الدول من اجل الكويت تشابك بقوة مع كفاح الاسرتين

الوهابيتين ، آل رشيد وآل سعود ، من اجل السيطرة على شمالي الجزيرة . وقد راهن الالمان والاتراك على آل رشيد ، اى حكام شمر وكانوا يأملون بانهم يستطيعون بمساعدة آل رشيد ، القضاء على آل سعود ومبارك ــ شيخ الكويت ، الذين كانوا يعتمدون على مساندة الانكليز لهم .

وفي نهاية القرن التاسع عشر ، كانت شمّر اقوى دولة في شمالي الجزيرة العربية . وقد وضع امير شمر محمد (١٨٧١ ــ ١٨٩٧) الملقب « بالكبير » حدا للحروب الدائرة بين الاسر المالكة وضم جبل شمر والقصيم الى سلطنته . وفي ١٨٧٦ اعلن نفسه تابعا للاتراك وبالاعتماد عليهم شرع في خوض كفاح ضار ضد آل سعود ــ امراء الرياض . وفي ١٨٨٤ هزّم آل شمر قوات نجد واستولوا على الرياض ووضعوا احد رجالهم حاكما عليها . واعترف الامير السعودى عبد الرحمن ــ اصغر ابناء فيصل ، بسيطرة آل شمر ومكث في الرياض كحاكم على العارض (اقليم في وسط نجد) .

وفي ١٨٩٠ شبت انتفاضة في القصيم ونجد . واستولى الثوار على الرياض وتقدموا للاتصال باقطاعيي القصيم : ، زامل السليم ، امير عنيزة ؛ وحسن ، امير بريدة . وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٩١ هزّمت مفارز القصيم شر هزيمة في موقعة بالقرب من مليدة وهرب الامير عبد الرحمن الذى كان في طريقه لنجدتهم الى الاحساء وثم الى الكويت . وقضى * على الامارة السعودية قضاء مبرما وغدت نجد اقليما تابعا لدولة شمر الواسعة الاطراف .

وفي معمعان الازمة الكويتية قرّر الاتراك استغلال الشمريين للاستيلاء على الكويت . وردّ الانكليز على ذلك بتكوين تحالف البدو ضد شمر الذى يدخل في قوامه مبارك ــ شيخ الكويت ، وقبيلة المنتفق في جنوب العراق برئاسة ناصر باشا السعدون ،

---

* ابقى الشمريون على الامير السعودى محمد كرئيس ديني اسمى لوهابيي نجد ، علما بانه كرس حياته لزرع الازهار والعناية بها . ــ **المؤلف .**

ومشايخ قبائل مطير وبنو مرّة الوهابية ، الذين حافظوا على ولائهم لآل سعود . وترأس الوهابيين عبد العزيز ابن الامير عبد الرحمن المعروف باسم عشيرتـــه : ابن سعود . وبعـــد اقامـــة سيطرة الشمّريين على الرياض غادر ابن سعود مسقـــط رأســـه بصحبـــة والده وهو يبلغ من العمر سبع سنوات . وفى ١٩٠٠ كان شابا بالغ الرشد فعهد اليه والده آنذاك بقيادة الكفاح .

وفى خريف ١٩٠٠ هاجم امير شمر عبد العزيز (١٨٩٧ — ١٩٠٦) جيش الحلفاء المؤلف من عشرة آلاف شخص وكان يقوده الشيخ مبارك . وقد عهد الى ابن سعود بالاعمال التخريبيـــة فى جهة الرياض . وفى شباط (فبراير) ١٩٠١ هزم الشمريون الحلفاء شر هزيمة . وبعدما بلغ ابن سعود انباء الهزيمة فى الصحراء ، رفع الحصار عن الرياض وعاد الى الكويت .

وفى صيف ١٩٠١ بلغ الشمريون تخوم الكويت . الا انه كانت هناك سفن حربية انكليزية ، ولذا تقهقر الشمريون تحت فوهات المدافع الانكليزية . ومرّوا بنجد والقصيم حيث شبت انتفاضات ضدهم مرارا . وقد امـــد الانكليز الثوار بالسلاح والمال . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠١ سلّحوا مفرزة وهابيـــة صغيرة توجّهت الى الرياض بقيادة ابن سعود . وكان سكان الرياض الذين قاسوا من نير آل رشيد الاقطاعيين على استعداد لمساندة اى عمل من شأنه ان يحررهم من الشمريين . ولهذا فعندما بلغت مفرزة ابن سعود الصغيرة الرياض ، استولت عليهـــا بسهولـــة فى ١٥ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٢ .

ويتحدث فيلبى عنـــد الكلام عن الاستيلاء على الرياض عن قصة خيالية لا يمكن تصديقها رويت عن ابن سعود نفسه . وهى كاسطورة شرقية ممتعة تذكّرنا باسلوب اقاصيص «الف ليلـــة وليلة» .

ويقول فيلبى بان ابن سعـــود أخـــذ معـــه ٦٠ بدويـــا من الشجعان . وترك ٣٠ خيالا فوق الهضاب على مقربـــة من الرياض آمرا اياهم بالاسراع الى الكويت طلبا للنجدة فيما لولم تصلهـــم انباؤه بعد مرور يوم واحـــد . وابقى ٢٠ خيالا فى الاحراج على

تخوم واحة الرياض . ومع الرجـــال العشر الباقين هرع ليلا الى الرياض . وبلغ قلعتها ، حيث كان يمضى الليل عجلان حاكم الرياض من آل رشيد . فطرق ابن سعود باب الدار المجاورة لمدخل الحصن مباشرة . ففتحت الباب امرأة امرها بالصمت مهددا اياها بالموت وساق سكان الدار الى غرفة فى مؤخرتها . واقام ابن سعود واتباعه عند شباك الدار وتناولوا القهوة طوال الليل وسردوا القصّص الحربية وقرأوا القرآن ، وهم يراقبون من الشباك باب القلعة . وعند الفجر فتح باب القلعة وخرج عجلان وحاشيته واتجهوا نحو المسجــد لاداء الصلاة . فقفز البدو من الشباك فوق رؤوس المارين فأهلكوا الحاشية وقتلوا عجلان نفسه . وانتهزوا فرصة فتح باب القلعة للاستيلاء عليها وثبتوا اقدام آل سعود فيها .

وحصّن ابن سعود المدينة بعد استيلاء على الرياض مباشرة وشرع بالكفاح ضد شمر . وفى ١٩٠٢ ـ١٩٠٣ استرجع القسم الجنوبى من داخـــل الجزيرة برمتـــه (الخرج والافلاج ووادى الدواسر) . وقبيل صيف ١٩٠٤ اخضع الوشم وسودير والقصيم . وهكذا بعث ابن سعود الامارة الوهابية السعودية الى تخومهـــا السابقة .

واصبح ابن سعود قويا الى درجة ان آل رشيـــد طلبـــوا المعونة فى ١٩٠٤ من الاتراك . وفى ايار (مايو) ١٩٠٤ وصلت الى نجد ثمانى كتائب تركية بقيادة احمد فيضى باشـــا . وهلك القســـم الاكبر من الجنود الاتراك فى الصحراء من جراء الحـــر والعطش والجوع والاوبئة . وفى نهاية ١٩٠٤ انتقـــل الى اليمن فيضى باشا نفسه قائد فيلق الحملة التركية ومن بقى من جيشه . وبعد ان بقى الشمريون لوحدهم ، واصلوا الكفاح ايضا لمدة من الزمن . الا ان آل سعود كبدوهم هزائم منكرة فى نيسان (ابريل) ١٩٠٦ . وفى المعركة لقى مصرعه عبد العزيز ـ امير آل رشيد . وهرع خليفته معتب الى عقد الصلح والاعتراف بحقوق آل سعود فى نجد والقصيم . وعن طريق تبادل الرسائل ثبّت عبد الحميـد سلطان تركيا هذه الاتفاقيـــة . وهكذا بعثت الدولـــة الوهابية برئاسة آل سعود .

سياسة ابن سعود الخارجية والداخلية . كان الاتراك وحلفاؤهم بنو شمر الاعداء الرئيسيين لابن سعود الذى واصل كفاحه ضدهم حتى قضى على امارة آل رشيد الشمرية قضاء مبرما . وسانده الانكليز فى كفاحه الا ان تقدم وتطور الدولة الوهابية السريعين اصبحا يقلقان الانكليز الذين لم يكونوا راغبين فى توحيد الجزيرة العربية . فعادوا الى سياستهم التقليدية «فرّق تسد» . اذ اسندوا فى كل مكان صغار الامراء واشعلوا الانفصالية الاقطاعية والقبيلية . وبغية التحكم فى الجزيرة ، كان يتحتم عليهم التعامل مع الامارات الضعيفة . وقد اصبح ابن سعود قوة ولم يخف طموحه الى توحيد داخل الجزيرة العربية والقضاء على امارة شمّر . ولذا نشأ وضع شاذ عندما شرع الانكليز بمساندة جميع التمردات الاقطاعية المختلفة فى داخل الدولة السعودية المنبعثة .

وانّ الشيوخ والامراء الاقطاعيين الذين وقفوا مع ابن سعود ، عندما شرع الكفاح لبعث الدولة السعوية ، ثاروا الان ضده والّفوا احلاف تمرد . وتغلغل عملاء الانكليز فى المعسكرين . اذ كان ليتشمن وهو ضابط برتبة قبطان وأحد عملاء الاستخبارات الانكليزية ، على اتصال بابن سعود وقدم له المعونة . بينما كانت غرتروده بل على اتصال بامير شمر وقامت باسناده . وهى الاخرى عميلة فى الاستخبارات الانكليزية ولعبت فيما بعد دورا كبيرا فى بلاد ما وراء النهرين وبلغت رتبة كولونيل عام ١٩٢٠ .

على ان الدسائس الانكليزية والاحلاف والتمردات ضد الوهابيين لم تقض على الدولة السعودية التى بقيت قائمة . الا ان الحروب والانتفاضات المتواصلة اعاقت تطورها . ولم يكن بوسع ابن سعود التغلب على امارة شمر حتى الحرب العالمية الاولى بل وحتى عام ١٩٢١ . واسترجع جبل شمر عقب الحرب العالمية الاولى عام ١٩٢١ . ثم افلح ، بالاتفاق مع الانكليز ، فى توسيع ممتلكاته الى الخليج العربى شرقا . واستولى الوهابيون فى عام ١٩١٣ على منطقة الاحساء التى كانت منذ ١٨٧١ تحت الاحتلال التركى ، وضمّوها الى الدولة السعودية .

وكان الانجليز يتوخون هدفين فى اسنادهم الحملة الوهابية ضد الاتراك . اولهما ــ القضاء على بؤرة النفوذ الالمانى ــ التركى فى الخليج العربى . فان الحرب العالمية كانت على الابواب . وكانت تركيا ، الخاضعة لسلطة انصار تركيا الفتاة ، الى جانب المانيا . وان وصول القوات التركية الى الاحساء دل على وجود القوات الالمانية هناك ايضا . وكان من الواجب تصفية هذه البؤرة وذلك لا يمكن ان يتم الا على ايدى ابن سعود . وثانيهما ــ ابقاء نجد الوهابية طيلة مدة الحرب تحت حماية انكلترا . وقد وعد ابن سعود بان يكون تحت حمايتها ويسندها طيلة مدة الحرب . وكلفه وعده هذا ثمنا غاليا للاستيلاء على الاحساء . وعليه عقد اتفاقا فى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ تعهد بموجبه بان لا يهاجم انكلترا وان يوفقّ سياسته الخارجية معها وان لا ينقل ملكية بلاده الى دولة ثالثة ويحترم سلامة الممتلكات الانكليزية فى الجزيرة العربية . وبقيت هذه الاتفاقية نافذة المفعول حتى عام ١٩٢٤ . وكانت نجد الوهابية طيلة ذلك الوقت كله تحت حماية انكلترا .

ولم تكن الحماية الانكليزية عقبة كبيرة فى سبيل ابن سعود الذى كان يسعى الى تأسيس دولة اقطاعية موّحدة مركزية فى داخل الجزيرة .

ولم يتدخل الانكليز فى نمط الحياة الداخلية للامارة السعودية . واقبل الوهابيون بقوة مضاعفة على نشر مبادئ التوحيد وكأنهم كانوا يعوضون عن هفوة ارتبكوها . وساند ابن سعود المبشرين الوهابيين الذين وجد فيهم وسائل طيعة لمكافحة الانفصالية الاقطاعية القبيلية ، ولاعادة تنظيم المجتمع الاقطاعى-البدوى التقليدى للجزيرة العربية بصورة جذرية .

وفى السياسة الداخلية حارب ابن سعود متعمدا بقايا نمط المجتمع المشاعى البدائى . واعتبر القبائل البدوية اكبر العناصر المخربة التى تعيق توحيد الجزيرة العربية . وبغية الكفاح ضدهم ، وسّع حركة الاخوان عام ١٩١١ وفق نصيحة المبشرين الوهابيين . واخضع القبائل الى تنظيم شديد ، وحرّم عليهم شنّ الغزوات وجباية المدفوعات الاقطاعية من القبائل التابعة . ورفع

الحواجز بين القبائل الحرة والخاضعة ، معتبرا اياهم كاخوان متساوين فيما بينهم .

وفى الوقت ذاته ، شرع ابن سعود بانشاء قرى للبدو الذين اجبرهم على الاستيطان . وقد بلغت هذه السياسة نطاقا واسعا ، عقب الحرب العالمية الاولى . وحتى ١٩١٨ لم تنشأ الا بضع قرى للبدو . وبعدما تحضر الاخوان البدو ، قطعوا جميع علاقاتهم بالقبائل السابقة . وتكونت فى داخل مشاعيات الاخوان علاقات جديدة ، مبنية لا على صلات القربى فى العشيرة ، بل على مصالح الجوار والمصالح الاقتصادية المتبادلة .

وكانت روحية التعصب الدينى متغلغلة فى حياة مشاعيات الاخوان ، بل وفى الدولة الوهابية برمتها . وكان يتوجب على الوهابيين ان لا يكوّنوا علاقات متينة مع غير الوهابيين ، حتى ولو كانوا من اقرب اقربائهم . ولا يجوز لهم مخالطة الاجانب ، ويجب عليهم المحافظة بصرامة على قواعد الاداب والاخلاق الوهابية . وتدريجيا اصبح المجتمع الوهابى مسدودا فى وجه جميع التأثرات الاجنبية وعاش فى ظروف الانعزال الخاص .

بقيادة المبشرين اضحى الاخوان ادوات اساسية للسياسة الداخلية والخارجية التى يتبعها ابن سعود . وكانت قرى الاخوان قواعد استند اليها ابن سعود لتشكيل جيشه الجديد . وبمساندة الاخوان ، قمع التمردات وكشف المؤامرات وجرّد القبائل المتمردة من السلاح . واعتمادا عليهم ايضا ، خاض ابن سعود الكفاح لتوحيد الجزيرة العربية ولتاسيس دولة وهابية موحدة .

انتفاضات فى اليمن وعسير . بعد فتح قناة السويس ، وطّد الاتراك سلطتهم ثانية فى اليمن وعسير . وان خطوط المواصلات البرية الممتدة عبر سهوب وصحارى الجزيرة العربية كانت قد حرمت تركيا فعلا من امكانية امداد وتموين قواتها فى جنوب الجزيرة . وكانت الحاميات التركية مرابطة فى بعض المراكز من ساحل تهامة فقط ، اما اليمن وعسير فكانتا مستقلّتين فى الواقع . وان فتح القناة مكّن الاتراك من تكوين خطوط مواصلات بحرية . وفى

١٨٦٩ ارسلت تركيا حملة مكونة من فيلق اخضعت بفضلها تهامة في اليمن وعسير .

وقد استغل هذا الوضع على بن المهدى ـ امام صنعاء ورئيس الزيدية الديني والدنيوى ، فانه طلب النجدة من القوات التركية بعد ان كان قد عجز عن التغلّب على القبائل المتمردة . وفي١٨٧٢ توغّل الاتراك في جبل اليمن واحتلوا عاصمته صنعاء واقاموا حاميات تركية في كل مكان . وأعلنت اليمن كولاية تركية وحكمها الباشا التركي . وهكذا فقد اليمن استقلاله ثانية بعد مرور ٢٣٠ عاما على طرد الاتراك لاول مرة منه ، واصبح ولاية من الولايات التركية . واستولى الاتراك في طريقهم ، على عسير ، فسلّم حاكمها نفسه الى الاتراك الا انه أعدم فيما بعد .

وفي سنة ١٨٩١ نشبت في اليمن انتفاضة شعبية كبيرة ضد السيطرة التركية . وقاد الانتفاضة الامام محمد بن يحيى ، احد ممثلي الاسرة الزيدية الحاكمة من آل حميد الدين . وحاصر الثوار صنعاء واحاطوا الحاميات التركية في عدد من المدن الاخرى . واضطر الاتراك الى ارسال نجدات قوية بقيادة احمد فيضي باشا الذى شقّ طريقه الى صنعاء بحد السيف ثم رفع الحصار عنها . ولافساد صفوف الثوار ، رشا فيضي باشا شيوخ القبائل ووعدهم بالعفو العام . وقضى بوحشية على من لم يخضع له . وعند قمع الانتفاضة دمرّ الاتراك حوالى ٣٠٠ قرية واهلكوا سكانها . ومنذ ١٨٩١ حتى ١٨٩٧ اخضع احمد فيضي البلاد مستخدما سياسة الارهاب .

وفي ايار (مايو) ١٩٠٤ اصبح امام الزيدية يحيى حميد الدين بعد وفاة والده محمد . ولم يكد يحيى يتربع على العرش حتى دعا الى انتفاضة جديدة . فاستجابت الى هذه الدعوة بابتهاج القبائل التي كانت تقاسي من الجفاف والجوع ومن ابتزازات الموظفين الاتراك ، وهبّت كأنها شخص واحد . فحوصرت المدن والقرى مع حامياتها التركية واستولى عليها الواحدة تلو الاخرى واستسلمت العاصمة صنعاء الى الامام يحيى ، الذى اقترف غلطة كبيرة باخراج الحامية التركية منها .

وبينما كان الامام يحيى يحاول حل المشاحنات القبلية ، ارسلت الحكومة التركية الى اليمن قوات جديدة بقيادة احمد فيضى باشا نفسه . فبلغ مناخة دون ان يواجه عراقيل خاصة وانضمت اليه القوات التركية التى كانت قد أخرجت من صنعاء واحتلّ بعدها صنعاء دون قتال . ومع ذلك اضطر الباشا التركى الى الاصطدام بحقيقة جديدة غير متوقّعة اطلاقا . اذ امتنع الجنود العرب فى الجيش التركى من محاربة اخوانهم اليمنيين . وتآخوا مع الثوار وانحازوا الى جانبهم . ونشبت انتفاضات فى الوحدات التى أرسلت لمحاربة اليمنيين . واذا أضيف الى كل ما مرّ التدمير الذى احدثته القوات التركية فى اليمن والجفاف والجراد ، وكذلك الجوع الشديد الذى اهلك على اقل تقدير نصف سكان المدن واصاب الجيش التركى نفسه ، فيمكن فهم الاسباب التى ألزمت الاتراك الى طلب الصلح مع الامام يحيى .

وفعلا ، عقد الصلح فى ١٩٠٨ . وقبل الباب العالى بالشروط الاساسية التى وضعها الامام يحيى ، ووافق فى الواقع على استقلال اليمن الداخلى . ومع ذلك استؤنفت الاعمال العسكرية بعد سنتين . وفى ١٩١١ استولى الامام يحيى مرة اخرى على صنعاء واجبر الاتراك على عقد الصلح . ولم يكن فى وسع الاتراك إيلاء اهمية كبيرة الى اليمن بعد انفجار الحرب الايطالية-التركية ، واعتبروا انه من غير المجدى مواصلة الكفاح ضد اليمنيين . واعترفوا باستقلال اليمن الذاتى التام ، وتعهدوا بعدم التدخل فى شؤونه الداخلية . واعترف الامام يحيى من جانبه بسيادة السلطان ووافق على وجود الباشا التركى فى اليمن وعلى مرابطة وحدة صغيرة فيها من القوات التركية . وتبين بان الصلح كان ذا فائدة للطرفين . فاستنادا الى معونة الاتراك شرع الامام يحيى بالكفاح لاحباط دسائس الانكليز على تخوم اليمن الجنوبية . ومن جهة اخرى ، جلب الصلح مع امام صنعاء فوائد خاصة للاتراك . اذ كان اليمن واحدا من البلدان العربية القليلة التى ساندت الاتراك فى الحرب العالمية الاولى .

ونشأ وضع مغاير فى عسير . اذ تحوّلت هذه المنطقة بعد الاحتلال التركى لعام ١٨٧٢ الى سنجق تركى (متصرفية) تابع

لولاية اليمن . وفى ١٩٠٩ نشبت فيها انتفاضة كبيرة ضد الاتراك بمساندة الامام يحيى . وقاد الانتفاضة الامير محمد الادريسى وهو من اسرة مراكشية حكمت عسير منذ نهاية القرن الثامن عشر . وفى ١٩١٠ طهّر الثوار تهامة من الاتراك ومن ثم زحفوا الى ابها عاصمة عسير الجبلية . وبعد حصار بضعة اشهر استسلمت ابها . وفى صيف ١٩١١ استطاع الاتراك اخضاع عسير ، ملتمسين المساعدة من الحسين الثانى شريف مكة . ومع ذلك قام الادريسى فى خريف ١٩١١ بانتفاضة ثانية بمساندة الايطاليين . وبقيت مفارزه تواصل الاعمال الحربية حتى انفجار الحرب العالمية الاولى واسهمت مساهمة فعّالة فى العمليات الحربية الى جانب الانكليز ، الذين عقدوا معه اتفاقية «صداقة وتحالف» فى عام ١٩١٥ .

الحجاز . اصبح الحجاز بعد اقصاء المصريين واحدة من الولايات التركية . ومع انه كان نائيا من مناطق الامبراطورية العثمانية ، الا ان الاتراك شعروا بالامان فيه اكثر منه فى اى قسم آخر من الجزيرة العربية . وكانت فى البلاد حاميات تركية وموظفون اتراك . وان الطغمة الحاكمة الاقطاعية برئاسة الشريف الكبير ــ الحاكم الدينى للحرمين كانت مخلصة نوعا ما فى تعاونها مع السلطات التركية . واحتفظ الاتراك بشريف مكة ، الا انهم جعلوا منه تابعا لتركيا . وكان الوالى التركى يعين ويعزل الشرفاء حسبما يقتضيه الوضع .

وفى الوقت الذى كان فيه الشرفاء يتظاهرون بالخضوع الى الاتراك ، كانوا يسعون الى تقوية مراكزهم الخاصة فى البلاد . ولهذه لغاية ، قاوموا الاترك سرا وساندوا خفية انتفاضات القبائل لموجهة ضد السلطات التركية . ويسيطر البدو فعلا على بعض انحاء لحجاز وهدّدوا وضع الاتراك الموجودين فى تلك الاقسام .

ولتقوية السلطة التركية فى الحجاز ، قرر الاتراك فى ١٩٠٠ تخاذ التدابير لمدّ سكة حديد الحجاز . وكان المفروض ان تبدأ لسكة من دمشق ثم تقطع شرقى الاردن وتبلغ المدينة ومكة . كما ان من المفروض ان يمدّ الاتراك السكة الى الجنوب حتى صنعاء . شكليا كانت الغاية من مدّ سكة حديد الحجاز خدمة الحجاج .

وصوّر ذلك وكأنه عمل فى سبيل الله . فجمعت الاموال لمدهـا من جميع الاقطار الاسلامية عن طريق التبرعات . واعتبرت السكة ملكا لدائرة الاوقاف ، الا ان المهندسين الالمـان قاموا بمدّهـا برئاسة المهندس ميسنر ، الذى كان يلقب فى الحجاز بميسنـر باشا . وتوخت سكة حديد الحجاز هدفا استراتيجيا معينا وادّت الى توطيد النفوذ الالمانى فى الحجاز واليمن والبحر الاحمر .

وقد فهم الانكليز حق الفهم الغاية من هذه السكة واتخذوا جميع الوسائل الممكنة لعرقلة مدّها . وبدأت عمليات البناء فى ١٩٠٤ وواجهت مقاومة ضارية من قبل البدو وشريف مكة عون الرفيق (١٨٨٢ـ١٩٠٥) . واسنـد الانكليز سرا دسائس عون وانتفاضات البدو . وكان احد مطاليـب الثوار الاساسيـة وقف مدّ السكة الحديدية .

وفى ١٩٠٥ توفى الشريف عون الرفيق . ولربما يكون قد ازيح عن الطريق عمدا . وواصل وريثه الشريف على (١٩٠٥ ـ ١٩٠٧) سياسة اقامة العراقيل التى انتهجها سلفه . فخلعه الاتراك من منصبه وابعدوه الى القاهرة .

وفى ١٩٠٨ مدّ الاتراك السكة حتى المدينة ولم يفلحوا فى مدّها الى مكة وصنعاء . اذ عمل الحسين الثانى شريف مكة ، كل ما فى وسعه لوقف اعمال مدّ السكة .

واصبـح الحسين الثانى الهاشمى شريـف مكـة فى ١٩٠٨ وعندها كان يناهز عمره حوالى الستين عاما . وقد امضى سنوات حياته الاولى بين جموع البدو فى الحجاز ، وقضى معظم حياته فى القسطنطينية كرهينة لدى السلطان .

وكان يتوق الى ان يصبح حاكمـا مستقلا على الحجاز وان يوسّع سلطته الى مناطق اخرى من الجزيرة العربية . وان طموحه الجموح الى الاستقلال اغاظ الاتراك . فنشات بينه وبين السلطات التركية خلافات متواصلة ، تفاقمت مع مرّ الزمان .

وكان الحسين الثانى قد عقد النية على ان يستند فى كفاحـه ضـد الاتراك الى القوميين العرب والى الانكليز . وفى ١٩١٤ ، استانف فيصل ـ احد اولاده ، الصلات مع اعضاء العربية الفتاة

ومع المصلحين العرب في دمشق . ومن ناحية اخرى ، زار ممثلو حزب اللامركزية الحسين الثاني ، وبعض حكام الجزيرة العربيـــة الاخرين . وفي ربيـــع ١٩١٤ جرى لقاء في حائل ـ عاصمـة امارة شمر ، بين ممثلي القوميين العرب وحكام الجزيرة العربية . واجريت محاولة لتشكيل جبهة عربية موحدة بغية الاعداد لانتفاضة ضد الاتراك .

وفي شباط (فبراير) ونيسان (ابريل) ١٩١٤ اجرى واد آخر من اولاد الحسين الثاني وهو عبد اللّه ، مفاوضات مع الجنرال كيتشنر ـ المعتمد الانكليزي العام في مصر وستورس ـ المعتمـد الدبلوماسي الانكليزي . ورغم ان الانكليز قد امتنعوا من اى وعود ملموسة فان الاتصالات نفسها كانت فاتحة للتقارب بين الانكليز والهاشميين ، مما لعب دورا هامـا اثنـاء الحرب العالميـة الاولى وفي الثورة العربية الكبرى .

الفصل السابع والعشرون

الاقطار العربية خلال الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ـ١٩١٨

موقف الاقطار العربية خلال الحرب العالمية الاولى . انجرت جميع الاقطار العربية عام ١٩١٤ الى الحرب العالمية الامبريالية التى كانت تستهدف اعادة تقسيم العالم ومناطــق النفوذ . وكان الكفاح من اجل الحيازة على الاقطار العربية عاملا من عوامل هذه الحرب . اذ ارادت المانيا ان تثبت اقدامها فى ممتلكات السلطان التركى وتهدد المواقع الانكليزية فى الشرق الادنى . وطمعت فرنسا فى اقتطاع سوريا وكيليكيا من الاتراك . اما انكلترا فكانت تنوى الاستيلاء على العراق وفلسطين وتثبت اقدامها كليـــا فى مصر .

وبهذا الصدد كتب لينين عـــام ١٩١٧ : «كان من دواعـــى الحرب التطاحن فى سبيل **اعادة اقتسام** العالم بين فئتين جبارتين اكثر جبروتا لاصحاب المليارات وهما الفئة الانكلو-فرنسية والفئة الالمانية .

وكانت تريد فئة الرأسماليين الانكلو-فرنسية قبل كل شىء ، ان تنهب المانيا بانتزاع مستعمراتها (وقد انتزعت جميعها تقريبا) وثم ان تنهب تركيا .

وكانت تريد فئة الرأسماليين الالمانية اغتصاب تركيا **لنفسهـا** والاستيلاء على الدول المجاورة الصغيرة (بلجيكا وصربيا ورومانيا) للتعويض عمّا فقدته من المستعمرات» .*

---

* لينين ، رسائل من بعيد، ـ مجموعة المؤلفات الكاملة ، الطبعـــة الروسية ، المجلد ٣١ ، ص ٥٠ .

وقد استخدم الطرفان المتحاربان اراضي وقواعد وطرق مواصلات الاقطار العربية التابعة لهما ، وكذلك مواردها الطبيعية والبشرية . اذ استغلّ المعسكر الانكلو فرنسي اراضي وموارد مصر والسودان والجزائر وتونس ومراكش والممتلكات الانكليزية في الجزيرة العربية . اما المعسكر الالماني ـ التركي فقد وضع تحت تصرفه الموارد المادية والبشرية في فلسطين وسوريا ولبنان والعراق وجزء من الجزيرة العربية .

ومع ذلك فان المساهمة الشكلية في الحرب الى جانب هذا المعسكر الاستعماري او ذلك ، لم تكن لتحدد الموقف الحقيقي للشعوب العربية . وفي حقيقة الامر ، كانت هذه الشعوب معادية لكلا الطرفين المتحاربين . اما مؤخرة المعسكرين ، سواء الانكلو فرنسي أو الالماني التركي ، فكانت غير مستقرة . وكانت الشعوب العربية تضمر الكره للمستعبد الاجنبي ، وقد استغلّ مقتهما هذا بلباقة من قبل المعسكرين الاستعماريين الواحد ضد الآخر .

وقد اثار واسند كلّ طرف متحارب الحركات والانتفاضات الوطنية التي حدثت في مؤخرة العدوّ ، وسعى للانتفاع منها في صالحه . كما توسّع الكفاح في مصر والسودان وبلدان شماليّ افريقيا ضد مستعمري انكلترا وفرنسا وايطاليا . وبلغ هذا الكفاح أوجه في مراكش وليبيا . وغالبا ما كان الفرنسيون يطلقون على مراكش اسم «الجبهة الثانية» * . فان القبائل العربية والبربر كانوا قد طردوا المحتلين من المناطق الجبلية . وقبيل ١٩١٥ احتفظ الايطاليون تحت قبضتهم ببعض المراكز الساحلية المتفرقة في ليبيا فقط . وفضلا عن ذلك ، استغلت المانيا وتركيا العرب في ليبيا لخوض الكفاح ضد انكلترا . اذ نظمتا سلسلة من الغزوات التي شنها البدو الليبيون على القطر المصري .

واستغلت انكلترا وفرنسا الحركة القومية في الاقطار العربية التي كانت خاضعة لتركيا ، للكفاح ضد تركيا والمانيا . وقاد

---

* كانت الجبهة الغربية هي الجبهة الرئيسية بالنسبة للفرنسيين .
ـ المؤلف .

القوميون العرب الاعمال الاستطلاعية والتخريبية فى مؤخرة الاتراك وقاموا بانتفاضات ضدهم .

الوضع الاقتصادى والسياسى فى الولايات العربية التابعة لتركيا . وفى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب العالمية التى ادت الى تدميرها . ورحبت القيادة الالمانية بخطة تركيا العسكرية التى تقضى بالقيام بعمليات الهجوم على القفقاس ومنطقة قناة السويس . وتنحصر تقديرات الاتراك المتسمة بطابع المغامرات فى الاستيلاء على مصر ونقل العمليات الحربية الى شمالى واواسط افريقيا . وكان الجيش الرابع التركى يتالف من القوات التى خصصت للهجوم على منطقة القناة . وقد وضع هذا الجيش تحت قيادة احمد جمال باشا وهو واحد من ثالوث تركيا الفتاة . وكانت القيادة الحقيقية للعمليات الحربية فى ايدى الضباط الالمان ، اعضاء البعثة العسكرية الالمانية بقيادة ليمان فون ساندرس . وكان الكولونيل كريس فون كريسنشتاين ـ الملحق العسكرى الالمانى فى دمشق ، رئيس اركان الحرب فى الجيش الرابع بل وقائد الجيش فى الواقع . بينما كلف جمال باشا بـ «حماية المؤخرة» بصورة خاصة .

وقد عسكر الجيش الرابع فى سوريا وفلسطين ، البلدين اللذين لم يكونا قد أُعدا اطلاقا لحرب طويلة الامد واللذين قاسيا الامرين من رداءة الطرق . اذ ان جمال باشا بدأ السير عبر بحر من الاوحال بعد ان كان قد وعد اصدقاءه بالعودة الى استانبول بحرا عبر الاسكندرية ، حتى حمله الجنود على الاكتاف فى محطة حلب تخلصا من هذه الاوحال . ولم تكن الطرق فى المدن الاخرى باقل رداءة .

ولم يتحمل اقتصاد سوريا وفلسطين محن الحرب . وتحت ستار الضرورة العسكرية ، شرعت السلطات التركية فى نهب السكان الآمنين بصورة مباشرة . فجرت مصادرة شاملة للماشية والمواد الغذائية الخاصة بالفلاحين . وفى ١٩١٥ تمت مصادرة تسعة اعشار محاصيل الحبوب فى سوريا ولبنان . وفى كل مكان قطعت الاشجار للوقود وبضمنها الاشجار المثمرة . واصاب نظام الرى

الخراب . واستخدم العمل بالسخرة الى اقصى حد . وانتزع آلاف الفلاحين من اعمالهم والزموا بالقيام بشتى الاعمال الاستراتيجية-العسكرية .

وتقلّصت الزراعة والصناعة تقلصا كبيرا . ولم يكن القمح كافيا لسدّ حاجات سوريا حتى قبل الحرب ، وها قد توقف استيراده من الخارج بصورة نهائية تقريبا اثناء الحرب . ولم تتخذ السلطات التركية اية تدابير فعلية لمكافحة المجاعة الوشيكة الوقوع . وبالاضافة الى ذلك ، نظّمت السلطات تصدير المواد الغذائية الى المانيا .

وارتفعت اسعار المواد الضرورية اضعافا مضاعفة . واختفى من الاسواق بصورة عامة الكثير من البضائع . وجنى ثروات طائلة ملوك «السوق الاسود» الذى استفحل امره .

وفى ١٩١٥-١٩١٦ كان مئات الآلاف من سكان لبنان وسوريا وفلسطين والعراق ، ولا سيما سكان المدن الكبيرة فى هذه الاقطار ، على وشك الهلاك من الجوع . وهنا وهناك انتشرت اوبئة التيفوس مع امراض اخرى . وفى ربيع ١٩١٥ و ١٩١٦ ، توفى عشرات الآلاف من الناس فى سوريا ولبنان . وفى ١٩١٧ هلك عُشر سكان سوريا من الجوع والامراض . وتوفى فى لبنان وحده لا اقلّ من ١٠٠ الف شخص . وهلك عشرات الآلاف فى ولايتى بغداد والموصل .

واثارت الحرب والصعوبات الاقتصادية والتدهور الاقتصادى موجة واسعة من التذمر العفوى فى كل مكان . وكانت الدولة التركية تخشى الشعب العربى فى الامبراطورية ولا تثق به . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ قلّدت الدولة التركية جمال باشا صلاحية خاصة . فبالاضافة الى قيادة الجيش الرابع ، حصل جمال باشا على حقوق المفوض فوق العادة وحصرت فى يده السلطة المدنية والعسكرية المطلقة . فاعلن الاحكام العرفية فى الولايات العربية والغى مجالس الولايات والمحاكم المدنية . وقضى على الاستقلال الذاتى لجبل لبنان وابطل جميع الحقوق والامتيازات التى كانت تتمتع بها الطوائف الدينية المختلفة وفق

الاتفاقيات الدولية . وقمع جمال الحركات الوطنية التحررية العربية ، وانتهج سياسة التتريك الرجعية وكافح بقسوة الثقافة العربية .

وكان معظم السكان العرب فى تركيا معادين للحرب ، ويضمرون الكره للاتراك ، ولم يكترثوا بمنشور السلطان الذى يدعو الى الجهاد . وقد ابتهج العرب علانية بالهزيمة التى منىّ بها الجيش التركى-الالمانى ، واستجابوا بكل سرور لدعوة مراكز المهاجرين التى كانت تحضّ على احباط الجهود العسكرية التركية .

واضطر جمال باشا الى ابقاء حوالى نصف جيشه فى المؤخرة لاستخدامه فى حالة وقوع الانتفاضات . الا انه كان جيشا لا يعوّل عليه . اذ كانت فرقتان منه تتألفان من الاكراد ومن عرب الموصل ، والفرقة الثالثة من السوريين . ولهذا طلب جمال امداده بوحدات تركية . وسراعا ما انتشرت الاتجاهات ضد الحرب بين الجنود العرب المجندين فى الجيش التركى . وكانت من الظواهر المألوفة حالات الفرار من الجندية بالجملة والتسليم طواعية والتقاعس عن الاشتراك فى المعارك . ولوحظت تمردات الجنود فى جملة من الاماكن .

وفى نيسان (ابريل) ١٩١٦ حدثت انتفاضة حامية مدينة الموصل وحاميات اخرى ، كانت مكوّنة كليا من الجنود العرب .

وفى ١٩١٥ حدثت تظاهرات فى بضع مدن سوريا وفلسطين . وطالب المتظاهرون بالسلام والخبز . وقامت انتفاضات عفوية بصورة متكورة . وفى ١٩١٦ نشطت فى جبل الدروز وشمالىّ لبنان ودمشق مفارز الانصار ، التى كانت تكافح الاتراك بحد السيف . وفى ١٩١٥ حدثت انتفاضات فى مدينتى الشيعة المقدستين-النجف وكربلا . وفى ربيع ١٩١٦ قامت فى هاتين المدينتين انتفاضات جديدة ضد الاتراك .

موقف القوميين العرب من الحرب . فى بداية الحرب ، انقسم القوميون العرب الى معسكرين بالنسبة لموقفهم تجاه الطرفين المتحاربين . وكان امامهم مخرجان : فاما مؤازرة الوفاق واحتمال الاحتلال الانكلو-فرنسى ، واما الاسهام فى الحرب الى جانب تركيا

واحتمال تلبية المطاليب الوطنية العربية فى نطاق الامبراطورية العثمانية .

ووقف معظم القوميين العرب الى جانب انكلترا وفرنسا . ولم تدرك بوضوح الخطر الناجم عن الاحتلال الانكلو-فرنسى الا فئة صغيرة نسبيا منهم تضم عبد الرحمن الشهبندر ومحمد كرد على وغيرهما ، وكانت تتمتع بنفوذ لا بأس به . وآثرت هذه الفئة مؤازرة تركيا تحت شعارات الجامعة الاسلامية المنادية الى « الجهاد المقدس » . واقام جمال باشا اتصالات وثيقة بهذه الفئة واعدا بمنحها استقلال ذاتى واسع بعد الحرب . فتكون ما يشابه الكتلة العربية التركية القائمة على اساس الكفاح ضد انكلترا وفرنسا . وساندت الصحف العربية شعار الجهاد وقامت بدعاية واسعة لصالح الاتراك .

ومع ذلك فقبيل ربيع ١٩١٥ ، تصدّعت هذه الكتلة العربية-التركية . فالهزيمة فى الجبهات وسياسة الاتراك الشوفينية والجوع الناشب واتجاه الجماهير ضد الحرب ، كل ذلك بدّد معا الاوهام التى بناها الشهبندر واصدقاؤه على العثمانيين . فنشأت لديهم شكوك فى سلامة نية جمال باشا والحكومة التركية . واخيرا ، كان لعجز تركيا وتحولها السريع الى مستعمرة المانية اثره الردىء فى انفسهم .

واستغلت الاستخبارات الانكليزية تذبذب هذه الفئة وشعور معظم القوميين العرب ضد تركيا . واعتمدت الاستخبارات على الفروع المحلية لحزب اللامركزية وعلى الجمعيات السرية المعادية للاتراك . وكان قادة حزب اللامركزية القاطنون فى القاهرة يدعون الى الانفصال التام والفورى عن تركيا وبدأوا يستعدون الى الانتفاضة ضدها . فارسلوا اعوانهم ومواد دعايتهم الى سوريا وفلسطين . ووزعت الطائرات الانكليزية المناشير ، التى دعت العرب الى الفرار من الجندية وعدم دفع الضرائب وغير ذلك .

وان الدعاية ضد تركيا لقيت صدى اكبر بين السكان العرب ، الذين اخذوا يسمعون اكثر فاكثر الى ما كان يصدر عن القاهرة . الا ان جمال نفسه هو الذى سدّد الضربة الاخيرة بالاوهام

العثمانية . ففى ربيع ١٩١٥ لجا الى الاضطهاد بالجملة ضد القوميين العرب . واذا كان العرب يخشون فى بداية الحرب ان يخطئوا فى الاختيار فانهم انحازوا فى خاتمة المطاف لجهة تضاد مصالحها مصالح تركيا .

وفى الاشهر الاولى للحرب ، أخذ جمال باشا يتجسّس على المثقفين والضباط العرب . واجرى تحريات فى دوائر القناصل الفرنسيين فعثر على مواد اساءت الى سمعة الكثيرين من الشخصيات المرموقة للحركة الوطنية العربية . وفى حزيران (يونيو) ١٩١٥ شرع جمال باشا بكفاح دموى ضد القوميين ، عندما تبين له بان شعار الجهاد قد فشل وان العرب مستعدون لمساندة الانتفاضة ضد الاتراك . فاغلق عددا من الصحف العربية واجرى توقيفات بالجملة للاشخاص الذين كانوا ينتسبون الى المنظمات العربية الوطنية . وفى ١٩١٦ نكل جمال تنكيلا شاملا بالحركات الوطنية التحررية العربية .

وفى ١٩١٥ــ١٩١٦ مثلت امام المحاكم العسكرية جماعات عديدة من القوميين العرب . واتهم بالخيانة العظمى قادة حزب اللامركزية و « الجمعية العربية الفتاة » وجمعية « النهضة اللبنانية » وغيرهم من الشخصيات المرموقة للحركة الوطنية العربية ، كما اتهموا بالاتصال بالانكليز والفرنسيين و بالتحريض على الثورة . وفى مجرى التحقيق طبق على المتهمين اسلوب التهديد والتعذيب . وتجاهل القضاة جميع قواعد المرافعات مسترشدين بتعاليم جمال باشا حصرا . وفى غضون هذه المحاكمات ، حكم على مئات من القوميين بالموت شنقا ، وعلى آخرين بالسجن لمدد مختلفة . وشنق فى ساحات بيروت ودمشق عبد الكريم الخليل ورضا الصلح ومحمد المحمصاني والشيخ الزهراوى وشفيق المؤيد وعبد الغنى العريسي وسليم الجزائري وكثيرون آخرون . وبلغ مجموع الذين شنقوا بموجب احكام المحاكم العسكرية حتى اواسط عام ١٩١٦ أكثر من ٨٠٠ شخصية نشيطة من اعضاء الحركة الوطنية التحررية العربية .

وبالاضافة الى التنكيل عن طريق المحكمة ، ابعدت السلطات

التركية بصورة شاملة العرب المشكوك فى اخلاصهم تجاه الحكومة التركيـة . وابعد الى المعتقلات الصحراويـة عشرات الآلاف من الاشخاص ، وقبل كل شىء ممثلو المثقفين العرب ورجال الدين الشيعة والمسيحيين وافراد عوائل القوميين المعروفين . ورافق هذه الابعادات النهب والقتـل والاغتصاب . وفى المعتقلات هلك الكثير من المبعدين من الجوع والمرض .

وبنتيجة الاضطهادات الشاملة ، استطاع جمال باشا سحق المنظمات الوطنية العربية بصورة تامة وابادة قادتها البارزين ، واستخدم الارهاب ضد سكان لبنان وسوريا وفلسطين والعراق . وفى ١٩١٦ انزل الاتراك ضربة قوية بالحركة الوطنية التحررية العربية . اذ افلحوا بابادة كوادرها ومنظماتها مما اخر الثورة العامة المنتظرة ضد الاتراك فى الولايات العربية التابعة للبـاب العـالى .

فرض الحماية الانكليزية على مصر . كانت المؤخرة الانكليزية فى مصر ، وهى القاعدة الرئيسية للقوات الانكليزيـة فى الشرق الادنى ، غير مستقرة اى كما هو الحال فى المؤخرة الالمانية-التركية فى فلسطين وسوريـا فالعراق . وكانت تعتبر مصر قسمـا من الامبراطورية العثمانية ، احتلتها القوات الانكليزية لمدة «موقتة» فقط . ومع ذلك فان انكلترا ورّطت مصر فى دخول الحرب كباقى المستعمرات الانكليزيـة . ففى ٥ آب (اغسطس) ١٩١٤ اجبر الانكليز حسين رشدي باشا ـ رئيس وزراء مصر ، على اصدار بيان عن قطع جميع العلاقات مع الدول المعادية لانكلترا . ومنـع هذا البيان سكان مصر من مراسلة رعايا هذه الدول او المتاجرة او اقامة اى علاقات اخرى معها . كما حظر على السفن المصريـة دخول مرافئ الاعداء . وفى الوقت ذاته ، دعا البيان جميع سكان مصر الى مدّ يد المساعدة الى انكلترا بكل ما يمكن من الوسائل بينما منحت القوات الانكليزية البرية والبحريـة حقّ استخدام اراضى مصر ومرافئها للعمليات الحربية .

وبهذا الصدد قال الكاتب الانكليزى ألغود ، الذى كان يخدم فى سنوات الحرب كليفتنانـت كولونيـل فى فيلـق الاحتلال

الانكليزى ، «ان الشكوك العميقة ازاء الدولة المحتلة ، والتى كانت قد عمت جميع طبقات سكان مصر ، نمت وتحولت» بنتيجة هذا البيان «الى شعور مقت واسع لا يزال حتى الآن مخفيا . وبسبب الروابط القسرية مع بريطانيا العظمى ، انجرت مصر الى حرب لم يكن منشاؤها واضحا ولا اهدافها معروفة بالنسبة لها» .

وبعد ما خاضت انكلترا الحرب ، احتلت منطقة قناة السويس خلافا لمعاهدة ١٨٨٨ واتخذت جملة من الاجراءات السياسية الاستثنائية . واصدرت الحكومة المصرية مرسوما فى ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ اجلت بموجبه اجتماع الجمعية التشريعية لمدة شهرين ، التى كان يمكن ان تغدو فى ظروف الحرب ، منصة للتعبير عن استياء الشعب . ثم اجّلت السلطات فيما بعد اجتماعها مرات عديدة . وهكذا لم تلتئم الجمعية طيلة مدة الحرب .

كما اصدرت الحكومة فى ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ مرسوما عن «الاجتماعات الممنوعة» ينّص على معاقبة كل من اشترك من المصريين فى اجتماع عقد دون اذن السلطات المختصة اذا تجاوز عددهم الاربعة .

وفى ٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ اعلنت الاحكام العرفية فى مصر . وغدت السلطة العليا فى البلاد بيد الجنرال مكسويل ـ قائد القوات الانكليزية فى مصر . واقترن نظام الدكتاتورية العسكرية باعمال ارهابية شديدة . فالقى فى غياهب السجون والمعتقلات بآلاف المساهمين فى الحركة الوطنية ، من مثقفين برجوازيين واطباء ومحامين ومعلّمين وضباط وطلاب ، او ابعدوا الى الواحات النائية او الى جزيرة مالطة . واحتجز على كامل ـ قائد «الحزب الوطنى» واغلقت صحف الوطنيين . ووضعت جميع الصحف الاخرى تحت رقابة صارمة .

وقررت انكلترا ، مستغلّة الحرب ، ان تضفى صبغة شرعية على استيلائها على مصر . ففى ١٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ ، اعلنت وزارة الخارجية الانكليزية انفصال مصر عن تركيا ودخولها تحت الحماية الانكليزية . وترأس المندوب السامى الادارة الاستعمارية عوضا عن القنصل العام البريطانى الذى اعتبر «معتمدا

دبلوماسيا» رغم كونه قد حكم البلاد كطاغية مطلق . وفى ١٩١٤ عيّن فى هذا المنصب مكماهون ، وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٦ حلّ محلّه ريجنالد ونغايت . وبحكم الاحكام العرفية ، كان هؤلاء الموظفون خاضعين فعلا الى قائد القوات البريطانية ولم يكونوا الا مجرد آلات طيّعة فى ايدى الدكتاتورية العسكرية . وفى ١٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ خلع الانكليز الخديوى المصرى عباس حلمى الثانى ، الذى كان فى القسطنطينية آنذاك لانه لم «يتفاهم» مع السلطات الاستعمارية . واستعاضوا عنه بصنيعتهم الامير حسين كامل باشا ، منعمين عليه لقب السلطان . وفى ١٩١٧ رفض كمال الدين حسين ، بعد وفاة والده ، حسين كامل ، التربع على العرش ، غير راغب فى ان يكون صنيعة بيد الانكليز . وعندئذ فتش الانكليز عن الامير احمد فؤاد ـ ابن الخديوى اسماعيل الاصغر . وقد ترعرع احمد فؤاد فى ايطاليا وخدم فى الجيش الايطالى . وفى عشية الحرب قدمته ايطاليا كملك البانى . وفى ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ عرضت عليه انكلترا عرش مصر . وكتب فالنتين تشايرول بهذا الصدد : «لقد اسرعت الحكومة البريطانية فى اختيار احمد فؤاد لا لانه كان حائزا على مؤهلات خاصة بل لوجود اصدقاء قلائل له فى مصر ، مما جعله يضطر الى الاعتماد على معونتنا» .

الحرب والاقتصاد المصرى . اعلنت انكلترا رسميا ، بعد خوض الحرب ضد تركيا ، انها تتحمل «اعباء الحرب الحالية على عاتقها» ولا تسعى الى التماس المعونة من مصر . الا ان الواقع كان منافيا لهذه الاقوال . اذ استغلت انكلترا موارد مصر المادية والبشرية استغلالا واسعا . ومنذ الايام الاولى للحرب ، وجّه الانكليز المدفعية المصرية للدفاع عن قناة السويس . كما استغلوا ، طيلة مدة الحرب ، المصريين للعمل فى القوات الاضافية التى تعرف بفيالق العمل .

وكان الحشد فى فيالق العمل يجرى ما بين ثلاث الى اربع مرات فى العام ، ويتطلب فى كل مرة ١٣٥ الف شخص . ومن حيث الشكل ، كان يعتبر طوعيا ويتم عن طريق التعاقد الاختيارى . الا

ان الواقع كان بخلاف ذلك ، اذ كانت الادارة تمارس الضغط اثناء الحشد مع اعمال تعسفية شاملة . وكان العمد يقومون باعفاء الفلاحين من الخدمة مقابل رشوة ، ويرسلون الاخرين غير المرغوب فيهم الى الفيالق . وفى ١٩١٧ الغى نظام « التعاقد الاختيارى » هذا وتابع المجندون الانكليز عملهم بصورة اجبارية مكشوفة .

فما هى فيالق العمـــل هذه ؟ ولم كان يهرب الى الصحراء جميع البالغين سن الرشد من رجال القرية عند دنو موعد مجىء جال التجنيد اليها ؟ ولم كان آلاف الناس الجياع يفرون ويختفون لئلا يصبحون « متطوعين » ذلك الشرف المشكوك فيه ؟ ولم كان الجنود والشرطة يطوفون البلاد بحثـا عن « المتطوعين » الهاربين ويجبرونهم على العودة الى الثكنات تحت الحراسة ؟ الجواب هو ان الخدمـــة فى فيالق العمـل كانت من اسوأ انواع الاعمال الشاقـــة . وقد خصت فيالق العمل بجميع الاعمال العسكرية القذرة . وكان افرادها يحفرون الخنادق ويقيمون الاستحكامات ويمدّون السكك الحديدية وانابيب المياه عبر الصحراء وينقلون الاثقال . وبذلك فانهم غالبا ما كانوا يتحملون ضربات العدو الاولى . وعند هجوم الانكليز على فلسطين عبر صحراء سيناء ، سار فى الطليعـة فيلق العمل المصرى ، الذى لم يكتف افراده بتمهيد السبيـــل للجيش البريطانى بعملهـــم وحده بل وباجسادهم ايضا . وكتب الليفتنانت كولونيل ألغود قائلا : « من وجهة نظر السلامة الجسدية ، لم يكن غالبا اى فرق بين الخدمة فى الوحدات البريطانية فى المراكز الامامية والخدمة فى فيالق العمل . فكان هؤلاء واولئك معرّضين على حدّ سواء لاطلاق النار والقصف من جانب العدو » . وقد جاوز عدد ضحايا فيالق العمل ٣٠ الف شخص . وجاوز مجموع من عانى منهم من هذه الاعمال الشاقة مليون فلاح وعامل مصرى . وكانت مدة الخدمة فى فيالق العمل ٦ اشهر . وان ظروف الاعمال الشاقة حوّلت الناس بسرعة الى مقعدين وانهكتهم الى درجة كان الانكليز يفضلون معها الاستعاضة عنهم بايد عاملة جديدة .

ولم يستغل الانكليز فيالق العمل المصرية فى جهة قنـــاة السويس فقط . اذ كان من الممكن ان يصـــادف المرء الفلاحين

المصريين بمجارفهم فى غاليوبولى وفى بلاد ما بين النهرين واللورين النائية . وتشير المعطيات الرسمية الى انه ارسل فى عام ١٩١٦ فقط ما يربو على ١٠ آلاف فلاح الى فرنسا وما يزيد على ٨ آلاف الى بلاد ما بين النهرين .

ووضعت الموانئ المصرية والمواصلات والصناعة والزراعة تحت تصرف الجيش البريطانى . وقد اعيد تماما تنظيم اقتصاديات البلاد . واتخذت السلطات العديد من الاجراءات الاستثنائية لتموين السكان و ٢٧٥ الف جندى انكليزى ، كانوا مرابطين فى مصر . ففى ٢ آب (اغسطس) ١٩١٤ منعت تصدير كافة المواد الضرورية الى الخارج وانتهجت سياسة المراقبة على الاسعار . وجعلت الحرب استيراد القمح امرا عسيرا . فجوبهت السلطات بخطر ازمة غذائية مما جعلها تعجّل فى انتاج الحبوب . وبغية توسيع مساحة الاراضى المزروعة بالقمح والرز ، لجأت السلطات الانكليزية عام ١٩١٥ بصورة اجبارية ، الى تحديد مساحة الاراضى المزروعة بالقطن فقلّصتها من ١٧٥٥ الف فدان فى عام ١٩١٤ الى ١١٨٦ الف فدان فى ١٩١٥ .

ومع ذلك ، فسرعان ما اخذ الانكليز يشعرون بنقص فى القطن لتزويد الصناعة العسكرية ، ولذلك الغوا الاجراءات التحديدية . فارتفع انتاجه مرة اخرى كما ارتفعت اسعاره نحو ثلاثة اضعاف : اى من ١٤ ريالا للقنطار الواحد فى ١٩١٣ الى ٣٨ ريالا فى ١٩١٧ . وبسبب موجة التضخم العارمة التى حدثت فى انتاج القطن العسكرى ، اثرى كبار منتجى القطن والتجار والمضاربون وكل انواع الوسطاء الذين كانت لهم صلة بتجارته .

وادت الحرب وقطع الصلات التجارية الخارجية الى النهوض فى تطوير الصناعة المصرية المحلية . وكانت الحرب ، بالنسبة للرأسمال الوطنى بديلا موآتيا عن الحواجز الجمركية الوقائية . اذ آلت الى توقيف استيراد البضائع الصناعية من الخارج . ولاملاء الفراغ الناجم عن عدم وصول هذه البضائع ، بدأ الرأسمال الوطنى بتوسيع المشاريع الخاصة على نطاق واسع . وفتحت عشرات بل ومئات المشاريع الصناعية اليدوية وشبه الصناعية فى مجالات

المنسوجات والخياطة والاحذية والجلود والسكر والمشروبات الروحية والاثاث المنزلي وما شبه ذلك من الفروع الصناعية اليدوية الصغيرة . وازداد عدد الاشخاص الذين كانوا يزاولون الصناعة من ٣٧٦ الف عامل في ١٩٠٧ الى ٤٨٩ الف عامل في ١٩١٧ ، وبوجه خاص بلغ عدد العمال الماجورين ٢٣١ الفا .

وادت الحرب الى اثراء الملاكين والتجار واصحاب المشاريع المصريين الى درجة لم يسبق لها مثيل ، والى تقوية المراكز الاقتصادية للرأسمال المصري تقوية محسوسة .

ومع ذلك فان اثراء البرجوازية المصرية لم ينقذها من وصاية رأس المال المصرفي الانكليزي ووصاية السلطات الكولونيالية . وعلى العكس ، فقد اشتدت درجة تبعية مصر المالية والاقتصادية في سنوات الحرب . وفي ٢ آب (اغسطس) ١٩١٤ منعت السلطات الانكليزية تحويل الاوراق المالية الى ذهب في البنك الاهلي المصري وادخلت في التداول الاوراق النقدية بصورة اجبارية . واودع في الخزينة الانكليزية الرصيد الذهبي الخاص بالبنك الاهلي المصري . وانتزعت السلطات الانكليزية العملة الذهبية والفضية من التداول واستبدلتها باوراق نقدية صغيرة . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٦ تم تبديل ضمان الاوراق المالية المصرية . فعوضا عن الذهب اصبحت السندات المالية الانكليزية تكفل الاوراق المالية المصرية . وهكذا اضحى الجنيه المصري يعتمد رسميا على الباون الانكليزي ، وهذا يعني في الواقع انضمام مصر الى المنطقة الاسترلينية . وحصلت انكلترا على امكانية تسديد نفقاتها العسكرية في مصر باوراق نقدية ، دون ان تنفق غراما واحدا من الذهب .

وفي سنوات الحرب ، ازدادت كثيرا كمية الاوراق النقدية المتداولة . فاذا كان مقدارها ٨٢٥٠ الف جنيه استرليني في نهاية عام ١٩١٤ فانه ازداد في نهاية ١٩١٩ الى اكثر من ثمانية اضعاف . وادّى التضخم النقدي الى ارتفاع الاسعار ولا سيما اسعار اللوازم الضرورية . وارتفع مؤشر الرقم القياسي لاسعار الجملة من مئة في عام ١٩١٣ الى ٢١١ في عام ١٩١٨ .

وفى الدرجة الاولى قاست الجماهير الكادحة المصرية من ارتفاع الاسعار . وتتحدث التقارير الانكليزية الرسمية عن « ارتفاع الاسعار المستمر بصورة لم يسبق لها مثيل ، ولا سيما اسعار الحاجيات الضرورية كالخبز والملابس والوقود ، مما احدث عبئا شديد الوطأة على كاهل الطبقات السفلى التى كانت تتقاضى اجورا غير كافية بالمقارنة الى ارتفاع اسعار المعيشة » . « وفاق » الحد الادنى للمعيشة « مستوى الاجور الاعتيادية الى درجة كبيرة » .

وكان وضع الفلاحين صعبا . اذ شرعت السلطات الانكليزية فى الاشهر الاولى للحرب ، بمصادرة الحبوب والعلف من الفلاحين . وقد سددت المحاصيل المصادرة باثمان منخفضة عن السوق ومؤجلة . ولم يكن فى الامكان تحاشى تعسف السلطة . فقد استحصل جباة الحكومة عنوة من الفلاحين كمية من القمح تربو عما كان مخصصا للتوزيع ، وباعوه الى السوق باسعار المضاربات . وادت مصادرة حيوانات العمل ، كالحمير والجمال ، الى خراب الفلاحين بصورة خاصة . وكان الحصول على « تعويضات » عن هذه الحيوانات المصادرة امرا بحكم المستحيل تقريبا . وحتى عند الحصول عليها بعد بذل جهود كبيرة ، فانها كانت غير كافية لشراء حيوانات جديدة .

وقد ادت الجبايات القسرية لصالح جمعية الصليب والهلال الاحمرين الى اثارة شعور المقت الشديد لدى الفلاحين . وحاول كل موظف انكليزى ضرب الرقم القياسى فى الابتزازات ، مع العلم بان المبالغ المستحصلة قسرا ، لم تصل الى الصليب الاحمر بل تسربت الى جيوب المبتزين انفسهم .

الحركة الوطنية التحررية فى مصر فى سنوات الحرب . ان مصادرة القمح والماشية والابتزازات القسرية والتجنيد ونهب الريف المصرى ونظام الارهاب والدكتاتورية العسكرية ، كل ذلك كان من العوامل التى ادت الى اثارة سخط عميق فى البلاد .

ولم يكن بوسع هذا السخط ان يتحول الى كفاح سياسى منظم . فواجهت الحركة الوطنية التحررية فى مصر ازمة عميقة . واثرت البرجوازية المصرية الكبيرة والملاكون من الحرب ، ودافعوا

«عن انكلترا» . وهادنت صحفهم واحزابهم السياسية ، ولو الى امد معين ، السيادة الانكليزية ، وامتنعت عن اى كفاح ضد المحتلّين . بل ولم تحاول الحكومة ولا اعضاء الجمعية التشريعية حتى الاعتراض على فرض الحماية البريطانية على مصر .

ومن حيث الاساس ، واصلت الكفاح ضد الاستعمار البرجوازية الصغيرة مع قسم من المثقفين ذوى النزعات القومية ، الذين التفوا حول الحزب الوطنى . ومع ذلك فان نظام الارهاب العسكرى والتوقيفات والابعادات وغلق الصحف القومية ، ضيّقت امكانية الوطنيين الى درجة محسوسة . وفى الواقع خصر الوطنيون نشاطهم على الدعاية من الخارج (جنيف وبرلين) والاستعداد للاعمال الارهابية . وفى ٨ نيسان (ابريل) و ٩ تموز (يوليو) ١٩١٥ ، قاموا بمحاولتين للقضاء على حياة السلطان حسين كامل ـ صنيعة الانكليز . وتمت فى ١٠ آب (اغسطس) ١٩١٥ محاولة اغتيال حسين رشدى باشا ـ رئيس الوزراء ، ثم فى ٤ ايلول (سبتمبر) ١٩١٥ ، محاولة اغتيال وزير الاوقاف .

ولم تبدل سلسلة الاعمال الارهابية الفاشلة شيئا فى واقع مصر . وانطوى الوطنيون على انفسهم اكثر فاكثر وانعزلوا عن الشعب وحاجاته اليومية . وفى الواقع لم يوجّه احدُ مظاهر السخط العفوية ، بل ولم تستغلّ لصالح النضال ضد الاستعمار .

وسببت مشاعر السخط العفوية نموا سريعا فى الاتجاهات القومية فى مصر ، حتى بلغت مدى خطيرا حقيقيا فى السنوات الاخيرة للحرب . وحسب تعبير المؤرخ الانكليزى يانغ «اصبح كل معهد علم وكلية مركزا لدعاية عنيفة ضد بريطانيا . اذ فهم المصريون ، ـ يقول يانغ ، ـ اكثر فاكثر ان الحرب التى اعلنت لتحرير الامم الصغيرة ، قد جرت فى الواقع لاقتسام هذه الامم بين الدول الغربية . بل وان مصر لم تحصل على وعد بالحرية لقاء اخلاصها . وبالعكس فان فرض الحماية عليها ادّى الى زيادة تبعيتها» .

وقد كونت لدى قلم الجاسوسية الانكليزية فى مصر هيئة عرفت بـ «المكتب العربى» لمكافحة الحركة الوطنية

المصرية . وكان يتألف هذا المكتب من رجال استخبارات معروفين كالكولونيل لورنس ، الذى كان حينئذ ليفتنانتا ؛ ومراسل «التايمس» السابق فى استانبول فيليب غريفز الذى استغل فى عشية الحرب قربه الى الاوساط الحاكمة لتركيا الفتاة لتزويد الاستخبارات الانكليزية بمعطيات وافية عن الجيش التركى ؛ واللورد لويد - احد المقربين الى ونستن تشرتشل والمندوب السامى البريطانى فى مصر فيما بعد ؛ وهوغارت الخبير فى الشؤون العربية ؛ والماجور نيوكومب الذى قام فى عشية الحرب بمساحة طوبوغرافية لجنوبى فلسطين ، اى المسرح المقبل للعمليات العسكرية . وترأس وكر الجاسوسية هذا الكولونيل كلايتون . ولم يكتف «المكتب العربى» بملاحقة القوميين المصريين ، بل وقام ايضا باعمال تخريبية فى المؤخرة التركية بتشكيله علاقات مع القوميين فى سوريا وفلسطين . وفضلا عن ذلك فانه شرع فى اجراء مفاوضات مع حاكم مكة الشريف الحسين الهاشمي ، ونظم فى ١٩١٦ ثورة عرب الحجاز ضد الاتراك .

سير العمليات الحربية خلال الاعوام ١٩١٤-١٩١٦ . بدأت العمليات الحربية فى الشرق الادنى فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ . وفى ٧ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ اى بعد مرور يومين على اعلان الحرب بين انكلترا وتركيا ، نزلت فى مصب شط العرب قوات انكليزية-هندية وبدأت بالهجوم من الجنوب . واستولت فى ٢١ تشرين الثانى على البصرة وفى ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ على القرنة وبهذا اتمت احتلال جنوبى العراق . ومع ذلك كان هذا آخر انتصار احرزه الانكليز فى هذه الفترة . اذ قد باءت بالفشل محاولاتهم فى ١٩١٥ للهجوم على بغداد . وفى تشرين الثانى ١٩١٥ انهزم الانكليز عند طيسفون (طاق كسرى) ، وفى كانون الاول ١٩١٥ حاصر الاتراك قوات الجنرال تونشند البالغة ١٠ آلاف جندى والمرابطة فى كوت العمارة . وفى ٢٩ نيسان (ابريل) ١٩١٦ استسلم تونشند بعد حصار استمر ٥ اشهر . الا ان الانكليز استعادوا سراعا قواهم وبدأوا بالهجوم مرة اخرى فى النصف الثانى من عام ١٩١٦ .

وفى جبهة سيناء ، كانت المبادرة فى ايدى القيادة الالمانية ـ التركيـة . وقد بدأ الاتراك بعد تهيؤ متقن ، بهجوم واسـع على منطقة قناة السويس . وفى ١٠ كانون الثانى (ينـاير) ١٩١٥ بدأت ثمان فرق تركية الزحف عبر شبه جزيرة سيناء متجهة فى قولي السير نحو غزّة ـ القنطرة ومعان ـ السويس . وكان عليها ان تقطع ٤٠٠ كيلومتر . وزحفت صفوف مشاة الاتراك واحتلوا بعد ١٦ يوما موقعا على الساحل الشرقى للقناة .

وواجه الانكليز الاتراك بجيش بلغ عدده ٥٠ الف محارب ، كان قوامهـم من الانكليز انفسهـم ومن سكان زيلاندة الجديدة والاوستراليين والوحدات الانكلوـهنديـة . واسهمت فى الدفاع عن القناة ايضا بواخر الاسطـولين الانكليزى والفرنسى والطـائرات المائية . وتخلّت القيادة الانكليزية عن خوض المعارك الدفاعية فى شبه جزيرة سيناء متخذة ما يعرف بالخطة الدفاعية القرباء ، التى كانت تتألف من خوض المعارك على خط قناة السويس نفسها .

وفى ليلة الثالث من شباط (فبراير) ١٩١٥ شرع الاتراك فى الهجوم على القناة ، الا انه باء بفشل تام . وقد سحق جنود الانزال الاتراك الذين نزلوا فى ساحل القناة الغربى . واخذت الذخـائر والمواد الغذائيـة تنضب لدى الاتراك ، فعـادوا بعد انصرام اسبوعين الى قواعدهم التى انطلقوا منها فى غزة ومعان .

وبعد هذا الفشل الاول الذى منيت به القيادة الالمانيـة التركية فى هجومها على القناة ، نظمّت غزوات قام بها البدو على مصر من الجهتين الغربية والشرقية . الا ان هذه الغزوات لم تؤد عسكريا الى اية نتيجة . ومن المستبعد ان تكون مواتية سياسيا . وحارب بعدم الرضى البدو الذين كانوا يؤلفون الجيش الرابع التابع لجمال باشا ، ولم يحظوا بايـة مساندة فى مصر . وفشلت آمال الاتراك المعقودة على مساندة العرب .

وقد قوّى الانكليز منطقة قناة السويس الى درجة كبيرة ، وقبيل ١٩١٦ عسكر فيها جيش بلغ عدده ٢٧٥ ألف محارب . وفى نيسان (ابريل) وآب (اغسطس) ١٩١٦ قـامت القيـادة التركية ايضا بمحاولتين للهجوم على قناة السويس . وقاد العمليات

الحربية الضباط الالمان بقيادة كريس فون كريسنشتاين . واسهمت فى الحملة بصورة مباشرة قوات المانية ـ نمساوية الا ان الانكليز دحروا هذا الهجوم ايضا .

وباءت بالفشل ايضا عمليات الاتراك الحربية فى البحر . اذ كان الاسطول الانكلو-فرنسى يمخر عباب الماء فى محاذاة السواحل السورية وانزلت منه فى مؤخرة العدو جماعات ومفاوز مخربة صغيرة . وحاصرت البواخر الانكليزية سواحل البحر الاحمر للجزيرة العربية حصارا قويا .

وفى شبه الجزيرة العربية ، نجح الانكليز عام ١٩١٥ بمعونة اسطولهم فى صدّ جميع محاولات القوات التركية-اليمنية للاستيلاء على عدن . وقدمت الى الانكليز مساعدة كبيرة مفارز الثوار التابعة الى محمد الادريسى التى كانت تنشط فى عسير . وشاغلت هذه المفارز فرقتين او ثلاث فرق تركية وضغطت على اليمن من الناحية الشمالية . كما كلّلت عمليات الانكليز بالنجاح فى شمال الجزيرة . ففى طريق اثارة المنازعات الداخلية ، نجح الانكليز فى دفع آل رشيدالشمريين الى اتخاذ موقف الحياد ، وهكذا امنوا الجناح الايسر للفيلق البريطانى الذى كان ينشط فى العراق .

وكانت لجبهة سيناء اهمية حاسمة بالنسبة الى الانكليز اذ كانوا ينوون فى بادئ الامر ، تقرير مصير معركة قناة السويس عن طريق انزال الجنود فى منطقة الاسكندرونة واشعال لهيب الثورة فى سوريا . ولكنه نكّل جمال باشا بقادة القوميين ، ومن جهة اخرى اعترضت فرنسا بشدة على الاحتلال الانكليزى الوحيد الطرف لمناطق النفوذ الفرنسية . وعندئذ التجأت القيادة الانكليزية الى اسلوب آخر ، هو الهجوم عبر شبه جزيرة سيناء . واكتسب اهمية كبيرة فى هذا الصدد موقف الهاشميين ، الذين كانوا يتهيأون الى الثورة فى الحجاز . فان هذه الثورة استرعت انتباه القوات التركية ، واضافة الى ذلك امّنت الجناح الايمن للجيش الانكليزى ، وخففت بصورة ملموسة مهمته فى حالة الهجوم على فلسطين .

التهيؤ للثورة العربية فى الحجاز . وفى ١٩١٥ ـ ١٩١٦ نجحت الاستخبارات والدبلوماسية الانكليزية فى اعداد الثورة فى الحجاز .

واقيمت قبل الحرب اتصالات اولية بين الانكليز وعبد اللـــه الهاشمي . وعاجلا ، استؤنفت هذه الاتصالات بعد بداية الحرب . وبالحاح نصح الانكليز الهاشميين باستغلال الوضع لاضرام نـــار الثورة . وكان الوضع في الحجاز ملائما لخطط الانكليز . فسرعان ما توترت العلاقـات بين الحسين الهاشمي — شريف مكـــة الكبير ، والحكومة التركية . وكان الحسين ينوي على كل حـــال استخدام الحرب لتحقيق مآربه الطموحة . فامتنع عن اعلان الجهاد واحبط تنفيذ الاجراءات الدفاعية . وساندته القبائل الحجازية ، التي كانت في ١٩١٥ قد شنت حرب الانصار ضد الاتراك .

ومع ذلك تردد الحسين . اذ فهم حق الفهم مطامع الانكليز الخاصة ولم يثق بهم . وفضلا عن ذلك فانه شعر وكأنه بين المطرقة والسندان . اذ كانت توجد في الحجاز وحدات كبيرة نسبيـــا من القوات التركية ، بينما كانت تمخر عبـــاب البحر الاحمر بواخر الاسطول البريطاني وباستطاعتها ان تحاصر في ايـــة لحظة مرافئ الحجاز وتقطع عنه الامدادات بالمواد الغذائية . ولذلك تمهل الحسين وانتهج سياسة مراوغة لمدة عام ونصف . فتاجر مـــع الانكليز وفي الوقت ذاته بعث مندوبيه الى رؤســـاء القبائـــل والقوميين السوريين .

وفي ربيع ١٩١٥ ذهب فيصل وهو احد اولاده ، الى دمشق واستقبله جمال باشا . وفي الوقت ذاته اقام صلات سرية مع القوميين السوريين . واجرى ماوضات ، بصورة خاصة ، مع ممثلي الجمعية العربية الفتاة ومع جمعية الضباط السريـة «العهد» ، الذي كان ينتمي اليها . وبحكم الاقدار كان على هذا القومي النبيل ان يحضر كـ«ضيف كبير» عند شنق فئـــة من قـــادة القوميين السوريين .

فنصـــح القوميون السوريـون فيصـــل بالوقوف الى جانب الانكليز ، ضد الاتراك . ووضعوا شروط التعاون الانكلو-عربي التي عرفت باسم بروتوكول دمشق . وبموجب هذه الوثيقة التي وضعت في ايـــار (مايو) ١٩١٥ كان ينبغي ان يتعهد الانكليز بالاعتراف باستقلال الدولة العربية في «حدودها الطبيعية» . وهي تشمـل الاراضي التي يحدها من الشمال خط العرض ٣٧ والتي تضم سوريا

وفلسطين والعراق وجميع الجزيرة العربية ما عدا عدن . وكان على انكلترا ان تتعهد بالغاء نظام الامتيازات ايضا . ووافق القوميون لقاء ذلك على توقيع حلف دفاعي بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المقبلة وعلى منح انكلترا افضلية اقتصادية لمدة ١٥ عاما .

وكان «بروتوكول دمشق» نقطة تحول هامة في تاريخ الحركة الوطنية التحررية العربية . اذ انه دلّ على نشوء حلف بين الاقطاعيين العرب وبرجوازية سوريا والعراق وفلسطين . وقد تقوى مركز الهاشميين في العالم العربي بنتيجة هذا الحلف ، الذي اعطاهم اوراقا رابحة اضافية في اللعبة السياسية مع الانكليز .

ولم يكد يعود فيصل الى الحجاز ويقدّم تقريرا عن مكوثه في دمشق ، حتى استأنف الحسين المفاوضات مع انكلترا . وكانت على شكل رسائل متبادلة مع مكماغون ـ المندوب السامي البريطاني في مصر . واقترح الحسين في رسالته المؤرخة ١٤ تموز (يوليو) ١٩١٥ ، تعاون العرب بموجب الشروط التي وردت في «بروتوكول دمشق» . فاذهلت مطاليب الحسين ، لا سيما مطامعه بشأن الاراضي ، الانكليز الذين كانوا يجرون مفاوضات في ذلك الوقت مع الحلفاء حول تقسيم تركيا بعد الحرب . فردوا عليه برفض دبلوماسي .

وقد اصرّ الحسين على عقد اتفاقية انكلو-عربية وطالب بالاعتراف بحدود الدولة العربية المقبلة كشرط اساسي لهذه الاتفاقية . وفي نهاية ١٩١٥ ، اصبح الوضع غير ملائم لانكلترا في جبهات الشرق الادنى ، فمن حصار عدن الى الفشل في بلاد ما بين النهرين وفي الدردنيل . وجعل هذا الوضع تعاون العرب ومعونتهم ثمينة جدا ، فقررت انكلترا تلبية بعض مطاليب الهاشميين . وفي ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ وجهّ مكماغون ، بعد مشورة لندن ، رسالة جديدة الى الحسين . واصبح يشار الى هذه الرسالة فيما بعد ، باتفاقية مكماغون-الحسين . وفي هذه الرسالة تعهد مكماغون باعتراف باستقلال الدولة العربية للهاشميين في الحدود التي ذكرها الحسين ، اي التي تتفق مع «بروتوكول دمشق» ولكن

باستثناء الاراضي التالية : أ) المحميات الانكليزيـة فى الجزيرة العربيــة ، و ب) الاراضى الواقعـــة غرب خط حلب ــ حماة ــ حمص ــ دمشق ، اى غربى سوريا ولبنان وكيليكيا ، التى ادّعت بها فرنسا . وكان من المقرر ان تبقى ولايتا البصرة وبغداد تحت سيادة الدولة العربية ، مع وضعهـــا تحت الادارة الانكليزية . واخيرا ، اصرت انكلترا على الحصول على حـق استثنــائى وهو ارسال المستشارين الاجانب الى الدولة العربية «وحمايتها» مـــن الهجوم الخارجى .

ولم ترض الحسين رسالة مكماغون المؤرخة من ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ . فبقى مصرا على حلّ القضايا المتنازع عليها (حدود الدولة العربية وعلاقاتها المقبلة مع انكلترا) . الا انه اضطر فى آخر المطاف الى التنازل وتأجيل مناقشة هذه القضايا الى ما بعد الحرب . والتزم الانكليز بتقديم الاسلحـة والامدادات الى الحسين ، وان يدفعوا له واولاده ايضا اعانة شهرية تبلغ ٦٠ الف جنيه استرلينى .

وبدت اعمال الاتراك آخر تردد لدى الهاشميين . اذ رفض الباب العالى الاعتراف بالحسين حاكما مستقلا وراثيا على الحجاز . ورفضوا طلبه بخصوص العفو العام عن القوميين العرب . وفى نيسان (ابريل) ١٩١٦ اتخذت المحكمة العسكرية التركية سلسلة متوالية من احكام الاعدام، وجاء دور الحسين نفسه . فتهيأ الاتراك لارسال امدادات كبيرة الى الحجاز يصاحبها شريف كبير جديد فى مكـة .

ثورة عام ١٩١٦ فى الحجاز . وفى هذه الظروف تغلّب الحسين على آخر ما بقى لديه من تردد . فدعـا العرب الى اشعال لهيب الثورة ضد الاتراك . وفعلا شبت هذه الثورة فى ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٦ . وقاد اولاده الاربعة ، الامراء على ، وعبد اللّه ، وفيصل ، وزيد ، مفـــارز القبائل الثائرة واستولوا على جـدة وكذلك على مينائى ينبع وام لج . واضطروا الاتراك الذين كانوا فى مكـــة الى اللجوء الى القلعة ، حيث استسلموا بعد شهر واحد . كما استسلمت حامية الطائف التركيـــة فى ايلول (سبتمبر) ١٩١٦ . وقبيل هذا الوقت حوصر قسم من القوات التركية فى المدينة ، بينما كان القسم

الآخر يحمى سكة حديد الحجـــاز . فاصبحت القوات التركيــة ، المرابطة فى عسير واليمن فى عزلة تامة .

وتُعزى الى عامل المباغتة الانتصارات الاولى التى احرزهـــا الحسين . اذ قد أخذ الاتراك على حين غرة . ولم يكن لديهـــم فى الحجـــاز اكثر من ١٠ آلاف جندى مقابل ٥٠ ألف بدوىّ ثائر . الا ان الثوار كانوا قد درّبوا تدريبا سيئا ونظّموا تنظيما ضعيفا ، وحاربوا وهم على صهوة الخيل فقط . ولم يعرفوا القتال بالسلاح الابيض ، وكانوا عديمى الحيلة امام المدافع والرشاشات . وكانت مفارز البدو تفتقر الى الانضباط . ولم تكن لديهـــا لا مشـاة ولا مدفعية ، وكان البدو مسلّحين حصرا بعشرة آلاف بندقية من الطراز القديم . وحارب الكثيرون منهم بالقرب من ديارهـــم ، ولم تنضمّ بعض العشائر الى الثورة بصورة عامة .

وعقب الانتصارات الاولى استقـــر الوضع اذ طرد الاتراك الثوار من المدينة التى قاومت طيلة مدة الحرب . وارسلت الامدادات من سوريا بواسطة سكة حديد الحجاز ، فكوّن الاتراك منها فيلق الحجاز الخاص بعدما حسبوا حساب حرب الخنادق الطويلة الامد. وعندئذ التجأ الحسين الى الانكليز . الا انهم لم يسارعوا الى نجدته لانهم فكروا بان الثورة يجب ان تجلب انتباه الاتراك الى الحجاز وليس القوات الانكليزية .

وفضلا عن ذلك ، فان انكلترا لم تكن راغبة البتة فى تقوية الثوار، الذين قد يجبرونها على ان تأخذ بعين الاعتبار مطاليب العرب الوطنية فيما بعد .

وقـــد رفض طلب الحسين بامداده بالطيارات والمدفعيـــة والتماسه بارسال فرقة مشاة الى الحجاز وبعد المماطلات لم يستلم الحجاز الاّ كمية صغيرة من الاسلحة الخفيفة ومن الطراز القديم .

ولهذا خصصت فى نهاية ١٩١٦ بندقية واحدة لكل خمسة من محاربى قوات فيصل وزيد . وبدل الاسلحة ارسل مدربون ومستشارون عسكريون من الانكليز والفرنسيين . وقد توصّل هؤلاء الخبراء الى استنتاج مآله ان العرب لا يصلحون الاّ لحرب الانصار. ولهذا وضعت لهم خطة هدفها شن الانصار هجوما دائما على سكة

حديد الحجاز ، واما فكرة الاستيلاء على المدنية فنبذت جانبا .
وبعدما كشفت تركيا هذه المناورة ، إمرت قواتها بمغادرة الحجاز والتوجه الى فلسطين . الا ان فخرى باشا – قائد الحامية التركية فى المدينة ، لم ينفذ هذا الامر ، فبقى كل شىء كما كان عليه سابقا .

ولم تلطف ثورة الحجاز النزاع السياسى الدائر بين انكلترا والحسين . اذ نشب بينهما فعلا خلاف حاد بعد بضعة ايام من اندلاع الثورة . وفى ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩١٦ قدم الحسين بيانا الى العالم الاسلامى كله اعلن فيه استقلال العرب ونشر خطته الخاصة . وقد منعت انكلترا نشر هذا البيان خشية من ان يؤدى الى اشتداد المطامح التحررية ولا سيما فى ممتلكاتها . الا انه لم يكن هنالك مبرر لمخاوف انكلترا . فبيان الحسين بجوهره كان غارقا فى الرجعية وغريبا على الحركة الوطنية التحررية العربية . وقد اتهم الشريف الكبير الاتراك بنشر «البدع» التى زعم انها دخيلة على جوهر الاسلام ، ووعد ببعث المبادئ والتعاليم الاسلامية التقليدية القائمة على الشريعة .

ثم حاول الحسين تحقيق فكرة تأسيس دولة عربية . ودون ان ينتظر نهاية الحرب عقد فى ٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٦ اجتماعاً للرؤساء الاقطاعيين العرب ، الذين بايعوه ملكا على الامة العربية . فنظمت الحكومة العربية وكان مقرها مكه . ووفق التقاليد المرعية ، شغل اولاد الشريف المناصب الرئيسية : فاصبح على رئيسا للوزراء ، وعبد الله وزيرا للخارجية .

وان اعلان مملكة عربية مستقلة وتنظيم حكومة عربية وضعا الانكليز فى موقف حرج . فارسل مكماغون رسالة الى الحسين اعرب فيها عن سخطه ومنع نشر الاخبار عن الحكومة العربية فى الصحف وغير ذلك من الاوامر . واعلنت حكومتا انكلترا وفرنسا انهما لا تعترفان بلقب الحسين الجديد ، وبذلك افهمتاه بانهما لا تميلان الى اعتبار الحكومة الهاشمية كحكومة تمثل جميع العرب فى الامبراطورية العثمانية .

وفى نهاية المطاف ، تمت بروح المساومة ، تسوية الخلاف الناشب . اذ اعترفت انكلترا وفرنسا بالحسين ملكا على الحجاز .

وهذا امر لا ضير فيه عليهما لاسيما وان الحجاز المتاخر بسكانه البالغ ٦٠٠ ألف نسمة ، لم يكن ليهددهما . وقد تركت المملكة الجديدة وراءها ٩٥٪ من المواطنين العرب التابعين للباب العالى . ولم يكن بمقدورها البقاء دون ان يكون لها اتصال وثيق بالاقاليم العربية الاخرى . الا ان الحكومتين الانكليزية والفرنسية قد ضمنتها اسهام الحسين فى الحرب الى جانب دول الوفاق كمقابل للاعتراف به ملكا وحليفا .

وفضلا عن ذلك فغالبا ما كان الوضع فى الجبهات لصالح انكلترا . اذ كانت قوات الاتراك الرئيسية قد صرفت انتباهها الى القفقاس والبلقان . واحتل الجيش الانكليزى ، الذى اخذ يزحف بالتدريج ، جميع شبه جزيرة سيناء تقريبا . وقام جنود فيلق العمل المصرى بمد سكة حديدية وانابيب المياه عبر الصحراء . وفى ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٦ دخل الانكليز العريش وأخذوا يستعدون لشن هجوم واسع على جبهة فلسطين .

وانشأ الاتراك خطا دفاعيا قويا بين غزة وبير السبع . وقد حاول الانكليز مرتين ، فى آذار (مارس) ونيسان (ابريل) ١٩١٧ ، اقتحام هذا الخط الدفاعى ، الا انهم لم يفلحوا . وقررت القيادة الانكليزية نقل حرب الانصار العرب من الحجاز الى الشمال ، اى الى فلسطين وشرقى الاردن ، بغية تسهيل مهمة القوات الانكليزية فى الجبهة . وتحقيقا لهذه الغاية أرسل الليفتنانت لورنس ـ الجاسوس الانكليزى لمقابلة الامير فيصل . وقد حاز لورنس على ثقة فيصل واصبح مستشاره العسكرى والسياسى الرئيسى . وانه قاد فى الواقع العمليات الحربية التى قامت بها جميع الوحدات الشمالية من قوات الحجاز . وفى ايار (مايو) ـ حزيران (يونيو) ١٩١٧ قام لورنس بغارة بعيدة عبر الصحراء ، وفى ٥ تموز (يوليو) ١٩١٧ استولى على العقبة من الخلف ، وهى مرفأ ملائم ومركز استراتيجى هام ، امن الجناح الايمن للهجوم الانكليزى على فلسطين وباحتلال العقبة ، اخلى العرب سواحل البحر الاحمر من الاتراك تماما وتراصوا بجيش انلكيزى فى جبهة واحدة .

ومما يسترعى الاهتمـــام ، ان القوميين العرب اقترحوا على لورنس بالتقدم حالا الى دمشق . وكانوا يعتقدون ان من شأن هذا التقدم ان يؤدى الى اندلاع ثورة عامة فى سوريـا ضد الاتراك ، فيحررها من النير التركى . وبهذا يكون العرب قد حرروا انفسهم بجهودهم الخاصة ، متفادين احتلال البلاد من قبل قوات اجنبية . فوقف لورنس ضد هذا الاقتراح لانه كان منافيا تماما لمخططات رجال السياسة الانكليز والقيادة العسكرية البريطانية . وكان لورنس يعمل وفقا لتعليمات الاستخبارات الانكليزيـــة وقد حوّل جيش الثوار العرب الى فيلق مساعد كان يعمـــل فى جنـــاح الجيش الانكليزى .

المفاوضات السرية حول اقتسام البلدان العربية . بينما كان الثوار العرب يحاربون بحـــد السيف باذلين الجهـــود للاعتراف بحقوقهم فى تأسيس دولـــة عربية مستقلـــة ، كانت تجرى سرا مفاوضات فى مكاتب وزارات بلدان الوفاق حول اقتســام البلدان العربية . ولم تكن مطامع الدول الكبرى بحد ذاتها شيئا جديدا : وكان الفرق الوحيد عند انفجار الحرب هو ظهور حاجة الى التوفيق بين هذه المطامع والوصول الى اتفاق حول التزامات ملموسة بين الحلفاء .

وفى بداية الحرب بالذات ، شعرت الحكومة الانكليزية بضرورة ابلاغ الروس عن موافقتها على حلّ قضية المضايق وفق رغبـات روسيا . وبعد استلام هذه المذكرة قدم سازونوف ــ وزير خارجية القيصر ، رسالة فى ٤ آذار (مارس) ١٩١٥ الى السفيرين الانكليزى والفرنسى فى بطرسبورغ مقترحا عليهما تزويده بموافقة خطية على تقديم المضايق الى روسيا . وتقبّل الحلفاء هذا الاقتراح بكل سرور، ولا سيما الفرنسيون . فاعلن سفير فرنســا باليولوغ فى ٨ آذار (مارس) عن موافقة الحكومة الفرنسية على مطاليب روسيا لقاء موافقة الاخيرة بالاعتراف بحقّ فرنسا فى سوريا ولبنان وكيليكيا .

وكانت روسيا مستعدة للاخذ بهذه المساومة . ومع ذلك وضعت تحفظا حول «مطامع الارمن فى كيليكيا» ، كمـــا اثارت قضية «الاماكن المقدسة» فى فلسطين . اما انكلترا فتصرفت بحيطة

اشد اذ انها طالبت بان تؤخذ اعتبارات خاصة فى المستقبل فى قضية تأسيس دولة عربية ، وبان تقرر حدودها فيما بعد .

وفى ١٠ نيسان (ابريل) ١٩١٥ وقّعت اتفاقية بين انكلترا وفرنسا وروسيا . فمنحت المضايق بموجبها الى روسيا ونظر فى قضية تأليف دولة اسلامية مستقلة فى الجزيرة العربية . اما قضية مصير سوريا وفلسطين فبقيت معلّقة . وأجريت مفاوضات اضافية حول هذه القضية بين انكلترا وفرنسا فى نهاية ١٩١٥ وبداية ١٩١٦ . وبمناسبة هجوم الروس على القفقاس فى بداية ١٩١٦ ، أسرع فى انهاء هذه المفاوضات . فوافقت انكلترا على التنازل الى فرنسا عن الاراضى الواقعة غرب خط حلب — حماة — حمص — دمشق . واصرّ الفرنسيون على اعتبار هذه المنطقة كمستعمرة فرنسية مقبلة ، وشرقىّ سوريا كمنطقة نفوذ فرنسية .

وقبيل ذلك الوقت قدّمت روسيا خطة جديدة لحل القضية العربية ، بعد ان كانت قد حصلت على ادلة على احتدام النزاعات بين جمال باشا والحكومة المركزية فى الاستانة . وتتلخص هذه الخطة بما يلى : يطلب من جمال باشا ان يقطع علاقاته كليا مع الباب العالى وان يفتح الجبهة للحلفاء . واقترح لقاء ذلك وضع جمال باشا على رأس سلطنة مستقلة مؤلفة من ٦ ولايات ذات حكم ذاتى (بضمنها اربعة ولايات عربية) . وعلى هذا الاساس ، اقترح سازونوف اجراء مفاوضات سرية مع جمال باشا . الا ان الدول الغربية لم تكن مستعدة اطلاقا لتقديم البلدان العربية الى جمال . ولهذا اعلنت فرنسا انه لا يمكن تحقيق هذه الخطة الا فى حالة عدم تقديم المناطق التى خصّصت لها الى جمال . وقدّمت انكلترا نفس الشرط بخصوص بلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية . وبنتيجة رفض الدول الغربية فشلت الخطة الروسية .

وفى آذار (مارس) ١٩١٦ قدم الى بطرسبورغ المبعوثان الخاصان ، سايكس عن انكلترا وبيكو عن فرنسا . وفى مجرى المفاوضات التى قاما بها ، وضعت الاتفاقية المعروفة بـ «اتفاقية سايكس — بيكو» والتى تكونت كمذكرات متبادلة بين فرنسا وروسيا (٩ ايار — مايو ١٩١٦) وفرنسا وانكلترا (١٥ ايار — مايو

١٩١٦) . وأخذت هذه الاتفاقية بعين الاعتبار قضية استيلاء فرنسا على غربي سوريا ولبنان وكيليكيا والجزء الجنوبي الشرقي من الاناضول (الذى يشار اليه بالمنطقة الزرقاء) ، وانكلترا على جنوبي واواسط العراق وميناثى فلسطين ـ حيفا وعكا (اى المنطقة الحمراء) . واصبح الجزء الباقي من فلسطين (اى المنطقة البنية) منطقة تقوم فيها ادارة دولية ، وذلك بموجب الاتفاقية المعقودة مع روسيا والدول الاخرى . ودخل شرقي سوريا وولاية الموصل في منطقة النفوذ الفرنسية (منطقة أ) ، وشرقى الاردن والجزء الشمالى من ولاية بغداد ـ في منطقة النفوذ الانكليزية (منطقة ب) . وحصلت انكلترا وفرنسا كل في منطقتها ، على حق الافضلية في حقل التجارة ومدّ السكك الحديدية واستيراد الاسلحة وتعيين المستشارين الاجانب وغير ذلك من الحقوق .

ولم يكن لروسيا ، التى تبادلت المذكرات اللازمة مع انكلترا في خريف ١٩١٦ فقط ، مطامع في الاقطار العربية . ولقاء انضمامها الى اتفاقيتهم وعدها الحلفاء بالولايات الارمنية في تركيا وشمالي كردستان واكدّوا «حقها» في القسطنطينية وفي الدفاع عن مصالح الارثودكس في فلسطين فظهرت على الخريطة «منطقة صفراء» ، اى منطقة بحيرة «فان» .

وبعد مرور بعض الوقت ، علمت ايطاليا بالاتفاقية فنشأت عن ذلك «منطقة خضراء» ضمت الجزء الجنوبي الغربي من الاناضول ، ومنطقة «ج» وهى الجزء الغربي واواسط الاناضول . وفي ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩١٧ جرى تبادل المذكرات اللازمة بين فرنسا وايطاليا . ووضعت انكلترا تحفظا مفاده : يجب ان يتمّ بمصادقة روسيا دخول ايطاليا في عداد المساهمين في الاتفاقية .

وان ما قامت به انكلترا من تنازل خطير عند تقسيم الولايات العربية التابعة للباب العالى يمكن تفسيره بالقاعدة الدبلوماسية الانكليزية التالية : «يمكن اعطاء ما يحلو من الوعود ، فالوضع يتغيّر فيما بعد» .

احتلال العراق . التناقضات الانكلو ـ فرنسية في الشرق الادنى .

كانت تخمينات الدبلوماسية الانكليزية حول امكانية التملص من

الالتزامات السرية التى تعهدت بها كالحليفة قائمة على حقيقة بسيطة هى ان الجيش الانكليزى اخذ يستولى على بلد عربى تلو الاخر . ففى كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ بدأت القوات الانكليزيـــة فى الهجوم على بلاد ما بين النهرين . واقتحمت مراكز التحصينـــات المتينة التركية فى منطقة كوت العمارة ، وحطمت الاسطول النهرى التركى . ودحرت القوات التركية فى المعارك التى جرت على نهر دجلة وبدأت بالزحف السريع الى الشمـــال ، فاستولت فى ٢٥ شباط (فبرائر) ١٩١٧ على كوت العمارة ، ثم دخلت بغداد فى ١١ آذار (مارس) . وفى ايلول (سبتمبر) ١٩١٧ استأنفت الهجوم . وفى ٢٨ ايلول احتلت القوات الانكليزية الرمادى (على نهر الفرات) ، وفى ٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٧ احتلت تكريت (على نهر دجلة) .

ونتيجة لهذا الهجوم اصبحت جميع بلاد ما بين النهرين تقريبا تحت سيطرة الانكليز . وقد برهن احتلال العراق بصورة ساطعة على ان المستعمرين الانكليز كانوا يسعون الى تحرير الاقطار العربية من النير التركى بالاقوال فقط . الا انهم فى الواقع ، مارسوا سياسة الاستيلاء الاستعماريـة . وبعد مـا استولى الانكليز على العراق ، اقاموا فيه نظام احتلال استعمارى . اذ كانت السلطة المطلقة فى ايدى القيـادة العسكريـــة الانكليزيـــة والادارة المدنيـــة التى كانت خاضعة الى الحكومة الانكلو-هنديـة . وترأس هذه الادارة برسي كوكس الموظف القديم فى الخدمة الانكليزية الاستعماريـة فى الهند ، المقيم البريطانى فى الخليج العربى . وفى ١٩١٧ حلّ محله الجاسوس الانكليزى ارنولـد ولسن ـ الضابط فى الجيش الانكلو-هندى . وقد خضع «الضبـاط السياسيون» الانكليز الذين كانوا يمارسون السلطة فى الاقاليم ، الى هذين المفوضين المدنيين ، برسي كوكس وارنولد ولسن . كما حلّ محلّ الموظفين الاتراك السابقين موظفون من الادارة الانكلو-هندية . واستبدلت العملـة التركيـة بالعملة الانكليزية . واعيد تنسيق نظام الادارة والقضاء على الطراز الهندى . وقصارى القول ، تحول العراق فعلا الى احد اقاليم الهند البريطانية .

وقد انحاز الملاكون العراقيون والبرجوازيون الكومبرادوريون الى جانب الانكليز مباشرة . واسندوا بنشاط جميع مشاريع السلطات الانكليزية المحتلة وتعاونوا معها .

وقد ادخل الانكليز فى ادارة العراق ، بغية دعم مراكزهم السياسية ، ممثلى الملاكين-الاقطاعيين ووجهاء العشائر والقبائل . ووزعوا عليهم الاعانات المالية وشارات الاستحقاق والمناصب والوظائف التى تعود عليهم بالربح . ولم يبق فى صفوف المعارضة الا عدد قليل من الاقطاعيين .

واولت السلطات الانكليزية اهتماما خاصا بالسياسة القبيلية . ولم يكن البدو متحدين فيما بينهم . وكان بعضهم يؤازر الانكليز ، وآخرون متجهين نحو الاتراك . وقد غير شيوخ القبائل صبغتهم السياسية عدة مرات . وارسل الانكليز ضد القبائل العاصية حملات تنكيلية ، غالبا ما تحولت الى معارك حقيقية بين القوات الانكليزية والبدو . الا ان الاستخبارات الانكليزية استطاعت بصورة عامة ان تضمن ولاء قبائل العراق لها طيلة مدة الحرب كلها .

وكان انتقال المناطق العربية المحتلة الى سيطرة انكلترا مصدر قلق شديد للاوساط الحاكمة الفرنسية . اذ كانت تخشى ان يستولى الانكليز على سوريا غير آبهين بالتزاماتهم تجاه الحلفاء . ولذلك خفّ الفرنسيون الى اتخاذ عدة تدابير اظهرت اهتمامهم فى شؤون الليفانت ، قبيل دخول القوات الانكلو-عربية فلسطين وسوريا .

وقد اصرّ المقيمان الفرنسيان فى الشرق ، اى بريمون رئيس البعثة الفرنسية فى الحجاز و بيكو الذى وصل الى القاهرة كـ « مندوب سام عن الجمهورية الفرنسية فى الشرق » ، على ارسال قوات فرنسية الى فلسطين . وطلب بيكو ارسال فيلق عسكرى الى الشرق ولو انه يبلغ ١٠ آلاف شخص . واردف قائلا « والا فانهم لن يبقون لنا شيئا » .

وبالاضافة الى ما مرّ ، بدأ الفرنسيون بنشاطات سياسية واسعة بين المهاجرين السوريين واللبنانيين . فتألفت فى باريس لجنة سورية مركزية ترأسها المهاجر اللبنانى الدكتور ميشال

سامنه ، الذى عمل لصالح التقارب الفرنسى-السورى . وفى نيسان (ابريل) ١٩١٧ ، دعا بيكو الى عقد اجتماع فى القاهرة للمهاجرين اللبنانيين وابلغهم عن نية فرنسا فرض الحماية على لبنان .

وقد سببت مشاريع فرنسا هذه ، وكذلك الاشاعة الدائرة حول ارسال قوات فرنسية وانزال جنود فرنسيين فى لبنان ، قلقا شديدا للقوميين العرب وبعد ما وقف الامير فيصل على الخطط الفرنسية ، اعلن باسى انه يتوجب على العرب خوض المعارك ضد الفرنسيين بعد ان شنوها ضد الاتراك . وطالب قادة الثورة العربية بتقديم توضيحات .

وبدأ الحلفاء ، الذين شرعوا بالتهيؤ لهجوم حاسم على فلسطين . بتطمين العرب بمختلف الوسائل . ففى ايار (مايو) ١٩١٧ ، جاء الى الحجاز سايكس وبيكو واجريا بمفاوضات مع الحسين وفيصل . وجرت هذه المفاوضات بصورة سرية للغاية ، وكانت تتعلّق بمصير فلسطين وسوريا والعراق . وقد ذكر بريمون فى كتابه الكثير من المعطيات الممتعة التى تُلقى ضوءا على المفاوضات الانكلو-فرنسية-حجازية . اذ تبين بان الحسين وفيصل قد أعطيا معلومات كاذبة عن المعاهدات والاتفاقيات الانكلو-فرنسية حول القضية العربية . وبعدما حصل الحسين على تأكيدات كاذبة ، قرر مواصلة الحرب الى جانب الوفاق .

هجوم عام ١٩١٧ فى فلسطين . بيان («وعد») بلفور .

وفى تموز (يوليو) ١٩١٧ استلم الجنرال أللنبى قيادة القوات الانكليزية فى فلسطين . كما اعطيت له قيادة وحدات الجيش العربى التابعة لفيصل — لورنس .

وان الخطة التى وضعها أللنبى للعمليات الحربية اخذت بعين الاعتبار الهجوم المشترك فى الجبهة الموسعة المؤلفة من القوات الانكليزية والعربية . اذ كان يتوجب على الانكليز ، بمعونة الطيران وسفن الاسطولين الانكليزى والفرنسى ، القيام بعمليات حربية فى غرب نهر الاردن ، والعرب فى شرقه . وكان على الجيش العربى ، الذى يحمى الجناح الايمن للانكليز ، ان يتعاون مع فرق الانصار المحليين ويحتل شرقى الاردن وحوران ويفتح طريقا الى دمشق .

وكان لدى الانكليز تفوق عددى هام . فقد حشدوا فى جبهة غزة ـ بير السبع ٩٥ الف بندقية و٢٠ الف سيف و٥٠٠ مدفع . بينما كان لدى الاتراك ٥٠ الف بندقيـة و ١,٥ الف سيف و٣٠٠ مدفع وكان الجيش التركى جائعا وعديم الروح المعنوية .

ولامداد جبهة فلسطين ، شرع الاتراك بارسال جيش المغاوير (جيش الصاعقة ، او «يلدرم» بالتركية) الى هناك ، وهو جيش مؤلف من نخبة الوحدات التركيـة ، وكذلك الفيلـق الالمـانى الاسيوى . الا ان رداءة الطرق وفوضى المؤخرة ، اخرتا نقل هذه الوحدات تأخيرا كبيرا .

فقرر أللنبى الاسراع بشن هجوم قبلما يصل جيش المغاوير التركى «يلـدرم» . وفى ٣١ تشرين الاول (اكتـوبر) ١٩١٧ ، اقتحم الانكليز الجبهة فى منطقة بير السبع ، وسرعان ما تغلبوا على الدفاع التركى باسره على خط غزة ـ بير السبع . وان الانكليز نظرا الى تفوقهم العددى وحيازتهم على اجود انواع المعدّات وتنظيـم التموين على نحو احسن من الاتراك وبفضل نظام مـواصـلاتهـم المضمون ، استطاعوا دحر الاتراك نهائيا محققين انعطافا حاسمـا فى جبهة فلسطين ، وشرعوا بالزحف الى الشمال . وفى ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ، احتلت القوات الانكليزية يافا ، وفى ٩ كانـون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ ، دخلت القدس .

وان اختراق الانكليز الجبهة واحتلالهم فلسطين جعلا قضية مصير هذا البلد العربى فى غاية الاهمية . وبموجب المعاهدات التى عقدت بين الحلفاء ، ارتبط الانكليـز بنوعين من الالتزامـات . فباتفاقية مكماغون ـ الحسين لعام ١٩١٥ ، وعد الانكليز بجعل فلسطين جزءا من الدولة العربية . بينما تعهدوا فى الاتفـاقيـة المعقودة مع روسيا عام ١٩١٦ ، باقامة ادارة دولية فى فلسطين . الا انهم بعد ان احتلوا هذه الاخيرة ، لم يكونوا مستعدين لتنفيذ اى واحد من هذين الوعدين . بل سعوا بكل قواهم الى ابقاء هذا القطر تحت سيادتهم .

وبغية تفادى الالتزامات التى تعهدت بها انكلترا سابقـا ، قررت استغلال الحركة الصهيونية ، التى اخذت تنشط بشـدة فى

نهاية القرن ألتاسع عشر . وكانت جماعة يهودية من مهاجرى روسيا قد انشأت منذ ١٨٨٢ اول جالية زراعية يهودية بالقرب من يافا . وفى ١٩٠٨ تاسست فى يافا وكالة صهيونية كانت منهمكة بتنظيم المهاجرين الى فلسطين الذين كانوا يفدون اليها من جمعيات ومنظمات صهيونية مختلفة . ومع ذلك ، فرغم تبرعات روتشيلد السخية والاعتمادات المالية الصهيونية المختلفة ، ورغم حياد السلطات التركية العطوفة التى لم تكن عقبة فى سبيل الاستعمار اليهودى ، لم يحصل الصهاينة فى غضون الثلاثين عاما التى سبقت الحرب العالمية الاولى على اية نتائج ملموسة . ولم يكن فى فلسطين فى عشية الحرب الا ٤٣ قرية يهودية بلغ عدد سكانها ١٣ الف معمر . وخلال الاعوام ١٨٨٢-١٩١٤ ، دخل البلاد حوالى ٤٥ الف مهاجر ، وفى ١٩١٤ لم يكد يبلغ سكان فلسطين اليهود ٩٠ الف شخص .

ومنذ ١٨٩٧ أصبحت المنظمة الصهيونية العالمية المركز التنظيمى والسياسى للحركة الصهيونية . وفى البحث عن محام لها ، حاولت اقامة اتصالات مع حكومات عدد من الدول الكبرى . وقبل الحرب العالمية الاولى اتجه الصهاينة نحو امبراطور المانيا من حيث الاساس ، وأملوا بمعونته تحقيق خططهم لاستعمار فلسطين . واتجهت جماعة صغيرة صهيونية بقيادة الدكتور وايزمان نحو الانكليز واعتمدت على تعاون الامبريالية الانكليزية .

وفى بداية ١٩١٧ ، اى بعد ان تم الاستعداد للاستيلاء على فلسطين ، تذكرت الحكومة الانكليزية مطامع الصهاينة وقررت استغلال خدماتهم بغية تبرير سلخ فلسطين من الدولة العربية . وفى شباط (فبراير) ١٩١٧ قام سايكس ، بتكليف من الحكومة الانكليزية باجراء اتصالات مع قادة الصهاينة . وفى صيف ١٩١٧ استمرت المفاوضات . وفى مجرى المفاوضات ظهر توافق تام بين وجهات النظر ، فنشرت الحكومة الانكليزية فى ٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٧ بيانا عن سياستها فى فلسطين . وكان البيان بشكل رسالة من بلفور - وزير خارجية انكلترا ، الى روتشيلد ، الصيرفى الانكليزى-اليهودى ، وجاء فى بيان بلفور ان «حكومة

صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل كافة جهودها لتسهيل بلوغ هذا الهدف» .

وسرعان ما اسندت حكومة امريكا بيان بلفور وعملت كثيرا على انجاح المفاوضات الانكلو-صهيونية . وفي ۱۹۱۸ انضمت حكومتا فرنسا وايطاليا الى بيان بلفور .

فضح المعاهدات السرية . اثار بيان بلفور سخط العرب الذين صعقهم غدر انكلترا . ولم يكن لسخطهم حدّ ، عندما وقفوا على حقيقة اقتسام الاقطار العربية . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ۱۹۱۷ نشرت حكومة روسيا السوفييتية المعاهدات السرية الخاصة باقتسام الامبراطورية العثمانية ، بضمنها اتفاقية سايكس - بيكو . وبالطبع لم يستطع العرب التساهل مع خطط تحويل اراضيهم من ولايات تركية الى مستعمرات للدول الامبريالية الاوربية . كما كان لنداء حكومة روسيا السوفييتية صدى كبير لديهم . وقد وجهت الحكومة السوفييتية هذا النداء الى جميع الكادحين المسلمين في روسيا والشرق بتاريخ ۳ كانون الاول (ديسمبر) ۱۹۱۷ ، ودعت فيه مسلمي الشرق الى أخذ مصيرهم بايديهم .

وبعد الحصول على معلومات عن بيان بلفور واتفاقية سايكس - بيكو ، بدأت الاتجاهات المعادية للانكليز تتوسع في جيش الثوار . واخذ العرب ، من انصار وجنود جيش الثوار التابعين لفيصل ، يرفضون الاسهام في الحرب الى جانب الانكليز . واعرب ضباط الجيش العربي جهارا عن سخطهم على نفاق انكلترا . وشرع قادة الثورة العربية في مفاوضات مع تركيا وهددوا بعقد صلح منفرد معها .

وقد بدأت الاتصالات العربية-التركية الاولى في تشرين الثاني (نوفمبر) ۱۹۱۷ . وارسل جمال باشا بالنيابة عن الباب العالي ، مبعوثه الى العقبة ودعا فيصل الى زيارة دمشق لاجراء مفاوضات الصلح . وفي صيف ۱۹۱۸ استمرت المفاوضات ، الا انها لم تؤد الى نتائج ايجابية بسبب صلافة الاتراك ورفضهم الاعتراف بمطاليب العرب القومية . ولم توافق الحكومة التركية على اقتراحات العرب

الخاصة بشروط صلح منفرد الا في ايلول (سبتمبر) ١٩١٨ وكان ذلك بعد فوات الاوان . اذ انهار الاسطول التركي واصبح انتصار الوفاق حقيقة واقعية .

وبغية اخماد صوت الحق ، التجأ حكام الدول الامبريالية مرة اخرى الى المراوغات الدبلوماسية والى الوعود المغرية . فقد اعلن بلفور عقب نشر الحكومة السوفييتية اتفاقية سايكس - بيكو مباشرة بان هذه الاتفاقية «تلفيق عن البلاشفة» . وسرعان ما تبعه ولسن - رئيس الولايات المتحدة الذي صرّح في الكونغرس بتاريخ ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ بانه سيمنح حق تقرير المصير لشعوب الامبراطورية العثمانية . وفي ٢٧ كانون الاول ١٩١٧ جاء دور بيشون - وزير خارجية فرنسا ، الذي تكلم ايضا عن سياسة تقرير المصير وعن عطفه على الشعوب المضطهدة في تركيا - كالارمن والعرب وغيرهما . وفي ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ خطب لويد جورج - رئيس وزراء بريطانيا وتحدث عن «اهداف الحرب» واشار مرارا الى «الاوضاع القومية الخاصة» بالعرب والارمن .

وفي ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ قدّم الرئيس ولسن رسالة الى الكونغرس وضع فيها «بنوده الاربعة عشر» المعروفة . وان البند الثاني عشر من شروط الصلح هذه كان يقضي ببسط السيادة التركية على الاراضي التي يسكنها الاتراك فقط . ونوهت بنود ولسن ايضا بتأسيس عصبة امم تعنى بحقوق الشعوب الصغيرة .

وفي ١٩١٨ جاء الى جدة هوغارت الاستاذ في جامعة اوكسفورد والخبير الانكليزي بالشؤون العربية ، الذي عهد اليه بان يهدأ الحسين وان يوضح للقادة العرب سياسة انكلترا في الشرق الاوسط . وفي ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ سلّم هوغارت الى الحسين مذكرة اعلنت فيها انكلترا ان دول الوفاق تنوي منح العرب امكانية «اشغال مكانة تستحق الذكر في العالم» وتأسيس دولتهم . وذكرت انكلترا فيها ايضا بانه سيجلّ في فلسطين نظام ادارة خاص وبانه «سوف لا يخضع اى شعب الى آخر» .

ومع ذلك ، نصح هوغارت الحسين بتطوير التعاون مع الصهاينة واعلن ان السلطات الانكليزية سوف لا تعرقل الهجرة اليهودية «بما ينسجم مع الحرية الاقتصادية والسياسية للسكان الموجودين» . وفي الواقع ، كان المقصود بالتعابير السلسة المنمقّة الواردة في مذكرة هوغارت ، تمويه الواقع واسدال النقاب على حقيقة اقتطاع فلسطين من حظيرة الدول العربية .

وقد عملت مذكرة هوغارت وبيانات الحلفاء الاخرى عملها . اذ لم يهجر العرب ساحة المعركة . الا انه بقي لديهم شعور بعدم اطمئنان وعدم ثقة عميقين تجاه سياسة انكلترا . وفي حزيران (يونيو) ١٩١٨ ، قدّمت جماعة من القوميين السوريين في القاهرة وعلى رأسها رفيق العظم وعبد الرحمن الشهبندر ، طلبا الى الحكومة الانكليزية بتحديد موقفها النهائي تجاه الاقطار العربية . فاضطرت الحكومة الانكليزية الى الرد وأصدرت بيانا عن سياستها في الشرق العربي في ١٦ حزيران ١٩١٨ . وقد جزأت فيه الاراضي العربية الى ثلاثة اجزاء : ١) الاراضي التي حررها العرب انفسهم (اي الحجاز)، ٢) الاراضي التي حررتها القوات الانكليزية (اي جنوبيّ فلسطين والعراق) ، ٣) الاراضي التي ما زالت تحت سيطرة الاتراك (وهي سوريا ولبنان وشماليّ العراق) . ووعدت انكلترا باحترام اراضي المجموعة الاولى ، وبتقرير مصير اراضي المجموعة الثانية وفق رغبات سكانها المحليين ، والسعي الى تحرير اراضي المجموعة الثالثة . وهكذا رفضت انكلترا في الواقع ان تضمن وحدة واستقلال الأراضي العربية التي احتلتها .

ولم يرض بيان انكلترا باي شكل من الاشكال القوميين العرب . فطلبوا من الحسين اعلان استقلال الدولة العربية ، التي تضم جميع الاراضي العربية الواقعة شرق قناة السويس . واستنادا الى ذلك طلب الحسين في ٣٠ آب (اغسطس) ١٩١٨ الى ريجنالد ونغايت المندوب السامي في مصر تنفيذ الالتزامات التي اتخذها مكماغون بشأن تاسيس دولة عربية بعد الحرب وضمان حدودها . وطلب في الوقت ذاته تبديد «الافتراءات» الشائعة حول تآمره مع انكلترا . وكان تذمر الحسين مقترنا بالتهديد . اذ لمّح عن امكانية نشوب

ثورة ضد انكلترا فيما لو لم تتم المصادقة على اتفاقيته مع مكماغون .

ومع ذلك فلم يكن لتذمر الحسين اى تأثير ، بل ولم يؤد الى اية نتيجة واقعية . وان جزءا هاما من هذا الذنب يقع على عاتق الحسين وفيصل نفسيهما ، فانهما رغم عدم ثقتهما بالانكليز ، الزما العرب فى الوقت ذاته بالوثوق بموقف الانكليز الودى تجاههم .

انهيار تركيا العسكرى والاحتلال الانكلو-فرنسى للاقطار العربية .

وبفضل مراوغة الدبلوماسية الانكليزية ، ظلّ العرب حتى النهاية الى جانب الوفاق ولعبوا دورا كبيرا فى المرحلة الاخيرة من الحرب وقبيل ١٩١٨ اصبح وضع الاتراك فى حالة كارثة . وان عزل جمال باشا (كانون الاول — ديسمبر ١٩١٧) وانتقال جميع السلطة العسكرية والسياسية الى ايدى الالمان المباشرة لم يغيرا من الوضع شيئا .

وانهارت المؤخرة التركية انهيارا تاما ونشطت فصائل الانصار العرب فى كل مكان . اذ هاجموا القوات التركية فى حوران وفى الغوطة وفى منطقة بعلبك . وقبيل صيف ١٩١٧ هبّت فعلا جميع قبائل سوريا وشرقى الاردن ضد الاتراك . وهرب الجنود العرب من الجيش التركى وانضموا افواجا الى الانصار . وغادرت المفارز غير النظامية العربية والكردية فى العراق الجبهة وصوّبت سلاحها ضد الاتراك . وهجمت عشائر الفرات الاعلى والاوسط بصورة منتظمة على المواصلات التركية . وساد الجوع والدمار فى كل مكان . وكان افراد الجيش التركى ، الذين ما زالوا يحاولون الاحتفاظ بالجبهة ، عراة وحفاة بكل معنى الكلمة . وكان نظام تموين الجيش رديئا جدا . وحسب اقوال المؤرخ الانكليزى لدّل هارت ، «لم يبق لألنبى الا ان يمدّ يده لكى يخر الجيش التركى على اقدامه كما يتساقط الثمر اليانع» .

وفى اواسط ١٩١٨ احتل معان الجيش العربى التابع لفيصل — لورنس . وكان فى نية فيصل نقل العمليات الحربية الى سوريا واثارة انتفاضة عامة فيها . الا ان الانكليز وقفوا بحزم

ضد ذلك ، لانهم كانوا يخشون اكثر من اى شىء آخر تحرير الاقطار العربية عن طريق العرب انفسهم . وقد تم القرار فى آخر المطاف ، على ان تقترن الانتفاضة فى جبل الدروز بدخول القوات الانكليزية الى سوريا . وقد اعدّ هذه الانتفاضة فى غضون بضعة اشهر مبعوث فيصل ، البكرى وسلطان الاطرش – شيخ الدروز المعروف . فنشبت الانتفاضة فى ايلول (سبتمبر) ١٩١٨ وصادف ذلك فى وقت شروع جميع قوات الوفاق بالهجوم العام على جبهتى سلانيك وفلسطين .

وكان لدى الاتراك فى فلسطين ثلاثة جيوش ووحدات الفيلق الالمانى الاسيوى . وكان الجيش الثامن التركى يقوم بحماية القطاع الغربى للجبهة ، والجيش السابع تحت قيادة مصطفى كمال معسكرا فى الوسط ، والجيش الرابع فى شرقى الاردن . وكان الجنرال الالمانى ليمان فون ساندرس يمارس القيادة العامة . وكان يقابل القوات الالمانية-التركية فيلقان انكليزيان مع الخيالة وسلاح الطيران والجيش العربى بقيادة فيصل فى شرقى الاردن . وكانت نسبة القوى العامة ١:٣ لصالح دول الوفاق . الا ان اللنبى لم يكن مكتفيا بذلك وكان يسعى الى بلوغ تفوق مطلق فى قوات القطاع الغربى الحاسم للجبهة .

وقد افلح فى اجتذاب قسم من القوات التركية فى شرقى الاردن وفى تحويل ميزان القوى فى القطاع الحاسم الى نسبة ٥ : ١ .

وفى ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٨ شرع الانكليز فى الهجوم فاقتحموا الجبهة فى جنوب نابلس . وبعد مضى ٢٤ ساعة دخلت الطليعة الانكليزية الناصرة ، حيث كان مقر القيادة الالمانية-التركية ، وكادت تاخذ ليمان فون ساندرس نفسه اسيرا . وشرعت الوحدات التركية فى التراجع الى الشمال وهى فى حالة هرج ومرج . ونفذت قوات فيصل الى منطقة درعا (الواقعة بين عمان ودمشق) فقطعت طريق الرجعة على الجيش الرابع التركى . وكانت الوحدات التركية الكبيرة والفرعية مشتتة فيما بينها ومطوّقة . وقد اسّر الانكليز ٧٢ الف جندى تركى وحوالى ٤ آلاف المانى . وقضى سلاح الطيران

الانكليزى والانصار العرب على المفارز الصغيرة والجماعات المنفردة من الاتراك ، التى كانت تحاول ان تشق طريقها الى الشمال .

وقد زحفت القوات الانكليزية والعربية باندفاع نحو الشمال ، بعد ما تعقبت الاتراك المغلـوبين . وفى ٣٠ ايلـول (سبتمبر) ١٩١٨ ، وقبل الانكليز بيوم واحد دخلت مفارز فيصل دمشق . واحتل الانكليز فى ٨ تشرين الاول (اكتوبر) بيروت ، وفى ١٨ منه طرابلس وحمص . وفى ٢٦ منـه ١٩١٨ ، دخلت القـوات الانكليزية حلب – اكبر مدن شمالى سوريا .

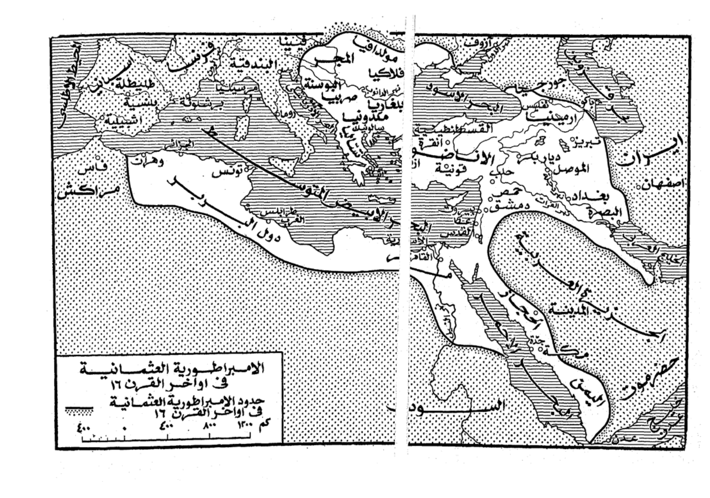
وعلى ظهر الدارعة البريطانية «اغاممنون» التـى رست فى مودروس (ميناء جزيرة ليمنوس فى بحر ايجه) وقـع ممثـو الباب العالى فى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ شروط الهدنة التى أملاها عليهم الاميرال الانكليزى . ونص البند السادس عشر من هدنة مودروس على استسلام جميع القوات التركية الى الحلفاء وعلى التصفية التامة للادارة التركية فى لبنان وسوريـا وفلسطين والعراق والحجاز وعسير واليمن . وهكذا قضى على سيطرة الاتراك على البلاد العربية بعد ان استغرقت اربعة قرون .

ومع ذلك لم يكن باستطاعة العرب الاستفادة من ثمـار هـذا الانتصار . ففى ٣٠ ايلول (سبتمبر) ١٩١٨ ، اى يوم دخـول القوات العربية دمشق ، وقّعت فى لندن الاتفاقية الانكلو – فرنسية حول نظام احتلال الشرق العربى . وعهدت السلطة العليا فى الاراضى العربية المحتلّة الى المشير أللنبى . وكان المفروض ان يسرى فيها مفعـول القوانين العسكريـة الانكليزيـة حتى يتـم الوصول الى تسوية سلمية . وقد جزأت الادارة المدنيـة للاراضى المحتلـة بين الحلفاء . فاصبح لبنان وغربى سوريا («المنطقة الزرقـاء» حسب اتفاقية سايكس – بيكو) تحت الادارة الفرنسية برئاسة بيكو – المندوب السامى الفرنسى . وحسب الاتفاقية ذاتها عهدت ادارة شرقى سوريا وشرقى الاردن ، التى كانت ضمـن منطقتـى «أ» و«ب» الى الامير فيصل الذى كان يعمل باسم الملك الحسين . وكان السلطة المدنية فى الاراضى الباقية ، بما فيهـا «المنطقـة

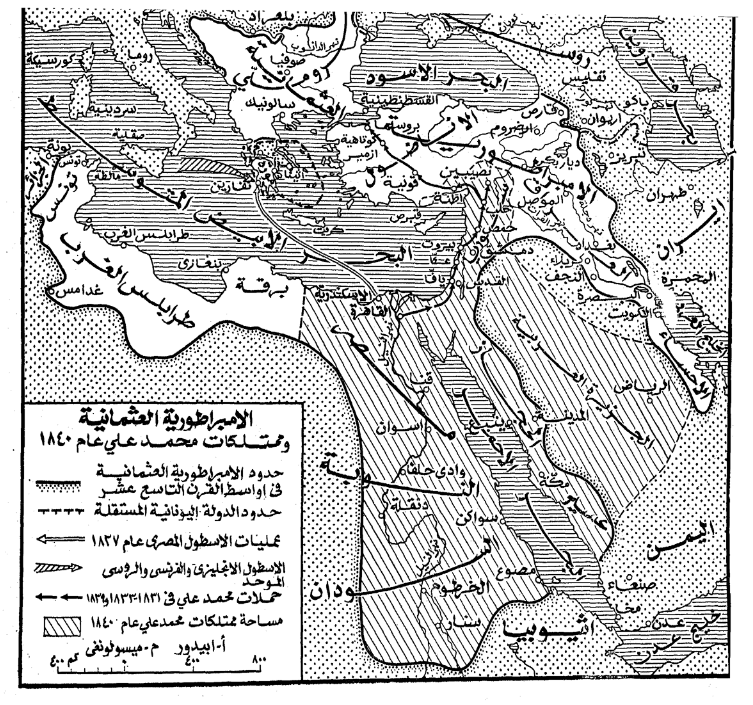
البنية » (اى فلسطين) فى ايدى الانكليز . وبقى الحجـــاز تحت سيطرة الحسين .

وكان العرب ساخطين على الوضع . اذ قد اثارتهم بوجه خاص تصرفات السلطات الفرنسية ، التى انزلت الاعلام العربية فى منطقة نفوذها ، وطردت الحاكم العربى من بيروت ، واجبرت العرب على اخلاء اللاذقية والمناطق الشمالية الغربية من سوريا ، والتى كانت قد حررّتها القوات العربية نفسها . وقد تبين بان الحلفاء لم يكونوا مستعدين اطلاقا لتنفيذ اتفاقية مكماغون — الحسين التــى تنصّ على تأسيس دولة عربية موحدة .

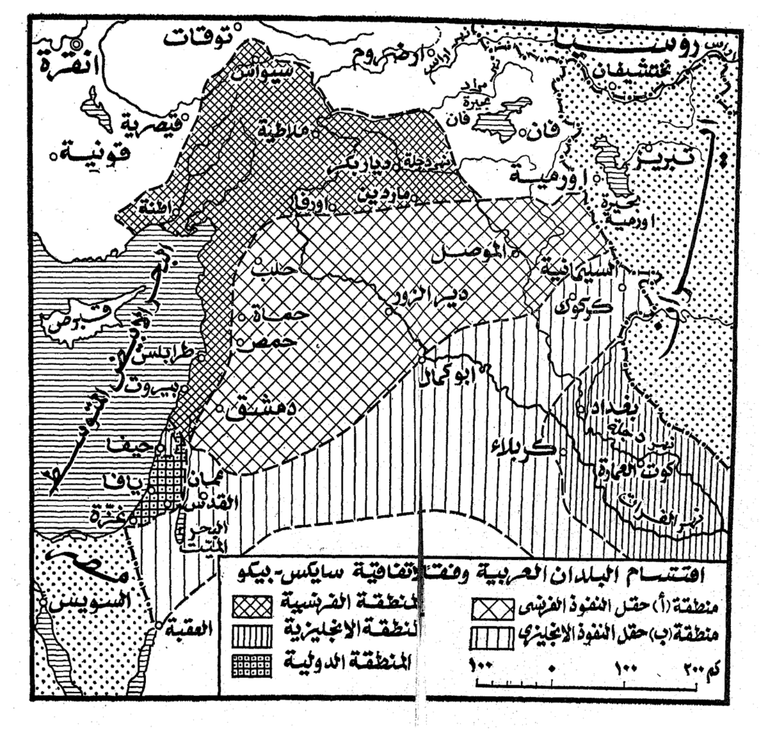
ولم يحصل العرب ، بعد تحررهم من النير التركى ، على الحرية التى كانوا يتوقون اليها مدة طويلــة . بـل وقعــوا فى تبعيـــة المستعمرين الانكليز والفرنسيين . وبعد الحرب العالميـــة الاولى بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الشعوب العربية ، وهى مرحلة الكفاح ضد الامبريالية الانكليزية والفرنسية فى سبيل تحرير الاقطار العربية الوطنى تحريرا تاما .



الامبراطورية العثمانية
في اواخر القرن ١٦
جدود الامبراطورية العثمانية
في اواخر القرن ١٦
كم ١٢٠٠ ٨٠٠ ٤٠٠ ٠ ٤٠٠
فرنسا
البندقية
فيينا
مولداڤيا
المجر
فلاكيا
البوسنة
صربيا
بلغاريا
مكدونيا
سالونيك
روما
مرسيليا
برشلونة
طليطلة
بلنسية
اشبيلية
الجزائر
وهران
تونس
فاس
مراكش
دول البربر
البحر الابيض المتوسط
طرابلس الغرب
القدس
دمشق
حمص
حلب
قونية
انقرة
الاناضول
القسطنطينية
البحر الاسود
جورجيا
ارمينيا
تبريز
ديار بكر
الموصل
بغداد
البصرة
ايران
اصفهان
الحجاز
المدينة
مكة
جدة
اليمن
حضرموت
عدن
السودان



الامبراطورية العثمانية
وممتلكات محمد علي عام ١٨٤٠
حدود الامبراطورية العثمانية في اواسط القرن التاسع عشر
حدود الدولة اليونانية المستقلة
عمليات الاسطول المصري عام ١٨٢٧
الاسطول الانجليزي والفرنسي والروسي الموحد
حملات محمد علي في ١٨٣١-١٨٣٣ و١٨٣٩
مساحة ممتلكات محمد علي عام ١٨٤٠
أ-ابيدور م-ميسولونغي
٨٠٠
٤٠٠
كم ٤٠٠
روسيا
البحر الاسود
الاناضول
روميللي
البحر الابيض
طرابلس الغرب
تونس
مصر
النوبة
السودان
اثيوبيا
اليمن
ايران
الحجاز
الامبراطورية
صوفيا
سالونيك
القسطنطينية
بروسه
كوتاهية
ازمير
قونية
اطنة
نصيبين
ارضروم
قارص
تفليس
باكو
ايروان
تبريز
طهران
ديار بكر
الموصل
حلب
حمص
دمشق
بيروت
عكا
يافا
القدس
بغداد
كربلاء
النجف
البصرة
المحمرة
الكويت
الرياض
المدينة
ينبع
مكة
سواكن
مصوع
الخرطوم
سنار
صنعاء
مخا
عدن
خليج عدن
الاسكندرية
القاهرة
قنا
اسوان
وادي حلفا
دنقلة
قبرص
كريت
نفارين
مالطة
صقلية
سردينية
كورسيكا
روما
بونة
طرابلس الغرب
بنغازي
برقة
غدامس
طرابلس الغرب


اقتسام البلدان العربية وفق الاتفاقية سايكس-بيكو
المنطقة الفرنسية
المنطقة الانجليزية
المنطقة الدولية
منطقة (أ) حقل النفوذ الفرنسى
منطقة (ب) حقل النفوذ الانجليزي
كم ٢٠٠ ١٠٠ ٠ ١٠٠
توقات
انقرة
سيواس
ارضروم
روسيا
تفتشيفان
قيصرية
قونية
ملاطية
فان
بحيرة فان
تبريز
ديار بكر
نهر دجلة
اورمية
بحيرة اورمية
ماردين
اورفا
اطنة
الموصل
السليمانية
حلب
دير الزور
كركوك
حماة
قبرص
حمص
طرابلس
ابو كمال
بيروت
دمشق
بغداد
نهر دجلة
حيفا
كربلاء
كوت العمارة
يافا
عمان
القدس
غزة
نهر الفرات
البحر الميت
مصر
السويس
العقبة

دليل الاسماء

آدموف ٤
ابراهيم باشا ، قائد مصرى ، ابن محمـــد علي ١٠٦ـ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٩ـ١٢٣ ، ١٢٥ـ ١٢٩ ، ١٣١ـ١٣٦ ، ١٣٩ـ ١٤٤ ، ١٨٤ـ١٨٦ ، ٢٣٢
ابراهيـــم بك ، زعيـــم المماليك ص ٣٠ـ٣١ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٨
ابراهيم المويلحي ، انظر المويلحي ، ابراهيـــم
ابن الرشيد ، انظـــر الرشيد ، آل
ابن سعود ، انظر عبـد العزيـز بن سعود ، الملك
ابن سعود ، محمد ، انظر محمد بن سعود
ابو بقلة ص ٢١٤
ابو الذهب ، محمد ص ٣٩
ابو زناك ، تاجر ص ٢٠٤
ابو زيان ٢١٤
ابو معزى ، احمد مولاي ص ٢١٣
احمـــد اغـــا (الملقب بونابـــرت) ص ١٠٣
احمد باي ، حاكم منطقة قسنطينة ص ٢٠٦،٢٠٨ـ٢٠٩،٢١٣
احمد باشا باي ، حاكـم تونس ص ٢٢٢
احمد ابو مزراق ص ٣٢١ـ٣٢٢
احمد جمال باشا ، انظر جمال باشا ، احمد
احمد عرابي ، انظر عرابي ، احمد
احمد فيضي باشا ، انظر فيضي باشا ، احمد
احمد فؤاد ، امیـــر ، انظـــر فؤاد ، احمد
ادان ، جولييت ص ٢٨٩
اديب اسحق ص ٢٤٢
ارسلان ، محمد ص ٤٠١
ارسلان ، آل ص ٨٦
انـــدروب بك ، الدانماركـــي ص ٢٩٨

اسماعيل باشا ، ابن محمد علي
ص ١١٤-١١٥
اسماعيل باشا ، الخديوي
ص ١٨٩ - ٢٠٠ ، ٢٢٨ -
٢٢٩ ، ٢٣١-٢٣٤ ، ٢٣٧
٢٣٨ ، ٢٤١-٢٤٩ ، ٢٦٢ ،
٢٩٧ ، ٤٤٥
اسماعيل صديق باشا ص ٢٣٦
الغود ، الكولونيل ص ٤٤٣ ،
٤٤٦
الالفي ، انظر محمد الالفي
الكسندر الاول ص ١١٧ ، ٢٠٢
اللنبي ، اللورد ص ٤٦٥-٤٦٦ ،
٤٧١-٤٧٣
انجلس ، فريدريك ص ١٩ ،
٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٤٩ ،
١١٧ ، ٣٠٦ ، ٣٤٧
انطونيوس ، جورج ص ١٣٤
انور باشا ص ٣٩٦ ، ٤٠٧
اوبنهايم ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ،
٢٣٠ ، ٢٣٣
اورلوف ، الكونت ص ٣٨ - ٣٩
اوكونر ، السفير البريطاني في
القسطنطينية ص ٤٢٢
ايبسيلانتي،اسكندر ص ١١٧-١١٨
بارتغ ، انظر كرومر
بازيلي ص ٣ ، ١٥ ، ١٣٣ ،
١٤٠
بازين ، المارشال ص ٣١٧
باش حانبه ، علي ص ٣٤١
بالغراف ص ١٧٨
بالمرستون ، اللورد ص ١٣١ ،
١٥٨
باليولوغ ، السفير الفرنسي في
بتروغراد (بطرسبورغ)
ص ٤٦٠
بدر الدين السماوي ص ٣٤
برتليمي سانت هيلر ص ٢٥٧
برغخوف ، مغامر الماني ص ٣٠٢
بشير الثالث (بشير بن قاسم بن
ملحم الشهابي) ص ١٤٣ ،
١٥٤
بشير الثاني الكبير ، امير
لبناني ص ٤٠ ، ٧٧ ، ٨١ -
٨٢ ، ٨٣-٨٦ ، ١٣٣ ،
١٤٣ ، ١٥٣-١٥٤
بشير صفر ص ٣٤٢
البطالمة ص ١٧
بطرس الاول (الكبير) ص ٦٨ ،
٧٤
بطرس البستاني ص ١٦٦-١٦٧،
٢٨٨
بطرس غالي باشا ص ٢٩٤ -
٢٩٥ ، ٣١١
بريمون ، رئيس البعثة الفرنسية
في الحجاز ص ٤٦٤-٤٦٥
البكري ، مبعوث فيصل ص ٤٧٢
بكري ، يعقوب كوهين ، تاجر
ص ٢٠٤
بل ، غرترود ص ٤٢٨

بلفور ، اللورد ص ٤٦٧ ـ ٤٦٩
بلينيير ، دي ص ٢٣٨
بوالكمت ، البارون ، المعتمد الفرنسي لدى ابراهيم باشا ص ١٣١
بوانكاره ، ريمون ص ٤٠٥ ، ٤٠٦
بوتين ، مهندس عسكري فرنسي ص ٢٠٢
البوربون ، سلالة ص ٦٧ ، ٧٦ ، ٢٠٣
بورمون ، دي ص ٢٠٤ ، ٢٠٥
بوزيه ، دي ، القوميسار المدني في الجزائر ص ٣١٨
بولوف ص ٣٥٢
بولينياك ص ٢٠٣
بونابرت ، انظر نابليون الاول
بويوق سليمان ، انظر سليمان باشا الكبير
بيجو ، المارشال الفرنسي ص ٢١٠ ، ٢١١ ، ٣٤٧
بيسمارك ص ٢٤٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٨٧
بيشون ص ٤٦٩
بيكر ، صمويل ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣
بيكو ص ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٣
بينكندروف ، الدبلوماسي الروسي ص ٣٦٠
تالانديبه ص ٣٥١
تايلر ، ووت ص ٣٥
تايلور ص ٩٠
تركي ، سلطان مسقط ص ٤١٨
تركي بن عبد الله ، امير وهابي ص ١٠٨ ، ١٠٩
تشايرول ص ٤٤٥
تشرتشل ، ص ٤٥١
توفيق ، الخديوي
توما ص ٣٣٩
تونشند ، الجنرال ص ٤٥١
تيبير ص ١٤٢
تيمور ، سلطان مسقط ص ٤١٩
الثعالبي ، الشيخ عبد العزيز ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢
ثويني بن سعيد ، سلطان مسقط ص ١٨١ ، ١٨٢
الجبرتي ، عبد الرحمن ، مؤرخ مصري ص ٤٨
الجزار ، احمد باشا ص ٤٠ ، ٥٢ ، ٧٧ ، ٨١ـ٨٥
جسي ، رومولو ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥
جمال باشا ، احمد ص ٣٩٦ ، ٤٠٧ ، ٤٣٨ـ٤٤٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٨ ، ٤٧١
جمال الدين الافغاني ، السيد ص ٢٤٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٨٢
جميل مردم ، انظر مردم جميل

جميل المدفعي ، انظر المدفعي جميل
جنبلاط ، آل ص ٨٦ ، ١٥٥
جنبلاط ، الشيخ ص ٨٦
جوبير ص ٢٣٥ ، ٢٣٦
جوميل ص ٦٩
جوريس ، جان ص ٣٣٨
حافظ علي باشا ص ٧٨ـ٨٠
الحداد ، الشيخ ص ٣٢٢
حسن ، امير بريدة ص ٤٢٥
حسن باشا ، والي بغداد ص ٢٩
حسين باشا ص ١٢٧ ، ١٢٨
حسين بن علي تركي ، الباي ص ٣٠
الحسين الثاني الهاشمي ، شريف مكة ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ـ٤٥٩ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ـ٤٧١ ، ٤٧٣ ـ ٤٧٤
حسين كامل باشا ص ٤٤٥ ، ٤٥٠
حسين المرصفي ص ٢٠٠
الحسينية ، الاسرة ص ٣٠
حيدر الشهابي ، امير لبناني ص ٣٧
الخازندار مصطفى ، انظر مصطفى الخازندار
خالد بن سعود ، امير وهابي ص ١٠٩
الخليل ، عبد الكريم ص ٤٠٣ ، ٤٤٢
خورشيد باشا ، حاكم بيروت ص ١٦٢
خورشيد باشا ، قائد مصري ص ١٠٩
خورشيد باشا ، وال عثماني في مصر ص ٦١
خير الدين بربروسا ، بيلربي ، قرصان تركي ص ٧
خير الله ، كاتب اجتماعي عربي ص ٤١٠
داود باشا ص ٨٨ـ٩١ ، ١٦٩
درويش باشا ص ٢٦٤ ، ٢٦٥
دزرائيلي ، اللورد بيكونسفيلد ص ٢٣١ ، ٢٣٣
الدفتردار ، محمد بك ، صهر محمد علي ص ١١٤ ، ١١٥
دفرين ، اللورد ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣
دلكاسيه ، وزير الخارجية الفرنسي ص ٣٥٣
دوده ، ليون ، كاتب فرنسي ص ٢٨٩
دورييه ، الحاكم العام في الجزائر ص ٣١٥
دوكلرك ، رئيس وزراء فرنسا ص ٢٧٠ ، ٢٧٤
ديفال ، القنصل الفرنسي في الجزائر ص ٢٠٤

راغب باشا ص ٢٦٦ ، ٢٦٩
رشدي باشا ، حسين ، رئيس وزراء مصر ص ٤٤٣ ، ٤٥٠
الرشيد ، آل ص ١٧٩
رشيـد بك ، حاكـم فاشـودة ص ٣٠٢
رشيد رضا ، انظر رضا ، السيد محمد رشيد
رشيد محمد باشا ص ١٤٧
رضـا ، السيد محمـد رشيـد ص ٢٨٧
رضا الصلح ص ٤٤٢
رفيق العظم ص ٤٠٨ ، ٤٧٠
الروبي ، علي ص ٢٤٢
روتشيلـد ص ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٤٦٧
روتشيلد ، اسرة ص ١٥٨
رودبرتس ، اقتصـادي المانـي ص ٣٨٥
روفييه ، رئيس وزراء فرنسـا ص ٣٥٣
روهرباك ص ٣٩٠
رياض باشا ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢–٢٥٥ ، ٢٦٦
ريختهوفـن ، البـارون الالماني ص ٤٢٢
ريكلو ، ايليره
رينو ، مبعوث فرنسي ص ٣٦١
زامل السليـم ، حاكـم عنيزة ص ٤٢٥
ألزبير باشا ، حاكم مديرية بحر الغزال ص ٢٩٩
زغلول ، سعد ص ٢٩٢ ، ٢٩٥
الزهراوي ، الشيخ عبد الحميد ، كاتب اجتماعـي ص ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤٤٢
زيـد بن الحسين الثاني الهاشمي ص ٤٥٦ ، ٤٥٧
زينوفييـف ، السفير الروسـي ص ٤٢٤
سازونوف ص ٤٦٠ ، ٤٦١
سالسبوري ، وزير الخارجيـة البريطاني ص ٢٤٧ ، ٣٣٢
سالم بن راشد الخروصي ، امام عمان ص ٤١٩
سامنه ، ميشال ص ٤٦٥
سانت ارنو ص ٢١٣ ، ٢١٤
ساندرس ، ليمان فون ص ٤٧٢
سايكـس ، مـارك ص ٤٦١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧–٤٦٩ ، ٤٧٣
سباستياني ، الجنرال ص ٥٨ ، ٦٣
ستانلي ، هنري ص ٢٩٧
ستورس ، المعتمد الدبلوماسـي البريطاني ص ٤٣٥
سعد زغلول ، انظر زغلول ، سعد

السعدون باشا ، انظر ناصر باشا
السعدون ص ٤٢١ ، ٤٢٥
سعود ، اسرة ص ١٠٨ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩
سعود بن عبد العزيز ، الامير ص ٩٨ ، ١٠٥ ، ١١٠
سعيد باشا ، والي بغداد ص ٨٣
سعيد باشا ، ابن محمد علي ص ١٨٧ ــ ١٩٠ ، ١٩٥ ــ ١٩٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٤١ ، ٣٠٢
سعيد ، السيد ، حاكم مسقط ص ٩٨ ، ١٧٧ ، ١٨١
السعيد ، الشيخ ٢٦٤
سلطان باشا ، محمد ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢
سلطان ، السيد ص ٩٨
سلطان الاطرش ص ٤٧٢
سلاطين باشا (سلاتين) النمساوي ص ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٣
سليم الاول ياووز (الرهيب) ، سلطان عثماني ص ٧ ، ٣٥
سليم الثالث ، سلطان عثماني ص ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٢
سليم الجزائري ص ٤٤٢
سليم عمون ص ٣٩٨
سليم نقاش ص ٢٤٢
سليمان ، بن الزبير باشا ص ٢٩٩
سليمان باشا ، والي عكا ص ٨٥
سليمان باشا الكبير ص ٣٠ ، ٤٢ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٩
سليمان باشا الفرنساوي (المسيو سيف) ، الكولونيل ص ٦٧ ، ١٢٠
سليمان البستاني ص ١٦٧
سليمان الحلبي ص ٥٤
سليمان الصغير (كوجوك) ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣
سليمان (الاول) القانوني ، سلطان عثماني ص ٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤
السماوي ، بدر الدين ، انظر بدر الدين السماوي ص ٣٤ ، ٣٥
سميث ، آدم ، اقتصادي انكليزي ص ١٩
سميث ، سدني ، اميرال انكليزي ص ٥٢ ، ٧٨
السنوسي ، احمد شريف ص ٣٧٣
سولت ص ١٤٢
السياب ، اسرة ص ٤١
سيف ، الكولونيل ، انظر سليمان باشا الفرنساوي (سيف)
سيمور ، الاميرال ص ٢٦٨
شارل العاشر ص ٢٠٣ــ٢٠٥
شبلي الاطرش ، زعيم الدروز ص ٣٩١

شريف باشا ص ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥١–٢٥٣ ، ٢٥٥–٢٦٣ ، ٢٦٦
شفيق المؤيد ص ٤١٤ ، ٤٤٢
شميدت ، ليفتنانت ص ٣٩٥
شنتزر (امين باشا) ص ٢٩٨ ، ٢٩٩
الشهابيون (آل) ص ١٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٨٥ ، ١٥٤ ، ١٥٥
الشهبندر ، عبد الرحمن ص ٤٤١ ، ٤٧٠
شوكت باشا ، محمود ص ٤٠١
الصادق ، الباي محمد ص ٢٢٣
صادق باشا العظم ص ٤٠٠
صالح ، حاكم صفد ص ٧٧
صباح الدين ، امير ص ٣٩٤–٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٦
صبري ، مصطفى ص ٢٣٤ ، ٢٤٩
طالب النقيب ، السيد ص ٤٠٩
طانيوس شاهين ص ١٦٢
طلال ، امير شمر ص ١٧٩ ، ١٨٠
طلعت باشا ص ٤٠٧
طوسون بك ص ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦
ظاهر العمر ، الشيخ ص ١٥ ، ٣٨–٤٠ ، ٧٧
عباس باشا الاول ص ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ١٩٩
عباس حلمي الثاني ص ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٤٤٥
عبد الحميد الثاني ، سلطان عثماني ص ٢٤٨ ، ٢٩٠ ، ٣٧٩– ٣٨٢ ، ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٢٧
عبد الرحمن بن فيصل ، امير آل سعود ص ٤٢٥
عبد الرحمن الشهبندر ، انظر الشهبندر عبد الرحمن
عبد الرحمن الكواكبي ، انظر الكواكبي عبد الرحمن
عبد العال حلمي ص ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٧٢
عبد العزيز ، سلطان عثماني ص ٣٧٧ ، ٣٧٩
عبد العزيز بن سعود ، مؤسس المملكة السعودية ص ٤٢٦– ٤٣٠
عبد العزيز بن سعود ، ابن محمد بن سعود ص ٩٧ ، ٩٨
عبد العزيز بن معتْب ، امير شمر ص ٤٢٧
عبد العزيز ، مولاي ، سلطان مراكش ص ٣٥١ ، ٣٥٨
عبد القادر الجزائري ص ١٦٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٥–٢١١ ، ٢١٣ –٢١٥ ، ٣٤٧
عبد الكريم الخليل ، انظر الخليل ، عبد الكريم

عبدالله ، امير شمر ص ١٧٩
عبد الله باشا ، والي بغداد ص ٨٣
عبد الله باشا ، والي عكا ص ٨٥ ، ٨٦
عبد الله بن الحسين الثاني الهاشمي ، امير ص ٤١٤ ، ٤٣٥ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨
عبد الله بن سعود ، امير وهابي ص ١٠٥-١٠٧
عبد الله التعايشي ، خليفة الدولة المهدية ص ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٢
عبد الله نديم ص ٢٤٢ ، ٢٧٢
عبد المجيد ، سلطان عثماني ص ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٤ ، ٢٢٣
عبد الهادي ، المشيخة ، زعماء منطقة نابلس ص ١٣٣
عبده ، الشيخ محمد ص ٢٤٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
عثمان البرديسي ص ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣
عثمان الثاني ، سلطان عثماني ص ٣٦
عثمان رفقي ص ٢٥٢ ، ٢٥٣
عجلان ، عامل ابن رشيد في الرياض ص ٤٢٧
عرابي ، احمد ص ١٩٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥١-٢٧٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٣
العريسي ، عبد الغني ص ٤٤٢
عزان بن قيس ص ٤١٧
عزيز علي المصري ، انظر المصري ، عزيز علي
علم الدين ، اسرة ص ٣٧
علي محسن فضل ، سلطان لحج ص ١٨٢
علي ، شريف مكة ص ٤٣٤
علي باش حانبه ، انظر باش حانبه ، علي
علي بك الكبير ص ٣١
علي بن الحسين الثاني الهاشمي ، الامير ص ٤٥٦ ، ٤٥٨
علي بن غذاهم ص ٢٢٥
علي بن المهدي ، امام اليمن ص ٤٣١
علي باشا ، والي حلب ص ٩١
على الروبي ، انظر الروبي ، علي
علي فهمي ص ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣
علي كامل ، انظر كامل علي
عمر باشا النمساوي ص ١٥٤ ، ١٥٥
عون الرفيق ، شريف مكة ص ٤٣٤
عيسى بن علي ، الشيخ ، حاكم البحرين ص ٤٢٠
غالب بن مساعد ، شريف مكة ص ٩٩ ، ١٠٥
غراي ، ادوارد ص ٤٠٦

غرنفل ، اللورد ص ٢٥٧ـ٢٥٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤
غريفز ص ٤٥١
غليوم الثاني ص ٣٥٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧
غمبتا ص ٢٥٩ ، ٢٧٠
غنج يوسف ص ٨٢
غوردون ، الجنرال ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤
غورست ، السدون ، السير ص ٢٩٢ ، ٢٩٥
غوشن ، اللورد ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
غولتس ، فون در ص ٣٨٦
غيدون ، الاميرال ص ٣١٩
غيزو ١٤٢
غيغلر باشا الالماني ص ٢٩٩ ، ٣٠٢
فارس نمر ص ٣٩١ـ٣٩٢
فتح علي شاه ص ٩٠
فخر الدين الاول ، امير لبناني ص ٣٥
فخر الدين الثاني ، امير لبناني ص ١٥ ، ٣٥ ، ٣٦
فخري باشا ص ٤٥٨
فردى ، ملحن ص ١٩١
فرنسيس الاول ص ٢١
فروهلنغ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣
فريسينيه ، دي ص ٢٦٦
فن ، جيمس ص ١٥٨
فهمي ، مصطفى ص ٢٦٤ ، ٢٩٠
فؤاد ، احمد ، الامير ص ٤٤٥
فؤاد باشا ص ١٦٤
فوريه ص ١٨٦
فوزي باشا ، احمد ، اميرال ص ١٣٩
فولني ، رحالة فرنسي ص ١٥ ، ١٩ ، ٣٠
فونج ، اسرة ص ١١٣
فويرموز ص ٣١٧ـ٣١٩
فيري ، جول ص ٢٦٦
فيصل ، سلطان عمان ص ٤١٨ ، ٤١٩
فيصل بن تركي ، امير وهابي ص ١٠٩ ، ١٧٧ـ١٧٩
فيصل بن الحسين الثاني الهاشمى ، الامير ص ٤٣٤ ، ٤٥٤ـ٤٥٩ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ـ٤٧٣
فيضي باشا ، احمد ص ٤٢٧ ، ٤٣١
فيلبي ص ٤٢٦
قجي بك قومورجي ص ٢٨ ، ٢٩
قرقماز (قرقماس) ص ٣٥
القرمانية ، اسرة بكوية ص ٣٠
قره يزيجي ص ٣٤
القعيطى ، اسرة في جنوب الجزيرة العربية ص ٤١٧

كابوديستريا ص ١١٧ ، ١٢١
كافينياك ص ٢١٣ ، ٢١٤
كامل ، علي ص ٤٤٤
كاننغ ص ١٨١
كاولا ، رأسمالي الماني ص ٣٨٦
كايف ، مالي انكليزي ص ٢٢٩
كتشي بك ، انظر قجى بك
كدرنغتون ص ١٢٢
كرد علي ، محمد ص ٤٤١
كروبوتكين ص ٣٩٤
كرومر ، اللورد ، (بارنغ) ص ٢٠٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٧٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٣١١
كريس فون كريسنشتاين ص ٤٣٨ ، ٤٥٣
كلايتون ، الكولونيل ص ٤٥١
كلفن ، اوكلند ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧-٢٥٩
كلوت بك ص ١٣٤
كليبر ص ٥٣ ، ٥٤
كمال الدين حسين ص ٤٤٥
كناريس ، من ابطال حرب الاستقلال اليوناني
الكواكبي ، عبد الرحمن ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٩٢ ، ٤٠٨
كوجوك سليمان ، انظر سليمان الصغير ص ٧٨-٨٠ ، ٨٣
كوفرو ، مهندس فرنسي ص ١٩٠
كوكس ، برسي ، السير ص ٤٦٣
كولكوترونس ١٢٠
كوهلمان ، دبلوماسي الماني ص ٣٦٠
كيتشنر ، اللورد ص ٢٩٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٦٠ ، ٤١٤ ، ٤٣٥
كيرزون ، اللورد ص ٤٢١ ، ٤٢٤
لابلاس ، مهندس ص ١٨٦
لابولايه ، دي ص ٢٧٦
لاسلز ، سفير بريطاني في برلين ص ٤٢٢
لامارتين ، الفونس دى ، شاعر فرنسي ص ٨٥
لامبير ص ٣١٨
لبتون ص ٣٠٣
لدل هارت ، مؤرخ انكليزي ص ٤٧١
لسبس ، دي ، فرديناند ص ١٨٦-١٩٠ ، ٢٣٠-٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٥٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
لوتي ، بيير ، كاتب فرنسي ص ٢٨٩
لودرتز ص ٢٩٧
لورنس ، الكولونيل ، ضابط في المخابرات البريطانية ص ٤٥١ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٤٧١

لويد ، مندوب سام بريطاني في مصر ص ٤٥١
لويد جورج ، اللورد ص ٤٦٩
لونغ ص ٢٩٨
لويس فيليب الاورلياني ص ٢٠٥
ليبير ، مهندس ص ١٨٦
ليتشمن ، ضابط في المخابرات البريطانية ص ٤٢٨
ليمان فون ساندرس ، انظر ساندرس ، ليمان فون ص ٤٣٨ ، ٤٧٢
لينان دي بلفون ٢٩٨
لينين ، فلاديمير ايليتش ص ٣١٠ ، ٣٥٩ ، ٣٧٠ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٣٦
ليوبولد الثاني ص ٢٩٧
ليوتي ، الجنرال ص ٣٤٨ ، ٣٦٣
ماجد ، بن سعيد ، حاكم مسقط ص ١٨١
مارشال ، سفير الماني في القسطنطينية ص ٤٢٢
مارشان ، الكولونيل ص ٢٨٩ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
ماركس ، كارل ص ١٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٢
مافروكورداتس ص ١١٨
مالت ، ادوارد ، السير ص ٢٦٠، ٢٦٥ ، ٢٦٦
مبارك الصباح ، الشيخ ، حاكم الكويت ص ٤٢١ـ٤٢٦
مترنيخ ص ١١٨ ، ١١٩
محمد احمد (المهدي) ، انظر المهدي (محمد احمد)
محمد ادريس السنوسي ، السيد ص ٣٦٥ ، ٣٧٢
محمد الادريسي ، السيد ، امير عسير ص ٤٣٣ ، ٤٥٣
محمد ارسلان ، انظر ارسلان ، محمد
محمد الالفي ص ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢
محمد باشا ، باي تونس ص ٢٢٣
محمد اغا (ابو نبوت) ص ٨٣
محمد بن الرشيد ، امير شمر ص ٤٢٥
محمد بن سعود ، الامير ص ٩٧
محمد بن عبد الوهاب ، الشيخ ص ٩٥ـ٩٧ ، ١٠٠
محمد بن يحيى حميد الدين ، الامام ص ٤٣١
محمد الخامس (الامير رشاد) ص ٤٠١
محمد السنوسي ، السيد ص ٣٦٥
محمد الصادق باي ، انظر الصادق ، باي محمد

محمد الصباح ص ٤٢٠
محمد سلطان باشا ، انظر سلطان
باشا ، محمد
محمد العابد ص ٣٧٣
محمد عبده ، انظر عبده ، محمد
محمد علي ص ٥٩ـ٧٥ ، ٧٩ ،
٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ،
١٠٢ـ١١١ ، ١١٣ـ١١٦ ،
١١٨ـ١١٩ ، ١٢٣ـ١٣٢ ،
١٣٤ـ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ،
١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
١٨٣ـ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ،
٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٩٦
محمد المحروقي ، تاجر ص ١٠٣
محمد المهدي ، ابن السنوسي
ص ٣٦٥
محمد النبي ص ٩٢ ، ٩٦ ، ٣٠١
المحمصاني ، محمد ص ٤٤٢
محمود باشا سامي البارودي
ص ٢٠٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ـ
٢٦٣ ، ٢٧٢
محمود الثاني ، سلطان عثماني
ص ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٢ ، ١١٩ ،
١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٩ـ١٣١ ،
١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ٢٢٠ ،
٣٦٤
محمود شوكت باشا ، انظر
شوكت باشا ، محمود
محمود فهمي ص ٢٤٢ ، ٢٧١ ،
٢٧٢
محيي الدين ص ٢٠٦
مدحت باشا ص ١٧٣ـ١٧٥ ،
٢٤٣ ، ٢٧٨ـ٢٨٠
مدحت شكري بك ، امين حزب
«الاتحاد والترقي» ص ٤١١
المدفعي ، جميل ص ٤١٣
مراد بك ، زغيم المماليك ص ٣١ ،
٤٨ـ٥٠ ، ٥٢
مراد الخامس ، سلطان عثماني
ص ٣٧٧ ، ٣٧٩
مردم ، جميل ص ٤٠٤
مشاري بن سعود ، امير وهابي
ص ١٠٧
مشاري بن عبد الرحمن ص ١٠٨
المصري ، عزيز علي ص ٤٠٣ ،
٤١٢ ، ٤١٣
مصطفى باشا ، بيرقدار ص ٦٦ ،
٨١
مصطفى اغا بربر ص ٨٣
مصطفى الخازندار ص ٢٢٢ ،
٢٢٥
مصطفى فهمي ، انظر فهمي
مصطفى
مصطفى باشا كامل ، مؤسس
الحزب الوطني في مصر ص ٢٨٦ ،
٢٨٩ـ٢٩٣
مصطفى كمال ، اتاتورك
ص ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٧٢

المعنيون (آل) ص ١٤ ، ٣٥ ، ٣٧

المقراني ، الشيخ محمد ص ٢١٩، ٣٢١

مكسويل ، الجنرال ص ٤٤٤

مكماهون ، جنرال فرنسي ص ٢١٤ ، ٣١٤

مكماغون ، هنري ، المندوب السامي البريطاني في مصر ص ٤٤٥ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤

مكيافيللي ص ٣٥

ملتكه ، فون ، الكونت ص ٣٨٥ ، ٣٨٦

منزنغر ص ٢٩٨

منليك ، نجاشي اثيوبيا ص ٣٠٨ ، ٣١٠

المهدي (محمد احمد) ص ٢٩٩ — ٣٠٤ ، ٣٠٧

مورافييف ١٢٩

موشان ، طبيب فرنسي ص ٣٥٥

مولاي عبد الحفيظ ، سلطان مراكش ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٣

مولاي عبد الرحمن ، سلطان مراكش ص ٢١١

مولاي يوسف ، سلطان مراكش ص ٣٦٣

مونتفيوري ، صيرفي ص ١٥٨

مونزر ، توماس ص ٣٥

المويلحي ، ابراهيم ص ٢٠٠

ميسنر ، مهندس ص ٤٣٤

مينو ، جاك (عبد الله) ص ٥١ ، ٥٤

نابليون الاول (بونابرت) ص ٣٨ ، ٤٣—٥٥ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٦—٨١ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٥٨ ، ١٨٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٢

نابليون الثالث ص ١٦٣—١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٣٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥

نابير ، الكومودور البريطاني ص ١٤٣

ناصر باشا السعدون ، رئيس قبيلة المنتفق ص ٤٢١ ، ٤٢٥

نجيب عازوري ص ٣٩٢

نسلرود ص ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٠

نلسن ، الاميرال ص ٤٥ ، ٥٠

نمر ، المك (الملك) ص ١١٥

نوبار باشا ص ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦

نوري سعيد ص ٤١٢

نيازي ، احمد ، قومندان حصن رسنة ص ٣٩٦

نيقولاي الاول ص ١٢١ ، ١٢٩

نيوكومب ، الماجور ص ٤٥١

الهاشمي ، عبد الله ، انظر عبد الله ، بن الحسين الهاشمي

هايدن ص ١٢٢
هكس ، الجنرال ص ٣٠٣
هوس ، يان ص ٣٥
هوغارت ، خبير بريطاني في الشؤون العربية ص ٤٥١ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠
هوميروس ص ١٦٧
وادنغتون ص ٣٣١
وارنييه ، رئيس البلدية في مدينة الجزائر ص ٣١٦ ، ٣١٧
والزين ـ استيرهازيه ص ٣١٧
وايزمان ص ٤٦٧
الورداني ، ابراهيم ص ٢٩٤
ولسلي ، الجنرال ص ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٣٠٤
ولسن ، رئيس الولايات المتحدة الامريكية ص ٤٦٩
ولسن ، ارنولد ، الحاكم العام البريطاني في العراق ص ٤٦٣
ولسن ، ريفرز ص ٢٣٧ ، ٢٣٨، ٢٤٣-٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢
ولنغتون ص ١٢١
ونغايت ، ريجنالد ص ٤٤٥ ، ٤٧٠
اليازجي ، ابراهيم ص ١٦٨ ، ٣٩١
اليازجي ، ناصيف ص ١٦٧ ، ١٦٨
يانغ ، مؤرخ انكليزي ص ٢٣٢ ، ٤٥٠
يحيى حميد الدين ، الامام ص ٤٣١ ، ٤٣٢
يكاترينا الثانية ص ٣٩
يوسف باشا الشلالي ص ٣٠٢
يوسف الشهابي ص ٣٩ ، ٤٠
يوسف كرم ص ١٦٥

دليل الاسماء الجغرافية

آبّا ، جزيرة على النيل الابيض ٣٠٠
آزوف ٣٢
الآستانة ، انظر القسطنطينية
آسيا ٣٤١ ، ٤٠٦
آسيا الصغرى ٣٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٥٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧
آسيا الغربية ٤٤ ، ٣٧٤
آسيا الوسطى ٣٨٢
ابنينو ، شبه جزيرة ٤٤
ابها ، عاصمة عسير ٤٣٢
ابو قير ٥٣ ، ٥٤ ، ٢٧٣
ابو قير ، خليج ٥٠
ابيدور ، مدينة في اليونان ١١٨
الابيض ، مدينة في السودان ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٢
الابيض المتوسط ، البحر ٨ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٣
اثينا ١٢١ ، ١٢٢
اثيوبيا ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩
الاحساء ٨ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩
الاحمر ، البحر ٧ ، ٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٤٣٣ ، ٤٥٩
ادرنة ١٧٥
الادرياتيكي ، البحر ٣٣
ادنة ، انظر اطنة
اديس ابابا ٣٠٩
الارخبيل ، جزر ٣٢ ، ٣٨ ، ١١٨ ، ١٢٠
الاردن ، نهر ٤٦٥
الاردن ، وادي ، انظ شرقي الاردن
اردهان ٣٨٧
ارزيو ٢٠٥

ارمينيا ٤٠٦
ارفورت ٢٠٢
اريتريا ٢٩٨ ، ٣٠٩
ازميت ٣٨٦
ازمير ٣٧٥
اسبانيا ٧٩ ، ٢٠٣ ، ٢٧٧ ، ٣٠٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ــ ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦
استانبول ، انظر القسطنطينية
الاسكندرونة ١٢٧ ، ١٤٣ ، ٤٥٣
الاسكندرية ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ــ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ١١٦ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٨٥ ، ١٩٢ــ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ــ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٣٦٨ ، ٤٣٨
الاسماعيلية ٢٧٢
اسوان ٦٧ ، ٣٠٨
اسوج ٣٤٦ ، ٣٥٣
الاسود ، البحر ٣٢ ، ٣٣
الاسود ، الجبل (مونتنه نيغرو) ٣٧٧
الاطلسي ، المحيط ٣٠٩
اطنة (ادنة) ١٢٧
اغادير ٣٥٨ــ٣٦٠
الاغواط ٢١٤
اكروبول ١٢١
اكس لا شابل ٢٠٣
افريقيا ١٢٥ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ ، ٢٧٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٦٠ ، ٣٠٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨
افريقيا الجنوبية ٢٩٠ ، ٢٩٥
افريقيا الجنوبية الغربية ٢٩٧
أفريقيا الشرقية ١٧٧ ، ١٨١ ، ٢٩٧
افريقيا الشمالية ٩ ، ١٠ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٤٤ ، ١٢٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٦٤ ، ٣٨٢ ، ٣٩٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨
الافلاج ٤٢٧
افني ، منطقة في جنوب مراكش ٣٤٧
البانيا ٤٠٦
البرت (نيانزا) ، بحيرة ٢٩٨
الالزاس ــ اللورين ٣٢٠
المانيا ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٩٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ــ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ــ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٨٣ــ٣٨٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٦ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ــ ، ٤٦٧
ام درمان ٣١٠

امريكا ٤٤
امريكا الشمالية ٣٧٤ ، ٣٩٢
ام لج (املج) ٤٥٦
اميان ٥٨
الاناضول ١٣٠ ، ١٣١ ، ٤٦٢
الاناضول الشرقية ٣٤ ، ٩٠ ، ٣٨١
انطاكية ١٢٧ ، ١٣٣
انطلياس ٨٥
انقرة ٣٨٧ ، ٣٨٨
انكلترا ٣٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٩٨ ، ١٠٩-١١١ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٦-١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢-١٨٣-١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ، ٢٢١-٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦-٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤-٢٨٠ ، ٢٨٣-٢٨٦ ، ٢٨٩-٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨-٣١٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧-٣٩٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥-٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤١-٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٤-٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧-٤٧١
اوديسا ١١٦ ، ١١٧
اوربا ٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ١٣٣ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٣ ، ٣٣٢ ، ٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢ ، ٤١٦
اوربا الشرقية ٣١ ، ٣٨١ ، ٤٠٦
اورس ، جبل ٣٢٢
اورشليم ، انظر القدس
اورفا (الرها) ١٣٩
اورنتس ، انظر العاصي ، نهر
اوغندة ٢٩٨
اونكيار اسكبلبسي ، انظر هنكار اسكلسي
الانيورو ، منطقة ٢٩٨
ايجه ، بحر ٤٧٣
ايران ٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٩٠ ، ١٣٣ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٤٢٠
ايطاليا ٣٦ ، ٤٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٠٧ ، ٣٣٠-٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ،

٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٥
ـ ٣٧٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ،
٤٣٧ ، ٤٤٥ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨
الايونية ، الجزر ٥٥
الباب العالي ، انظر تركيا
باب المندب ، مضيق ٤١٦
باتشكا ،منطقة في يوغوسلافيا ٣٢
باجة ٢٢٣
باردو ، ضاحية مدينة تونس ٣٣٢
باروس ٣٨
باريس ١٨٢ ، ١٨٨ ، ٢٠٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٨٦ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦٧ ، ٣٩٦ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٦٤
بتروغراد ، انظر بطرسبورغ
البترون ١٤٢
بجاية ٢٢٣
البحر الاحمر ، مديرية ٣٠٣
بحر الغزال ، اقليم في السودان ٢٩٩ ، ٣٠٣
البحرين ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢٥
بربر ، مديرية ١١٥
بربر (المخيرق) ، مدينة في شمالي السودان ٢٩٩
بربرا ، مدينة في الصومال ٢٩٨
البرتغال ٢٠٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣
برج بو اراريج ، حصن في الجزائر ٣٢١
برقة ٣٤٩ ، ٣٦٦ـ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
برلين ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٤٢٢ ، ٤٥٠
بروّت ، نهر ١١٨
بروسا ١٢٨ ، ٢١٣
بروسيا ١٣٠ ، ١٣٩ـ١٤٢ ، ٢٢٧ ، ٣٣٠
بروكسل ٢٩٤
بريدة ١٠٦ ، ١٧٨ ، ٤٢٥
بريطانيا العظمى ، انظر انكلترا
بريم (مايون) ، جزيرة ١٨١
بسارابيا ٣٢
بساروفتز (بجه رفك) ٣٢
بسل ١٠٥
البصرة ٢٠ ، ٤٢ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ١٣٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٣٩٠ ، ٤٠٩ ، ٤٢٠ ، ٤٥١
البصرة ، لواء ٤١
بُصرى ٣٩٨
بطرسبورغ ١٢١ ، ١٢٢ ، ٣٦٧ ، ٤٦٠
بعلبك ٤٧١
بغداد ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٨ـ٣٠ ، ٣٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٩ـ٩١ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٣٣ ، ١٦٩ـ١٧٤ ، ١٧٨ ، ٢٠٦ ،

٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ،
٤١٥ ، ٤٥١ ، ٤٦٣
بغداد ، باشوية ٢٦ ، ٤٣٩
البقاع ، سهل ٨٢ ، ١٤٣ ، ٢٩٨
بلبيس ٧٢
بلجيكا ٣٠٩ ، ٣٤٦ ، ٣٩٠ ،
٤٣٦
بلغاريا ٦٢ ، ٣٧٧
البلقــــان ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٣١ ،
٣٨١ ، ٤٥٩
البلقان ، شبه جزيرة ١٢ ، ٣٢ ،
٤٣ ، ١٣١ ، ١٥٠ ، ١٥٨
«بنات» ، منطقة ٣٢
البندقية ٢٠ ، ٣٢
بنزرت ٢٢١ ، ٣٣٢
بنغازي ٣٦٩ ، ٣٧٢
بودوليا ٣٢
بور سعيد ١٩٢ ، ٢٧٢
البوسفور ٣٣ ، ٦٣ ، ١٢٩ ،
١٤٥ ، ٣٨٦
البوسنة (بوسنيا) ٣٣١ ، ٣٧٧
بوشهر (بندر بوشهر) ١٨٠
بولاق ٥٤
بولندة (بولونيا) ٣٢
بومباي (بومبي) ٧٩
بونة (عنابة) ٢٠٥ ، ٣٢٥
بيت الدين ١٥٤ ، ٣٩٨
بيت لحم ٨٨
بيتولج ، انظر مناستر
بير السبع ٤٥٩ ، ٤٦٦
بيروت ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٧٧ ،
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ،
١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ،
١٦٢–١٦٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩
– ٣٩١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٥ ،
٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٤٢ ، ٤٧٣ ،
٤٧٤
بيزا ٢٠
بيشة ١٠٥
بيلان ، ممر ١٢٧
بينيــون دي فيليس ، جزيـــرة
٣٤٧
التافنا ٢٠٩
تاغنروغ ١١٦
التاكة ١١٥
تبسة ٣٢٥
ترانسلفانيا ٣٢
تربة ، واحة ١٠٥
تركيــا ٧ ، ٨ ، ٢٠ ، ٢١ ،
٢٧ ، ٣٢ ، ٣٧–٤١ ، ٥١ ،
٥٥ ، ٥٧ ، ٧٤ ، ١٢٢ ،
١٢٥–١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٨
– ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
١٤٧–١٥٠ ، ١٦٠–١٦٥ ،
١٧٣–١٧٦ ، ١٨٦–١٨٨ ،
٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ،
٢٧٤ ، ٢٩٠ ، ٣٣١–٣٣٣ ،
٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ،
٣٧٤–٣٨٠ ، ٣٨٢–٣٨٩ ،
٣٩٤–٣٩٩ ، ٤٠١–٤٠٧ ،

٤١١ ، ٤١٤-٤١٦، ٤٢٢،
٤٢٤، ٤٢٧ ، ٤٣٢-٤٤٢،
٤٤٥ ، ٤٥١-٤٥٥ ، ٤٦٢ ،
٤٦٨-٤٧١
تريبوليس (تريبولتزا) ١١٨ ،
١٢٠
تريستا ٦٨
تشاد ، بحيرة ٣٦٦
تطوان ٣٤٧
تعز ١٠٧
تقرت ٢١٤، ٣٢٢
تكريت ، على نهر دجلة ٤٦٣
التل الكبير ٢٥٨ ، ٢٧٢
تلمسان ٢٢
تهامة ١٧٦ ، ٤٢٠ ، ٤٣٢
تهامة عسير ١٠٠
تهامة اليمن ١٠٠ ، ١٠٧
تورين ٣٦٧
توكرة ٣٧٢
تونس ٧ ، ٨ ، ٢٦ ، ٣٠ ،
٣٣ ، ١٢٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧،
٢٢٠-٢٢٦ ، ٢٨٧ ، ٣٣١،
٣٣٢ ، ٣٤٤، ٣٦٤، ٣٨٧،
٤٣٧
تونس ، مدينة ٢٢ ، ٢٢٣ ،
٣٣٠-٣٣٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢
تيلسيت ٢٠٢
الجبل ، انظر لبنان ، جبل
الجبل الاخضر في برقة ٣٧٢
جبل الدروز ٣٩١ ، ٣٩٨ ،
٤٤٠ ، ٤٧٢
جبل الرصاص ٣٣٠
الجبل الشرقي ٨٢ ، ١٣٦ ،
١٤٣ ، ١٦٣
جبل شمر انظر شمر
جبل طارق ٣٥٣
جبل لبنان ، انظر لبنان ، جبل
جبيل ٨٢ ، ٨٦ ، ١٤٢
جدة ٢٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،
٤٥٦ ، ٤٦٩
جديد ، مدينة في السودان ٣١٢
الجزائر ٧ ، ٨ ، ٢٦ ، ٣٠ ،
١٢٥ ، ١٣٨ ، ٢٠١-٢٠٥،
٢٠٦ ، ٢٠٨-٢١٣ ، ٢١٤
-٢٢٢ ، ٣١٥-٣٢٩ ، ٣٣٦
-٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
٣٤٨ ، ٣٨٧، ٤٣٧
الجزائر ، مدينة ٢٢ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٣١٣-٣١٥،
٣١٧ ، ٣٤٨
الجزائر ، منطقة ٢١٣
الجزيرة ، انظر ما بين النهرين
الجزيرة الخضراء (الجزيراس)
٣٥٣
الجزيرة العربية ٧ ، ٩٣ ، ١٠٣،
١٧٦، ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٩،
٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦
الجزيرة العربية ، جنوبها ١٠٩ ،
١١٠، ١٣٨، ١٧٦، ١٧٧،
١٨٢ ، ٤١٦ ، ٤١٧

الجزيرة العربية ، داخلهـــا ٨ ، ٩٥ ، ١٠٦ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٤١٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩
الجزيرة العربية ، شرقها ١٧٨
الجزيرة العربية ، شمالها ١٧٦ ، ١٧٩
جشمة ٣٨
الجعفرية ، جزر ٣٤٧
جغبوب ، واحة ٣٦٥
الجليل ٥٢ ، ١٤٣
جنوا ٢٠
جنيف ٢٩٤ ، ٤٥٠
الجـوف ، منطقـة في الجزيـرة العربية ١٠١
الجوف ، في ليبيا ٣٦٥
الجوف ، واحة في الجزيرة العربية ١٦٩
جيبوتي ٣٠٩
الجيزة ٥٠ ، ٦٧
حاصبيا ١٦٣
حائل ١٧٩ ، ٤٣٤
الحبش ، باشوية ٢٦
الحبشـــة ، انظـــر اثيوبيـــا
الحجاز ٧ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٥٣–٤٥٨ ، ٤٧٠ –٤٧٣
حضرموت ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٧٦ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧
حلب ١٥ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠١ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٧٣ ، ٢٨٨ ، ٣٩١ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٤٧٣
حلب ، ايالة ١٢
حلب ، ولاية ١٧
حماة ١٢٧ ، ٤٠٨ ، ٤٥٦ ، ٤٦١
حمص ، مدينة في سوريا ١٢٧ ، ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٤٧٣
حـــوران ٨٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ٢٩٨ ، ٤٦٥ ، ٤٧١
حيدر باشا ، محطـــة في اسكدار ٢٨٦ ، ٤٢٢
حيفا ٥٢ ، ١٢٧ ، ١٤٢ ، ٤٦٢
الخرج ٤٢٧
الخرطوم ١١٤ ، ١١٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦–٣١٠
خرم شهر ، انظر المحمرة
الخزامة ، جزيرة ٣٤٧
خط الاستـــواء ، مديريـــة في السودان ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٩
الخليل ١٤٣
الخمس ، مدينة في ليبيا ٣٦٩ ، ٣٧٢
خوريا موريا ، جزر ١٨١

خيبر ، واحة ١٧٩
الدار البيضاء ٣٥٥-٣٥٧
دارفور ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٢
الدانمارك ٣٤٦
الدانوب ، نهر ٦٣ ، ١٢٩
الدانوب ، حوض ٣٣
الدانوب ، امارات ١١٨
دجلة ، نهر ١٧٣ ، ٢٩٠ ، ٤٦٣
الدردنيل ٣٢ ، ٦٣ ، ١٣٠ ، ١٤٥ ، ١٨٦ ، ٤٥٥
درعا ٤٧٢
الدرعية ٩٧ ، ١٠٦ ، ١٠٨
درنة ٣٦٩
دلتا النيل (الدلتا) ١٧ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٧٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٧١
دمشق ، مدينة ١٥ ، ٢٠-٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٨-٤١ ، ٥٢ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٣٢-١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ٢١٣ ، ٣٨٧ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٥٤-٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣
دمشق ، واحة ١٧٨
دمهور ٥٩
دمياط ٦٧ ، ١٩٩ ، ٢٥٨ ، ٢٧٣
دنشواي ٢٩١
دنقلة ١١٣-١١٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤
دنيستر ، نهر ٣٢
الدوديكانيز ، جزر ٣٦٩
الدولة العليا ، انظر تركيا
دير القمر ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٦
رأس الرجاء الصالح ٨
راشيا ١٦٣
الرحمانية ، بلدة في مصر ٥٤
الرس ١٠٦
رسنة ، حصن في مكدونيا ٣٩٦
رشيد ٦٣ ، ٦٩
ركونيجي ٣٦٧
الرمادي ٤٦٣
الرها ، انظر اورفا
رودس
روسيا ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧-٣٩ ، ٤٣ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٨-١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٠٩ ، ٣٣١ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٢ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٢

_ ٤٢٤ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ،
٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨
رومانيا ٤٣٦
روملّي الشرقية ٣٨٥
الرياض ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٧٧ ،
٤٢٥_٤٢٧
الرين ، نهر ١٤٢
الزبير ٨٠
زحلة ١٦٣
الزعاطشة ، واحة ٢١٤
الزقازيق ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٦١
زنجبار ١٧٧، ١٨١
زنزور ٣٧٠
زوارة ٣٧٠ ، ٣٧٣
الزوق ١٦٢
زيلع ، مدينة في الصومال ٢٩٨
ساحل الجزائر ٢٠٥ ، ٢١٢
ساحل الصلح البحري ، انظر شاطئ الهدنة
سبتة ٣٤٧
سدير ٤٢٧
سرت ٣٧٢
سردينية ٣٤٥
سطيف ٣٢١
سقطرة ١١٠ ، ٤١٧
سلافونيا ٣٢
سلانيك ٣٩٦ ، ٤٧٢
السلوم ٣٧٢
السليمانية ٩٠ ، ١٧٠ ، ١٧١
سنار ٢٠ ، ١١٣ _١١٥ ، ١٤١
سواكن ١١٥ ، ٣٠٨
السودان ٦٦ ، ٧٥ ، ١١٣ _ ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ٢٦٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦_ ٣٠٦ ، ٣٧٤ ، ٤٣٧
السودان الشرقي ١١٣ ، ١١٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٦٥
السودان الغربي ٣٠٨
سوريا ٧_٩ ، ١٤_١٦ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ _ ٤١ ، ٥٢_٥٤ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٦_٨٢ ، ٨٦_٨٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١٢٤_١٢٦ ، ١٣٠ _١٤٤ ، ١٤٦_١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٧_١٦١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩_٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ _٤١١ ، ٤٣٦_٤٤٣ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠_٤٧٤
سوريا ، جنوبها ١٥ ، ٨٢
سوريا ، شرقها ٤٦١ ، ٤٧٣
سوريا ، شمالها ١٤ ، ٣٤ ، ٤٧٣
سوريا ، غربها ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٤٧٣
السويداء ، مركز اداري لجبل الدروز ٣٩١

السويس ٤٥ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ، ٢٧٢ ، ٤٥٢
السويس ، قنــاة ٤٥ ، ١٤٧ ، ١٧٣ ، ١٨٦ـ١٩١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ـ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٣٧٦ ، ٤١٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٧٠
سيدان ٣٢٠
سيدي فرج ٢٠٤
سيلان ٢٧٣
سينـــاء ، شبه جزيرة ٢٧٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩
سيناء ، صحراء ٤٤٦
شاطئ القرصنة ، انظــر شاطئ الهدنة
شاطئ الهدنة ٩٨ ، ١١١ ، ٤٢٠
الشاوية ، منطقة ٣٥٦
شبرا خيت ٤٨
الشرق ٦٢ ، ٧٦ ، ١٣٨ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢٤٢
الشرق الادنى ٣٣ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ١٣٨ ، ٢٣٣ ، ٢٧٥ ، ٤٥١
الشرق الاقصى ٣٥٣
الشرق الاوسط ٢٧٦
الشرق العربي ١٠٢ ، ١٥٧ ، ٤٧٣
شرقـــي الاردن ١٤٤ ، ٤٣٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٣
شرقـــي البحـــر الابيض المتوسط ١١٦ ، ١١٩ ، ١٣٧ ، ٢٢١
شط العرب ١٧١ ، ٤٢٠ ، ٤٥٢
شقرا ١٠٦
شلال النيل الثالث ١١٣
شمــــــر ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ٤١٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩
الشوف ١٥ ، ١٥٥
شيخ عثمان ١٨٢
الصالحية ٣٩
الصحراء ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٣٢٧
الصحراء الجزائرية ٢٤١
صحراء سيناء ، انظر سينـــاء ، صحراء
الصحراء الليبية ٥٢
صربيا ٢٦ ، ٣٢ ، ٦١ ، ١٤٧ ، ٣٧٧ ، ٤٣٧
الصعيد ، انظر الوجه القبلي
صفاقس ٣٣٣
صفد ١٥ ، ٣٨ ، ٧٧
الصفراء ١٠٤
صنعـــاء ١٠٧ ، ١١٠ ، ٤٣١ـ٤٣٣
صور ، مدينة في سوريا ٤٠ ، ١٣٢
صور ، موضع في عمان ٤١٨
الصومال ٢٩٨
الصويرة (موغادور) ٢١١ ، ٣٤٧ ، ٣٥٩
صيــدا ١٥ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٨٢ ، ١٣٣ ، ١٥٣ ، ١٦٣

الصين ٢٩٠
طابور ، جبل ٧٧
الطائف ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٤٥٦
طبرق ٣٦٨
طرابلس (في لبنان) ٤٠ ، ١٣٣ ، ٣٩١ ، ٤٧٣
طرابلس الغرب (في ليبيا) ٧ ، ٨ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ١٢٥ ، ٢٢٠ ، ٣٤٩ ، ٣٦٤-٣٧٢ وانظر ايضا ليبيا
طربزون ٢٠
طرة ، قرية في مصر ٦٧
طرهونة ٣٧٢
طنجة ٢١١ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢
طنطا ١٩٤ ، ٢٩١
طهران ١٧٣
طوروس ، جبال ٣٩٠
طولون ٤٥
طيسفون (طاق كسرى) ٤٥١
العارض ، اقليم مركزي في نجد ٤٢٥
العاصي ، نهر ، (اورنتس) ٧٨ ، ١٣٧
العثمانية ، الامبراطورية ، انظر تركيا
عدن ١١٠ ، ١٧٧ ، ١٨٠-١٨٢ ، ٤١٥-٤١٧ ، ٤٥٣-٤٥٥
عدوة (عدوى) ٢٩٨ ، ٣٠٩
العراق ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٧٦ ، ٧٨-٨٠ ، ٨٨-٩١ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣١ ، ١٥٠ ، ١٦٩-١٧٥ ، ١٧٩ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨-٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٢١ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٣ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٧٠-٤٧٣
العراق ، وسطه ٤٦٢
العراق ، جنوبه ٧ ، ٤٢ ، ٤٥١ ، ٤٦٢
العراق ، شماله ٧ ، ٤٧٠
العرائش ٣٥٩
العربي ، البحر ١٠٩
العربي ، الخليج ٨ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧٦-١٨٠ ، ٤١٩ ، ٤٢٠-٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩
العربية ، شبه الجزيرة ، انظر الجزيرة العربية
العريش ٥٢ ، ٥٣
عزريلون ، سهل ، (مرج ابن عامر) ٧٨
عسير ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٧٣
عطبرة ، نهر ١١٣

العقبة ٤٥٩ ، ٤٦٨
عكا ٢٦ ، ٣٨-٤٠ ، ٥٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٢٧ ، ١٤٣ ، ٤٦٢
عكا ، خليج ٥٢
عكا ، باشوية ١٤١
عمّان ٤٧٢
عمان ٨ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠-١٨٢ ، ٤١٥ ، ٤١٧-٤١٩
عمان ، مشيخـات ، انظر شاطئ الهدنة
عمان ، الغربية ١١١ ، ١٧٨
عنابة ، انظر بونة
عنيزة ١٠٦ ، ١٧٨ ، ٤٢٥
عين دارة ٣٧
العيينة ٩٥
غاليوبولي ، شبه جزيرة ٤٤٧
غربي البحر الابيض المتوسط ٢٢١
غزة ٥٢ ، ١٢٧ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٦
الغوطة ٤٧١
غوليت ، انظر فم الواد
الفاتيكان ٣٦ ، ١٥٧
فازوغلي ١١٣-١١٥
فاس ٢٢ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥
فاشودة (كدق) ١١٥ ، ٢٨٩ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٤١٩
فان ، بحيرة ٤٦٢
الفرات ٤١ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٣٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ٣٩٠ ، ٤٢١ ، ٤٦٣ ، ٤٧١
فرنســا ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٣-٤٦ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٧-١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٣-١٦٥ ، ١٨١-١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠١-٢١٠ ، ٢١٢-٢١٤ ، ٢٢١-٢٢٦ ، ٢٣١-٢٣٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦-٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤-٢٨٠ ، ٣٠٨-٣١١ ، ٣١٣-٣٢١ ، ٣٢٤-٣٣٦ ، ٣٤٤-٣٥٨ ، ٣٥٩-٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٨٢-٣٨٨ ، ٤٠٢-٤٠٥ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٣٦-٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠-٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩
فزان ٣٦٤ ، ٣٧٢
فكتوريا نيانزا ، بحيرة ٢٩٨
فلاكيا ٦٣
فلسطين ٧ ، ١٥ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٢٤-١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٠-١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

٢٧٨ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ،
٣٩٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٣٧ ،
٤٣٩ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥١ ،
٤٥٣ـ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ،
٤٦٤ـ٤٧٢
فلسطين ، جنوبها ١٥ ، ٤٧٠
فلسطين ، شرقها ٨٠
فلورنسا ٣٦
فم الواد (غوليت) ٢٢١ ، ٢٢٣ ،
٣٣٠
الفولغا ٣٨٢
فيليبفيل ٣٢٥
الفيوم ١٧
فيينا ٣٦٧
قابس ٣٣٣
قارص ٣٨٧
القالة ٢٠٤ ، ٣٢٥
القاهرة ٢٠ـ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٩ ،
٤٥ ، ٤٩ـ٦٩ ، ٧١ ، ٧٨ ،
١٠٩ ، ١٨٥ ، ١٩٣ـ١٩٦ ،
٢٣٣ـ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ،
٢٥٤ـ٢٦٠ ، ٢٦٤ـ٢٦٦ ،
٢٦٩ـ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٨ ،
٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ،
٣٦٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤٣٤ ،
٤٤١ ، ٤٥٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ،
٤٧٠
القبائل ، بلاد ٢٠٨ ، ٢١٤
قبرص ١١٩ ، ٣٣١ ، ٣٨٥ ،
٣٨٧
القدس ٢٦ ، ٨٨ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ،
١٤٤ ، ١٥٨ ، ٣٨٧ ، ٤٦٦
القدس ، سنجق ١٥٣
القرم ٣٢
القرنة ٤٥١
قسنطينة ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٣٢٥
القسطنطينية (استانبول) ٧ ، ٢٠ ،
٢٦ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٦٣ ،
٧٩ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠٥ ،
١٠٦ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٥١ ،
١٥٤ ، ١٧٣ ، ١٨٤ ، ٢٣٣ ،
٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ،
٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٣٧٧ ،
٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ـ٤٠٠ ،
٤٠٢ـ٤٠٤ ، ٤١١ ، ٤١٤ ،
٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٣٤ ،
٤٤٥ ، ٤٦٢
القصر الصغير ، بلدة ٣٥٩
القصيم ١٠٥ـ١٠٨ ، ١٧٦ـ
١٧٨ ، ٤٢٥ـ٤٢٧
قطر ١٧٨ ، ١٨١ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤
القطيف ١٠٩ ، ١١٠
قفصة ٣٣٣
القفقاس ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٤٣٨ ،
٤٥٩ ، ٤٦١
القنطرة ٤٥٢
قولة ، انظر كافالة
قونية ١٢٨ ، ١٨٤ ، ٣٨٨
القيروان ٣٣٣
كاباردا ٣٢

الكاظمية (الكاظمين) ١٧٣
كافالة (قولة) ٥٩
كاليدونيا الجديدة ٣٢٢
كتزفون انظر طيسفون (طاق كسرى)
كدق ، انظر فاشودة
كربلاء ٨٠ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ٤٤٠
كرتش ٣٢
كردستان ، ٩٠ ، ١٧٠ ، ٢٨١ ، ٤٠٦
كردستان ، شمالها ٤٦٢
كردستان العراق ٩٠
كردفان ١١٣-١١٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠١-٣٠٣ ، ٣٠٧-٣١٠ ، ٣١٢
كركوك ٩٠
كرلوفيا (كرلوفتز) ٣٢
كرمانشاه ٨٣
كرن ، مدينة في اثيوبيا ٢٩٨
كريت ٧٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٨١
كسروان ١٥ ، ٨٤ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥
كسلا ١١٥ ، ٣٠٩
كفر الدوار ٢٧١ ، ٢٧٣
الكفرة ، واحة ٣٦٥
كنديا ، انظر كريت
كوبان ، نهر ٣٢
كوت العمارة ٤٥١ ، ٤٦٣
كوتاهية ١٢٩
كوجوك قينرجي ٣٢
كورون ١٢٠
كولومب بشار ، واحة ٣٤٨
الكونغو ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣٦١
الكونغو الفرنسية ٣٦٠
الكويت ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٧٤ ، ٤٢١-٤٢٧
كيليكيا ٧٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ، ٤٣٦ ، ٤٥٦ ، ٤٦١
كينبورن ٣٢
لادو ٣٠٩
اللاذقية ١٤٣ ، ١٦٢ ، ٤٧٤
اللاذقية ، امارة ١٥
لالا مرنية ٣٤٧
لبنان ١٤-١٦ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٥-٣٧ ، ٤١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٠-١٤٣ ، ١٤٦-١٤٩ ، ١٥٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨-٤١١ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧٣
لبنان ، وسطه ١٦٢
لبنان ، جبل ١٦٥ ، ١٦٦
لبنان ، جنوبه ١٥٤-١٥٦ ، ١٦٣
لبنان ، شماله ٧٧ ، ٨٥ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ٤٤٠
اللبنانية ، الامارة ١٥٣-١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٥-١٦٨

اللجا ، منطقة ١٣٥ ، ١٣٦
لحج ١١٠ ، ١٨٢ ، ٤١٦
لندن ٥٨ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٧٣ ، ٢٣٨ ، ٢٧٩ ، ٣٤٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٤٥٥
اللورين ٤٤٧
لوزان ٣٧١
ليبيا ٣٦٤ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٤٣٧
ليبيا ، شرقها ٣٧٣
ليبيا ، غربها ٣٧٣
الليفانت (الشرق الاوسط) ٤٦٤
ليفورنو ٦٨ ، ١١٦
ليمنوس ، جزيرة ٤٧٣
ليون ٣٨٩
ما بين النهرين (الجزيرة) ٨٨ ، ١٣٣ ، ٣٩٠ ، ٤٢٨ ، ٤٤٧ ، ٤٥٥ ، ٤٦١ ، ٤٦٣
مالطة ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ١٤٣ ، ٢٢١ ، ٤٤٤
ما وراء القفقاس ٣٥
مايون ، انظر بريم
متز ٣١٧ ، ٣٢٠
المتن ١٥
متيجة ، سهل ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٨
المجر ٣٢
المحمرة (خرم شهر) ١٧١
مخا ١١٠
مدريد ٣٤٦ ، ٣٦٣
مدون ، بلدة في اليونان ١٢٠
المدينة ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٧٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧
مراكش ، بلاد ٨ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢٧٦ ، ٢٩٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٦٦ ، ٤٣٧
مراكش ، مدينة ٢٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣
مراكش ، شرقها ٣٥٥
مراكش ، شمالها ٣٥٠
مرج ابن عامر ، انظر عزريلون ، سهل
مرجان ، منطقة في الجزائر ٣٢١
مرزوق ٣٧٢
المرسى ٣٣٣ ، ٣٣٤
مرسيليا ٦٨ ، ١١٦ ، ١٩٢
مرعش ١٣٩
مرمرة ، بحر ٦٣
مستغانم ٢٠٥ ، ٣٦٥
مسقط ٩٤ ، ٩٨ ، ١١١ ، ١٨١ ، ٤١٧–٤١٩
مصر ٧–٩ ، ١٢–١٤ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٧–٤٠ ، ٤٣–٤٨ ، ٥١ ، ٥٧–٨٢ ، ٩١ ، ١٠٥–١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٩–١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨–١٣٢ ، ١٣٥– ١٤٩ ، ١٧٢ ، ١٨٣–٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٢٤–٢٣٦ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠–٢٥٢ ، ٢٥٤–
٢٦١ ، ٢٦٣–٢٧١ ، ٢٧٣ ،
٢٧٤–٣٠٠ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ،
٣١٢ ، ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٣٦٤–
٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤–
٣٧٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٣ ، ٤٠٣ ،
٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٣٥ ،
٤٣٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٥٢
مصراتة ٣٧٠
مصوع ، ميناء في اريتريا ٢٩٨
المضائق ٣٢ ، ٣٣ (وانظر ايضا البوسفور والدردنيل)
معان ٨٠ ، ٤٥٢ ، ٤٧١
المغـــرب ، بلاد ١٢٥ ، ٢٠٢ ، ٣٣٦
مكـــة ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٧٦– ١٧٩ ، ٢٠٦ ، ٢٨٨ ، ٣٦٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨
مكدونيا ٣٨١ ، ٣٩٦
المكلا ٤١٧ ، ٤١٩
مكناس ٣٥٩
مليدة ٤٢٥
مليلة ٣٤٧ ، ٣٥٦
مناخة ٤٣١
مناستر (بيتولج) ٣٩٦
المنوفية ٧٢
مودروس ، ميـــناء في جـــزيرة ليمنوس ٤٧٣
مورة (البيلوبونيــز) ٣٢ ، ٦٧ ، ١١٦–١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥
الموصل ، مدينة ٧ ، ٢٢ ، ٩٠ ، ١٧٣ ، ٤١٢ ، ٤٤٠ ، ٤٦٢
الموصل ، ولاية ٢٦
موغادور ، انظر الصويرة
مولدافيا ٦٣
مونخنغراتز ١٣٠
ميسولونغي ، حصن ١٢٠
نابلس ٨٨ ، ١٤٣ ، ٤٠٩ ، ٤٧٢
نابلس ، منطقة ١٣٣
نجــد ٩٣ ، ٩٥–١٠٠ ، ١٠٥– ١١١ ، ١٣٧ ، ١٧٦–١٧٩ ، ٤١٥ ، ٤٢٥–٤٢٧
النجف ٨٠ ، ٩٠ ، ٤٤٠
نروج ٣٤٦
نزوى ٤١٩
نصيبين ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٨ ، ١٧٠ ، ١٨٤
نفارين ١٢٠–١٢٢ ، ١٢٦
النمسا ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٣٤٥ ، ٣٦٦ ، ٣٨١
النمســا – المجــر ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٥٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠٣
النوبة ، شمالها ١١٤
نيجريا ٢٩٧

النيـــل ١٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٥ ،
٥٧ ، ٦٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
١١٥ ، ١١٦ ، ١٤٥ ، ١٨٧ ،
١٩٣ ، ٢٣٧ ، ٢٧٢ ، ٢٩٦ ،
٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨ ، ٣٠٩
النيـــل الابيـــض ١١٤ ، ١١٥ ،
٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩
النيل الازرق ١١٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٨
نينوى ٣٩٠
هرر ، منطقة في اثيوبيا ٢٩٨
الهرسك ٣٣١ ، ٣٧٧
هرية رزنة ٢٤١
الهفوف ٩٤ ، ١١١
هليوبوليس ٥٣
الهند ٨ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٧٦–٧٩ ،
١٠٩ ، ١٣٣ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
١٨١ ، ١٨٥ ، ٢٣٦ ، ٣٨٥ ،
٤١٦ ، ٤٢١
الهند البريطانية ٣٨٢ ، ٤٢١ ،
٤٦٣
الهندي ، المحيط ١٧٧ ، ٣٠٩
هنكار اسكلسي ١٢٩
هولندا ٢٧٧ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣
وادي حلفا ٣٠٨
وادي الدواسر ٤٢٧
وارقلة ٣٢٢
وجدة ، مدينة ٣٥٥ ، ٣٥٧
الوجه البحري ١٣ ، ٢٤٢ ، ٢٦١ ،
٢٨٢
الوجـه القبلي ١٣ ، ٣٩ ، ٥٠ ،
٥٢ ، ٥٩ ، ٦١–٦٦ ، ٧٢
الوشم ٤٢٧
الولايات المتحدة الامريكية ١٨٨ ،
١٩١ ، ٢٠٣ ، ٣١٤ ، ٣٤٦ ،
٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٤٠٣
وهران ٢٠٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٥
يافا ٣٨ ، ٥٢ ، ١٢٧ ، ١٥٨ ،
٤٦٦
اليمن ٧ ، ٨ ، ٢٦ ، ٩٣–٩٥ ،
١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ .
١٧٤ ، ١٧٦ ، ٤٠٦ ، ٤١٥ ،
٤١٧ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠–٤٣٣ ،
٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٧٣
ينبع ، ميناء ١٠٤ ، ٤٥٦
اليونان ٣٤ ، ٦٢ ، ١١٦–١١٩ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٤٧
ييني قلعة ٣٢

محتويات

ص

مقدمة ٣

الفصل الاول . الاقطار العربية منذ القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر ٧

الفتح العثماني للاقطار العربية . ــ النظام الاجتماعي في الاقطار العربية . النظام الاقطاعي العثماني . ــ المدينة العربية خلال الحكم العثماني . ــ نظام الدولة . ــ تفسخ النظام الاقطاعي العثماني . ــ تدهور النفوذ الخارجي للدولة العثمانية . ــ الحركات الشعبية وكفاح الشعوب العربية التحرري .

الفصل الثاني . الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ــ١٨٠١) ٤٣

اسباب الحملة . ــ بدء الحملة . ــ الدفاع عن القاهرة ــ الانتفاضة ضد المحتلين . ــ الحملة السورية . ــ اخفاق الحملة . ــ نتائج الحملة .

الفصل الثالث . مصر تحت حكم محمد علي ٥٧

الاحتلال الانكليزي (١٨٠١ــ١٨٠٣) . ــ الحرب بين الاتراك والمماليك (١٨٠٢ــ١٨٠٤) . ــ انتفاضة سكان القاهرة (١٨٠٤ــ١٨٠٥) وتسنم محمد علي الحكم . ــ الحرب الانكليزية التركية عام ١٨٠٧ . الحملة الانكليزية على مصر . ــ الاصلاح الزراعي ١٨٠٨ــ١٨١٥ . استئصال المماليك . ــ اصلاحات محمد علي العسكرية . ــ تطوير الصناعة والزراعة . الاحتكارات . ــ حالة العمال والفلاحين . ــ اعادة تنظيم جهاز الدولة . ــ الاصلاحات الثقافية . ــ السمة العامة لاصلاحات محمدعلي .

الفصل الرابع . فلسطين وسوريا والعراق في بداية القرن التاسع عشر ٧٦

فشل الخطط الفرنسية في سوريا . ــ الصراع الانكليزي الفرنسي من اجل العراق . ــ الغارات الوهابية . ــ اتساع الفوضى الاقطاعية . ــ اصلاحات بشير الثاني في لبنان . ــ عبد الله باشا و «اصلاحاته» . انتفاضة عام ١٨٢٠ في لبنان ــ ابادة الاشراف الدروز . ــ اصلاحات محمود الثاني والقلاقل في سوريا وفلسطين . ــ اصلاحات داود باشا في العراق (١٨١٧ــ١٨٣١) .

الفصل الخامس . الوهابيون واقطار الجزيرة العربية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ٩٢

الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر . ــ التعاليم الوهابية . ــ توحيد نجد . ــ نضال الوهابيين من اجل الخليج العربي . ــ الكفاح الوهابي من اجل الحجاز . ــ كفاح الوهابيين من اجل سوريا والعراق .

الفصل السادس . استيلاء المصريين على الجزيرة العربية . . . ١٠٢

بداية الحرب ضد الوهابيين . ــ محمد على في الجزيرة العربية (١٨١٣ــ١٨١٥) . ــ حملة ابراهيم والقضاء على الدولة الوهابية . ــ الانتفاضات الوهابية (١٨٢٠ــ١٨٤٠) . ــ التوسع الانكليزي في جنوب الجزيرة العربية وفي الخليج العربي

الفصل السابع . فتح شرقي السودان من قبل محمد علي . حملة مورة ١١٣
فتح السودان . ــ انتفاضة اليونانيين . ــ محمود الثاني يطلب معونة محمدعلي . ــ الحرب في مورة . ــ تدخل الدول الكبرى . ــ نفارين . جلاء المصريين عن مورة .

الفصل الثامن . صراع محمد علي من اجل سوريا وفلسطين . هزيمة مصر ١٢٤

النزاع مع الباب العالي . ــ الحملة السورية الاولى (١٨٣١ــ١٨٣٣) . ــ نتائج الحرب . معاهدة هنكار اسكلسي . ــ اصلاحات ابراهيم في سوريا وفلسطين (١٨٣٢ــ١٨٤٠) . ــ الاستياء في البلاد . انتفاضات ضد التجنيد . ــ مسالة الاستقلال . خلاف جديد مع الباب العالي . ــ الحملة السورية الثانية . ــ تدخل الدول الكبرى . ــ استسلام محمد علي .

الفصل التاسع . لبنان وسوريا وفلسطين في عهد التنظيمات (١٨٤٠ــ١٨٧٠) ١٤٦

جرالبلدان العربية الى السوق الرأسمالية العالمية . ــ بيان قصر الكلخانة السلطاني (خط شريف) . ــ الاصلاحات في الفترة الاولى من التنظيمات . ــ الاصلاحات في سوريا وفلسطين . ــ تصفية الامارة اللبنانية . ــ المذبحة بين الدروز والموارنة ١٨٤٥ . ــ نشاط المبشرين . الخطط الانكليزية الرامية الى الاستعمار

اليهودي في فلسطين . ـ «خط همايون» عام ١٨٥٦ ، الفترة الثانيــة من التنظيمات . ـ الانتفاضة الفلاحيــة في كسروان (١٨٥٩ـ١٨٦٠) . ـ المذبحة المارونية ـ الدرزية ١٨٦٠ . ـ الحملــة الفرنسيــة ١٨٦٠ـ١٨٦١ . ـ «النظــام الاساسي للبنان» . ـ الحركة التثقيفية في الستينيات . بطرس البستاني .

الفصل العاشر . العراق بين ١٨٣١ـ١٨٧١ . التنظيمات . . . ١٦٩

الوضع الاقتصادي في العراق خلال الثلاثينيات والاربعينيات من القرن التاسع عشر . ـ انتفاضة الاكراد والحروب القبيلية . ـ التنظيمات في العراق . ـ تطور التجارة وطرق المواصلات . ـ مدحت باشا في العراق .

الفصل الحادي عشر . اقاليم الجزيرة العربية بين ١٨٤٠ـ١٨٧٠ ١٧٦

الجزيرة العربية بعد عــام ١٨٤٠ . ـ نجد الوهابية . ـ نمو امارة شمر . ـ المستعمرات الانكليزيــة في الجزيرة العربيــة (١٨٤٠ـ١٨٧٠) .

الفصل الثاني عشر . مصر في منتصف القرن التاسع عشر (١٨٤١ـ ١٨٧٦) ١٨٣

مصر بعد استسلام عام ١٨٤٠ . ـ عباس باشــــا (١٨٤٩ـ ١٨٥٤) . ـ شق قناةالسويس . ـ تطور مصر الاقتصــادي في اواسط القرن التاسع عشر . ـ اصلاحــات سعيد واسماعيل .

الفصل الثالث عشر . استيلاء فرنسا على الجزائر والحرب التحررية للشعب الجزائرى بقيادة عبد القادر ٢٠١

الجزائر عشية الفتح الفرنسي . ـ استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر . ـ الحرب التحررية . عبد القادر . ـ الاستيلاء على قسنطينة . حرب جديدة مع عبد القادر . ـ الحرب الفرنسية ـ المراكشية ١٨٤٤ . ـ بداية الاستعمار . انتفاضة ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ . ـ انتفاضات شعبيــــة في الخمسينيات . ـ الجزائر تحت سلطة البرجوازية الفرنسية .

الفصل الرابع عشر . الاستعباد المالي لتونس وتحويلها الى شبه مستعمــرة ٢٢٠

الصراع الانكليزي ـ الفرنسي من اجل تونس . ـ الاصلاحات في تونس . ـ الاستعباد المالي لتونس .

الفصل الخامس عشر . الاستعباد المالي لمصر ٢٢٧

القروض الخارجية . ــ قرضا «المقابلة» و «الروزنامة» . ــ ابتياع انكلترا لاسهم قناة السويس . ــ افلاس مصر المالي . ــ المراقبة الثنائية . ــ تكوين «الوزارة الاوربية» .

الفصل السادس عشر . الحركة الوطنية التحررية في مصر في اعوام ١٨٧٩ ــ ١٨٨١ . . . . ٢٤٠

اشتداد الاتجاهات المعارضة . ــ المظاهرة العسكرية في ١٨ شباط (فبرائر) ١٨٧٩ . ــ خطة ولسن المالية . ــ اقالة «الوزارة الاوربية» . ــ خلع اسماعيل واقالة شريف . ــ وزارة رياض . عهد الرجعية . ــ تقدم العسكريين . ــ نضال الوطنيين ضد وزارة رياض باشا .

الفصل السابع عشر . انتفاضة عرابي باشا ٢٥٤

انقلاب ايلول (سبتمبر) ١٨٨١ . ــ نضال الوطنيين ضد شريف باشا . ــ حكومة محمود سامي ــ عرابي (من شباط ـ فبراير حتى ايار ـ مايو ١٨٨٢) . ــ الخلاف بين الحكومة والخديوي . ــ بعثة درويش . ــ الاضطرابات في الاسكندرية . ــ مؤتمر القسطنطينية . ــ قصف الاسكندرية . ــ الحرب الانكلو ـ مصرية ١٨٨٢ . ــ انتصار الرجعية .

الفصل الثامن عشر . مصر تحت حكم الانكليز . (١٨٨٢ ــ ١٩١٤) ٢٧٤

قضية مواعيد الاحتلال الانكليزي . ــ نظام قناة السويس . ــ قضية المالية المصرية . ــ سياسة انكلترا الاقتصادية في مصر . ــ نظام الدولة في مصر خلال الاعوام ١٨٨٢ ــ ١٩١٤ . ــ الحركة الوطنية . محمد عبده . عبد الرحمن الكواكبي . مصطفى كامل . حادث دنشواى (١٣ حزيران ــ يونيو ١٩٠٦) . ــ الحركة الوطنية في عام ١٩٠٧ ــ ١٩٠٨ . نشوب الاحزاب السياسية والنقابات . ــ المرحلة الرجعية للسنوات ١٩٠٩ ــ ١٩١٤

الفصل التاسع عشر . الدولة المهدية في شرقي السودان . . . ٢٩٦

تغلغل الاوربيين في شرقي السودان . ــ ثورة المهديين . ــ الكيان الداخلي للدولة المهدية . ــ صراع الدول ضد الدولة المهدية . ــ فاشودة . ــ تأسيس الحكم الثنائي الانكلو ــ مصرى .

الفصل العشرون . الجزائـــر في غضون الاعـــوام ١٨٧٠ـ١٩١٤ ٣١٣

المعارضة الجمهوريـــة في الجزائر .ــ الكمونة الجزائرية .ــ الثورة الوطنيـــة التحررية لعام ١٨٧١ .ــ الجزائر تحت نير الامبريالية الفرنسية .ــ مطاليب العرب الجزائريين .

الفصل الواحد والعشرون . استيلاء الامبريالية الفرنسية على تونس ٣٣٠

مطامع ايطاليا .ــ التهيؤ للاستيلاء على تونس .ــ اقرار الحماية الفرنسية .ــ ايطاليـــا والحماية الفرنسية .ــ تونس تحت نير الامبريالية الفرنسية .ــ الحركـــة الوطنية التحررية . حزب «تونس الفتاة» .

الفصل الثاني والعشرون . استيلاء فرنسا على مراكش ٣٤٤

نظام الامتيازات .ــ اغتصاب الاراضي .ــ اتفاقية فرنسا مع ايطاليا في ١٩٠٠ ، ومع انكلترا في ١٩٠٤ ، ومع اسبانيا في ١٩٠٤ .ــ قرض عام ١٩٠٤ وبعثة تالانديبه .ــ خلاف طنجة عام ١٩٠٥ .ــ مؤتمر الجزيرة الخضراء (الجزيراس) ١٩٠٦ . ــ الاحتلال الفرنسي والاسباني (١٩٠٧ــ١٩٠٨) . انتفاضة عام ١٩٠٧ .ــ خلاف بالدار البيضاء ١٩٠٨ والمعاهدة الفرنسية الالمانيـــة ١٩٠٩ .ــ اعتراف الدول بمولاي عبد الحفيظ .ــ احتلال فاس وازمة اغادير .ــ اتفاقية الحماية .

الفصل الثالث والعشرون . استيلاء الايطاليين على ليبيا . . . ٣٦٤

التهيؤ الدبلوماسي للفتح .ــ الحرب الايطالية-التركية ١٩١١ .ــ صلح لوزان عام ١٩١٢ .ــ حرب ايطاليا ضد القبائل العربية .

الفصل الرابع والعشرون . سوريا وفلسطين والعراق في نهاية القرن التاســـع عشر ٣٧٤

الاستعباد المالي لتركيـــا .ــ انقلاب العثمانيين الجدد ودستور عام ١٨٧٦ .ــ عهد الظلم (١٨٧٨ــ١٩٠٨) .ــ مرسوم شهر محرم .ــ تغلغل المانيا .ــ مواقف انكلترا وفرنسا في الاقاليم العربية التابعة لتركيا .ــ نضال جماهير الشعوب العربية ضد الظلم .

الفصل الخامس والعشرون . ثورة تركيا الفتاة والاقطار العربية ٣٩٤

ثورة عام ١٩٠٨ في تركيا . ـ العرب وثورة تركيا الفتاة . ـ «الاخاء العربي-العثماني» . ـ الوفد العربي الى البرلمان . السياسة القومية لجمعية «تركيا الفتاة» . ـ «المنتدى الادبي» والجمعية «القحطانية» . ـ «الجمعية العربية الفتاة» . ـ مطامع فرنسا في سوريا ولبنان . ـ حزب اللامركزية . ـ الجمعيات الاصلاحية العراقية والسورية . ـ المؤتمر العربي الاول . ـ جمعية «العهد» . السير نحو الثورة العربية .

الفصل السادس والعشرون . الجزيرة العربية خلال الاعوام ١٨٧٠ ـ ١٩١٤ . . . . ٤١٥

استعراض عام . ـ عدن وحضرموت . ـ عمان . ـ الممتلكات الانكليزية في الخليج العربي . ـ خلاف الكويت . ـ كفاح آل رشيد ضد آل سعود . بعث الدولة الوهابية . ـ سياسة ابن سعود الخارجية والداخلية . ـ انتفاضات في اليمن وعسير . ـ الحجاز .

الفصل السابع والعشرون . الاقطار العربية خلال الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ـ١٩١٨ . . . . ٤٣٦

موقف الاقطار العربية خلال الحرب العالمية الاولى . ـ الوضع الاقتصادي والسياسي في الولايات العربية التابعة لتركيا . ـ موقف القوميين العرب من الحرب . ـ فرض الحماية الانكليزية على مصر . ـ الحرب والاقتصاد المصري . ـ الحركة الوطنية التحررية في مصر في سنوات الحرب . ـ سير العمليات الحربية خلال الاعوام ١٩١٤ـ١٩١٦ . ـ التهيؤ للثورة العربية في الحجاز . ـ ثورة عام ١٩١٦ في الحجاز . ـ المفاوضات السرية حول اقتسام البلدان العربية . ـ احتلال العراق . التناقضات الانكلو-فرنسية في الشرق الادنى . ـ هجوم عام ١٩١٧ في فلسطين . بيان («وعد») بلفور . ـ فضح المعاهدات السرية . ـ انهيار تركيا العسكري والاحتلال الانكلو-فرنسي للاقطار العربية .

دليل الاسماء ٤٧٥

دليل الاسماء الجغرافية ٤٨٩

طبع على مطابع « امبريمتو » بيروت – لبنان

